بسم الله الرحمن الرحيم

(قال الشيخ الإمام الأوحد ، البارع الحافظ المتقن ، عماد الدين أبو الفداء : إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عمر بن كثير ، الشافعي ، رحمه الله تعالى ورضي عنه)

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال ﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾ وقال تعالى : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأساً شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسناً ماكثين فيه أبدا * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) واختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) ولهذا قال تعالى (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) كما قال تعالى (الحمد لله الذي له مافي السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير) فله الحمد في الأولى والآخرة أي في جميع ما خلق وما هو خالق ، هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد » ولهذا يلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس أي يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم ، لما يرون من عظيم نعمه عليهم ، وكمال قدرته وعظيم سلطانه وتوالي مننه ودوام إحسانه اليهم كما قال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

والحمد لله الذي أرسل رسله (مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل ، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى (قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) وقال تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان فهو نذير له ، ولهذا قال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله تعالى كما قال تعالى (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بعثت إلى الأحمر والأسود» قال مجاهد يعني الإنس والجن . فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن مبلغا لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى فهمه فقال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) وقال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

(فالواجب) على العلماء الكشف عن معانى كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس مايشترون) وقال تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولايكلمهم الله ولاينظر اليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم) فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهى عما ذمهم الله تعالى به ، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهمه وتفهيمه ، قال الله تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى ، والله المؤمل المسئول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم .

فان قال قائل فما أحسن طرق التفسير ؟ (فالجواب) أن أصح الطريق فى ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل فى مكان فانه قد بسط فى موضع آخر فان أعياك ذلك فعليك بالسنة فانها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله تعالى كل ماحكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن . قال الله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيما) وقال تعالى (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون) ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه » يعنى السنة . والسنة أيضا تنزل عليه بالوحى كما ينزل القرآن إلا أنها لاتتلى كما يتلى القرآن وقد استدل الإمام الشافعى رحمه الله تعالى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرةليس هذا موضع ذلك .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله صلى الله عليه سلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « فبم تحكم ؟ قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله ، قال فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى . فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » وهذا الحديث فى المسند والسنن بإسناد جيد كما هو مقرر فى موضعه . وحينئذ إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح حدثنا الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال قال عبد الله يعنى ابن مسعود : والذى لا إله غيره مانزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت . وأين نزلت . ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تناله المطايالأتيته وقال الأعمش أيضاً عن أبى وائل عن ابن مسعودقال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن وقال أبو عبد الرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا .

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له حيث قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار وحدثنا وكيع حدثنا سفيان عن الأعمش عن مسلم — كذا قال — قال عبد الله يعنى ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس ثم رواه عن يحيى بن داود عن إسحق الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن أبى الضحى عن مسروق عن

ابن مسعود أنه قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عباس . ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك. فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة . وقد مات ابن مسعود رضى الله عنه فى سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح وعمر بعده عبد الله بن عباس ستا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود وقال الأعمش عن أبى وائل استخلف علىّ عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ فى خطبته سورة البقرة وفى رواية سورة النور ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالب مايرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير فى تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس ولكن فى بعض الأحيان ينقل عنهم مايحكونه من أقاويل أهل الكتاب التى أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى اسرائيل ولاحرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو ولهذا كان عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن فى ذلك .

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فانها على ثلاثة أقسام (أحدها) ماعلمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح (والثانى) ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه (والثالث) ماهو مسكوت عنه لامن هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لافائدة فيه تعود إلى أمر دينى . ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى هذا كثيرا . ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف . ولون كلبهم ، وعددهم . وعصا موسى من أى الشجر كانت . وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن مما لافائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دينهم ولادنياهم . ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز كما قال تعالى (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل * فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا) فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا ، فانه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث ، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فقال فى مثل هذا (قل ربى أعلم بعدتهم) فانه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه فلهذا قال (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى لاتجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك فانهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب . فهذا أحسن مايكون فى حكاية الخلاف : أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم فالأهم . فأما من حكى خلافا فى مسئلة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه ، أو يحكى الخلاف ويطلقه ولاينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً ، فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب ، أو جاهلا فقد أخطأ ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أوحكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبى زور ، والله الموفق للصواب

(فصل) إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولاوجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فانه كان آية فى التفسير كما قال محمد بن إسحق ثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها . وقال ابن جرير : أنبأنا أبو كريب أنبأنا طلق بن غنام عن عثمان المكى عن ابن أبى مليكة : قال رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال : فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ولهذا كان سفيان الثورى يقول : إذا

جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيب وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عبارتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافا فيحكيها أقوالا ، وليس كذلك فان منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي . وقال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح . أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فان اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض ولا على من بعدهم ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك . فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه محمد بن جرير رحمه الله تعالى حيث قال : ثنا محمد بن بشار ثنا يحيى بن سعيد ثنا سفيان حدثني عبد الأعلى هو ابن عامر الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار » وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي عوانة عن عبد الأعلى به مرفوعا وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهكذا رواه ابن جرير أيضا عن يحيى بن طلحة اليربوعي عن شريك عن عبد الأعلى به مرفوعا ولكن رواه عن محمد بن حميد عن الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس الملائي عن عبد الأعلى عن سعيد عن ابن عباس فوقفه ، وعن محمد بن حميد عن جرير عن ليث عن بكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس من قوله فالله أعلم ، وقال ابن جرير : أنبأنا العباس بن عبد العظيم العنبري ثنا حيان بن هلال ثنا سهل أخو حزم ثنا أبو عمران الجوني عن جندب أن رسول الله ﷺ قال « من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ » وقد روى هذا الحديث أبو داود والترمذي والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطيعي وقال الترمذي : غريب وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل . وفي لفظ لهم « من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ » أي لأنه قد تكلف مالا علم له به وسلك غير ما أمر به فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ والله أعلم وهكذا سمى الله القذفة كاذبين فقال (فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ولو كان أخبر بما يعلم لأنه تكلف مالا علم له به والله أعلم ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير مالا علم لهم به كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبي معمر قال قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني ، إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم وقال أبو عبيد القاسم بن سلام ثنا محمد بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى (وفاكهة وأبا) فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في كتاب الله مالا أعلم . منقطع . وقال أبو عبيد أيضا ثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبا) فقال هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال إن هذا لهو التكلف ياعمر وقال محمد بن سعد ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ (وفاكهة وأبا) فقال فما الأب ثم قال هو التكلف فما عليك أن لا تدريه ؟ وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب وإلا فكونه نبتا من الأرض ظاهر لا يجهل كقوله تعالى (فأنبتنا فيها حبا وعنبا) الآية وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها ، إسناده صحيح : وقال أبو عبيد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال : سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة ؟ فقال له ابن عباس : فما (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ؟ فقال له الرجل إنما سألتك لتحدثني فقال

ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله فى كتابه الله أعلم بهما ، فكره أن يقول فى كتاب الله مالا يعلم . وقال ابن جرير أيضا : حدثنى يعقوب يعنى ابن إبراهيم حدثنا ابن علية عن مهدى بن ميمون عن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبدالله فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أحرج عليك إن كنت مسلما لما قمت عنى ـ أوقال : أن تجالسنى وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لا نقول فى القرآن شيئا . وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لايتكلم إلا فى العلوم من القرآن وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لاتسألنى عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شىء يعنى عكرمة . وقال ابن شوذب حدثنى يزيد بن أبى يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال وكان أعلم الناس فاذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع . وقال ابن جرير : حدثنى أحمد بن عبدة الضبى حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيدالله بن عمر قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول فى التفسير منهم سالم بن عبدالله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع . وقال أبوعبيد حدثنا عبدالله بن صالح عن ليث عن هشام بن عروة قال ماسمعت أبى يؤول آية من كتاب الله قط . وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائى عن محمد بن سيرين سألت عبيدة يعنى السلمانى عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن . فاتق الله وعليك بالسداد وقال أبو عبيد : حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبدالله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال : إذا حدثت عن الله حديثا فقف حتى تنظر ماقبله ومابعده . حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه . وقال شعبة عن عبدالله بن أبى السفر قال قال الشعبى والله مامن آية إلا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله عز وجل . وقال أبوعبيد حدثنا هشيم حدثنا عمرو بن أبى زائدة عن الشعبى عن مسروق قال اتقوا التفسير فانما هو الرواية عن الله

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم فيه . فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد ، فانه كما يجب السكوت عما لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) ولما جاء فى الحديث الذى روى من طرق « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وأما الحديث الذى رواه أبوجعفر بن جرير حدثنا عباس بن عبدالعظيم حدثنا محمد بن خالد بن عثمة حدثنا أبو جعفر بن محمد الزبيرى حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفسر شيئا من القرآن إلا آيا بعدد علمهن إياه جبريل عليه السلام ، ثم رواه عن أبى بكر محمد بن يزيد الطرسوسى عن معن بن عيسى عن جعفر بن خالد عن هشام به ـ فإنه حديث منكر غريب وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشى الزبيرى قال البخارى : لايتابع فى حديثه وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى : منكر الحديث ، وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه عليها جبرائيل ، وهذا تأويل صحيح لوصح الحديث فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه مايعلمه العلماء ومنه ماتعلمه العرب من لغاتها ، ومنه مالا يعذر أحد فى جهالته كما صرح بذلك ابن عباس فيما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا مؤمل حدثنا سفيان عن أبى الزناد قال : قال ابن عباس التفسير على أربعة أوجه . وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لايعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لايعلمه أحد إلا الله . قال ابن جرير : وقد روى نحوه فى حديث فى إسناده نظر ، حدثنى يونس بن عبد الأعلى الصدفى أنبأنا ابن وهب سمعت عمرو بن الحرث يحدث عن الكلبى عن أبى صالح مولى أم هانىء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنزل القرآن على أربعة أحرف حلال وحرام ـ لايعذر أحد بالجهالة به ، وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لايعلمه إلا الله عز وجل ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب » والنظر الذى أشار اليه فى إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبى فإنه متروك الحديث لكن قد يكون إنما وهم فى رفعه ، ولعله من كلام ابن عباس كما تقدم والله أعلم

(مقدمة مفيدة تذكر فى أول التفسير قبل الفاتحة)

قال أبو بكر بن الانبارى حدثنا إسماعيل بن إسحق القاضى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال نزل فى المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والناقفون والتغابن والطلاق و (يأيها النبي لم تحرم) إلى رأس العشر وإذا زلزلت و (إذا جاء نصر الله) هؤلاء السور نزلت بالمدينة وسائر السور بمكة

فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ثم اختلف فما زاد على ذلك على أقوال : فمنهم من لم يزد على ذلك ومنهم من قال ومائتي آية وأربع آيات ،وقيل وأربع عشرة آية . وقيل ومائتان وتسع عشرة آية وقيل ومائتان وخمس وعشرون آية ، أو ست وعشرون آية ، وقيل ومائتان وست وثلاثون ، حكى ذلك أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان . وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة. وأما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وقال الفضل بن عطاء بن يسار ثلثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا . وقال سلام أبو محمد الحمانى . إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ قال : فحسبنا فأجمعوا أنه ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعمائة وأربعون حرفا قال : فأخبرونى عن نصفه فاذا هو إلى الفاء من قوله فى الكهف (وليتلطف) وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة والثانى على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء ، والثالث إلى آخره ، وسبعه الأول إلى الدال من قوله تعالى (فمنهم من آمن ومنهم من صد) والسبع الثانى إلى التاء من قوله تعالى فى سورة الأعراف (أولئك حبطت) والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى فى الرعد (أكلها) والرابع إلى الألف فى الحج من قوله (جعلنا منسكا) والخامس إلى الهاء من قوله فى الأحزاب (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) والسادس إلى الواو من قوله تعالى فى الفتح (الظانين بالله ظن السوء) والسابع إلى آخر القرآن .قال سلام أبو محمد علمنا ذلك فى أربعة أشهر ، قالوا وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربع القرآن ، فالأول إلى آخر الأنعام والثانى إلى (وليتلطف) من سورة الكهف ، والثالث إلى آخر الزمر ، والرابع إلى آخر القرآن وقد حكى الشيخ أبو عمرو الدانى فى كتابه (البيان) خلافا فى هذا كله فالله أعلم

وأما (التحزيب والتجزئة) فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما فى الربعات بالمدارس وغيرها وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد فى تحزيب الصحابة للقرآن والحديث فى مسند الإمام أحمد وسنن أبى داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا ثلث وخمس وسبع وتسع وأحد عشرة وثلاث عشرة[1] وحزب المفصل حتى تختم

(فصل) واختلف فى معنى السورة مما هى مشتقة فقيل من الإبانة والارتفاع قال النابغة

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

فكان القارىء ينتقل بها من منزلة الى منزلة.وقيل لشرفها وارتفاعها كسور البلدان وقيل سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءا منه مأخوذ من أسآر الإناء وهو البقية .وعلى هذا فيكون أصلها مهموزا . وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واوا لانضمام ما قبلها وقيل لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة (قلت) ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره . وجمع السورة سور بفتح الواو وقد يجمع على سورات وسورات . وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها وانفصالها أى هى بائنة عن أختها ومنفردة قال الله تعالى (إن آية ملكه) وقال النابغة

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

وقيل لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه كما يقال خرج القوم بآيائهم أى بجماعاتهم قال الشاعر :

---

(١) كذا والقاعدة فى المذكر أحد عشر وثلاثة عشر وفى المؤنث إحدى عشرة وثلاث عشرة

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقيل سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها قال سيبويه وأصلها أيية مثل أكمة وشجرة تحركت الياء وانفتح ماقبلها فقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مامدة وقال الكسائي أصلها آيية على وزن آمنة فقلبت ألفا ثم حذفت لالتباسها وقال الفراء أصلها أيية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهية التشديد فصارت آية وجمعها آي وآيات وآياي. وأما الكلمة فهي اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولا ونحو ذلك. وقد تكون أكثر، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل (ليستخلفنهم) و (أنلزمكموها) (فأسقيناكموه). وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل والفجر والضحى والعصر وكذلك الم وطه ويس وحم في قول الكوفيين وحم عسق عندهم كلمتان وغيرهم لايسمى هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور وقال أبو عمرو الداني لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى (مدهامتان) بسورة الرحمن

(فصل) قال القرطبي أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاما من الأعجمية كابراهيم ونوح ولوط واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالا ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ماتوافقت فيه اللغات

سورة الفاتحة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

يقال لها الفاتحة أي فاتحة الكتاب خطا وبها تفتح القراءة في الصلوات، ويقال لها أيضا أم الكتاب عند الجمهور ذكره أنس، والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك قال الحسن وابن سيرين إنما ذلك اللوح المحفوظ وقال الحسن الآيات المحكمات هن أم الكتاب ولذا كرها أيضا أن يقال لها أم القرآن وقد ثبت في الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم» ويقال لها (الحمد) ويقال لها (الصلاة) لقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي» الحديث. فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها ويقال لها (الشفاء) لمارواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعا «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم» ويقال لها (الرقية) لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما يدريك أنها رقية»؟ وروى الشعبي عن ابن عباس أنه سماها (أساس القرآن) قال وأساسها بسم الله الرحمن الرحيم وسماها سفيان بن عيينة (بالواقية) وسماها يحيى بن أبي كثير (الكافية) لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ماسواها عنها كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة «أم القرآن عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها» ويقال لها سورة الصلاة والكنز ذكرهما الزمخشري في كشافه

وهي مكية قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل مدنية قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري ويقال نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة. والأول أشبه لقوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) والله تعالى أعلم وحكى أبو الليث السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة وهو غريب جدا نقله القرطبي عنه وهي سبع آيات بلا خلاف وقال عمرو بن عبيد ثمان وقال حسين الجعفي ستة وهذان القولان شاذان وإنما اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف أو بعض آية أو لاتعد من أولها بالكلية كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء على ثلاثة أقوال كما سيأتي تقريرها في موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قالوا وكلماتها خمس وعشرون كلمة وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفا قال البخاري في أول كتاب التفسير وسميت أم الكتب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة وقيل إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله

إلى ماتضمنته . قال ابن جرير . والعرب تسمى كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع — أما ، فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ أم الرأس ويسمون لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها أما واستشهد بقول ذى الرمة

على رأسه أم لنا نقتدى بها * جماع أمور ليس نعصى لها أمرا

— يعنى الرمح — قال وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها وقيل لأن الأرض دحيت منها . ويقال لها أيضا الفاتحة لأنها تفتتح بها القراءة وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الامام وصح تسميتها بالسبع المثانى قالوا لأنها تثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة وإن كان للمثانى معنى آخر غير هذا كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا ابن أبى ذئب وهاشم بن هاشم عن ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى أم القرآن « هى أم القرآن وهى السبع المثانى وهى القرآن العظيم » ثم رواه عن إسماعيل بن عمر عن ابن أبى ذئب به وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : حدثنى يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرنى ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هى أم القرآن وهى فاتحة الكتاب وهى السبع المثانى » وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه فى تفسيره حدثنا أحمد بن محمد بن زياد ، حدثنا محمد بن غالب بن حارث ، حدثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلى ، حدثنا المعافى ابن عمران عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبى بلال عن المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الحمد لله رب العالمين سبع آيات : بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن ، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم ، وهى أم الكتاب ، وفاتحة الكتاب » وقد رواه الدارقطنى أيضا عن أبى هريرة مرفوعا بنحوه أو مثله وقال كلهم ثقات وروى البيهقى عن على وابن عباس وأبى هريرة أنهم فسروا قوله تعالى (سبعا من المثانى) بالفاتحة وأن البسملة هى الآية السابعة منها وسيأتى تمام هذا عند البسملة . وقد روى الأعمش عن إبراهيم قال : قيل لابن مسعود : لم لم تكتب الفاتحة فى مصحفك ؟ فقال : لو كتبتها لكتبتها فى أول كل سورة ، قال أبو بكر بن أبى داود يعنى حيث يقرأ فى الصلاة ، قال : واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها وقد قيل : إن الفاتحة أول شىء أنزل من القرآن كما ورد فى حديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة ونقله الباقلانى أحد أقوال ثلاثة وقيل (يا أيها المدثر) كما فى حديث جابر فى الصحيح وقيل (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وهذا هو الصحيح كما سيأتى تقريره فى موضعه والله المستعان

﴿ ذكر ماورد فى فضل الفاتحة ﴾

قال الامام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعالى فى مسنده حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة حدثنى خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال : كنت أصلى فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه حتى صليت قال : فأتيته فقال « ما منعك أن تأتينى ؟ » قال قلت : يارسول الله إنى كنت أصلى قال : ألم يقل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ثم قال « لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد » قال: فأخذ بيدى فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يارسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قال « نعم ، (الحمد لله رب العالمين) هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » وهكذا رواه البخارى عن مسدد وعلى بن المدينى كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان به ، ورواه فى موضع آخر من التفسير ، وأبو داود والنسائى وابن ماجه من طرق عن شعبة به ، ورواه الواقدى عن محمد بن معاذ الأنصارى عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى سعيد بن المعلى عن أبى بن كعب فذكر نحوه . وقد وقع فى الموطأ للامام مالك بن أنس رحمه الله ماينبغى التنبيه عليه فانه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقى أن أبا سعيد مولى ابن عامر بن كريز أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبى بن كعب وهو يصلى فى المسجد فلما فرغ من صلاته لحقه قال فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده على يدى وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ثم قال صلى الله عليه وسلم

« إني لأرجو أن لاتخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الانجيل ولافي القرآن مثلها » قال أبي رضي الله عنه فجعلت أبطئ في المشي رجاء ذلك ثم قلت يارسول الله ما السورة التي وعدتني ؟ قال « كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟ قال فقرأت عليه (الحمد لله رب العالمين) حتى أتيت على آخرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هي هذه السورة وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت » فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المعلى كما اعتقده ابن الأثير في جامع الأصول ومن تبعه فان ابن المعلى صحابي أنصاري وهذا تابعي من موالي خزاعة وذاك الحديث متصل صحيح وهذا ظاهره أنه منقطع إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب فان كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم والله أعلم . على أنه قد روى عن أبي بن كعب من غير وجه كما قال الامام أحمد . حدثنا عفان حدثنا عبدالرحمن بن إبراهيم حدثنا العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب وهو يصلي فقال يا أبي فالتفت ثم لم يجبه ثم قال أبي فخفف أبي ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك أي رسول الله فقال وعليك السلام مامنعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيبني فقال أي رسول الله إني كنت في الصلاة قال أولست تجد فما أوحى الله تعالى إليّ (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) قال بلى يارسول الله لا أعود قال أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل لافي التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ؟ قلت نعم أي رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأرجو أن لا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها قال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي يحدثني وأنا اتبطأ مخافة ان يبلغ قبل ان يقضي الحديث فلما دنونا من الباب قلت أي رسول الله ما السورة التي وعدتني ؟ قال ماتقرأ في الصلاة ؟ قال فقرأت عليه أم القرآن قال والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها إنها السبع المثاني ورواه الترمذي عن قتيبة عن الدراوردي عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه فذكره وعنده إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته ثم قال هذا حديث حسن صحيح وفي الباب عن أنس بن مالك ورواه عبدالله ابن الامام أحمد عن اسماعيل ابن أبي معمر عن أبي أسامة عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب فذكره مطولا بنحوه أو قريبا منه وقد رواه الترمذي والنسائي جميعا عن أبي عمار حسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عبد الحميد ابن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبدي نصفين هذا لفظ النسائي وقال الترمذي حديث حسن غريب وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا هاشم يعني ابن البريد حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل عن جابر قال انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أهراق الماء فقلت السلام عليك يارسول الله فلم يرد علي قال: فقلت السلام عليك يارسول الله فلم يرد علي قال : فقلت السلام عليك يارسول الله فلم يرد علي قال فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وأنا خلفه حتى دخل رحله ودخلت أنا المسجد فجلست كئيبا حزينا فخرج علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطهر فقال عليك السلام ورحمة الله وبركاته وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وعليك السلام ورحمة الله ثم قال « ألا أخبرك ياعبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن ؟ قلت بلى يارسول الله قال اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها » هذا إسناد جيد وابن عقيل هذا يحتج به الأئمة الكبار وعبدالله بن جابر هذا الصحابي ذكر ابن الجوزي أنه هو العبدي والله أعلم ويقال إنه عبد الله بن جابر الأنصاري البياضي فيما ذكره الحافظ ابن عساكر واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض كما هو المحكي عن كثير من العلماء منهم إسحق بن راهويه وأبو بكر بن العربي وابن الحفار من المالكية وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك لأن الجميع كلام الله ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه وإن كان الجميع فاضلا نقله القرطبي عن الأشعري وأبي بكر الباقلاني وأبي حاتم ابن حبان البستي وأبي حيان ويحيى بن يحيى ورواية عن الامام مالك أيضا حديث آخر قال البخاري في فضائل القرآن حدثنا محمد بن المثنى حدثنا وهب حدثنا هشام عن محمد بن معبد عن أبي سعيد الخدري قال كنا في مسير لنا فنزلنا

فجاءت جارية فقالت إن سيد الحي سليم وإن نفرنا غيب فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية فرقاه فبرأ فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبنا فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقى ؟ قال لا مارقيت إلا بأم الكتاب قلنا لاتحدثوا شيئا حتى نأتي ونسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « وما كان يدريه أنها رقية اقسموا واضربوا لى بسهم » وقال أبو معمر حدثنا عبدالوارث حدثنا هشام حدثنا محمد بن سيرين حدثني معبد بن سيرين عن أبي سعيد الخدرى بهذا وهكذا رواه مسلم وأبو داود من رواية هشام وهو ابن حسان عن ابن سيرين به وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث أن أبا سعيد الخدرى هو الذى رقى ذلك السليم يعنى اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلا

حديث آخر : روى مسلم فى صحيحه والنسائى فى سننه من حديث أبى الأحوص سلام بن سليم عن عمار بن زريق عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء مافتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفا منها إلا أوتيته ، وهذا لفظ النسائى

ولمسلم نحوه: حديث آخر قال مسلم حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلى هو ابن راهويه حدثنا سفيان بن عيينة عن العلاء يعنى ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج ثلاثا غير تمام » فقيل لأبى هريرة إنا نكون خلف الامام فقال اقرأ بها فى نفسك فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل فاذا قال (الحمد لله رب العالمين) قال الله حمدنى عبدى، وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى علىّ عبدى، فاذا قال (مالك يوم الدين) قال الله مجدنى عبدى ، وقال مرة فوض إلى عبدى، فاذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ،فاذا قال (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال الله هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » وهكذا رواه النسائى عن إسحاق بن راهويه وقد روياه أيضا عن قتيبة عن مالك عن العلاء عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة عن أبى هريرة وفى هذا السياق « فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ماسأل » وهكذا رواه ابن اسحاق عن العلاء وقد رواه مسلم من حديث ابن جريج عن العلاء عن أبى السائب هكذا ورواه أيضا من حديث ابن أبى أويس عن العلاء عن أبيه وأبى السائب كلاهما عن أبى هريرة وقال الترمذى هذا حديث حسن وسألت أبا زرعة عنه فقال كلا الحديثين صحيح من قال عن العلاء عن أبيه وعن العلاء عن أبى السائب وقد روى هذا الحديث عبد الله ابن الامام أحمد من حديث العلاء عن أبيه عن أبى هريرة عن أبى بن كعب مطولا وقال ابن جرير حدثنا صالح بن مسمار المروزى حدثنا زيد بن الحباب حدثنا عنبسة بن سعيد عن مطرف بن طريف عن سعيد بن إسحاق عن كعب بن عجرة عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين وله ماسأل فاذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال حمدنى عبدى وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال أثنى على عبدى . ثم قال هذا لى وله مابقى » وهذا غريب من هذا الوجه

﴿ الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه ﴾

(أحدها) أنه قد اطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) أى بقراءتك كما جاء مصرحا به فى الصحيح عن ابن عباس ، وهكذا قال فى هذا الحديث « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ماسأل» ثم بين تفصيل هذه القسمة فى قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة فى الصلاة وأنها من أكبر أركانها إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة فى قوله (وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا) والمراد صلاة الفجر كما جاء مصرحا به فى الصحيحين « أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار » فدل هذا كله على أنه لابد من القراءة فى الصلاة وهو اتفاق من العلماء،

ولكن اختلفوا فى مسألة نذكرها فى الوجه الثانى ، وذلك أنه هل يتعين للقراءة فى الصلاة غير فاتحة الكتاب أم تجزىء هى أو غيرها ؟ على قولين مشهورين فعند أبى حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم ؛ أنها لاتتعين بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه فى الصلاة واحتجوا بعموم قوله تعالى (فاقرءوا ماتيسر من القرآن) وبما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة فى قصة المسىء فى صلاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ماتيسر معك من القرآن » قالوا فأمره بقراءة ما تيسر ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها فدل على ما قلنا

(والقول الثانى) أنه تتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ولا تجزىء الصلاة بدونها ؛ وهو قول بقية الأئمة مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء ، واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج » والخداج هو الناقص كما فسر به فى الحديث « غير تمام » واحتجوا أيضا بما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » . وفى صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجزىء صلاة لايقرأ فيها بأم القرآن » والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ووجه المناظرة ههنا يطول ذكره وقد أشرنا إلى مأخذهم فى ذلك رحمهم الله

ثم إن مذهب الشافعى وجماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها فى كل ركعة. وقال آخرون : إنما تجب قراءتها فى معظم الركعات وقال الحسن وأكثر البصريين : إنما تجب قراءتها فى ركعة واحدة من الصلوات أخذا بمطلق الحديث « لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى : لاتتعين قراءتها بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله تعالى (فاقرءوا ماتيسر من القرآن) والله أعلم . وقد روى ابن ماجه من حديث أبى سفيان السعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد مرفوعا « لاصلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد وسورة فى فريضة أو غيرها » وفى صحة هذا نظر وموضع تحرير هذا كله فى كتاب الأحكام الكبير والله أعلم

(والوجه الثالث) هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء (أحدها) أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة (والثانى)لاتجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها لافى صلاة الجهرية ولا فى صلاة السرية لما رواه الامام أحمد بن حنبل فى مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «من كان له إمام فقراءة الامام له قراءة » ولكن فى إسناده ضعف .ورواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر من كلامه ؛ وقد روى هذا الحديث من طرق ولا يصح شىء منها عن النبى صلى الله عليه وسلم والله أعلم (والقول الثالث) أنه تجب القراءة على المأموم فى السرية لما تقدم ، ولا يجب ذلك فى الجهرية لما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما جعل الامام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا ؛ وإذا قرأ فأنصتوا » وذكر بقية الحديث ، وهكذا رواه بقية أهل السنن أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « وإذ قرأ فأنصتوا » وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضا ، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعى رحمه الله ؛ والله أعلم . ورواية عن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى — والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا غسان بن عبيد عن أبى عمران الجونى عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شىء إلا الموت »

﴿ تفسير الاستعاذة وأحكامها ﴾

قال الله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) وقال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذبك من همزات الشياطين

وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * ومايلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والاحسان اليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لامحالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا ولايبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى (يابني آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) وقال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام انه لهلمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين) وقال تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)

قالت طائفة من القراء وغيرهم يتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ولدفع الاعجاب بعد فراغ العبادة ، وممن ذهب إلى ذلك حمزة فيما نقله عنه ابن فلوفا وأبو حاتم السجستاني حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جنادة الهذلي المغربي في كتاب العبادة الكامل : وروى عن أبي هريرة أيضا وهو غريب ، ونقله محمد بن عمر الرازي في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال . وهو قول ابراهيم النخعي وداود بن علي الأصبهاني الظاهري. وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك رحمه الله أن القارىء يتعوذ بعد الفاتحة ، واستغربه ابن العربي ! . وحكى قولا ثالثا وهو الاستعاذة أولا وآخراً جمعاً بين الدليلين ، نقله الرازي . والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها — ومعنى الآية عندهم (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم) الآية أي اذا أردتم القيام ، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا محمد بن الحسن بن أنس حدثنا جعفر بن سليمان عن علي بن علي الرفاعي اليشكري عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا اله غيرك — ثم يقول — لاإله الاالله — ثلاثا ثم يقول — أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان عن علي ابن علي وهو الرفاعي ، وقال الترمذي . هو أشهر شيء في هذا الباب ، وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبر والنفث بالشعر . كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن عاصم العنزي عن نافع بن جبير المطعم عن أبيه قال . رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين دخل في الصلاة قال « الله أكبر كبيراً ثلاثاً ، الحمد لله كثيراً ثلاثاً ، سبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثاً ، — اللهم اني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه » قال عمر : وهمزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر وقال ابن ماجه . حدثنا علي بن المنذر ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا عطاء بن السائب عن أبي عبدالرحمن السلمي عن أبي مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه قال : همزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر وقال الامام أحمد : حدثنا اسحاق بن يوسف ، حدثنا شريك عن يعلى بن عطاء عن رجل حدثه أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام الى الصلاة كبر ثلاثا ثم قال « لااله الا الله ثلاث مرات ، وسبحان الله وبحمده ثلاث مرات » ثم قال « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده ، حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي ، حدثنا علي بن هشام بن البريد عن يزيد بن زياد عن عبدالملك ابن عمير عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : تلاحى رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فتمزع

أنف أحدهما غضباً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انى لأعلم شيئا لو قاله لذهب عنه مايجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »وكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة عن يوسف بن عيسى المروزى عن الفضل بن موسى عن يزيد بن زياد بن أبى الجعدية ، وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل عن أبى سعيد عن زائدة وأبو داود عن يوسف بن موسى عن جرير ابن عبد الحميد والترمذى والنسائى فى اليوم والليلة عن بندار عن ابن مهدى عن الثورى والنسائى أيضا من حديث زائدة ابن قدامة ثلاثتهم عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال. استب رجلان عند النبى صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى يخيل الىّ أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبى صلى الله عليه وسلم « انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب » فقال . ماهى يارسول الله ، قال يقول « اللهم انى أعوذ بك من الشيطان الرجيم » قال . فجعل معاذ يأمره فأبى وجعل يزداد غضباً وهذا لفظ أبى داود، وقال الترمذى : مرسل يعنى أن عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يلق معاذ بن جبل فانه مات قبل سنة عشرين (قلت) وقد يكون عبد الرحمن بن أبى ليلى سمعه من أبى بن كعب كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل فان هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم . قال البخارى . حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير عن الأعمش عن عدى بن ثابت قال: قال سليمان بن صرد رضى الله عنه . استب رجلان عند النبى صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبى صلى الله عليه وسلم « انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقالوا للرجل : ألا تسمع مايقول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : انى لست بمجنون ، وقد رواه أيضاً مع مسلم وأبى داود والنسائى من طرق متعددة عن الأعمش به

وقد جاء فى الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال والله أعلم وقد روى أن جبريل عليه السلام أول مانزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالاستعاذة كما قال الامام أبو جعفر بن جرير ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا بشر بن عمارة حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال . أول مانزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال « يامحمد استعذ » قال « أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » ثم قال « قل بسم الله الرحمن الرحيم » ثم قال (اقرأ باسم ربك الذى خلق) قال عبد الله : وهى أول سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم بلسان جبريل . وهذا الأثر غريب وانما ذكرناه ليعرف فان فى اسناده ضعفاً وانقطاعا والله أعلم .

(مسئلة) وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها وحكى الرازى عن عطاء بن أبى رباح وجوبها فى الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال ، وقال ابن سيرين . اذا تعوذ مرة واحدة فى عمره فقد كفى فى اسقاط الوجوب واحتج الرازى لعطاء بظاهر الآية (فاستعذ) وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبى صلى الله عليه وسلم عليها ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب وقال بعضهم . كانت واجبة على النبى صلى الله عليه وسلم دون أمته وحكى عن مالك أنه لا يتعوذ فى المكتوبة ويتعوذ لقيام رمضان فى أول ليلة منه .

(مسئلة) وقال الشافعى فى الاملاء يجهر بالتعوذ وان أسر فلا يضر وقال فى الأم بالتخيير لانه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة واختلف قول الشافعى فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها على قولين ورجح عدم الاستحباب والله أعلم فاذا قال المستعيذ . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعى وابى حنيفة وزاد بعضهم . اعوذ بالله السميع العليم وقال آخرون بل يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ان الله هو السميع العليم قاله الثورى والأوزاعى وحكى عن بعضهم انه يقول أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة امر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور والاحاديث الصحيحة كما تقدم أولى بالاتباع من هذا والله أعلم

(مسئلة) ثم الاستعاذة فى الصلاة انما هى للتلاوة وهو قول ابى حنيفة ومحمد ، وقال أبو يوسف بل للصلاة فعلى

هـذا يتعوذ المأموم وان كان لايقرأ ويتعوذ فى العيد بعد الاحرام وقبل تكبيرات العيد والجمهور بعدها قبل القراءة ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطييب له وهو لتلاوة كلام الله وهى استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هـذا العدو المبين الباطنى الذى لا يقـدر على منعه ودفعه إلا الله الذى خلقه ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالاحسان بخـلاف العدو من نوع الانسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن فى ثلاث من المثانى وقال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) وقـد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشرى فمن قتله العدو الظاهر البشرى كان شهيدا ، ومن قتله العدو الباطنى كان طريدا . ومن غلبه العدو الظاهرى كان مأجورا ، ومن قهره العدو الباطنى كان مفتونا أو موزورا ، ولما كان الشيطان يرى الانسان من حيث لايراه استعاذ منه بالذى يراه ولا يراه الشيطان .

﴿ فصل ﴾ والاستعاذة هى الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر والعياذة تـكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبى :

يامن ألوذ به فيما أؤمـــله * ومن أعوذ به ممن أحاذره

لايجبر الناس عظما أنت كاسره * ولا يهيضون عظما أنت جابره

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أى استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرنى فى دينى أو دنياى أو يصدنى عن فعل ما أمرت به ، أو يحثنى على فعل مانهيت عنه فان الشيطان لا يكفه عن الانسان إلا الله ولهـذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الانس ومداراته باسـداء الجميل اليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى وأمر بالاستعاذة به من شـيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه وهذا المعنى فى ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة قوله فى الأعراف (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ثم قال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستـعذ بالله إنه سميع عليم)وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون (ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى فى سورة حم السجدة (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلاذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم)

الشيطان فى لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير وقيل مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار ومنهم من يقول كلاهما صحيح فى المعنى ولـكن الأول أصح وعليه يدل كلام العرب قال أمية بن أبى الصلت فى ذكر ما أوتى سليمان عليه السلام

أيما شاطن عصاه عكاه * ثم يلقى فى السجن والاغلال

فقال أيما شاطن ولم يقل أيما شائط وقال النابغة الذبيانى وهو زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضـباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن ذبيان

نأت بسعاد عنك نوى شطون * فبانت والفـؤاد بها رهـين

يقول بعدت بها طريق بعيدة وقال سيبويه : العرب تقول تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا تشيط فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح ولهذا يسمون كل من تمرد من جنى وإنسى وحيوان شيطانا قال الله تعالى (وكذلك جعلنا لـكل نبى عدوا شـياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وفى مسند الامام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر « تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن » فقلت أوللانس شياطين ؟ قال « نعم » وفى صحيح مسلم عن أبى ذر أيضا قال : قال رسول الله ﷺ « يقطع الصلاة المرأة والحمار والـكلب الأسود» فقلت يارسول الله مابال الـكلب الأسود من الأحمر والأصفر ؟ فقال الـكلب الأسود

شيطان وقال ابن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ركب برذونا فجعل يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترا فنزل عنه وقال ماحملتوني إلا على شيطان مانزلت عنه حتى أنكرت نفسي إسناده صحيح . والرجيم فعيل بمعنى مفعول أي انه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد * لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحورا ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وقال تعالى (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) إلى غير ذلك من الآيات وقيل رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والربائث والأول أشهر وأصح

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ افتتح بها الصحابة كتاب الله واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة أو من أول كل سورة كتبت في أولها أو أنها بعض آية من كل سورة أو إنها كذلك في الفاتحة دون غيرها أو إنها إنما كتبت للفصل لا إنها آية على أقوال للعلماء سلفا وخلفا وذلك مبسوط في غير هذا الموضع وفي سنن أبي داود باسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لايعرف فصل السورة حتى ينزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم) وأخرجه الحاكم أبو عبدالله النيسابوري في مستدركه أيضا وروى مرسلا عن سعيد ابن جبير وفي صحيح ابن خزيمة عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي وفيه ضعف عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عنها وروى له الدارقطني متابعا عن أبي هريرة مرفوعا وروى مثله عن علي وابن عباس وغيرهما وممن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري وبه يقول عبدالله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه واسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم ابن سلام رحمهم الله وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور وقال الشافعي في قول في بعض طرق مذهبه هي آية من الفاتحة وليست من غيرها وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة وهما غريبان وقال داود هي آية مستقلة في أول كل سورة لامنها وهذا رواية عن الامام أحمد بن حنبل وحكاه أبو بكر الرازي عن أبي الحسن الكرخي وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله . هذا مايتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا

فأما الجهر بها فمفرع على هذا فمن رأى انها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها وكذا من قال إنها آية في أولها وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا فذهب الشافعي رحمه الله إلى انه يجهر بها مع الفاتحة والسورة وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفا وخلفا فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية وحكاه ابن عبد البر والبيهقي عن عمر وعلي ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وهو غريب ومن التابعين عن سعيد بن جبير وعكرمة وأبي قلابة والزهري وعلي بن الحسن وابنه محمد وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس ومجاهد وسالم ومحمد بن كعب القرظي وعبيد وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وأبي وائل وابن سيرين ومحمد بن المنكدر وعلي بن عبد الله بن عباس وابنه محمد ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم وعمر بن عبد العزيز والأزرق بن قيس وحبيب بن أبي ثابت وأبي الشعثاء ومكحول وعبد الله بن مغفل بن مقرن زاد البيهقي وعبدالله بن صفوان ومحمد ابن الحنفية زاد ابن عبد البر وعمرو بن دينار والحجة في ذلك انها بعض الفاتحة فيجهر فيها كسائر ابعاضها وأيضا فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة انه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد ان فرغ إني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم ثم قال الترمذي وليس اسناده بذاك وقد رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر

بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال صحيح وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال كانت قراءته مداثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم . وفى مسند الامام أحمد وسنن أبى داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته : بسم الله الرحمن الرحيم * الحمدلله رب العالمين* الرحمن الرحيم مالك يوم الدين * وقال الدارقطنى إسناده صحيح وروى الامام أبو عبدالله الشافعي والحاكم فى مستدركه عن أنس بن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك فلما صلى المرة الثانية بسمل . وفى هذه الأحاديث والآثار التى أوردناها كفاية ومقنع فى الاحتجاج لهذا القول عما عداها . فأما المعارضات والروايات الغريبة وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرها فله موضع آخر وذهب آخرون بأنه لايجهر بالبسملة فى الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبدالله بن مغفل وطوائف من سلف التابعين والخلف وهو مذهب أبى حنيفة والثورى وأحمد بن حنبل . وعند الامام مالك أنه لايقرأ البسملة بالكلية لا جهرا ولا سرا واحتجوا بما فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين وبما فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال صليت خلف النبي ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ولمسلم لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أول قراءة ولا فى آخرها ونحوه فى السنن عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه فهذه مآخذ الأئمة رحمهم الله فى هذه المسألة وهى قريبة لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر ولله الحمد والمنة

فصل فى فضلها

قال الامام العالم الحبر العابد أبو محمد عبدالرحمن بن أبى حاتم رحمه الله فى تفسيره حدثنا أبى حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا زيد بن المبارك الصنعانى حدثنا سلام بن وهب الجندى حدثنا أبى عن طاوس عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال « هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب » وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن سليمان بن احمد عن على بن المبارك عن زيد بن المبارك به وقد روى الحافظ بن مردويه من طريقين عن اسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحي عن مسعر عن عطية عن ابى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « إن عيسى بن مريم عليه السلام أسلمته امه إلى الكتاب ليعلمه فقال له المعلم : اكتب فقال . ما أكتب ؟ قال بسم الله قال له عيسى : وما باسم الله ؟ قال المعلم: ما أدرى قال له عيسى . الباء بهاء الله والسين سناؤه ، والميم مملكته ، ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة» وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء الملقب بابن زبريق عن إسماعيل بن عياش عن اسماعيل بن يحي عن ابن ابى مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر عن عطية عن ابى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ فذكره وهذا غريب جدا ، وقد يكون صحيحا إلى من دون رسول الله ﷺ ، وقد يكون من الاسرائيليات لا من المرفوعات والله اعلم . وقد روى جويبر عن الضحاك نحوه من قبله ، وقد روى ابن مردويه من حديث يزيد بن خالد عن سليمان بن بريدة وفى رواية عن عبدالكريم ابى امية عن أبى بريدة عن ابيه ان رسول الله ﷺ قال « انزلت على آية لم تنزل على نبى غيرى سليمان بن داود وغيرى وهى بسم الله الرحمن الرحيم ، وروى باسناده عن عبد الكريم الكبير بن المعافى بن عمران عن ابيه عن عمر بن ذر عن عطاء بن ابى رباح عن جابر بن عبد الله قال . لما نزل (بسم الله الرحمن الرحيم) هرب الغيم إلى المشرق وسكنت الرياح ، وهاج البحر ، وأصغت البهائم بآذانها ، ورجمت الشياطين من السماء ، وحلف الله تعالى بعزته وجلاله ان لايسمى اسمه على شىء إلا بارك فيه . وقال وكيع عن الأعمش عن ابى وائل عن ابن مسعود قال من اراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) فيجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد ، ذكره ابن عطية والقرطبى ووجهه ابن عطية ونصره بحديث

لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها لقول الرجل ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفا وغير ذلك وقال الامام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم قال : سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبي ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ . فقلت تعس الشيطان فقال النبي ﷺ « لا تقل تعس الشيطان ؛ فانك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال بقوتي صرعته ، وإذا قلت باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » هكذا وقع فى رواية الامام أحمد ، وقد روى النسائى فى اليوم والليلة وابن مردويه فى تفسيره من حديث خالد الحذاء عن أبى تميمة وهو الهجيمى عن أبى المليح بن أسامة بن عمير عن أبيه قال . كنت رديف النبي ﷺ فذكره وقال « لا تقل هكذا فانه يتعاظم حتى يكون كالبيت ، ولكن قل باسم الله فانه يصغر حتى يكون كالذبابة » فهذا من تأثير بركة باسم الله ، ولهذا تستحب فى أول كل عمل وقول . فتستحب فى أول الخطبة لما جاء « كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم » وتستحب البسملة عند دخول الخلاء لما ورد من الحديث فى ذلك وتستحب فى أول الوضوء لما جاء فى مسند الامام أحمد والسنن من رواية أبى هريرة وسعيد بن زيد وأبى سعيد مرفوعا « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » وهو حديث حسن . ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا ومنهم من قال بوجوبها مطلقا وكذا تستحب عند الذبيحة فى مذهب الشافعى وجماعة وأوجبها آخرون عند الذكر ومطلقا فى قول بعضهم كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله وقد ذكر الرازى فى تفسيره فى فضل البسملة أحاديث منها عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا أتيت أهلك فسم الله فانه إن وجد لك ولد كتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات » وهذا لا أصل له ولا رأيته فى شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها . وهكذا تستحب عند الأكل لما فى صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن ابى سلمة « قل باسم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه وكذلك تستحب عند الجماع لما فى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « لو ان احدكم إذا اراد ان يأتى اهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان ابدا »

ومن ههنا ينكشف لك ان القولين عند النحاة فى تقدير المتعلق بالباء فى قوله باسم الله هل هو اسم او فعل متقاربان ، وكل قد ورد به القرآن ، اما من قدره باسم تقديره باسم الله ابتدائى فلقوله تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم) ومن قدره بالفعل امراً او خبرا نحو أبدأ باسم الله او ابتدأت باسم الله فلقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وكلاهما صحيح فان الفعل لا بد له من مصدر فلك ان تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذى سميت قبله إن كان قياماً او قعوداً او أكلا او شربا او قراءة او وضوءا او صلاة فالمشروع ذكر اسم الله فى الشروع فى ذلك كله تبركا وتيمنا واستعانة على الاتمام والتقبل والله اعلم . ولهذا روى ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن بن عباس قال إن اول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ قال « يا محمد قل أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال : قل (بسم الله الرحمن الرحيم) قال : قال له جبريل باسم الله يا محمد يقول اقرأ بذكر الله ربك وقم واقعد بذكر الله تعالى » لفظ ابن جرير

وأما مسئلة الاسم هل هو المسمى أو غيره ففيها للناس ثلاثة اقوال ، أحدها أن الاسم هو المسمى ، وهو قول ابى عبيدة وسيبويه ، واختاره الباقلانى وابن فورك وقال الرازى وهو محمد بن عمر المعروف بابن خطيب الرى فى مقدمات تفسيره . قالت الحشوية والكرامية والأشعرية الاسم نفس المسمى وغير نفس التسمية ، وقالت المعتزلة الاسم غير المسمى ونفس التسمية ، والمختار عندنا ان الاسم غير المسمى وغير التسمية ، ثم نقول إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذى هو أصوات متقطعة وحروف مؤلفة ، فالعلم الضروى حاصل أنه غير المسمى وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى ، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث ، فثبت ان الخوض فى هذا البحث على جميع التقديرات يجرى مجرى العبث . ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى ، بانه قد يكون الاسم موجودا والمسمى مفقودا كلفظة

المعدوم وبأنه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالمترادفة وقد يكون الاسم واحدا والمسميات متعددة كالمشترك وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى وأيضا فالاسم لفظ وهو عرض والمسمى قد يكون ذاتا ممكنة أو واجبة بذاتها وأيضا فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللافظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك ولا يقوله عاقل وأيضا فقد قال الله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسما » فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله تعالى وأيضا فقوله (ولله الأسماء) أضافها إليه كما قال (فسبح باسم ربك العظيم) ونحو ذلك فالاضافة تقتضى المغايرة وقوله تعالى (فادعوه بها) أى فادعوا الله بأسمائه وذلك دليل على أنها غيره واحتج من قال الاسم هو المسمى بقوله تعالى (تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام) والتبارك هو الله تعالى والجواب أن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة وأيضا فاذا قال الرجل زينب طالق يعنى امرأته طلقت ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق والجواب أن المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق . قال الرازى : وأما التسمية فانها جعل الاسم معينا لهذه الذات فهى غير الاسم أيضا والله أعلم

(الله) علم على الرب تبارك وتعالى يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أيا ماتدعوا فله الأسماء الحسنى) وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة » وجاء تعدادها فى رواية الترمذى وابن ماجه وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان وقد ذكر الرازى فى تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم ألف فى الكتاب والسنة الصحيحة وألف فى التوراة وألف فى الانجيل وألف فى الزبور وألف فى اللوح المحفوظ

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ولهذا لايعرف فى كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له وقد نقله القرطبى عن جماعة من العلماء منهم الشافعى والخطابى وإمام الحرمين والغزالى وغيرهم وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة قال الخطابى ألاترى أنك تقول يا ألله ولا تقول ياألرحمن فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام وقيل إنه مشتق واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج لله در الغانيات المده * سبحن واسترجعن من تألهى

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر وهو التأله من أله يأله إلاهة وتألها كما روى عن ابن عباس أنه قرأ (ويذرك وإلاهتك) قال عبادتك اى انه كان يعبد ولا يعبد وكذا قال مجاهد وغيره وقد استدل بعضهم على كونه مشتقا بقوله تعالى (وهو الله فى السموات وفى الأرض) كما قال تعالى (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) ونقل سيبويه عن الخليل ان اصله إلاه مثل فعال فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة قال سيبويه مثل الناس اصله اناس وقيل اصل الكلمة لاه فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه . قال الشاعر :

لاه ابن عمك لاأفضلت فى حسب * عنى ولا أنت ديانى فتخزونى

قال القرطبى بالخاء المعجمة اى فتسوسنى وقال الكسائى والفراء اصله الاله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الاولى فى الثانية كما قال (لكنا هو الله ربى) اى لكن انا وقد قرأها كذلك الحسن ، قال القرطبى ثم قيل هو مشتق من وله اذا تحير والوله ذهاب العقل يقال رجل واله وامرأة ولهى ومولوهة اذا ارسل فى الصحراء فالله تعالى يحير أولئك فى الفكر فى حقائق صفاته فعلى هذا يكون ولاه فأبدلت الواو همزة كما قالوا فى وشاح اشاح ووسادة اسادة وقال الرازى وقيل انه مشتق من ألهت الى فلان اى سكنت إليه فالعقول لاتسكن إلا الى ذكره ، والأرواح لاتفرح إلا بمعرفته لأنه الكامل على الاطلاق دون غيره قال الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا) قال وقيل من لاه يلوه إذا احتجب

وقيل اشتقاقه من أله الفصيل أولع بأمه والمعنى أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه فى كل الأحوال قال وقيل مشتق من أله الرجل يأله إذا فزع من أمر نزل به فألهه أى أجاره فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه لقوله تعالى (وهو يجير ولايجار عليه) وهو المنعم لقوله تعالى (ومابكم من نعمة فمن الله) وهو المطعم لقوله تعالى (وهو يطعم ولايطعم) وهو الموجد لقوله تعالى (قل كل من عند الله) وقد اختار الرازى أنه اسم غير مشتق البتة قال وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه منها أنه لوكان مشتقا لاشترك فى معناه كثيرون ومنها أن بقية الأسماء تذكر صفات له فتقول الله الرحمن الرحيم الملك القدوس فدل أنه ليس بمشتق قال فأما قوله تعالى (العزيز الحميد الله) على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان ومنها قوله تعالى (هل تعلم له سميا) وفى الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامدا غير مشتق نظر والله أعلم .

وحكى الرازى عن بعضهم أن اسم الله تعالى عبرانى لاعربى ثم ضعفه وهو حقيق بالتضعيف كما قال وقد حكى الرازى هذا القول ثم قال واعلم أن الخلائق قسمان واصلون إلى ساحل بحر المعرفة ومحرومون قد بقوا فى ظلمات الحيرة وتيه الجهالة فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال فتاهوا فى ميادين الصمدية وبادوا فى عرصة الفردانية فثبت أن الخلائق كلهم والهون فى معرفته ، وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال لأن الخلق يألهون إليه بفتح اللام وكسرها لغتان ، وقيل إنه مشتق من الارتفاع فكانت العرب تقول لكل شىء مرتفع لاها وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس لاهت وقيل إنه مشتق من أله الرجل إذا تعبد وتأله إذ تنسك وقرأ ابن عباس (ويذرك وإلاهتك) وأصل ذلك الاله فحذفت الهمزة التى هى فاء الكلمة فالتقت اللام التى هى عينها مع اللام الزائدة فى أولها للتعريف فأدغمت إحداهما فى الأخرى فصارتا فى اللفظ لاما واحدة مشددة وفخمت تعظيما فقيل الله

(الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم وفى كلام ابن جرير مايفهم منه حكاية الاتفاق على هذا وفى تفسير بعض السلف مايدل على ذلك كما تقدم فى الأثر عن عيسى عليه السلام انه قال والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة وزعم بعضهم انه غير مشتق إذ لوكان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال (وكان بالمؤمنين رحيما) وحكى ابن الانبارى فى الزاهر عن المبرد ان الرحمن اسم عبرانى ليس بعربى وقال ابو اسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى الرحيم عربى والرحمن عبرانى فلهذا جمع بينهما قال ابو اسحق وهذا القول مرغوب عنه وقال القرطبى والدليل على انه مشتق ماخرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى انا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » قال وهذا نص فى الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق ، قال وانكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له قال القرطبى ثم قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم قال ابو عبيد وقيل ليس بناء فعلان كفعيل فان فعلان لايقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك رجل غضبان للرجل الممتلىء غضبا وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول قال ابو على الفارسى الرحمن اسم عام فى جميع انواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم انما هو من جهة المؤمنين قال الله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) وقال ابن عباس هما اسمان رقيقان احدهما ارق من الآخر أى اكثر رحمة ثم حكى عن الخطابى وغيره انهم استشكلوا هذه الصفة وقالوا لعله ارفق كما فى الحديث « ان الله رفيق يحب الرفق فى الامر كله وانه يعطى على الرفق مالا يعطى على العنف » وقال ابن المبارك الرحمن اذا سئل اعطى والرحيم اذا لم يسأل يغضب وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى صالح الفارسى الخوزى عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من لم يسال الله يغضب عليه » وقال بعض الشعراء

الله يغضب ان تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

وقال ابن جرير حدثنا السرى بن يحيى التميمى حدثنا عثمان بن زفر سمعت العزرمى يقول الرحمن الرحيم قال الرحمن لجميع الخلق الرحيم قال بالمؤمنين قالوا ولهذا قال (ثم استوى على العرش الرحمن) وقال (الرحمن على العرش

استوى) فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته وقال (وكان بالمؤمنين رحيما) فخصهم باسمه الرحيم قالوا فدل على أن الرحمن أشد مبالغة فى الرحمة لعمومها فى الدارين لجميع خلقه والرحيم خاصة بالمؤمنين لكن جاء فى الدعاء المأثور رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وقال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب فصار يضرب به المثل فى الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكد به والمؤكد لايكون إلا أقوى من المؤكد والجواب أن هذا ليس من باب التأكيد وإنما هو من باب النعت ولا يلزم فيه ما ذكروه وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذى لم يسم به أحد غيره ووصفه أولا بالرحمن الذى منع من التسمية به لغيره كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة فى التسمى به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه فى الضلالة . وأما الرحيم فانه تعالى وصف به غيره حيث قال (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) كما وصف غيره بذلك من أسمائه كما قال تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا) والحاصل أن من أسمائه تعالى مايسمى به غيره ومنها مالايسمى به غيره كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم لأن التسمية أولا إنما تكون بأشرف الأسماء فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص . فان قيل فاذا كان الرحمن أشد مبالغة فهلا اكتفى به عن الرحيم فقد روى عن عطاء الخراسانى مامعناه أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن جىء بلفظ الرحيم ليقطع الوهم بذلك فانه لايوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى ، كذا رواه ابن جرير عن عطاء . ووجهه بذلك والله أعلم وقد زعم بعضهم أن العرب لاتعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلى اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقالوا لا نعرف الرحمن ولا الرحيم رواه البخارى وفى بعض الروايات لانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة وقال تعالى (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت فى كفرهم فانه قد وجد فى أشعارهم فى الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن قال ابن جرير وقد أنشد بعض الجاهلية الجهال : ألا ضربت تلك الفتاة هجينها * ألا قضب الرحمن ربى يمينها

وقال سلامة بن جندب الطهوى : عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم * ومايشأ الرحمن يعقد ويطلق

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبدالله ابن عباس قال الرحمن الفعلان من الرحمة هو من كلام العرب وقال (الرحمن الرحيم) الرفيق الرقيق لمن أحب أن يرحمه والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه ، وكذلك أسماؤه كلها . وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا حماد بن مسعدة عن عوف عن الحسن قال الرحمن اسم ممنوع . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو الأشهب عن الحسن قال الرحمن اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه تسمى به تبارك وتعالى . وقد جاء فى حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قراءته حرفا حرفا (بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين) فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة ومنهم من وصلها بقوله (الحمد لله رب العالمين) وكسرت الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور وحكى الكسائى من الكوفيين عن بعض العرب أنها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمزة فيقولون بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين فنقلوا حركة الهمزة إلى الميم بعد تسكينها كما قرىء قوله تعالى (الم الله لا إله إلا هو) قال ابن عطية ولم ترد هذه قراءة عن أحد فيما علمت

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

القراء السبعة على ضم الدال فى قوله الحمد لله هومبتدأ وخبر وروى عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا (الحمد لله) بالنصب وهوعلى إضمارفعل وقرأ ابن أبى عبلة الحمد لله بضم الدال واللام إتباعا للثانى الأول وله شواهد لكنه شاذ وعن الحسن وزيد بن على (الحمد لله) بكسر الدال اتباعا للأول الثانى .

قال أبو جعفر بن جرير معنى (الحمد لله) الشكر لله خالصا دون سائر مايعبد من دونه ، ودون كل مابرأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه مع مابسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع مانبههم عليه ودعاهم اليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا . وقال ابن جرير رحمه الله : الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال قولوا الحمد لله . قال وقد قيل إن قول القائل الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وقوله الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه ثم شرع فى رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر وقد نقل السلمى هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية وقال ابن عباس الحمد لله كلمة كل شاكر وقد استدل القرطبى لابن جرير بصحة قول القائل الحمد لله شكرا وهذا الذى ادعاه ابن جرير فيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم الحمد أو الشكر على قولين والتحقيق ان بينهما عموما وخصوصا فالحمد أعم من الشكر من حيث مايقعان عليه لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه وهو أخص لأنه لا يكون الا بالقول والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية لا يقال شكرته لفروسيته وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إلى . هذا حاصل ماحرره بعض المتأخرين والله أعلم

وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى : الحمد نقيض الذم تقول حمدت الرجل أحمده حمدا ومحمدة فهو حميد ومحمود والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ، وقال فى الشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح . وأما المدح فهو أعم من الحمد لأنه يكون للحى وللميت وللجماد أيضا كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ويكون قبل الإحسان وبعده وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضا فهو أعم

ذكر أقوال السلف فى الحمد

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو معمر القطيعى حدثنا حفص عن حجاج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال عمر رضى الله عنه قد علمنا سبحان الله ولا إله إلا الله فما الحمد لله ؟ فقال على : كلمة رضيها الله لنفسه ، ورواه غير أبى معمر عن حفص فقال قال عمر لعلى — وأصحابه عنده — لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر قد عرفناها فما الحمد لله ؟ قال على كلمة أحبها الله تعالى لنفسه ورضيها لنفسه وأحب ان تقال ، وقال على بن زيد بن جدعان عن يوسف ابن مهران قال ابن عباس الحمد لله كلمة الشكر وإذا قال العبد الحمد لله قال شكرنى عبدى . رواه ابن أبى حاتم ، وروى أيضا هو وابن جرير من حديث بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال الحمد لله هو الشكر لله هو الاستخذاء له والاقرار له بنعمته وهدايته وابتدائه وغير ذلك وقال كعب الأحبار الحمد لله ثناء الله وقال الضحاك الحمد لله رداء الرحمن وقد ورد الحديث بنحو ذلك .

قال ابن جرير حدثنا سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية بن الوليد حدثنى عيسى بن إبراهيم عن موسى بن أبى حبيب عن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقدشكرت الله فزادك وقد روى الامام أحمد بن حنبل حدثنا روح حدثنا عوف عن الحسن عن الأسود بن سريع قال قلت يارسول الله ألا أنشدك محامدحمدت بها ربى تبارك وتعالى فقال « أما إن ربك يحب الحمد » ورواه النسائى عن على بن حجرعن ابن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن عن الأسود بن سريع به. وروى أبو عيسى الحافظ الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير عن طلحة بن خراش عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « أفضل الذكر لا إله إلاالله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » وقال الترمذى حسن غريب وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ » وقال القرطبى فى تفسيره وفى نوادر الأصول عن أنس عن النبى ﷺ قال « لو أن الدنيا بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك » قال القرطبى وغيره أى لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبداً من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقالا يارب إن عبداً قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها قال الله وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى ؟ قالا يارب إنه قال لك الحمد يارب كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك . فقال الله لهما « اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها » وحكى القرطبى عن طائفة أنهم قالوا قول العبد الحمد لله رب العالمين أفضل من قوله لا إله إلاالله لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد وقال آخرون لا إله إلاالله أفضل لأنها تفصل بين الايمان والكفر وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله كما ثبت فى الحديث المتفق عليه وفى الحديث الآخر « أفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لاشريك له » وقد تقدم عن جابر مرفوعا « أفضل الذكر لا إله إلاالله وأفضل الدعاء الحمد لله » وحسنه الترمذى . والألف واللام فى الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى كما جاء فى الحديث « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله » الحديث

والرب هو المالك المتصرف ويطلق فى اللغة على السيد وعلى التصرف للاصلاح وكل ذلك صحيح فى حق الله تعالى ولايستعمل الرب لغير الله بل بالاضافة تقول رب الدار رب كذا وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل ، وقد قيل إنه الاسم الأعظم . والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل والعالم جمع لاواحد له من لفظه والعوالم أصناف المخلوقات فى السموات وفى البر والبحر وكل قرن منها وجيل يسمى عالما أيضا قال بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس (الحمد لله رب العالمين) الحمد لله الذى له الخلق كله السموات والأرض ومافيهن ومابينهن مما نعلم ومما لانعلم . وفى رواية سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس : رب الجن والانس وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج وروى عن على نحوه قال ابن أبى حاتم باسناده لايعتمد عليه واستدل القرطبى لهذا القول بقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيرا) وهم الجن والانس قال الفراء وأبو عبيد العالم عبارة عما يعقل وهم الانس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم عالم . وعن زيد بن أسلم وأبى محيصن العالم كل ماله روح ترفرف . وقال قتادة رب العالمين كل صنف عالم وقال الحافظ ابن عساكر فى ترجمة مروان بن الحكم وهو أحد خلفاء بنى امية وهو يعرف بالجعد ويلقب بالحمار أنه قال خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد وسائرهم لايعلمهم إلا الله عز وجل

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (رب العالمين) قال الانس عالم والجن عالم وماسوى ذلك ثمانية عشر ألف أو أربعة عشر ألف عالم — هو يشك — الملائكة على الأرض وللارض أربع زوايا فى كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم الله لعبادته رواه ابن جرير وابن أبى حاتم . وهذا كلام غريب

يحتاج مثله إلى دليل صحيح . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الفرات يعني ابن الوليد عن معتب بن سمى عن سبيع يعني الحميري في قوله تعالى (رب العالمين) قال العالمين ألف أمة فستمائة في البحر وأربعمائة في البر وحكى مثله عن سعيد بن المسيب وقد روى نحو هذا مرفوعا كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد ابن علي بن المثنى في مسنده : حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد حدثني محمد بن عيسى بن كيسان حدثنا محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قلّ الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها فسأل عنه فلم يخبر بشيء فاغتم لذلك فأرسل راكبا يضرب إلى اليمن وآخر إلى الشام وآخر إلى العراق يسأل هل رؤى من الجراد شيء أم لا قال فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبر ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « خلق الله ألف أمة ستمائة في البحر وأربعمائة في البر فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فاذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه » محمد بن عيسى هذا وهو الهلالي ضعيف وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال لله ألف عالم ستمائة في البحر وأربعمائة في البر وقال وهب بن منبه لله ثمانية عشر ألف عالم الدنيا عالم منها وقال مقاتل العوالم ثمانون ألفاً وقال كعب الأحبار لا يعلم عدد العوالم إلا الله عز وجل نقله كله البغوي . وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال إن لله أربعين ألف عالم الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها وقال الزجاج العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة قال القرطبي وهذا هو الصحيح انه شامل لكل العالمين كقوله (قال فرعون وما رب العالمين ؟ * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) والعالم مشتق من العلامة (قلت) لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز :

فيا عجبا كيف يعصى الاله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقوله تعالى (الرحمن الرحيم) تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الاعادة قال القرطبي إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب كما قال تعالى (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقوله تعالى (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) قال فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد »

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

قرأ بعض القراء (ملك يوم الدين) وقرأ آخرون (مالك) وكلاهما صحيح متواتر في السبع ويقال ملك بكسر اللام وباسكانها ويقال مليك أيضا وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ (ملكي يوم الدين)وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى وكلتاهما صحيحة حسنة ورجح الزمخشري ملك لأنها قراءة أهل الحرمين ولقوله (لمن الملك اليوم* قوله الحق وله الملك) وحكى عن أبي حنيفة أنه قرأ (ملك يوم الدين) على أنه فعل وفاعل ومفعول وهذا شاذ غريب جداً وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال حدثنا أبو عبد الرحمن الأزدي حدثنا عبد الوهاب بن عدي بن الفضل عن أبي المطرف عن ابن شهاب أنه بلغه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرءون (مالك يوم الدين) قال ابن شهاب وأول من أحدث « ملك » مروان (قلت) مروان عنده علم بصحة ماقرءوه لم يطلع عليه ابن شهاب والله اعلم . وقد روى من طرق متعددة أوردها ابن مردويه ان رسول الله ﷺ كان يقرؤها (مالك يوم الدين) ومالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) وقال (قل اعوذ برب الناس ملك الناس) وملك مأخوذ من الملك كما قال تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقال (قوله الحق وله الملك) وقال (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا) وتخصيص الملك بيوم الدين لاينفيه عما عداه لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين وذلك عام

فى الدنيا والآخرة وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لايدعى أحد هنالك شيئا ولا يتكلم أحد إلا باذنه كما قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) وقال تعالى (وخشعت الأصوات للرحمن فلاتسمع إلاهمسا) وقال تعالى (يوم يأتى لاتكلم نفس إلاباذنه فمنهم شقى وسعيد) وقال الضحاك عن ابن عباس (مالك يوم الدين) يقول لايملك أحد معه فى ذلك اليوم حكما كملكهم فى الدنيا قال ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى أن تفسير مالك يوم الدين أنه القادر على إقامته ثم شرع يضعفه والظاهر أنه لامنافاة بين هذا القول وماتقدم وأن كلا من القائلين هذا القول وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر ولا ينكره ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا كما قال تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيراً) والقول الثانى يشبه قوله تعالى (ويوم يقول كن فيكون) والله أعلم . والملك فى الحقيقة هو الله عز وجل قال الله تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولامالك إلا الله » وفيهما عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وفى القرآن العظيم (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) فاما تسمية غيره فى الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) (وكان وراءهم ملك) (إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) وفى الصحيحين « مثل الملوك على الاسرة » .

والدين الجزاء والحساب كما قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) وقال (أئنا لمدينون) أى مجزيون محاسبون وفى الحديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » أى حاسب نفسه كما قال عمر رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتأهبوا للعرض الأكبر على من لاتخفى عليه أعمالكم (يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من إياك وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهى قراءة شاذة مردودة لأن إيا ضوء الشمس وقرأ بعضهم أياك بفتح الهمزة وتشديد الياء وقرأ بعضهم هياك بالهاء بدل الهمزة كما قال الشاعر :

فهياك والأمر الذى إن تراحبت موارده ضاقت عليك مصادره

ونستعين بفتح النون أول الكلمة فى قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فانهما كسراها وهى لغة بنى أسد وربيعة وبنى تميم ، والعبادة فى اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبعير معبد أى مذلل وفى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف . وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أى لانعبد إلا إياك ولانتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة . والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين ، وهذا كما قال بعض السلف الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة (إياك نعبد وإياك نستعين) فالأول تبرؤ من الشرك والثانى تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل وهذا المعنى فى غير آية من القرآن كما قال تعالى (فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون) (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) (رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو فاتخذه وكيلا) وكذلك هذه الآية الكريمة (إياك نعبد وإياك نستعين) وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدى الله تعالى فلهذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) وفى هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى وإرشاد لعباده بان يثنوا عليه بذلك ولهذا لاتصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء فى الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »

وفي صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل إذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله حمدني عبدي ، وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى علي عبدي، فإذا قال (مالك يوم الدين) قال الله مجدني عبدي ، وإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما (إياك نعبد) يعني إياك نوحد ونخاف ونرجوك يا ربنا لا غيرك (وإياك نستعين) على طاعتك وعلى أمورنا كلها وقال قتادة (إياك نعبد وإياك نستعين) يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم وإنما قدم (إياك نعبد) على (وإياك نستعين) لأن العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم والله أعلم . فان قيل : فما معنى النون في قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) فان كانت للجمع فالداعي واحد وإن كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام ؟ وقد أجيب بأن المراد من ذلك الاخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم ولاسيما إن كان في جماعة أو إمامهم فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير ومنهم من قال يجوز أن تكون للتعظيم كأن العبد قيل له إذا كنت داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل (إياك نعبد وإياك نستعين) وإن كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله عزوجل وفقرهم إليه . ومنهم من قال إياك نعبد ألطف في التواضع من إياك عبدنا لما في الثاني من تعظيم نفسه من جعله نفسه وحده أهلا لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته ولا يثني عليه كما يليق به والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى كما قال بعضهم :

لا تدعني إلا بيا عبدها فانه أشرف أسمائي

وقد سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقد حكى الرازي في تفسيره عن بعضهم أن مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة لكون العبادة تصدر من الخلق إلى الحق والرسالة من الحق إلى الخلق ؛ قال ولأن الله يتولى مصالح عبده والرسول يتولى مصالح أمته ، وهذا القول خطأ والتوجيه أيضا ضعيف لا حاصل له ولم يتعرض له الرازي بتضعيف ولارد . وقال بعض الصوفية العبادة إما لتحصيل ثواب أو درء عقاب قالوا وهذا ليس بطائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده ، وإما للتشريف بتكاليف الله تعالى وهذا أيضا عندهم ضعيف بل العالي أن يعبد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال قالوا ولهذا يقول المصلي : أصلي لله ولو كان لتحصيل الثواب ودرء العقاب لبطلت الصلاة وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا : كون العبادة لله عزوجل لا ينافي أن يطلب معها ثوابا ولا أن يدفع عذابا كما قال ذلك الأعرابي : أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ إنما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبي ﷺ « حولها ندندن »

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

قراءة الجمهور بالصاد وقرىء السراط وقرىء بالزاي قال الفراء وهي لغة بني عذرة وبني كلب لما تقدم الثناء على المسئول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال « فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل » وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله (اهدنا الصراط المستقيم) لأنه أنجح للحاجة وأنجع للاجابة ولهذا أرشد الله اليه لأنه الأكمل وقد يكون السؤال بالاخبار عن حال السائل واحتياجه كما

قال موسى عليه السلام (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) وقد يتقدمه مع ذلك وصف مسئول كقول ذى النون (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول كقول الشاعر :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إن شيمتك الحياء إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا الإرشاد والتوفيق وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا (اهدنا الصراط المستقيم) فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا (وهديناه النجدين) أى بينا له الخير والشر وقد تعدى بإلى كقوله تعالى (اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم) (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة (الحمد لله الذى هدانا لهذا) أى وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا .

وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه وذلك فى لغة جميع العرب فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفى :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

قال والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر قال ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل ووصف باستقامة أو اعوجاج فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه .

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط ، وإن كان يرجع حاصلها إلى شىء واحد وهو المتابعة لله وللرسول فروى أنه كتاب الله قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنى يحيى بن يمان عن حمزة الزيات عن سعيد وهو ابن المختار الطائى عن ابن أخى الحارث الأعور عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الصراط المستقيم كتاب الله » وكذلك رواه ابن جرير من حديث حمزة ابن حبيب الزيات وقد تقدم فى فضائل القرآن فيما رواه أحمد والترمذى من رواية الحارث الأعور عن على مرفوعا « وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم » وقد روى موقوفا على على رضى الله عنه وهو أشبه والله أعلم وقال الثورى عن منصور عن أبى وائل عن عبد الله قال الصراط المستقيم كتاب الله : وقيل هو الاسلام قال الضحاك عن ابن عباس قال : قال جبريل لمحمد عليهما السلام « قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم » يقول ألهمنا الطريق الهادى وهو دين الله الذى لا اعوجاج فيه وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس فى قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) قال ذاك الاسلام وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ اهدنا الصراط المستقيم قالوا هو الاسلام وقال عبدالله بن محمد بن عقيل عن جابر اهدنا الصراط المستقيم قال هو الاسلام أوسع مما بين السماء والأرض وقال ابن الحنفية فى قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم قال هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم اهدنا الصراط المستقيم قال هو الاسلام وفى هذا الحديث الذى رواه الامام أحمد فى مسنده حيث قال حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء حدثنا ليث يعنى ابن سعد عن معاوية بن صالح أن عبدالرحمن بن جبير بن نفير حدثه عن أبيه عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط فاذا أراد الانسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه ـ فانك إن تفتحه تلجه ـ فالصراط الاسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم » وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث الليث بن سعد به ورواه الترمذى والنسائى جميعا عن على بن حجر عن بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان به . وهو إسناد حسن صحيح والله أعلم . وقال مجاهد اهدنا الصراط المستقيم قال الحق وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حدث أبى النضر هاشم بن القاسم أنا حمزة بن المغيرة عن عاصم

الأحول عن أبي العالية (إهدنا الصراط المستقيم) قال هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده قال عاصم فذكرنا ذلك للحسن فقال صدق أبو العالية ونصح . وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة فان من اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق ومن اتبع الحق فقد اتبع الاسلام ومن اتبع الاسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا ولله الحمد

وقال الطبراني حدثنا محمد بن الفضل السقطي حدثنا ابراهيم بن مهدي المصيصي حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ . ولهذا قال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أعني ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ أن يكون معنيا به وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل وذلك هو الصراط المستقيم لأن من وفق لماوفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للاسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمره الله به والانزجار عما زجره عنه واتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج الخلفاء الأربعة وكل عبد صالح وكل ذلك من الصراط المستقيم .

(فان قيل) فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك ؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟

فالجواب أن لا ، ولولا احتياجه ليلا ونهارا إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك فان العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها فان العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فانه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر اليه آناء الليل وأطراف النهار وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) الآية فقد أمر الذين آمنوا بالايمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك والله أعلم . وقال تعالى آمرا لعباده المؤمنين أن يقولوا (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً فمعنى قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره

﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد اهدنا الصراط المستقيم إلى آخرها أن الله يقول « هذا لعبدي ولعبدي ماسأل » وقوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النحاة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم . والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) وقال الضحاك عن ابن عباس صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك نظير ماقال ربنا تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) الآية . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس (صراط الذين أنعمت عليهم) قال هم النبيون وقال ابن جريج عن ابن عباس هم المؤمنون ، وكذا قال مجاهد وقال وكيع هم المسلمون وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم النبي ﷺ ومن معه والتفسير المتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أعم وأشمل والله أعلم .

وقوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قرأ الجمهور غير بالجر على النعت قال الزمخشري وقرىء بالنصب على الحال وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب ورويت عن ابن كثير وذو الحال الضمير في

عليهم والعامل أنعمت والمعنى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى وقد زعم بعض النحاة أن غير ههنا استثنائية فيكون على هذا منقطعا لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم وما أوردناه أولى لقول الشاعر :

كأنك من جمال بنى أقيش * يقعقع عند رجليه بشن

أى كأنك جمل من جمال بنى أقيش فحذف الموصوف واكتفى بالصفة وهكذا غير المغضوب عليهم أى غير صراط المغضوب عليهم اكتفى بالمضاف اليه عن ذكر المضاف وقد دل عليه سياق الكلام وهو قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) ثم قال تعالى (غير المغضوب عليهم) ومنهم من زعم أن لا فى قوله تعالى ولا الضالين زائدة وأن تقدير الكلام عنده غير المغضوب عليهم والضالين واستشهد ببيت العجاج .

فى بئر لا حور * سعى وما شعر

أى فى بئر حور والصحيح ما قدمناه ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن عن أبى معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقرأ غير المغضوب عليهم وغير الضالين وهذا إسناد صحيح وكذلك حكى عن أبى بن كعب أنه قرأ كذلك وهو محمول على أنه صدر منهما على وجه التفسير . فيدل على ما قلناه من أنه إنما جىء بلا لتأكيد النفى لئلا يتوهم أنه معطوف على الذين أنعمت عليهم وللفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحد منهما فان طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى لأن من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم والنصارى لما كانوا قاصدين شيئا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لانهم لم يأتوا الامر من بابه وهو اتباع الحق ضلوا وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم (من لعنه الله وغضب عليه) وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) وبهذا جاءت الاحاديث والآثار وذلك واضح بين فيما قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال سمعت سماك بن حرب يقول سمعت عباد بن حبيش يحدث عن عدى بن حاتم قال جاءت خيل رسول الله ﷺ فأخذوا عمتى وناسا فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له فقالت يارسول الله : نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة فمن على من الله عليك قال « من وافدك ؟» قالت عدى بن حاتم قال « الذى فر من الله ورسوله » قالت فمن على فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه على قال سليه حملانا فسألته فأمر لها قال فأتتنى فقالت لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها فانه قد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فاصاب منه فأتيته فاذا عنده امرأة وصبيان وذكر قربهم من النبى ﷺ قال فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر فقال ياعدى ما أفرك ؟ أن يقال لا إله إلا الله ؟ فهل من إله إلا الله ما أفرك ؟ أن يقال الله أكبر فهل شىء أكبر من الله عز وجل قال فأسلمت فرأيت وجهه استبشر وقال إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى وذكر الحديث ورواه الترمذى من حديث سماك بن حرب وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه (قلت) وقد رواه حماد بن سلمة عن سماك عن مرى بن قطرى عن عدى بن حاتم قال سألت رسول ﷺ عن قوله تعالى (غير المغضوب عليهم) قال هم اليهود (ولا الضالين) قال النصارى هم الضالون وهكذا رواه سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن عدى بن حاتم به وقد روى حديث عدى هذا من طرق وله الفاظ كثيرة يطول ذكرها وقال عبد الرزاق أنا معمر عن بديل العقيلى اخبرنى عبد الله بن شقيق أنه أخبره من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادى القرى على فرسه وسأله رجل من بنى القين فقال يارسول الله من هؤلاء قال المغضوب عليهم وأشار إلى اليهود والضالون هم النصارى وقد رواه الجريرى

وعروة وخالد الحذاء عن عبد الله بن شقيق فأرسلوه ولم يذكروا من سمع النبي ﷺ ووقع فى رواية عروة تسمية عبد الله بن عمرو فالله أعلم وقد روى ابن مردويه من حديث إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبد الله ابن شقيق عن أبى ذر قال سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال اليهود قلت الضالين قال النصارى وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ غير المغضوب عليهم هم اليهود ولا الضالين هم النصارى وقال الضحاك وابن جريج عن ابن عباس غير المغضوب عليهم اليهود ولا الضالين النصارى وكذلك قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقال ابن أبى حاتم ولا أعلم بين المفسرين فى هذا اختلافا وشاهد ماقاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون الحديث المتقدم وقوله تعالى فى خطابه مع بنى اسرائيل فى سورة البقرة (بئس ماشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) وقال فى المائدة (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل) وقال تعالى (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون) وفى السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشأم يطلبون الدين الحنيف قالت له اليهود إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله فقال أنا من غضب الله أفر وقالت له النصارى إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال لا أستطيعه فاستمر على فطرته وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا فى دين النصرانية لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحى رضى الله عنه

﴿ مسئلة ﴾ والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الاخلال بتحرير مابين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لايميز ذلك والله أعلم وأما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد فلا أصل له والله أعلم

﴿ فصل ﴾ اشتملت هذه السورة الكريمة وهى سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرىء من حولهم وقوتهم وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه حتى يقضى لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسية يوم القيامة المفضى بهم إلى جنات النعيم فى جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون وما أحسن ماجاء إسناد الانعام إليه فى قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) وحذف الفاعل فى الغضب فى قوله تعالى (غير المغضوب عليهم) وإن كان هو الفاعل لذلك فى الحقيقة كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم) الآية وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذى اضلهم بقدره كما قال تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) وقال (من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والاضلال لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون مايكون فيه صريحا فى الرد عليهم : وهذا حال أهل الضلال والغى وقد ورد فى الحديث الصحيح « إذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » يعنى فى قوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ

فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) فليس، بحمد الله، لمبتدع فى القرآن حجة صحيحة لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقا بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولااختلاف لأنه من عندالله تنزيل من حكيم حميد

﴿فصل﴾ يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين مثل يس ويقال أمين بالقصر أيضا ومعناه اللهم استجب والدليل على استحباب التأمين مارواه الامام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال سمعت النبى ﷺ قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقال آمين مد بها صوته ، ولأبى داود رفع بها صوته ، وقال الترمذى هذا حديث حسن وروى عن على وابن مسعود وغيرهم . وعن أبى هريرة قال كان رسول الله ﷺ إذا تلا (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه فيرتج بها المسجد . والدارقطنى وقال . هذا إسناد حسن . وعن بلال أنه قال : يارسول الله لاتسبقنى بآمين رواه أبو داود ونقل أبو نصر القشيرى عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من آمين مثل (آمين البيت الحرام) قال أصحابنا وغيرهم ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ، ويتأكد فى حق المصلى ، وسواء كان منفردا أو إماما أومأموما وفى جميع الأحوال لما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمن الامام فأمنوا فانه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفرله ماتقدم من ذنبه » ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال « إذا قال أحدكم فى الصلاة آمين والملائكة فى السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه » قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة فى الزمان وقيل فى الاجابة وقيل فى صفة الاخلاص وفى صحيح مسلم عن أبى موسى مرفوعا « إذا قال — يعنى الامام — ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله » وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قلت يارسول الله ما معنى آمين ؟ قال « رب افعل » وقال الجوهرى معنى آمين كذلك فليكن . وقال الترمذى معناه لاتخيب رجاءنا . وقال الأكثرون معناه اللهم استجب لنا . وحكى القرطبى عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن يساف أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروى عن ابن عباس مرفوعا ولايصح قاله أبو بكر ابن العربى المالكى . وقال أصحاب مالك لا يؤمن الامام ويؤمن المأموم لما رواه مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « وإذا قال — يعنى الامام — ولا الضالين فقولوا آمين » الحديث واستأنسوا أيضا بحديث أبى موسى عند مسلم « وإذا قرأ ولا الضالين فقولوا آمين » وقدقدمنا فى المتفق عليه « إذا أمن الامام فأمنوا » وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقد اختلف أصحابنا فى الجهر بالتأمين للمأموم فى الجهرية وحاصل الخلاف أن الامام إن نسى التأمين جهر المأموم به قولا واحدا وإن أمن الامام جهرا فالجديد أنه لايجهر المأموم وهو مذهب أبى حنيفة ورواية عن مالك لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة . والقديم أنه يجهر به وهو مذهب الامام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك لما تقدم « حتى يرتج المسجد » ولنا قول آخر ثالث أنه إن كان المسجد صغيرا لم يجهر المأموم لأنهم يسمعون قراءة الامام وإن كان كبيرا جهر ليبلغ التأمين من فى أرجاء المسجد والله أعلم . وقد روى الامام أحمد فى مسنده عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود فقال « إنهم لن يحسدونا على شىء كما يحسدونا على الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الامام آمين » ورواه ابن ماجه ولفظه « ماحسدتكم اليهود على شىء ماحسدتكم على السلام والتأمين » وله عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على قول آمين فأكثروا من قول آمين » وفى إسناده طلحة بن عمرو وهو ضعيف وروى ابن مردويه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين » وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت آمين فى الصلاة وعند الدعاء لم يعط أحد قبلى إلا أن يكون موسى كان موسى يدعو وهرون يؤمن فاختموا الدعاء بآمين فان الله يستجيبه لكم » (قلت) ومن هنا نزع بعضهم فى الدلالة بهذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا

العذاب الأليم * قال قدأجيبت دعوتكما فاستقيما ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون) فذكرالدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام مايدل على أن هرون أمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى (قدأجيبت دعوتكما) فدل ذلك على أن من أمن على دعاء فكأنما قاله فلهذا قال من قال إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها ولهذا جاء فى الحديث « من كان له إمام فقراءة الامام له قراءة » رواه أحمد فى مسنده وكان بلال يقول لاتسبقنى بآمين يارسول الله . فدل هذا المنزع على أن المأموم لاقراءة عليه فى الجهرية والله أعلم ولهذا قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن الحسن حدثنا عبدالله بن محمد بن سلام حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن ليث عن ابن أبى سليم عن كعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قال الامام غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقال آمين ، فوافق آمين أهل الأرض آمين أهل السماء غفر الله للعبد ماتقدم من ذنبه ومثل من لايقول آمين كمثل رجل غزا مع قوم فاقترعوا فخرجت سهامهم ولم يخرج سهمه فقال لم يخرج سهمى ؟ فقيل إنك لم تقل آمين »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ * رب يسر وأعن يا كريم *

تفسير سورة البقرة

(ذكر ماورد فى فضلها) قال الامام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل عن أبيه عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال « البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا واستخرجت (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة ، ويس قلب القرآن لايقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة الا غفر له واقرءوها على موتاكم » انفرد به أحمد وقد رواه أحمد أيضا عن عارم عن عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمى عن أبى عثمان — وليس بالنهدى — عن أبيه عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ « اقرءوها على موتاكم » يعنى يس . فقد تبينا بهذا الاسناد معرفة المبهم فى الرواية الأولى . وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة فى الرواية الثانية أبوداود والنسائى وابن ماجه ، وقد روى الترمذى من حديث حكيم بن جبير وفيه ضعف عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لكل شىء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن آية الكرسى » وفى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذى والنسائى من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فان البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لايدخله الشيطان » وقال الترمذى حسن صحيح وقال أبوعبيد القاسم بن سلام حدثنى ابن أبى مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن سنان بن سعد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن الشيطان يخرج من البيت اذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه » سنان بن سعد ويقال بالعكس وثقه ابن معين واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره. وقال أبوعبيد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن أبى الأحوص عن عبد الله — يعنى ابن مسعود — رضى الله عنه قال ان الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة ورواه النسائى فى اليوم والليلة وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا أبو إسماعيل الترمذى حدثنا أيوب بن سليمان بن بلال حدثنى أبو بكر بن أبى أويس عن سليمان ابن بلال عن محمد بن عجلان عن أبى اسحاق عن أبى الأحوص عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لاألفين أحدكم يضع احدى رجليه على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرؤها فان الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة وان أصفر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله » وهكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة عن محمد بن نصر عن أيوب بن سليمان به وروى الدارمى فى مسنده عن ابن مسعود قال مامن بيت تقرأ فيه سورة البقرة الا خرج منه الشيطان وله ضراط وقال إن لكل شىء سناما وان سنام القرآن سورة البقرة وان لكل شىء لبابا وان لباب القرآن المفصل. وروى أيضا من طريق الشعبى قال : قال عبد الله بن مسعود من قرأ عشر آيات من سورة البقره فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان

تلك الليلة ، أربع من أولها وآية الكرسى ، وآيتان بعدها ، وثلاث آيات من آخرها ، وفى رواية لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان . ولا شيء يكرهه ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن البقرة وإن من قرأها فى بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ومن قرأها فى بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام » رواه أبو القاسم الطبرانى وأبو حاتم وابن حبان فى صحيحه وابن مردويه من حديث الأزرق بن على حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا خالد بن سعيد المدنى عن أبى حازم عن سهل به. وعند ابن حبان خالد بن سعيد المدينى وقد روى الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر عن سعيد المقبرى عن عطاء مولى أبى أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم مامعه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال مامعك يافلان فقال معى كذا وكذا وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم قال : اذهب فأنت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم والله مامنعنى أن أتعلم سورة البقرة إلا أنى خشيت أن لاأقوم بها . فقال رسول الله ﷺ « تعلموا القرآن واقرءوه فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ومثل من تعلمه فيرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أوكى على مسك » هذا لفظ رواية الترمذى ثم قال هذا حديث حسن ثم رواه من حديث الليث عن سعيد عن عطاء مولى أبى أحمد مرسلا فالله أعلم قال البخارى وقال الليث حدثنى يزيد بن الهاد عن محمد بن ابراهيم عن أسيد بن حضير رضى الله عنه قال بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة — وفرسه مربوطة عنده — إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكنت ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها . فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى مايراها ، فلما أصبح حدث النبى ﷺ فقال « اقرأ ياابن حضير » قال قد اشفقت يارسول الله على يحيى وكان منها قريبا فرفعت راسى وانصرفت إليه فرفعت رأسى إلى السماء فاذا مثل الظلة فيها امثال المصابيح فخرجت حتى لاأراها قال « وتدرى ماذاك ؟ » قال لا قال « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لاصبحت ينظر الناس اليها لاتتوارى منهم » وهكذا رواه الامام العالم ابو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن عن عبدالله بن صالح ويحى بن بكير عن الليث به . وقد روى من وجه آخر عن أسيد بن حضير كما تقدم والله أعلم . وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس رضى الله عنه وذلك فيما رواه ابو عبيد حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عمه جرير بن يزيد أن اشياخ اهل المدينة حدثوه «أن رسول الله ﷺ قيل له ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح قال « فلعله قرأ سورة البقرة » قال فسألت ثابتا فقال قرأت سورة البقرة » وهذا إسناد جيد إلا أن فيه إبهاما ثم هو مرسل والله أعلم

﴿ ذكر ما ورد فى فضلها مع آل عمران ﴾

قال الامام أحمد حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثنى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كنت جالسا عند النبى ﷺ فسمعته يقول « تعلموا سورة البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة » قال ثم سكت ساعة ثم قال « تعلموا سورة البقرة و آل عمران فانهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أوغيايتان أو فرقان من طير صواف وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفنى ؟ فيقول : ماأعرفك فيقول أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتان لايقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بما كسينا هذا فيقال بأخذولد كما القرآن ثم يقال اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها فهو فى صعود مادام يقرأ هذا كان أوترتيلا » وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه وهذا إسناد حسن على شرط مسلم فان بشرا هذا خرج له مسلم ووثقه ابن معين وقال النسائى مابه بأس إلا أن الامام أحمد قال فيه هو منكر الحديث قد اعتبرت أحاديثه فاذا هى تأتى بالعجب وقال البخارى يخالف فى بعض حديثه وقال أبو حاتم

الرازى يكتب حديثه ولايحتج به وقال ابن عدى روى مالا يتابع عليه وقال الدار قطنى ليس بالقوى (قلت) ولكن لبعضه شواهد فمن ذلك حديث أبى أمامة الباهلى قال الامام أحمد حدثنا عبد الملك بن عمر حدثنا هشام عن يحى بن أبى كثير عن أبى سلام عن أبى أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « اقرءوا القرآن فانه شافع لأهله يوم القيامة اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فانهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أوكأنهما غيايتان أوكأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة ثم قال اقرءوا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولاتستطيعها البطلة وقد رواه مسلم فى الصلاة من حديث معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبى سلام ممطور الحبشى عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى به . الزهراوان : المنيرتان ، والغياية : ماأظلك من فوقك ، والفرق : القطعة من الشىء ، والصواف المصطفة المتضامة : والبطلة السحرة ، ومعنى لاتستطيعها أى لايمكنهم حفظها وقيل لاتستطيع النفوذ فى قارئها والله أعلم . ومن ذلك حديث النواس بن سمعان قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشى عن جبير بن نفير قال سمعت النواس بن سمعان الكلابى يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران » وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتهن بعد قال « كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أوكأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما » ورواه مسلم عن إسحاق بن منصور عن يزيد بن عبد ربه به ، والترمذى من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشى به وقال حسن غريب ، وقال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير قال : قال حماد أحسبه عن أبى منيب عن عمه أن رجلا قرأ البقرة وآل عمران فلما قضى صلاته قال له كعب أقرأت البقرة وآل عمران ؟ قال نعم قال فوالذى نفسى بيده إن فيهما اسم الله الذى إذادعى به استجاب . قال فأخبرنى به قال لا والله لاأخبرك به ولو أخبرتك به لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت ، وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن سليم بن عامر انه سمع ابا امامة يقول إن أخا لكم ارى فى المنام ان الناس يسلكون فى صدع جبل وعر طويل وعلى راس الجبل شجرتان خضراوان يهتفان هل فيكم قارىء يقرا سورة البقرة ؟ وهل فيكم قارىء يقرا سورة آل عمران ؟ قال فاذا قال الرجل نعم دنتا منه بأعذاقهما حتى يتعلق بهما فيخطران به الجبل : وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن ابى عمران انه سمع ام الدرداء تقول إن رجلا ممن قرأ القرآن اغار على جارله فقتله وإنه اقيدبه فقتل فمازال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم إن آل عمران انسلت منه وأقامت البقرة جمعة فقيل لها (مايبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) قال فخرجت كأنها السحابة العظيمة قال أبو عبيد أراه يعنى أنهما كانتا معه فى قبره يدفعان عنه ويؤنسانه فكانتا من آخر مابقى معه من القرآن . وقال أيضاً حدثنا أبومسهر الغسانى عن سعيد بن عبد العزيز التنوخى أن يزيد بن الأسود الجرشى كان يحدث أنه من قرأ البقرة وآل عمران فى يوم برىء من النفاق حتى يمسى ومن قرأهما فى ليلة برىء من النفاق حتى يصبح قال فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه . وحدثنا يزيد عن ورقاء ابن إياس عن سعيد بن جبير قال :قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من قرأ البقرة وآل عمران فى ليلة كان أوكتب من القانتين . فيه انقطاع ولكن ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى ركعة واحدة

﴿ ذكر ماورد فى فضل السبع الطول ﴾

قال أبو عبيد حدثنا هشام بن اسماعيل الدمشقى عن محمد بن شعيب عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى المليح عن واثلة بن الأسقع عن النبى ﷺ قال «أعطيت السبع الطول مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الانجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور وفضلت بالمفصل » هذا حديث غريب وسعيد بن أبى بشير فيه لين وقد رواه أبو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث عن سعيد بن أبى هلال قال بلغنا أن رسول الله ﷺ قال فذكره والله

أعلم ثم قال حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب عن حبيب بن هند الأسلمي عن عروة عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال « من أخذ السبع فهو حبر » وهذا أيضا غريب وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثة الأسلمي وروى عنه عمرو بن عمرو[1] وعبد الله بن أبي بكرة وذكره أبو حاتم الرازى ولم يذكر فيه جرحا فالله أعلم. وقد رواه الأمام أحمد عن سليمان بن داود وحسين كلاهما عن إسماعيل بن جعفر به ورواه أيضا عن أبي سعيد عن سليمان بن بلال عن حبيب بن هند عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر » قال أحمد وحدثنا حسين حدثنا ابن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله قال عبد الله بن أحمد وهذا أرى فيه عن أبيه عن الأعرج ولكن كذا كان فى الكتاب فلا أدرى أغفله أبي أو[2] كذا هو مرسل وروى الترمذى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث بعثا وهم ذوو عدد وقدم عليهم أحدثهم سنا لحفظه سورة البقرة وقال له « اذهب فأنت أميرهم » وصححه الترمذى ثم قال أبو عبيد حدثنا هشيم أنا أبو بشر عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثانى) قال هى السبع الطول البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس قال : وقال مجاهد هى السبع الطول وهكذا قال مكحول وعطية بن قيس وأبو محمد الفارسي وشداد بن أوس ويحيى بن الحارث الذمارى فى تفسير الآية بذلك وفى تعدادها وأن يونس هى السابعة .

﴿ فصل ﴾ والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهى من أوائل ما نزل بها لكن قوله تعالى فيه (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الآية يقال إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل وكان خالد بن معدان يسمى البقرة فسطاط القرآن قال بعض العلماء وهى مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهى وقال العادون آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وحروفها خمسة وعشرون ألفا وخمسمائة حرف فالله أعلم . قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير قال نزلت بالمدينة سورة البقرة وقال الواقدى حدثنى الضحاك بن عثمان عن أبي الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال نزلت البقرة بالمدينة وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه . وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا الحسن بن على بن الوليد الفارسى حدثنا خلف بن هشام وحدثنا عيسى بن ميمون عن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ولكن قولوا السورة التى يذكر فيها البقرة والتى يذكر فيها آل عمران وكذ القرآن كله » هذا حديث غريب لا يصح رفعه وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص وهو ضعيف الرواية لايحتج به وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادى فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ثم قال هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة أخرجاه ، وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد قال رأى النبي ﷺ فى أصحابه تأخرا فقال « يا أصحاب سورة البقرة » وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم « يا أصحاب الشجرة » يعنى أهل بيعة الرضوان وفى رواية « يا أصحاب سورة البقرة » لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بنى حنيفة فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون يا أصحاب سورة البقرة حتى فتح الله عليهم رضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴾

قد اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور فمنهم من قال هى مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها

(١) كذا والذى تقدم عمرو بن أبي عمرو (٢) هكذا فى جميع النسخ والصواب أم

إلى الله ولم يفسروها حكاه القرطبي فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم أجمعين؛ وقاله عامر الشعبي وسفيان الثورى والربيع بن خيثم واختاره أبو حاتم بن حبان . ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء فى معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنما هى أسماء السور . قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الز مخشرى فى تفسيره وعليه إطباق الأكثر ونقله عن سيبويه أنه نص عليه ويعتضد لهذا بما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة الم السجدة وهل أتى على الإنسان وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال : الم،وحم ، والمص ، وص،فواتح افتتح الله بها القرآن ، وكذا قال غيره عن مجاهد وقال مجاهد فى رواية أبى حذيفة موسى بن مسعود عن شبل عن ابن أبى نجيح عنه أنه قال الم اسم من أسماء القرآن وهكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه اسم من أسماء السور فان كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فانه يبعد أن يكون المص اسما للقرآن كله لأن التبادر إلى فهم سامع من يقول قرأت المص إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن والله أعلم .

وقيل هى اسم من أسماء الله تعالى فقال الشعبي فواتح السور من أسماء الله تعالى وكذلك قال سالم بن عبد الله وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير وقال شعبة عن السدى بلغنى أن ابن عباس قال الم اسم من أسماء الله الأعظم(؟) هكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث شعبة ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدى عن شعبة قال سألت السدى عن حم وطس والم فقال: قال ابن عباس هى اسم الله الأعظم وقال ابن جرير وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو النعمان حدثنا شعبة عن إسماعيل السدى عن مرة الهمدانى قال : قال عبد الله فذكر نحوه ، وحكى مثله عن على وابن عباس وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث ابن علية عن خالد الحذاء عن عكرمة أنه قال الم قسم . ورويا أيضا من حديث شريك بن عبد الله عن عطاء ابن السائب عن أبى الضحى عن ابن عباس : الم قال أنا الله أعلم . وكذا قال سعيد بن جبير وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ الم قال أما الم فهى حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى الم قال هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الألس كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه ، وليس منها حرف إلا وهو فى مدة أقوام وآجالهم قال عيسى بن مريم عليه السلام وعجب : فقال أعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون فى رزقه فكيف يكفرون به ، فالألف مفتاح اسم الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد فالألف آلاء الله واللام لطف الله والميم مجد الله ، والألف سنة واللام ثلاثون سنة والميم أربعون سنة

هذا لفظ ابن أبى حاتم ونحوه رواه ابن جرير ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وأن الجمع ممكن فهى أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته كما افتتح سورا كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه ، قال ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاته وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبى العالية لأن الكلمة الواحدة تطلق على معان كثيرة كلفظة الأمة فانها تطلق ويراد به الدين كقوله تعالى (إنا وجدنا آباءنا على أمة) وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) وقوله تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) وتطلق ويراد بها الحين من الدهر كقوله تعالى (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة) أى بعد حين على أصح القولين قال فكذلك هذا

هذا حاصل كلامه موجها ولكن هذا ليس كما ذكره ابو العالية فان ابا العالية زعم ان الحرف دل على هذا وعلى

هذا وعلى هذا معا ولفظة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة فى الاصطلاح انما دل فى القرآن فى كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام فأما حمله على مجموع محامله اذا أمكن فمسئلة مختلف فيها بين علماء الأصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم . ثم ان لفظة الأمة تدل على كل من معانيها فى سياق الكلام بدلالة الوضع فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن ان يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر فى التقدير أو الاضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لايفهم الا بتوقيف ، والمسئلة مختلف فيها وليس فيها اجماع حتى يحكم به وما أنشدوه من الشواهد على صحة اطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فان فى السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا كما قال الشاعر :

قلنا قفى لنا فقالت قاف * لاتحسبي أنا نسينا الايجاف

تعنى وقفت . وقال الآخر : ما للظليم عال كيف لايا * ينقد عنه جلده اذا يا

فقال ابن جرير كأنه أراد أن يقول اذا يفعل كذا وكذا فاكتفى بالياء من يفعل وقال الآخر :

بالخير خيرات وان شراً فا * ولا أريد الشر الا ان تا

يقول وان شرا فشر ولا أريد الشر الا أن تشاء فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام والله أعلم .

قال القرطبي وفى الحديث « من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة » الحديث قال سفيان هو أن يقول فى اقتل « اق » وقال خصيف عن مجاهد إنه قال فواتح السور كلها (ق وص وحم وطسم والر) وغير ذلك هجاء موضوع وقال بعض أهل العربية هى حروف من حروف المعجم استغنى بذكر ما ذكر منها فى أوائل السور عن ذكر بواقيها التى هى تتمة الثمانية والعشرين حرفا كما يقول القائل ابنى يكتب فى — اب ت ث — أى فى حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير .

قلت مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفا وهى — الم ص ر ك ه ى ع ط س ح ق ن — يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر . وهى نصف الحروف عددا والمذكور منها أشرف من المتروك (١) وبيان ذلك من صناعة التصريف . قال الزمخشرى وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعنى من المهموسة والمجهورة ، ومن الرخوة والشديدة ، ومن المطبقة والمفتوحة ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف القلقلة . وقد سردها مفصلة ثم قال . فسبحان الذى دقت فى كل شىء حكمته . وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها وقد علمت أن معظم الشىء وجله ينزل منزلة كله ومن ههنا لخص بعضهم فى هذا المقام كلاماً فقال : لاشك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثا ولا سدى ؛ ومن قال من الجهلة ان فى القرآن ماهو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيرا ، فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر فان صح لنا فيها عن المعصوم شىء قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا (آمنا به كل من عند ربنا) ولم يجمع العلماء فيها على شىء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين . هذا مقام .

المقام الآخر فى الحكمة التى اقتضت إيراد هذه الحروف فى أوائل السور ماهى مع قطع النظر عن معانيها فى أنفسها ، فقال بعضهم إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة وقال آخرون بل ابتدىء بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين إذ تواصوا بالاعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه حكاه ابن جرير أيضاً وهو ضعيف أيضاً لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور لا يكون فى بعضها بل غالبها ليس كذلك ولو كان كذلك أيضاً لانبغى الابتداء بها فى أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم إن هذه السورة والتى تليها أعنى البقرة

---

(١) (قوله أشرف الخ) فيه نظر لأن الجميع كلام الله إلا أن يقال أشرف بمعنى أعظم

وآل عمران مدنيتان ليستا خطابا للمشركين فانتقض ماذكروه بهذه الوجوه . وقال آخرون بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لاعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين ، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا : وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الشيخ الامام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية .

قال الزمخشري ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالصريح في أماكن قال وجاء منها على حرف واحد كقوله ــ ص ن ق ــ وحرفين مثل (حم) وثلاثة مثل (الم) وأربعة مثل (المر والمص) وخمسة مثل (كهيعص وحمعسق) لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ماهو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك (قلت) ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى (الم ؛ ذلك الكتاب لاريب فيه) (الم ؛ الله لاإله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه) (المص ؛ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) (الر ؛ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم) (الم ، تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) (حم ؛ تنزيل من الرحمن الرحيم) (حمعسق ؛ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ماذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ماليس له ؛ وطار في غير مطاره ، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته وهو مارواه محمد بن اسحاق بن يسار صاحب المغازي حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر ابن عبد الله بن رباب قال مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة (الم . ذلك الكتاب لاريب فيه) فأتى أخاه حي بن أخطب في رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه) فقال أنت سمعته قال نعم قال فمشى حي بن أخطب في أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يامحمد ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك (الم . ذلك الكتاب) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بلى » فقالوا جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ فقال « نعم » قالوا لقد بعث الله قبلك أنبياء مانعلمه بين لنبي منهم مامدة ملكه وما أجل أمته غيرك . فقام حي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يامحمد هل مع هذا غيره فقال نعم ، قال ماذاك ؟ قال « المص » قال هذا أثقل وأطول ، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة . هل مع هذا يامحمد غيره : قال : نعم ، قال ماذاك : قال الر . قال هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة . فهل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال « نعم » قال ماذا قال « المر » قال هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون ومائتان ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يامحمد حتى ماندري أقليلا أعطيت أم كثيرا . ثم قال قوموا عنه ، ثم قال أبو ياسر لأخيه حي بن أخطب ولمن معه من الأحبار مايدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع سنين : فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون ان هؤلاء الآيات نزلت فيهم (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو ممن لا يحتج بما انفرد به ثم

كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحا أن يحسب مالكل حرف من الحروف الأربعة عشر التى ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وإن حسبت مع التكرر فأطم وأعظم والله أعلم

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قال ابن جريج قال ابن عباس ذلك الكتاب أى هذا الكتب وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وابن جريج أن ذلك بمعنى هذا والعرب تعارض بين اسمى الاشارة فيستعملون كلامنهما مكان الآخر وهذا معروف فى كلامهم وقد حكاه البخارى عن معمر بن المثنى عن أبى عبيدة وقال الزمخشرى ذلك إشارة إلى (الم) كما قال تعالى (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) وقال تعالى (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) وقال (ذلكم الله) وأمثال ذلك مما أشير به إلى ماتقدم ذكره والله أعلم . وقد ذهب بعض المفسرين فيما حكاه القرطبى وغيره أن ذلك إشارة إلى القرآن الذى وعد الرسول ﷺ بانزاله عليه أو التوراة أو الانجيل أو نحو ذلك فى أقوال عشرة وقد ضعف هذا المذهب كثيرون والله أعلم .

والكتاب القرآن ومن قال : إن المراد بذلك الكتاب الاشارة إلى التوراة والانجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزع وتكلف مالا علم له به . والريب الشك قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (لاريب فيه) لاشك فيه وقال أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدى وقتادة وإسمعيل بن أبى خالد — وقال ابن أبى حاتم لا أعلم فى هذا خلافا . وقد يستعمل الريب فى التهمة قال جميل :

بثينة قالت ياجميل أربتنى * فقلت كلانا يابثين مريب

واستعمل أيضا فى الحاجة كما قال بعضهم :

قضينا من تهامة كل ريب * وخيبر ثم أجممنا السيوفا

ومعنى الكلام هنا أن هذا الكتاب هو القرآن لاشك فيه أنه نزل من عند الله كما قال تعالى فى السجدة (الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) وقال بعضهم هذا خبر ومعناه النهى أى لاترتابوا فيه . ومن القراء من يقف على قوله تعالى (لا ريب) ويبتدىء بقوله تعالى (فيه هدى للمتقين) والوقف على قوله تعالى (لاريب فيه) أولى للآية التى ذكرناها ولأنه يصير قوله تعالى (هدى) صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون فيه هدى . وهدى يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعا على النعت ومنصوبا على الحال وخصت الهداية للمتقين كما قال (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلاخسارا) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو فى نفسه هدى ولكن لاينا له إلا الأبرار كما قال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) وقد قال السدى عن ابى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (هدى للمتقين) يعنى نوراً للمتقين وقال أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال هدى للمتقين قال هم المؤمنون الذين يتقون الشرك بى ويعملون بطاعتى وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (للمتقين) قال الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك مايعرفون من الهدى ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به وقال سفيان الثورى عن رجل عن الحسن البصرى قوله تعالى للمتقين قال : اتقوا ماحرم الله عليهم وأدواماافترض عليهم وقال أبو بكر بن عياش سألنى الأعمش عن المتقين قال فأجبته فقال لى سل عنها الكلبى فسألته فقال الذين يجتنبون كبائر الاثم قال فرجعت الى الأعمش فقال يرى أنه كذلك ولم ينكره . وقال قتادة للمتقين هم الذين نعتهم الله بقوله (الذين يؤمنين بالغيب ويقيمون الصلاة)

الآية والتي بعدها واختيار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله وهو كما قال . وقد روى الترمذي وابن ماجه من رواية أبي عقيل عبد الله بن عقيل عن عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس عن عطية السعدي قال : قال رسول الله ﷺ « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » ثم قال الترمذي حسن غريب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن عمران عن إسحق بن سليمان يعني الرازي عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبي حمزة قال : كنت جالسا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل قال بلى سمعته يقول يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد فينادي مناد أين المتقون ؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت من المتقون قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة . ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الايمان وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل قال الله تعالى (إنك لا تهدي من أحببت) وقال (ليس عليك هداهم) وقال (من يضلل الله فلا هادي له) وقال (من يهد الله فهو المهتد * ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) إلى غير ذلك من الآيات ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والارشاد إليه قال الله تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) وقال (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) وقال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وقال (وهديناه النجدين) على تفسير من قال المراد بهما الخير والشر وهو الأرجح والله أعلم وأصل التقوى التوقي مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية قال النابغة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه * فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر : فألقت قناعا دونه الشمس واتقت * بأحسن موصولين كف ومعصم

وقد قيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى قال فما عملت قال شمرت واجتهدت قال فذلك التقوى . وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال

خل الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التقى * واصنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة * إن الجبال من الحصى

وأنشد أبو الدرداء يوما يريد المرء أن يؤتى مناه * ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي * وتقوى الله أفضل ما استفادا

وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله »

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

قال أبو جعفر الرازي عن العلاء بن المسيب بن رافع عن أبي اسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : الايمان التصديق ، وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما يؤمنون يصدقون وقال معمر عن الزهري : الايمان العمل ، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس يؤمنون يخشون

قال ابن جرير : والأولى أن يكونوا موصوفين بالايمان بالغيب قولا واعتقاداً وعملا وقد تدخل الخشية لله في معنى الايمان الذي هو تصديق القول بالعمل ، والايمان كلمة جامعة للايمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الاقرار بالفعل (قلت) أما الايمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) وكما قال إخوة يوسف لأبيهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال كقوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فأما إذا استعمل مطلقاً فالايمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولا وعملا . هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة

وغير واحد إجماعا : أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة . ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) وقوله (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) والخشية خلاصة الايمان والعلم كما قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال بعضهم يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن) وقال (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فعلى هذا يكون قوله بالغيب حالا أى فى حال كونهم غيبا عن الناس

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد ، قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (يؤمنون بالغيب) قال يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله . وكذا قال قتادة بن دعامة وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر فى القرآن ، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بالغيب قال بما جاء منه ـ يعنى من الله تعالى ـ وقال سفيان الثورى عن عاصم عن زر قال الغيب القرآن وقال عطاء بن أبى رباح من آمن بالله فقد آمن بالغيب وقال إسماعيل بن أبى خالد يؤمنون بالغيب قال بغيب الاسلام وقال زيد بن أسلم الذين يؤمنون بالغيب قال بالقدر فكل هذه متقاربة فى معنى واحد لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الايمان به .

وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال كنا عند عبد الله ابن مسعود جلوسا فذكرنا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به فقال عبد الله إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانا أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ (الم ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ـ إلى قوله ـ المفلحون) وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طرق عن الأعمش به وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وفى معنى هذا الحديث الذى رواه أحمد حدثنا أبو المغيرة أنا الأوزاعى حدثنى أسد بن عبد الرحمن عن خالد بن دريك عن ابن محيريز قال قلت لأبى جمعة حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثك حديثا جيداً : تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال يارسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك . قال « نعم قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » طريق أخرى قال أبو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إسماعيل عن عبد الله بن مسعود حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا معاوية بن صالح عن صالح بن جبير قال قدم علينا أبو جمعة الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ ببيت القدس يصلى فيه ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة رضى الله عنه فلما انصرف خرجنا نشيعه فلما أراد الانصراف قال إن لكم جائزة وحقا أحدثكم بحديث سمعته من رسول ﷺ قلنا هات رحمك الله قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة فقلنا يارسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا ؟ آمنا بالله واتبعناك ، قال « مايمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا » مرتين ثم رواه من حديث ضمرة بن ربيعة عن مرزوق بن نافع عن صالح بن جبير عن أبى جمعة بنحوه وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوجادة التى اختلف فيها أهل الحديث كما قررته فى أول شرح البخارى لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم اعظم اجراً من هذه الحيثية لا مطلقا وكذ الحديث الآخر الذى رواه الحسن بن عرفة العبدى حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصى عن المغيرة بن قيس التميمى عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ « أى الخلق أعجب اليكم إيمانا ؟» قالوا الملائكة قال «ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟» قالوا فالنبيون قال « ومالهم لا يؤمنون

والوحي ينزل عليهم ؟» قالوا فنحن قال «وما لكم لاتؤمنون وأنا بين أظهركم» قال فقال رسول الله ﷺ «ألا إن أعجب الخلق إليّ إيمانا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفافيها كتاب يؤمنون بما فيها » قال أبو حاتم الرازى : المغيرة بن قيس البصرى منكر الحديث (قلت) ولكن قدروى أبو يعلى فى مسنده وابن مردويه فى تفسيره والحاكم فى مستدركه من حديث محمد بن حميد - وفيه ضعف - عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله أو نحوه وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعا والله أعلم ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن محمد المسندى حدثنا إسحاق بن إدريس أخبرنى إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصارى أخبرنى جعفر بن محمود عن جدته بديلة بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة فاستقبلنا مسجد ايلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام قال إبراهيم فحدثنى رجال من بنى حارثة أن رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال « أولئك قوم آمنوا بالغيب » هذا حديث غريب من هذا الوجه

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

قال ابن عباس ويقيمون الصلاة أى يقيمون الصلاة بفروضها وقال الضحاك عن ابن عباس إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والاقبال عليها فيها ، وقال قتادة إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال مقاتل بن حيان إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبى ﷺ فهذا إقامتها .

وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس (ومما رزقناهم ينفقون) قال زكاة أموالهم ، وقال السدى عن أبى مالك وعن ابى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (ومما رزقناهم ينفقون) قال نفقة الرجل على أهله وهذا قبل أن تنزل الزكاة وقال جويبر عن الضحاك كانت النفقات قربانا يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات فى سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات هن الناسخات المثبتات وقال قتادة (ومما رزقناهم ينفقون) فأنفقوا مما أعطاكم الله ، هذه الأموال عوار وودائع عندك يابن آدم يوشك أن تفارقها

واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات فانه قال وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مؤدين - زكاة كانت ذلك أونفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الانفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه (قلت) كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والانفاق من الأموال فان الصلاة حق الله وعبادته وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه ، والانفاق هو من الاحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم ، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك ، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) ولهذا ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت » والأحاديث فى هذا كثيرة وأصل الصلاة فى كلام العرب الدعاء . قال الأعشى

لها حارس لايبرح الدهر بيتها * وإن ذبحت صلى عليها وزمزما

وقال أيضا

وقابلها الريح فى دنها * وصلى على دنها وارتسم

أنشدهما ابن جرير مستشهدا على ذلك . وقال الآخر وهو الأعشى أيضا :

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا * يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى * نوما فان لجنب المرء مضطجعا

يقول عليك من الدعاء مثل الذى دعيته لى . وهذا ظاهر ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة . قال ابن جرير وأرى أن الصلاة سميت صلاة لأن المصلى يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه من حاجاته وقيل هى مشتقة من الصلوين إذا تحركا فى الصلاة عند الركوع والسجود وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفان عجب الذنب ومنه سمى المصلى وهو التالى للسابق فى حلبة الخيل ، وفيه نظر . وقيل هى مشتقة من الصلى وهو الملازمة للشىء من قوله تعالى (لا يصلاها) أى لا يلزمها ويدوم فيها (إلا الأشقى) وقيل مشتقة من تصلية الخشبة فى النار لتقوّم كما أن المصلى يقوّم عوجه بالصلاة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر والله أعلم .

وأما الزكاة فسيأتى الكلام عليها فى موضعه إن شاء الله تعالى

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

قال ابن عباس والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك أى يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم وبالآخرة هم يوقنون أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هنا ، هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ومن هم : على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير أحدها أن الموصوفين أوّلا هم الموصوفون ثانيا وهم كل مؤمن مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم قاله مجاهد وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ، والثانى هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات كما قال تعالى (سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) وكما قال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد والثالث أن الموصوفين أولا مؤمنو العرب والموصوفون ثانيا بقوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) لمؤمنى أهل الكتاب نقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة واختاره ابن جرير رحمه الله ويستشهد لما قال بقوله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية وبقوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) وبما ثبت فى الصحيحين من حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها» وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة وهى ان الله وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين فكما انه صنف الكافرين إلى صنفين كافر ومنافق فكذلك المؤمنون صنفهم إلى صنفين عربى وكتابى (قلت) والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى عن رجل عن مجاهد ورواه غير واحد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد انه قال : أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين وآيتان فى نعت الكافرين وثلاثة عشر فى المنافقين فهذه الآيات الأربع عامات فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى وكتابى من إنسى وجنى وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى

بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها فلا يصح الايمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الايمان بما جاء به الرسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والايقان بالآخرة كما أن هذا لايصح إلا بهذاك وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) الآية وقال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلابالتى هى أحسن إلاالذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد) الآية وقال تعالى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم) وقال تعالى (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم) وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله) وقال تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) إلى غيرذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالايمان بالله ورسله وكتبه لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية وذلك انهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلا فاذا دخلوا فى الاسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين وأما غيرهم فانما يحصل له الايمان بما تقدم مجملا كما جاء فى الصحيح « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ولكن قولوا آمنابالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالاسلام الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم فى الاسلام فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية فغيرهم يحصل له من التصديق ماينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلالهم والله أعلم .

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

يقول الله تعالى (أولئك) أى المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والانفاق من الذى رزقهم الله والايمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والايقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات (على هدى) أى على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى (وأولئك هم المفلحون) أى فى الدنيا والآخرة وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس (أولئك على هدى من ربهم) أى على نور من ربهم واستقامة على ماجاءهم به (وأولئك هم المفلحون) أى الذين أدركوا ماطلبوا ونجوا من شر مامنه هربوا وقال ابن جرير وأما معنى قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) فان معنى ذلك فانهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديده إياهم وتوفيقه لهم وتأويل قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) أى المنجحون المدركون ماطلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب ، والخلود فى الجنات والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب . وقد حكى ابن جرير قولا عن بعضهم أنه أعاد اسم الاشارة فى قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) إلى مؤمنى أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) الآية على ماتقدم من الخلاف : وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل اليك) منقطعا مما قبله وأن يكون مرفوعا على الابتداء وخبره (أولئك هم المفلحون) واختار انه عائد الى جميع من تقدم ذكره من مؤمنى العرب وأهل الكتاب لما رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن اناس من أصحاب رسول الله ﷺ . أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب ثم جمع الفريقين فقال (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وقد تقدم من الترجيح ان ذلك صفة للمؤمنين عامة والاشارة عائدة عليهم والله أعلم .

وقد نقل عن مجاهد وأبى العالية والربيع بن أنس وقتادة رحمهم الله وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحى بن عثمان ابن صالح المصرى حدثنا أبى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبيد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم واسمه سليمان بن عبد الله عن عبدالله ابن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم وقيل له يارسول الله انا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس

أو كما قال: قال « أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار قالوا بلى يارسول الله قال (الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين — إلى قوله تعالى — المفلحون) هؤلاء أهل الجنة قالوا إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال (إن الذين كفروا سواء عليهم — إلى قوله — عظيم) هؤلاء أهل النار قالوا لسنا هم يارسول الله . قال : أجل»

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (إن الذين كفروا) أى غطوا الحق وستروه وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواء عليهم إنذارك وعدمه فانهم لايؤمنون بما جئتهم به . كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولوجاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال تعالى فى حق المعاندين من أهل الكتاب (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك) الآية أى إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ومن أضله فلاهادى له فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ومن تولى فلا تحزن عليهم ولايهمنك ذلك (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب * إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل) وقال على بن ابى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) قال كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فاخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ولايضل إلا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول ، وقال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (إن الذين كفروا) أى بما أنزل إليك وإن قالوا إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) أى إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدواماأخذ عليهم من الميثاق وقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك إنذارا وتحذيرا وقد كفروا بما عندهم من علمك ،وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب وهم الذين قال الله فيهم (الم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا واحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها) والمعنى الذى ذكرناه أولا وهو المروى عن ابن عباس فى رواية على ابن أبى طلحة أظهر ويفسر ببقية الآيات التى فى معناها والله أعلم

وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا فقال حدثنا أبى حدثنا يحى بن عثمان بن صالح المصرى حدثنا ابى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبد الله بن المغيرة عن ابى الهيثم عن عبد الله بن عمرو قال قيل يارسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد ان نيأس فقال « الااخبركم » ثم قال (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) «هؤلاء اهل النار » قالوا لسنا منهم يارسول الله قال« اجل » وقوله تعالى (لايؤمنون) محله من الاعراب انه جملة مؤكدة للتى قبلها (سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم) اىهم كفار فى كلا الحالين فلهذا اكدذلك بقوله تعالى (لايؤمنون) ويحتمل ان يكون لا يؤمنون خبرا لإن تقديره إن الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) جملة معترضة والله أعلم

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قال السدى ختم الله أى طبع الله وقال قتادة فى هذه الآية استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة فهم لايبصرون هدى ولايسمعون ولايفقهون ولا يعقلون وقال ابن جريج قال مجاهد ختم الله على قلوبهم قال الطبع ثبتت الذنوب على القلب فحفت به من كل نواحيه حتى تلتقى عليه فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم. قال ابن جريج الختم على القلب والسمع قال ابن جريج وحدثنى عبدالله بن كثير أنه سمع مجاهدا يقول : الران ايسر من الطبع والطبع أيسر من الاقفال ، والاقفال أشد من ذلك كله وقال الأعمش أرانا مجاهد بيده فقال كانوا يرون أن القلب فى مثل هذه يعنى الكف فاذا أذنب العبد ذنبا ضم منه وقال باصبعه الخنصر هكذا فاذا أذنب

ضم وقال باصبع أخرى فاذا أذنب ضم وقال باصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها ثم قال يطبع عليه بطابع، وقال مجاهد كانوا يرون أن ذلك الرين ، ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عن الأعمش عن مجاهد بنحوه ، قال ابن جرير وقال بعضهم إنما معنى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا اليه من الحق كما يقال إن فلانا أصم عن هذا الكلام إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً قال وهذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم (قلت) وقد أطنب الزمخشرى فى تقرير مارده ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدا وماجرأه على ذلك إلا اعتزاله لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق اليها قبيح عنده يتعالى الله عنه فى اعتقاده ولوفهم قوله تعالى (فلمازاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال والله أعلم

قال القرطبي وأجمعت الأمة على أن الله عزوجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم. كما قال (بل طبع الله عليها بكفرهم) وذكر حديث تقليب القلوب « ويامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك » وذكر حديث حذيفة الذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ قال « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب انكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلاتضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لايعرف معروفا ولاينكر منكرا » الحديث قال ابن جرير والحق عندى فى ذلك ماصح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ وهو ماحدثنا به محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ابن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول ﷺ « إن المؤمن إذا اذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستعتب صقل قلبه وان زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كان يكسبون) هذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة والليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن اسماعيل والوليد بن مسلم ثلاثتهم عن محمد بن عجلان به وقال الترمذى حسن صحيح ثم قال ابن جرير فأخبر رسول الله ﷺ ان الذنوب إذا تتابعت على القلوب اغلقتها وإذا اغلقتها اتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للايمان اليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذى ذكر فى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) نظير الختم والطبع على ماتدركه الأبصار من الأوعية والظروف التى لايوصل الى مافيها الا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لايصل الايمان الى قلوب من وصف الله انه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم الا بعد فض خاتمه وحله رباطه عنها

واعلم ان الوقف التام على قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) وقوله (وعلى أبصارهم غشاوة) جملة تامة فان الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغشاوة وهى الغطاء يكون على البصر كما قال السدى فى تفسيره عن ابى مالك وعن ابى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى قوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم يقول فلا يعقلون ولا يسمعون يقول وجعل على ابصارهم غشاوة يقول على أعينهم فلا يبصرون وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سعد حدثنا ابى حدثنى عمى الحسين بن الحسن عن ابيه عن جده عن ابن عباس ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم والغشاوة على أبصارهم قال وحدثنا القاسم حدثنا الحسين يعنى ابن داود وهو سنيد حدثنى حجاج وهو ابن محمد الأعور حدثنى ابن جريج قال : الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر قال الله تعالى (فان يشإ الله يختم على قلبك) وقال (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) قال ابن جرير ومن نصب غشاوة من قوله تعالى وعلى أبصارهم غشاوة يحتمل أنه نصبها باضمار فعل تقديره وجعل على أبصارهم غشاوة ويحتمل

أن يكون نصبها على الاتباع على محل وعلى سمعهم كقوله تعالى (وحور عين) وقول الشاعر :

علفتها تبنا وماء بارداً * حتى شتت همالة عيناها

وقال الآخر : ورأيت زوجك فى الوغى * متقلداً سيفا ورمحا

تقديره وسقيتها ماءباردا ومعتقلا رمحا * لما تقدم وصف المؤمنين فى صدر السورة بأربع آيات ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين شرع تعالى فى بيان حال المنافقين الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب فى ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق كما أنزل سورة براءة فيهم وسورة المنافقين فيهم وذكرهم فى سورة النور وغيرها من السور تعريفا لأحوالهم لتجتنب ويجتنب من تلبس بها أيضا فقال تعالى

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر وهو أنواع : اعتقادى ، وهو الذى يخلد صاحبه فى النار وعملى وهو من أكبر الذنوب كما سيأتى تفصيله فى موضعه إن شاء الله تعالى وهذا كما قال ابن جريج المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه ، وإنما نزلت صفات المنافقين فى السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرها وهو فى الباطن مؤمن فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضى الله عنه ولم يكن إذذاك نفاق أيضا لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الاسلام وأهله قال عبد الله بن أبى ابن سلول وكان رأسا فى المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقى فى نفسه من الاسلام وأهله فلما كانت وقعة بدر قال هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول فى الاسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد هاجر لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة قال محمد بن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم وكذا فسرها بالمنافقين من الأوس والخزرج أبو العالية والحسن وقتادة والسدى ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار فى نفس الأمر وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) أى يقولون ذلك قولا ليس وراءه شىء آخر كما قال تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله) أى إنما يقولون ذلك اذا جاءوك فقط لا فى نفس الأمر ولهذا يؤكدون فى الشهادة بإن ولام التأكيد فى خبرها . أكدوا أمرهم قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر وليس الأمر كذلك كما كذبهم الله فى شهادتهم وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله تعالى (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وبقوله (وماهم بمؤمنين)

وقوله تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا)أى باظهارهم ما أظهروه من الايمان مع إسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم

أنهم يخدعون الله بذلك وأن ذلك نافعهم عنده وأنه يروج عليه كما قديروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون) ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله (ومايخادعون إلا أنفسهم ومايشعرون) يقول وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ومن القراء من قرأ (ومايخدعون إلا أنفسهم) وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد . قال ابن جرير فان قال قائل : كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعا وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية ؟ قيل : لاتمتنع العرب أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقية لينجو مما هو له خائف مخادعا فكذلك المنافق سمى مخادعا لله وللمؤمنين باظهاره ما اظهره بلسانه تقية بما يخلص به من القتل والسبى والعذاب العاجل وهو لغير ماأظهره مستبطن وذلك من فعله وإن كان خداعا للمؤمنين فى عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع ، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيتها ، ويسقيها كأس سرورها ، وهو موردها حياض عطبها ، ومجرعها به كأس عذابها ، ومزيرها من غضب الله وأليم عقابه مالا قبل لها به ، فذلك خديعته نفسه ظنا منه مع إساءته إليها فى أمر معادها أنه إليها محسن كما قال تعالى (ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون) إعلاما منه عباده المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم فى إسخاطهم عليها ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين ، ولكنهم على عمى من أمرهم مقيمين . وقال ابن أبى حاتم أنبأنا على بن المبارك فيما كتب إلى حدثنا زيد بن المبارك حدثنا محمد بن ثور عن ابن جريج فى قوله تعالى يخادعون الله قال يظهرون لا إله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفى أنفسهم غير ذلك . وقال سعيد عن قتادة (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون) نعت المنافق عند كثير : خنع الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله يصبح على حال ويمسى على غيره ويمسى على حال ويصبح على غيره ويتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هبت معها

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى هذه الآية (فى قلوبهم مرض) قال شك فزادهم الله مرضا قال شكا . وقال ابن إسحق عن محمد ابن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قلوبهم مرض قال شك . وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن البصرى وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة . وعن عكرمة وطاوس فى قلوبهم مرض يعنى الرياء . وقال الضحاك عن ابن عباس فى قلوبهم مرض قال نفاق فزادهم الله مرضا قال نفاقاً وهذا كالأول . وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قلوبهم مرض قال هذا مرض فى الدين وليس مرضا فى الأجساد وهم المنافقون والمرض الشك الذى دخلهم فى الاسلام فزادهم الله مرضا قال زادهم رجسا ، وقرأ (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) . قال شرا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم ، وهذا الذى قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن وهو الجزاء من جنس العمل وكذلك قاله الأولون وهو نظير قوله تعالى أيضا (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقوله (بما كانوا يكذبون) وقرىء يكذّبون وقد كانوا متصفين بهذا وهذا فانهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا . وقد سئل القرطبى وغيره من المفسرين عن حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت فى الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضى الله عنه « أكره أن يتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه » ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول فى الاسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر فانهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون إن محمداً يقتل أصحابه قال القرطبى وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطى المؤلفة مع علمه

بسوء اعتقادهم . قال ابن عطية وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضى إسماعيل والأبهرى وعن ابن الماجشون . ومنها : ما قال مالك إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه قال القرطبي : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضى لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا فى سائر الأحكام قال : ومنها ما قال الشافعى إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجب ما قبله . ويؤيد هـذا قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث المجمع على صحته فى الصحيحين وغيرهما « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك فى الدار الآخرة وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليـه فى الدنيا وكونه كان خليط أهل الإيمان (ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولـكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله) الآية فهم يخالطونهم فى بعض المحشر فإذا حقت المحقوقية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث ومنها ما قاله بعضهم أنه إنما لم يقتلهم لأنه كان لا يخاف من شرهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات فأما بعـده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون قال مالك : المنافق فى عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم (قلت) وقد اختلف العلماء فى قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه او بعد أن ظهر عليه ؟ على اقوال متعددة موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام

﴿ تنبيه ﴾ قول من قال كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان فى تسمية أولئك الأربعة عشر منافقا فى غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسـول الله ﷺ فى ظلماء الليـل عند عقبة هناك عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله اليه أمرهم فاطلع على ذلك حذيفة ولعل الـكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعـالى (وممن حولـكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينـة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) الآية وقال تعالى : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) ففيها دليل على أنه لم يغربهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها فى بعضهم كما قال تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنهم فى لحن القول) وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبدالله بن أبى ابن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الـكلام الذى سبق فى صفات المنافقين ومع هـذا لـما مات ﷺ وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيه فقال « إنى أكره أن تتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه » رواية فى الصحيح « إنى خيرت فاخترت » وفى رواية « لو أعلم انى لو زدت على السبعين يغفر له لزدت »

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

قال السدى فى تفسيره عن ابى مالك وعن ابى صالح عن ابن عباس وعن مرة الطيب الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) قال هم المنافقون أما لا تفسدوا فى الأرض قال الفساد هو الـكفر والعمل بالمعصية وقال ابو جعفر عن الربيع بن انس عن ابى العاليـة فى قوله تعـالى (وإذا قيـل لهم لا تفسدوا فى الأرض) قال يعنى لا تعصوا فى الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله لأنه من عصى الله فى الأرض او امر بمعصيته فقد افسد فى الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وقال ابن جريج عن مجاهد (وإذا قيل لهم لا تفسدوا

فى الأرض) قال إذا ركبوا معصية الله فقيل لهم لاتفعلوا كذا وكذا قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون وقال وكيع وعيسى بن يونس وعثام بن على عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الأسدى عن سلمان الفارسى وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون قال سلمان لم يجىء أهل هذه الآية بعد وقال ابن جرير حدثنى أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبد الرحمن بن شريك حدثنى أبى عن الأعمش عن زيد بن وهب وغيره عن سلمان الفارسى فى هذه الآيه قال ماجاء هؤلاء قال ابن جرير يحتمل أن سلمان رضى الله عنه أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادا من الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد قال ابن جرير فأهل النفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم وركوبهم فيها مانهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكهم فى دينه الذى لايقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ماهم عليه مقيمون من الشك والريب ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فذلك إفساد المنافقين فى الأرض ، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها . وهذا الذى قاله حسن فان من الفساد فى الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاتفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) ثم قال (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل لأنه هو الذى غر المؤمنين بقوله الذى لاحقيقة له ووالى الكافرين على المؤمنين ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح ولهذا قال تعالى (وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الارض قالوا إنما نحن مصلحون) أى نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء كما قال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون أى إنما نريد الاصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب يقول الله (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) يقول ألا إن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لايشعرون بكونه فسادا

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أى كايمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الأوامر وترك الزواجر (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) يعنون — لعنهم الله — أصحاب رسول الله ﷺ رضى الله عنهم قاله أبو العالية والسدى فى تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة وبه يقول الربيع بن أنس وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغيرهم يقولون أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء ؟ والسفهاء جمع سفيه لأن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم ، والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) قال عامة علماء التفسير هم النساء والصبيان وقد تولى الله سبحانه جوابهم فى هذه المواطن كلها فقال (ألا إنهم هم السفهاء) فأكد وحصر السفاهة فيهم (ولكن لا يعلمون) يعنى ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ فى العمى والبعد عن الهدى

﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * ٱللَّهُ

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى وإذا لقى هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافات غروراً منهم للمؤمنين ونفاقا ومصانعة وتقية وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم (وإذا خلوا إلى شياطينهم) يعنى إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم فضمن خلوا معنى انصرفوا لتعديته بإلى ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به ومنهم من قال « إلى » هنا بمعنى « مع » والأول أحسن وعليه يدور كلام ابن جرير . وقال السدى عن أبى مالك خلوا يعنى مضوا وشياطينهم سادتهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود ورءوس المشركين والمنافقين . قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ (وإذا خلوا إلى شياطينهم) يعنى هم رؤساؤهم فى الكفر . وقال الضحاك عن ابن عباس وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم : وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإذا خلوا إلى شياطينهم) من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ وقال مجاهد : (وإذا خلوا إلى شياطينهم) إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين وقال قتادة (وإذا خلوا إلى شياطينهم) قال إلى رءوسهم وقادتهم فى الشرك والشر وبنحو ذلك فسره أبو مالك وأبو العالية والسدى والربيع بن أنس . قال ابن جرير وشياطين كل شىء مردته ويكون الشيطان من الانس والجن كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وفى المسند عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن » فقلت يارسول الله أو للانس شياطين ؟ قال « نعم » وقوله تعالى (قالوا إنا معكم) قال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أى إنا على مثل ما أنتم عليه (إنما نحن مستهزئون) أى إنما نحن نستهزىء بالقوم ونلعب بهم . وقال الضحاك عن ابن عباس قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ ، وكذلك قال الربيع بن أنس وقتادة . وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم (الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) وقال ابن جرير أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة فى قوله تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) الآية وقوله تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) الآية قال فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل — قال : وقال آخرون بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم ولومه لهم على ماركبوا من معاصيه والكفر به. قال: وقال آخرون هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل لمن يخدعه اذا ظفر به أنا الذى خدعتك . ولم يكن منه خديعة ولكن قال ذلك اذا صار الأمر اليه قالوا وكذلك قوله تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) و (الله يستهزىء بهم) على الجواب والله لا يكون منه المكر ولا الهزء . والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم — وقال آخرون قوله تعالى (إنما نحن مستهزئون * الله يستهزىء بهم) وقوله (يخادعون الله وهو خادعهم) وقوله (فيسخرون منهم سخر الله منهم) و (نسوا الله فنسيهم) وما أشبه ذلك إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذى عليه استحقوا العقاب فى اللفظ وان اختلف المعنيان كما قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) فالأول ظلم والثانى عدل فهما وان اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما قال والى هذا المعنى وجهوا كل ما فى القرآن من نظائر ذلك . قال: وقال آخرون ان معنى ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم اذا خلوا الى مردتهم قالوا انا معكم على دينكم فى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وانما نحن بما نظهر لهم من

قولنا لهم مستهزئون ، فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه فى الدنيا يعنى من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذى لهم عنده فى الآخرة يعنى من العذاب والنكال . ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالاجماع وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلايمتنع ذلك . قال وبنحو ماقلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس حدثنا أبو كريب حدثنا أبوعثمان حدثنا بشر عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (الله يستهزئ بهم) قال يسخر بهم للنقمة منهم وقوله تعالى (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ : يمدهم يملى لهم وقال مجاهد ، يزيدهم وقال تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ؟ بل لايشعرون) وقال (سنستدرجهم من حيث لايعلمون) قال بعضهم كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة وهى فى الحقيقة نقمة وقال تعالى (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) قال ابن جرير والصواب نزيدهم على وجه الاملاء والترك لهم فى عتوهم وتمردهم كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) والطغيان هو المجاوزة فى الشىء كما قال تعالى (انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) وقال الضحاك عن ابن عباس فى طغيانهم يعمهون فى كفرهم يترددون وكذا فسره السدى بسنده عن الصحابة وبه يقول أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبومالك وعبدالرحمن بن زيد فى كفرهم وضلالتهم . قال ابن جرير والعمه الضلال يقال عمه فلان يعمه عمها وعموها اذا ضل قال وقوله فى طغيانهم يعمهون فى ضلالتهم . وكفرهم الذى غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالا لايجدون الى المخرج منه سبيلا لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها فلايبصرون رشدا ولايهتدون سبيلا . وقال بعضهم العمى فى العين والعمه فى القلب وقد يستعمل العمى فى القلب أيضا قال الله تعالى (فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وتقول عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه وجمعه عمه وذهبت إبله العمهاء اذا لم يدر أين ذهبت .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) قال أخذوا الضلالة وتركوا الهدى وقال ابن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى الكفر بالايمان وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا وقال قتادة : استحبوا الضلالة على الهدى. وهذا الذى قاله قتادة يشبهه فى المعنى قوله تعالى فى ثمود (فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدلوا عن الهدى الى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلالة وهو معنى قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى بذلوا الهدى ثمنا للضلالة وسواء فى ذلك من كان منهم قد حصل له الايمان ثم رجع عنه الى الكفر كما قال تعالى فيهم (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم فانهم أنواع وأقسام ولهذا قال تعالى (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أى ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة وما كانوا مهتدين أى راشدين فى صنيعهم ذلك وقال ابن جرير حدثنا بشير حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن الى الخوف ومن السنة الى البدعة وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة بمثله سواء .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

يقال مثل ومثل ومثيل أيضا والجمع أمثال قال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله وانتفع بها وأبصر بها ماعن يمينه وشماله ونأنس بها فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره وصار فى ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى وهو مع هذا فهو أصم لايسمع أبكم لاينطق أعمى لوكان ضياء لما أبصر، فلهذا لايرجع إلى ماكان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدا لهم الضلالة عوضا عن الهدى واستحبابهم الغى على الرشد وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع والله أعلم

وقد حكى هذا الذى قلناه الرازى فى تفسيره عن السدى ثم قال والتشبيه ههنا فى غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نورا ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك فوقعوا فى حيرة عظيمة فانه لا حيرة أعظم من حيرة الدين

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وماهم بمؤمنين) والصواب أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم وهذا لاينفى أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ههنا وهى قوله تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون) فلهذا وجه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الايمان أى فى الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة قال وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال (رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى كدوران الذى يغشى عليه من الموت وقال تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) وقال بعضهم تقدير الكلام مثل قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارا ، وقال بعضهم المستوقد واحد لجماعة معه وقال آخرون الذى ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد

قلت وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد إلى الجمع فى قوله تعالى (فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . صم بكم عمى فهم لايرجعون) وهذا أفصح فى الكلام وأبلغ فى النظام وقوله تعالى (ذهب الله بنورهم) أى ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم مايضرهم وهو الاحراق والدخان (وتركهم فى ظلمات) وهو ماهم فيه من الشك والكفر والنفاق (لا يبصرون) لايهتدون إلى سبيل خير ولايعرفونها وهم مع ذلك (صم) لايسمعون خيراً (بكم) لايتكلمون بما ينفعهم (عمى) فى ضلالة وعماية البصيرة كما قال تعالى (فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فلهذا لايرجعون إلى ماكانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة

﴿ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ماذكرناه﴾

قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة فى قوله تعالى (فلما أضاءت ماحوله) زعم أن ناسا دخلوا فى الاسلام مقدم نبى الله ﷺ المدينة ثم إنهم نافقوا وكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة فأوقد نارا فلما أضاءت ماحوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف مايتقى منه فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فأقبل لايدرى مايتقى من أذى فذلك المنافق كان فى ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال والحرام والخير والشر فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لايعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر . وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية قال: أما النور فهو إيمانهم الذى كانوا يتكلمون به وأما الظلمة فهى ضلالتهم وكفرهم الذى كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك . وقال مجاهد : (فلما أضاءت ماحوله) أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى وقال عطاء الخراسانى فى قوله تعالى (مثلهم كمثل

الذى استوقد نارا) قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب . وقال ابن أبى حاتم . وروى عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراسانى وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) إلى آخر الآية . قال هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الايمان فى قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا نارا ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم فى ظلمات لايبصرون ، وأما قول ابن جرير فيشبه مارواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقدنارا) قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالاسلام فينا كحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفئ فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (مثلهم كمثل الذى استوقدنارا) فانما ضوء النار ما أوقدتها فاذا خمدت ذهب نورها وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الاخلاص بلا إله إلا الله أضاء له فاذا شك وقع فى الظلمة وقال الضحاك (ذهب الله بنورهم) أما نورهم فهو إيمانهم الذى تكلموا به وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله) فهى لا إله إلا الله أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وآمنوا فى الدنيا وأنكحوا النساء وحقنوا دماءهم حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون وقال سعيد عن قتادة فى هذه الآية إن المعنى أن المنافق تكلم بلا إله الا الله فأضاءت له فى الدنيا فناكح بها المسلمين وغازاهم بها ووارثهم بها وحقن بها دمه وماله فلما كان عند الموت سلبها المنافق لأنه لم يكن لها أصل فى قلبه ولاحقيقة فى عمله (وتركهم فى ظلمات لايبصرون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وتركهم فى ظلمات لايبصرون) يقول فى عذاب إذا ماتوا ، وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس (وتركهم فى ظلمات) أى يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفأوه بكفرهم ونفاقهم فيه فتركهم فى ظلمات الكفر فهم لايبصرون هدى ، ولايستقيمون على حق ، وقال السدى فى تفسيره بسنده (وتركهم فى ظلمات) فكانت الظلمة نفاقهم وقال الحسن البصرى وتركهم فى ظلمات لا يبصرون فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله عمل السوء فلايجد له عملا من خير عمل به يصدق به قول لا إله إلا الله (صم بكم عمى) قال السدى بسنده صم بكم عمى فهم خرس عمى ، وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (صم بكم عمى) يقول لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ؛ ولا يعقلونه وكذا قال أبو العالية وقتادة بن دعامة (فهم لايرجعون) قال ابن عباس أى لايرجعون إلى هدى ، وكذا قال الربيع بن أنس : وقال السدى بسنده (صم بكم عمى فهم لايرجعون) إلى الاسلام . وقال قتادة فهم لايرجعون أى لايتوبون ولاهم يذكرون

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وترددهم (كصيب) والصيب المطر قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصرى وقتادة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى والسدى والربيع بن أنس وقال الضحاك هو السحاب والأشهر هو المطر نزل من السماء فى حال ظلمات وهى الشكوك والكفر والنفاق ورعد وهو مايزعج القلوب من الخوف فان من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم) وقال (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه

وهم يجمحون) (والبرق) هو مايلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان من نور الايمان ولهذا قال (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) أى ولا يجدى عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط) بهم ثم قال (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى لشدته وقوته فى نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للايمان وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يقول يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين وقال ابن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى لشدة ضوء الحق كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا أى كلما ظهر لهم من الايمان شىء استأنسوا به واتبعوه وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كلما أضاء لهم مشوا فيه يقول كلما أصاب المنافقين من عز الاسلام اطمأنوا اليه واذا أصاب الاسلام نكبة قاموا ليرجعوا الى الكفر كقوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به) وقال محمد ابن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا اظلم عليهم قاموا) أى يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فاذا ارتكسوا منه الى الكفر قاموا أى متحيرين وهكذا قال أبو العالية والحسن البصرى وقتادة والربيع بن أنس والسدى بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم ، وهكذا يكونون يوم القيامة عند ما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم فنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضىء أخرى ، ومنهم من يمشى على الصراط تارة ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) وقال فى حق المؤمنين (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية وقال تعالى (يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير)

﴿ ذكر الحديث الوارد فى ذلك ﴾

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) الآية ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة الى عدن أبين بصنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه رواه ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث عمران بن داود القطان عن قتادة بنحوه وهذا كما قال المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبدالله بن مسعود قال يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً على إبهامه يطفأ مرة ويتقد مرة وهكذا رواه ابن جرير عن ابن مثنى عن ابن ادريس عن أبيه عن المنهال وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن على بن محمد الطنافسى حدثنا ابن إدريس سمعت أبى يذكر عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود (نورهم يسعى بين أيديهم) قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى، وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا محمد بن اسماعيل الأحمسى حدثنا أبو يحيى الحمانى حدثنا عقبة بن اليقظان عن عكرمة عن ابن عباس قال ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة فأما المنافق فيطفأ نوره فالمؤمن مشفق بما يرى من إطفاء نور المنافقين فهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، وقال الضحاك ابن مزاحم يعطى كل من كان يظهر الايمان فى الدنيا يوم القيامة نوراً فاذا انتهى إلى الصراط طفىء نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا ربنا أتمم لنا نورنا

فاذا تقرر هذا صار الناس أقساما ، مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الأربع فى أول البقرة وكفار خلص

وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسمان خلص وهم المضروب لهم المثل النارى ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الايمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائى وهم أخف حالا من الذين قبلهم وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر فى سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله فى قلبه من الهدى والنور بالمصباح فى الزجاجة التى كأنها كوكب درى وهى قلب المؤمن المفطور على الايمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط كما سيأتى تقريره فى موضعه إن شاء الله ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شىء وليسوا على شىء وهم أصحاب الجهل المركب فى قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) الآية ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) فقسم الكفار ههنا إلى قسمين داعية ومقلد كما ذكرهما فى أول سورة الحج (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد) وقال (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) وقد قسم الله المؤمنين فى أول الواقعة وفى آخرها ، وفى سورة الانسان إلى قسمين سابقون وهم المقربون وأصحاب يمين وهم الأبرار

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان مقربون وأبرار وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون وأن المنافقين أيضا صنفان منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ « ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان » استدلوا به على أن الانسان قد تكون فيه شعبة من ايمان وشعبة من نفاق إما عملى لهذا الحديث أو اعتقادى كما دلت عليه الآية كما ذهب اليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سيأتى ان شاء الله قال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية يعنى شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره وأما القلب الأغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » وهذا إسناد جيد حسن

وقوله تعالى (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) قال محمد بن إسحق حدثنى محمد ابن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) قال لما تركوا من الحق بعد معرفته (إن الله على كل شىء قدير) قال ابن عباس أى إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير . وقال ابن جرير : إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شىء فى هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ، ومعنى قدير قادر كما معنى عليم عالم وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون أو فى قوله تعالى (أو كصيب من السماء) بمعنى الواو كقوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أو تكون للتخيير أى أضرب لهم مثلا بهذا وان شئت بهذا قال القرطبى : أو للتساوى مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشرى ان كلا منهما مساو للآخر فى اباحة الجلوس اليه ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلا بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم (قلت) وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فانهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى فى سورة براءة — ومنهم — ومنهم — ومنهم — يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم والله أعلم كما ضرب المثلين فى سورة النور لصنفى الكفار الدعاة والمقلدين فى قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) الى أن قال (أو كظلمات فى

بحرلجى) الآية فالأول للدعاة الذين هم فى جهل مركب والثانى لذوى الجهل البسيط من الأتباع المقلدين والله أعلم بالصواب

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

شرع تبارك وتعالى فى بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده باخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشا أى مهدا كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسى الشامخات والسماء بناء وهو السقف كما قال فى الآية الأخرى (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وأنزل لهم من السماء ماء والمراد به السحاب ههنا فى وقته عند احتياجهم إليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ماهو مشاهد رزقا لهم ولأنعامهم كما قرر هذا فى غير موضع من القرآن ، ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنها ورازقهم فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يارسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » الحديث وكذا حديث معاذ أتدرى ماحق الله على عباده ؟ « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » الحديث ، وفى الحديث الآخر « لايقولن أحدكم ماشاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ماشاء الله ثم شاء فلان » وقال حماد بن سلمة حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعى بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة أم المؤمنين لأمها قال رأيت فيما يرى النائم كأنى أتيت على نفر من اليهود فقلت من أنتم قالوا نحن اليهود قلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله قالوا وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد ، قال ثم مررت بنفر من النصارى فقلت من أنتم قالوا نحن النصارى قلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله ، قالوا وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبى ﷺ فأخبرته فقال « هل أخبرت بها أحدا ؟ » قلت نعم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فان طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ماشاء الله وحده » هكذا رواه ابن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة به وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبدالملك بن عمير به بنحوه ، وقال سفيان بن سعيد الثورى عن الأجلح بن عبد الله الكندى عن يزيد بن الأصم عن بن عباس قال قال رجل للنبى ﷺ ما شاء الله وشئت فقال « أجعلتنى لله ندا ؟ قل ماشاء الله وحده » رواه ابن مردويه وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح به وهذا كله صيانة حماية لجناب التوحيد والله أعلم . وقال محمد بن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الله تعالى (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين ، أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم وبه عن ابن عباس (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) أى لاتشركوا بالله غيره من الأنداد التى لاتنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لارب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لاشك فيه وهكذا قال قتادة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم حدثنا أبى عمرو حدثنا أبى الضحاك بن مخلد أبو عاصم حدثنا شبيب بن بشر حدثنا عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل (فلا تجعلوا لله أندادا) قال الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل وهو أن يقول والله وحياتك يافلان وحياتى ويقول لولا كلبة هذا لأتانا

اللصوص البارحة ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان لاتجعل فيها فلان هـذا كله به شرك وفى الحديث أن رجلا قال لرسول الله ﷺ ماشاء الله وشئت ، قال « أجعلتنى لله ندا » وفى الحديث الآخر « نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون تقولون ماشاء الله وشاء فلان » قال أبو العالية فلا تجعلوا لله أنداد أى عدلاء شركاء وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسماعيل بن أبى خالد وقال مجاهد (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) قال تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والانجيل

﴿ ذكر حديث فى معنى هذه الآية الكريمة ﴾

قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعرى أن نبى الله ﷺ قال « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن وأنه كاد أن يبطىء بها فقال له عيسى عليه السلام إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فاما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن فقال يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى قال فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا فان مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأمركم بالصلاة فان الله ينصب وجه لوجه عبده مالم يلتفت فاذا صليتم فلا تلتفتوا ، وأمركم بالصيام فان مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وأمركم بالصدقة فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه وقال لهم هل لكم أن أفتدى نفسى منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه ، وأمركم بذكر الله كثيرا وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله » قال : وقال رسول الله ﷺ « وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن : الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله فانه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثى جهنم » قالوا يارسول الله وإن صام وصلى فقال « وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله » هذا حديث حسن والشاهد منه فى هذه الآية قوله « وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا » وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع تعالى وهى دالة على ذلك بطريق الأولى فان من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه كما قال بعض الأعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى ؟ فقال ياسبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير ، فسماء ذات ابراج ، وأرض ذات فجاج . وبحار ذات أمواج ؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

وحكى الرازى عن الامام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات وعن أبى حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم دعونى فانى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد فقالوا هـذا شىء لايقوله عاقل فقال ويحكم هـذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليـه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه ، وعن الشافعى أنه سئل عن وجود الصانع فقال هذا

ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم وتأكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد وعن الامام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح يعني بذلك البيضة اذا خرج منها الدجاجة وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمل في نبات الأرض وانظر * الى آثار ما صنع المليك * عيون من لجين شاخصات
بأحداق هي الذهب السبيك * على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز   فياعجبا كيف يعصى الالــه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

وقال آخرون من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها ، ونظر الى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذالك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه عليه توكلت واليه أنيب ، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو فقال مخاطبا للكافرين (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثل ماجاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ماجاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فانكم لا تستطيعون ذلك ، قال ابن عباس شهداءكم أعوانكم ، وقال السدى عن أبي مالك شركاءكم أي قوما آخرين يساعدونكم على ذلك أي استعينوا بالهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم ، وقال مجاهد وادعوا شهداءكم قال ناس يشهدون به يعني حكام الفصحاء وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) وقال في سورة سبحان (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وقال في سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وقال في سورة يونس (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وكل هذه الآيات مكية ثم تحداهم بذلك أيضا في المدينة فقال في هذه الآية (وإن كنتم في ريب — أي شك — مما نزلنا على عبدنا — يعني محمداً صلى الله عليه وسلم — فأتوا بسورة من مثله) يعني من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصري وأكثر المحققين ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنه تحداهم كلهم متفرقين

ومجتمعين سواء فى ذلك أميهم وكتابيهم وذلك أكمل فى التحدى وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعانى شيئا من العلوم وبدليل قوله تعالى (فأتوا بعشر سور مثله) وقوله (لا يأتون بمثله) وقال بعضهم من مثل محمد صلى الله عليه وسلم يعنى من رجل أمى مثله والصحيح الأول لأن التحدى عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا)ولن لنفى التأبيد فى المستقبل أى ولن تفعلوا ذلك أبداً وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبرا جازما قاطعا مقدما غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لايعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه الى زماننا هذا ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شىء وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى (الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لايحاذى ولا يدانى فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أى صدقا فى الأخبار وعدلا فى الأحكام فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل فى الشعر إن أعذبه أكذبه وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شىء من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئا إلا قدرة المتكلم المعين على الشىء الخفى أوالدقيق أو إبرازه الى الشىء الواضح ثم تجد له فيه بيتا أو بيتين أوأكثر هى بيوت القصيد وسائرها هذر لاطائل تحته ، وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير ، فانه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة وسواء تكررت أملا وكلما تكرر حلا وعلا ، لايخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء ، وان أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات وان وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق الى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال فى الترغيب (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقال (وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) وقال فى الترهيب (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) (أ أمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وقال فى الزجر : (فكلا أخذنا بذنبه) وقال فى الوعظ (أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهى اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء ؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن ياأيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فانها خير يأمر به أو شر ينهى عنه ولهذا قال تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) الآية وان جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم ، بشرت به وحذرت وأنذرت ؛ ودعت الى فعل الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت فى الدنيا ورغبت فى الأخرى ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت الى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان ، الرجيم . ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن نبى من الأنبياء الا قد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ـ لفظ مسلم ـ وقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذى أوتيه وحيا أى الذى اختصصت به

من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الالهية فانها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم ، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به مالا يدخل تحت حصر ولله الحمد والمنة

وقد قرر بعض المتكلمين الاعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة فى الصرفة فقال إن كان هذا القرآن معجزا فى نفسه لا يستطيع البشر الاتيان بمثله ولا فى قواهم معارضته فقد حصل المدعى وهو المطلوب ، وإن كان فى إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلا على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك ، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن فى نفسه معجز لايستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب الرازى فى تفسيره عن سؤاله فى السور القصار كالعصر وإنا أعطيناك الكوثر

وقوله تعالى (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) أما الوقود بفتح الواو فهو مايلقى فى النار لاضرامها كالحطب ونحوه كما قال تعالى (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) وقال تعالى (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون) والمراد بالحجارة ههنا هى حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهى أشد الأحجار حرا إذا حميت أجارنا الله منها : وقال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى (وقودها الناس والحجارة) قال هى حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا يعدها للكافرين . رواه ابن جرير وهذا لفظه وابن أبى حاتم والحاكم فى مستدركه وقال على شرط الشيخين . وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة اتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أما الحجارة فهى حجارة فى النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار وقال مجاهد حجارة من كبريت أنتن من الجيفة، وقال أبو جعفر محمد بن على حجارة من كبريت وقال ابن جريج حجارة من كبريت أسود فى النار وقال لى عمرو بن دينار أصلب من هذه الحجارة وأعظم . وقيل المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التى كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية حكاه القرطبى والرازى ورجحه على الأول : قال لأن أخذ النار فى حجارة الكبريت ليس بمستنكر فجعلها هذه الحجارة أولى . وهذا الذى قاله ليس بقوى وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها ولاسيما على ماذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك ، ثم ان اخذ النار بهذه الحجارة أيضا مشاهد وهذا الجص يكون أحجارا فيعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك . وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها وإنما سيق هذا فى حر هذه النار التى وعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) وهكذا رجح القرطبى أن المراد بها الحجارة التى تسعر بها النار لتحمر ويشتد لهبها قال ليكون ذلك أشد عذابا لأهلها قال وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال « كل مؤذ فى النار » وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف ثم قال القرطبى وقد فسر بمعنيين أحدهما أن كل من آذى الناس دخل النار والآخر أن كل ما يؤذى فى النار يتأذى به أهلها من السباع والهوام وغير ذلك

وقوله تعالى (أعدت للكافرين) الأظهر أن الضمير فى أعدت عائد الى النار التى وقودها الناس والحجارة ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود ولامنافاة بين القولين فى المعنى لأنهما متلازمان وأعدت أى أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن اسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (أعدت للكافرين) أى لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى (أعدت) أى أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها « تحاجت الجنة والنار » ومنها « استأذنت النار ربها فقالت رب أكل بعضى بعضا فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف » وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه فقال رسول الله ﷺ « هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل

إلى قعرها » وهو عند مسلم وحديث صلاة الكسوف وليلة الاسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة فى هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم فى هذا ووافقهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس

﴿ تنبيه ينبغى الوقوف عليه ﴾

قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) وقوله فى سورة يونس (بسورة مثله) يعم كل سورة فى القرآن طويلة كانت أو قصيرة لأنها نكرة فى سياق الشرط فتعم كما هى فى سياق النفى عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر فى موضعه فالاعجاز حاصل فى طوال السور وقصارها وهذا مالا أعلم فيه نزاعا بين الناس سلفا وخلفا وقد قال الرازى فى تفسيره فان قيل قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ونحن نعلم بالضرورة أن الاتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن ، فان قلتم إن الاتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر كان مكابرة والاقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين (قلنا) فلهذا السبب اخترنا الطريق الثانى وقلنا إن بلغت هذه السورة فى الفصاحة حد الاعجاز فقد حصل المقصود وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزا فعلى التقديرين يحصل المعجز هذا لفظه بحروفه والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة ، قال الشافعى رحمه الله لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم (والعصر إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم بمكة فى هذا الحين فقال له عمرو لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال وما هى فقال (والعصر إن الإنسان لفى خسر) ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال ولقد أنزل على مثلها فقال وما هو فقال ياوبر ياوبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقر ثم قال كيف ترى ياعمرو فقال له عمرو والله إنك لتعلم أنى لأعلم أنك تكذب

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى ماأعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال عطف يذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة وهذا معنى تسمية القرآن مثانى على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه فى موضعه وهو أن يذكر الايمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه ، وحاصله ذكر الشىء ومقابله . وأما ذكر الشىء ونظيره فذاك التشابه كما سنوضحه إن شاء الله فلهذا قال تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) فوصفها بأنه تجرى من تحتها الأنهار أى من تحت اشجارها وغرفها وقد جاء فى الحديث ان أنهارها تجرى فى غير أخدود وجاء فى الكوثر ان حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف ولا منافاة بينهما فطينها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر ، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم وقال ابن أبى حاتم قرأ علىّ الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا أبو ثوبان عن عطاء ابن قرة عن عبد الله بن ضمرة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك » وقال أيضا حدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق ، قال : قال عبد الله أنهار الجنة تفجر من جبل مسك

وقوله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ، قال إنهم أتوا بالثمرة فى الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا وهكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد

ابن أسلم ونصره ابن جرير وقال عكرمة (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) قال معناه مثل الذى كان بالأمس وكذا قال الربيع ابن أنس . وقال مجاهد يقولون ما أشبهه به قال ابن جرير وقال آخرون بل تأويل ذلك هذا الذى رزقنا من قبل ثمار الجنة من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضا لقوله تعالى (وأتوا به متشابها) قال سنيد بن داود حدثنا شيخ من أهل المصيصة عن الأوزاعى عن يحيى بن ابى كثير قال يؤتى أحدهم بالصحفة من الشىء فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذى أتينا به من قبل فتقول الملائكة كل فاللون واحد والطعم مختلف . وقال ابن ابى حاتم حدثنا ابى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عامر بن يساف عن يحيى بن أبى كثير قال عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها ثم يؤتون بمثلها فيقول لهم أهل الجنة هذا الذى أتيتمونا آنفا به فتقول لهم الولدان كلوا فاللون واحد والطعم مختلف وهو قول الله تعالى (وأتوا به متشابها) وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (وأتوا به متشابها) قال يشبه بعضه بعضا ويختلف فى الطعم ، قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك وقال ابن جرير باسناده عن السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة فى قوله تعالى (وأتوا به متشابها) يعنى فى اللون والمرأى وليس يشتبه فى الطعم وهذا اختيار ابن جرير وقال عكرمة (وأتوا به متشابها) قال يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس لايشبه شىء مما فى الجنة مافى الدنيا إلا فى الأسماء وفى رواية ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ورواه ابن جرير من رواية الثورى وابن أبى حاتم من حديث أبى معاوية كلاهما عن الأعمش به وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى (وأتوا به متشابها) قال يعرفون أسماءه كما كانوا فى الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان قالوا فى الجنة هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا وأتوا به متشابها يعرفونه وليس هو مثله فى الطعم

وقوله تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس مطهرة من القذر والأذى . وقال مجاهد من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنى والولد وقال قتادة مطهرة من الأذى والمأثم وفى رواية عنه لاحيض ولا كلف وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبى صالح وعطية والسدى نحو ذلك .وقال ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال المطهرة التى لاتحيض ، قال وكذلك خلقت حواء عليها السلام فلما عصت قال الله تعالى إنى خلقتك مطهرة وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة ـ وهذا غريب وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا إبراهيم بن محمد حدثنى جعفر بن محمد بن حرب وأحمد بن محمد الخوارى[1] قالا حدثنا محمد بن عبيد الكندى حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيعى حدثنا عبدالله بن المبارك عن شعبة عن قتادة عن أبى نضرة عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) قال من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق . هذا حديث غريب ـ وقد رواه الحاكم فى مستدركه عن محمد بن يعقوب عن الحسن بن على بن عفان عن محمد بن عبيد به وقال صحيح على شرط الشيخين وهذا الذى ادعاه فيه نظر فان عبد الرزاق بن عمر البزيعى هذا قال فيه أبو حاتم ابن حبان البستى لا يجوز الاحتجاج به (قلت) والأظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم والله أعلم

وقوله تعالى (وهم فيها خالدون) هذا هو تمام السعادة فانهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء بل فى نعيم سرمدى أبدى على الدوام والله المسئول أن يحشرنا فى زمرتهم إنه جواد كريم بر رحيم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ

---

(١) فى لسان الميزان خورى وفى الميزان جورى بالجيم .

أولئك هم الخسرون ﴾

قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعنى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) وقوله (أو كصيب من السماء) الآيات الثلاث قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى (هم الخسرون) وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب قال المشركون مابال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله (إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاما بعوضة فما فوقها) وقال سعيد عن قتادة أى إن الله لايستحيي من الحق أن يذكر شيئا مما قل أو كثر ، وإن الله حين ذكر فى كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة ماأراد الله من ذكر هذا ؟ فأنزل الله (إن الله لايستحيي ان يضرب مثلاما بعوضة فمافوقها) (قلت) : العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية وليس كذلك وعبارة رواية سعيد عن قتادة أقرب والله أعلم . وروى ابن جريج عن مجاهد نحو هذا الثانى عن قتادة وقال ابن أبى حاتم روى عن الحسن وإسماعيل بن أبى خالد نحو قول السدى وقتادة . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى هذه الآية قال هذا مثل ضربه الله للدنيا أن البعوضة تحيا ماجاعت فاذا سمنت ماتت وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن إذا امتلأوا من الدنيا ريا أخذهم الله عند ذلك ثم تلا (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء) هكذا رواه ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى جعفر عن الربيع بن أنس عن أبى العالية بنحوه فالله أعلم فهذا اختلافهم فى سبب النزول . وقد اختار ابن جرير ماحكاه السدى لأنه أمس بالسورة وهو مناسب ومعنى الآية انه تعالى أخبر انه لايستحيي أى لا يستنكف وقيل لايخشى ان يضرب مثلاما أى أى مثل كان بأى شىء كان صغيرا كان أو كبيرا وماهنا للتقليل وتكون بعوضة منصوبة على البدل كما تقول لأضربن ضربا ما ، فيصدق بأدنى شيء اوتكون ما نكرة موصوفة ببعوضة واختار ابن جرير ان ما موصولة وبعوضة معربة باعرابها قال وذلك سائغ فى كلام العرب انهم يعربون صلة ما ومن بإعرابهما لأنهما يكونان معرفة تارة ونكرة اخرى كما قال حسان بن ثابت

يكفى بنا فضلا على من غيرنا * حب النبى محمد إيانا

قال ويجوز ان تكون بعوضة منصوبة بحذف الجار وتقدير الكلام إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما بين بعوضة إلى مافوقها وهذا الذى اختاره الكسائى والفراء وقرأ الضحاك وإبراهيم بن عبلة بعوضة بالرفع قال ابن جنى وتكون صلة لما وحذف العائد كما فى قوله (تماما على الذى أحسن) اى على الذى هو احسن وحكى سيبويه : ما انا بالذى قائل لك شيئا . اى بالذى هو قائل لك شيئا . وقوله تعالى (فما فوقها) فيه قولان احدهما فمادونها فى الصغر والحقارة كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك ـ يعنى فيما وصفت ـ وهذا قول الكسائى وابى عبيد قاله الرازى واكثر المحققين . وفى الحديث « لوأن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافرا منها شربة ماء » والثانى فما فوقها لما هو اكبر منها لأنه ليس شىء احقر ولا اصغر من البعوضة وهذا قول قتادة ابن دعامة واختيار ابن جرير فانه يؤيده مارواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال « مامن مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة » فأخبر أنه لايستصغر شيئا يضرب به مثلا ولوكان فى الحقارة والصغر كالبعوضة كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لايستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولواجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) وقال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) وقال تعالى (ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها

من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) وقال تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكاً لا يقدر على شىء) الآية ثم قال (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل) الآية كما قال (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم) الآية . وقال (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) الآية . وقال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) وفى القرآن أمثال كثيرة : قال بعض السلف اذا سمعت المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله قال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) وقال مجاهد فى قوله تعالى (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها . وقال قتادة (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) أى يعلمون أنه كلام الرحمن وانه من عند الله ، وروى عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك وقال أبو العالية (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) يعنى هذا المثل (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) كما قال فى سورة المدثر (وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا * ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا * كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو) وكذلك قال ههنا (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين) قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة يضل به كثيراً يعنى به المنافقين ويهدى به كثيراً يعنى به المؤمنين فيزيد هؤلاء ضلالة الى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقينا من المثل الذى ضربه الله بما ضرب لهم وأنه لما ضرب له موافق فذلك إضلال الله إياهم به ، ويهدى به يعنى المثل كثيراً من أهل الايمان والتصديق فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانا إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا أنه موافق لما ضربه الله له مثلا وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم به (وما يضل به إلا الفاسقين) قال هم المنافقون وقال أبو العالية (وما يضل به إلا الفاسقين) قال هم أهل النفاق وكذا قال الربيع ابن أنس وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس (وما يضل به إلا الفاسقين) قال يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به . وقال قتادة (وما يضل به إلا الفاسقين) فسقوا فأضلهم الله على فسقهم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى عن إسحق بن سليمان عن أبى سنان عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن سعد (يضل به كثيرا) يعنى الخوارج . وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد قال سألت أبى فقلت قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) إلى آخر الآية فقال هم الحرورية وهذا الاسناد وان صح عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فهو تفسير على المعنى لأن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على علىّ بالنهروان فان أولئك لم يكونوا حال نزول الآية وانما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل لأنهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام والقيام بشرائع الاسلام والفاسق فى اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضا ، وتقول العرب فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرتها ، ولهذا يقال للفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد وثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » فالفاسق يشمل الكافر والعاصى ولكن فسق الكافر أشد وأفحش والمراد به من الآية الفاسق الكافر والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى فى سورة الرعد (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ انما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) الآيات الى أن قال (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون

فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه فقال بعضهم هو وصية الله الى خلقه وأمره اياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه اياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون بل هى فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله الذى نقضوه هو ما أخذه الله عليهم فى التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ اذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وانكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك الناس بعد اعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا . وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وهو قول مقاتل بن حيان

وقال آخرون بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق وعهده إلى جميعهم فى توحيده ماوضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته وعهده اليهم فى أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التى لايقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثله الشاهدة لهم على صدقهم قالوا ونقضهم ذلك تركهم الاقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ماأتوا به حق . وروى عن مقاتل بن حيان أيضا نحو هذا وهو حسن واليه مال الزمخشرى فانه قال (فان قلت) فما المراد بعهد الله ؟ قلت ماركز فى عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) إذ أخذ الميثاق عليهم من الكتب المنزلة عليهم كقوله (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) ـ وقال آخرون العهد الذى ذكره تعالى هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذى وصف فى قوله (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الآيتين ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به وهكذا روى عن مقاتل بن حيان أيضا حكى هذه الأقوال ابن جرير فى تفسيره .

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ـ إلى قوله ـ أولئك هم الخاسرون) قال هى ست خصال من المنافقين اذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : اذا حدثوا كذبوا ، واذا وعدوا أخلفوا ، واذا اؤتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا فى الأرض واذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا . وكذا قال الربيع بن أنس أيضا وقال السدى فى تفسيره باسناده قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) قال هو ماعهد إليهم فى القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه

وقوله (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) قيل المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى (فهل عسيتم إن توليتم ان تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) ورجحه ابن جرير وقيل المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه . وقال مقاتل بن حيان فى قوله تعالى (أولئك هم الخاسرون) قال فى الآخرة وهذا كما قال تعالى (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقال الضحاك عن ابن عباس كل شىء نسبه الله إلى غير أهل الاسلام من اسم مثل خاسر فانما يعنى به الكفر وما نسبه إلى أهل الاسلام فانما يعنى به الذنب وقال ابن جرير فى قوله تعالى (أولئك هم الخاسرون) الخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التى خلقها لعباده فى القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته يقال منه خسر الرجل يخسر خسراً وخسراناً وخساراً كما قال جرير بن عطية

إن سليطا فى الخسار انه * أولاد قوم خلقوا أقنه

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى محتجا على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف فى عباده (كيف تكفرون بالله) أى كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره (وكنتم أمواتا فأحياكم) أى وقد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) وقال تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) والآيات فى هذا كثيرة : وقال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا) قال هى التى فى البقرة (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس : كنتم أمواتا فأحياكم : أمواتا فى أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئا حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم ، قال وهى مثل قوله تعالى (أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) قال كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى : فهذه ميتتان وحياتان فهو كقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وهكذا روى عن السدى بسنده عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعن أبى العالية والحسن ومجاهد وقتادة وأبى صالح والضحاك وعطاء الخراسانى نحو ذلك وقال الثورى عن السدى عن أبى صالح (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) قال يحييكم فى القبر ثم يميتكم وقال ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال خلقهم فى ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم خلقهم فى الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة . وذلك كقوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وهذا غريب والذى قبله . والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس وأولئك الجماعة من التابعين وهو كقوله تعالى (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) الآية كما قال تعالى فى الأصنام (أموات غير أحياء وما يشعرون) الآية (وقال وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلا آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) أى قصد إلى السماء والاستواء ههنا مضمن معنى القصد والاقبال لأنه عدى بالى فسواهن أى فخلق السماء سبعا ، والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال (فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم) أى وعلمه محيط بجميع ما خلق ، كما قال (ألا يعلم من خلق) وتفصيل هذه الآية فى سورة حم السجدة وهو قوله تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى أربعة ايام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتياطوعا اوكرها قالتا اتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين واوحى فى كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) ففى هذا دلالة على انه تعالى ابتدأ بخلق الأرض اولا ثم خلق السموات سبعا وهذا شان البناء ان يبدأ بعمارة أسافله ثم اعاليه بعد ذلك وقد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله . فاما قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا ام السماء بناها * رفع سمكها فسواها * واغطش ليلها واخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * اخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال ارساها * متاعا لكم ولأنعامكم) فقد قيل ان ثم ههنا إنما هى لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل كما قال الشاعر :

قل لمن ساد ثم ساد أبوه * ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقيل إن الدحى كان بعد خلق السموات والأرض رواه على بن ابى طلحة عن ابن عباس : وقد قال السدى فى تفسيره عن ابى مالك وعن ابى صالح عن ابن عباس وعن

مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم) قال إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين فى الأحد والاثنين فخلق الأرض على حوت والحوت هو الذى ذكره الله فى القرآن (نٓ والقلم) والحوت فى الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة فى الريح وهى الصخرة التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض ، فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت فالجبال تفخر على الأرض ، فذلك قوله تعالى (وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم) وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين فى الثلاثاء والأربعاء وذلك حين يقول (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها) يقول أنبت شجرها (وقدر فيها أقواتها) لأهلها (فى أربعة أيام سواء للسائلين) يقول من سأل فهكذا الأمر (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين فى الخميس والجمعة وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض (وأوحى فى كل سماء أمرها) قال خلق الله فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد ومما لا يعلم ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظا تحفظ من الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فذلك حين يقول (خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) ويقول (كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى) وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى أبو معشر عن سعيد بن أبى سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين فى الأحد والاثنين وخلق الأقوات والرواسى فى الثلاثاء والأربعاء وخلق السموات فى الخميس والجمعة وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة .

وقال مجاهد فى قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) قال خلق الله الأرض قبل السماء فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فسواهن سبع سموات) قال بعضهن فوق بعض وسبع أرضين يعنى بعضها تحت بعض وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كما قال فى آية السجدة (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء وهذا ما لا أعلم فيه نزاعا بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض وقد توقف فى ذلك القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها) قالوا فذكر خلق السماء قبل الأرض وفى صحيح البخارى أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديما وحديثا وقد حررنا ذلك فى سورة النازعات وحاصل ذلك أن الدحى مفسر بقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها) ففسر الدحى باخراج ما كان مودعا فيها بالقوة إلى الفعل لما أكملت سورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض فأخرجت ما كان مودعا فيها من المياه فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسير هذه الآية الحديث الذى رواه مسلم والنسائى فى التفسير ايضا من رواية ابن جريج

قال أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال « خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم وقد تكلم عليه علي ابن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب ، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا وقد حرر ذلك البيهقي .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم فقال تعالى (وإذ قال ربك للملائكة) أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك، وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم أن إذ ههنا زائدة وأن تقدير الكلام وقال ربك ورده ابن جرير ، قال القرطبي وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج هذا اجتراء من أبي عبيدة (إني جاعل في الأرض خليفة) أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى (هو الذي جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون) وقال (فخلف من بعدهم خلف) وقرىء في الشاذ (إني جاعل في الأرض خليفة) حكاها الزمخشري وغيره ونقل القرطبي عن زيد بن علي وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في تفسيره وغيره والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم قاله القرطبي أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك ، وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا قال قتادة وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) الآية وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك كما سيأتي . أي ولا يصدر منا شيء من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال (إني أعلم ما لا تعلمون) أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون . وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل » فقولهم أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم (إني أعلم

مالا تعلمون) وقيل معنى قوله تعالى جوابا لهم (إنى أعلم مالا تعلمون) إنى لى حكمة مفصلة فى خلق هؤلاء والحالة ماذكرتم لاتعلمونها ، وقيل إنه جواب (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقال (إنى أعلم مالا تعلمون) أى من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به . وقيل بل تضمن قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) طلبا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بنى آدم فقال الله تعالى لهم (إنى أعلم مالا تعلمون) من أن بقاءكم فى السماء أصلح لكم وأليق بكم . ذكرها الرازى مع غيرها من الأجوبة والله أعلم

﴿ ذكر أقوال المفسرين ببسط ماذكرناه ﴾

قال ابن جرير حدثنى القاسم بن الحسن حدثنى الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك عن الحسن وأبى بكر عن الحسن وقتادة قالوا: قال الله للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قال لهم إنى فاعل هذا ومعناه أنه أخبرهم بذلك ، وقال السدى استشار الملائكة فى خلق آدم رواه ابن أبى حاتم وقال وروى عن قتادة نحوه وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الاخبار ففيها تساهل وعبارة الحسن وقتادة فى رواية ابن جرير أحسن والله أعلم (فى الأرض) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أن رسول الله ﷺ قال « دحيت الأرض من مكة وأول من طاف بالبيت الملائكة فقال الله إنى جاعل فى الأرض خليفة يعنى مكة » وهذا مرسل وفى سنده ضعف وفيه مدرج وهو أن المراد بالأرض مكة والله أعلم فان الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك (خليفة) قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ان الله تعالى قال للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا ربنا ومايكون ذاك الخليفة قال يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا . قال ابن جرير فكان تأويل الآية على هذا إنى جاعل فى الأرض خليفة منى يخلفنى فى الحكم بالعدل بين خلقى وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه وأما الافساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه : قال ابن جرير وإنما معنى الخلافة التى ذكرها الله إنما هى خلافة قرن منهم قرنا قال والخليفة الفعيلة من قومك خلف فلان فلانا فى هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) ومن ذلك قيل للسطان الأعظم خليفة لأنه خلف الذى كان قبله فقام بالأمر فكان منه خلفا . قال وكان محمد بن إسحق يقول فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) يقول ساكنا وعامرا يعمرها ويسكنها خلقا ليس منكم : قال ابن جرير وحدثنا ابو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس قال إن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فأسكنه إياها فلذلك قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وقال سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن ابن سابط (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) قال يعنون به بنى آدم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال الله للملائكة إنى أريد أن أخلق فى الأرض خلقا وأجعل فيها خليفة وليس لله عزوجل خلق إلا الملائكة والأرض وليس فيها خلق قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها . وقد تقدم ما رواه السدى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة أن الله أعلم الملائكة بما تفعله ذرية آدم فقالت الملائكة ذلك وتقدم آنفا مارواه الضحاك عن ابن عباس أن الجن أفسدوا فى الأرض قبل بنى آدم فقالت الملائكة ذلك فقاسوا هؤلاء بأولئك : وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا ابو معاوية عن الأعمش عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال كان الجن بنو الجان فى الأرض قبل أن يخلق آدم بألفى سنة فأفسدوا فى الارض وسفكوا الدماء فبعث الله جندا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور فقال الله للملائكة : إنى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ قال إنى أعلم مالا تعلمون . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس

عن أبي العالية فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة -إلى قوله- أعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) قال خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة فكفر قوم من الجن فكانت الملائكة تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم ببغيهم وكان الفساد فى الأرض فمن ثم قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ويسفك الدماء كما سفكوا قال ابن أبى حاتم وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مبارك بن فضالة أخبرنا الحسن قال : قال الله للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قال لهم إنى فاعل فآمنوا بربهم فعلمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه ولم يعلموه فقالوا بالعلم الذى علمهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ قال إنى أعلم مالا تعلمون . قال الحسن إن الجن كانوا فى الأرض يفسدون ويسفكون الدماء ولكن جعل الله فى قلوبهم أن ذلك سيكون فقالوا بالقول الذى علمهم . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله (أتجعل فيها من يفسد فيها) كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء فذلك حين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام الرازى حدثنا ابن المبارك عن معروف يعنى ابن خربوذ المكى عمن سمع أبا جعفر محمد بن على يقول السجل ملك وكان هاروت وماروت من أعوانه وكان له فى كل يوم ثلاث لمحات فى أم الكتاب فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما كان فيه من الأمور فأسر ذلك إلى هاروت وماروت وكانا من أعوانه فلما قال تعالى ، إنى جاعل فى الأرض خليفة — قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . قالا ذلك استطالة على الملائكة . وهذا أثر غريب وبتقدير صحته إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين الباقر فهو نقله عن أهل الكتاب وفيه نكارة توجب رده والله أعلم : ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط وهو خلاف السياق وأغرب منه ما رواه ابن أبى حاتم أيضا حيث قال : حدثنا أبى حدثنا هشام بن أبى عبيد الله حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبى كثير قال سمعت أبى يقول إن الملائكة الذين قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) كانوا عشرة آلاف فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم وهذا أيضا إسرائيلى منكر كالذى قبله والله أعلم . قال ابن جريج إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء : قال ابن جرير وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء لأن الله أذن لهم فى السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بنى آدم فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها وكيف يعصونك يارب وأنت خالقهم فأجابهم ربهم (إنى أعلم مالا تعلمون) يعنى أن ذلك كائن منهم وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض ماترونه لى طائعا قال وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك فكأنهم قالوا يارب خبرنا — مسئلة استخبار منهم لا على وجه الانكار — واختاره ابن جرير ، وقال سعيد عن قتادة قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) قال استشار الملائكة فى خلق آدم فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء — وقد علمت الملائكة أنه لا شىء أكره عند الله من سفك الدماء والفساد فى الأرض — ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون فكان فى علم الله أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة قال وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول : إن الله لما أخذ فى خلق آدم عليه السلام قالت الملائكة ما الله خالق خلقا أكرم عليه منا ولا أعلم منا فابتلوا بخلق آدم وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال الله تعالى (ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) وقوله تعالى (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك): قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال التسبيح التسبيح والتقديس الصلاة : وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال يقولون نصلى لك وقال مجاهد ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال نعظمك ونكبرك . وقال الضحاك التقديس التطهير وقال محمد بن إسحاق ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال لا نعصى ولا نأتى شيئاً تكرهه . وقال ابن جرير التقديس هو التعظيم والتطهير . ومنه قولهم سبوح قدوس يعنى بقولهم سبوح تنزيه له ، وبقولهم قدوس طهارة وتعظيم له : وكذلك قيل للأرض أرض مقدسة يعنى بذلك المطهرة

فمعنى قوله الملائكة إذاً (ونحن نسبح بحمدك) ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك اهل الشرك بك (ونقدس لك) ننسبك إلى ماهو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما اضاف إليك اهل الكفر بك . وفى صحيح مسلم عن ابى ذر رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ سئل اى الكلام افضل ؟ قال « ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده » وروى البيهقى عن عبد الرحمن بن قرط ان رسول الله ﷺ ليلة اسرى به سمع تسبيحاً فى السموات العلا « سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى » (قال إنى اعلم مالا تعلمون) قال قتادة فكان فى علم الله انه سيكون فى تلك الخليقة انبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة وسيأتى عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين اقوال فى حكمة قوله تعالى (قال إنى اعلم مالا تعلمون)

وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطى الفواحش إلى غير ذلك من الامور المهمة التى لا تمكن إقامتها إلابالإمام ومالايتم الواجب إلابه فهو واجب . والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من اهل السنة فى ابى بكرأو بالايماء إليه كما يقول آخرون منهم اوباستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب او بتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر اوباجتماع اهل الحل والعقد على مبايعته اوبمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك إمام الحرمين الاجماع والله اعلم . اوبقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدى ذلك إلى الشقاق والاختلاف وقد نص عليه الشافعى وهل يجب الاشهاد على عقد الإمامة ؟ فيه خلاف فمنهم من قال لا يشترط وقيل بلى ويكفى شاهدان وقال الجبائى يجب أربعة وعاقد ومعقود له كما ترك عمر رضى الله عنه الأمر شورى بين ستة فوقع الامر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف ومعقود له وهو عثمان ، واستنبط وجوب الاربعة الشهود من الاربعة الباقين وفى هذا نظر والله اعلم

ويجب أن يكون ذكراً حرا بالغا عاقلا مسلما عدلا مجتهدا بصيرا سليم الأعضاء خبيرا بالحروب والآراء قرشيا على الصحيح ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطأ خلافا للغلاة الروافض ، ولوفسق الامام هل ينعزل أم لا ؟ فيه خلاف والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام « إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف ، وقد عزل الحسن بن على رضى الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر وقد مدح على ذلك : فأما نصب إمامين فى الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام « من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان » وهذا قول الجمهور ، وقد حكى الاجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين وقالت الكرامية يجوز اثنان فأكثر كما كان على ومعاوية إمامين واجبى الطاعة قالوا وإذا جاز بعث نبيين فى وقت واحد وأكثر جاز ذلك فى الإمامة لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ ابى إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما وتردد إمام الحرمين فى ذلك قلت وهذا يشبه حال الخلفاء بنى العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب ولنقرر هذا كله فى موضع آخر من كتاب الاحكام إن شاء الله تعالى

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شىء دونهم وهذا كان بعد سجودهم له وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك

فأخبرهم تعالى بأنه يعلم مالا يعلمون ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم فى العلم فقال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) قال السدى عمن حدثه عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه أسماء ولده إنسانا إنسانا والدواب فقيل هذا الحمار ، هذا الجمل، هذا الفرس ، وقال الضحاك عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ، وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه اسم الصحفة والقدر قال نعم حتى الفسوة والفسية ، وقال مجاهد (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شىء ، وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شىء وقال الربيع فى رواية عنه أسماء الملائكة . وقال حميد الشامى أسماء النجوم . وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته كلهم . واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال (ثم عرضهم) وهذا عبارة عما يعقل وهذا الذى رجح به ليس بلازم فانه لاينفى أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شىء قدير) وقد قرأ عبد الله بن مسعود ثم عرضهن . وقرأ أبى بن كعب ثم عرضها أى المسميات . والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية يعنى أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه . حدثنا مسلم ابن إبراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : وقال لى خليفة حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن النبى ﷺ قال . « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحيى ، ائتوا نوحا فانه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . فيأتونه فيقول لست هناكم ، ويذكر سؤاله ربه ماليس له به علم فيستحيى . فيقول ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناكم فيقول ائتوا موسى عبدا كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتونه فيقول لست هناكم ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحيى من ربه . فيقول ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيأتونه فيقول لست هناكم ائتوا محمدا عبدا غفر له ما تقدم من ذنبه وماتأخر فيأتونى فأنطلق حتى أستأذن على ربى فيأذن لى فاذا رأيت ربى وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله ثم يقال ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود اليه فاذا رأيت ربى مثله ثم اشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود » هكذا ساق البخارى هذا الحديث ههنا ، وقد رواه مسلم والنسائى من حديث هشام وهو ابن أبى عبد الله الدستوائى عن قتادة به وأخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه من حديث سعيد وهو ابن أبى عروبة عن قتادة ، ووجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء . فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال (ثم عرضهم على الملائكة) يعنى المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة (فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (وعلم آدم الأسماء كلها) ثم عرض الخلق على الملائكة . وقال ابن جريج عن مجاهد ثم عرض أصحاب الأسماء على الملائكة وقال ابن جرير : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة عن الحسن وأبى بكر عن الحسن وقتادة قالا : علمه اسم كل شىء وجعل يسمى كل شىء باسمه وعرضت عليه أمة أمة ، وبهذا الاسناد عن الحسن وقتادة فى قوله تعالى (إن كنتم صادقين) إنى لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه فأخبرونى بأسماء

هؤلاء إن كنتم صادقين . وقال الضحاك عن ابن عباس (إن كنتم صادقين) إن كنتم تعلمون أني لم أجعل في الأرض خليفة وقال السدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء وقال ابن جرير وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله ومعنى ذلك فقال أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك . إن كنتم صادقين في قيلكم إني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمرى بالتعظيم لي والتقديس فاذا كنتم لاتعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين (قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم) هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى ان يحيط احد بشيء من علمه إلا بما شاء وان يعلموا شيئا إلا ماعلمهم الله تعالى ولهذا قالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) أى العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك الحكمة في ذلك والعدل التام . قال ابن أبي حاتم : حدثنا ابو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس : سبحان الله ، قال تنزيه الله نفسه عن السوء ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده لاإله إلا الله قدعرفناها فما سبحان الله فقال له علي كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال . قال وحدثنا أبي حدثنا فضيل بن النضر بن عدى قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله قال اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء

قوله تعالى (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) قال زيد بن أسلم قال أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب . وقال مجاهد في قول الله (قال يا آدم انبئهم بأسمائهم) قال اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء وروى عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء ، قال الله تعالى للملائكة (ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) أى ألم أتقدم إليكم انى أعلم الغيب الظاهر والخفي كما قال تعالى (وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) وكما قال إخبارا عن الهدهد أنه قال لسليمان (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) وقيل في قوله تعالى (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) غير ما ذكرناه فروى الضحاك عن ابن عباس (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) قال أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار . وقال السدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قال قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء الآية فهذا الذى أبدوا (وما كنتم تكتمون) يعنى ما أسر إبليس في نفسه من الكبر وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى . واختار ذلك ابن جرير وقال أبو العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة هو قولهم لم يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه : وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) فكان الذى أبدوا هو قولهم . أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وكان الذى كتموا بينهم هو قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم . فعرفوا ان الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم وقال ابن جرير حدثنا يونس حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قصة الملائكة وآدم : فقال الله للملائكة كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها ، هذا عندى قد علمته فكذلك أخفيت عنكم انى أجعل فيها من يعصيني ومن يطيعني ، قال وقد سبق من الله (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) قال ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل .

وقال ابن جرير وأولى الأقوال فى ذلك قول ابن عباس وهو أن معنى قوله تعالى : وأعلم ماتبدون — وأعلم مع علمى غيب السموات والأرض ماتظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون فى أنفسكم فلايخفى على شىء سواء عندى سرائركم وعلانيتكم والذى أظهروه بألسنتهم قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ، والذى كانوا يكتمون ما كان عليه منطويا إبليس من الخلاف على الله فى أوامره والتكبر عن طاعته : قال وصح ذلك كما تقول العرب قتل الجيش وهزموا ، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال تعالى (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) ذكر أن الذى نادى إنما كان واحدا من بنى تميم ، قال وكذلك قوله (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقد دل على ذلك أحاديث أيضا كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم وحديث موسى عليه السلام « رب أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة فلما اجتمع به قال أنت آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته » قال وذكر الحديث كما سيأتى إن شاء الله . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس قال كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة وكان اسمه الحارث وكان خازنا من خزان الجنة قال وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى قال وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا ألهبت قال وخلق الانسان من طين فاول من سكن الأرض الجن فافسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا ، قال فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة وهم هذا الحى الذين يقال لهم الجن فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل إبليس ذلك اغتر فى نفسه فقال قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد قال فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه فقال الله تعالى للملائكة الذين كانوا معه : إنى جاعل فى الأرض خليفة . فقالت الملائكة مجيبين له : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما افسدت الجن وسفكت الدماء وإنما بعثتنا عليهم لذلك ؟ فقال الله تعالى إنى اعلم مالا تعلمون ، يقول إنى قد اطلعت من قلب إبليس على مالم تطلعوا عليه من كبره واغتراره قال ثم امر بتربة آدم فرفعت فخلق الله آدم من طين لازب واللازب اللازج الطيب من حمإ مسنون منتن وإنما كان حمأ مسنونا بعد التراب فخلق منه آدم بيده قال فمكث اربعين ليلة جسدا ملقى وكان إبليس ياتيه فيضربه برجله فيصلصل فيصوت فهو قول الله تعالى (من صلصال كالفخار) يقول كالشىء المنفرج الذى ليس بمصمت قال ثم يدخل فى فيه ويخرج من دبره ويدخل من دبره ويخرج من فيه ثم يقول لست شيئاً للصلصلة ولشىء ما خلقت ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت على لأعصينك . قال فلما نفخ الله فيه من روحه أتت النفخة من قبل راسه فجعل لايجرى شىء منها فى جسده إلا صار لحماً ودماً فلما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما راى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر فهو قول الله تعالى (وخلق الانسان عجولا) قال ضجراً لاصبر له على سراء ولاضراء قال فلما تمت النفخة فى جسده عطس فقال « الحمد لله رب العالمين » بالهام الله فقال الله له « يرحمك الله يا آدم » قال ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين فى السموات اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم اجمعون إلا إبليس ابى واستكبر لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار فقال لا اسجد له وانا خير منه واكبر سناً واقوى خلقاً خلقتنى من نار وخلقته من طين يقول إن النار اقوى من الطين قال فلما ابى إبليس ان يسجد ابلسه الله اى آيسه من الخير كله وجعله شيطانا رجيما عقوبة لمعصيته ثم علم آدم الأسماء كلها وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودابة وارض وسهل وبحر وجبل وحمار واشباه ذلك من الأمم وغيرها ثم عرض هذه الأسماء على اولئك

الملائكة يعنى الملائكة الذين كانوا مع إبليس الذين خلقوا من نار السموم وقال لهم (أنبئونى بأسماء هؤلاء) أى يقول أخبرونى بأسماء هؤلاء (إن كنتم صادقين) إن كنتم تعلمون لم أجعل فى الأرض خليفة ، قال فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب الذى لايعلمه غيره الذى ليس لهم به علم (قالوا سبحانك) تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره تبنا إليك (لاعلم لنا إلا ما علمتنا) تبريا منهم من علم الغيب إلاما علمتنا كما علمت آدم فقال (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) يقول أخبرهم بأسمائهم (فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم) أيتها الملائكة خاصة (إنى أعلم غيب السموات والأرض) ولايعلم غيرى (وأعلم ماتبدون) يقول ماتظهرون (وما كنتم تكتمون) يقول أعلم السر كما أعلم العلانية يعنى ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها وهذا الاسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك السماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة وكان إبليس مع ملكه خازنا فوقع فى صدره وقال ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى على الملائكة فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فقالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم مالا تعلمون) يعنى من شأن إبليس . فبعث الله جبريل إلى الارض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض إنى أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ وقال يارب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبل التراب حتى عاد طينا لازبا واللازب هو الذى يلتزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة (إنى خالق بشرا من طين * فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه بخلقه بشرا ، فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه فكان أشدهم فزعا منه إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) ويقول لأمر ماخلقت ، ودخل من فيه فخرج من دبره ، وقال للملائكة لاترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه ، فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله ، فقال له الله « يرحمك ربك » فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول الله تعالى (خلق الانسان من عجل) فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، أبى واستكبر وكان من الكافرين ، قال الله له مامنعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدى ؟ قال أنا خير منه لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين ، قال الله له (اخرج منها فما يكون لك) يعنى ما ينبغى لك (أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) والصغار هو الذل قال (وعلم آدم الأسماء كلها) ثم عرض الخلق على الملائكة (فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) أن بنى آدم يفسدون فى الارض ويسفكون الدماء ، فقالوا (سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال) الله (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) قال : قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) فهذا الذى ابدوا (وأعلم ما تكتمون) يعنى ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر ، فهذا الاسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السدى ويقع فيه إسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة

أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم . والحاكم يروى فى مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخارى .

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس فى خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم ، فلهذا دخل فى الخطاب لهم وذم فى مخالفة الأمر ، وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ولهذا قال محمد بن إسحاق عن خلاد ابن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهادا ، وأكثرهم علماً ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حى يسمون جنا وفى رواية عن خلاد عن عطاء عن طاوس أو مجاهد عن ابن عباس أو غيره بنحوه . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعنى ابن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد وقال سنيد : عن حجاج عن ابن جريج قال : قال ابن عباس : كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض ، وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس سواء وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس : إن من الملائكة قبيلا يقال لهم الجن : وكان إبليس منهم ، وكان يسوس مابين السماء والأرض فعصى فمسخه الله شيطانا رجيما ، رواه ابن جرير . وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار حدثنا عدى ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن قال . ماكان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس ، وهذا إسناد صحيح عن الحسن ، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء . وقال شهر بن حوشب : كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء ، رواه ابن جرير : وقال سنيد بن داود : حدثنا هشيم أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد بن كامل عن سعد بن مسعود قال : كانت الملائكة تقاتل الجن فسبى إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة يتعبد معها فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا فأبى إبليس فلذلك قال تعالى (إلا إبليس كان من الجن) وقال ابن جرير حدثنا محمد بن سنان البزاز حدثنا أبو عاصم عن شريك عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس قال : إن الله خلق خلقا فقال اسجدوا لآدم فقالوا لا نفعل فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ، ثم خلق خلقا آخر فقال (إنى خالق بشراً من طين) اسجدوا لآدم قال فأبوا فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم ، ثم خلق هؤلاء فقال اسجدوا لآدم قالوا نعم وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم — وهذا غريب ولا يكاد يصح إسناده فان فيه رجلا مبهما ومثله لا يحتج به والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة حدثنا صالح بن حيان حدثنا عبد الله بن بريدة : قوله تعالى (وكان من الكافرين) من الذين أبوا فأحرقتهم النار وقال أبو جعفر رضى الله عنه عن الربيع عن أبى العالية (وكان من الكافرين) يعنى من العاصين وقال السدى (وكان من الكافرين) الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد ، وقال محمد بن كعب القرظى ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة فصيره الله إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر ، قال الله تعالى (وكان من الكافرين) وقال قتادة فى قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته ، وقال بعض الناس كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) وقد كان هذا مشروعا فى الأمم الماضية ولكنه نسخ فى ملتنا قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يارسول الله أحق أن يسجد لك فقال « لا لو كنت آمرا بشرا أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » ورجحه الرازى وقال بعضهم بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وفى هذا التنظير نظر والأظهر أن القول الأول أولى

والسجدة لآدم إكراما وإعظاما واحتراما وسلاما وهى طاعة لله عزّ وجلّ لأنها امتثال لأمره تعالى وقد قواه الرازى فى تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبلة إذ لا يظهر فيه شرف والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال ، وقال قتادة فى قوله تعالى (فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة وقال أنا نارى وهذا طينى وكان بدء الذنوب الكبر استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام قلت وقد ثبت فى الصحيح « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر» وقد كان فى قلب إبليس من الكبر - والكفر - والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس قال بعض المعربين وكان من الكافرين أى وصار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال (فكان من المغرقين) وقال (فتكونا من الظالمين) وقال الشاعر

بتيهاء قفر والمطى كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

أى قد صارت وقال ابن فورك تقديره وقد كان فى علم الله من الكافرين ورجحه القرطبى وذكر ههنا مسألة فقال قال علماؤنا من أظهر الله على يديه ممن لبس بنى كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته خلافا لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه ثم استدل على ما قال بأنا لا نقطع بهذا الذى جرى الخارق على يديه انه يوافى الله بالإيمان وهو لا يقطع لنفسه بذلك يعنى والولى الذى يقطع له بذلك فى نفس الأمر قلت وقد استدل بعضهم على ان الخارق قد يكون على يدى غير الولى بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضا بما ثبت عن ابن صياد أنه قال هو الدخ حين خبأ له رسول الله ﷺ (فارتقب يوم تأت السماء بدخان مبين) وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر ، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من انه يأمر السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة . وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصدفى قلت للشافعى كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة فقال الشافعى : قصر الليث رحمه الله بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة (١) وقد حكى الرازى وغيره قولين للعلماء هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الارض أو عام فى ملائكة السموات والارض وقد رجح كلا من القولين طائفة وظاهر الآية الكريمة العموم (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم والله أعلم .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

يقول الله تعالى إخبارا عما أكرم به آدم : بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس انه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ماشاء رغدا اى هنيئا واسعا طيبا : وروى الحافظ ابو بكر بن مردويه من حديث محمد ابن عيسى الدامغانى حدثنا سلمة بن الفضل عن ميكائيل عن ليث عن ابراهيم التيمى عن ابيه عن ابى ذر قال قلت يارسول الله اريت آدم أنبيا كان قال « نعم نبيا رسولا يكلمه الله قبيلا » - يعنى عيانا - فقال (اسكن انت وزوجك الجنة) وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم هى فى السماء أم فى الارض فالأكثرون على الاول وحكى القرطبى عن المعتزلة والقدرية القول بأنها فى الارض وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وسياق الآية

(١) هذا بالأصل ، وهو كما ترى لا فرق بين عبارتى الليث والشافعى ولعل عبارة الشافعى لا تعرضوا

يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة وقد صرح بذلك محمد بن إسحق حيث قال لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم وقدعلمه الأسماء كلها فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم إلى قوله (إنك أنت العليم الحكيم) قال ثم ألقيت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحما وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها أمرأة ليسكن إليها فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون والله أعلم « لحمى ودمى وزوجتى » فسكن اليها فلما زوجه الله وجعل له سكنا من نفسه قال له قبيلا (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) ويقال إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة كما قال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحيشا ليس له زوج يسكن اليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها ماأنت ؟ قالت امرأة قال ولم خلقت ؟ قالت لتسكن إلى. قالت له الملائكة ينظرون مابلغ من علمه ما اسمها يا آدم قال حواء قالوا ولم حواء ؟ قال إنها خلقت من شىء حى . قال الله (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما) .

وأما قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم وقد اختلف فى هذه الشجرة ماهى فقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى الكرم وكذا قال سعيد بن جبير والسدى والشعبى وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس وقال السدى أيضا فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (ولا تقربا هذه الشجرة) هى الكرم. وتزعم يهود أنها الحنطة . وقال ابن جرير وابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن اسماعيل بن سمرة الأحمسى حدثنا أبو يحيى الحمانى حدثنا أبو النضر أبو عمر الخراز عن عكرمة عن ابن عباس قال : الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى السنبلة وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك عن الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : هى السنبلة ؛ وقال محمد بن اسحق عن رجل من أهل العلم عن حجاج عن مجاهد عن ابن عباس قال : هى البر وقال ابن جرير وحدثنى المثنى بن ابراهيم حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا القاسم حدثنى رجل من بنى تميم أن ابن عباس كتب الى أبى الجلد يسأله عن الشجرة التى أكل منها آدم والشجرة التى تاب عندها آدم فكتب اليه أبو الجلد سألتنى عن الشجرة التى نهى عنها آدم وهى السنبلة وسألتنى عن الشجرة التى تاب عندها آدم وهى الزيتونة ، وكذلك فسره الحسن البصرى ووهب بن منبه وعطية العوفى وأبو مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبى ليلى وقال محمد بن اسحق عن بعض أهل اليمن عن وهب بن منبه أنه كان يقول هى البر ولكن الحبة منها فى الجنة ككلى البقر وألين من الزبد وأحلى من العسل وقال سفيان الثورى عن حصين عن أبى مالك (ولا تقربا هذه الشجرة) قال النخلة ، وقال ابن جرير عن مجاهد (ولا تقربا هذه الشجرة) قال التينة ، وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية كانت الشجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغى أن يكون فى الجنة حدث ، وقال عبد الرزاق : حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهران قال : سمعت وهب بن منبه يقول : لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة ونهاه عن أكل الشجرة وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من بعض وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم وهى الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته .

فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة . قال الامام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال إن الله عزوجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة وقد قيل : كانت شجرة البر وقيل كانت شجرة العنب وقيل كانت شجرة التين وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم اذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم ، وكذلك رجح الابهام الرازى فى تفسيره وغيره

وهو الصواب وقوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها) يصح أن يكون الضمير فى قوله عنها عائداً الى الجنة فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم فازالهما أى فنحاهما ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة فازلهما أى من قبل الزلل فعلى هذا يكون تقدير الكلام (فأزلهما الشيطان عنها) أى بسببها كما قال تعالى (يؤفك عنه من أفك) أى يصرف بسببه من هو مأفوك ولهذا قال تعالى (فأخرجهما مما كانا فيه) أى من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم فى الأرض مستقرّ ومتاع الى حين) أى قرار وأرزاق وآجال ـ إلى حين ـ أى الى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة ، وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى باسانيده وأبى العالية ووهب بن منبه وغيرهم ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس وكيف جرى من دخول إبليس الى الجنة ووسوسته وسنبسط ذلك إن شاء الله فى سورة الأعراف فهناك القصة أبسط منها ههنا والله الموفق وقد قال ابن أبى حاتم ههنا : حدثنا على بن الحسن بن إشكاب ، حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول مابدا منه عورته فلمانظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن يا آدم منى تفر » فلماسمع كلام الرحمن قال يارب لا ، ولكن استحياء . قال: وحدثنى جعفر بن أحمد بن الحكم القرشى سنة أربع وخمسين ومائتين ، حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثنا على بن عاصم عن سعيد عن قتادة عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « لما ذاق آدم من الشجرة فر هاربا فتعلقت شجرة بشعره فنودى : يا آدم أفراراً منى ؟ قال : بل حياء منك قال : يا آدم اخرج من جوارى فبعزتى لايسا كننى فيها من عصانى ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلقاً ثم عصونى لأسكنتهم دار العاصين » هذا حديث غريب وفيه انقطاع بل إعضال بين قتادة وأبى بن كعب رضى الله عنهما . وقال الحاكم حدثنا أبو بكر بن باكويه عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمرو عن زائدة عن عمار بن أبى معاوية البجلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما أسكن آدم الجنة إلا مابين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال عبد بن حميد فى تفسيره حدثنا روح عن هشام عن الحسن قال : لبث آدم فى الجنة ساعة من نهار تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا . وقال أبو جعفر الرازى : عن الربيع بن أنس : قال خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الإكليل من ورق الجنة . وقال السدى : قال الله تعالى (اهبطوا منها جميعاً) فهبطوا ونزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الأسود وقبضة من ورق الجنة فبثه بالهند فنبتت شجرة الطيب فانما أصل ماىجاء به من الطيب من الهند من قبضة الورق التى هبط بها آدم ، وإنما قبضها آدم أسفاً على الجنة حين أخرج منها . وقال عمران بن عيينة. عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : أهبط آدم بدحنا أرض الهند . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن عطاء عن سعيد عن بن عباس قال : أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها دحنا بين مكة والطائف . وعن الحسن البصرى قال : أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال وأهبطت الحية باصبهان رواه ابن أبى حاتم ، وقال محمد بن أبى حاتم . حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا محمد ابن سعيد بن سابق حدثنا عمر بن أبى قيس عن الزبير بن عدى عن ابن عمر قال أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة . وقال رجاء بن سلمة اهبط آدم عليه السلام يداه على ركبتيه مطأطئا رأسه ، واهبط إبليس مشبكا بين أصابعه رافعاً رأسه إلى السماء . وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرنى عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى قال إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هـذه من ثمار الجنة غير ان هذه تتغير وتلك لا تتغير وقال الزهرى عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها » رواه مسلم والنسائى . وقال

الرازى : اعلم ان فى هذه الآية تهديدا عظيما عن كل المعاصى من وجوه (الأول) أن من تصور ماجرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصى قال الشاعر :

يا ناظرا يرنو بعينى راقد * ومشاهدا للامر غير مشاهد * تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى
درج الجنان ونيل فوز العابد * أنسيت ربك حين أخرج آدما * منها الى الدنيا بذنب واحد

قال ابن القيم ولكننا سبى العدو فهل ترى * نعود إلى أوطاننا ونسلم

قال الرازى عن فتح الموصلى أنه قال كنا قوما من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد الى الدار التى أخرجنا منها . فان قيل فاذا كانت جنة آدم التى أخرج منها فى السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك طردا قدريا والقدرى لايخالف ولا يمانع ؟ فالجواب ان هذا بعينه استدل به من يقول إن الجنة التى كان فيها آدم فى الارض لا فى السماء كما قد بسطنا هذا فى أول كتابنا البداية والنهاية وأجاب الجمهور بأجوبة أحدها أنه منع من دخول الجنة مكرما فأما على وجه السرقة والاهانة فلا يمتنع ولهذا قال بعضهم كما جاء فى التوراة أنه دخل فى فم الحية الى الجنة . وقد قال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة . وقال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما وهو فى الارض وهما فى السماء ذكرها الزمخشرى وغيره . وقد أورد القرطبى ههنا أحاديث فى الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك فأجاد وأفاد

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى . (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وروى هذا عن مجاهد . وسعيد بن جبير وابى العالية والربيع بن انس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظى وخالد بن معدان وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال ابو اسحق السبيعى عن رجل من بنى تميم قال اتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التى تلقى آدم من ربه ؟ قال علم شأن الحج وقال سفيان الثورى عن عبد العزيز بن رفيع أخبرنى من سمع عبيد بن عمير وفى رواية قال أخبرنى مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال: قال آدم يارب خطيئتى التى أخطأت شىء كتبته على قبل أن تخلقنى أو شىء ابتدعته من قبل نفسى ؟ قال « بل شىء كتبته عليك قبل أن اخلقك » قال فكما كتبته على فاغفرلى ، قال فذلك قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس فتلقى آدم من ربه كلمات قال: قال آدم عليه السلام يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له بلى ونفخت فى من روحك ؟ قيل له بلى ، وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى وكتبت على أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى قال أرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ قال نعم . وهكذا رواه العوفى وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهكذا فسره السدى وعطية العوفى وقد روى ابن أبى حاتم ههنا حديثا شبيها بهذا فقال حدثنا على بن الحسين بن اشكاب حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن ابى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال آدم عليه السلام أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة ؟ قال نعم فذلك قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات) وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع : وقال ابو جعفر الرازى عن الربيع بن انس عن ابى العالية فى قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . قال إن آدم لما أصاب الخطيئة قال أرأيت يارب إن تبت وأصلحت ؟ قال الله « إذا أدخلك الجنة » فهى الكلمات ، ومن الكلمات ايضا (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال ابن ابى نجيح عن مجاهد انه كان يقول فى قول الله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال الكلمات اللهم لا اله الا انت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى انك خير الغافرين ، اللهم لااله الاانت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب على انك أنت التواب الرحيم . وقوله تعالى (إنه هو التواب الرحيم) أى انه يتوب على من تاب

إليه وأناب كقوله (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وقوله (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه)الآيةوقوله (ومن تاب وعمل صالحا) وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ، ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده ، لا إله إلا هو التواب الرحيم

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما أنذربه آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة والمراد الذرية إنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل كما قال أبو العالية الهدى الأنبياء والرسل والبينات والبيان ، وقال مقاتل بن حيان الهدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الحسن الهدى القرآن ، وهذان القولان صحيحان وقول أبى العالية أعم (فمن اتبع هداى)أى من أقبل على ماأنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل (فلا خوف عليهم) أى فيما يستقبلونه من أمر الآخرة (ولاهم يحزنون) على مافاتهم من أمور الدنيا كما قال فى سورة طه (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى) قال ابن عباس فلا يضل فى الدنيا ولايشقى فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) كما قال ههنا (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى مخلدون فيها لامحيدلهم عنها ولا محيص. وقدأورد ابن جرير ههنا حديثا ساقه من طريقين عن أبى سلمة سعيد بن يزيد عن أبى نضرة المنذر بن مالك بن قطعة عن أبى سعيد واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما أهل النار الذين هم أهلها فلايموتون فيها ولا يحيون ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة » وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبى سلمة به .

وذكر هذا الاهباط الثانى لما تعلق به مابعده من المعنى المغاير للأول وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير كما يقال قم قم ، وقال آخرون بل الاهباط الأول من الجنة الى السماءالدنيا والثانى من سماء الدنيا إلى الارض والصحيح الأول والله أعلم

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾

يقول تعالى آمرا بنى اسرائيل بالدخول فى الاسلام ، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، ومهيجا لهم بذكر أبيهم اسرائيل وهو نبى الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره يابنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا ؛ يا ابن الشجاع بارز الابطال ؛ يا ابن العالم اطلب العلم ، ونحو ذلك . ومن ذلك أيضا قوله تعالى (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) فإسرائيل هو يعقوب بدليل مارواه أبو داود الطيالسى حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب قال حدثنى عبد الله بن عباس قال حضرت عصابة من اليهود نبى الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم « هل تعلمون أن اسرائيل يعقوب ؟ » قالوا اللهم نعم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم اشهد » وقال الأعمش عن اسماعيل بن رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس أن اسرائيل كقولك عبد الله وقوله تعالى (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) قال مجاهد نعمة الله التى أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجرلهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون وقال أبو العالية نعمته أن جعل منهم الانبياء والرسل وأنزل عليهم الكتب قلت وهذا كقول موسى عليه السلام لهم (ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) يعنى فى زمانهم وقال محمد ابن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (اذكروا نعمتى التى

أنعمت عليكم) أى بلائى عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وقومه (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) قال بعهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبى ﷺ إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من احداثكم . وقال الحسن البصرى هو قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية وقال آخرون هو الذى أخذ الله عليهم فى التوراة أنه سيبعث من بنى إسماعيل نبيا عظيما يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين . وقد أورد الرازى بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد ﷺ ، وقال ابو العالية (وأوفوا بعهدى) قال عهده الى عباده دين الاسلام وان يتبعوه ، وقال الضحاك عن ابن عباس أوف بعهدكم قال أرض عنكم وأدخلكم الجنة وكذا قال السدى والضحاك وابو العالية والربيع بن انس ، وقوله تعالى (وإياى فارهبون) اى فاخشون قاله ابو العالية والسدى والربيع بن انس وقتادة وقال ابن عباس فى قوله تعالى (وإياى فارهبون) أى أن أنزل بكم ما انزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم من المسخ وغيره وهذا انتقال من الترغيب الى الترهيب فدعاهم اليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون الى الحق واتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، ولهذا قال (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) يعنى به القرآن الذى انزل على محمد ﷺ النبى الأمى العربى بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملا على الحق من الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل قال ابو العالية رحمه الله فى قوله تعالى (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم) يقول يامعشر اهل الكتاب آمنوا بما انزلت مصدقاً لما معكم يقول لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، وروى عن مجاهد والربيع بن انس وقتادة نحو ذلك وقوله (ولا تكونوا أول كافربه) قال بعض المعربين اول فريق كافربه أو نحو ذلك قال ابن عباس ولا تكونوا اول كافربه وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم ، قال ابو العالية يقول ولا تكونوا اول من كفر بمحمد ﷺ يعنى من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه وكذا قال الحسن والسدى والربيع بن أنس واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله به عائد على القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله (بما أنزلت) وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن وأما قوله (أول كافربه) فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير وإنما المراد أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة فان يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم ، وقوله تعالى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) يقول لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها فانها قليلة فانية كما قال عبد الله بن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن جابر عن هرون بن يزيد قال سئل الحسن يعنى البصرى عن قوله تعالى (ثمنا قليلا) قال الثمن القليل الدنيا بحذافيرها وقال ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) إن آياته كتابه الذى أنزله اليهم وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتها ، وقال السدى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا يقول لا تأخذوا طمعا قليلا ولا تكتموا اسم الله فذلك الطمع هو الثمن ، وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) يقول لا تأخذوا عليه أجراً قال وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الأول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا ، وقيل معناه لا تعتاضوا عن البيان والايضاح ونشر العلم النافع فى الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب ، وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به

عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة » فأما تعليم العلم بأجرة فان كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله فان لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه وإذا لم يتعين عليه فانه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء كما فى صحيح البخارى عن أبى سعيد فى قصة اللديغ « إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله » وقوله فى قصة المخطوبة « زوجتكها بما معك من القرآن » فأما حديث عبادة بن الصامت أنه علم رجلا من أهل الصفة شيئا من القرآن فأهدى له قوسا فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال « إن أحببت أن تطوّق بقوس من نار فاقبله » فتركه رواه ابو داود وروى مثله عن أبى ابن كعب مرفوعا فان صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم ابو عمر بن عبد البر على انه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فانه يصح كما فى حديث اللديغ وحديث سهل فى المخطوبة والله أعلم وقوله (وإياى فاتقون) قال ابن أبى حاتم حدثنا ابو عمر الدورى حدثنا ابو إسماعيل المؤدب عن عاصم الأحول عن ابى العالية عن طلق بن حبيب قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله ومعنى قوله (وإياى فاتقون) انه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل . وتمويهه به وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) فنهاهم عن الشيئين معا وأمرهم باظهار الحق والتصريح به ولهذا قال الضحاك عن ابن عباس ـ ولا تلبسوا الحق بالباطل ـ لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب ، وقال ابو العالية ـ ولا تلبسوا الحق بالباطل ـ يقول ولا تخلطوا الحق بالباطل وأدوا النصيحة لعباد الله من امة محمد ﷺ ويروى عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه وقال قتادة (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالاسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الاسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله . وروى عن الحسن البصرى نحو ذلك وقال محمد بن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) اى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به وانتم تجدونه مكتوبا عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم وروى عن أبى العالية نحو ذلك وقال مجاهد والسدى وقتادة والربيع بن أنس (وتكتموا الحق) يعنى محمداً ﷺ (قلت) وتكتموا يحتمل أن يكون مجزوما ويحتمل أن يكون منصوبا اى لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، قال الزمخشرى وفى مصحف ابن مسعود وتكتمون الحق أى فى حال كتمانكم الحق وانتم تعلمون حال أيضا ، ومعناه وانتم تعلمون الحق ويجوز ان يكون المعنى وانتم تعلمون مافى ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضى بهم الى النار إن سلكوا ماتبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم والبيان الايضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل (وأقيموا الصلاة وآتو الزكاة واركعوا مع الراكعين) قال مقاتل قوله تعالى لأهل الكتاب (وأقيموا الصلاة) امرهم ان يصلوا مع النبى ﷺ (وآتوا الزكاة) امرهم ان يؤتوا الزكاة اى يدفعونها الى النبى ﷺ (واركعوا مع الراكعين) امرهم ان يركعوا مع الراكعين من امة محمد ﷺ يقول كونوا معهم ومنهم وقال على بن طلحة عن ابن عباس يعنى بالزكاة طاعة الله والاخلاص ، وقال وكيع عن ابى جناب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله وآتوا الزكاة قال ما يوجب الزكاة قال مائتان فصاعدا ، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن فى قوله

تعالى (وآتو الزكاة) قال فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي حيان التيمي عن الحارث العكلي في قوله تعالى (وآتوا الزكاة) قال صدقة الفطر وقوله تعالى (واركعوا مع الراكعين) أي وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة . وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة ، وأبسط ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله تعالى ، وقد تكلم القرطبي على مسائل الجماعة والامامة فأجاد .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى كيف يليق بكم يامعشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير ان تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون مافيه على من قصر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم . فتنتبهوا من رقدتكم . وتتبصروا من عمايتكم . وهذا كما قال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) قال كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون فعيرهم الله عز وجل وكذلك قال السدى وقال ابن جريج (أتأمرون الناس بالبر) أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ويدعون العمل بما يأمرون به الناس فعيرهم الله بذلك فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة وقال محمد بن إسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وتنسون أنفسكم) أي تتركون أنفسكم (وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى اليكم في تصديق رسولى وتنقضون ميثاقى وتجحدون ماتعلمون من كتابى ، وقال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية يقول أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسون أنفسكم ، وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى على بن الحسن حدثنا أسلم الحرمى حدثنا مخلد بن الحسين عن أيوب السختيانى عن أبي قلابة في قول الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) قال أبو الدرداء رضى الله عنه لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل سألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة أمروه بالحق فقال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له بل على تركهم له فان الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها وهذا ضعيف وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية فانه لاحجة لهم فيها ، والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله وينهى عن المنكر وإن ارتكبه ، قال مالك عن ربيعة سمعت سعيد بن جبير يقول لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك وصدق من ذا الذى ليس فيه شيء ؟ (قلت) لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة فانه ليس من يعلم كمن لايعلم ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك كما قال الإمام أبو القاسم الطبرانى في معجمه الكبير حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقى والحسن بن على العمرى قالا حدثنا هشام بن عمار حدثنا على بن سليمان الكلبى حدثنا الأعمش عن أبي تميمة الهجيمى عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه » هذا حديث غريب من هذا الوجه *

حديث آخر * قال الامام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا وكيع حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد هو ابن جدعان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار - قال قلت من هؤلاء ؟ قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » ورواه عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره عن الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة به ورواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث يونس بن محمد المؤدب والحجاج بن منهال كلاهما عن حماد بن سلمة به وكذا رواه يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به ، ثم قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبدالله بن إبراهيم حدثنا موسى ابن هرون حدثنا إسحق بن ابراهيم التسترى يبلغ حدثنا مكى بن ابراهيم حدثنا عمر بن قيس عن على بن زيد عن ثمامة عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مررت ليلة أسرى بى على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء ياجبريل قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم » وأخرجه ابن حبان فى صحيحه وابن أبى حاتم وابن مردويه أيضا من حديث هشام الدستوائى عن المغيرة يعنى ابن حبيب ختن مالك بن دينار عن مالك بن دينار عن ثمامة عن أنس بن مالك قال لما عرج برسول الله ﷺ مر بقوم تقرض شفاههم فقال يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون * حديث آخر * قال الامام أحمد حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا الأعمش عن أبى وائل قال قيل لأسامة وانا رديفه الا تكلم عثمان فقال إنكم ترون أنى لا أكله الا أسمعكم إنى لأ كله فيما بينى وبينه دون ان افتتح أمرا أحب أن أكون أول من افتتحه والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان علىّ أميراً بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول قالوا وما سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق به أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يافلان ماأصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » ورواه البخارى ومسلم من حديث سليمان بن مهران الأعمش به نحوه وقال أحمد حدثنا سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يعافى الأميين يوم القيامة مالا يعافى العلماء » وقد ورد فى بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لايعلم. وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) وروى ابن عساكر فى ترجمة الوليد بن عقبة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون بم دخلتم النار ؟ فوالله مادخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم فيقولون إنا كنا نقول ولا نفعل » ورواه ابن جرير الطبرى عن أحمد بن يحيى الخباز الرملى عن زهير بن عباد الرواسى عن أبى بكر الزاهرى عبدالله بن حكيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن الوليد بن عقبة فذكره وقال الضحاك عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال يا ابن عباس إنى أريد ان آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال أبلغت ذلك ؟ قال أرجو ، قال إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال وما هن ؟ قال قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) أحكمت هذه ؟ قال لا ، قال فالحرف الثانى قال قوله تعالى (لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) أحكمت هذه ؟ قال لا قال فالحرف الثالث قال قول العبد الصالح شعيب عليه السلام (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح) أحكمت هذه الآية ؟ قال لا قال فابدأ بنفسك رواه ابن مرديه فى تفسيره وقال الطبرانى حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا زيد بن الحارث حدثنا عبدالله بن خراش عن العوام بن حوشب عن المسيب بن رافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل فى ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ماقال أو دعا اليه » اسناده فيه ضعف وقال ابراهيم النخعى انى لأ كره القصص لثلاث آيات قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وقوله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وقوله اخبارا عن شعيب (وما أريد أن

أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة فأما الصبر فقيل إنه الصيام نص عليه مجاهد قال القرطبي وغيره ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث وقال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن جرى ابن كليب عن رجل من بني سليم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الصوم نصف الصبر » وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصي ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدالله بن حمزة بن إسماعيل حدثنا إسحق بن سليمان عن أبي سنان عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال الصبر صبران صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله . قال وروى عن الحسن البصرى نحو قول عمر وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار عن سعيد بن جبير قال الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لايرى منه إلا الصبر . وقال أبو العالية فى قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال على مرضاة الله واعلموا أنها من طاعة الله وأما قوله والصلاة إن الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الأمر كما قال تعالى (اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبدالله الدؤلي قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة قال حذيفة يعنى ابن اليمان رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى ورواه أبو داود عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتى وقد رواه ابن جرير من حديث ابن جريج عن عكرمة بن عمار عن محمد بن أبي عبيد بن أبي قدامة عن عبدالعزيز بن اليمان عن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة ويقال أخى حذيفة مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة حدثنا سهل بن عثمان العسكرى حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال : قال عكرمة بن عمار قال محمد بن عبد الله الدؤلى قال عبد العزيز قال حذيفة رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وهو مشتمل فى شملة يصلى وكان إذا حزبه أمر صلى . حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن أبي إسحق سمع حارثة بن مضرب سمع عليا رضى الله عنه يقول لقد رأيتنا ليلة بدر ومافينا إلا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ويدعو حتى أصبح . قال ابن جرير وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه مر بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له « أشكم درد » ومعناه أيوجعك بطنك ؟ قال نعم - قال « قم فصل فان الصلاة شفاء » قال ابن جرير وقد حدثنا محمد بن الفضل ويعقوب بن إبراهيم قالا حدثنا ابن علية حدثنا عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس نعى اليه أخوه قثم وهو فى سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال انهما معونتان على رحمة الله . والضمير فى قوله وإنها لكبيرة عائد إلى الصلاة نص عليه مجاهد واختاره ابن جرير ويحتمل أن يكون عائدا على مايدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك كقوله تعالى فى قصة قارون (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) وقال تعالى (ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا ومايلقاها

أى يؤتاها ويلهمها إلا ذو حظ عظيم . وعلى كل تقدير فقوله تعالى وإنها لكبيرة أى مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى المصدقين بما أنزل الله ، وقال مجاهد المؤمنين حقا وقال أبو العالية إلا على الخاشعين الخائفين وقال مقاتل بن حيان إلا على الخاشعين يعنى به المتواضعين وقال الضحاك وإنها لكبيرة قال إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوته المصدقين بوعده ووعيده . وهذا يشبه ماجاء فى الحديث « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه » وقال ابن جرير معنى الآية واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من رضا الله العظيمة إقامتها إلا على الخاشعين أى المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته . هكذا قال والظاهر أن الآية وإن كانت خطابا فى سياق إنذار بنى إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص وإنما هى عامة لهم ولغيرهم والله أعلم .

وقوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) هذا من تمام الكلام الذى قبله أى أن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم أى يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه وأنهم إليه راجعون أى أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات فأما قوله (يظنون أنهم ملاقوا ربهم) قال ابن جرير رحمه الله العرب قد تسمى اليقين ظنا والشك ظناً نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة والمغيث صارخا والمستغيث صارخا وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشىء وضده كما قال دريد بن الصمة

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج * سراتهم فى الفارسى المسرد

يعنى بذلك تيقنوا بألفى مدجج يأتيكم ، وقال عمير بن طارق

فإن يعبروا قومى وأقعد فيكم * وأجعل منى الظن غيبا مرجما

يعنى وأجعل منى اليقين غيبا مرجما ، قال والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين أكثر من أن تحصر وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية ومنه قول الله تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) ثم قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان عن جابر عن مجاهد كل ظن فى القرآن يقين أى ظننت وظنوا ، وحدثنى المثنى حدثنا إسحق حدثنا أبو داود الجبرى عن سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال كل ظن فى القرآن فهو علم وهذا سند صحيح وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) قال الظن ههنا يقين ، قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والسدى والربيع بن أنس وقتادة نحو قول أبى العالية ، وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) علموا أنهم ملاقو ربهم كقوله (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) يقول علمت وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (قلت) وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة « ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ » فيقول بلى فيقول الله تعالى « أظننت أنك ملاقى ؟ » فيقول لا فيقول الله « اليوم أنساك كما نسيتنى » وسيأتى مبسوطا عند قوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) إن شاء الله تعالى .

﴿ يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وقال تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (وأنى فضلتكم على العالمين) قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان فإن لكل زمان عالما ، وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل

ابن أبى خالد نحو ذلك ويجب الحمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى . خطابا لهذه الأمة (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم) وفى المسانيد والسنن عن معاوية بن حيدة القشيرى قال : قال رسول الله ﷺ «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» ، والأحاديث فى هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقيل المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس ولا يلزم تفضيلهم مطلقا حكاه الرازى وفيه نظر ؛ وقيل إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم حكاه القرطبى فى تفسيره وفيه نظر لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء فابراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولا عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال (واتقوا يوما) يعنى يوم القيامة (لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) أى لا يغنى أحد عن أحد كما قال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقال (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) وقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) فهذا أبلغ المقامات أن كلا من الوالد وولده لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئا ، وقوله تعالى (ولا يقبل منها شفاعة) يعنى من الكافرين كما قال (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وكما قال عن أهل النار (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) وقوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) أى لا يقبل منها فداء كما قال تعالى (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به) وقال (ان الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) وقال تعالى (وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) وقال (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم) الآية فأخبر تعالى أنهم ان لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فانه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذى جاه ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهبا كما قال تعالى (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقال (لا بيع فيه ولا خلال) قال سنيد حدثنى حجاج حدثنى ابن جريج قال قال مجاهد قال ابن عباس (ولا يؤخذ منها عدل) قال بدل والبدل الفدية ، وقال السدى أما عدل فيعدلها من العدل يقول لو جاءت بملء الأرض ذهبا تفتدى به ما تقبل منها ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله (ولا يقبل منها عدل) يعنى فداء قال ابن أبى حاتم وروى عن أبى مالك والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك ، وقال عبد الرزاق أنبأنا الثورى عن الأعمش عن ابراهيم التيمى عن أبيه عن على رضى الله عنه فى حديث طويل قال والصرف والعدل التطوع والفريضة وكذا قال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبى العاتكة عن عمير بن هانىء وهذا القول غريب ههنا والقول الأول أظهر فى تفسير هذه الآية وقد ورد حديث يقويه وهو ما قال ابن جرير حدثنى نجيح بن ابراهيم حدثنا على بن حكيم حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمرو بن قيس الملائى عن رجل من بنى أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء قال قيل يا رسول الله ما العدل ؟ قال «العدل الفدية» وقوله تعالى (ولا هم ينصرون) أى ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله كما تقدم من انه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء هذا كله من جانب التلطف ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم كما قال (فما له من قوة ولا ناصر) اى انه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ ولا يخلص منه أحد ولا يجير منه أحد كما قال تعالى (وهو يجير ولا يجار عليه) وقال (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) وقال (ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون) وقال (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم) الآية ، وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (ما لكم لا تناصرون)

مالكم اليوم لا تمانعون منا هيهات ليس ذلك لكم اليوم قال ابن جرير وتأويل قوله (ولاهم ينصرون) يعنى أنهم يومئذ لاينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ولا يقبل منهم عدل ولا فدية بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشا والشفاعات وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم إلى الجبار العدل الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها وذلك نظير قوله تعالى (وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لاتناصرون ؟ بل هم اليوم مستسلمون)

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

يقول تعالى اذكروا يابنى إسرائيل نعمتى عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب أى خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام وقد كانوا يسومونكم أى يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته رأى نارا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بنى إسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة وهكذا جاء فى حديث الفتون كما سيأتى فى موضعه فى سورة طه إن شاء الله تعالى فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بنى إسرائيل وأن تترك البنات وأمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأرذلها وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء وفى سورة إبراهيم عطف عليه كما قال (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) وسيأتى تفسير ذلك فى أول سورة القصص إن شاء الله تعالى وبه الثقة والمعونة والتأييد . ومعنى يسومونكم يولونكم قاله أبو عبيدة كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفا * أبينا أن نقر الخسف فينا

وقيل معناه يديمون عذابكم كما يقال سائمة الغنم من إدامتها الرعى نقله القرطبى وإنما قال ههنا (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) ليكون ذلك تفسيرا للنعمة عليهم فى قوله (يسومونكم سوء العذاب) ثم فسره بهذا لقوله ههنا (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وأما فى سورة ابراهيم فلما قال (وذكرهم بأيام الله) أى بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادى على بنى إسرائيل . وفرعون علم على كل من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم كما ان قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا وكسرى لمن ملك الفرس ، وتبع لمن ملك اليمن كافرا ، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وبطليموس لمن ملك الهند ويقال كان اسم فرعون الذى كان فى زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان وقيل مصعب بن الريان فكان من سلالة عمليق بن الأود بن إرم بن سام بن نوح وكنيته أبو مرة وأصله فارسى من اصطخر وأيا ما كان فعليه لعنة الله ، وقوله تعالى (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) قال ابن جرير وفى الذى فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم أى نعمة عظيمة عليكم فى ذلك ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله تعالى (بلاء من ربكم عظيم) قال نعمة ، وقال مجاهد (بلاء من ربكم عظيم) قال نعمة من ربكم عظيمة ، وكذا قال أبو العالية وأبو مالك والسدى وغيرهم وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) قال ابن جرير وأكثر مايقال فى الشر بلوته أبلوه بلاء وفى الخير أبليه إبلاء وبلاء ، قال زهير بن أبى سلمى :

جزى الله بالاحسان مافعلا بكم * وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

قال فجمع بين اللغتين لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التى يختبر بها عباده وقيل المراد بقوله (وفى ذلكم بلاء)

إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء قال القرطبي وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى القول الأول ، ثم قال : وقال الجمهور الإشارة إلى الذبح ونحوه والبلاء ههنا في الشر والمعنى وفي الذبح مكروه وامتحان وقوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) معناه وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلا كما سيأتي في مواضعه ومن أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله (فأنجيناكم) أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم . قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أبي إسحاق الهمداني عن عمرو بن ميمون الأودي في قوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر — إلى قوله — وأنتم تنظرون) قال لما خرج موسى ببني إسرائيل بلغ ذلك فرعون فقال لاتتبعوهم حتى تصيح الديكة قال فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا فدعا بشاة فذبحت ثم قال لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع ابن نون أين أمر ربك ؟ قال أمامك يشير إلى البحر فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر فذهب به الغمر ثم رجع فقال أين أمر ربك ياموسى ؟ فو الله ما كذبت ولا كذبت ، فعل ذلك ثلاث مرات ثم أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم — يقول مثل الجبل — ثم سار موسى ومن معه واتبعهم فرعون في طريقهم حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم فلذلك قال (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) وكذلك قال غير واحد من السلف كما سيأتي بيانه في موضعه وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال « ما هذا اليوم الذي تصومون ؟ » قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله ﷺ « أنا أحق بموسى منكم » فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه وروى هذا الحديث البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق عن أيوب السختياني به نحو ما تقدم وقال أبو يعلى الموصلي حدثنا أبو الربيع حدثنا سلام يعني ابن سليم عن زيد العمي عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال « فلق الله البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء » وهذا ضعيف من هذا الوجه فان زيدا العمي فيه ضعف وشيخه يزيد الرقاشي أضعف منه

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة وكانت أربعين يوما وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) قيل إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر وقوله تعالى (وإذا آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة (والفرقان) وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة (لعلكم تهتدون) وكان ذلك أيضا بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف ولقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) وقيل الواو زائدة والمعنى ولقد آتينا موسى الكتاب الفرقان وهذا غريب وقيل عطف عليه وإن كان المعنى واحدا كما في قول الشاعر :

وقدمت الأديم لراهشيه * فألفى قولها كذبا ومينا

وقال الآخر : ألا حبذا هند وأرض بها هند ✱ وهند أتى من دونها النأى والبعد

فالكذب هو المين ، والنأى هو البعد . وقال عنترة

حييت من طلل تقادم عهده ✱ أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فعطف الإقفار على الإقواء وهو هو

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

هذه صفة توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل ، قال الحسن البصرى رحمه الله فى قوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) فقال ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال الله تعالى (ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) الآية . قال . فذلك حين يقول موسى (ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والربيع بن أنس (فتوبوا إلى بارئكم) أى إلى خالقكم قلت وفى قوله ههنا (إلى بارئكم) تنبيه على عظم جرمهم أى فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره . وقد روى النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : فقال الله تعالى إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهارون ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول وهذا قطعة من حديث الفتون وسيأتى فى سورة طه بكماله إن شاء الله . وقال ابن جرير : حدثنى عبد الكريم بن الهيثم حدثنا إبراهيم بن بشار حدثنا سفيان بن عيينة : قال: قال أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال موسى لقومه توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ✱ قال أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل كل من قتل منهم كانت له توبة وكل من بقى كانت له توبة . وقال ابن جرير : أخبرنى القاسم بن أبى برة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان فى قوله تعالى (فاقتلوا أنفسكم) قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحنوا رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل وإن الله أوحى إلى موسى أن حسبى فقد اكتفيت فذلك حين ألوى موسى بثوبه وروى عن على رضى الله عنه نحو ذلك وقال قتادة : أمر القوم بشديد من الأمر فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضا حتى بلغ الله فيهم نقمته فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك عنهم القتل فجعل لحيهم توبة وللمقتول شهادة. وقال الحسن البصرى : أصابتهم ظلمة حندس فقتل بعضهم بعضا ثم انكشف عنهم فجعل توبتهم فى ذلك وقال السدى : فى قوله (فاقتلوا أنفسكم) قال فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف فكان من قتل من الفريقين شهيداً حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا حتى قتل منهم سبعون ألفاً وحتى دعا موسى وهارون ربنا أهلكت بنى إسرائيل ربنا البقية البقية فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً ومن بقى مكفرا عنه فذلك قوله (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) وقال الزهرى : لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى فاضطربوا بالسيوف وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه حتى إذا فتر بعضهم قالوا يانبى الله ادع الله لنا وأخذوا بعضديه يسندون يديه فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم فاوحى الله جل

ثناؤه إلى موسى ما يحزنك أمامن قتل منهم فحى عندى يرزقون وأمامن بقى فقدقبلت توبته فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل رواه ابن جرير باسناد جيد عنه وقال ابن إسحاق لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل وذراه فى اليم خرج إلى ربه بمن اختار من قومه فأخذتهم الصاعقة ثم بعثوا فسأل موسى ربه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل فقال لا إلا أن يقتلوا أنفسهم قال فبلغنى أنهم قالوا لموسى نصبر لأمر الله فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده فجلسوا بالأفنية وأصلت عليهم القوم السيوف فجعلوا يقتلونهم فهش موسى فبكى إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما رجع موسى إلى قومه وكانوا سبعين رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه فقال لهم موسى انطلقوا إلى موعد ربكم فقالوا يا موسى مامن توبة قال بلى : اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم - الآية فاخترطوا السيوف والجزرة والخناجر والسكاكين . قال وبعث عليهم ضبابة قال فجعلوا يتلامسون بالأيدى ويقتل بعضهم بعضا قال ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدرى . قال ويتنادون فيها رحم الله عبدا صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه ، قال فقتلاهم شهداء وتيب على أحيائهم ثم قرأ (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتى جهرة عيانا مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم كما قال ابن جريج قال ابن عباس فى هذه الآية (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال علانية وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحق عن أبى الحويرث عن ابن عباس أنه قال فى قول الله تعالى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) أى علانية أى حتى نرى الله وقال قتادة والربيع بن أنس (حتى نرى الله جهرة) أى عيانا وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه قال فسمعوا كلاما فقالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال فسمعوا صوتا فصعقوا يقول ماتوا . وقال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة الصاعقة صيحة من السماء وقال السدى فى قوله (فأخذتكم الصاعقة) الصاعقة: نار ، وقال عروة بن رويم فى قوله (وأنتم تنظرون) قال صعق بعضهم وبعض ينظرون ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء وقال السدى (فأخذتكم الصاعقة) فماتوا فقام موسى يبكى ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) فأوحى الله إلى موسى ان هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ؟ قال فذلك قوله تعالى (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) وقال الربيع بن أنس كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم وكذا قال قتادة وقال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق ، قال لما رجع موسى إلى قومه فرأى ماهم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه وللسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله قالوا ياموسى اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره انكشف

عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا لموسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فماتوا جميعا وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) قد سفهوا أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل بما يفعل السفهاء منا ؟ أى إن هذا لهم هلاك واخترت منهم سبعين رجلا الخير فالخير أرجع إليهم وليس معى منهم رجل واحد فما الذى يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا ؟ (إناهدنا اليك) فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب إليه حتى رد إليهم أرواحهم وطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل فقال لا إلا أن يقتلوا أنفسهم ـ هذا سياق محمد بن إسحق ـ وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم لبعض كما أمرهم الله به أمر الله موسى أن يأتيه فى كل أناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موسى فاختار موسى سبعين رجلا على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا وساق البقية وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل فى قوله (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) والمراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه ، وقد أغرب الرازى فى تفسيره حين حكى فى قصة هؤلاء السبعين أنهم بعد إحيائهم قالوا ياموسى إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك فادعه أن يجعلنا أنبياء فدعا بذلك فأجاب الله دعوته ، وهذا غريب جدا إذلايعرف فى زمان موسى نبى سوى هرون ثم يوشع بن نون وقد غلط أهل الكتاب أيضا فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون .

القول الثانى فى الآية قال عبد الرحمن بن زيدبن أسلم فى تفسيرهذه الآية قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم فقال إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه . فقالوا ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا فيقول هذا كتابى فخذوه فماله لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى وقرأ قول الله (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون ،قال ثم أحياهم الله من بعدموتهم وقرأقول الله (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) فقال لهم موسى خذوا كتاب الله فقالوا لا ، فقال أى شيء أصابكم ؟ فقالوا أصابنا أنا متنا ثم أحيينا ، قال خذوا كتاب الله قالوا لا ، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم . وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا . وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين أحدهما أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق والثانى أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف قال القرطبى وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم لأن بنى إسرائيل قدشاهدوا أموراً عظاما من خوارق العادات وهم فى ذلك مكلفون وهذا واضح والله أعلم

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى مادفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضا بما أسبغ عليهم من النعم فقال (وظللنا عليكم الغمام) وهو جمع غمامة سمى بذلك لأنه يغم السماء أى يواريها ويسترها وهو السحاب الأبيض ظللوا به فى التيه ليقيهم حر الشمس كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس فى حديث الفتون قال ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبى مجلز والضحاك والسدى نحو قول ابن عباس وقال الحسن وقتادة (وظللنا عليكم الغمام) كان هذا فى البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس وقال ابن جرير قال آخرون وهو غمام أبرد من هذا وأطيب . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (وظللنا عليكم الغمام) قال ليس

بالسحاب هو الغمام الذى يأتى الله فيه يوم القيامة ولم يكن إلا لهم . وهكذا رواه ابن جرير عن المثنى بن إبراهيم عن أبى حذيفة وكذا رواه الثورى وغيره عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وكأنه يريد والله أعلم انه ليس من زى هذا السحاب بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظرا كما قال سنيد فى تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جريج قال: قال ابن عباس (وظللنا عليكم الغمام) قال غمام أبرد من هذا وأطيب وهو الذى يأتى الله فيه فى قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) وهو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر . قال ابن عباس وكان معهم فى التيه : وقوله تعالى (وأنزلنا عليكم المن) اختلفت عبارات المفسرين فى المن ماهو ؟ فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ماشاءوا . وقال مجاهد المن صمغة وقال عكرمة المن شىء أنزله الله عليهم مثل الطل شبه الرب الغليظ وقال السدى قالوا ياموسى كيف لنا بما ههنا أين الطعام فأنزل الله عليهم المن فكان يسقط على شجرة الزنجبيل وقال قتادة كان المن ينزل عليهم فى محلهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر مايكفيه يومه ذلك فاذا تعدى ذلك فسد ولم يبق حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ مايكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لايشخص فيه لأمر معيشته ولايطلبه لشىء وهذا كله فى البرية وقال الربيع بن أنس المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه . وقال وهب بن منبه وسئل عن المن فقال خبز رقاق مثل الذرة أو مثل النقى وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى محمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا إسرائيل عن جابر عن عامر وهو الشعبى قال عسلكم هذا جزء من سبعين جزءا من المن وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انه العسل ووقع فى شعر أمية بن أبى الصلت حيث قال :

فرأى الله أنهم بمضيع * لابذى مزرع ولامثمورا * فسناها عليهم غاديات
ويرى مزنهم خلايا وخورا * عسلا ناطفا وماء فراتا * وحليبا ذا بهجة مزمورا

فالناطف هو السائل والحليب المزمور الصافى منه والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة فى شرح المن فمنهم من فسره بالطعام ومنهم من فسره بالشراب والظاهر والله أعلم أنه كل ماامتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاما وحلاوة وإن مزج مع الماء صار شرابا طيبا وان ركب مع غيره صار نوعا آخر ولكن ليس هو المراد من الآية وحده والدليل على ذلك قول البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير بن حريث عن سعيد بن زيد رضى الله عنه قال قال النبى ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وهذا الحديث رواه الامام أحمد عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك وهو ابن عمير به وأخرجه الجماعة فى كتبهم إلا أبا داود من طرق عن عبد الملك وهو ابن عمير به وقال الترمذى حسن صحيح ورواه البخارى ومسلم من رواية الحكم عن الحسن العرنى عن عمرو بن حريث به وقال الترمذى حدثنا أبو عبيدة بن أبى السفر ومحمود بن غيلان قالا حدثنا سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » تفرد باخراجه الترمذى ثم قال هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث محمد بن محمد بن عمرو وإلا من حديث سعيد بن عامر عنه ، وفى الباب عن سعيد بن زيد وأبى سعيد وجابر — كذا قال — وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من طريق آخر عن أبى هريرة فقال حدثنا أحمد بن الحسن بن أحمد البصرى حدثنا أسلم بن سهل حدثنا القاسم بن عيسى حدثنا طلحة بن عبد الرحمن عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وهذا حديث غريب من هذا الوجه وطلحة بن عبد الرحمن هذا السلمى الواسطى يكنى بأبى محمد وقيل أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى : روى عن قتادة أشياء لايتابع عليها . ثم قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا الكمأة جدرى الأرض فقال نبى الله صلى الله عليه

وسلم « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم » وهذا الحديث قد رواه النسائي عن محمد بن بشار به وعنه عن غندر عن شعبة عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة به وعن محمد بن بشار عن عبد الأعلى عن خالد الحذاء عن شهر بن حوشب بقصة الكمأة فقط . وروى النسائي أيضا وابن ماجه من حديث محمد بن بشار عن أبي عبد الصمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد عن مطر الوراق عن شهر بقصة العجوة عند النسائي وبالقصتين عند ابن ماجه وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة فانه لم يسمع منه بدليل مارواه النسائي في الوليمة من سننه عن علي بن الحسين الدرهمي عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي هريرة . قال خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكمأة وبعضهم يقول جدري الأرض فقال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وروى عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر كما قال الإمام أحمد حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري قالا : قال رسول الله ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم » وقال النسائي في الوليمة أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » ثم رواه أيضا وابن ماجه من طرق عن الأعمش عن أبي بشر عن شهر عنهما به وقد رويا — أعني النسائي من حديث جرير وابن ماجه من حديث سعيد بن أبي سلمة — كلاهما عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن أبي نضرة عن أبي سعيد رواه النسائي وحديث جابر عن النبي ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » ورواه ابن مردويه عن أحمد بن عثمان عن عباس الدوري عن لاحق بن صواب عن عمار بن رزيق عن الأعمش كابن ماجه وقال ابن مردويه أيضا حدثنا أحمد بن عثمان حدثنا عباس الدوري حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي سعيد الخدري قال خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كمآت فقال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وأخرجه النسائي عن عمرو بن منصور عن الحسن بن الربيع به ثم ابن مردويه رواه أيضا عن عبد الله بن إسحق عن الحسن بن سلام عن عبيد الله بن موسى عن شيبان عن الأعمش به ، وكذا رواه النسائي عن أحمد بن عثمان بن حكيم عن عبيد الله ابن موسى وقد روى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كما قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا حمدون بن أحمد حدثنا جويرية بن أشرس حدثنا حماد عن شعيب بن الحبحاب عن أنس أن أصحاب رسول الله ﷺ تداروا في الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، فقال بعضهم نحسبه الكمأة فقال رسول الله ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وفيها شفاء من السم » وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة . وقد روى الترمذي والنسائي من طريقه شيئا من هذا والله أعلم . وروى عن شهر عن ابن عباس كما رواه النسائي أيضا في الوليمة عن أبي بكر أحمد بن علي بن سعيد عن عبد الله بن عون الخراز عن أبي عبيدة الحداد عن عبد الجليل بن عطية عن عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » فقد اختلف كما ترى فيه على شهر بن حوشب ويحتمل عندي أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم فان الأسانيد إليه جيدة وهو لايتعمد الكذب وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ كما تقدم من رواية سعيد بن زيد رضي الله عنه .

وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس السلوى طائر يشبه بالسماني . كانوا يأكلون منه . وقال السدي في خبره ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة السلوى طائر يشبه السماني ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا قرة ابن خالد عن جهضم عن ابن عباس ، قال السلوى هو السماني وكذا قال مجاهد والشعبي والضحاك والحسن وعكرمة

والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى وعن عكرمة أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك وقال قتادة : السلوى كان من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدى فسد ولم يبق عنده حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عبادة لايشخص فيه لشيء ولا يطلبه ، وقال وهب بن منبه : السلوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت وفى رواية عن وهب قال سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام لحما فقال الله لأطعمنهم من أقل لحم يعلم فى الأرض فأرسل عليهم ريحا فأذرت عند مساكنهم السلوى وهو السمانى مثل ميل فى ميل قيد رمح فى السماء فخبأوا للغد فنتن اللحم وخنز الخبز ، وقال السدى لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام كيف لنا بما ههنا أين الطعام فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فان كان سمينا ذبحه وإلا أرسله فاذا سمن أتاه فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين ، فقالوا هذا الشراب فأين الظل فظلل عليهم الغمام ، فقالوا هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى (وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى) وقوله (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) وروى عن وهب بن منبه وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم نحو ماقاله السدى وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج قال قال ابن عباس خلق لهم فى التيه ثياب لاتخرق ولاتدرن ، قال ابن جريج : فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد الا أنهم كانوا يأخذون فى يوم الجمعة طعام يوم السبت فلايصبح فاسدا قال ابن عطية السلوى طير باجماع المفسرين وقد غلط الهذلى فى قوله انه العسل وأنشد فى ذلك مستشهدا :

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ＊ ألذ من السلوى اذا ما أشورها

قال فظن أن السلوى عسلا ، قال القرطبي ◆ دعوى الاجماع لاتصح لأن المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير قال انه العسل واستدل ببيت الهذلى هذا وذكر أنه كذلك فى لغة كنانة لأنه يسلى به ومنه عين سلوان ، وقال الجوهرى : السلوى العسل واستشهد ببيت الهذلى أيضا والسلوانة بالضم خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا قال الشاعر :

شربت على سلوانة ماء مزنة ＊ فلا وجديد العيش يامى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان ، وقال بعضهم السلوان دواء يشفى الحزين فيسلو والأطباء يسمونه ﴿مفرح﴾ ، قالوا والسلوى جمع بلفظ الواحد أيضا كما يقال سمانى للمفرد والجمع وويلى[1] كذلك ، وقال الخليل واحده سلواة وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة ＊ كما انتفض السلواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السلوى واحدة وجمعه سلاوى : نقله كله القرطبيّ . وقوله تعالى (كلوا من طيبات مارزقناكم) أمر إباحة وإرشاد وامتنان ، وقوله تعالى (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا كما قال (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم هذا مع ماشاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات ، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه فى أسفاره وغزواته منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلا على النبى صلى الله عليه وسلم ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا مامعهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم ثم نظروا فاذا هى لم تجاوز العسكر . فهذا هو الأكمل فى اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) هكذا فى النسخ وفى شرح القاموس مانصه : وفى الصحاح قال الأخفش لم أسمع له بواحد قال وهو يشبه أن واحده سلوى مثل جماعته كما قالوا دفلى للواحد والجماعة اه فليحرر

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

يقول تعالى لائما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام فأمروا بدخول الأرض المقدسة التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى فى سورة المائدة ، ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس كما نص على ذلك السدى والربيع بن أنس وقتادة وأبومسلم الاصفهانى وغير واحد وقد قال الله تعالى حاكيا عن موسى (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا) الآيات . وقال آخرون هى أريحاء ، ويحكى عن ابن عباس وعبدالرحمن بن زيد وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء ، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر ، حكاه الرازى فى تفسيره والصحيح الاول أنها بيت المقدس ، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد (سجدا) أى شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وانقاذهم من التيه والضلال ، قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله تعالى (وادخلوا الباب سجدا) أى ركعا ، وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (وادخلوا الباب سجدا) قال ركعا من باب صغير رواه الحاكم من حديث سفيان به ، ورواه ابن أبى حاتم من حديث سفيان وهو الثورى به وزاد فدخلوا من قبل أستاههم ؛ وقال الحسن البصرى أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم واستبعده الرازى وحكى عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته ، وقال خصيف : قال عكرمة قال ابن عباس كان الباب قبل القبلة ، وقال ابن عباس ومجاهد والسدى وقتادة والضحاك هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس ، وحكى الرازى عن بعضهم أنه عنى بالباب جهة من جهات القبلة ، وقال خصيف قال عكرمة قال ابن عباس فدخلوا على شق ، وقال السدى عن أبى سعيد الأزدى عن أبى الكنود عن عبدالله بن مسعود قيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا مقنعى رءوسهم أى رافعى رءوسهم خلاف ما أمروا ، وقوله تعالى (وقولوا حطة) قال الثورى عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وقولوا حطة) قال مغفرة استغفروا ، وروى عن عطاء والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه ، وقال الضحاك عن ابن عباس (وقولوا حطة) قال قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم وقال عكرمة قولوا (لا إله الا الله) وقال الأوزاعى . كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه فسأله عن قوله تعالى (وقولوا حطة) فكتب إليه أن أقروا بالذنب وقال الحسن وقتادة أى احطط عنا خطايانا (نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين) وقال هذا جواب الأمر أى إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى كما قال تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر ، وفسره ابن عباس بأنه نعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجله فيها وأقره على ذلك عمر رضى الله عنه ، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ونعى إليه روحه الكريمة أيضا ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدا عند النصر كما روى انه كان يوم الفتح فتح مكة داخلا إليها من الثنية العليا وانه لخاضع لربه حتى

ان عثنونه ليمس مورك رحله شكراً لله على ذلك ، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثمانى ركعات وذلك ضحى فقال بعضهم هذه صلاة الضحى وقال آخرون بل هى صلاة الفتح فاستحبوا للامام وللأمير إذا فتح بلداً أن يصلى فيه ثمانى ركعات عند أول دخوله كما فعل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثمانى ركعات والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم ؛ وقيل يصليها كلها بتسليم واحد والله أعلم .

وقوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) قال البخارى حدثنى محمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ـ فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا حبة فى شعرة » ورواه النسائى عن محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم عن عبد الرحمن به موقوفا وعن محمد بن عبيد بن محمد عن ابن المبارك ببعضه مسنداً فى قوله تعالى (حطة) قال فبدلوا وقالوا حبة وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله لبنى إسرائيل (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم) فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا حبة فى شعرة » وهذا حديث صحيح رواه البخارى عن إسحق بن نصر ومسلم عن محمد بن رافع والترمذى عن عبد الرحمن بن حميد كلهم عن عبد الرزاق به ، وقال الترمذى حسن صحيح ، وقال محمد بن إسحق كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « دخلوا الباب ـ الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجداً ـ يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة فى شعيرة » وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح وحدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الله بن وهب حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « قال الله لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم » ثم قال أبو داود حدثنا أحمد بن مسافر حدثنا ابن أبى فديك عن هشام بمثله هكذا رواه منفرداً به فى كتاب الحروف مختصرا وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إبراهيم بن مهدى حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزاز حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبى فديك عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل أجزنا فى ثنية يقال لها ذات الحنظل فقال رسول الله ﷺ « ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم » وقال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن البراء (سيقول السفهاء من الناس) قال اليهود قيل لهم ادخلوا الباب سجداً قال ركعا وقولوا حطة أى مغفرة فدخلوا على أستاههم وجعلوا يقولون حنطة حمراء فيها شعيرة فذلك قول الله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وقال الثورى عن السدى عن أبى سعد الأزدى عن أبى الكنود عن ابن مسعود وقولوا حطة فقالوا حنطة حبة حمراء فيها شعيرة فأنزل الله (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وقال أسباط عن السدى عن مرة عن ابن مسعود أنه قال إنهم قالوا هطا سمعاتا أزبة مزبا فهى بالعربية حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء فذلك قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وقال الثورى عن الأعمش عن المنهال عن سعيد عن ابن عباس فى قوله تعالى (ادخلوا الباب سجداً) قال ركعا من باب صغير فدخلوا من قبل أستاههم وقالوا حنطة فذلك قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وهكذا روى عن عطاء ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن رافع . وحاصل ماذكره المفسرون ومادل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعى رءوسهم وأمروا أن يقولوا حطة أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا فقالوا حنطة فى شعيرة وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته . ولهذا قال (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وقال الضحاك عن ابن عباس كل شىء فى كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب وهكذا روى عن مجاهد وأبى مالك والسدى والحسن وقتادة أنه العذاب وقال أبو العالية الرجز الغضب ، وقال الشعبى الرجز إما الطاعون

وإما البرد وقال سعيد بن جبير هو الطاعون وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن ابراهيم بن سعد يعنى ابن أبى وقاص عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهم قالوا : قال رسول الله ﷺ « الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم » وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى به وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث حبيب بن أبى ثابت « إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها » الحديث قال ابن جرير أخبرنى يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس عن الزهرى قال أخبرنى عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ قال « إن هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم » وهذا الحديث أصله مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم بن أبى النضر عن عامر بن سعد بنحوه .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى إجابتى لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقانى لكم وتيسيرى لكم الماء وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم وتفجيرى الماء لكم منه من ثنتى عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذى أنبعته لكم بلا سعى منكم ولا كد واعبدوا الذى سخر لكم ذلك (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها . وقد بسطه المفسرون فى كلامهم كما قال ابن عباس رضى الله عنه وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحية منه ثلاث عيون وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذى كان منهم بالمنزل الأول وهذا قطعة من الحديث الذى رواه النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وهو حديث الفتون الطويل . وقال عطية العوفى وجعل لهم حجراً مثل رأس الثور يحمل على ثور فاذا نزلوا منزلا وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فاذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء وقال عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه كان لبنى إسرائيل حجر فكان يضعه هرون ويضربه موسى بالعصا وقال قتادة كان حجراً طوريا من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه ، وقال الزمخشرى وقيل كان من رخام وكان ذراعا فى ذراع وقيل مثل رأس الانسان وقيل كان من الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان تتقدان فى الظلمة وكان يحمل على حمار قال وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه اليه مع العصا وقيل هو الحجر الذى وضع عليه ثوبه حين اغتسل فقال له جبريل ارفع هذا الحجر فان فيه قدرة ولك فيه معجزة فحمله فى مخلاته ، قال الزمخشرى ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد أى اضرب الشىء الذى يقال له الحجر وعن الحسن لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه ، قال وهذا أظهر فى المعجزة وأبين فى القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس فقالوا إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا ، فأوحى الله اليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسها بالعصا لعلهم يقرون والله أعلم ، وقال يحيى بن النضر : قلت لجويبر كيف علم كل أناس مشربهم ؟ قال : كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا فينضح من كل عين على رجل فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين ، وقال الضحاك : قال ابن عباس لما كان بنو إسرائيل فى التيه شق لهم من الحجر أنهاراً ، وقال الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس : قال ذلك فى التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها ، وقال مجاهد نحو قول ابن عباس وهذه القصة شبيهة بالقصة التى فى سورة الأعراف ولكن تلك مكية ، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقص

على رسوله ﷺ مافعل بهم . وأما فى هـذه السورة وهى البقرة فهى مدنيـة فلهذا كان الخطاب فيها متوجها إليهم وأخبر هناك بقوله (فانبجست منه اثنتا عشرة عينا) وهو أول الانفجار وأخبر ههنا بما آل اليه الحال آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا وذاك هناك والله أعلم . وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأل عنها الزمخشرى فى تفسيره وأجاب عنها بما عنده والأمر فى ذلك قريب والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى إنزالى عليكم المن والسلوى طعاما طيبا نافعا هنيئا سهلا واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة[1] من البقول ونحوها مما سألتم قال الحسن البصرى فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه وكانوا قوما أهل أعـداس وبصل وبقل وفوم فقالوا (ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى لأنه لايتبدل ولا يتغير كل يوم فهو مأكل واحد . فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة ، وأما الفوم فقد اختلف السلف فى معناه فوقع فى قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء ، وكذا فسره مجاهد فى رواية ليث بن أبى سليم عنه بالثوم . وكذا الربيع بن أنس وسعيد بن جبير ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمرو بن رافع حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحق البصرى عن يونس عن الحسن فى قوله (وفومها) قال: قال ابن عباس الثوم ، قال وفى اللغة القديمة فوموا لنا بمعنى اختبزوا ، قال ابن جرير : فان كان ذلك صحيحا فانه من الحروف المبـدلة كقولهم : وقعوا فى عاثور شر وعافور شر وأثافى واثاثى ومغافير ومغاثير واشـباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثـاء فاء لتقارب مخرجيهما والله اعلم . وقال آخرون الفوم الحنطة وهو البر الذى يعمل منه الخبز قال ابن أبى حاتم حدثنـا يونس بن عبد الأعلى قراءة انبأنا ابن وهب قرأءة حدثنى نافع بن أبى نعيم أن ابن عباس سئل عن قول الله (وفومها) مافومها ؟ قال الحنطة . قال ابن عباس : اماسمعت قول احيحة بن الجلاح وهو يقول :

قد كنت اغنى الناس شخصا واحداً * ورد المـدينة عن زراعة فوم

وقال ابن جرير حدثنا على بن الحسن حدثنا مسلم الجهنى حدثنا عيسى بن يونس عن رشيد بن كريب عن ابيه عن ابن عباس فى قول الله تعالى (وفومها) قال الفوم الحنطة بلسان بنى هاشم، وكذا قال على بن أبى طلحة والضحاك عن ابن عباس وعكرمة عن ابن عباس أن الفوم الحنطة ، وقال سفيان الثورى : عن ابن جريج عن مجاهد وعطاء (وفومها) قالا وخبزها وقال هشيم عن يونس عن الحسين وحصين عن أبى مالك (وفومها) قال الحنطة وهو قول عكرمة والسدى والحسن البصرى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وغيرهم فالله اعلم . وقال الجوهرى : الفوم الحنطة وقال ابن دريد : الفوم السنبلة . وحكى القرطبى عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز . قال وقال بعضهم هو الحمص لغة شامية ومنه يقال لبـائعه فامى مغير عن فومى ، قال البخارى . وقال بعضهم الحبوب التى تؤكل كلها فوم . وقوله تعالى (قال اتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير) فيه تقريع لهم وتوبيخ على ماسألوا من هـذه الأطعمة الدنيئة مع ماهم فيه من العيش الرغيـد والطعام الهنىء الطيب النـافع . وقوله تعالى (اهبطوا مصرا) هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير . ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لاجماع المصاحف على ذلك. وقال ابن عباس (اهبطوا مصرا) قال مصرا من الأمصار رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى سعيد البقال سعيد بن المرزبان عن عكرمة عنه قال . وروى عن السدى وقتادة والربيع بن انس نحو ذلك وقال ابن جرير وقع فى قراءة أبى بن كعب وابن مسعود (اهبطوا مصر) من غير إجراء يعنى من غير صرف . ثم روى عن أبى العالية والربيع

(١) فى هذا التركيب مخالفة لما هو المعهود من دخول الباء على المبدل منه كما فى الآية وأمثالها ولعله من غلط الطبع اهـ

ابن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والربيع وعن الأعمش أيضا. قال ابن جرير ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الاجراء أيضا . ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى (قواريرا قواريرا) ثم توقف في المراد ماهو أمصر فرعون أم مصر من الأمصار وهذا الذى قاله فيه نظر والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجد تموه فليس يساوى مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه . ولهذا قال (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) أى ماطلبتم ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أى وضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدراً أى لايزالون مستذلين من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون . قال الضحاك عن ابن عباس (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) قال هم أصحاب القبالات ، يعنى الجزية . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن وقتادة في قوله تعالى (وضربت عليهم الذلة) قال يعطون الجزية عن يدوهم صاغرون وقال الضحاك وضربت عليهم الذلة قال الذل . وقال الحسن أذلهم الله فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدى المسكنة الفاقة . وقال عطية العوفى الخراج وقال الضحاك الجزية . وقوله تعالى (وباؤا بغضب من الله) قال الضحاك استحقوا الغضب من الله ، وقال الربيع بن أنس فحدث عليهم غضب من الله وقال سعيد بن جبير (وباؤا بغضب من الله) يقول استوجبوا سخطا ، وقال ابن جرير : يعنى بقوله (وباؤا بغضب من الله) انصرفوا ورجعوا ولايقال باء إلا موصولا إما بخير وإما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يبوءبه بوءاً وبواء ومنه قوله تعالى (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) يعنى تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دونى . فمعنى الكلام إذا رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط * وقوله تعالى (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق) يقول تعالى هذا الذى جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا ، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق ، ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال « الكبر بطر الحق وغمط الناس » وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا إسماعيل عن ابن عون عن عمرو بن سعيد عن حميد ابن عبد الرحمن قال قال ابن مسعود كنت لا أحجب عن النجوى ولا عن كذا ولا عن كذا فاتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوي فأدركته من آخر حديثه وهو يقول يارسول الله قد قسم لى من الجمال ماترى فما أحب أن أحداً من الناس فضلنى بشراكين فما فوقهما أليس ذلك هو البغى ؟ فقال « لاليس ذلك من البغى ولكن البغى من بطر أوقال سفه الحق وغمط الناس » يعنى رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتلهم أنبياءه أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد وكساهم ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقا ، قال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر عن عبد الله بن مسعود قال كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبى وائل عن عبد الله يعنى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال « أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً وإمام ضلالة وممثل من الممثلين » وقوله تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وهـذه علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهى والاعتداء المجاوزة فى حد المأذون فيه والمأمور به والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

لما بين تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى فى فعل مالا إذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فان له جزاء الحسنى وكذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولاهم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار فى قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمر بن أبى عمر العدوى حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: قال سلمان رضى الله عنه سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر) إلى آخر الآية وقال السدى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) الآية نزلت فى أصحاب سلمان الفارسى بينا هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم فقال كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبياً فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبى الله ﷺ « ياسلمان هم من أهل النار » فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية فكان إيمان اليهود[1] أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا وإيمان النصارى أن من تمسك بالانجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والأنجيل كان هالكا . قال ابن أبى حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو هـذا (قلت) وهذا لا ينافى ماروى على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر) الآية[2] — قال — فأنزل الله بعد ذلك (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) فان هـذا الذى قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا إلا ما كان موافقا لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هـدى وسبيل ونجاة فاليهود أتباع موسى عليـه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة فى زمانهـم * واليهود من الهوادة وهى المودة أو التهود وهى التوبة كقول موسى عليـه السلام (إنا هـدنا اليك) أى تبنا فكأنهم سموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم فى بعضهم لبعض وقيل لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب ، وقال أبو عمرو بن العلاء لأنهم يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة فلمـا بعث عيسى ﷺ وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له فاصحابه وأهـل دينه هم النصارى وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم وقد يقال لهم أنصار أيضا كما قال عيسى عليـه السلام (من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله) وقيل إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال لها ناصرة ، قاله قتادة وابن جريج وروى عن ابن عباس أيضا والله أعـلم . والنصارى جمع نصران كنشاوى جمع نشوان وسكارى جمع سكران ويقال للمرأة نصرانة قال الشاعر : — نصرانة لم تحنف —

فلما بعث الله محمـداً صلى الله عليـه وسلم خاتما للنبيين ورسولا إلى بنى آدم على الاطلاق وجب عليهم تصديقه فيما

(١ — ٢) قوله أنه من تمسك إلى آخره ، وقوله بعد ذلك فأنزل الله إلى آخره كذا بالأصل لعله سقط من الناسخ حرر اه .

أخبر وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر وهؤلاء هم المؤمنون حقاً وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية ، وأما الصابئون فقد اختلف فيهم فقال سفيان الثورى عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد، قال الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين وكذا رواه ابن أبي نجيح عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدى وأبو الشعثاء جابر بن زيد والضحاك وإسحق بن راهويه الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور ولهذا قال أبو حنيفة وإسحق لابأس بذبائحهم ومناكحتهم وقال هشيم عن مطرف كنا عند الحكم بن عتبة فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين إنهم كالمجوس فقال الحكم ألم أخبركم بذلك، وقال عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن عبد الكريم سمعت الحسن ذكر الصابئين فقال هم قوم يعبدون الملائكة وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحسن قال أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس قال فأراد أن يضع عنهم الجزية قال فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة ، وقال أبو جعفر الرازى بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرءون الزبور ويصلون للقبلة وكذا قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن أبي الزناد عن ابيه قال الصابئون قوم مما يلي العراق وهم بكوثى وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات ، وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال الذى يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا ، وقال عبد الله بن وهب قال عبد الرحمن بن زيد الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى إلا قول لا إله إلا الله قال ولم يؤمنوا برسول فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبى ﷺ وأصحابه هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم يعنى فى قول لا إله إلا الله وقال الخليل هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، قال القرطبي والذى تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة ولهذا أفتى أبو سعيد الاصطخرى بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم واختار الرازى أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها قال وهذا القول هو المنسوب إلى الكشرانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام رادا عليهم ومبطلا لقولهم وأظهر الأقوال والله أعلم. قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه . ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ أى أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذذاك . وقال بعض العلماء الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبى والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

يقول تعالى مذكرا بنى إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالايمان به وحده لا شريك له واتباع رسله وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رءوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ويأخذوه بقوة وجزم وامتثال كما قال تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون) فالطور هو الجبل كما فسره به فى الأعراف ونص على ذلك ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع ابن أنس وغير واحد وهذا ظاهر وفى رواية عن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال ومالم ينبت فليس بطور وفى حديث

الفتون عن ابن عباس أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا : وقال السدى فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا اليه وقد غشيهم فسقطوا سجدا فسجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر فرحمهم الله فكشفه عنهم فقالوا والله ماسجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم فهم يسجدون كذلك . وذلك قول الله تعالى (ورفعنا فوقكم الطور) وقال الحسن فى قوله (خذوا ما آتيناكم بقوة) يعنى التوراة ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس بقوة أى بطاعة وقال مجاهد : بقوة بعمل بما فيه ، وقال قتادة (خذوا ما آتيناكم بقوة) القوة: الجد وإلا قذفته عليكم قال فأقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة ومعنى قوله وإلا قذفته عليكم أى أسقطته عليكم ، يعنى الجبل وقال أبو العالية والربيع (واذكروا مافيه) يقول اقرءوا مافى التوراة واعملوا به * وقوله تعالى (ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله) يقول تعالى ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) أى بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم (لكنتم من الخاسرين) بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ * فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى (ولقد علمتم) يامعشر اليهود ماأحل من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعا لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت فلما جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل فلم تخلص منها يومها ذلك فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة وهى أشبه شىء بالأناسى فى الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم ، وهذه القصة مبسوطة فى سورة الأعراف حيث يقول تعالى (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) القصة بكمالها . وقال السدى : أهل هذه القرية هم أهل أيلة ، وكذا قال قتادة وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسوطة إن شاء الله وبه الثقة ، وقوله تعالى (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) ورواه ابن جرير عن المثنى عن أبى حذيفة وعن محمد بن عمرو الباهلى وعن أبى عاصم عن عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد به وهذا سند جيد عن مجاهد وقول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره قال الله تعالى (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) الآية وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فجعل الله منهم القردة والخنازير ، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن الشيخة صاروا خنازير : وقال شيبان النحوى عن قتادة (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فصار القوم قردة تعاوى لها أذناب بعدما كانوا رجالا ونساء وقال عطاء الخراسانى نودوا ياأهل القرية (كونوا قردة خاسئين) فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون يافلان ألم ننهكم فيقولون برءوسهم أى بلى ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن حدثنا عبدالله بن محمد ابن ربيعة بالمصيصة حدثنا محمد بن مسلم يعنى الطائفى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال إنما كان الذين اعتدوا فى السبت فجعلوا قردة فواقا ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل . وقال الضحاك عن ابن عباس فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول إذ لايحيون فى الأرض إلا ثلاثة أيام قال ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل ، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق فى الستة الأيام التى ذكرها الله فى كتابه فمسخ هؤلاء القوم فى صورة القردة

وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء . ويحوله كما يشاء وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله (كونوا قردة خاسئين) قال يعني أذلة صاغرين ، وروى عن مجاهد وقتادة والربيع وأبي مالك نحوه وقال محمد بن اسحق عن داود بن أبي الحصين عن عكرمة قال : قال ابن عباس إن الله إنما افترض على بني اسرائيل اليوم الذى افترض عليكم في عيدكم . يوم الجمعة فخالفوا إلى السبت فعظموه وتركوا ما أمروا به فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره وكانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها مدين ؛ فحرم الله عليهم في السبت الحيتان صيدها وأكلها وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعا إلى ساحل بحرهم حتى إذا ذهب السبت ذهبن فلم يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا حتى إذا كان يوم السبت أتين سرا حتى إذا ذهب السبت ذهبن فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان عمد رجل منهم فأخذ حوتا سرا يوم السبت فخزمه بخيط ثم أرسله في الماء وأوتد له وتدا في الساحل فأوثقه ثم تركه حتى إذا كان الغد جاء فأخذه أي إني لم آخذه في يوم السبت فانطلق به فأكله حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك ووجد الناس ريح الحيتان فقال أهل القرية والله لقد وجدنا ريح الحيتان ، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل ، قال ففعلوا كما فعل وصنعوا سرا زمانا طويلا لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق . فقالت طائفة منهم من أهل البقية ويحكم اتقوا الله ونهوهم عما كانوا يصنعون ، فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ؟ قالوا معذرة إلى ربكم بسخطنا أعمالهم ولعلهم يتقون ، قال ابن عباس : فبيناهم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم فقدوا الناس فلم يروهم قال: فقال بعضهم لبعض إن للناس شأنا فانظروا ماهو فذهبوا ينظرون في دورهم فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوها ليلا فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد والمرأة بعينها وإنها لقردة والصبي بعينه وإنه لقرد ، قال : قال ابن عباس فلولا ما ذكر الله أنه نجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الله الجميع منهم ، قال وهي القرية التي قال جل ثناؤه لمحمد ﷺ (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الآية . وروى الضحاك عن ابن عباس نحوا من هذا وقال السدى في قوله تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال هم أهل أيلة ؛ وهي القرية التي كانت حاضرة البحر فكانت الحيتان اذا كان يوم السبت . وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئا . لم يبق في البحر حوت إلا خرج حتى يخرجن خراطيمهن من الماء فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت فذلك قوله تعالى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) فاشتهى بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهرا إلى البحر ، فاذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيمكث فيها فاذا كان يوم الأحد جاء فأخذه فجعل الرجل يشوى السمك فيجد جاره روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ماصنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك ، فقال لهم علماؤهم . ويحكم انما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم ، فقالوا إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه ، فقال الفقهاء لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل ، قال وغلبوا أن ينتهوا . فقال بعض الذين نهوهم لبعض (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) يقول لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم ، فقال بعضهم (معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) فلما أبوا قال المسلمون والله لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بجدار ففتح المسلمون بابا والمعتدون في السبت بابا ولعنهم داود عليه السلام ، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم ، والكفار من بابهم فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم فلما أبطأوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط فإذاهم قردة يثب بعضهم على بعض ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض فذلك قول الله تعالى(فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وذلك حين يقول (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم) الآية فهم القردة (قلت) والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ماذهب اليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان معنويا لا صوريا بل الصحيح

أنه معنوى صورى والله تعالى أعلم . وقوله تعالى (فجعلناها نكالا) قال بعضهم الضمير فى فجعلناها عائد على القردة وقيل على الحيتان وقيل على العقوبة وقيل على القرية حكاها ابن جرير والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أى فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم فى سبتهم (نكالا) أى عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) وقوله تعالى (لما بين يديها وما خلفها) أى من القرى ، قال ابن عباس . يعنى جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) ومنه قوله تعالى (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) الآية على أحد الأقوال فالمراد لما بين يديها وما خلفها فى المكان كما قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس . لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى ، وكذا قال سعيد بن جبير لما بين يديها وما خلفها ، قال من بحضرتها من الناس يومئذ . وروى عن إسماعيل بن أبى خالد وقتادة وعطية العوفى (فجعلناها نكالا لما بين يديها) قال ما قبلها من الماضين فى شأن السبت ، وقال أبو العالية والربيع وعطية : وما خلفها لما بقى بعدهم من الناس من بنى إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم ، وكان هؤلاء يقولون المراد لما بين يديها وما خلفها فى الزمان . وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتى بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم ، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم ؟ وهذا لعل أحدا من الناس لا يقوله بعد تصوره — فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها فى المكان وهو ما حولها من القرى كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والله أعلم . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها) أى عقوبة لما خلا من ذنوبهم ، وقال ابن أبى حاتم : وروى عن عكرمة ومجاهد والسدى والفراء وابن عطية . لما بين يديها من ذنوب القوم وما خلفها لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب ، وحكى الرازى ثلاثة أقوال أحدها أن المراد بما بين يديها وما خلفها من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها . والثانى المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم . والثالث أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده وهو قول الحسن (قلت) وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وماحل بها كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) الآية وقال تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) الآية وقال تعالى (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) فجعلهم عبرة ونكالا لمن فى زمانهم وموعظة لمن يأتى بعدهم بالخبر المتواتر عنهم ولهذا قال (وموعظة للمتقين) : وقوله تعالى (وموعظة للمتقين) قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس (وموعظة للمتقين) الذين من بعدهم إلى يوم القيامة وقال الحسن وقتادة (وموعظة للمتقين) بعدهم فيتقون نقمة الله ويحذرونها وقال السدى وعطية العوفى (وموعظة للمتقين) قال أمة محمد ﷺ (قلت) المراد بالموعظة ههنا الزاجر أى جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم حدثنا الحسن ابن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح والله أعلم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

يقول تعالى واذكروا يابنى إسرائيل نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم

﴿ ذكر بسط القصة ﴾

قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمدبن الصباح حدثنا يزيد بن هارون أنبأناهشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلمانى ، قال . كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض . فقال ذوو الرأى منهم والنهى : علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) قال فلولم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك ؟ فقال : هذا — لا بن أخيه ، ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد ورواه ابن جرير من حديث أيوب عن محمد بن سيرين عن عبيدة بنحو من ذلك والله أعلم . ورواه عبد بن حميد فى تفسيره أنبأنا يزيد ابن هارون به ورواه آدم بن أبى إياس فى تفسيره عن أبى جعفر هو الرازى عن هشام بن حسان به ، وقال آدم ابن أبى إياس فى تفسيره : أنبأنا أبو جعفر الرازى عن الربيع عن ابى العالية فى قول الله تعالى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال كان رجل من بنى إسرائيل وكان غنيا ولم يكن له ولد وكان له قريب وكان وارثه فقتله ليرثه ثم ألقاه على مجمع الطريق وأتى موسى عليه السلام فقال له إن قريبى قتل وأتى إلى أمر عظيم وإنى لا أجد أحداً يبين لى من قتله غيرك يانبى الله قال فنادى موسى فى الناس فقال :أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا يبينه لنا ، فلم يكن عندهم علم فأقبل القاتل على موسى عليه السلام ، فقال له أنت نبى الله فسل لنا ربك أن يبين لنا ، فسأل ربه فأوحى الله (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فعجبوا من ذلك فقالوا (أتتخذنا هزوا ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض) يعنى لا هرمة (ولا بكر) يعنى ولا صغيرة (عوان بين ذلك) أى نصف بين البكر والهرمة (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) أى صاف لونها (تسر الناظرين) أى تعجب الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول) أى لم يذللها العمل (تثير الأرض ولا تسقى الحرث) يعنى وليست بذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث يعنى ولا تعمل فى الحرث (مسلمة) يعنى مسلمة من العيوب (لاشية فيها) يقول لا بياض فيها (قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) قال ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ولولا أن القوم استثنوا فقالوا وإنا إن شاء الله لمتهدون لما هدوا إليها أبدا فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز وعندها يتامى وهى القيمة عليهم فلما علمت أنه لا يزكوا لهم غيرها أضعفت عليهم الثمن فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة وأنها سألت أضعاف ثمنها ، فقال موسى إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها ففعلوا واشتروها فذبحوها فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع إليه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتاً كما كان فأخذ قاتله وهو الذى كان أتى موسى عليه السلام فشكا إليه فقتله الله على أسوإ عمله ، وقال محمد بن جرير حدثنى محمد بن سعيد حدثنى أبى حدثنى عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس فى قوله فى شان البقرة وذلك أن شيخاً من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثراً من المال وكان بنو أخيه فقراء لامال لهم وكان الشيخ لاولد له وكان بنو أخيه ورثته فقالوا ليت عمنا قد مات وورثنا ماله وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم أتاهم الشيطان فقال لهم هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله وتغرموا أهل المدينة التى لستم بها ديته وذلك أنهما كانتا مدينتين كانوا فى إحداها

وكان القتيل إذاقتل وطرح بين المدينتين قيس مابين القتيل والقريتين فأيتهما كانت أقرب إليه غرمت الدية وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك وتطاول عليهم أن لايموت عمهم عمدوا إليه فقتلوه ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخي الشيخ فقالوا عمنا قتل على باب مدينتكم فوالله لتغرمن لنادية عمنا قال أهل المدينة نقسم بالله ماقتلنا ولاعلمنا قاتلا ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا ، وإنهم عمدوا إلى موسى عليه السلام فلما أتوه قال بنو أخي الشيخ عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم وقال أهل المدينة نقسم بالله ماقتلناه ولافتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا وإن جبرائيل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى عليه السلام فقال قل لهم (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فتضربوه ببعضها وقال السدى (واذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال كان رجل من بني إسرائيل مكثرا من المال فكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه فغضب الفتى وقال والله لأقتلن عمي ولآخذن ماله ، ولأنكحن ابنته ولآكلن ديته فأتاه الفتى وقدقدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل فقال ياعم انطلق معي فخذلي من تجارة هؤلاء القوم لعلي أن أصيب منها فانهم اذا رأوك معي أعطوني فخرج العم مع الفتى ليلا فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه كأنه لا يدري أين هو فلم يجده فانطلق نحوه فاذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فأخذهم وقال قتلتم عمي فأدوا إلى ديته فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه وينادي واعماه فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدية فقالوا له يارسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية فوالله إن ديته علينا لهينة ولكن نستحي أن نعير به فذلك حين يقول تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون) فقال لهم موسى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قالوا نسألك عن القتيل وعمن قتله وتقول اذبحوا بقرة أتهزأ بنا (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) قال ابن عباس فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم فقالوا (ادع لنا ربك يبين لنا ماهي قال انه يقول انها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك) والفارض الهرمة التي لاتولد والبكر التي لم تلد الا ولدا واحدا والعوان النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها (فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) قال نقي لونها (تسر الناظرين) قال تعجب الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولاتسقي الحرث مسلمة لاشية فيها) من بياض ولاسواد ولاحمرة (قالوا الآن جئت بالحق) فطلبوها فلم يقدروا عليها وكان رجل في بني إسرائيل من أبر الناس بأبيه وإن رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه وكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح فقال له الرجل تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا ؟ فقال له الفتى كما أنت حتى يستيقظ أبي فآخذه منك بثمانين ألفا ، قال الآخر أيقظ أباك وهولك بستين ألفا فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفا وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف فلما أكثر عليه قال والله لا أشتريه منك بشيء أبدا وأبى أن يوقظ أباه فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة فأبى فأعطوه ثنتين فأبى فزادوه حتى بلغوا عشرا فقالوا والله لانتركك حتى نأخذها منك فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام فقالوا يانبي الله إنا وجدناها عند هذا وأبى أن يعطيناها وقد أعطيناه ثمنا فقال له موسى أعطهم بقرتك فقال يارسول الله أنا أحق بمالي فقال صدقت وقال للقوم أرضوا صاحبكم فأعطوه وزنها ذهبا فأبى فأضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً فباعهم اياها وأخذ ثمنها فذبحوها ، قال اضربوه ببعضها فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش فسألوه من قتلك فقال لهم ابن أخي قال : أقتله فآخذ ماله وأنكح ابنته . فاخذوا الغلام فقتلوه ، وقال سنيد حدثنا حجاج هو ابن محمد عن ابن جريج عن مجاهد وحجاج عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس — دخل حديث بعضهم في حديث بعض — ، قالوا إن سبطا من بني إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحدا منهم خارجا الا أدخلوه وإذا أصبحوا

قام رئيسهم فنظر وأشرف فاذا لم ير شيئا فتح المدينة فكانوا مع الناس حتى يمسوا قال وكان رجل من بنى إسرائيل له مال كثير ولم يكن له وارث غير أخيه فطال عليه حياته فقتله ليرثه ثم حمله فوضعه على باب المدينة ثم كمن فى مكان هو وأصحابه قال فأشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر فلم ير شيئا ففتح الباب فلما رأى القتيل ردالباب فناداه أخو المقتول وأصحابه هيهات قتلتموه ثم تردون الباب ، وكان موسى لما رأى القتل كثيرا فى بنى إسرائيل كان إذا رأى القتيل بين ظهرانى القوم أخذهم فكاد يكون بين أخى المقتول وبين أهل المدينة قتال حتى لبس الفريقان السلاح ثم كف بعضهم عن بعض فأتوا موسى فذكروا له شأنهم ، قالوا ياموسى إن هؤلاء قتلوا قتيلا ثم ردوا الباب قال أهل المدينة يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور وبنينا مدينة كما رأيت نعتزل شرور الناس والله ماقتلنا ولا علمنا قاتلا فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسدى وغيرهم فيها اختلاف ما والظاهر أنها ماخوذة من كتب بنى إسرائيل وهى مما يجوز نقلها ولكن لاتصدق ولا تكذب فلهذا لايعتمد عليها إلا ماوافق الحق عندنا والله أعلم .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا (ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أى ماهذه البقرة وأى شىء صفتها قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا هشام بن على عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ولكنهم شددوا فشدد عليهم ــ اسناد صحيح ــ وقد رواه غير واحد عن ابن عباس وكذا قال عبيدة والسدى ومجاهد وعكرمة وأبو العالية وغير واحد . وقال ابن جريج قال لى عطاء لوأخذوا أدنى بقرة لكفتهم قال ابن جريج قال رسول الله ﷺ « إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم وايم الله لوأنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد » قال (إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر) أى لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل كما قاله أبو العالية والسدى ومجاهد وعكرمة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى ووهب بن منبه والضحاك والحسن وقتادة وقاله ابن عباس أيضا وقال الضحاك عن ابن عباس عوان بين ذلك يقول نصف بين الكبيرة والصغيرة وهى أقوى مايكون من الدواب والبقر واحسن ماتكون وروى عن عكرمة ومجاهد وأبى العالية والربيع بن انس وعطاء الخراسانى والضحاك نحو ذلك ، وقال السدى العوان النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها : وقال هشيم عن جويبر عن كثير ابن زياد عن الحسن فى البقرة كانت بقرة وحشية : وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس من لبس نعلا صفراء لم يزل فى سرور مادام لابسها وذلك قوله تعالى (تسر الناظرين) وكذا قال مجاهد ووهب بن منبه كانت صفراء وعن ابن عمر كانت صفراء الظلف وعن سعيد بن جبير كانت صفراء القرن والظلف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا نصر بن على حدثنا نوح بن قيس أنبانا أبو رجاء عن الحسن فى قوله تعالى (بقرة صفراء فاقع لونها) قال سوداء شديدة السواد وهذا غريب والصحيح الأول ولهذا أكد صفرتها بأنه (فاقع لونها) وقال عطية العوفى (فاقع لونها) تكاد تسود من صفرتها وقال سعيد بن جبير (فاقع لونها) قال صافية اللون . وروى عن أبى العالية والربيع بن انس والسدى والحسن وقتادة نحوه:

وقال شريك عن معمر عن ابن عمر (فاقع لونها) قال صاف ، وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس (فاقع لونها) شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقال السدى (تسر الناظرين) أى تعجب الناظرين وكذا قال أبو العالية وقتادة والربيع ابن أنس . وقال وهب بن منبه إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها . وفى التوراة أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ فى التعريب ، أو كما قال الأول إنها كانت شديدة الصفرة تضرب الى حمرة وسواد والله أعلم . وقوله تعالى (إن البقر تشابه علينا) أى لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا (وإنا إن شاء الله) إذا بينتها لنا (لمهتدون) إليها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن يحيى الأودى الصوفى حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد حدثنا سرور بن المغيرة الواسطى ابن أخى منصور بن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن بنى إسرائيل قالوا (وإنا إن شاء الله لمهتدون) لما أعطوا ولكن استثنوا » ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من وجه آخر عن سرور بن المغيرة عن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن حديث أبى رافع عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن بنى إسرائيل قالوا (وإنا إن شاء الله لمهتدون) ما أعطوا أبدا ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم » وهذا حديث غريب من هذا الوجه وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة كما تقدم مثله عن السدى والله أعلم (قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث) أى إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقى فى السانية بل هى مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها (لاشية فيها) أى ليس فيها لون غير لونها وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مسلمة يقول لاعيب فيها وكذا قال أبو العالية والربيع وقال مجاهد مسلمة من الشية ، وقال عطاء الخراسانى مسلمة القوائم والخلق لاشية فيها ، قال مجاهد لابياض ولاسواد وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ليس فيها بياض وقال عطاء الخرسانى لاشية فيها قال لونها واحد بهيم ، وروى عن عطية العوفى ووهب بن منبه وإسماعيل بن أبى خالد نحو ذلك ، وقال السدى لاشية فيها من بياض ولا سواد ولا حمرة وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى ، وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى (إنها بقرة لاذلول) ليست بمذللة بالعمل ثم استأنف فقال (تثير الأرض) أى يعمل عليها بالحراثة لكنها لا تسقى الحرث وهذا ضعيف لأنه فسر الذلول التى لم تذلل بالعمل بأنها لاتثير الأرض ولاتسقى الحرث ، كذا قرره القرطبى وغيره (قالوا الآن جئت بالحق) قال قتادة الآن بينت لنا وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وقيل ذلك والله جاءهم الحق (فذبحوها وما كادوا يفعلون) قال الضحاك عن ابن عباس كادوا أن لايفعلوا ولم يكن ذلك الذى أرادوا لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها ، يعنى أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والايضاح ماذبحوها إلا بعد الجهد ، وفى هذا ذم لهم وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت فلهذا ما كادوا يذبحونها * وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس فذبحوها وما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها وفى هذا نظر لأن كثرة الثمن لم يثبت إلا من نقل بنى إسرائيل كما تقدم من حكاية أبى العالية والسدى ، ورواه العوفى عن ابن عباس ، وقال عبيدة ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم اشتروها بمال كثير وفيه اختلاف ثم قد قيل فى ثمنها غير ذلك وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة أخبرنى محمد بن سوقة عن عكرمة قال : ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير وهذا إسناد جيد عن عكرمة والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضا وقال ابن جرير وقال آخرون لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن اطلع الله على قاتل القتيل الذى اختصموا فيه ولم يسنده عن أحد ثم اختار أن الصواب فى ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة وفى هذا نظر بل الصواب والله أعلم ماتقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ماوجهناه وبالله التوفيق

(مسئلة) استدل بهذه الآية فى حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الاطلاق على صحة السلم فى الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعى والليث والشافعى وأحمد وجمهور العلماء سلفا وخلفا بدليل ماثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها » وكما وصف النبى صلى الله عليه وسلم إبل الدية فى قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث وقال أبو حنيفة والثورى والكوفيون لا يصح السلم فى

الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قال البخاري (فادّارأتم فيها) اختلفتم وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي حذيفة عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) اختلفتم ، وقال عطاء الخراساني والضحاك اختصمتم فيها ، وقال ابن جريج (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) قال قال بعضهم أنتم قتلتموه ، وقال آخرون بل أنتم قتلتموه وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم (والله مخرج ما كنتم تكتمون) قال مجاهد ماتغيبون ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرة بن أسلم البصري حدثنا محمد بن الطفيل العبدي حدثنا صدقة بن رستم سمعت المسيب ابن رافع يقول ماعمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله وماعمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله وتصديق ذلك في كلام الله (والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها) هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن وقد كان معينا في نفس الأمر فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا ولكنه أبهمه ولم يجيء من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه الله ولهذا قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبدالواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقر له وكانت بقرة تعجبه قال فجعلوا يعطونه بها فيأبى حتى أعطوه ملء مسكها دنانير فذبحوها فضربوه — يعني القتيل — بعضو منها فقام تشخب أوداجه دما فقالوا له من قتلك قال قتلني فلان ، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه ضرب ببعضها ، وفي رواية عن ابن عباس أنه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف . وقال عبدالرزاق أنبأنا معمر قال : قال أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة ضربوا القتيل ببعض لحمها قال معمر قال قتادة ضربوه بلحم فخذها فعاش فقال قتلني فلان وقال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا النضر ابن عربي عن عكرمة (فقلنا اضربوه ببعضها) فضرب بفخذها فقام فقال قتلني فلان ، قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وقتادة وعكرمة نحو ذلك . وقال السدي فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش فسألوه فقال قتلني ابن أخي وقال أبو العالية أمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما من عظامها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع اليه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان ؛ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فضربوه ببعض آرابها وقيل بلسانها وقيل بعجب ذنبها ، وقوله تعالى (كذلك يحيي الله الموتى) أي فضربوه فحيي ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد ، وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد ، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع (ثم بعثناكم من بعد موتكم) وهذه القصة وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة ، ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميما كما قال أبوداود الطيالسي : حدثنا شعبة أخبرني يعلى بن عطاء قال سمعت وكيع بن عدس يحدث عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه ، قال قلت يارسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال « أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضرا » ؟ قال بلى . قال « كذلك النشور » أوقال « كذلك يحيي الله الموتى » وشاهد هذا قوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) (مسئلة) استدل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح فلان قتلني

لوثا بهذه القصة لأن القتيل لما حي سئل عمن قتله فقال فلان قتلني فكان ذلك مقبولا منه لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق ولا يتهم والحالة هذه ورجحوا ذلك لحديث أنس أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها فرضخ رأسها بين حجرين فقيل من فعل بك هذا أفلان ؟ أفلان ؟ حتى ذكروا اليهودي فأومأت برأسها فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين ، وعند مالك إذا كان لوثا حلف أولياء القتيل قسامة وخالف الجمهور في ذلك ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثا .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعا لهم على ماشاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) كله فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط فقيل له من قتلك قال بنو أخي قتلوني ثم قبض فقال بنو أخيه حين قبضه الله والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك يعني أبناء أخي الشيخ فهي كالحجارة أو أشد قسوة فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ماشاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة مايتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريا ومنها مايهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه كما قال (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً) وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد انه كان يقول كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) أي وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق (وما الله بغافل عما تعملون) وقال أبو علي الجبائي في تفسيره (وإن منها لما يهبط من خشية الله) هو سقوط البرد من السحاب قال القاضي الباقلاني وهذا تأويل بعيد وتبعه في استبعاده الرازي وهو كما قال فان هذا خروج عن اللفظ بلا دليل والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا الحكم بن هشام الثقفي حدثني يحيي ابن أبي طالب يعني ويحيي بن يعقوب في قوله تعالى (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) قال كثرة البكاء (وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) قال قليل البكاء (وإن منها لما يهبط من خشية الله) قال بكاء القلب من غير دموع العين وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الارادة إلى الجدار في قوله (يريد أن ينقض) قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة ولا حاجة إلى هذا فان الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) وقال (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) الآية وقال (والنجم والشجر يسجدان * أولم يروا إلى ماخلق الله من شيء يتفيأ ظلاله) الآية (قالتا أتينا طائعين * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) الآية (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله) الآية وفي الصحيح « هذا جبل يحبنا ونحبه » وكحنين الجذع المتواتر خبره وفي صحيح مسلم « إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة وغير ذلك مما في معناه وحكى القرطبي قولا أنها للتخيير أي مثلا لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين . وكذا حكاه

الرازى فى تفسيره وزاد قولا آخر إنها للإبهام بالنسبة إلى المخاطب كقول القائل أكلت خبزا أو تمرا ، وهو يعلم أيهما أكل وقال آخر إنها بمعنى قول القائل كل حلوا أوحامضا ، أى لا يخرج عن واحد منهما أى وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين والله أعلم .

﴿ تنبيه ﴾ اختلف علماء العربية فى معنى قوله تعالى (فهى كالحجارة أو أشد قسوة) بعد الاجماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم أو ههنا بمعنى الواو تقديره : فهى كالحجارة وأشد قسوة : كقوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) (عذرا أو نذرا) وكما قال النابغة الذبيانى .

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا * إلى حمامتنا أو نصفه فقد

تريد ونصفه قاله ابن جرير : وقال جرير بن عطية

نال الخلافة أوكانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

قال ابن جرير يعنى نال الخلافة وكانت له قدرا وقال آخرون أو ههنا بمعنى بل فتقديره : فهى كالحجارة بل أشد قسوة وكقوله (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (فكان قاب قوسين أو أدنى) وقال آخرون معنى ذلك (فهى كالحجارة أو أشد قسوة) عندكم حكاه ابن جرير : وقال آخرون المراد بذلك الإبهام على المخاطب كما قال أبو الأسود

أحب محمداً حبا شديداً * وعباسا وحمزة والوصيا * فان يك حبهم رشدا أصبه * وليس بمخطىء إن كان غيا

وقال ابن جرير قالوا ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكا فى أن حب من سمى رشد ولكنه أبهم على من خاطبه قال وقد ذكر عن أبى الأسود انه لما قال هذه الأبيات قيل له شككت فقال كلا والله ثم انتزع بقول الله تعالى (وإنا وإياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين) فقال أوكان شاكا من أخبر بهذا من الهادى منهم ومن الضال ؟ وقال بعضهم معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين إما أن تكون مثل الحجارة فى القسوة وإما أن تكون أشد منها فى القسوة . قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره (قلت) وهذا القول الأخير يبقى شبيها بقوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) مع قوله (أو كصيب من السماء) وكقوله (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) مع قوله (أو كظلمات فى بحر لجى) الآية أى إن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا والله أعلم : وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن أيوب حدثنا محمد بن عبدالله بن أبى الثلج حدثنا على بن حفص حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب عن عبدالله ابن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فان كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى » رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه عن محمد بن عبدالله بن أبى الثلج صاحب الإمام أحمد به ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب به ، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم . وروى البزار عن أنس مرفوعا « أربع من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا »

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

يقول تعالى (أفتطمعون) أيها المؤمنون (أن يؤمنوا لكم) أى ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم

يحرفونه) أى يتأولونه على غير تأويله (من بعد ماعقلوه) أى فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة (وهم يعلمون) أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه) قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) وليس قوله يسمعون(١) التوراة كلهم قد سمعها ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها . وقال محمد بن إسحق فيما حدثنى بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى ياموسى قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلمك فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال نعم مرهم فليتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا ثم خرج بهم حتى أتوا الطور فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا فوقعوا سجودا وكلمه ربه فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ماسمعوا ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل فلما جاءوهم حرف فريق منهم ماأمرهم به وقالوا حين قال موسى لبنى إسرائيل إن الله قد أمركم بكذا وكذا قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله إنما قال كذا وكذا خلافا لما قال الله عز وجل لهم فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ ، وقال السدى (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) قال هى التوراة حرفوها وهذا الذى ذكره السدى أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحق وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق فانه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام وقد قال الله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) أى مبلغا إليه ولهذا قال قتادة فى قوله (ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) قال هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه ووعوه وقال مجاهد الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم وقال أبو العالية عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه وقال السدى (وهم يعلمون) أى أنهم أذنبوا وقال ابن وهب قال ابن زيد فى قوله (يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) قال التوراة التى أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراما والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقا ، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق ، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شىء أمروه بالحق فقال الله لهم (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)

وقوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض) الآية قال محمد بن إسحق حدثنا محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أى ان صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لاتحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم فأنزل الله (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) أى تقرون بأنه نبى وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه وهو يخبرهم أنه النبى الذى كنا ننتظر ونجد فى كتابنا ، اجحدوه ولاتقروا به . يقول الله تعالى (أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون) وقال الضحاك عن ابن عباس : يعنى المنافقين من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا آمنا ،وقال السدى .هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا . وكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وغير واحد من السلف والخلف حتى قال عبدالرحمن بن زيد بن اسلم فيما رواه ابن وهب عنه كان رسول الله ﷺ قد قال « لايدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن » فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق اذهبوا فقولوا آمنا وا كفروا إذا رجعتم إلينا فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون إليهم بعد العصر . وقرأ قول الله تعالى (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وا كفروا آخره لعلهم يرجعون) وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره . فاذا رجعوا رجعوا إلى الكفر فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون . وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون اليس قد قال الله لكم كذا وكذا . فيقولون بلى . فاذا رجعوا إلى

(١) فى ابن جرير الطبرى عن ابن إسحق قال ليس قوله يسمعون كلام الله يسمعون التوراة كلهم قد سمعها الخ .

قومهم يعني الرؤساء فقالوا (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) الآية . وقال أبو العالية (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) قال كانوا يقولون سيكون نبي فخلا بعضهم ببعض فقالوا (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) . قول آخر في المراد بالفتح قال ابن جريج : حدثني القاسم بن أبي برزة عن مجاهد في قوله تعالى (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) قال قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم ، فقال يا إخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت فقالوا من أخبر بهذا الأمر محمداً ؟ ما خرج هذا القول إلا منكم (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم قال ابن جريج عن مجاهد هذا حين أرسل إليهم عليا فآذوا محمدا ﷺ ، وقال السدي (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) من العذاب (ليحاجوكم به عند ربكم) هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به . فقال بعضهم لبعض (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) من العذاب ليقولوا نحن أحب إلى الله منكم وأكرم على الله منكم وقال عطاء الخراساني (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) يعني بما قضى لكم وعليكم . وقال الحسن البصري : هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم . وقوله تعالى (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) قال أبو العالية : يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوبا عندهم وكذا قال قتادة ، وقال الحسن (إن الله يعلم ما يسرون) قال كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم (وما يعلنون) يعني حين قالوا لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم آمنا . وكذا قال أبو العالية والربيع وقتادة.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى (ومنهم أميون) أي ومن أهل الكتاب قاله مجاهد ، والأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة قاله أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعي وغير واحد وهو ظاهر في قوله تعالى (لا يعلمون الكتاب) أي لا يدرون ما فيه . ولهذا في صفات النبي ﷺ : أنه الأمي لأنه لم يكن يحسن الكتابة كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) وقال عليه الصلاة والسلام « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا » الحديث أي لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب ، وقال تبارك وتعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) وقال ابن جرير : نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه . قال وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قول خلاف هذا وهو ما حدثنا به أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد عن بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (ومنهم أميون) قال الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله الله فكتبوا كتابا بأيديهم ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله ، وقال قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله ، ثم قال ابن جرير : وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم ، وذلك أن الأمي عند العرب الذي لا يكتب . قلت ثم في صحة هذا عن ابن عباس بهذا الاسناد نظر والله أعلم . وقوله تعالى (إلا أماني) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس إلا أماني الأحاديث وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (إلا أماني) يقول إلا قولا يقولون بأفواههم كذبا . وقال مجاهد إلا كذبا : وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد (ومنهم أميون

لايعلمون الـكتاب إلا أمانى) قال أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الـكتاب شيئا وكانوا يتـكلمون بالظن بغير مافى كتاب الله ويقولون هو من الـكتاب ، أمانى يتمنونها وعن الحسن البصرى نحوه ، وقال أبو العالية والربيع وقتادة إلا أمانى يتمنون على الله ماليس لهم ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم إلا أمانى قال تمنوا فقالوا نحن من أهل الـكتاب وليسوا منهم ، قال ابن جرير والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس وقال مجاهد إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لايفقهون من الـكتاب الذى أنزله الله تعالى على موسى شيئا ولـكنهم يتخرصون الـكذب ويتخرصون الأباطيل كذبا وزورا ، والتمنى فى هـذا الموضع هو تخلق الـكذب وتخرصه ، ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ماتغنيت ولا تمنيت يعنى ماتخرصت الباطل ولا اختلقت الـكذب : وقيل المراد بقوله إلا أمانى بالتشديد والتخفيف أيضا أى الا تلاوة فعلى هذا يكون استثناء منقطعا واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى (إلا إذا تمنى ـ أى تلا ـ ألقى الشيطان فى أمنيته) الآية ، وقال كعب بن مالك الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليله ❊ وآخره لاقى حمام القادر

وقال آخر
تمنى كتاب الله آخر ليله ❊ تمنى داود الـكتاب على رسل

وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (لايعلمون الـكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) أى ولايدرون مافيه وهم يجحدون نبوتك بالظن وقال مجاهد (وان هم إلا يظنون) يكذبون وقال قتادة وأبو العالية والربيع : يظنون بالله الظنون بغير الحق . وقوله تعالى (فويل للذين يكتبون الـكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) الآية هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والـكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل . والويل الهلاك والدمار وهى كلمة مشهورة فى اللغة : وقال سفيان الثورى عن زياد بن فياض سمعت أباعياض يقول ويل صديد فى أصل جهنم وقال عطاء بن يسار . الويل واد فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت . وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ويل واد فى جهنم يهوى فيه الـكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره » ورواه الترمذى عن عبد الرحمن بن حميد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج به وقال هذا حديث غريب لانعرفه الا من حديث ابن لهيعة (قلت) لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى ولـكن الآفة ممن بعده وهذا الحديث بهذا الاسناد مرفوعا منـكر والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا ابراهيم بن عبدالسلام حدثنا صالح القشيرى حدثنا على بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) قال « الويل جبل فى النار » وهوُ الذى أنزل فى اليهود لأنهم حرفوا التوراة زادوا فيها ما أحبوا ومحوا منها ما يكرهون ومحوا اسم محمـــد ﷺ من التوراة ولذلك غضب الله عليهم فرفع بعض التوراة فقال تعالى (فويل لهم ممـا كتبت أيديهم وويل لهم ممـا يكسبون) وهـذا غريب أيضا جدا ، وعن ابن عباس الويل المشقة من العذاب وقال الخليل بن أحمد الويل شـدة الشر وقال سيبويه ويل لمن وقع فى الهلـكة وويح لمن أشرف عليها وقال الأصمعى الويل تفجع والويح ترحم وقال غيره الويل الحزن ، وقال الخليل وفى معنى ويل ويح وويش وويه وويك وويب ومنهم من فرق بينها ، وقال بعض النحاة انما جاز الابتداء بها وهى نـكرة لأن فيها معنى الدعاء ومنهم من جوز نصبها بمعنى ألزمهم ويلا (قلت) لـكن لم يقرأ بذلك أحـد ، وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما (فويل للذين يكتبون الـكتاب بأيديهم) قال هم أحبار اليهود وكذا قال سعيد عن قتادة هم اليهود وقال سفيان الثورى عن عبد الرحمن بن علقمة سألت ابن عباس رضى الله عنه عن قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الـكتاب بأيديهـم) قال نزلت فى المشركين وأهل الـكتاب وقال السدى كان ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله فيأخذوا به ثمنا قليلا وقال الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس أنه قال : يامعشر المسلمين كيف تسألون أهل الـكتاب عن شىء وكتاب الله الذى أنزله على نبيه أحدث أخبار

الله تقرءونه غضا لم يشب وقدحدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، أفلا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحدا قط سألكم عن الذى أنزل عليكم رواه البخارى من طرق عن الزهرى ، وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى : الثمن القليل الدنيا بحذافيرها . وقوله تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) أى فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء وويل لهم مما أكلوا به من السحت كما قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما (فويل لهم) يقول فالعذاب عليهم من الذى كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب وويل لهم مما يكسبون يقول مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم .

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً . قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ثم ينجون منها فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى (قل أتخذتم عند الله عهدا) أى بذلك فان كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ولكن هذا ماجرى ولا كان ولهذا أتى بأم التى بمعنى بل أى بل تقولون على الله مالا تعلمون من الكذب والافتراء عليه قال محمد ابن إسحق عن سيف بن سليمان عن مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب بكل ألف سنة يوما فى النار وانما هى سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) إلى قوله (خالدون) ثم رواه عن محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس بنحوه ، وقال العوفى عن ابن عباس (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) اليهود قالوا لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة زاد غيره وهى مدة عبادتهم العجل وحكاه القرطبى عن ابن عباس وقتادة ، وقال الضحاك قال ابن عباس زعمت اليهود أنهم وجدوا فى التوراة مكتوبا ان ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم التى هى ثابتة فى أصل الجحيم ، وقال أعداء الله إنما نعذب حتى ننتهى إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك . فذلك قوله تعالى (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) يعنى الأيام التى عبدنا فيها العجل وقال عكرمة خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا لن ندخل النار إلا أربعين ليلة وسيخلفنا فيها قوم آخرون يعنون محمدا ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم فقال رسول الله ﷺ بيده على رءوسهم « بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد » فأنزل الله عزوجل (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) الآية : وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله حدثنا عبدالرحمن بن جعفر حدثنا محمد بن محمد بن صخر حدثنا أبو عبدالرحمن المقرىء حدثنا ليث بن سعد حدثنى سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة قال لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم فقال رسول الله ﷺ « اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا » فقال لهم رسول الله ﷺ « من أبوكم ؟ » قالوا فلان قال « كذبتم بل أبوكم فلان » فقالوا صدقت وبررت ثم قال لهم « هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا نعم ياأبا القاسم وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أهل النار ؟ » فقالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله ﷺ «اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً» ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا نعم يا أبا القاسم قال « هل جعلتم فى هذه الشاة سما ؟» فقالوا نعم قال « فما حملكم على ذلك » فقالوا أردنا ان كنت كاذبا ان نستريح منك وان كنت نبيا لم يضرك ورواه الإمام أحمد والبخارى والنسائى من حديث الليث بن سعد بنحوه .

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

يقول تعالى ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس (بلى من كسب سيئة) أى عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فما له من حسنة ، وفى رواية عن ابن عباس قال الشرك ، قال ابن أبى حاتم وروى عن أبى وائل وأبى العالية ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه وقال الحسن أيضا والسدى السيئة الكبيرة من الكبائر وقال ابن جريج عن مجاهد (وأحاطت به خطيئته) قال بقلبه وقال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء والحسن (وأحاطت به خطيئته) قالوا أحاط به شركه وقال الأعمش عن أبى رزين عن الربيع بن خيثم (وأحاطت به خطيئته) قال الذى يموت على خطاياه من قبل أن يتوب وعن السدى وأبى رزين نحوه وقال أبو العالية ومجاهد والحسن فى رواية عنهما وقتادة والربيع بن أنس (وأحاطت به خطيئته) الموجبة الكبيرة وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا سليمان بن داود حدثنا عمرو بن قتادة عن عبد ربه عن أبى عياض عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وإن رسول ﷺ ضرب لهم مثلا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سوادا وأججوا نارا فأنضجوا ما قذفوا فيها. وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

يذكر تبارك وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدا وعمدا وهم يعرفونه ويذكرونه فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وبهذا أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) وقال تبارك وتعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) إلى أن قال (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قلت يا رسول الله أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أى ؟ « قال بر الوالدين » قلت ثم أى قال « الجهاد فى سبيل الله » ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رجلا قال يا رسول الله من أبر ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال « أباك ؟ ثم أدناك ثم أدناك » وقوله تعالى (لا تعبدون إلا الله) قال الزمخشرى خبر بمعنى الطلب وهو آكد وقيل كان أصله (أن لا تعبدوا إلا الله) كما قرأها من قرأها من السلف فحذفت أن فارتفع وحكى عن أبىّ وابن مسعود أنهما قرءاها (لا تعبدوا إلا الله) ونقل هذا التوجيه القرطبى فى تفسيره عن سيبويه . قال واختاره الكسائى

والفراء قال (واليتامى) وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحا في قوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) الآية وقوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) أي كلموهم طيبا ولينوا لهم جانبا ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصري في قوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسنا كما قال الله وهو كل خلق حسن رضيه الله

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا أبو عامر الخراز عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « لا تحقرن من المعروف شيئا وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق » وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي وصححه من حديث أبي عامر الخراز واسمه صالح بن رستم به وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنا بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي ، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها ولله الحمد والمنة . ومن النقول الغريبة ههنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبي حدثنا محمد بن خلف العسقلاني حدثنا عبد الله بن يوسف يعني التنيسي حدثنا خالد بن صبيح عن حميد بن عقبة عن أسد بن وداعة أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديا ولا نصرانيا إلا سلم عليه فقيل له : ما شأنك تسلم على اليهودي والنصراني ؟ فقال : إن الله تعالى يقول (وقولوا للناس حسنا) وهو السلام . قال وروى عن عطاء الخراساني نحوه (قلت) وقد ثبت في السنة أنهم لا يبدءون بالسلام والله أعلم

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى منكرا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة ، ولهذا قال تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) ولهذا قال تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم

ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لا يقتل بعضكم بعضا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه كما قال تعالى (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم) وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقوله تعالى (ثم أقررتم وأنتم تشهدون) أى ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) الآية ، قال محمد بن اسحق بن يسار حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) الآية قال . أنبأهم الله بذلك من فعلهم وقد حرم عليهم فى التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم فكانوا فريقين طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير ، وقريظة وهم حلفاء الأوس فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ولا كتابا ولا حلالا ولا حراما فاذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما فى التوراة وأخذا به بعضهم من بعض يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدى الأوس ويفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم ويطلبون ما أصابوا من دمائهم وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم بذلك (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) أى تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا ؟ ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغنى نزلت هذه القصة . وقال أسباط عن السدى . كانت قريظة حلفاء الأوس وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتتلون فى حرب بينهم فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءهم وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها ويغلبونهم فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها فاذا أسر رجل من الفريقين كلاهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك ويقولون : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم قالوا : فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحيى أن تستذل حلفاؤنا فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) الآية : وقال أسباط عن السدى عن الشعبى نزلت هذه الآية فى قيس بن الحطيم (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) الآية : وقال أسباط عن السدى عن عبد خير قال : غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلى بلنجر فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبدالله بن سلام يهودية بسبعمائة فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله : يارأس الجالوت هل لك فى عجوز ههنا من أهل دينك تشتريها منى قال نعم ، قال : أخذتها بسبعمائة درهم قال : فإنى أربحك سبعمائة أخرى قال : فإنى قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف قال لاحاجة لى فيها قال والله لتشترينها منى أو لتكفرن بدينك الذى أنت عليه قال : ادن منى فدنا منه فقرأ فى أذنه مما فى التوراة : إنك لا تجد مملوكا من بنى إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم) قال : أنت عبد الله بن سلام ؟ قال : نعم : قال فجاء بأربعة آلاف فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين. وقال آدم بن أبى إياس فى تفسيره حدثنا أبو جعفر يعنى الرازى حدثنا الربيع بن أنس أخبرنا أبو العالية : أن عبدالله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادى من النساء من لم يقع عليه العرب ولا يفادى من وقع عليه العرب ، فقال عبدالله : أما انه مكتوب عندك فى كتابك أن تفاديهن كلهن والذى أرشدت اليه الآية الكريمة وهذا السياق ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التى أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام ، واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم ولهذا قال تعالى (فما جزاء من يفعل ذلك منكم

إلا خزى فى الحياة الدنيا) أى بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره (ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذى بأيديهم (وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) أى استحبوها على الآخرة واختاروها (فلا يخفف عنهم العذاب) أى لايفتر عنهم ساعة واحدة (ولا هم ينصرون) أى وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى ولا يجيرهم منه

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

ينعت تبارك وتعالى بنى اسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء وأنهم انما يتبعون أهواءهم فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) الآية ولهذا قال تعالى (وقفينا من بعده بالرسل) قال السدى عن أبى مالك : أتبعنا . وقال غيره . أردفنا . والكل قريب كما قال تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى) حتى ختم أنبياء بنى اسرائيل بعيسى بن مريم فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهى المعجزات . قال ابن عباس من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، وابراء الأسقام ، واخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام — مايدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بنى اسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض كما قال تعالى اخباراً عن عيسى (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم) الآية فكانت بنوا إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ففريقا يكذبونه ، وفريقا يقتلونه ، وماذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبالالزام بأحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها ، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم ولهذا قال تعالى (أفكلما جاءكم رسول بمالاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون)

والدليل على أن روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب واسماعيل بن خالد والسدى والربيع بن أنس وعطية العوفى وقتادة مع قوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) ماقال البخارى . وقال ابن أبى الزناد عن أبيه عن أبى هريرة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحسان بن ثابت منبرا فى المسجد فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أيد حسان بروح القدس كمانافح عن نبيك » فهذا من البخارى تعليقا وقد رواه أبو داود فى سننه عن ابن سيرين والترمذى عن على بن حجر واسماعيل بن موسى الفزارى ثلاثتهم عن أبى عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه وهشام بن عروة كلاهما عن عروة عن عائشة به قال الترمذى حسن صحيح وهو حديث أبى الزناد وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن عمر ابن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ اليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ثم التفت إلى أبى هريرة فقال أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أجب عنى اللهم أيده بروح القدس » فقال اللهم نعم وفى بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم — أو هاجهم — وجبريل معك » وفى شعر حسان قوله :

وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس به خفاء

وقال محمد بن اسحق حدثنى عبد الرحمن بن أبى حسين المكى عن شهر بن حوشب الأشعرى أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أخبرنا عن الروح فقال « أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون

أنه جبرائيل وهو الذي يأتيني ؟ » قالوا نعم : وفي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » *

أقوال أخر — قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس (وأيدناه بروح القدس) قال : هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى . وقال ابن جرير حدثت عن المنجاب فذكره وقال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير أيضاً قال : وهو الاسم الأعظم . وقال ابن أبي نجيح : الروح هو حفظة على الملائكة وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس . القدس هو الرب تبارك وتعالى . وهو قول كعب وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا . القدس هو الله تعالى وروحه جبريل . فعلى هذا يكون القول الأول وقال السدي : القدس البركة . وقال العوفي عن ابن عباس القدس الطهر وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) قال : أيد الله عيسى بالإنجيل روحا كما جعل القرآن روحا كلاهما روح الله كما قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) ثم قال ابن جرير وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال الروح في هذا الموضع جبرائيل فان الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله تعالى (إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) الآية فذكر أنه أيده به فلو كان الروح الذي أيده به هو الانجيل لكان قوله (وإذ أيدتك بروح القدس * وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) تكرير قول لامعنى له والله سبحانه وتعالى أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لايفيدهم به (قلت) ومن الدليل على أنه جبرائيل ماتقدم من أول السياق ولله الحمد . وقال الزمخشري (بروح القدس) بالروح المقدسة كما تقول حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال (وروح منه) فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة وقيل لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالإنجيل كما قال في القرآن (روحا من أمرنا) وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره فتضمن كلامه قولا آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة وقال الزمخشري في قوله تعالى (ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) إنما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر وقد قال عليه السلام في مرض موته « مازالت أكلة خيبر تعادّني فهذا أوان انقطاع أبهري » (قلت) وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) أي في أكنة: وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) أي لاتفقه وقال العوفي عن ابن عباس(وقالوا قلوبنا غلف) هي القلوب المطبوع عليها وقال مجاهد (وقالوا قلوبنا غلف) عليها غشاوة وقال عكرمة : عليها طابع ، وقال أبو العالية: أي لاتفقه ، وقال السدي يقولون عليها غلاف وهو الغطاء : وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : فلاتعي ولاتفقه قال مجاهد وقتادة : وقرأ ابن عباس غلف بضم اللام وهو جمع غلاف أي قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك قاله ابن عباس وعطاء (بل لعنهم الله بكفرهم) أي طردهم الله وأبعدهم من كل خير (فقليلا ما يؤمنون) قال قتادة معناه لايؤمن منهم إلا القليل (وقالوا قلوبنا غلف) هو كقوله (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم في قوله غلف قال تقول قلبي في غلاف فلايخلص إليه مما تقول شيء وقرأ (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) وهذا الذي رجحه ابن جرير واستشهد بما روى من حديث عمرو بن مرة الجملي عن أبي البختري عن حذيفة قال «القلوب أربعة» فذكر منها « وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر » وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد ابن عبد الرحمن العرزمي أنبأنا أبي عن جدي عن قتادة عن الحسن في قوله(قلوبنا غلف) قال لم تختن وهذا القول يرجع

معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم وأنها بعيدة من الخير * قول آخر — قال الضحاك عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) قال يقولون قلوبنا غلف مملوءة لاتحتاج إلى علم محمد ولاغيره . وقال عطية العوفى عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) أى أوعية للعلم وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيما حكاه ابن جرير وقالوا قلوبنا غلف بضم اللام نقلها الزمخشرى أى جمع غلاف أى أوعية بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لايحتاجون معه إلى علم آخر كما كانوا يفتون بعلم التوراة ولهذا قال تعالى (بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) أى ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها كما قال فى سورة النساء (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلايؤمنون إلاقليلا) وقد اختلفوا فى معنى قوله (فقليلاما يؤمنون) وقوله (فلا يؤمنون إلا قليلا) فقال بعضهم فقليل من يؤمن منهم وقيل فقليل إيمانهم بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ولكنه إيمان لاينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذى جاءهم به محمد ﷺ ، وقال بعضهم إنما كانوا غير مؤمنين بشىء وإنما قال فقليلاما يؤمنون وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب قلما رأيت مثل هذا قط . تريد مارأيت مثل هذا قط وقال الكسائى تقول العرب من زنى بأرض قلما تنبت أى لاتنبت شيئاً حكاه ابن جرير رحمه الله والله أعلم

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

يقول تعالى (ولما جاءهم يعنى اليهود كتاب من عند الله وهو القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ) (مصدق لما معهم) يعنى من التوراة وقوله (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) أى وقد كانوا من قبل مجىء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون إنه سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم كما قال محمد بن إسحق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال فينا والله وفيهم يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروابه) قالوا كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به ، يقول الله تعالى (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال يستنصرون يقولون نحن نعين محمداً عليهم وليسوا كذلك بل يكذبون ، وقال محمد بن إسحق أخبرنى محمد بن أبى محمد أخبرنى عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته فقال سلام بن مشكم أخوبنى النضير ماجاءنا بشىء نعرفه وماهو بالذى كنا نذكر لكم . فأنزل الله فى ذلك من قولهم (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم) الآية وقال العوفى عن ابن عباس (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) يقول يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركى العرب ، يعنى بذلك أهل الكتاب فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه . وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب يقولون اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ؛ فقال الله تعالى (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وقال قتادة (وكانوا من قبل يستفحون على الذين

كفروا) قال وكانوا يقولون إنه سيأتى نبى . (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) وقال مجاهد (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) قال هم اليهود

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

قال مجاهد (بئسما اشتروا به أنفسهم) يهود شروا الحق بالباطل وكتمان ماجاء به محمد ﷺ بأن يبينوه وقال السدى (بئسما اشتروا به أنفسهم) يقول باعوا به أنفسهم يقول بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه وموازرته ونصرته وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية لـ(أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) ولا حسد أعظم من هذا ، قال ابن إسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) أى أن الله جعله من غيرهم (فباؤا بغضب على غضب) قال ابن عباس فى الغضب على الغضب فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى بعث الله إليهم (قلت) ومعنى (باؤا) استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب ، وقال أبو العالية : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن ، وعن عكرمة وقتادة مثله قال السدى : أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم فى العجل وأما الغضب الثانى فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ وعن ابن عباس مثله * وقوله تعالى (وللكافرين عذاب مهين) لما كان كفرهم سببه البغى والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين حقيرين ذليلين راغمين وقد قال الإمام أحمد حدثنا يحى حدثنا ابن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجناً فى جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار »

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

يقول تعالى (وإذا قيل لهم) أى لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب (آمنوا بما أنزل الله) على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أى يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك (ويكفرون بما وراءه) يعنى بما بعده (وهو الحق مصدقاً لما معهم) أى وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ (الحق مصدقاً لما معهم) منصوباً على الحال أى فى حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ثم قال تعالى (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم ؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهى كما قال تعالى (أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) وقال السدى فى هذه الآية يعيرهم الله تبارك وتعالى (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) وقال أبوجعفر بن جرير قل يامحمد ليهود بنى إسرائيل إذا قلت لهم

آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا لم تقتلون ـ إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله ـ أنبياء الله يامعشر اليهود وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم وذلك من الله تكذيب لهم فى قولهم نؤمن بما أنزل علينا وتعيير لهم (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله والآيات البينات هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التى شاهدوها ثم اتخذتم العجل أى معبودا من دون الله فى زمان موسى وأيامه ، وقوله من بعده أى من بعد ماذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عزوجل كما قال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار) (وأنتم ظالمون) أى وأنتم ظالمون فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى (ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين)

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه (ولهذا قالوا سمعنا وعصينا) وقد تقدم تفسير ذلك (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) قال عبد الرزاق عن قتادة (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) قال أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقال الإمام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى عن خالد بن محمد الثقفى عن بلال بن أبى الدرداء عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ : قال « حبك الشىء يعمى ويصم » ورواه أبو داود عن حيوة بن شريح عن بقية عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم به ، وقال السدى أخذ موسى عليه السلام العجل فذبحه بالمبرد ثم ذراه فى البحر ثم لم يبق بحر يجرى يومئذ إلا وقع فيه شىء ثم قال لهم موسى اشربوا منه فشربوا فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب فذلك حين يقول الله تعالى (وأشربوا فى قلوبهم العجل) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عمارة بن عمير وأبى عبد الرحمن السلمى عن على رضى الله عنه قال عمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شاطىء نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفرّ وجهه مثل الذهب ، وقال سعيد بن جبير (وأشربوا فى قلوبهم العجل) قال لما أحرق العجل برد ثم نسف فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران ، وحكى القرطبى عن كتاب القشيرى أنه ماشرب أحد «منه» ممن عبد العجل إلا جنّ ثم قال القرطبى وهذا شىء غير ماههنا لأن المقصود من هذا السياق أنه ظهر على شفاههم ووجوههم والمذكور ههنا أنهم أشربوا فى قلوبهم العجل يعنى فى حال عبادتهم له ثم أنشد قول النابغة فى زوجته عثمة

تغلغل حب عثمة فى فؤادى * فباديه مع الخافى يسير * تغلغل حيث لم يبلغ شراب

ولا حزن ولم يبلغ سرور * أكاد إذا ذكرت العهد منها * أطير لو ان إنسانا يطير

وقوله (قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) أى بئسما تعتمدونه فى قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء ثم اعتمادكم فى كفركم بمحمد ﷺ وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق وكفركم بآيات الله وعبادتكم العجل من دون الله

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَلَن

يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) أى بعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك مابقى على الأرض يهودى إلا مات . وقال الضحاك عن ابن عباس فتمنوا الموت - فسلوا الموت وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن عكرمة قوله : فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . قال قال ابن عباس لو تمنى يهود الموت لماتوا . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا عثام سمعت الأعمش قال لا أظنه إلا عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه ، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس ، وقال ابن جرير فى تفسيره وبلغنا أن النبى ﷺ قال « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ (لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا » ، حدثنا بذلك أبو كريب حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار حدثنا سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قال قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم . قلت أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم تمنوا الموت أتراهم كانوا ميتين قال : لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت وما كانوا ليتمنوه وقد قال الله ما سمعت (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) وهذا غريب عن الحسن ، ثم هذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو المتعين وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة ، ونقله ابن جرير عن قتادة وأبى العالية والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى ، ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فهم عليهم لعائن الله تعالى لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون لأنهم لوكانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة ، فقال تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض والله لئن باهلتم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف ، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً ، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) أى من كان فى الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه كما سيأتى تقريره فى موضعه إن شاء الله تعالى

وأما من فسر الآية على معنى (إن كنتم صادقين) أى فى دعواكم فتمنوا الآن الموت ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم ، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول ؟ فإنه قال القول فى تأويل قوله

تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس) الآية فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجره وفضح بها أحبارهم وعلماءهم وذلك أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم إلى قضية(١) عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه فى عيسى بن مريم عليه السلام وجادلوه فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة ، فقال لفريق اليهود إن كنتم محقين فتمنوا الموت فان ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله لكى يعطيكم(٢) أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله فى جناته إن كان الأمر كما تزعمون من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون فى دعوانا وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمها ، أنها إن تمنت الموت هلكت فذهبت دنياها وصارت إلى خزى الأبد فى آخرتها كما امتنع فريق النصارى (الذين جادلوا النبى ﷺ فى عيسى إذ دعوا للمباهلة من المباهلة) .

فهذا الكلام منه أوله حسن وآخره فيه نظر ، وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل إذ يقال إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون فى دعواهم أنهم يتمنون الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت وكم من صالح لا يتمنى الموت بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته فى الجنة كما جاء فى الحديث « خيركم من طال عمره وحسن عمله » ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنة وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت ، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم ؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى ، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شىء من ذلك بل قيل لهم كلام نصف إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس وأنكم أبناء الله وأحباؤه وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة ، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه ، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وسميت هذه المباهلة تمنياً لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان فى ذلك حجة له فى بيان حقه وظهوره وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ، ولهذا قال تعالى (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أى على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم عند الله الخاسرة لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم وهذا من باب عطف الخاص على العام قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبدالرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس(ومن الذين أشركوا)قال الأعاجم ، وكذا رواه الحاكم فى مستدركه من حديث الثورى وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . قال وقد اتفقا على سند تفسير الصحابى ، وقال الحسن البصرى ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . قال المنافق أحرص الناس وأحرص من المشرك على حياة يود أحدهم أى يود أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق ، وقال أبو العالية يود أحدهم أى أحد المجوس وهو يرجع إلى الأول لو يعمر ألف سنة قال الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال هو كقول الفارسى « ده هزارسال » يقول عشرة آلاف سنة . وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضاً ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق سمعت أبى يقول حدثنا أبو حمزة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال هو قول الأعاجم هزارسال نوروز ومهرجان(٣) وقال مجاهد (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال : حببت إليهم الخطيئة طول العمر وقال مجاهد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس

(١) هكذا بالأصل وفى تفسير الطبرى أن يدعوهم وما بين القوسين آخر العبارة لم يوجد بالأصل وصحح من الطبرى اه
(٢) عبارة ابن جرير فى تفسيره بل إن أعطيتم اه (٣) نص تفسير ابن جرير سال زه نوروز مهرجان حر اه

(وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) أى وما هو بمنجيه من العذاب ، وذلك أن الشرك لايرجو بعثاً بعد الموت فهو يحب طول الحياة وأن اليهودى قدعرف ماله فى الآخرة من الخزى بماضيع ماعنده من العلم وقال العوفى عن ابن عباس (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) قال هم الذين عادوا جبرائيل ، قال أبوالعالية وابن عمر فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيه منه . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذه الآية يهود أحرص على الحياة من هؤلاء وقد ود هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لوعمر كما عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً ، (والله بصير بما يعملون) أى خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازى كل عامل بعمله

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾

قال الإمام أبوجعفر بن جرير الطبرى رحمه الله أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بنى اسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولى لهم ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك فقال بعضهم إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر نبوته ﴿ ذكر من قال ذلك ﴾ حدثنا أبوكريب حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قال حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لايعلمهن إلا نبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم عن شىء فعرفتموه لتتابعننى على الإسلام » فقالوا ذلك لك فقال رسول الله ﷺ « سلوا عما شئتم » قالوا أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن ، أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى التوراة ومن وليه من الملائكة ؟ فقال النبى ﷺ « عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعننى ؟ » فأعطوه ماشاء الله من عهد وميثاق فقال « نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان أحب الطعام اليه لحوم الإبل وأحب الشراب اليه ألبانها » فقالوا اللهم نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اشهد عليهم(١)، وأنشدكم بالله الذى لاإله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض وأن ماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عزوجل وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً باذن الله وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل » قالوا اللهم نعم « قال اللهم اشهد ، وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولاينام قلبه » قالوا اللهم نعم قال « اللهم اشهد » قالوا أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك قال « فإن وليى جبريل ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه » قالوا فعندها نفارقك ولوكان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك قال «فما يمنعكم أن تصدقوه» ؟ قالوا إنه عدونا فأنزل الله عزوجل (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه — الى قوله — لو كانوا يعلمون) فعندها باؤا بغضب على غضب وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى النضر هاشم بن القاسم وعبدالرحمن بن حميد فى تفسيره عن أحمد بن يونس كلاهما عن عبدالحميد بن بهرام به ، ورواه أحمد أيضا عن الحسين بن محمد المروزى عن عبدالحميد بنحوه وقد رواه محمد بن إسحق بن يسار ، حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن بن أبى حسين عن شهر بن حوشب فذكره مرسلا وزاد فيه قالوا فأخبرنا عن الروح قال « فأنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتينى » قالوا اللهم نعم ولكنه عدو لنا وهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء فلولا

(١) عبارة تفسير ابن جرير « أشهد الله عليكم » الخ

ذلك اتبعناك فأنزل الله تعالى فيهم (قل من كان عدواً لجبريل ـ إلى قوله ـ لايعلمون) وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي عن بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء فان أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه اذ قال والله على مانقول وكيل قال «هاتوا» قالوا فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال «تنام عيناه ولا ينام قلبه» قالوا أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر قال «يلتقي الماءان فاذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت واذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت» قالوا أخبرنا ماحرم اسرائيل على نفسه قال «كان يشتكي عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه الا ألبان كذا» قال أحمد قال بعضهم يعني الإبل فحرم لحومها قالوا صدقت قالوا أخبرنا ماهذا الرعد قال «ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيديه أو في يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى» قالوا فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال «صوته» قالوا صدقت قالوا انما بقيت واحدة وهي التي نتابعك ان أخبرتنا بها انه ليس من نبي الا وله ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك؟ قال «جبريل عليه السلام» قالوا جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان فأنزل الله تعالى (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) الى آخر الآية، ورواه الترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن الوليد به، وقال الترمذي حسن غريب. وقال سنيد في تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جريج أخبرني القاسم بن أبي بزة أن يهود سألوا النبي ﷺ عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي قال «جبرائيل» قالوا فإنه عدو لنا ولا يأتي إلا بالحرب والشدة والقتال فنزلت (قل من كان عدواً لجبريل) الآية قال ابن جرير قال مجاهد قالت يهود يامحمد مانزل جبريل الا بشدة وحرب وقتال فانه لنا عدو فنزل (قل من كان عدواً لجبريل) الآية قال البخاري قوله تعالى (من كان عدواً لجبريل) قال عكرمة جبر وميك واسراف: عبد إيل: الله: حدثنا عبدالله بن منير سمع عبدالله بن بكر حدثنا حميد عن أنس بن مالك، قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي: ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد الى أبيه أو الى أمه، قال «أخبرني بهذه جبرائيل آنفا» قال جبريل؟ قال «نعم» قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك) «وأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت؛ واذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد واذا سبق ماء المرأة نزعت» قال: أشهد أن لااله الا الله وأنك رسول الله. يارسول الله إن اليهود قوم بهت وانهم ان يعلموا باسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا قال «أرأيتم إن أسلم» قالوا أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لااله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. فقالوا هو شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا الذي كنت أخاف يارسول الله ـ انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد أخرجاه من وجه آخر عن أنس بنحوه وفي صحيح مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قريب من هذا السياق كما سيأتي في موضعه ان شاء الله تعالى وحكاية البخاري كما تقدم عن عكرمة هو المشهور أن إيل هو الله وقد رواه سفيان الثوري عن خصيف عن عكرمة ورواه عبد بن حميد عن ابراهيم ابن الحكم عن أبيه عن عكرمة، ورواه ابن جرير عن الحسين بن يزيد الطحان عن اسحق بن منصور عن قيس ابن عاصم عن عكرمة انه قال ان جبريل اسمه عبد الله وميكائيل اسمه عبد الله. إيل الله ورواه يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس مثله سواء وكذا قال غير واحد من السلف كما سيأتي قريبا ومن الناس من يقول إيل عبارة عن عبد والكلمة الأخرى هي اسم الله لأن كلمة إيل لاتتغير في الجميع فوزانه عبدالله عبد الرحمن عبد الملك عبد القدوس عبد السلام عبد الكافي عبد الجليل فعبد موجودة في هذا كله واختلفت الأسماء المضاف اليها وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل واسرافيل ونحو ذلك وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف اليه على المضاف والله أعلم

ثم قال ابن جرير وقال آخرون بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب فى أمر النبي ﷺ ﴿ ذكر من قال ذلك ﴾ حدثنى محمد بن المثنى حدثنى ربعى بن علية عن داود بن أبى هند عن الشعبي ، قال نزل عمر الروحاء فرأى رجالا يبتدرون أحجاراً يصلون إليها فقال ما بال هؤلاء ؟ قالوا يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا ، قال فكفر ذلك ، وقال أيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة بواد صلاها ثم ارتحل فتركه ثم أنشأ يحدثهم فقال كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدق التوراة فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك (قلت) ولم ذلك قالوا لأنك تغشانا وتأتينا فقلت إنى آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن ، قالوا ومر رسول الله ﷺ فقالوا يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به قال فقلت لهم عند ذلك نشدتكم بالله الذى لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه وما استودعكم من كتابه هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال فسكتوا فقال لهم عالمهم وكبيرهم إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه قالوا فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت قال أما إذا نشدتنا بما نشدتنا فانا نعلم أنه رسول الله قلت ويحكم إذا هلكتم ، قالوا إنا لم نهلك ، قلت كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ، قالوا إن لنا عدوا من الملائكة وسلما من الملائكة وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة قلت ومن عدوكم ومن سلمكم ؟ قالوا عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل قالوا إن جبرائيل ملك الفظاظه والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمه والرأفة والتخفيف ونحو هذا ، قال قلت وما منزلتهما من ربهما عز وجل ؟ قالوا أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال فقلت فوالذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما وما ينبغى لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل قال ثم قمت فاتبعت النبي صلى الله عليه وسلم فلحقته وهو خارج من خوخة لبنى فلان فقال «يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل» فقرأ علىّ (من كان عدوا لجبرائيل فانه نزله على قلبك بإذن الله حتى قرأ الآيات : قال قلت بأبى وأمى أنت يا رسول الله والذى بعثك بالحق لقد جئت أنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج : حدثنا أبو أسامة عن مجالد أنبأنا عامر قال انطلق عمر بن الخطاب إلى اليهود فقال أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمداً فى كتبكم قالوا نعم ، قال فما يمنعكم أن تتبعوه قالوا إن الله لم يبعث رسولا إلا جعل له من الملائكة كفلا وإن جبرائيل كفل محمدا وهو الذى يأتيه وهو عدونا من الملائكة وميكائيل سلمنا لوكان ميكائيل الذى يأتيه أسلمنا ، قال فإنى أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله . قال عمر وإنى أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبرائيل وما كان جبرائيل ليسالم عدو ميكائيل فبينما هو عندهم إذ مر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا صاحبك يا ابن الخطاب فقام إليه عمر فأتاه وقد أنزل الله عز وجل (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدث به عن عمر ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر فإنه لم يدرك زمانه والله أعلم : وقال ابن جرير حدثنا بشير حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود فلما انصرف رحبوا به فقال لهم عمر أما والله ما جئتكم لحبكم ولا لرغبة فيكم ولكن جئت لأسمع منكم فسألهم وسألوه ، فقالوا من صاحب صاحبكم ؟ فقال لهم جبرائيل فقالوا ذاك عدونا من أهل السماء يطلع محمدا على سرنا وإذا جاء جاء بالحرب والسنة ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل وكان إذا جاء جاء بالخصب والسلم ، فقال لهم عمر هل تعرفون جبرائيل وتنكرون محمداً ﷺ ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي ﷺ ليحدثه حديثهم فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) الآيات .

ثم قال حدثنى المثنى حدثنا آدم حدثنا أبو جعفر حدثنا قتادة . قال بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يوماً فذكر نحوه

وهذا فى تفسير آدم وهو أيضاً منقطع وكذلك رواه أسباط عن السدى عن عمر مثل هذا أو نحوه وهو منقطع أيضاً وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن يعنى الدستلى حدثنا أبو جعفر عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهوديا لقى عمر بن الخطاب فقال إن جبرائيل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا فقال عمر (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) قال فنزلت على لسان عمر رضى الله عنه ، ورواه عبد بن حميد عن أبى النضر هاشم بن القاسم عن أبى جعفر هو الرازى : وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن ابراهيم حدثنى هشيم أخبرنا حصين بن عبد الرحمن عن ابن أبى ليلى فى قوله تعالى (من كان عدوا لجبريل) قال قالت اليهود للمسلمين لو أن ميكائيل كان هو الذى ينزل عليكم اتبعناكم فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، وإن جبرائيل ينزل بالعذاب والنقمة فإنه عدو لنا ، قال فنزلت هذه الآية حدثنا يعقوب أخبرنا هشيم أخبرنا عبد الملك عن عطاء بنحوه ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (قل من كان عدوا لجبريل) قال قالت اليهود إن جبرائيل عدو لنا لأنه ينزل بالشدة والسنة وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب فجبرائيل عدو لنا . فقال الله تعالى (من كان عدوا لجبريل) الآية.

وأما تفسير الآية فقوله تعالى (قل من كان عدواً لجبريل) فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، أى من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك فهو رسول من رسل الله ملكى ، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل كما قال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) الآيتين فحكم عليهم بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم ، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه كما قال (وما نتنزل إلا بأمر ربك) الآية وقال تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين) وقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب» ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه ، فقال تعالى (من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب المتقدمة (وهدى وبشرى للمؤمنين) أى هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلا للمؤمنين كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) الآية وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) الآية ثم قال تعالى (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) يقول تعالى من عادانى وملائكتى ورسلى ..ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) . (وجبريل وميكال) وهذا من باب عطف الخاص على العام فإنهما دخلا فى الملائكة فى عموم الرسل ثم خصصا بالذكر لأن السياق فى الانتصار لجبرائيل وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكائيل فى اللفظ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل وليهم فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً ولأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان كما قرن برسول الله ﷺ فى ابتداء الأمر ولكن جبرائيل أكثر وهى وظيفته وميكائيل موكل بالنبات والقطر هذاك بالهدى وهذا بالرزق كما أن إسرافيل موكل بالنفخ فى الصور للبعث يوم القيامة ولهذا جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» وقد تقدم ما حكاه البخارى ورواه ابن جرير عن عكرمة وغيره أنه قال جبر، وميك، وإسراف : عبيد، وإيل: الله وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن إسماعيل بن أبى رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن ابن عباس قال : إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن ، وقيل جبر: عبد، وإيل: الله. وقال محمد بن إسحق عن الزهرى عن على بن الحسين قال : أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم قلنا لا ، قال : اسمه عبد الله وكل اسم مرجعه إلى إيل فهو إلى الله عز

وجل . قال ابن أبي حاتم وروى عن عكرمة ومجاهد والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك . ثم قال حدثني أبي حدثنا أحمد بن أبي الحوارى حدثني عبد العزيز بن عمير قال : اسم جبرائيل في الملائكة خادم الله قال : فحدثت به أبا سليمان الداراني فانتفض ، وقال : لهذا الحديث أحب إلى من كل شيء في دفتر كان بين يديه . وفي جبرائيل وميكال لغات وقراآت تذكر في كتب اللغة والقراآت ولم نطول كتابنا هذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه ، أو يرجع الحكم في ذلك إليه وبالله الثقة وهو المستعان ، وقوله تعالى (فإن الله عدو للكافرين) فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل فإنه عدو بل قال : (فإن الله عدو للكافرين) كما قال الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء * سبق الموت ذا الغنى والفقيرا

وقال الآخر : ليت الغراب غداة ينعب دائبا * كان الغراب مقطع الأوداج

وإنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى واظهاره وإعلامهم أن من عادى وليا لله فقد عادى الله ومن عادى الله فإن الله عدو له ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة كما تقدم الحديث « من عادى لي وليا فقد آذنته بالمحاربة » وفي الحديث الآخر « إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب » وفي الحديث الصحيح « من كنت خصمه خصمته »

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) الآية أى أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك وتلك الآيات هي ماحواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وماحرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة فأطلع الله في كتابه الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي إذ كان في فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ماجاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ولاأخذ شيئاً منه عن آدمي ، كما قال الضحاك عن ابن عباس (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) يقول فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه ، يقول الله تعالى لهم في ذلك عبرة وبيان وعليهم حجة لوكانوا يعلمون . وقال محمد بن إسحق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أوسعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا القطويني لرسول الله ﷺ يامحمد ماجئتنا بشيء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك فأنزل الله في ذلك من قوله (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما

عهد إليهم فى محمد ﷺ : والله ماعهد إلينا فى محمد وما أخذ علينا ميثاقا . فأنزل الله تعالى (أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) وقال الحسن البصرى : فى قوله (بل أكثرهم لا يؤمنون) قال نعم ليس فى الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غداً . وقال السدى : لايؤمنون بما جاء به محمد ﷺ وقال قتادة . نبذه فريق منهم ، أى نقضه فريق منهم . وقال ابن جرير أصل النبذ الطرح والإلقاء ومنه سمى اللقيط منبوذاً ومنه سمى النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء . قال أبو الأسود الدؤلى :

نظرت إلى عنوانه فنبذته * كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

قلت فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة الذى فى كتبهم نعته وصفته وأخباره وقد أمروا فيها باتباعه وموازرته ونصرته كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) الآية وقال ههنا (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) الآية أى طرح طائفة منهم كتاب الله الذى بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم ، أى تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة بئر أروان وكان الذى تولى ذلك منهم رجل يقال له لبيد بن الأعصم لعنه الله وقبحه فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه وأنقذه كما ثبت ذلك مبسوطاً فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها كما سيأتى بيانه . قال السدى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) قال : لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن فذلك قوله (كأنهم لا يعلمون) وقال قتادة فى قوله (كأنهم لايعلمون) قال : إن القوم كانو يعلمون ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين) الآية وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فئام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات ، فلما أرجع الله إلى سليمان ملكه وقام الناس على الدين كما كان وان سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه وتوفى سليمان عليه السلام حدثان ذلك فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان وقالوا هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه ديناً فأنزل الله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) الآية واتبعوا الشهوات التى كانت تتلو الشياطين وهى المعازف واللعب وكل شى يصد عن ذكر الله . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم وكان يكتب كل شىء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً وقالوا هذا الذى كان سليمان يعمل بها قال : فأكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماء الناس فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال ابن جرير : حدثنى أبو السائب سلمة بن جنادة السوائى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتى شيئاً من نسائه أعطى الجرادة وهى امرأة خاتمه ، فلما أراد الله أن يبتلى سليمان عليه السلام بالذى ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال هاتى خاتمى فأخذه ولبسه فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس . قال فجاءها سليمان فقال لها هاتى خاتمى فقالت كذبت لست سليمان ، قال فعرف سليمان أنه بلاء ابتلى به . قال فانطلقت الشياطين فكتبت فى تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسى سليمان ثم أخرجوها وقرءوها على الناس وقالوا إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب ، قال فبرىء الناس من سليمان وكفروه حتى بعث الله محمداً ﷺ فأنزل عليه (وما كفر

سليمان ولكن الشياطين كفروا) ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن حصين بن عبد الرحمن عن عمران وهو الحارث قال : بينا نحن عند ابن عباس رضى الله عنهما إذ جاء رجل فقال له من أين جئت ، قال من العراق قال من أيه ؟ قال من الكوفة قال فما الخبر ؟ قال تركتهم يتحدثون أن عليا خارج اليهم ففزع ثم قال ماتقول لاأبالك ؟ لوشعرنا مانكحنا نساءه ولاقسمنا ميراثه ، أما إنى سأحدثكم عن ذلك ، إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء فيجىء أحدهم بكلمة حق قد سمعها فاذا جرت منه وصدق كذب معها سبعين كذبة قال فتشربها قلوب الناس ، قال فأطلع الله عليها سليمان عليه السلام فدفنها تحت كرسيه ، فلما توفى سليمان عليه السلام قام شيطان الطريق فقال هل أدلكم على كنزه الممنع الذى لا كنز له مثله ؟ : تحت الكرسى . فأخرجوه فقال هذا سحر فتناسخها الأمم حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق فأنزل الله عز وجل (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) الآية وروى الحاكم فى مستدركه عن أبى زكريا العنبرى عن محمد بن عبد السلام عن إسحق ابن ابراهيم عن جرير[1] به وقال السدى فى قوله تعالى(واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) أى على عهد سليمان قال كانت الشياطين تصعد الى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون فى الأرض من موت أو غيب أو أمر فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك الحديث فى الكتب وفشى ذلك فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب ، فبعث سليمان فى الناس فجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق ، وقال لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه ، فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان فى صورة إنسان ثم أتى نفراً من بنى إسرائيل فقال لهم هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً[2] قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسى فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له فاذن فقال لاولكننى ههنا فى أيديكم فان لم تجدوه فاقتلونى فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان إن سليمان إنما كان يضبط الانس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحراً واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال الربيع بن أنس إن اليهود سألوا محمداً ﷺ زمانا عن أمور من التوراة لايسألونه عن شىء من ذلك الا أنزل الله سبحانه وتعالى ماسألوه عنه فيخصمهم فلما رأوا ذلك قالوا هذا أعلم بما أنزل الله الينا منا وانهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزل الله عز وجل (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) وإن الشياطين عمدوا الى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك فدفنوه تحت كرسى مجلس سليمان وكان عليه السلام لايعلم الغيب فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس وقالوا هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه فأخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد خرجوا[3] وقد أدحض الله حجتهم ، وقال مجاهد فى قوله تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) قال كانت الشياطين تستمع الوحى فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها فأرسل سليمان عليه السلام الى ما كتبوا من ذلك فلما توفى سليمان وجدته الشياطين وعلمته الناس وهو السحر وقال سعيد بن جبير كان سليمان يتتبع مافى أيدى الشياطين من السحر فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه فى بيت خزانته فلم تقدر الشياطين أن يصلوا اليه فدنت الى الإنس فقالوا لهم أتدرون ما العلم الذى كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك ؟ قالوا نعم قالوا فإنه فى بيت خزانته وتحت كرسيه فاستثار به الإنس واستخرجوه وعملوا بها فقال أهل الحجاز كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر فأنزل الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال محمد بن إسحق بن يسار عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود

(١) كذا فى الأصل ولم يذكر المروى فإن كان عين الأول فالواجب أن يقال ورواه الحاكم أو يقال فى آخره : مثله . (٢) أى لاينفد بالأكل منه (٣) فى تفسير ابن جرير وقد حزنوا .

عليه السلام فكتبوا أصناف السحر من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا وكذا حتى إذا صنفوا[1] أصناف السحر جعلوه فى كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا فى عنوانه : هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم . ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا فلما عثروا عليه قالوا والله ما كان ملك سليمان إلا بهذا فأفشوا السحر فى الناس فتعلموه وعلموه فليس هو فى أحد أكثر منه فى اليهود لعنهم الله فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه من الله سليمان ابن داود وعده فيمن عد من المرسلين قال من كان بالمدينة من اليهود ألا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبياً والله ما كان إلا ساحراً وأنزل الله فى ذلك من قولهم (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) الآية * وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا حسين بن الحجاج عن أبى بكر عن شهر بن حوشب قال لما سلب سليمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر فى غيبة سليمان فكتبت من أراد أن يأتى كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقل كذا كذا ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشس وليقل كذا وكذا ، فكتبته وجعلت عنوانه . هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم . ثم دفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان عليه السلام قام إبليس لعنه الله خطيباً فقال يا أيها الناس إن سليمان لم يكن نبيا إنما كان ساحراً فالتمسوا سحره فى متاعه وبيوته ، ثم دلهم على المكان الذى دفن فيه فقالوا والله لقد كان سليمان ساحراً هذا سحره بهذا تعبدنا وبهذا قهرنا فقال المؤمنون بل كان نبياً مؤمناً فلما بعث الله النبى محمداً صلى الله عليه وسلم وذكر داود وسليمان فقالت اليهود انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحراً يركب الريح فأنزل الله تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان) الآية * وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانى : حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت عمران بن جرير عن أبى مجلز قال أخذ سليمان عليه السلام من كل دابة عهداً فاذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد خلى عنه فزاد الناس السجع والسحر فقالوا هذا يعمل به سليمان بن داود عليهما السلام فقال الله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) * وقال ابن أبى حاتم حدثنا عصام بن روّاد حدثنا آدم حدثنا المسعودى عن زياد مولى ابن مصعب عن الحسن (واتبعوا ماتتلو الشياطين) قال ثلث الشعر وثلث السحر وثلث الكهانة ، وقال حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبدالله بن بشار الواسطى حدثنى سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) وتبعته اليهود على ملكه وكان السحر قبل ذلك فى الأرض لم يزل بها ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف فى هذا المقام ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم والله الهادى. وقوله تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) أى واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ماتتلوه الشياطين أى ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان وعداه بعلى لأنه تضمن تتلو تكذب، وقال ابن جرير « على » ههنا بمعنى فى أى تتلو فى ملك سليمان ونقله عن ابن جريج وابن اسحق (قلت) والتضمن أحسن وأولى والله أعلم . وقول الحسن البصرى رحمه الله : وكان السحر قبل زمان سليمان بن داود — صحيح لاشك فيه لأن السحرة كانوا فى زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى (ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى) الآية ثم ذكر القصة بعدها وفيها (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة) وقال قوم صالح وهم قبل ابراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح إنما (أنت من المسحرين) أى المسحورين على المشهور : وقوله تعالى (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه) اختلف الناس فى هذا المقام فذهب بعضهم الى أن « ما » نافية أعنى التى فى قوله (وما أنزل على الملكين) قال القرطبى ما نافية ومعطوف على قوله (وما كفر سليمان) ثم قال(ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين) وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله

(١) فى تفسير ابن جرير صنعوا .

وجعل قوله (هاروت وماروت) بدلا من الشياطين قال وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما فى قوله تعالى (فإن كان له إخوة) أو لكونهما لهما أتباع أو ذكرا من بينهم لتمردهما تقدير الكلام[1] عنده يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت . ثم قال وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ماسواه ، وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (وما أنزل على الملكين ببابل) الآية يقول لم ينزل الله السحر وباسناده عن الربيع بن أنس فى قوله (وما أنزل على الملكين) قال ما أنزل الله عليهما السحر قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذى معناه المقدم[2] قال فإن قال لنا قائل كيف وجه تقديم ذلك قيل وجه تقديمه أن يقال (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) من السحر وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون معنيا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام لأن سحرة اليهود فيما ذكرت كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين وأنها تعلم الناس ذلك ببابل وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم . هذا لفظه بحروفه وقد قال ابن أبى حاتم حدثت عن عبيد الله بن موسى أخبرنا فضيل بن مرزوق عن عطية (وما أنزل على الملكين) قال . ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر قال ابن أبى حاتم وأخبرنا الفضل ابن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا يعلى يعنى ابن أسد أخبرنا بكر يعنى ابن مصعب أخبرنا الحسن بن أبى جعفر أن عبد الرحمن بن أبزى كان يقرؤها (وما أنزل على الملكين داود وسليمان) وقال أبو العالية لم ينزل عليهما السحر يقول علما الإيمان والكفر فالسحر من الكفر فهما ينهيان عنه أشد النهى رواه ابن أبى حاتم ، ثم شرع ابن جرير فى رد هذا القول وان ما بمعنى الذى وأطال القول فى ذلك وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله الى الأرض وأذن لهما فى تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل وادعى أن هاروت وماروت مطيعان فى تعليم ذلك لأنهما امتثلا ما أمرا به وهذا الذى سلكه غريب جداً وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم وروى ابن أبى حاتم باسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرؤها (وما أنزل على الملكين) ويقول هما علجان من أهل بابل ووجه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق لا بمعنى الإيحاء كما فى قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) كما قال تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) (وينزل لكم من السماء رزقاً) وفى الحديث « ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء » وكما يقال «أنزل الله الخير والشر » وحكى القرطبى عن ابن عباس وابن أبزى والحسن البصرى أنهم قرءوا (وما أنزل على الملكين) بكسر اللام ، قال ابن أبزى وهما داود وسليمان قال القرطبى فعلى هذا تكون ما نافية أيضاً وذهب آخرون إلى الوقف على قوله (يعلمون الناس السحر) وما نافية : قال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) فقال الرجلان يعلمان الناس ما أنزل عليهما ويعلمان الناس مالم ينزل عليهما فقال القاسم ما أبالى أيتهما كانت ثم روى عن يونس عن أنس بن عياض عن بعض أصحابه أن القاسم قال فى هذه القصة لا أبالى أى ذلك كان إنى آمنت به . وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا الى الأرض فكان من أمرهما ما كان ، وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد فى مسنده رحمه الله كما سنورده إن شاء الله وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق فى علم الله لهما هذا فيكون تخصيصا لهما فلا تعارض حينئذ كما سبق فى علمه من أمر إبليس ما سبق وفى قول إنه كان من الملائكة . لقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا

(١) قوله تقدير الكلام الخ كذا بالنسخ التى بأيدينا ولا يخفى أنه لا يتم التقدير الا بذكر المبدل منه على إعرابه وهو قوله ولكن الشياطين ولعله سقط من الناسخ اه (٢) فى تفسير ابن جرير التقديم

إبليس أبى) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى . وقد حكاه القرطبي عن على وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدى والكلبي

﴿ ذكر الحديث الوارد فى ذلك إن صح سنده ورفعه وبيان الكلام عليه ﴾

قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فى مسنده أخبرنا يحيى بن بكير حدثنا زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع نبى الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة أى رب (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون) قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان قالوا ربنا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت لاوالله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك فقالا والله لانشرك بالله شيئاً أبداً ، فذهبت عنهما ثم رجعت بصبى تحمله فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تقتلا هذا الصبى فقالا لاوالله لانقتله أبداً ، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تشربا هذا الخمر ، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبى فلما أفاقا قالت المرأة والله ماتركتما شيئاً أبيتماه على إلا قد فعلتماه حين سكرتما فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا» . وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه عن الحسن عن سفيان عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يحيى بن بكير — به وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين إلا موسى بن جبير هذا وهو الأنصارى السلمى مولاهم المدينى الحذاء وروى عن ابن عباس وأبى أمامة بن سهل بن حنيف ونافع وعبدالله بن كعب بن مالك وروى عنه ابنه عبدالسلام وبكر بن مضر وزهير بن محمد وسعيد بن سلمة وعبدالله بن لهيعة وعمرو بن الحارث ويحيى بن أيوب : وروى له أبوداود وابن ماجه وذكره ابن أبى حاتم فى كتاب الجرح والتعديل ولم يحك فيه شيئا من هذا ولا هذا فهو مستور الحال[1] وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، وروى له متابع من وجه آخر عن نافع كما قال ابن مردويه حدثنا دعلج ابن أحمد حدثنا هشام بن على بن هشام حدثنا عبدالله بن رجاء حدثنا سعيد بن سلمة حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول فذكره بطوله ، وقال أبوجعفر بن جرير رحمه الله حدثنا القاسم أخبرنا الحسين وهو سنيد بن داود صاحب التفسير أخبرنا الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع قال سافرت مع ابن عمر فلما كان من آخر الليل قال يانافع انظر طلعت الحمراء ؟ قلت لا مرتين أو ثلاثاً ثم قلت قد طلعت قال لامرحباً بها ولا أهلا قلت سبحان الله نجم مسخر سامع مطيع : قال ما قلت لك إلا ماسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقال : قال لى رسول الله ﷺ «إن الملائكة قالت يارب كيف صبرك على بنى آدم فى الخطايا والذنوب قال إنى ابتليتهم وعافيتكم قالوا لو كنا مكانهم ماعصيناك ، قال فاختاروا ملكين منكم قال فلم يألوا جهداً أن يختاروا فاختاروا هاروت وماروت» وهذان أيضاً غريبان جداً . وأقرب ما يكون فى هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار لاعن النبى صلى الله عليه وسلم كما قال عبد الرزاق فى تفسيره عن الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار قال ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم وما يأتون من الذنوب فقيل لهم اختاروا منكم اثنين فاختاروا هاروت وماروت فقال لهما إنى أرسل الى بنى آدم رسلا وليس بينى وبينكم رسول انزلا لا تشركا بى شيئا ولا تزنيا ولا تشربا الخمر ، قال كعب فوالله ما أمسيا من يومهما الذى أهبطا فيه حتى استكملا جميع مانهيا عنه ، رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به ورواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن عصام عن مؤمل عن سفيان الثورى به ورواه ابن جرير أيضاً حدثنى المثنى أخبرنا المعلى وهو ابن أسد أخبرنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة حدثنى سالم أنه سمع عبد الله يحدث عن كعب الأحبار فذكره فهذا أصح وأثبت الى عبد الله بن عمر من الاسنادين المتقدمين وسالم أثبت فى أبيه من مولاه نافع فدار الحديث ورجع الى نقل كعب الأحبار عن كتب بنى إسرائيل والله أعلم

(١) قال ابن حبان : كان يخطىء ويخالف وقال ابن القطان لايعرف حاله اهـ من تهذيب التهذيب.

﴿ ذكر الآثار الواردة فى ذلك عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين ﴾

قال ابن جرير : حدثنى المثنى حدثنا الحجاج أخبرنا حماد عن خالد الحذاء عن عمير بن سعيد قال : سمعت علياً رضى الله عنه يقول كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت فراوداها عن نفسها فأبت عليهما إلا أن يعلماها الكلام الذى إذا تكلم به أحد يعرج به إلى السماء فعلماها فتكلمت به فعرجت إلى السماء فمسخت كوكباً — وهذا الإسناد رجاله ثقات وهو غريب جداً — وقال ابن أبى حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا معاوية عن أبى خالد عن عمير بن سعيد عن على رضى الله عنه . قال هما ملكان من ملائكة السماء ، يعنى (وما أنزل على الملكين) ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره بسنده عن مغيث عن مولاه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن على مرفوعاً وهذا لا يثبت من هذا الوجه . ثم رواه من طريقين آخرين عن جابر عن أبى الطفيل عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لعن الله الزهرة فإنها هى التى فتنت الملكين هاروت وماروت » وهذا أيضا لا يصح وهو منكر جداً والله أعلم

وقال ابن جرير : حدثنى المثنى بن إبراهيم أخبرنا الحجاج بن منهال حدثنا حماد عن على بن زيد عن أبى عثمان النهدى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا جميعاً لما كثر بنو آدم وعصوا دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال ربنا لا تمهلهم فأوحى الله إلى الملائكة إنى أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم وأنزلت الشهوة والشيطان فى قلوبهم ولو نزلتم لفعلتم أيضا . قال فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم فاختاروا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض وأنزلت الزهرة إليهما فى صورة امرأة من أهل فارس يسمونها بيذخت ، قال فوقعا بالخطيئة فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقى أخبرنا عبد الله يعنى ابن عمرو عن زيد بن أبى أنيسة عن المنهال ابن عمرو ويونس بن خباب عن مجاهد . قال كنت نازلا على عبد الله بن عمر فى سفر ، فلما كان ذات ليلة قال لغلامه انظر هل طلعت الحمراء لا مرحباً بها ولا أهلا ولا حياها الله هى صاحبة الملكين ، قالت الملائكة يارب كيف تدع عصاة بنى آدم وهم يسفكون الدم الحرام وينتهكون محارمك ويفسدون فى الأرض قال إنى ابتليتهم فلعل إن ابليتكم بمثل الذى ابتليتهم به فعلتم كالذى يفعلون ، قالوا لا ، قال : فاختاروا من خياركم اثنين فاختاروا هاروت وماروت ، فقال لهما إنى مهبطكما إلى الأرض وعاهد إليكما أن لا تشركا ولا تزنيا ولا تخونا فأهبطا إلى الأرض وألقى عليهما الشهوة وأهبطت لهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة فتعرضت لهما فراوداها عن نفسها ، فقالت إنى على دين لا يصح لأحد أن يأتينى إلا من كان على مثله ، قالا ومادينك ، قالت المجوسية ، قالا الشرك هذا شىء لا نقربه فمكثت عنهما ماشاء الله تعالى . ثم تعرضت لهما فراوداها عن نفسها . فقالت ماشئتما غير أن لى زوجا وأنا أكره أن يطلع على هذا منى فأفتضح فإن أقررتما لى بدينى وشرطتما لى أن تصعدا بى إلى السماء فعلت فأقرا لها بدينها وأتياها فيما يريان ثم صعدا بها إلى السماء فلما انتهيا بها إلى السماء اختطفت منهما وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين نادمين يبكيان وفى الأرض نبى يدعو بين الجمعتين فإذا كان يوم الجمعة أجيب . فقالا : لو أتينا فلاناً فسألناه فطلب لنا التوبة فأتياه فقال رحمكما الله كيف يطلب التوبة أهل الأرض لأهل السماء قالا إنا قد ابتلينا ، قال ائتيانى يوم الجمعة فأتياه ، فقال ما أجبت فيكما بشىء ائتيانى فى الجمعة الثانية فأتياه ، فقال اختارا فقد خيرتما إن اخترتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله ، فقال أحدهما إن الدنيا لم يمض منها إلا القليل وقال الآخر ويحك إنى قد أطعتك فى الأمر الأول فأطعنى الآن إن عذابا يفنى ليس كعذاب يبقى . فقال إننا يوم القيامة على حكم الله فأخاف أن يعذبنا ، قال لا . إنى أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة أن لا يجمعهما علينا ، قال فاختارا عذاب الدنيا فجعلا فى بكرات من حديد فى قليب مملوءة من نار عاليهما سافلهما — وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر —

وقد تقدم فى رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح عن نافع عنه رفعه وهذا أثبت وأصح إسناداً ثم هو والله أعلم من رواية بن عمر عن كعب كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه . وقوله إن الزهرة نزلت فى صورة امرأة حسناء وكذا فى المروى عن على فيه غرابة جداً

وأقرب ماورد فى ذلك ماقال ابن أبى حاتم أخبرنا عصام بن رواد أخبرنا آدم أخبرنا أبو جعفرحدثناالربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما وقع الناس من بعد آدم عليه السلام فيما وقعوا فيه من المعاصى والكفر بالله قالت الملائكة فى السماء يارب هذا العالم الذى إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك قد وقعوا فيما وقعوا فيه وركبوا الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام والزنا والسرقة وشرب الخمر فجعلوا يدعون عليهم ولايعذرونهم فقيل إنهم فى غيب فلم يعذروهم ، فقيل لهم اختاروا من أفضلكم ملكين آمرهما وأنهاهما فاختاروا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض وجعل لهما شهوات بنى آدم وأمرهما الله أن يعبداه ولايشركا به شيئاً ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر فلبثا فى الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق وذلك فى زمن إدريس عليه السلام ، وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب وإنهما أتيا عليها فخضعا لها فى القول وأراداها على نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها فسألاها عن دينها فأخرجت لهما صنماً فقالت هذا أعبده فقالا لا حاجة لنا فى عبادة هذا فذهبا فعبرا ماشاء الله ، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ففعلت مثل ذلك فذهبا ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما اختارا أحد الخلال الثلاث إما أن تعبدا هذا الصنم وإما أن تقتلا هذه النفس وإما أن تشربا هذه الخمر ، فقالا كل هذا لاينبغى وأهون هذا شرب الخمر فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا المرأة فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا وحيل بينهما وبين ذلك وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء فنظرت الملائكة إلى ماوقعافيه فعجبوا كل العجب وعرفوا أنه من كان فى غيب فهو أقل خشية فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض فنزل فى ذلك (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض) فقيل لهما اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فقالا أماعذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب وأماعذاب الآخرة فلا انقطاع له ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا ببابل فهما يعذبان وقد رواه الحاكم فى مستدركه مطولا عن أبى زكريا العنبرى عن محمد بن عبدالسلام عن إسحق ابن راهويه عن حكام بن سلم الرازى وكان ثقة(١) عن أبى جعفر الرازى به : ثم قال صحيح الإسناد لم يخرجاه فهذا أقرب ماروى فى شأن الزهرة والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا مسلم أخبرنا القاسم بن الفضل الحذائى أخبرنا يزيد يعنى الفارسى عن ابن عباس أن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون بالمعاصى فقالوا : يارب أهل الأرض كانوا يعملون بالمعاصى، فقال الله أنتم معى وهم فى غيب عنى فقيل لهم اختاروا منكم ثلاثة فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض على أن يحكموا بين أهل الأرض وجعل فيهم شهوة الآدميين فأمروا أن لايشربوا خمراً ولا يقتلوا نفساً ولايزنوا ولا يسجدوا لوثن ، فاستقال منهم واحد فأقيل فأهبط اثنان إلى الأرض فأتتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها مناهية فهوياها جميعاً ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها فأراداها فقالت لهما لا حتى تشربا خمرى وتقتلا ابن جارى وتسجدا لوثنى فقالا لانسجد ثم شربا من الخمر ثم قتلا ثم سجدا فأشرف أهل السماء عليهما وقالت لهما أخبرانى بالكلمة التى إذا قلتماها طرتما فأخبراها فطارت فمسخت جمرة وهى هذه الزهرة وأماهما فأرسل إليهما سليمان بن داود فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فهما مناطان بين السماء والأرض وهذا السياق فيه زيادة كثيرة وإغراب ونكارة والله أعلم بالصواب .

وقال عبد الرزاق : قال معمر قال قتادة والزهرى عن عبيد الله بن عبد الله (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) كانا ملكين من الملائكة فأهبطا ليحكما بين الناس ، وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بنى آدم

(١) ولكنه كان يروى الغرائب كما فى التقريب وفى تهذيب التهذيب عن أحمد . كان يحدث عن عنبسة أحاديث غرائب اهـ .

فحاكمت اليهما امرأة فحافا لها ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك ثم خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا . وقال معمر : قال قتادة فكانا يعلمان الناس السحر فأخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر

وقال أسباط عن السدى أنه قال كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض فى أحكامهم فقيل لهما إنى أعطيت بنى آدم عشراً من الشهوات فبها يعصوننى ، قال هاروت وماروت : ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل ، فقال لهما انزلا فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر فاحكما بين الناس فنزلا ببابل دنباوند فكانا يحكمان حتى إذا أمسيا عرجا فاذا أصبحا هبطا فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها فأعجبهما حسنها واسمها بالعربية الزهرة وبالنبطية بيدخت وبالفارسية أناهيد : فقال أحدهما لصاحبه إنها لتعجبنى ، قال الآخر قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك . فقال الآخر ، هل لك أن أذكرها لنفسها ؟ قال نعم ، ولكن كيف لنا بعذاب الله ؟ قال الآخر إنا لنرجو رحمة الله فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها فقالت لا حتى تقضيا لى على زوجى فقضيا لها على زوجها ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتيانها فيها فأتياها لذلك فلما أراد الذى يواقعها قالت ما أنا بالذى أفعل حتى تخبرانى بأى كلام تصعدان إلى السماء وبأى كلام تنزلان منها فأخبراها فتكلمت فصعدت فأنساها الله تعالى ما تنزل به فثبتت مكانها وجعلها الله كوكبا ، فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال هذه التى فتنت هاروت وماروت ، فلما كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يطيقا فعرفا الهلكة فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فعلقا ببابل وجعلا يكلمان الناس كلامهما وهو السحر .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد أما شأن هاروت وماروت فإن الملائكة عجبت من ظلم بنى آدم وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات فقال لهم ربهم تعالى : اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان فى الأرض فاختاروا فلم يألوا هاروت وماروت ، فقال لهما حين أنزلهما أعجبتما من بنى آدم من ظلمهم ومعصيتهم وإنما تأتيهم الرسل والكتب من وراء وراء وإنكما ليس بينى وبينكما رسول فافعلا كذا وكذا ودعا كذا كذا ، فأمرهما بأمور ونهاهما ، ثم نزلا على ذلك ليس أحد أطوع لله منهما فحكما فعدلا فكانا يحكمان فى النهار بين بنى آدم فاذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان حتى أنزلت عليهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة تخاصم فقضيا عليها فلما قامت وجد كل واحد منهما فى نفسه ، فقال أحدهما لصاحبه وجدت : مثل الذى وجدت ؟ قال نعم ، فبعثا إليها أن ائتيانا نقض لك ، فلما رجعت قالا وقضيا لها فأتتهما فكشفا لها عن عورتيهما وإنما كانت سوآتهما فى أنفسهما ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء ولذاتها ، فلما بلغا ذلك واستحلا افتتنا فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت ، فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما ولم تحملهما أجنحتهما فاستغاثا برجل من بنى آدم فأتياه فقالا ادع لنا ربك فقال كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء قالا سمعنا ربك يذكرك بخير فى السماء، فوعدهما يوماً وعدا يدعو لهما فدعا لهما فاستجيب له فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال ألا تعلم أن أفواج عذاب الله فى الآخرة كذا وكذا فى الخلد وفى الدنيا تسع مرات مثلها ؟ فأمرا أن ينزلا ببابل فثم عذابهما ، وزعم أنهما معلقان فى الحديد مطويان يصفقان بأجنحتهما

وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال

وقد ورد فى ذلك أثر غريب وسياق عجيب فى ذلك أحببنا أن ننبه عليه قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى : أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا ابن وهب أخبرنا ابن أبى الزناد حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة

زوج النبي ﷺ أنها قالت : قدمت على امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حداثة ذلك تسأله عن أشياء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به وقالت عائشة رضى الله عنها لعروة : يا ابن أختى فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشفيها فكانت تبكى حتى إنى لأرحمها وتقول : إنى أخاف أن أكون قد هلكت : كان لى زوج فغاب عنى فدخلت علىّ عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك ، فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر فلم يكن شيء حتى وقفنا ببابل وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا : ماجاء بك ؟ قلت نتعلم السحر فقالا إنما نحن فتنة فلا تكفرى فارجعى فأبيت وقلت . لا قالا . فاذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه فذهبت ففزعت ولم أفعل فرجعت إليهما فقالا : أفعلت ، فقلت . نعم فقالا . هل رأيت شيئاً ؟ فقلت لم أر شيئا فقالا لم تفعلى ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى فأربيت وأبيت فقالا اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه فذهبت فاقشعررت وخفت ثم رجعت إليهما وقلت . قد فعلت فقالا . فما رأيت ؟ قلت لم أر شيئا فقالا . كذبت لم تفعلى ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى فإنك على رأس أمرك فأربيت وأبيت فقالا . اذهبى إلى التنور فبولى فيه فذهبت إليه فبلت فيه فرأيت فارساً مقنعا بحديد خرج منى فذهب فى السماء وغاب حتى ما أراه فجئتهما فقلت قد فعلت فقالا فما رأيت قلت رأيت فارساً مقنعاً خرج منى فذهب فى السماء وغاب حتى ما أراه فقالا صدقت ذلك إيمانك خرج منك اذهبى فقلت للمرأة والله ما أعلم شيئا وما قالا لى شيئاً فقالت بلى لم تريدى شيئاً إلا كان خذى هذا القمح فابذرى فبذرت وقلت . اطلعى فأطلعت وقلت احقلى فأحقلت ثم قلت افركى فأفركت ثم قلت أيبسى فأيبست ثم قلت اطحنى فأطحنت ثم قلت اخبزى فأخبزت . فلما رأيت أنى لا أريد شيئاً إلا كان سقط فى يدى وندمت والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً ولا أفعله أبداً ، ورواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن سليمان به مطولا كما تقدم وزاد بعد قولها ولا أفعله أبداً فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حداثة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يومئذ متوافرون فما دروا ما يقولون لها وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه إلا أنه قد قال لها ابن عباس أو بعض من كان عنده لوكان أبواك حيين أو أحدهما . قال هشام فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان . قال ابن أبى الزناد . وكان هشام يقول . إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله ثم يقول هشام . لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم فهذا إسناد جيد إلى عائشة رضى الله عنها

وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن فى قلب الأعيان لأن هذه المرأة بذرت واستغلت فى الحال . وقال آخرون : بل ليس له قدرة إلا على التخييل كما قال تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم) وقال تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) استدل به على أن بابل المذكورة فى القرآن هى بابل العراق لا بابل دنباوند كما قاله السدى وغيره ، ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال ابن أبى حاتم أخبرنا على ابن الحسين أخبرنا أحمد بن صالح حدثنى ابن وهب حدثنى ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه مر ببابل وهو يسير فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فاقام الصلاة فلما فرغ قال . إن حبيبى صلى الله عليه وسلم نهانى أن أصلى بأرض المقبرة ونهانى أن أصلى ببابل فإنها ملعونة ، وقال أبو داود أخبرنا سليمان بن داود أخبرنا بن وهب ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى أن عليا مر ببابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال إن حبيبى صلى الله عليه وسلم نهانى أن أصلى فى القبرة ونهانى أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرنى يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن حجاج بن شداد عن أبى صالح الغفارى عن على بمعنى حديث سليمان بن داود قال : فلما خرج منها برز ، وهذا الحديث حسن عند الإمام أبى داود لأنه رواه وسكت عليه ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل كما تكره بديار ثمود الذى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين . قال أصحاب الهيئة : وبعد مابين بابل

وهى من إقليم العراق عن البحر المحيط الغربى ويقال له أوقيانوس سبعون درجة ويسمون هـذا طولا ، وأما عرضهما وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب وهو السامت لخط الاستواء اثنان وثلاثون درجة والله أعلم

وقوله تعالى (ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلاتـكفر) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس قال : فإذا أتاهما الآتى يريد السحر نهياه أشد النهى وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تـكفر وذلك أنهما علما الخير والشر والـكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الـكفر قال فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتى مكان كذا وكذا فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه فإذا تعلمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعاً فى السماء فيقول : ياحسرتاه يا ويله ماذا صنع . وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هـذه الآية : نعم أنزل الملـكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله أن يبتلى به النـاس فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تـكفر رواه ابن أبى حاتم وقال قتادة : كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا إنمـا نحن فتنة أى بلاء ابتلينا به فلا تـكفر . وقال السدى إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له : لا تـكفر إنمـا نحن فتنة فإذا أبى قالا له . ائت هذا الرماد فبل عليـه فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان وأقبل شىء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل فى مسامعه وكل شىء وذلك غضب الله فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر فذلك قول الله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنمـا نحن فتنة فلا تـكفر) الآية . وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج فى هذه الآية لا يجترىء على السحر إلا كافر ، وأما الفتنة فهى المحنة والاختبار ومنه قول الشاعر

وقد فتن الناس فى دينهم * وخلى ابن عفان شرا طويلا

وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام حيث قال (إن هى إلا فتنتك) أى ابتلاؤك واختبارك وامتحانك (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تـكفير من تعلم السحر واستشهد له بالحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن همام عن عبد الله قال : « من أتى كاهناً أوساحراً فصدقه بمـا يقول فقد كفر بمـا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » وهذا إسناد صحيح وله شواهد أخر ، وقوله تعالى (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر مايتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرقون به بين الزوجـين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف ، وهذا من صنيع الشياطين كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش عن أبى سفيان عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبـد الله رضى الله عنه عن النبى صـلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان ليضع عرشه على المـاء ثم يبعث سراياه فى الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجىء أحدهم فيقول . مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا فيقول إبليس : لا والله ماصنعت شيئاً ! ويجىء أحـدهم فيقول : ماتركته حتى فرقت بينـه وبين أهله قال : فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت » وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر مايخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ويثنى كل منهما ولا يجمعان والله أعلم

وقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) قال سفيان الثورى إلا بقضاء الله وقال محمد بن إسحاق إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد ، وقال الحسن البصرى (وماهم بضارين به من أحد الا بإذن الله) قال نعم من شاء الله سلطهم عليه ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله كما قال الله تعالى وفى رواية عن الحسن أنه قال لايضر هذا السحر إلا من دخل فيه ، وقوله تعالى (ويتعلمون ما يضرهم ولاينفعهم) أى يضرهم فى دينهم وليس له نفع يوازى ضرره (ولقد علموا لمن اشتره ماله فى الآخرة من خلاق) أى ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك أنه ماله فى الآخرة من خلاق ، قال ابن عباس ومجاهد والسدى من نصيب ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ماله فى الآخرة من جهة عند الله ، وقال عبد الرزاق وقال الحسن ليس له دين ، وقال

سعد عن قتادة (ماله فى الآخرة من خلاق) قال ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له فى الآخرة وقوله تعالى (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) يقول تعالى (ولبئس) البديل ما استبدلوا به من السحر عوضا عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير) أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به كما قال تعالى (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون)

وقد استدل بقوله (ولو أنهم آمنوا واتقوا) من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف وقيل بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه لما رواه الشافعى وأحمد بن حنبل قالا أخبرنا سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع بجالة بن عبدة يقول كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال فقتلنا ثلاث سواحر وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضاً وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت قال الإمام أحمد بن حنبل صح عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ فى قتل الساحر وروى الترمذى من حديث إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب الأزدى أنه قال: قال رسول الله ﷺ «حد الساحر ضربه بالسيف» ثم قال لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه ، وإسماعيل بن مسلم يضعف فى الحديث والصحيح عن الحسن عن جندب موقوفا قلت قد رواه الطبرانى من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً والله أعلم . وقد روى من طرق متعددة أن الوليد ابن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه فقال الناس سبحان الله يحيى الموتى ورآه رجل من صالحى المهاجرين فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال إن كان صادقا فليحى نفسه وتلا قوله تعالى (أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) فغضب الوليد إذ لم يستأذنه فى ذلك فسجنه ثم أطلقه والله أعلم ، وقال الإمام أبو بكر الخلال : أخبرنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل حدثنى ابى أخبرنا يحيى بن سعيد حدثنى أبو إسحق عن حارثة قال كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملا على سيفه فقتله قال أراه كان ساحراً وحمل الشافعى رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركا والله أعلم

﴿ فصل ﴾ حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفروا من اعتقد وجوده ، قال وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير فى الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً إلا أنهم قالوا إن الله يخلق الأشياء عند ما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة فأما أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجوم ، فلا، خلافا للفلاسفة والمنجمين والصابئة ، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى بقوله تعالى (وماهم بضارين به من أحد إلا باذن الله) ومن الاخبار بأن رسول الله ﷺ سحر وأن السحر عمل فيه وبقصة تلك المرأة مع عائشة رضى الله عنها وماذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر قال وبما يذكر فى هذا الباب من الحكايات الكثيرة ، ثم قال بعد هذا

﴿ المسئلة الخامسة ﴾ فى أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور ـ اتفق المحققون على ذلك لأن العلم لذاته شريف وأيضاً لعموم قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة والعلم بكون المعجز معجزاً واجب وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبا وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً ؟ هذا لفظه بحروفه فى هذه المسئلة وهذا الكلام فيه نظر من وجوه أحدها قوله العلم بالسحر ليس بقبيح إن عنى به ليس بقبيح عقلا فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعا ، ففى هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر وفى الصحيح « من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد » وفى السنن « من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر » ، وقوله ولا محظور اتفق المحققون

على ذلك . كيف لا يكون محظورا مع ما ذكرناه من الآية والحديث واتفاق المحققين يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم وأين نصوصهم على ذلك ؟ ثم إدخاله علم السحر فى عموم قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) فيه نظر لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعى ولم قلت إن هذا منه ثم ترقيه إلى وجوب تعلمه بأنه لايحصل العلم بالمعجز إلا به ضعيف بل فاسد لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هى القرآن العظيم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلا ، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه والله أعلم .

ثم قد ذكر أبوعبدالله الرازى أن أنواع السحر ثمانية (الأول) سحر الكذابين والكشدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهى السيارة وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم وأنها تأتى بالخير والشر وهم الذين بعث الله اليهم ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم مبطلا لمقالتهم ورادا لمذهبهم ، وقد استقصى فى (كتاب السر المكتوم ، فى مخاطبة الشمس والنجوم) المنسوب اليه كما ذكرها القاضى ابن خلكان وغيره ويقال إنه تاب منه ، وقيل بل صنفه على وجه اظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد ، وهذا هو المظنون به إلا أنه ذكر فيه طريقهم فى مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة وكيفية مايفعلون ومايلبسونه وما يتنسكون به

قال (والنوع الثانى) سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الانسان يمكنه ان يمشى على الجسر الموضوع على وجه الأرض ولا يمكنه المشى عليه إذا كان ممدودا على نهر أو نحوه ، قال وكما أجمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر الى الأشياء الحمر والمصروع الى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . قال : وقد اتفق العقلاء على ان الاصابة بالعين حق — وله أن يستدل على ذلك بما ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » — قال فاذا عرفت هذا فنقول النفس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدا فتستغنى فى هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج الى الاستعانة بهذه الآلات ، وتحقيقه ان النفس إذا كانت متعلية على البدن شديدة الانجذاب الى عالم السماوات صارت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم ، واذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تأثير البتة إلا فى هذا البدن ، ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء ، والانقطاع عن الناس والرياء (قلت) وهذا الذى يشير إليه هو التصرف بالحال : وهو على قسمين تارة تكون حالا صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ ، ويترك مانهى الله تعالى عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة ولا يسمى هذا سحرا فى الشرع . وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ولا يتصرف بها فى ذلك ، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم كما أن الدجال له من الخوارق للعادات مادلت عليه الأحاديث الكثيرة مع أنه مذموم شرعا لعنه الله ، وكذلك من شابهه من مخالفى الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبسط هذا يطول جدا وليس هذا موضعه :

قال (والنوع الثالث) من السحر الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن خلافا للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين : مؤمنون ، وكفار وهم الشياطين . قال واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية لما بينهما من المناسبة والقرب ، ثم إن أصحاب الصنعه وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد ، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير .

(النوع الرابع) من السحر التخيلات والأخذ بالعيون والشعبذة ومبناه على ان البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء

المعين دون غيره ، ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم اليه حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه عمل شيئا آخر عملا بسرعة شديدة وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدا ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد مايريد أن يعمله ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير مايريد إخراجه لفطن الناظرون لكل مايفعله (قال) وكلما كانت الأحوال تفيد حسن البصر نوعا من أنواع الخلل أشد كان العمل أحسن مثل أن يجلس الشعبذ فى موضع مضيء جدا أو مظلم فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه .

(قلت) وقد قال بعض المفسرين : إن سحر السحرة بين يدى فرعون إنما كان من باب الشعبذة ولهذا قال تعالى (فلما القوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم) وقال تعالى (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) قالوا : ولم تكن تسعى فى نفس الأمر والله أعلم .

(النوع الخامس من السحر) الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية كفارس على فرس فى يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد . ـ ومنها الصور التى تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الانسان حتى يصورونها ضاحكة وباكية إلى أن قال : فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل (قلت) يعنى ماقاله بعض المفسرين : إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى فحشوها زئبقا فصارت تتلوى بسبب مافيها من ذلك الزئبق فيخيل إلى الرائى انها تسعى باختيارها قال الرازى : ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ، ويندرج فى هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة قال : وهذا فى الحقيقة لاينبغى أن يعد من باب السحر لأن لها أسبابا معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها (قلت) ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم بما يرونهم إياه من الأنوار كقضية قمامة الكنيسة التى لهم ببلد القدس وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة واشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم . وأما الخواص فهم معترفون بذلك ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغا لهم . وفيهم شبهة على الجهلة الأغبياء من متعبدى الكرامية الذين يرون جواز وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب فيدخلون فى عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم « من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقوله « حدثوا عنى ولا تكذبوا علىّ فانه من يكذب علىّ يلج النار » ثم ذكرههنا حكاية عن بعض الرهبان وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة فاذا سمعته الطيور ترق له فتذهب فتلقى فى وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله وتوصل إلى ان جعله أجوف فاذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر وانقطع فى صومعة ابتناها وزعم انها على قبر بعض صالحيهم وعلق ذلك الطائر فى مكان منها فاذا كان زمان الزيتون فتح بابا من ناحيته فيدخل الريح إلى داخل هذه الصورة فيسمع صوتها كل طائر فى شكله أيضا فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئا كثيرا فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة ولا يدرون ماسببه ، ففتنهم بذلك وأوهم ان هذا من كرامات صاحب هذا القبر عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

(قال الرازى : النوع السادس من السحر) الاستعانة بخواص الأدوية يعنى فى الأطعمة والدهانات قال : واعلم أنه لاسبيل الى إنكار الخواص فان تأثير المغناطيس مشاهد (قلت) يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص مدعيا انها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات الى غير ذلك من المحالات .

قال (النوع السابع من السحر) التعليق للقلب وهو ان يدعى الساحر انه عرف الاسم الأعظم وان الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور فإذا اتفق ان يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التميز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل فى نفسه نوع من الرعب والمخافة فاذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل مايشاء (قلت) هذا النمط يقال له التنبلة وإنما يروج على الضعفاء العقول من بنى آدم . وفى علم الفراسة ما يرشد الى

معرفة كامل العقل من ناقصه ، فاذا كان النبيل حاذقا فى علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره

قال (النوع الثامن من السحر) السعى بالنميمة والتقريب(١) من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع فى الناس (قلت) النميمة على قسمين تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه ، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء فى الحديث « ليس بالكذاب من ينم خيرا » أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب كما جاء فى الحديث « الحرب خدعة » وكما فعل نعيم بن مسعود فى تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة : جاء الى هؤلاء فنمى اليهم عن هؤلاء كلاما ، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئا آخر ، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت ، وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة والله المستعان .

ثم قال الرازى فهذه جملة الكلام فى أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه (قلت) وإنما أدخل كثيرا من هذه الأنواع المذكورة فى فن السحر للطافة مداركها لأن السحر فى اللغة عبارة عما لطف وخفى سببه ولهذا جاء فى الحديث « إن من البيان لسحرا » وسمى السحور لكونه يقع خفيا آخر الليل ، والسحر الرئة وهى محل الغذاء وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها الى أجزاء البدن وغضونه كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة . انتفخ سحره أى انتفخت رئته من الخوف . وقالت عائشة رضى الله عنها : توفى رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى ، وقال تعالى (سحروا أعين الناس) أى أخفوا عنهم عملهم والله أعلم .

وقال أبو عبد الله القرطبي : وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافا للمعتزلة وأبى إسحق الاسفرايني من الشافعية حيث قالوا . انه تمويه وتخييل قال ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذى البريد لخفة سيره قال ابن فارس : وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية قال القرطبي : ومنه ما يكون كلاما يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك قال : وقوله عليه السلام « إن من البيان لسحرا » يحتمل أن يكون مدحا كما تقوله طائفة ، ويحتمل أن يكون ذما للبلاغة قال : وهذا أصح قال لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق كما قال عليه الصلاة والسلام « فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له » الحديث .

﴿ فصل ﴾ وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيي بن محمد بن هبيرة رحمه الله فى كتابه (الاشراف على مذاهب الاشراف) بابا فى السحر فقال أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فانه قال . لاحقيقة له عنده واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يكفر بذلك ومن أصحاب أبى حنيفة من قال إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ومن تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له مايشاء فهو كافر . وقال الشافعى رحمه الله إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك فان وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب الى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وان كان لا يوجب الكفر فان اعتقد اباحته فهو كافر ، قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد نعم ، وقال الشافعى وأبو حنيفة لا ؛ فأما إن قتل بسحره إنسانا فانه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد . وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك فى حق شخص معين ، واذا قتل فانه يقتل حدا عندهم إلا الشافعى فانه قال يقتل والحالة هذه قصاصا قال وهل اذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى تقبل وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم وقال مالك وأحمد والشافعى : لا يقتل يعنى لقصة لبيد بن الأعصم واختلفوا فى المسلمة الساحرة فعند أبى حنيفة انها لا تقتل ولكن تحبس ، وقال الثلاثة حكمها حكم الرجل والله أعلم . وقال أبو بكر الخلال . أخبرنا أبو بكر المروزى قال قرأ على أبى عبد الله — يعنى أحمد بن حنبل — عمر بن هرون أخبرنا يونس عن الزهرى : قال يقتل ساحر

(١) فى تفسير الرازى والتضريب بالضاد .

المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها . وقد نقل القرطبي عن مالك رحمه الله أنه قال في الذمي يقتل إن قتل سحره وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي اذا سحر : إحداهما أنه يستتاب فان أسلم والا قتل ، والثانية أنه يقتل وان أسلم ، وأما الساحر المسلم فان تضمن سحره كفرا كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) لكن قال مالك إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق فان تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائبا قبلناه ، فان قتل سحره قتل قال الشافعي : فان قال لم أتعمد القتل فهو مخطئ تجب عليه الدية .

﴿ مسئلة ﴾ وهل يسئل الساحر حلا لسحره فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري ، وقال عامر الشعبي : لابأس بالنشرة وكره ذلك الحسن البصري ، وفي الصحيح عن عائشة انها قالت يارسول الله هلا تنشرت ، فقال « أما الله فقد شفاني وخشيت أن أفتح على الناس شرا » وحكى القرطبي عن وهب : أنه قال يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فانه يذهب مابه ، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته (قلت) أنفع مايستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في إذهاب ذلك وهما المعوذتان ، وفي الحديث « لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما » وكذلك قراءة آية الكرسي فانها مطردة للشيطان :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام مافيه تورية لما يقصدونه من التنقيص عليهم لعائن الله فاذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولوا راعنا ويورون بالرعونة كما قال تعالى (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا اذا سلموا إنما يقولون السام عليكم ، والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بوعليكم ، وانما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا ، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا ، فقال (يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) وقال الإمام أحمد : أخبرنا أبوالنضر أخبرنا عبد الرحمن أخبرنا ثابت أخبرنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري . ومن تشبه بقوم فهو منهم » . وروى أبوداود عن عثمان بن أبي شيبة عن أبي النضر هاشم أخبرنا ابن القاسم به « من تشبه بقوم فهو منهم » ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها . وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا نعيم بن حماد أخبرنا عبد الله ابن المبارك أخبرنا مسعر عن ابن معن وعون أو أحدهما أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال اعهد إلي ، فقال اذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك فانه خير يأمر به أو شر ينهى عنه وقال الأعمش عن خيثمة قال ماتقرءون في القرآن (يا أيها الذين آمنوا) فانه في التوراة يا أيها المساكين . وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أوعكرمة عن ابن عباس (راعنا) أي أرعنا سمعك . وقال الضحاك : عن ابن عباس (يا أيها

الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) قال كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أرعنا سمعك وإنما راعنا كقولك عاطنا. وقال ابن أبي حاتم وروى عن أبي العالية وأبي مالك والربيع بن أنس وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك، وقال مجاهد (لاتقولوا راعنا) لاتقولوا خلافا، وفي رواية لاتقولوا اسمع منا ونسمع منك. وقال عطاء لاتقولوا (راعنا) كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها. وقال الحسن: (لا تقولوا راعنا) قال الراعن من القول السخرى منه نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم، وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روى عن ابن جريج أنه قال مثله وقال أبو صخر (لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول أرعنا سمعك فأعظم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقال ذلك له. وقال السدى: كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي ﷺ فاذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مسمع، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع غير صاغر، وهي كالتي في سورة النساء فتقدم الله إلى المؤمنين أن لايقولوا راعنا وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا. قال ابن جرير والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا. لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم نظير الذى ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لاتقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ولاتقولوا عبدي ولكن قولوا فتاي» وما أشبه ذلك. وقوله تعالى (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذى شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (مانتسخ من آية) مانبدل من آية. وقال ابن جريج عن مجاهد (ماننسخ من آية) اى مانمحو من آية، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (ماننسخ من آية) قال نثبت خطها ونبدل حكمها حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم. وقال ابن أبي حاتم. وروى عن أبي العالية ومحمد بن كعب القرظي نحو ذلك. وقال الضحاك (ماننسخ من آية) ماننسك وقال عطاء أما (ماننسخ) فما نترك من القرآن. وقال ابن أبي حاتم يعني ترك فلم ينزل على محمد ﷺ. وقال السدى (ماننسخ من آية) نسخها قبضها. وقال ابن أبي حاتم: يعني قبضها رفعها مثل قوله «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» وقوله «لوكان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا» وقال ابن جرير (ماننسخ من آية) ماننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره وذلك أن نحول الحلال حراما والحرام حلالا والمباح محظورا والمحظور مباحا ولايكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والاطلاق والمنع والاباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولامنسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها وسواء نسخ حكمها أو خطها إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة. وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ والأمر في ذلك قريب، لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء ولحظ بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر. فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل وعكسه والنسخ لا إلى بدله[1] وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة في أصول الفقه. وقال الطبراني. أخبرنا أبو سنبل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد أخبرنا أبي أخبرنا العباس بن الفضل عن سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان

(١) الأظهر أن يقال: لا إلى بدل.

يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ ، فذكرا ذلك له فقال رسول الله ﷺ ، إنها مما نسخ وأنسى فالهوا عنها فكان الزهرى يقرؤها .(ما ننسخ من آية أوننسها) بضم النون الخفيفة سليمان بن الأرقم ضعيف . وقد روى أبو بكر بن الأنبارى عن أبيه عن نصر بن داود عن أبي عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعا ذكره القرطبي وقوله تعالى (أوننسها) فقرىء على وجهين ننسأها وننسها ، فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها . قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس (ماننسخ من آية أوننسأها) يقول مانبدل من آية أو نتركها لا نبدلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود أو ننسأها نثبت خطها ونبدل حكمها .وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء أوننسأها نؤخرها ونرجئها . وقال عطية العوفى : أوننسأها : نؤخرها فلا ننسخها . وقال السدى مثله أيضا وكذا الربيع بن أنس، وقال الضحاك (ماننسخ من آية أوننسأها) يعنى الناسخ من المنسوخ . وقال أبو العالية (ما ننسخ من آيه أوننسأها) نؤخرها عندنا ، وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا عبيد الله بن إسمعيل البغدادى أخبرنا خلف أخبرنا الخفاف عن إسمعيل يعنى ابن أسلم عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطبنا عمر رضى الله عنه فقال يقول الله عز وجل (ماننسخ من آية أو ننسأها) أى نؤخرها ، وأما على قراءة (أوننسها) فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله (ما ننسخ من آية أوننسها) قال كان الله عز وجل ينسى نبيه صلى الله عليه وسلم مايشاء وينسخ ما يشاء

وقال ابن جرير . أخبرنا سواد بن عبد الله أخبرنا خالد بن الحارث أخبرنا عوف عن الحسن أنه قال فى قوله (أو ننسها) قال : إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قرأ قرآنا ثم نسيه ، وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبى أخبرنا ابن نفيل أخبرنا محمد بن الزبير الحرانى عن الحجاج يعنى الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس قال :كان مما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحى بالليل وينساه بالنهار فأنزل الله عز وجل (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) قال ابن أبي حاتم : قال لى أبو جعفر بن نفيل ليس هو الحجاج بن أرطاة هو شيخ لنا جزرى وقال عبيد بن عمير (أو ننسها) نرفعها من عندكم وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن إبراهيم أخبرنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن القاسم بن ربيعة قال سمعت سعد ابن أبي وقاص يقرأ (ماننسخ من آية أو ننسها) قال : قلت له فان سعيد بن المسيب يقرأ (أو ننساها[1]) قال :فقال سعد إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال : قال الله جل ثناؤه (سنقرئك فلا تنسى) (واذكر ربك إذا نسيت) وكذا رواه عبد الرزاق عن هشيم وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث أبي حاتم الرازى عن آدم عن شعبة عن يعلى بن عطاء به وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه . قال ابن أبي حاتم وروى عن محمد بن كعب وقتاده وعكرمة نحو قول سعيد . وقال الإمام أحمد أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان الثورى عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال عمر على أقضانا وأبى أقرؤنا وإنا لندع من قول أبى وذلك أن أبيا يقول : ما أدع شيئا سمعته من رسول الله ﷺ والله يقول (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) قال البخارى أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال عمر : أقرؤنا أبى وأقضانا على وإنا لندع من قول أبى وذلك أن أبيا يقول : لاأدع شيئا سمعته من رسول الله ﷺ وقد قال الله (ما ننسخ من آية أو ننسها) وقوله (نأت بخير منها أو مثلها) أى فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين كما قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس (نأت بخير منها) يقول خير لكم فى المنفعة وأرفق بكم . وقال أبو العالية (ما ننسخ من آية) فلا نعمل بها (او ننسأها) أى نرجئها عندنا نأت بها أو نظيرها . وقال السدى (نأت بخير منها أو مثلها) يقول نأت بخير من الذى نسخناه أو مثل الذى تركناه . وقال قتادة (نأت بخير منها أومثلها) يقول آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهى وقوله (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر وهو المتصرف فكما خلقهم كما يشاء ويسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويصح من يشاء ويمرض من يشاء ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء كذلك

(١) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا وفى ابن جرير قال سمعت سعد بن أبي وقاص يقول ما ننسخ من آية أو تنساها قلت له : فان سعيد بن المسيب يقرؤها أو ننسها إلخ

يحكم فى عباده بما يشاء فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء وهو الذى يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا ، وترك ما عنه زجروا وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله فى دعوى استحالة النسخ إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفراً وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : فتأويل الآية ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء وأنهى عما أشاء وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء إذ أشاء وأقر فيهما ما أشاء ثم قال وهذا الخبر وإن كان خطابا من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته فانه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه وأن له أمرهم بما يشاء ونهيهم عما يشاء ونسخ ما يشاء وإقرار ما يشاء وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه (قلت) الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد فانه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحا لاسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها وأمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل ، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه ، وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية فلا يصرف الدلالة فى المعنى إذ هو المقصود وكما فى كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه ، فانه يفيد وجوب متابعته عليه الصلاة والسلام وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته ، وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغياة الى بعثته عليه السلام فلا يسمى ذلك نسخا لقوله (ثم أتموا الصيام إلى الليل) وقيل إنها مطلقة وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها ، فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى ، ففى هذا المقام بين تعالى جواز النسخ رداً على اليهود عليهم لعنة الله حيث قال تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ؟ * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) الآية فكما أن له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء (ألا له الخلق والأمر) وقرىء(1) فى سورة آل عمران التى نزل فى صدرها خطابا مع أهل الكتاب وقوع النسخ فى قوله تعالى (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه) الآية كما سيأتى تفسيره والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه . وقال أبو مسلم الأصبهانى المفسر : لم يقع شىء من ذلك فى القرآن وقوله ضعيف مردود مرذول . وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول لم يجب عن ذلك بكلام مقبول ، وقضية تحويل القبلة الى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشىء ، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين ، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك والله أعلم .

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

(1) كذا فى الأصل ولعله : وقرر .

نهى الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبى ﷺ عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ولا تسألوا عن الشىء قبل كونه فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة : ولهذا جاء فى الصحيح « إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسئلته » ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فان تكلم تكلم بأمر عظيم وإن سكت سكت على مثل ذلك فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ، ثم أنزل الله حكم الملاعنة . ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث المغيرة ابن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال . وفى صحيح مسلم « ذرونى ماتركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل أ كل عام يارسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثا . ثم قال عليه السلام « لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم » ثم قال « ذرونى ما تركتكم » الحديث ولهذا قال أنس بن مالك : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء فكان يعجبنا أن يأتى الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع . وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده أخبرنا أبو كريب أخبرنا إسحق بن سليمان عن أبى سنان عن أبى إسحق عن البراء ابن عازب قال : إن كان ليأتى علىّ السنة أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشىء فأتهيب منه وان كنا لنتمنى الأعراب . وقال البزار : أخبرنا محمد بن المثنى . أخبرنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مارأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ ما سألوه الا عن اثنتى عشرة مسألة كلها فى القرآن (يسألونك عن الخمر والميسر — و — يسألونك عن الشهر الحرام — ويسألونك عن اليتامى) يعنى هذا وأشباهه

وقوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أى بل تريدون أو هى على بابها فى الاستفهام وهو إنكارى وهو يعمّ المؤمنين والكافرين فانه عليه السلام رسول الله الى الجميع كما قال تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد يامحمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك . فأنزل الله من قولهم (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل)

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) قال : قال رجل يارسول الله لو كانت كفارتنا ككفارات بنى إسرائيل فقال النبى ﷺ « اللهم لانبغيها — ثلاثا — ما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها فان كفرها كانت له خزيا فى الدنيا وان لم يكفرها كانت له خزيا فى الآخرة ، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل » قال (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) وقال « الصلوات الخمس من الجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن » وقال « من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وان عملها كتبت سيئة واحدة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وان عملها كتبت له عشر أمثالها ولا يهلك على الله إلا هالك » فأنزل الله (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) وقال مجاهد (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) ان يريهم الله جهرة قال : سألت قريش محمداً ﷺ ان يجعل لهم الصفا ذهبا قال « نعم وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل » فأبوا ورجعوا . وعن السدى وقتادة نحو هذا والله أعلم والمراد ان الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شىء على وجه التعنت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتا وتكذيباً وعنادا . قال الله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) أى ومن يشتر الكفر بالإيمان (فقد ضل سواء السبيل)

أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال. وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار) وقال أبو العالية يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه كما قال محمد بن إسحق، حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال: كان حي بن أخطب وأبو ياسر ابن أخطب من أشد يهود للعرب حسدا إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا فأنزل الله فيهما (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم) الآية. وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري في قوله تعالى (ود كثير من أهل الكتاب) قال هو كعب بن الأشرف، وقال ابن أبي حاتم. أخبرنا أبي أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرا وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم وفيه أنزل الله (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم) إلى قوله (فاعفوا واصفحوا) وقال الضحاك عن ابن عباس أن رسولا أميا يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ولكنهم جحدوا ذلك كفرا وحسدا وبغيا وكذلك قال الله تعالى (كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) يقول من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئا ولكن الحسد حملهم على الجحود فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة وشرع لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والاقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم. وقال الربيع بن أنس (من عند أنفسهم) من قبل أنفسهم وقال أبو العالية (من بعد ما تبين لهم الحق) من بعد ما تبين أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسدا وبغيا إذ كان من غيرهم وكذا قال قتادة والربيع بن أنس وقوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) مثل قوله تعالى (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) الآية. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) والسدي[1] وقوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) نسخ ذلك قوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) إلى قوله (وهم صاغرون) فنسخ هذا عفوه عن المشركين وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي إنها منسوخة بآية السيف ويرشد إلى ذلك أيضا قوله تعالى (حتى يأتي الله بأمره) وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني عروة ابن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى. قال الله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش وهذا إسناده صحيح ولم أره في شيء من الكتب الستة ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد.

(١) قوله والسدي وقوله الخ لعله زيادة من الناسخ فإنه ذكر بعد أن السدي قال بنسخ آية العفو بآيات السيف.

وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن لهم الله النصر فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) ولهذا قال تعالى (إن الله بما تعملون بصير) يعنى أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه سواء كان خيراً أو شرا فانه سيجازى كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى (إن الله بما تعملون بصير) هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير أو شر سرا وعلانية فهو به بصير لا يخفى عليه منه شىء فيجزيهم بالإحسان خيرا وبالاساءة مثلها وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر فان فيه وعدا ووعيدا وأمرا وزجرا وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدّوا فى طاعته إذ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه كما قال تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) وليحذروا معصيته قال وأما قوله (بصير) فانه مبصر صرف إلى بصير كما صرف مبدع إلى بديع ومؤلم إلى أليم والله أعلم. وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا أبو زرعة أخبرنا ابن بكير حدثنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة بن عامر قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية سميع بصير يقول بكل شىء بصير.

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة أنهم قالوا (نحن أبناء الله وأحباؤه) فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ورد عليهم تعالى فى ذلك وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال (تلك أمانيهم) وقال أبو العالية أمانىّ تمنوها على الله بغير حق وكذا قال قتادة والربيع بن أنس ثم قال تعالى (قل) أى يا محمد (هاتوا برهانكم) قال أبو العالية ومجاهد والسدى والربيع بن أنس حجتكم وقال قتادة بينتكم على ذلك (إن كنتم صادقين) أى فيما تدعونه ، ثم قال تعالى (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى (فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) الآية وقال أبو العالية والربيع (بلى من أسلم وجهه لله) يقول من أخلص لله وقال سعيد بن جبير (بلى من أسلم) أخلص (وجهه) قال دينه (وهو محسن) أى اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فان للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فانه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث اليهم وإلى الناس كافة وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) وقال تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية) وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه تأولها

فى الرهبان كما سيأتى ، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة فى الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله وهـذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا) وقال تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) ولهذا قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وقال فى هذه الآية الكريمة (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) وقوله (فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وآمنهم مما يخافونه من المحذور فـ(لا خوف عليهم) فيما يستقبلونه ، (ولاهم يحزنون) على مامضى ممايتركونه ، كما قال سعيد بن جبير فـ(لا خوف عليهم) يعنى فى الآخرة (ولاهم يحزنون) يعنى لا يحزنون للموت .

وقوله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب) بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم ، كما قال محمد بن إسحق : حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شىء وكفر بعيسى وبالإنجيل وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شىء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة . فأنزل الله فى ذلك من قولهما (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب) قال إن كلا يتلو فى كتابه تصديق من كفر به أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفى الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما فى يد صاحبه ، وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شىء . وقال قتادة (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء) قال بلى قد كانت أوائل النصارى على شىء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا (وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) قال بلى قد كانت أوائل اليهود على شىء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا ، وعنه رواية أخرى كقول أبى العالية والربيع بن أنس فى تفسير هذه الآية (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وهـذا القول يقتضى أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى ولكن ظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك ولهذا قال تعالى (وهم يتلون الكتاب) أى وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعة فى وقت ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادا وكفرا ومقابلة للفاسد بالفاسد كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد وقتادة فى الرواية الأولى عنه فى تفسيرها والله أعلم وقوله (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول وهذا من باب الإيماء والإشارة . وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى (الذين لايعلمون) فقال الربيع بن أنس وقتادة (كذلك قال الذين لايعلمون) قالا : وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم . وقال ابن جريج : قلت لعطاء من هؤلاء الذين لايعلمون؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل وقال السدى كذلك (قال الذين لايعلمون) فهم العرب قالوا ليس محمد على شىء ، واختار أبو جعفر بن جرير انها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحدا من هذه الأقوال والحمل على الجميع أولى والله أعلم . وقوله تعالى (فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لايجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة ، وهـذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد) وكما قال تعالى (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا

إِلاَّ خَائِفِينَ * لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا فى خرابها على قولين : أحدهما مارواه العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) قال هم النصارى . وقال مجاهد هم النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (وسعى فى خرابها) قال هو بختنصر وأصحابه خرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى . وقال سعيد عن قتادة : قال أولئك أعداء الله النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلى المجوسى على تخريب بيت المقدس . وقال السدى : كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا . وروى نحوه عن الحسن البصرى (القول الثانى) مارواه ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها) قال هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذى طوى وهادنهم وقال لهم « ما كان أحد يصد عن هذا البيت ، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده » فقالوا لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق . وفى قوله (وسعى فى خرابها) قال إذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة . وقال ابن أبى حاتم ذكر عن سلمة قال . قال محمد بن إسحق . حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن قريشاً منعوا النبى ﷺ الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام فأنزل الله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) ثم اختار ابن جرير القول الأول واحتج بأن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس (قلت) والذى يظهر . والله أعلم . القول الثانى كما قاله ابن زيد . وروى عن ابن عباس لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة فى البيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود وكانوا أقرب منهم ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا إذ ذاك لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وأيضا فانه تعالى لما وجه الذم فى حق اليهود والنصارى شرع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع فى خراب الكعبة ، فأى خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وقال تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) فقال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) فاذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدودا عنها فأى خراب لها أعظم من ذلك ؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك . وقوله تعالى (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) هذا خبر معناه الطلب أى لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل فى سنة تسع أن ينادى برحاب منى « ألا لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ومن كان له أجل فأجله الى مدته » وهذا إذا كان تصديقا وعملا بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وقال بعضهم ما كان ينبغى لهم

أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها . والمعنى ماكان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وغيرهم وقيل إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وأنه يذل المشركين لهم حتى لايدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم . وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان وأن يجلى اليهود والنصارى منها ولله الحمد والمنة . وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التى بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله وسلامه عليه وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا لأن الجزاء من جنس العمل فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدوا عنه وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) على ماانتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله ودعاء غير الله عنده والطواف به عريا وغير ذلك من أفاعليهم التى يكرهها الله ورسوله وأما من فسر بيت المقدس فقال كعب الأحبار إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) الآية فليس فى الأرض نصرانى يدخل بيت المقدس إلا خائفاً . وقال السدى فليس فى الأرض رومى يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها . وقال قتادة لايدخلون المساجد إلا مسارقة (قلت) وهذا لاينفى أن يكون داخلا فى معنى عموم الآية فان النصارى لما ظلموا بيت المقدس بامتهان الصخرة التى كانت تصلى اليها اليهود عوقبوا شرعا وقدرا بالذلة فيه إلا فى أحيان من الدهر أشحن بهم بيت المقدس . وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه ايضاً أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم والله أعلم . وفسر هؤلاء الخزى فى الدنيا بخروج المهدى عند السدى وعكرمة ووائل بن داود ، وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون . والصحيح أن الخزى فى الدنيا أعم من ذلك كله ، وقد ورد الحديث بالاستعاذه من خزى الدنيا وعذاب الآخرة كما قال الإمام أحمد أخبرنا الهيثم بن خارجة أخبرنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حلس سمعت أبى يحدث عن بشر بن أرطاة . قال كان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة » وهذا حديث حسن وليس فى شىء من الكتب الستة وليس لصحابيه وهو بشر بن أرطاة ويقال ابن أبى أرطاة حديث سواه وسوى حديث لا تقطع الأيدى فى الغزو

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم وقد كان رسول الله ﷺ يصلى بمكة إلى بيت القدس والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهرا ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ولهذا يقول تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) قال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ : أخبرنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان ابن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قال : أول مانسخ لنا من القرآن فما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة . قال الله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها . فقال (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره) وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كان أول مانسخ من القرآن القبلة . وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم وكان يدعو

وينظر إلى السماء فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) إلى قوله (فولوا وجوهكم شطره) فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب) وقال (فأينما تولوا فثم وجه الله) وقال عكرمة عن ابن عباس (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال قبلة الله أينما توجهت شرقا أو غربا . وقال مجاهد (فأينما تولوا فثم وجه الله) حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة . وقال ابن أبى حاتم بعد رواية الأثر المتقدم عن ابن عباس فى نسخ القبلة عن عطاء عنه وروى عن أبى العالية والحسن وعطاء الخراسانى وعكرمة وقتادة والسدى وزيد بن أسلم نحو ذلك . وقال ابن جرير وقال آخرون بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة وإنما أنزلها ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحى المشرق والمغرب لأنهم لا يوجهون وجوههم وجها من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له تعالى المشارق والمغارب وأنه لا يخلو منه مكان كما قال تعالى (ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) قالوا ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال . وفى قوله وانه تعالى لا يخلو منه مكان إن أراد علمه تعالى فصحيح ، فان علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شىء من خلقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذنا من الله أن يصلى المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب فى مسيره فى سفره وفى حال المسايفة وشدة الخوف . حدثنا أبو كريب أخبرنا ابن إدريس حدثنا عبد الملك هو ابن أبى سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته . ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية (فأينما تولوا فثم وجه الله) ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن عبد الملك بن أبى سليمان به وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية . وفى صحيح البخارى من حديث نافع عن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها : ثم قال فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا قياما على أقدامهم وركبانا مستقبلى القبلة وغير مستقبليها . قال نافع ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ

﴿ مسألة ﴾ ولم يفرق الشافعى فى المشهور عنه بين سفر المسافة وسفر العدوى فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة وهو قول أبى حنيفة خلافا لمالك وجماعته واختار أبو يوسف وأبو سعيد الاصطخرى التطوع على الدابة فى المصر وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك رضى الله عنه واختاره أبو جعفر الطبرى حتى للماشى أيضا . قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية فى قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة فقال الله تعالى : لى المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم فهنالك وجهى وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية . حدثنا محمد بن إسحق الأهوازى أخبرنا أبو أحمد الزبيرى أخبرنا أبو الربيع السمان عن عاصم بن عبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدا يصلى فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة فقلنا يارسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فأنزل الله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) الآية ثم رواه عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن أبى الربيع السمان بنحوه . ورواه الترمذى عن محمود بن غيلان عن وكيع وابن ماجه عن يحيى بن حكيم عن أبى داود عن أبى الربيع السمان ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن سعيد بن سليمان عن أبى الربيع السمان واسمه أشعث بن سعيد البصرى وهو ضعيف الحديث وقال الترمذى هذا حديث حسن وليس إسناده بذاك ولا نعرفه إلا من حديث الأشعث السمان ، وأشعث يضعف فى الحديث . قلت وشيخه عاصم أيضاً ضعيف . قال البخارى منكر الحديث . وقال ابن معين : ضعيف لا يحتج به وقال ابن حبان . متروك والله أعلم

وقد روى من طريق آخر عن جابر فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية أخبرنا إسماعيل بن على ابن إسماعيل أخبرنا الحسن بن على بن شبيب حدثنى أحمد بن عبد الله بن الحسن قال : وجدت فى كتاب أبى أخبرنا

عبد الملك العزرمى عن عطاء بن جابر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة فقالت طائفة منا قد عرفنا القبلة هى ههنا قبل الشمال فصلوا وخطوا خطوطا فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبى صلى الله عليه وسلم فسكت وأنزل الله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العزرمى عن عطاء عن جابر به ، وقال الدارقطنى قرئ على عبد الله بن عبد العزيز وأنا أسمع حدثكم داود بن عمرو أخبرنا محمد بن يزيد الواسطى عن محمد بن سالم عن عطاء عن جابر قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير فأصابنا غيم فتحيرنا فاختلفنا فى القبلة فصلى كل رجل منا على حدة وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يأمرنا بالإعادة وقال قد أجازت صلاتكم ثم قال الدارقطنى كذا قال عن محمد بن سالم ، وقال غيره عن محمد بن عبد الله العزرمى عن عطاء وهما ضعيفان ، ورواه ابن مردويه أيضا من حديث الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأخذتهم ضبابة فلم يهتدوا الى القبلة فصلوا لغير القبلة ثم استبان لهم بعد ماطلعت الشمس أنهم صلوا لغير القبلة ، فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) وهذه الأسانيد فيها ضعف ولعله يشد بعضها بعضا وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء وهذه دلائل على عدم القضاء والله أعلم .

قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية فى سبب النجاشى كما حدثنا محمد بن بشار أخبرنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن أخا لكم قد مات فصلوا عليه قالوا نصلى على رجل ليس بمسلم ؟ قال فنزلت (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله) قال قتادة فقالوا إنه كان لايصلى إلى القبلة فأنزل الله (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) وهذا غريب والله أعلم وقد قيل إنه كان يصلى الى بيت المقدس قبل أن يبلغه الناسخ الى الكعبة كما حكاه القرطبى عن قتادة وذكر القرطبى أنه لما مات صلى عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب الى الصلاة على الغائب قال وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه — أحدها — أنه عليه السلام شاهده حين سوّى عليه طويت له الأرض . الثانى أنه لما لم يكن عنده من يصلى عليه صلى عليه واختاره ابن العربى ، قال القرطبى ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه وقد أجاب ابن العربى عن هذا لعلهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت . وهذا جواب جيد : الثالث أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك والله أعلم .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث أبى معشر عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق » وله مناسبة ههنا وقد أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى معشر واسمه نجيح بن عبد الرحمن السدى المدنى به « مابين المشرق والمغرب قبلة » وقال الترمذى وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة وتكلم بعض أهل العلم فى أبى معشر من قبل حفظه ، ثم قال الترمذى حدثنى الحسن بن بكر المروزى أخبرنا المعلى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر المخزومى عن عثمان بن محمد بن المغيرة الأخنس(١) عن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مابين المشرق والمغرب قبلة » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، وحكى عن البخارى أنه قال هذا أقوى من حديث أبى معشر وأصح ، قال الترمذى وقد روى عن غير واحد من الصحابة « مابين المشرق المغرب قبلة » منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس رضى الله عنهم أجمعين . وقال ابن عمر إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة إذا استقبلت القبلة ثم قال ابن مردويه حدثنا على بن أحمد بن عبد الرحمن أخبرنا يعقوب بن يوسف مولى بنى هاشم أخبرنا شعيب بن أيوب أخبرنا ابن نمير عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مابين المشرق والمغرب قبلة » وقد رواه الدارقطنى والبيهقى : وقال المشهور عن ابن عمر عن عمر رضى

(١) فى خلاصة تذهيب الكمال وفى صحيح الترمذى أيضا عبد الله بن جعفر المخرمى عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس اهـ

الله عنهما قوله[1] قال ابن جرير ويحتمل فأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم لى فهنالك وجهى أستجيب لكم دعاءكم كما حدثنا القاسم أخبرنا الحسين حدثنى حجاج قال . قال ابن جريج : قال مجاهد لما نزلت (ادعونى أستجب لكم) قالوا إلى أين فنزلت (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال ابن جرير ومعنى قوله (إن الله واسع عليم) يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال : وأما قوله (عليم) فانه يعنى عليم بأعمالهم مايغيب عنه منها شيء ولايعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة والتى تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب ممن جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم فى دعواهم وقولهم إن لله ولدا فقال تعالى (سبحانه) أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا (بل له مافى السموات والأرض) أى ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولدا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ؟ كما قال تعالى (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولدا * وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) وقال تعالى (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) فقرر تعالى فى هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذى لا نظير له ولا شبيه له وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد ؟ ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية من البقرة : أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن عبد الله بن أبى الحسين حدثنا نافع بن جبير هو ابن مطعم عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقوله إن لى ولداً فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً » انفرد به البخارى من هذا الوجه . وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل أخبرنا محمد بن إسماعيل الترمذى أخبرنا محمد بن إسحق بن محمد القروى أخبرنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم وما ينبغى له ان يكذبنى وشتمنى وما ينبغى له أن يشتمنى ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً . وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » وقوله (كل له قانتون) قال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا اسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال (قانتين) مصلين وقال عكرمة وأبو مالك (كل له قانتون) مقرون له بالعبودية وقال سعيد بن جبير كل له قانتون يقول الاخلاص وقال الربيع بن أنس يقول (كل له قانتون) أى قائم يوم القيامة ، وقال السدى (كل له قانتون) أى مطيعون يوم القيامة ، وقال خصيف عن مجاهد (كل له قانتون) قال مطيعون كن إنسانا فكان ، وقال كن حمارا فكان ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد كل له قانتون مطيعون قال طاعة الكافر فى سجود ظله وهو كاره وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها وهو ان القنوت والطاعة والاستكانة الى الله وهو شرعى وقدرى كما قال تعالى (ولله يسجد من فى السموات ومن فى الأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدوّ والآصال) . وقد ورد حديث فيه بيان القنوت فى القرآن ما هو المراد به كما قال ابن أبى حاتم أخبرنا يوسف بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث ان دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن

(١) كذا فى الأصل ولعله « من قوله » أى أنه غير مرفوع .

أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » وكذا رواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج باسناده مثله ولكن فى هذا الإسناد ضعف لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابى أو من دونه والله أعلم . وكثير ما يأتى بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة فلا يغتر بها فإن السند ضعيف والله أعلم :

وقوله تعالى (بديع السموات والأرض) أى خالقها على غير مثال سبق : قال مجاهد والسدى وهو مقتضى اللغة ومنه يقال للشىء المحدث بدعة كما جاء فى صحيح مسلم فإن كل محدثة بدعة والبدعة على قسمين تارة تكون بدعة شرعية كقوله « فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم : نعمت البدعة هذه وقال ابن جرير (بديع السموات والأرض) مبدعها وإنما هو مفعل فصرف إلى فعيل كما صرف المؤلم إلى الأليم والمسمع إلى السميع ومعنى المبدع المنشىء والمحدث مالا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد قال ولذلك سمى المبتدع فى الدين مبتدعا لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره وكذلك كل محدث قولا أو فعلا لم يتقدم فيه متقدم فإن العرب تسميه مبتدعاً ومن ذلك قول أعشى بن ثعلبة فى مدح هوذة بن على الحنفى

يدعى إلى قول سادات الرجال إذا * أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

أى يحدث ماشاء قال ابن جرير فمعنى الكلام سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك ما فى السموات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية وتقر له بالطاعة وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذى أضافوا إلى الله بنوته وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذى ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة . وقوله تعالى وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن أى مرة واحدة فيكون أى فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقال تعالى (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وقال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قولة فيكون

ونبه بذلك أيضاً على أن خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله ، قال الله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله فى ذلك من قوله (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) وقال مجاهد (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) قال النصارى تقوله ، وهو اختيار ابن جرير قال لأن السياق فيهم . وفى ذلك نظر وحكى القرطبى (لولا يكلمنا الله) أى يخاطبنا بنبوتك يا محمد (قلت) وهو ظاهر السياق والله أعلم ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدى فى تفسير هذه الآية هذا قول كفار العرب (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) قال هم اليهود والنصارى ويؤيد هذا القول وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) الآية وقوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى قوله (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) وقوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا

الملائكة أونرى ربنا) الآية وقوله تعالى (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم مالا حاجة لهم به إنما هو الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم كما قال تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) وقال تعالى (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وقوله تعالى (تشابهت قلوبهم) أى أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم فى الكفر والعناد والعتو كما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به ؟) الآية وقوله تعالى (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أى قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فأولئك قال الله فيهم (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي أخبرنا عبد الرحمن بن صالح أخبرنا عبدالرحمن بن محمد بن عبد الله الفزارى عن شيبان النحوى أخبرنى قتادة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « أنزلت على (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً)قال بشيراً بالجنة ونذيراً من النار » وقوله (ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) قراءة أكثرهم ولا تسئل بضم التاء على الخبر وفى قراءة أبي بن كعب وما تسئل وفى قراءة ابن مسعود ولن تسئل عن أصحاب الجحيم نقلها ابن جرير أى لا نسألك عن كفر من كفر بك كقوله (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وكقوله تعالى (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) الآية وكقوله تعالى (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وأشباه ذلك من الآيات ، وقرأ آخرون « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم» بفتح التاء على النهى أى لا تسأل عن حالهم كما قال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظى قال ، قال رسول الله ﷺ « ليت شعرى ما فعل أبواى ليت شعرى ما فعل أبواى ليت شعرى ما فعل أبواى ؟» فنزلت (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) فما ذكرهما حتى توفاه الله عز وجل ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب بمثله وقد حكاه القرطبي عن ابن عباس ومحمد بن كعب قال القرطبي :وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان أى قد بلغ فوق ما تحسب وقد ذكرنا فى التذكرة أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا به وأجبنا عن قوله « إن أبي وأباك فى النار » (قلت) والحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام ليس فى شىء من الكتب الستة ولا غيرها وإسناده ضعيف والله أعلم . ثم قال ابن جرير وحدثنى القاسم أخبرنا الحسين حدثنى حجاج عن ابن جريج أخبرنى داود بن أبي عاصم به أن النبي ﷺ قال ذات يوم « أين أبواى » ؟ فنزلت (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) وهذا مرسل كالذى قبله وقد رد ابن جرير هذا القول المروى عن محمد بن كعب وغيره فى ذلك لاستحالة الشك من الرسول ﷺ فى أمر أبويه واختار القراءة الأولى وهذا الذى سلكه ههنا فيه نظر لاحتمال أن هذا كان فى حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت هذا فى الصحيح ،ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير والله أعلم

وقال الإمام أحمد أخبرنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله ابن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن . يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزا للأميين : وأنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عمياً وآذانا صماً وقلوباً غلفاً . انفرد بإخراجه

البخارى فرواه فى البيوع عن محمد بن سنان عن فليح به وقال تابعه عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال . وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبدالله بن سلام ، ورواه فى التفسير عن عبدالله عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص به فذكر نحوه ، فعبد الله هذا هو ابن صالح كما صرح به فى كتاب الأدب ، وزعم ابن مسعود الدمشقى أنه عبد الله بن رجاء ، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من البقرة عن أحمد بن الحسن ابن أيوب عن محمد بن أحمد بن البراء عن المعافى بن سليمان عن فليح به وزاد : قال عطاء ثم لقيت كعب الأحبار فسألته فما اختلفا فى حرف إلا أن كعبا قال : بلغته أعينا عمومى وآذاناً صمومى وقلوباً غلوفاً

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ * ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾

قال ابن جرير يعنى بقوله جل ثناؤه (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً فدع طلب مايرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى مابعثك الله به من الحق ، وقوله تعالى (قل إن هدى الله هو الهدى) أى قل يا محمد إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى يعنى هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل ، قال قتادة فى قوله (قل إن هدى الله هو الهدى) قال خصومة علمها الله محمداً ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة ، قال قتادة : وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » (قلت) هذا الحديث مخرج فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته : وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله (حتى تتبع ملتهم) حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) فعلى هذا لايتوارث المسلمون والكفار وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا لأنهم كلهم ملة واحدة وهذا مذهب الشافعى وأبى حنيفة وأحمد فى رواية عنه ، وقال فى الرواية الأخرى كقول مالك ، إنه لايتوارث أهل ملتين شتى كما جاء فى الحديث والله أعلم — وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : هم اليهود والنصارى وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقال سعيد عن قتادة : هم أصحاب رسول الله ﷺ وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا إبراهيم بن موسى وعبد الله بن عمران الاصبهانى قال أخبرنا يحيى بن يمان حدثنا أسامة بن زيد عن أبيه عن عمر ابن الخطاب (يتلونه حق تلاوة) قال : إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار ، وقال أبو العالية قال ابن مسعود والذى نفسى بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولايتأول منه شيئاً على غير تأويله وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ومنصور ابن المعتمر عن ابن مسعود قال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس فى هذه الآية قال : يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه . قال ابن أبى حاتم : وروى عن ابن مسعود نحو ذلك ، وقال الحسن البصرى : يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ماأشكل عليهم إلى عالمه . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو زرعة أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا ابن أبى زائدة أخبرنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (يتلونه حق تلاوته) قال . يتبعونه حق اتباعه ثم قرأ (والقمر إذا تلاها) يقول اتبعها قال . وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد وأبى رزين وإبراهيم النخعى نحو ذلك . وقال سفيان الثورى أخبرنا زبيد عن مرة عن عبد الله بن مسعود فى قوله (يتلونه حق تلاوته) قال

يتبعونه حق اتباعه ، قال القرطبي وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله (يتلونه حق تلاوته) قال « يتبعونه حق اتباعه » ثم قال في إسناده غير واحد من المجهولين فما ذكره الخطيب إلا أن معناه صحيح . وقال أبو موسى الأشعري : من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة وعن عمر بن الخطاب : هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها قال : وقد روى هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مر بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوذ وقوله (أولئك يؤمنون به) خبر عن (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) الآية وقال (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) أي إذا أقمتموها حق الإقامة وآمنتم بها حق الإيمان وصدقتم ما فيها من الأخبار ببعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره وموازرته قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) الآية وقال تعالى (قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) أي إن كان ماوعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعا وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) وقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) ولهذا قال تعالى (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) كما قال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) . وفي الصحيح « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » .

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته فحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على مارزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يقول تعالى منبها على شرف إبراهيم خليله عليه السلام وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي ولهذا قال (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي (فأتمهن) أي قام بهن كلهن كما قال تعالى (وإبراهيم الذي وفى) أي وفى جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه وقال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن

الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من الشركين) وقال تعالى (قل إننى هدانى ربى الى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وقال تعالى (ما كان إبراهيم يهودياً ولانصرانياً لكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) وقوله تعالى (بكلمات) أى بشرائع وأوامر ونواه ، فان الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) أى كلماته الشرعية ، وهى إما خبر صدق وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً ومن ذلك هذه الآية الكريمة (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) أى قام بهن قال (إنى جاعلك للناس إماما) أى جزاء على ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإماما يقتدى به ويحتذى حذوه

وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام ، فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناسك ، وكذا رواه أبو إسحق السبيعى عن التميمى عن ابن عباس . وقال عبد الرزاق أيضاً أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) قال ابتلاه بالطهارة خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وفى الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء ، قال ابن أبى حاتم: وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبى والنخعى وأبى صالح وأبى الجلد(١) نحو ذلك (قلت) وقريب من هذا ماثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ « عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء . ونسيت العاشرة الا أن تكون المضمضة » . قال وكيع : انتقاص الماء يعنى الاستنجاء وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « الفطرة خمس : الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط » ولفظه لمسلم وقال ابن أبى حاتم : أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن حنش بن عبد الله الصنعانى عن ابن عباس أنه كان يقول فى تفسير هذه الآية (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال عشر ست فى الإنسان وأربع فى المشاعر . فأما التى فى الإنسان حلق العانة ونتف الإبط والختان(٢) وكان ابن هبيرة يقول : هؤلاء الثلاثة واحدة ، وتقليم الأظفار وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة والأربعة التى فى المشاعر الطواف والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار والإفاضة . وقال داود ابن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا ابراهيم قال الله تعالى (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قلت له وما الكلمات التى ابتلى الله ابراهيم بهن فأتمهن ؟ قال : الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات فى براءة (التائبون العابدون)الى آخر الآية ، وعشر آيات فى أول سورة (قد أفلح المؤمنون) و (سأل سائل بعذاب واقع) وعشر آيات فى الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة قال الله (وابراهيم الذى وفى) هكذا رواه الحاكم وأبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبى حاتم بأسانيدهم الى داود بن أبى هند به وهذا لفظ ابن أبى حاتم وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : الكلمات التى ابتلى الله بهن ابراهيم فأتمهن ، فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم . ومحاجته نمروذ فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره . بذبحه ، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له (أسلم قال أسلمت لرب العالمين) على ما كان من خلاف الناس وفراقهم . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا إسماعيل بن علية عن أبى رجاء

(١) فى ابن جرير أبى الخلد فليحرر . (٢) كذا فى النسخ المطبوعة ونسخة خزانة الأزهر المخطوطة وفى الدر المنثور أو الختان وبهذا التشكيك يصح العدد ، وليس فيه : هؤلاء الثلاثة واحدة .

عن الحسن يعنى البصرى (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال ابتلاه بالكوكب فرضى عنه ، وابتلاه بالقمر فرضى عنه ، وابتلاه بالشمس فرضى عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه ، وابتلاه بالختان فرضى عنه ، وابتلاه بابنه فرضى عنه . وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع أخبرنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول اى والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه — ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن فى ذلك وعرف أن ربه دائم لايزول فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين ، ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً الى الله ، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك وابتلاه بذبح ابنه والختان فصبر على ذلك وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عمن سمع الحسن يقول فى قوله (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) قال ابتلاه الله بذبح ولده وبالنار وبالكوكب والشمس والقمر وقال أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا سلم بن قتيبة أخبرنا أبو هلال عن الحسن (وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) قال ابتلاه بالكوكب وبالشمس والقمر فوجده صابراً وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) فمنهن (قال إنى جاعلك للناس إماماً) ومنهن (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ومنهن الآيات فى شأن المنسك والمقام الذى جعل لإبراهيم والرزق الذى رزق ساكنو البيت ومحمد بعث فى دينهما : وقال ابن أبى حاتم أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا شبابة عن ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال الله لإبراهيم إنى مبتليك بأمر فما هو ؟ قال : تجعلنى للناس إماما ؟ قال نعم : قال : ومن ذريتى ؟ (قال لاينال عهدى الظالمين) قال : تجعل البيت مثابة للناس . قال نعم : قال : وأمناً . قال نعم : قال وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . قال نعم . قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله . قال نعم قال ابن أبى نجيح سمعته من عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكره ، وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال ابتلى بالآيات التى بعدها (إنى جاعلك للناس إماماً . قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) قال الكلمات (إنى جاعلك للناس إماماً) وقوله (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) وقوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقوله (وعهدنا إلى ابراهيم وإسماعيل) الآية وقوله (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) الآية قال فذلك كله من الكلمات التى ابتلى بهن ابراهيم ، وقال السدى الكلمات التى ابتلى بهن ابراهيم ربه (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال القرطبى وفى الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ابراهيم عليه السلام أول من اختتن وأول من ضاف الضيف وأول من قلم أظفاره وأول من قص الشارب وأول من شاب فلما رأى الشيب قال ماهذا ؟ قال وقار قال . يارب زدنى وقاراً وذكر ابن أبى شيبة عن سعد بن ابراهيم عن أبيه قال أول من خطب على المنابر ابراهيم عليه السلام ، قال غيره وأول من برّد البريد وأول من ضرب بالسيف وأول من استاك وأول من استنجى بالماء وأول من لبس السراويل ، وروى عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ « إن أتخذ المنبر فقد اتخذه أبى ابراهيم ، وان أتخذ العصا فقد اتخذها أبى ابراهيم » (قلت) هذا حديث لايثبت والله أعلم . ثم شرع القرطبى يتكلم على مايتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية .

قال أبو جعفر بن جرير ماحاصله انه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ماذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشىء منها أنه المراد على التعيين الا بحديث أو إجماع قال ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له . قال غير أنه قد روى عن النبى ﷺ فى نظير معنى ذلك خبران أحدهما ماحدثنا به أبو كريب أخبرنا راشد بن سعد حدثنى زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس قال كان النبى ﷺ يقول « ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله . الذى وفى . لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى . (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) الى آخر الآية» قال والآخر منهما

ما حدثنا به أبو كريب أخبرنا الحسن عن عطية أخبرنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ (وإبراهيم الذى وفى) قال « أتدرون ما وفى ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « وفى عمل يومه أربع ركعات فى النهار » ورواه آدم فى تفسيره عن حماد بن سلمة وعبد بن حميد عن يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير به ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين وهو كما قال فإنه لايجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما وضعفهما من وجوه عديدة فإن كلا من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما فى متن الحديث مما يدل على ضعفه والله أعلم . ثم قال ابن جرير ولو قال قائل إن الذى قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذى قاله غيرهم كان مذهبا لأن قوله (إنى جاعلك للناس إماما) وقوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين) الآية وسائر الآيات التى هى نظير ذلك كالبيان عن الكلمات التى ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم (قلت) والذى قاله أولا من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر أقوى من هذا الذى جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله لأن السياق يعطى غير ما قالوه والله أعلم

وقوله قال (ومن ذريتى) قال (لاينال عهدى الظالمين) لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لاينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى فى سورة العنكبوت (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فكل نبى أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففى ذريته صلوات الله وسلامه عليه وأما قوله تعالى (قال لاينال عهدى الظالمين) فقد اختلفوا فى ذلك فقال خصيف عن مجاهد فى قوله (قال لاينال عهدى الظالمين) قال إنه سيكون فى ذريتك ظالمون ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (قال لاينال عهدى الظالمين) قال لا يكون لى إمام ظالم ، وفى رواية لاأجعل إماما ظالماً يقتدى به. وقال سفيان عن منصور عن مجاهد فى قوله تعالى (قال لاينال عهدى الظالمين) قال لا يكون إمام ظالم يقتدى به. وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا مالك بن إسماعيل أخبرنا شريك عن منصور عن مجاهد فى قوله (ومن ذريتى) قال أما من كان منهم صالحاً فأجعله إماما يقتدى به وأما من كان ظالماً فلا ولا نعمة عين . وقال سعيد بن جبير (لاينال عهدى الظالمين) المراد به المشرك لايكون إمام ظالم يقول لايكون إمام مشرك ، وقال ابن جريج عن عطاء قال (إنى جاعلك للناس إماماً) قال ومن ذريتى فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً قلت لعطاء ماعهده قال أمره : وقال ابن أبى حاتم أخبرنا عمرو ابن ثور القيسارى فيما كتب إلى أخبرنا الفريابى حدثنا إسماعيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس، قال قال الله لإبراهيم إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى فأبى أن يفعل ثم قال (لاينال عهدى الظالمين) وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس (قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) يخبره أنه كائن فى ذريته ظالم لاينال عهده ولاينبغى أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله ، ومحسن ستنفذ فيه دعوته وتبلغ له فيه ماأراد من مسئلته . وقال العوفى عن ابن عباس (لاينال عهدى الظالمين) قال يعنى لاعهد لظالم عليك فى ظلمه أن تطيعه فيه ، وقال ابن جرير حدثنا إسحق أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله عن إسرائيل عن مسلم الأعور عن مجاهد عن ابن عباس قال (لاينال عهدى الظالمين) قال ليس للظالمين عهد وإن عاهدته أنقضه : وروى عن مجاهد وعطاء ومقاتل بن حيان نحو ذلك: وقال الثورى عن هارون بن عنترة عن أبيه قال ليس لظالم عهد وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (لاينال عهدى الظالمين) قال لاينال عهد الله فى الآخرة الظالمين فأما فى الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به وأكل وعاش ، وكذا قال إبراهيم النخعى وعطاء والحسن وعكرمة ، وقال الربيع بن أنس عهد الله الذى عهد إلى عباده دينه يقول لاينال دينه الظالمين ألاترى أنه قال (وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) يقول ليس كل ذريتك ياإبراهيم على الحق وكذا روى عن أبى العالية وعطاء ومقاتل بن حيان وقال جويبر عن الضحاك لاينال طاعتى عدو لى يعصينى ولا أنحلها إلا وليا لى يطيعنى . وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد أخبرنا أحمد بن عبد الله بن سعيد الدامغانى أخبرنا وكيع عن الأعمش عن سعيد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على بن أبى طالب عن النبى

ﷺ قال (لاينال عهدى الظالمين) قال لاطاعة إلا فى المعروف ، وقال السدى (لا ينال عهدى الظالمين) يقول عهدى نبوتى — فهذه أقوال مفسرى السلف فى هذه الآية على مانقله ابن جرير وابن أبى حاتم رحمهما الله تعالى واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة فى الخبر أنه لاينال عهد الله بالإمامة ظالما ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره والله أعلم . وقال ابن خويز منداد المالكى . الظالم لايصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتياً ولاشاهداً ولا راوياً

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

قال العوفى عن ابن عباس قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) يقول لايقضون فيه وطراً ، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس مثابة للناس يقول يثوبون . رواهما ابن جرير . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا عبد الله بن رجاء أخبرنا إسرائيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) قال يثوبون إليه ثم يرجعون قال وروى عن أبى العالية وسعيد بن جبير فى رواية وعطاء ومجاهد والحسن وعطية والربيع بن أنس والضحاك نحو ذلك . وقال ابن جرير . حدثنى عبد الكريم بن أبى عمير حدثنى الوليد بن مسلم قال: قال أبو عمرو يعنى الأوزاعى . حدثنى عبدة بن أبى لبابة فى قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) قال لاينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً . وحدثنى يونس عن ابن وهب قال: قال ابن زيد (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) قال يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه . وما أحسن ما قال الشاعر فى هذا المعنى أورده القرطبى

جعل البيت مثاباً لهم * ليس منه الدهر يقضون الوطر

وقال سعيد بن جبير فى الرواية الأخرى وعكرمة وقتادة وعطاء الخراسانى (مثابة للناس) أى مجمعاً (وأمنا) قال الضحاك عن ابن عباس . أى أمناً للناس . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) يقول وأمنا من العدو وأن يحمل فيه السلاح وقد كانوا فى الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لايسبون . وروى عن مجاهد وعطاء والسدى وقتادة والربيع بن أنس قالوا من دخله كان آمنا .

ومضمون مافسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وماجعله موصوفاً به شرعاً وقدراً من كونه مثابة للناس أى جعله محلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولاتقضى منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام فى قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم إلى أن قال (ربنا وتقبل دعائى) ويصفه تعالى بأنه جعله أمنا من دخله أمن ولو كان قد فعل مافعل ثم دخله كان آمنا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له كما وصف فى سورة المائدة بقوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) أى يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء كما قال ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض وماهذا الشرف إلا لشرف بانيه أولا وهو خليل الرحمن كما قال تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً) وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) وفى هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده . فقال (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمقام ما هو فقال ابن أبى حاتم : أخبرنا عمرو بن شبة النميرى حدثنا أبو خلف يعنى عبد الله بن عيسى أخبرنا داود بن أبى هند عن مجاهد عن ابن عباس (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال مقام إبراهيم الحرم كله . وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك . وقال أيضاً أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج قال : سألت عطاء عن (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فقال سمعت ابن عباس قال : أما مقام إبرهيم الذى ذكرههنا فمقام إبراهيم هذا الذى فى المسجد ثم قال ومقام إبراهيم يعد كثير مقام إبراهيم الحج كله . ثم فسره لى عطاء فقال : التعريف وصلاتان بعرفة والمشعر ومنى ورمى الجمار والطواف بين الصفا والمروة ، فقلت أفسره ابن عباس ؟ قال لا . ولكن قال مقام إبراهيم الحج

كله . قلت أسمعت ذلك لهذا أجمع ؟ قال نعم سمعته منه . وقال سفيان الثورى عن عبدالله بن مسلم عن سعيد بن جبير (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال الحجر مقام ابراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه . وقال السدى : المقام الحجر الذى وضعته زوجة اسماعيل تحت قدم ابراهيم حتى غسلت رأسه . حكاه القرطبي وضعفه ورجحه غيره ، وحكاه الرازى فى تفسيره عن الحسن البصرى وقتادة والربيع بن أنس . وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه سمع جابرا يحدث عن حجة النبى ﷺ قال : لما طاف النبى صلى الله عليه وسلم قال له عمر هذا مقام أبينا ؟ قال نعم ، قال أفلا نتخذه مصلى ؟ فأنزل الله عز وجل (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال عثمان بن أبى شيبة أخبرنا أبو أسامة عن زكريا عن أبى إسحق عن أبى ميسرة قال : قال عمر قلت يارسول الله هذا مقام خليل ربنا ؟ قال نعم ، قال أفلا نتخذه مصلى ؟ فنزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال ابن مردويه أخبرنا دعلج بن أحمد أخبرنا غيلان بن عبد الصمد أخبرنا مسروق بن المرزبان أخبرنا زكريا بن أبى زائدة عن أبى اسحق عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه مر بمقام ابراهيم فقال : يارسول الله أليس نقوم بمقام خليل ربنا ؟ قال بلى ، قال أفلا نتخذه مصلى ؟ فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال ابن مردويه أخبرنا على بن أحمد بن محمد القزوينى أخبرنا على بن الحسين حدثنا الجنيد أخبرنا هشام بن خالد أخبرنا الوليد عن مالك ابن أنس عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام ابراهيم قال له عمر يارسول الله هذا مقام ابراهيم الذى قال الله (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) قال نعم : قال الوليد : قلت لمالك هكذا حدثك واتخذوا قال نعم هكذا وقع فى هذه الرواية وهو غريب وقد روى النسائى من حديث الوليد بن مسلم نحوه . وقال البخارى : باب قوله (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) مثابة يثوبون يرجعون حدثنا مسدد أخبرنا يحيى عن حميد عن أنس بن مالك . قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقلت يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب . قال وبلغنى معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن حتى أتيت إحدى نسائه قالت : ياعمر أما فى رسول الله مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأنزل الله (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات) الآية وقال ابن أبى مريم أخبرنا يحيى بن أيوب حدثنى حميد قال سمعت أنسا عن عمر رضى الله عنهما هكذا ساقه البخارى ههنا وعلق الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبى مريم المصرى وقد تفرد عنه بالرواية البخارى من بين أصحاب الكتب الستة . وروى عنه الباقون بواسطة وغرضه من تعليق هذا الطريق ليبين فيه اتصال إسناد الحديث وانما لم يسنده لأن يحيى بن أبى أيوب الغافقى فيه شىء كما قال الإمام أحمد فيه هو سيء الحفظ والله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا حميد عن أنس قال : قال عمر رضى الله عنه وافقت ربى عز وجل فى ثلاث قلت : يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقلت يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن فنزلت كذلك ، ثم رواه أحمد عن يحيى وابن أبى عدى كلاهما عن حميد عن أنس عن عمر أنه قال وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث فذكره . وقد رواه البخارى عن عمر وابن عون والترمذى عن أحمد بن منيع والنسائى عن يعقوب بن ابراهيم الدورقى وابن ماجه عن محمد بن الصباح كلهم عن هشيم بن بشير به . ورواه الترمذى أيضا عن عبد بن حميد عن حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة والنسائى عن هناد عن يحيى بن أبى زائدة كلاهما عن حميد وهو ابن تيرويه الطويل به . وقال الترمذى حسن صحيح . ورواه الإمام على بن المدينى عن يزيد بن زريع عن

حميد به وقال هذا من صحيح الحديث وهو بصرى ورواه الإمام مسلم بن حجاج فى صحيحه بسند آخر ولفظ آخر فقال أخبرنا عقبة بن مكرم أخبرنا سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : وافقت ربى فى ثلاث فى الحجاب وفى أسارى بدر وفى مقام إبراهيم . وقال أبو حاتم الرازى : أخبرنا محمد بن عبدالله الأنصارى أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب وافقنى ربى فى ثلاث ، أو وافقت ربى فى ثلاث ، قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقلت يارسول الله لو حجبت النساء فنزلت آية الحجاب ، والثالثة لما مات عبد الله بن أبى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه قلت ، يارسول الله تصلى على هذا الكافر المنافق . فقال : ايها عنك يا ابن الخطاب فنزلت (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) وهذا إسناد صحيح أيضا ولا تعارض بين هذا ولا هذا بل الكل صحيح ومفهوم العدد اذا عارضه منطوق قدم عليه والله أعلم : وقال ابن جريج أخبرنى جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر أن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا حتى اذا فرغ عمد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال ابن جرير حدثنا يوسف بن سلمان أخبرنا حاتم بن إسماعيل أخبرنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : استلم رسول الله ﷺ الركن فرمل ثلاثا ومشى أربعا ثم نفذ الى مقام ابراهيم فقرأ (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين وهذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث حاتم بن اسماعيل وروى البخارى بسنده عن عمرو بن دينار : قال سمعت ابن عمر يقول قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين ، فهذا كله مما يدل على ان المراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان ابراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار وكلما كمل ناحية انتقل الى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله الى الناحية التى تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة كما سيأتى بيانه فى قصة ابراهيم وإسماعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخارى وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هذا معروفا تعرفه العرب فى جاهليتها ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية .

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة * على قدميه حافياً غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا كما قال عبدالله بن وهب أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثهم ، قال رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم ، وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع أخبرنا سعيد عن قتادة (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . وقد تكلفت هذه الأمة شيئا ماتكلفته الأمم قبلها ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى (قلت) وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم الى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه الى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ولهذا والله أعلم أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف وناسب أن يكون عند مقام ابراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه وانما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، قال عبدالرزاق عن ابن جريج حدثنى عطاء وغيره من أصحابنا : قال أول من نقله عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال عبد الرزاق أيضا عن معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال أول من أخر المقام الى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن الحسين البيهقى أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أخبرنا القاضى أبو بكر أحمد

ابن كامل حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمى حدثنا أبو ثابت حدثنا الدراوردى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان أبى بكر رضى الله عنه ملتصقا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا ابن أبى عمر العدنى قال : قال سفيان يعنى ابن عيينة وهو إمام المكيين فى زمانه كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فحوله عمر إلى مكانه بعد النبى ﷺ وبعد قوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فرده عمر إليه : وقال سفيان لا أدرى كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله وقال سفيان لا أدرى أكان لا صقاها أم لا ؟ فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه والله أعلم : وقد قال الحافظ أبو بكر ابن مردويه أخبرنا ابن عمر وهو أحمد بن محمد بن حكيم أخبرنا محمد بن عبد الوهاب بن أبى تمام أخبرنا آدم هو ابن أبى إياس فى تفسيره أخبرنا شريك عن إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد قال : قال عمر بن الخطاب يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فكان المقام عند البيت فحوله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضعه هذا. قال مجاهد وكان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن هذا مرسل عن مجاهد وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق عن معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد أن أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وهذا أصح من طريق ابن مردويه مع اعتضاد هذا بما تقدم والله أعلم

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قال الحسن البصرى قوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) قال أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس ولا يصيبه من ذلك شيء ، وقال ابن جريج قلت لعطاء ما عهده ؟ قال أمره . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وعهدنا إلى إبراهيم) أى أمرناه كذا قال والظاهر أن هذا الحرف إنما عدى بإلى لأنه فى معنى تقدمنا وأوحينا ، وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس قوله (أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين) قال من الأوثان وقال مجاهد وسعيد بن جبير (طهرا بيتى للطائفين) إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس . قال ابن أبى حاتم وروى عن عبيد ابن عمير وأبى العالية وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وقتادة (أن طهرا بيتى) أى بلا إله إلا الله من الشرك وأما قوله تعالى (للطائفين) فالطواف بالبيت معروف . وعن سعيد بن جبير أنه قال فى قوله تعالى (للطائفين) يعنى من أتاه من غربة (والعاكفين) المقيمين فيه ، وهكذا روى عن قتادة والربيع بن أنس انهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه كما قال سعيد بن جبير وقال يحيى القطان عن عبد الملك هو ابن أبى سليمان عن عطاء فى قوله (والعاكفين) قال من انتابه من الأمصار فأقام عنده وقال لنا ونحن مجاورون أنتم من العاكفين وقال وكيع عن أبى بكر الهذلى عن عطاء عن ابن عباس قال إذا كان جالسا فهو من العاكفين وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا موسى بن إسماعيل أخبرنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت ، قال قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير ما أرانى إلا مكلم الأمير أن امنع الذين ينامون فى المسجد الحرام فإنهم يجنبون ويحدثون . قال لا تفعل فإن ابن عمر سئل عنهم فقال هم العاكفون . ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به (قلت) وقد ثبت فى الصحيح أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول

ﷺ وهو عزب وأما قوله تعالى (والركع السجود) فقال وكيع عن أبي بكر الهذلي عن عطاء عن ابن عباس والركع السجود قال إذا كان مصليا فهو من الركع السجود وكذا قال عطاء وقتادة

في يومه أربع في النهار ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين فإن كلا من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء وهو كما قال فإنه لا يجوز روايتهما (١)

قال ابن جرير رحمه الله فمعنى الآية وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك ثم أورد سؤالا فقال فان قيل فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه وأجاب بوجهين : (أحدهما) أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماما يقتدى به كما قال عبد الرحمن بن زيد (أن طهرا بيتي) قال من الأصنام التي يعبدون التي كان المشركون يعظمونها (قلت) وهذا الجواب مفرع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم (الجواب الثاني) أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له فيبنياه مطهراً من الشرك والريب كما قال جل ثناؤه (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) قال فكذلك قوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي) أي ابنياه على طهر من الشرك بي والريب كما قال السدي (أن طهرا بيتي) ابنيا بيتي للطائفين ، و ملخص هذا الجواب أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين إليه من الركع السجود كما قال تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) الآيات.

وقد اختلف الفقهاء أيما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به ؟ فقال مالك رحمه الله . الطواف به لأهل الأمصار أفضل . وقال الجمهور : الصلاة أفضل مطلقا ، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام ، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة قيامها وركوعها وسجودها ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم (سواء العاكف فيه والباد) وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام وفي ذلك أيضاً رد على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنصارى لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له ؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحي يوحى)

وتقدير الكلام إذا (وعهدنا إلى إبراهيم) أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل (أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) أي طهراه من الشرك والريب وابنياه خالصا لله معقلا للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك . ولهذا قال عليه السلام « إنما بنيت المساجد لما بنيت له » وقد جمعت في ذلك جزءاً على حدة ولله الحمد والمنة وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة فقيل الملائكة قبل آدم روى هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي

(١) قوله : في يومه أربع في النهار لا معنى له والكلام قد تم قبله . وقوله بعده ثم شرع ابن جرير الخ لا محل له هنا وليس قبله حديثان ضعيفان : وهو وما قبله ليس في نسخة خزانة الأزهر اه .

ابن الحسين ذكره القرطبي وحكى لفظه وفيه غرابة وقيل آدم عليه السلام رواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم أن آدم بناه من خمسة أجبل من حراء وطورسيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودى ، وهذا غريب أيضا . وروى عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة وعن وهب بن منبه أن أول من بناه شيث عليه السلام وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين

وقوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال الإمام أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى أخبرنا سفيان عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها » وهكذا رواه النسائى عن محمد بن بشار عن بندار به وأخرجه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وعمرو بن الناقد كلاهما عن أبى أحمد الزبيرى عن سفيان الثورى وقال ابن جرير أيضاً أخبرنا أبو كريب وأبو السائب قالا حدثنا ابن إدريس وأخبرنا أبو كريب أخبرنا عبد الرحيم الرازى قالا جميعاً سمعنا أشعث عن نافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « إن إبراهيم كان عبد الله وخليله وإنى عبد الله ورسوله وإن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها عضاهها وصيدها لا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير » وهذه الطريق غريبة ليست فى شيء من الكتب الستة وأصل الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال « اللهم بارك لنا فى ثمرنا وبارك لنا فى مدينتنا وبارك لنا فى صاعنا وبارك لنا فى مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإنى عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر وفى لفظ « بركة مع بركة » (١) ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان ـ لفظ مسلم ثم قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا قتيبة بن سعيد أخبرنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن أبى بكر بن محمد عن عبد الله ابن عمرو بن عثمان عن رافع بن خديج قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم مكة وإنى أحرم ما بين لابتيها » انفرد بإخراجه مسلم فرواه عن قتيبة عن بكر بن مضر به ولفظه كلفظه سواء وفى الصحيحين عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طلحة « التمس لى غلاما من غلمانكم يخدمنى فخرج بى أبو طلحة يردفنى وراءه فكنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزل وقال فى الحديث ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال « هذا جبل يحبنا ونحبه » فلما أشرف على المدينة قال « اللهم إنى أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبراهيم مكة اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم » وفى لفظ لهما « اللهم بارك لهم فى مكيالهم وبارك لهم فى صاعهم وبارك لهم فى مدهم » زاد البخارى يعنى أهل المدينة ولهما أيضا عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلته بمكة من البركة » وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة » رواه البخارى وهذا لفظه ولمسلم ولفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان ابراهيم حرم مكة ودعا لأهلها . وإنى حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة وانى دعوت فى صاعها ومدها بمثلى ما دعا به إبراهيم لأهل مكة » وعن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراما وانى حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يخبط فيها شجرة الا لعلف : اللهم بارك لنا فى مدينتنا اللهم بارك لنا فى صاعنا اللهم بارك لنا فى مدنا اللهم اجعل مع البركة بركتين » الحديث رواه مسلم ، والأحاديث فى تحريم المدينة كثيرة وانما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة لما فى ذلك من مطابقة الآية الكريمة . وتمسك بها من ذهب الى أن تحريم مكة انما كان على لسان ابراهيم الخليل وقيل إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى والله أعلم

(١) ورد هذا اللفظ فى رواية أخرى هذا نصها « اللهم بارك لنا فى مدينتنا وفى ثمارنا وفى مدنا وفى صاعنا بركة مع بركة »

وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يختلى خلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال « إلا الإذخر » وهذا لفظ مسلم ولهما عن أبى هريرة نحو من ذلك ثم قال البخارى بعد ذلك : وقال أبان بن صالح عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم مثله وهذا الذى علقه البخارى رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجه عن محمد بن عبد الله بن نمير عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن أبان بن صالح عن الحسن بن مسلم بن يناق عن صفية بنت شيبة : قالت سمعت رسول الله ﷺ يخطب عام الفتح فقال « يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة لا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها ولا يأخذ لقطتها إلا منشد » فقال العباس . إلا الإذخر فإنه للبيوت والقبور ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا الإذخر » وعن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو ابن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة ائذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به — إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم . وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ(١) الشاهد الغائب» فقيل لأبى شريح ماقال لك عمرو ؟ قال أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة رواه البخارى ومسلم وهذا لفظه

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلداً حراما عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها ، كما أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية وقد أجاب الله دعاءه بما سبق فى علمه وقدره . ولهذا جاء فى الحديث أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن بدء أمرك . فقال «دعوة أبى إبراهيم عليه السلام وبشرى عيسى بن مريم ورأت أمى كأنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام » أى أخبرنا عن بدء ظهور أمرك كما سيأتى قريباً إن شاء الله

وأما مسئلة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه فتذكر فى موضع آخر بأدلتها إن شاء الله وبه الثقة . وقوله تعالى إخبارا عن الخليل أنه قال (رب اجعل هذا بلدا آمنا) أى من الخوف أى لا يرعب أهله وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدراً . كقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) وقوله (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) إلى غير ذلك من الآيات وقد تقدمت الأحاديث فى تحريم القتال فيه . وفى صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح » وقال فى هذه السورة (رب اجعل هذا بلدا آمنا) أى اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة . وقال تعالى فى سورة إبراهيم (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) وناسب هذا هناك لأنه والله أعلم كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به وبعد مولد إسحق الذى هو أصغر سنا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، ولهذا قال فى آخر الدعاء (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء)

وقوله تعالى (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب (قال ومن كفر

(١) الذى فى البخارى ومسلم : وليبلغ اهـ .

فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) قال هو قول الله تعالى وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذى صوبه ابن جرير رحمه الله . قال وقرأ آخرون (قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم كما رواه أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية قال كان ابن عباس يقول ذلك قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلا ، وقال أبو جعفر عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد (ومن كفر فأمتعه قليلا) يقول ومن كفر فأرزقه رزقا قليلا أيضا (ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) قال محمد بن إسحاق لما عن لإبراهيم الدعوة على من أبى الله أن يجعل له الولاية انقطاعا إلى الله ومحبته ، وفراقا لمن خالف أمره وإن كانوا من ذريته ، حين عرف أنه كائن منهم ظالم لاينـاله عهده بخبر الله له بذلك قال الله تعالى ومن كفر فإنى أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلا وقال حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط عن عمار الذهبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال ابن عباس كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ومن كفر أيضا أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، أأخلق خلقا لا أرزقهم ؟ أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير ثم قرأ ابن عباس (كلا نمـد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطـاء ربك محظورا) رواه ابن مردويه وروى عن عكرمة ومجاهـد نحو ذلك أيضا وهذا كقوله تعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بمـا كانوا يكفرون) وقوله تعالى (ومن كفر فلا يحزنك كفرهم إلينا مرجعهم فننبئهم بمـا عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقوله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفـا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون * وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) وقوله (ثم أضطره إلى عذاب النـار وبئس المصير) أى ثم ألجئه بعـد متاعه فى الدنيـا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير ، ومعناه أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) وفى الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » وفى الصحيح أيضا « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ قوله تعالى (وكذلك أخـذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شـديد) وقرأ بعضهم (قال ومن كفر فأمتعه قليلا) الآية جعله من تمـام دعاء إبراهيم وهى قراءة شاذة مخالفة للقراء السبعة وتركيب السياق يأبى معناها والله أعلم فان الضمير فى قال راجع إلى الله تعالى فى قراءة الجمهور والسياق يقتضيه وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير فى قال عائدا على إبراهيم وهـذا خلاف نظم الـكلام والله سبحانه هو العلام *

وأما قوله تعالى (واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) فالقواعد جمع قاعدة وهى السارية والأساس يقول تعالى واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وحكى القرطبى وغيره عن أبى وابن مسعود أنهما كانا يقرآن (واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) (قلت) ويدل على هذا قولهما بعده (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) الآية فهما فى عمل صالح وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما كما روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكى عن وهيب بن الورد أنه قرأ (وإذ يرفع إبرهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا) ثم يبكى ويقول ياخليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك . وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص فى قوله (والذين يؤتون ما آتوا) أى يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات (وقلوبهم وجلة) أى خائفة أن لا يتقبل منهم كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسـول الله ﷺ كما سيأتى فى موضـعه . وقال بعض المفسرين الذى كان يرفع القواعد هو إبراهيم والداعى اسماعيـل والصحيح

أنهما كانا يرفعان ويقولان كما سيأتى بيانه . وقد روى البخارى ههنا حديثا سنورده ثم نتبعه بآثار متعلقة بذلك. قال البخارى رحمه الله . حدثنا عبد الله بن محمد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة ــ يزيد أحدهما على الآخر ــ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ؟ ولا شىء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) حتى بلغ (يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى ــ أو قال يتلبط ــ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبى ﷺ « فلذلك سعى الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت « صه » ــ تريد نفسها ــ ثم تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف ، قال ابن عباس قال النبى ﷺ « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ــ أو قال لو لم تغرف من الماء ــ لكانت زمزم عينا معينا » قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذاهم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم : ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا قالوا : نعم قال ابن عباس : قال النبى ﷺ « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس » فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن فى ضيق وشدة فشكت إليه قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة قال فهل أوصاك بشىء ؟ قالت نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم بأخرى فلبث عنهم إبراهيم ماشاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت . خرج يبتغى لنا قال كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله عزوجل قال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم ؟ قالت الماء . قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء قال النبى ﷺ «ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه » قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه قال فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه

فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير قال . فأوصاك بشيء ؟ قالت . نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك ان تثبت عتبة بابك . قال ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام اليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك قال : وتعينني قال : وأعينك قال : فان الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار الى أكمة مرتفعة على ماحولها قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطولا، ورواه ابن أبي حاتم عن أبي عبد الله محمد بن حماد الطبراني وابن جرير عن أحمد بن ثابت الرازي كلاهما عن عبد الرزاق به مختصراً .

وقال أبوبكر بن مردويه أخبرنا إسماعيل بن علي بن اسماعيل أخبرنا بشر بن موسى أخبرنا أحمد بن محمد الأزرقي أخبرنا مسلم بن خالد الزنجي عن عبد الملك بن جريج عن كثير بن كثير قال : كنت أنا وعثمان بن أبي سليمان وعبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي حسين في ناس مع سعيد بن جبير في أعلى المسجد ليلا فقال سعيد بن جبير . سلوني قبل أن لا تروني فسألوه عن المقام فأنشأ يحدثهم عن ابن عباس فذكر الحديث بطوله .

ثم قال البخاري حدثنا عبدالله بن محمد أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو أخبرنا ابراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . لما كان بين ابراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعهما تحت دوحة ثم رجع ابراهيم الى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء نادته من ورائه يا إبراهيم الى من تتركنا ؟ قال الى الله . قالت رضيت بالله قال . فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها حتى لما فنى الماء قالت . لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة وفعلت ذلك أشواطاً حتى أتمت سبعاً ثم قالت لو ذهبت فنظرت مافعل الصبي فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها فقالت . لوذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا ثم قالت . لو ذهبت فنظرت مافعل فاذا هي بصوت فقالت . أغث إن كان عندك خير فاذا جبريل عليه السلام قال : فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الأرض قال فانبثق الماء فدهشت أم اسماعيل فجعلت تحفر قال : فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم « لو تركته لكان الماء ظاهراً » قال فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادي فاذاهم بطير كأنهم أنكروا ذلك وقالوا ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فاذا هو بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا اليها فقالوا . يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك ؟ فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة قال ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله . إني مطلع تركتي قال فجاء فسلم فقال أين اسماعيل ؟ قالت امرأته ذهب يصيد قال . قولي له اذا جاء غير عتبة بابك فلما أخبرته قال أنت ذاك فاذهبي الى أهلك ، قال ثم انه بدا لإبراهيم فقال إني مطلع تركتي قال فجاء فقال أين اسماعيل ؟ فقالت امرأته ذهب يصيد فقالت ألا تنزل فتطعم وتشرب فقال ماطعامكم وماشرابكم قالت طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم قال : فقال أبو القاسم ﷺ « بركة بدعوة ابراهيم » قال ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله إني مطلع تركتي فجاء فوافق اسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلا له فقال يا اسماعيل ان ربك عز وجل أمرني ان أبني له بيتاً فقال أطع ربك عز وجل قال انه قد أمرني ان تعينني عليه فقال إذن أفعل ـ أو كما قال ـ قال فقام فجعل ابراهيم يبني واسماعيل يناوله الحجارة ويقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) هكذا

رواه من هذين الوجهين فى كتاب الأنبياء

والعجب أن الحافظ أباعبدالله الحاكم رواه فى كتابه المستدرك عن أبى العباس الأصم عن محمد بن سنان القزاز عن أبى على عبيد الله بن عبد المجيد الحنفى عن ابراهيم بن نافع به وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال ، وقد رواه البخارى كما ترى من حديث ابراهيم بن نافع وكأن فيه اختصارا فانه لم يذكر فيه شأن الذبح ، وقدجاء فى الصحيح أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة وقدجاء أن ابراهيم عليه السلام كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً ثم يعود إلى أهله بالبلاد المقدسة والله أعلم والحديث — والله أعلم — أن مافيه مرفوع أما كن صرح بها ابن عباس عن النبى ﷺ

وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذا السياق مايخالف بعض هذا كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى قالا : أخبرنا مؤمل أخبرنا سفيان عن أبى اسحق عن حارثة بن مضرب عن على بن أبى طالب قال : لما أمر ابراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر قال : فلما قدم مكة رأى على رأسه فى موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس فكلمه قال يا ابراهيم : ابن على ظلى أوقال على قدرى ولا تزد ولاتنقص فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر فقالت هاجر يا ابراهيم : الى من تكلنا ؟ قال الى الله قالت . انطلق فانه لايضيعنا قال : فعطش إسماعيل عطشاً شديدا قال . فصعدت هاجر الى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً حتى أتت المروة فلم ترشيئاً ، ثم رجعت الى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً ففعلت ذلك سبع مرات فقالت : يا إسماعيل مت حيث لاأراك فأتته وهو يفحص برجله من العطش فناداها جبريل فقال لها . من أنت ؟ قالت . أناهاجر أم ولد ابراهيم قال : فإلى من وكلكما ؟ قالت . وكلنا الى الله ، قال . وكلكما الى كاف قال . ففحص الأرض بأصبعه فنبعت زمزم فجعلت تحبس الماء فقال : دعيه فانه روى[1] ففى هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما وقد يحتمل أنه كان محفوظاً أن يكون أولا وضع له حوطا وتحجيرا لا أنه بناه إلى أعلاه حتى كبر اسماعيل فبنياه معاً كما قال الله تعالى.

ثم قال ابن جرير أخبر هناد بن السرى حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة أن رجلا قام الى على رضى الله عنه فقال ألا تخبرنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الأرض ؟ فقال لا ، ولكنه أول بيت وضع فى البركة مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وان شئت أنبأتك كيف بنى ، إن الله أوحى الى ابراهيم أن ابن لى بيتاً فى الأرض فضاق ابراهيم بذلك ذرعا فأرسل الله السكينة وهى ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت الى مكة فتطوت على موضع البيت كطى[2] الحجفة وأمر ابراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فبنى ابراهيم وبقى الحجر فذهب الغلام يبغى شيئا فقال ابراهيم لاأبغى حجرا كما آمرك قال فانطلق الغلام يلتمس له حجرا فأتاه به فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر فقال أتانى به من لم يتكل على بنائك جاء به جبريل عليه السلام من السماء فأتمه .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المقرى أخبرنا سفيان عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب عن كعب الأحبار قال . كان البيت غثاءة على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاما ومنه دحيت الأرض . قال سعيد . وحدثنا على بن أبى طالب أن ابراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوء البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتا ، قال . فكشفت عن أحجار لايطيق الحجر إلا ثلاثون رجلا فقلت يا أبا محمد فإن الله يقول (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) قال كان ذلك بعد وقال السدى . إن الله عز وجل أمر ابراهيم أن يبنى البيت هو واسماعيل ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . فانطلق ابراهيم حتى أتى مكة فقام هو واسماعيل وأخذا المعاول لايدريان أين البيت فبعث الله ريحاً يقال لها الريح الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس فذلك حين يقول تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) (واذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن . قال ابراهيم لإسماعيل يابنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه ههنا . قال يا أبت انى كسلان لغب . قال على ذلك فانطلق يطلب له حجرا وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا

(١) كذا فى النسخة الأميرية وضبط بتشديد الواو ولعله للياء وفى نسخة خزانة الأزهر : دعيه فإنها رواء . (٢) وفى ابن جرير كتطوى .

الناس فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن ، فقال يا أبت من جاءك بهذا ؟ قال جاء به من هو أنشط منك ، فبنيا وهما يدعوان الكلمات التى ابتلى ابراهيم ربه ، فقال (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وفى هذا السياق مايدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل ابراهيم وإنما هدى ابراهيم اليها وبوئ لها ، وقد ذهب الى هذا ذاهبون كما قال الإمام عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت) قال القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك ، وقال عبد الرزاق أيضاً أخبرنا هشام بن حسان عن سوار ختن عطاء عن عطاء بن أبى رباح قال : لما أهبط الله آدم من الجنة كانت رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم يأنس اليهم فهابت الملائكة حتى شكت الى الله فى دعائها وفى صلاتها فخفضه الله تعالى الى الأرض ، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا ذلك الى الله فى دعائه وفى صلاته فوجه الى مكة فكان موضع قدميه قرية وخطوه مفازة حتى انتهى الى مكة وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه . وذلك قول الله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وقال عبدالرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال : قال آدم إنى لا أسمع أصوات الملائكة ، قال بخطيئتك ولكن اهبط الى الأرض فابن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء فيزعم الناس أنه بناه من خمسة (١) أجبل من حراء وطور زيتا وطور سيناء والجودى ، وكان ربضه من حراء فكان هذا بناء آدم حتى بناه ابراهيم عليه السلام بعد ، وهذا صحيح الى عطاء ولكن فى بعضه نكارة والله أعلم .

وقال عبدالرزاق أيضا أخبرنا معمر عن قتادة قال : وضع الله البيت مع آدم أهبط الله آدم الى الأرض ، وكان مهبطه بأرض الهند وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض فكانت الملائكة تهابه فنقص الى ستين ذراعا فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم ، فشكا ذلك الى الله عز وجل فقال الله يا آدم إنى قد أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى ، فانطلق اليه آدم فخرج ومد له فى خطوه ، فكان بين كل خطوتين مفازة فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك ، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء .

وقال ابن جرير : أخبرنا ابن حميد أخبرنا يعقوب العمى عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس قال : وضع الله البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفى عام ، ثم دحيت الأرض من تحت البيت . وقال محمد ابن اسحق حدثنى عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد وغيره من أهل العلم ، إن الله لما بوأ إبراهيم مكان البيت خرج اليه من الشام وخرج معه بإسماعيل وأمه هاجر واسماعيل طفل صغير يرضع وحملوا فيما حدثنى على البراق ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم ، وخرج معه جبريل فكان لايمر بقرية إلا قال : أبهذه أمرت ياجبريل ؟ فيقول جبريل امضه ، حتى قدم به مكة وهى إذ ذاك عضاه وسلم وسمر (٢) وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها ، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة فقال ابراهيم لجبريل : أههنا أمرت أن أضعهما ؟ قال نعم فعمد بهما الى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أم اسماعيل أن تتخذ فيه عريشا فقال (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) الى قوله (لعلهم يشكرون) وقال عبدالرزاق أخبرنا هشام بن حسان أخبرنى حميد عن مجاهد قال : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا بألفى سنة وأركانه فى الأرض السابعة ، وكذا قال ليث بن أبى سليم عن مجاهد القواعد فى الأرض السابعة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أخبرنا عمرو بن رافع أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية عن عبد المؤمن بن خالد عن علباء بن أحمر أن ذا القرنين قدم مكة فوجد ابراهيم واسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل . فقال مالكما ولأرضنا ؟ فقال نحن عبدان مأموران أمرنا ببناء هذه الكعبة . قال فهاتا بالبينة على ما تدعيان . فقامت خمسة أكبش فقلن نحن نشهد ان ابراهيم واسماعيل عبدان مأموران أمرا ببناء هذه الكعبة . فقال قد رضيت وسلمت ، ثم مضى وذكر الأزرقى فى تاريخ مكة ان ذا القرنين طاف مع ابراهيم عليه السلام بالبيت وهذا يدل على تقدم زمانه والله أعلم .

وقال البخارى رحمه الله قوله تعالى (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل) الآية . القواعد أساسه واحدها

---

(١) قوله خمسة المعدود أربعة وحرر (٢) فى نسخة الأزهر وابن جرير : سلم وسمر بدون عطف اه .

قاعدة والقواعد من النساء واحدتها قاعدة . حدثنا إسماعيل حدثنى مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله أن عبدالله ابن محمد بن أبى بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة زوج النبى ﷺ . أن رسول الله ﷺ قال « ألم ترى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ » فقلت يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال « لولا حدثان قومك بالكفر » فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر الا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام . وقد رواه فى الحج عن القعنبى وفى أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن يوسف ومسلم عن يحيى بن يحيى ومن حديث بن وهب والنسائى من حديث عبد الرحمن بن القاسم كلهم عن مالك به . ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع قال سمعت عبد الله بن أبى بكر(١) بن أبى قحافة يحدث عبدالله بن عمر عن عائشة عن النبى ﷺ قال « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ــ أو قال بكفر ــ لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر » وقال البخارى أخبرنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبى إسحق عن الأسود قال : قال لى ابن الزبير كانت عائشة تسر إليك حديثا كثيراً فما حدثتك فى الكعبة قال قلت قالت لى قال النبى ﷺ « ياعائشة لولا قومك حديث عهدهم ــ فقال ابن الزبير ــ بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين بابا يدخل منه الناس وبابا يخرجون منه » ففعله ابن الزبير انفرد بإخراجه البخارى فرواه هكذا فى كتاب العلم من صحيحه ، وقال مسلم فى صحيحه حدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال لى رسول الله ﷺ « لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فان قريشا حين بنت البيت استقصرت ، ولجعلت لها خلفا » قال . وحدثناه أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا أخبرنا ابن نمير عن هشام بهذا الاسناد انفرد به مسلم : قال وحدثنى محمد بن حاتم حدثنى محمد بن مهدى أخبرنا سليم بن حيان عن سعيد يعنى ابن ميناء قال سمعت عبد الله بن الزبير يقول حدثتنى خالتى يعنى عائشة رضى الله عنها قالت قال النبى ﷺ « ياعائشة لولا قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فان قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة » انفرد به أيضاً :

﴿ ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدد طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ﴾

وقد نقل معهم فى الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً الى يوم الدين . قال محمد بن إسحق بن يسار فى السيرة . ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها وإنما كانت رضما فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وذلك أن نفراً سرقوا كنز الكعبة وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة وكان الذى وجد عنده الكنز دويك مولى بنى مليح بن عمرو من خزاعة فقطعت قريش يده ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها وكان بمكة رجل قبطى نجار فهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كانت تطرح فيها مايهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون ، وذلك انه كان لايدنو منها أحد إلا احزألت(٢) وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها فبينا هى يوما تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها فقالت قريش إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا ، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها قام ابن وهب(٣) بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال يامعشر قريش لاتدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبا ، لايدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ، قال ابن إسحق والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم

(١) هو عبدالله بن محمد بن أبى بكر كما فى رواية أخرى لمسلم أيضا فان عبدالله بن أبى بكر توفى فى خلافة أبيه كما فى الاصابة اهـ .(٢) احزألت : ارتفعت واستوفزت للوثوب (٣) فى نسخة الأزهر أبو وهب وجاء فى حاشيتها أبو وهب خال والد النبى صلى الله عليه وسلم وكان شريفا ممدوحا .

قال ثم إن قريشا تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة وكان مابين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم وكان شق الحجر لبنى عبدالدار بن قصى ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصى ولبنى عدى بن كعب بن لؤى وهو الحطيم ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم فى هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع اللهم إنا لانريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة وقالوا ننظر فان أصيب لم نهدم منها شيئا ، ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله ماصنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم عليه السلام أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضا : قال فحدثنى بعض من يروى الحديث أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضا أحدهما فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

قال ابن إسحق . ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن يعنى الحجر الأسود فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا « لعقة الدم » فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريش كلهم قال : يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا هذا محمد . فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : هلم إلى ثوبا . فأتى به فأخذ الركن يعنى الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ ثم بنى عليه وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى (الأمين) فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا . قال الزبير ابن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها .

عجبت لما تصوبت العقاب * إلى الثعبان وهى لها اضطراب * وقد كانت يكون لها كشيش
وأحيانا يكون لها وثاب * إذا قمنا إلى التأسيس شدت * تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الرجز جاءت * عقاب تتلئب لها انصباب * فضمتها اليها ثم خلت
لنا البنيان ليس له حجاب * فقمنا حاشدين إلى بناء * لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه * وليس على مساوينا ثياب * أعز به المليك بنى لؤى
فليس لأصله منهم ذهاب * وقد حشدت هناك بنو عدى * ومرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزا * وعند الله يلتمس الثواب

قال ابن إسحق وكانت الكعبة على عهد النبى ﷺ ثمانى عشر ذراعا وكانت تكسى القباطى ثم كسيت بعد البرود وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف (قلت) ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت فى أول إمارة عبدالله ابن الزبير بعد سنة ستين وفى آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابا شرقيا وبابا غربيا ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك كما قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه أخبرنا هناد بن السرى أخبرنا ابن أبى زائدة أخبرنا ابن أبى سليمان عن عطاء قال لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان

من أمره ما كان تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يحزبهم أو يجيروهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال . يا أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهى منها ؟ قال ابن عباس إنه قد خرق لي رأي فيها أرى أن تصلح ما وهى منها وتدع بيتا أسلم الناس عليه ، وأحجاراً أسلم الناس عليها وبعث عليها النبي ﷺ فقال ابن الزبير لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجدده فكيف بيت ربكم عز وجل ، إني مستخير ربي ثلاثا ثم عازم على أمري فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها فتحاماها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤ ، وقال ابن الزبير إني سمعت عائشة رضي الله عنها تقول إن النبي صلى الله عليه وسلم :قال « لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقويني على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعلت له بابا يدخل الناس منه ، وبابا يخرجون منه » قال فأنا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس ، قال : فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى له أسا فنظر الناس اليه فبنى عليه البناء وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعا فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع وجعل له بابين أحدهما يدخل منه ، والآخر يخرج منه . فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره ان ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر اليه العدول من أهل مكة فكتب اليه عبدالملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء أما مازاده في طوله فأقره ، وأما مازاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذي فتحه فنقضه وأعاده إلى بنائه ، وقد رواه النسائي في سننه عن هناد عن يحيي بن أبي زائدة عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء عن ابن الزبير عن عائشة بالمرفوع منه ولم يذكر القصة وقد كانت السنة إقرارا ما فعله عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأنه هو الذي وده رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالاسلام وقرب عهدهم من الكفر ، ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ قال : وددنا أنا تركناه وما تولى ، كما قال مسلم : حدثني محمد بن حاتم حدثنا محمد بن بكر أخبرنا ابن جريج سمعت عبدالله بن عبيد بن عمير والوليد بن عطاء يحدثان عن الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة قال عبدالله بن عبيد : وفد الحارث بن عبيدالله على عبد الملك بن مروان في خلافته فقال عبد الملك . ما أظن أبا حبيب يعني ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها ، قال الحارث بلى أنا سمعته منها . قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت قال رسول الله ﷺ « إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فان بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه » فأراها قريبا من سبعة أذرع هذا حديث عبد الله بن عبيد بن عمير وزاد عليه الوليد بن عطاء قال النبي ﷺ « ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقيا وغربيا وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها» ؟ قالت : قلت لا . قال « تعززا أن لا يدخلها إلا من أرادوا فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقي حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط » قال عبدالملك فقلت للحارث أنت سمعتها تقول هذا ؟ قال نعم قال فنكت ساعة بعصاه ثم قال . وددت أني تركت وما تحمل . قال مسلم وحدثناه محمد بن عمرو بن جبلة حدثنا أبو عاصم ح وحدثنا عبد بن حميد أخبرنا عبد الرزاق كلاهما عن ابن جريج بهذا الاسناد مثل حديث أبي بكر قال : وحدثنا محمد بن حاتم حدثنا عبد الله بن بكر السهمي حدثنا حاتم ابن أبي صغيرة عن أبي قزعة أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال . قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ، يقول سمعتها تقول : قال رسول الله ﷺ « يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر فإن قومك قصروا في البناء » فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فأني سمعت أم المؤمنين تحدث هذا . قال لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير ، فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة لأنه قد روي عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد والحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة وعبدالله ابن الزبير وعبدالله بن محمد بن أبي بكر وعروة بن الزبير فدل هذا على صواب مافعله ابن الزبير فلو ترك لكان جيداً.

ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله كما ذكر عن أمير المؤمنين هرون الرشيد أو أبيه المهدى أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير . فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها . فترك ذلك الرشيد ، نقله عياض والنووى ولا تزال — والله أعلم — هكذا إلى آخر الزمان إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » أخرجاه وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كأنى به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا » رواه البخارى وقال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده أخبرنا أحمد بن عبد الملك الحرانى أخبرنا محمد بن سلمة عن ابن إسحق عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ، ولكأنى أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته ومعوله » — الفدع زيغ بين القدم وعظم الساق — وهذا والله أعلم إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج لما جاء فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج »

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) قال ابن جرير يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك فى الطاعة أحدا سواك ، ولا فى العبادة غيرك ، وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا أبى أخبرنا إسماعيل عن رجاء بن حبان الحصينى القرشى أخبرنا معقل بن عبيد الله عن عبد الكريم (واجعلنا مسلمين لك) قال مخلصين لك (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) قال مخلصة وقال أيضاً أخبرنا على بن الحسين أخبرنا المقدمى أخبرنا سعيد ابن عامر عن سلام بن أبى مطيع فى هذه الآية (واجعلنا مسلمين) قال كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات . وقال عكرمة (ربنا واجعلنا مسلمين لك) قال الله . قد فعلت (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) قال الله قد فعلت . وقال السدى (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) يعنيان العرب . قال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم لأن من ذرية إبراهيم بنى إسرائيل وقد قال الله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) (قلت) وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدى فان تخصيصهم بذلك لا ينفى من عداهم والسياق إنما هو فى العرب ولهذا قال بعده (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) الآية . والمراد بذلك محمد ﷺ ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) ومع هذا لا ينفى رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) وغير ذلك من الأدلة القاطعة وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين فى قوله (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) وهذا القدر مرغوب فيه شرعا فان من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له . ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام (إنى جاعلك للناس إماما) قال (ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) وهو قوله (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، أنه قال « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »

(وأرنا مناسكنا) قال ابن جريج عن عطاء (وأرنا مناسكنا) أخرجها لنا علمناها وقال مجاهد (أرنا مناسكنا) مذابحنا . وروى عن عطاء أيضا وقتادة نحو ذلك . وقال سعيد بن منصور : أخبرنا عتاب بن بشير عن خصيف عن مجاهد قال : قال إبراهيم (أرنا مناسكنا) فأتاه جبرائيل فأتى به البيت ، فقال ارفع القواعد فرفع القواعد وأتم البنيان ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا قال هذا من شعائر الله ثم انطلق به إلى المروة فقال وهذا من شعائر الله . ثم انطلق به نحو منى فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة فقال كبر وارمه فكبر ورماه ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة

الوسطى فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له : كبر وارمه ، فكبر ورماه . فذهب الخبيث إبليس وكان الخبيث أراد أن يدخل فى الحج شيئاً فلم يستطع فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال هذا المشعر الحرام فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات قال قد عرفت ما أريتك ؟ قالها ثلاث مرات ، قال نعم . وروى عن أبى مجلز وقتادة نحو ذلك، وقال أبو داود الطيالسى أخبرنا حماد بن سلمة عن أبى العاصم الغنوى عن أبى الطفيل عن ابن عباس قال إن إبراهيم لما أرى أوامر المناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه إبراهيم ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى فقال : هذا مناخ الناس فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به إلى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب فأتى به جمعا فقال هذا المشعر ثم أتى به عرفة فقال هذه عرفة فقال له جبريل أعرفت ؟

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولا منهم أى من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا فى الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن كما قال الإمام أحمد أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤياى أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين » وكذلك رواه ابن وهب والليث وكاتبه عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وتابعه أبو بكر بن أبى مريم عن سعيد بن سويد به ، وقال الإمام أحمد أيضا أخبرنا أبو النضر أخبرنا الفرج أخبرنا لقمان بن عامر قال سمعت أبا أمامة قال قلت يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك ؟ قال «دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بى . ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره فى الناس إبراهيم عليه السلام ولم يزل ذكره فى الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسباً وهو عيسى بن مريم عليه السلام حيث قام فى بنى إسرائيل خطيبا وقال (إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) ولهذا قال فى هذا الحديث دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم * وقوله ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام قيل كان مناما رأته حين حملت به وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم وكان ذلك توطئة وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ولهذا تكون الشام فى آخر الزمان معقلا للاسلام وأهله وبها ينزل عيسى بن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء فى الصحيحين « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » وفى صحيح البخارى « وهم بالشام » قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقيل له قد استجيب لك وهو كائن فى آخر الزمان وكذا قال السدى وقتادة * وقوله تعالى (ويعلمهم الكتاب) يعنى القرآن (والحكمة) يعنى السنة قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم وقيل الفهم فى الدين ولا منافاة (ويزكيهم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى طاعة الله والإخلاص وقال محمد بن إسحق (ويعلمهم الكتاب والحكمة) قال يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته ، وقوله (إنك أنت العزيز الحكيم) أى العزيز الذى لا يعجزه شىء وهو قادر على كل شىء الحكيم فى أفعاله وأقواله فيضع الأشياء فى محالها لعلمه وحكمته وعدله .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى ردا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء فانه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه وخالف فى ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال (ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فانه سيهدين) وقال تعالى (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) ولهذا وأمثاله قال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه ؟) أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطفى فى الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلا وهو فى الآخرة من الصالحين السعداء فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغى فأى سفه أعظم من هذا ؟ أم أى ظلم أكبر من هذا كما قال تعالى إن الشرك لظلم عظيم قال أبو العالية وقتادة نزلت هذه الآية فى اليهود أحدثوا طريقاً ليست من عند الله وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين *)

وقوله تعالى (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) أى أمره الله بالاخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعا وقدرا وقوله(ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) أى وصى بهذه الملة وهى الاسلام لله أويعود الضمير على الكلمة وهى قوله (أسلمت لرب العالمين) لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم كقوله تعالى (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) وقد قرأ بعض السلف ويعقوب بالنصب عطفا على بنيه كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحق وكان حاضرا ذلك وقد ادعى القشيرى فيما حكاه القرطبى عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح والظاهر والله أعلم أن إسحق ولد له يعقوب فى حياة الخليل وسارة لأن البشارة وقعت بهما فى قوله (فبشرناها باسحق ومن وراء إسحق يعقوب)وقد قرىء بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض فلولم يوجد يعقوب فى حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحق كبير فائدة وأيضا فقد قال الله تعالى فى سورة العنكبوت (ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) الآية وقال فى الآية الأخرى (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) وهذا يقتضى أنه وجد فى حياته وأيضا فانه بانى بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة وثبت فى الصحيحين من حديث أبى ذر قلت يارسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت ثم أى : قال « بيت المقدس» قلت كم بينهما : قال « أربعون سنة » الحديث فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذى اعتقد أنه بانى بيت المقدس — وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه — وبين إبراهيم أربعين سنة وهذا مما أنكر على ابن حبان فان المدة بينهما تزيد على ألوف سنين والله أعلم وأيضا فان وصية يعقوب لبنيه سيأتى ذكرها قريبا وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين * وقوله (يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون) أى أحسنوا فى حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبا على ماكان عليه ويبعث على مامات عليه وقد أجرى الله

الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ومن نوى صالحا ثبت عليه . وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاباع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ويعمل أهل النار فيما يبدو للناس وقد قال الله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يقول تعالى محتجا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل — وهو يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم عليهم السلام — بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لاشريك له فقال لهم (ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه : قال النحاس والعرب تسمى العم أبا نقله القرطبي وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبا وحجب به الإخوة كما هو قول الصديق حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس، وابن الزبير ثم قال البخاري ولم يختلف عليه وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السلف والخلف وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه انه يقاسم الإخوة ، وحكى ذلك عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن ولتقريرها موضع آخر وقوله (إلها واحدا) أي نوحده بالألوهية ولانشرك به شيئا غيره (ونحن له مسلمون) أي مطيعون خاضعون كما قال تعالى (وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون) والآيات في هذا كثيرة والأحاديث فمنها قوله ﷺ « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » وقوله تعالى (تلك أمة قد خلت) أي مضت (لها ماكسبت ولكم ما كسبتم) أي إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لاينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرا يعود نفعه عليكم فان لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم (ولاتسئلون عما كانوا يعملون) وقال أبو العالية والربيع وقتادة (تلك أمة قد خلت) يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . ولهذا جاء في الأثر « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه[1] »

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

قال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله عز وجل (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) وقوله (قل بل ملة إبراهيم حنيفا) أي لانريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع (ملة إبراهيم حنيفا) أي مستقيما . قاله محمد بن كعب القرظي وعيسى ابن جارية : وقال خصيف عن مجاهد مخلصا . وروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس حاجا . وكذا روى عن الحسن والضحاك وعطية والسدى . وقال أبو العالية . الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته ويرى أن حجه عليه إن استطاع

(١) قد يطلق الأثر على مايشمل الحديث المرفوع لانه رواه مسلم مرفوعا من حديث طويل عن أبي هريرة

إليه سبيلا . وقال مجاهد والربيع بن أنس . حنيفا أى متبعا . وقال أبو قلابة : الحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم وقال قتادة : الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله عز وجل والختان

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مفصلا وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا ، ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا) الآية وقال البخارى حدثنا محمد بن بشار أخبرنا عثمان بن عمرة أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله » . وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى من حديث عثمان بن حكيم عن سعيد بن يسار عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ(آمنا بالله وما أنزل إلينا) الآية والأخرى بـ(آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) وقال أبو العالية والربيع وقتادة : الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلا ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط . وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى بنى إسماعيل : وقال الزمخشرى فى الكشاف : الأسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر وقد نقله الرازى عنه وقرره ولم يعارضه . وقال البخارى . الأسباط قبائل بنى إسرائيل ، وهذا يقتضى أن المراد بالأسباط هنا شعوب بنى إسرائيل وما أنزل الله من الوحى على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم (اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) الآية وقال تعالى (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا) قال القرطبى : : وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة ، وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر أى فى الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة . قال الزجاج : ويبين لك هذا ما حدثنا محمد ابن جعفر الأنبارى حدثنا أبو نجيد الدقاق حدثنا الأسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام . قال القرطبى . والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد . وقال قتادة . أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله . وقال سليمان بن حبيب إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ولا نعمل بما فيهما . وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا محمد بن محمد بن مصعب الصورى أخبرنا مؤمل أخبرنا عبيد الله بن أبى حميد عن أبى المليح عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن»

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾

يقول تعالى فان آمنوا ، يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به ياأيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم (فقد اهتدوا) أى فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . (وإن تولوا) أى عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم (فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله) أى فسينصرك عليهم ويظفرك بهم (وهو السميع العليم)

قال ابن أبى حاتم قرأ على يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنازياد بن يونس حدثنا نافع بن أبى نعيم قال أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه قال زياد فقلت له إن الناس ليقولون إن مصحفه كان فى حجره حين قتل فوقع الدم على (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) فقال نافع بصرت عينى بالدم على هـذه الآية وقد قـدم * وقوله (صبغة الله) قال الضحاك عن ابن عباس دين الله وكذا روى عن مجاهد وأبى العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفى والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك وانتصاب صبغة الله إما على الإغراء كقوله (فطرة الله) أى الزموا ذلك عليكموه وقال بعضهم بدلا من قوله (ملة إبراهيم) وقال سيبويه هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله (آمنا بالله) كقوله (وعد الله) وقد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه من رواية أشعث بن إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن نبى الله ﷺ قال « إن بنى إسرائيل قالوا يا رسـول الله هـل يصبغ ربك ؟ فقال اتقوا الله . فنـاداه ربه يا موسى سألوك هـل يصبغ ربك ؟ فقل نعم : أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغى » وأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) كذا وقع فى رواية ابن مردويه مرفوعا وهو فى رواية ابن أبى حاتم موقوف وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم .

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول الله تعالى مرشدا نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين (قل أتحاجوننا فى الله) أى تناظروننا فى توحيد الله والإخـلاص له والانقياد واتبـاع أوامره وترك زواجره (وهو ربنا وربكم) المتصرف فينا وفيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى نحن برآء منكم وممـا تعبدون وأنتم برآء منا كما قال فى الآية الأخرى (فان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم . أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) وقال تعالى (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) إلى آخر الآية وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم (وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله) إلى آخر الآية وقال تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) الآية وقال فى هذه الآية الكريمة (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون) أى نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا ونحن له مخلصون أى فى العبادة والتوجه ثم أنكر تعالى عليهم فى دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم إما اليهودية وإما النصرانية فقال (قل أأنتم أعلم أم الله) يعنى بل الله أعلم وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودا ولا نصارى كما قال تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) الآية والتى بعدها ، وقوله (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) قال الحسن البصرى كانو يقرءون فى كتاب الله الذى أتاهم إن الدين الإسـلام وإن محمـداً رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك ، وقوله (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد ووعيد شديد أى أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه . ثم قال تعـالى (تلك أمة قد خلت) أى قد مضت (لهـا ما كسبت ولكم ما كسبتم) أى لهم أعمالهم ولكم أعمالكم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) وليس يغنى عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا

مبشرين ومنذرين فانه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل ولاسيا بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

قيل المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب قاله الزجاج وقيل أحبار يهود قاله مجاهد وقيل المنافقون قاله السدى والآية عامة فى هؤلاء كلهم والله أعلم . قال البخارى أخبرنا أبو نعيم سمع زهيرا عن أبى إسحق عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر مانقول فيهم فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم) انفرد به البخارى من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر وقال محمد بن إسحق حدثنى إسماعيل بن أبى خالد عن أبى إسحق عن البراء قال كان رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت القدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنو لينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) فقال رجال من المسلمين وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت القدس فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله (سيقول السفهاء من الناس) إلى آخر الآية ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا الحسن بن عطية حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء قال : كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) قال فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود (ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها) فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل الله عزوجل (فولوا وجوهكم شطره) أى نحوه فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وقد جاء فى هذا الباب أحاديث كثيرة وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس قاله ابن عباس والجمهور ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره على قولين وحكى القرطبى فى تفسيره عن عكرمة وأبى العالية والحسن البصرى أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام . والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم عليه السلام فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق فخطب رسول الله ﷺ الناس

فأعلمهم بذلك وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر كما تقدم فى الصحيحين من رواية البراء ووقع عند النسائى من رواية أبى سعيد بن المعلى أنها الظهر وقال كنت أنا وصاحبى أول من صلى إلى الكعبة وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك فى مسجد بنى سلمة فسمى مسجد القبلتين وفى حديث نويلة بنت مسلم أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم فى صلاة الظهر قالت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثانى كما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به وإن تقدم نزوله وإبلاغه لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك وقالوا (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها) أى قالوا ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا فأنزل الله جوابهم فى قوله (قل لله المشرق والمغرب) أى الحكم والتصرف والأمر كله لله (فأينما[1] تولوا فثم وجه الله)و(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله) أى الشأن كله فى امتثال أوامر الله فحيثما وجهنا توجهنا فالطاعة فى امتثال أمره ولو وجهنا فى كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده وفى تصرفه وخدامه حيثما وجهنا توجهنا وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله فى الأرض إذ هى بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال : (قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)

وقد روى الإمام أحمد عن على بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن عن عمرو بن قيس عن محمد بن الأشعث عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى فى أهل الكتاب « إنهم لا يحسدونا على شىء كما يحسدونا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام آمين »

وقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) يقول تعالى إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل والوسط ههنا الخيار والأجود كما يقال قريش أوسط العرب نسبا ودارا أى خيرها وكان رسول الله ﷺ وسطا فى قومه ، أى أشرفهم نسبا ومنه الصلاة الوسطى التى هى أفضل الصلوات وهى العصر كما ثبت فى الصحاح وغيرها ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى (هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ « يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت ؟ فيقول نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح من يشهد لك . فيقول محمد وأمته ، قال فذلك قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم » رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه من طرق عن الأعمش وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال هل بلغكم هذا ؟ فيقولون لا فيقال له هل بلغت قومك ؟ فيقول نعم : فيقال من يشهد لك ، فيقول محمد وأمته فيدعى محمد وأمته : فيقال لهم هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون نعم . فيقال وما علمكم ؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال عدلا (لتكونوا شهداء على الناس ويكون

(١) كانت فى النسختين المطبوعة والمخطوطة : وحيثما . وهو من الاتفاق الغريب فى الغلط .

الرسول عليكم شهيدا) » وقال أحمد أيضا حدثنا أبومعاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) قال عدلا . وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبى حاتم من حديث عبدالواحد بن زياد عن أبى مالك الأشجعى عن المغيرة بن عتيبة بن نباس[1] حدثنى مكاتب لنا عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال « أنا وأمتى يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق مامن الناس أحد إلا ود أنه منا وما من نبى كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل » وروى الحاكم فى مستدركه وابن مردويه أيضا ، واللفظ له من حديث مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظى عن جابر بن عبد الله قال : شهد رسول الله ﷺ جنازة فى بنى مسلمة وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم والله يارسول الله لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفا مسلما وكان وأثنوا عليه خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنت بما تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذى بدا لنا منه فذاك فقال النبى ﷺ وجبت ، ثم شهد جنازة فى بنى حارثة وكنت إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم . يارسول الله بئس المرء كان إن كان لفظا غليظا فأثنوا عليه شرا ، فقال رسول الله ﷺ لبعضهم أنت بالذى تقول . فقال الرجل الله أعلم بالسرائر ، فأما الذى بدا لنا منه فذاك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ثم قال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبى الفرات عن عبد الله بن بريدة عن أبى الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتا ذريعا ، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خير فقال : وجبت ثم مر بأخرى فأثنى عليها شر ، فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال قلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » قال فقلنا وثلاثة قال : فقال « وثلاثة» قال : فقلنا واثنان قال «واثنان» .ثم لم نسأله عن الواحد . وكذا رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث داود ابن أبى الفرات به : وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى حدثنا أبوقلابة الرقاشى حدثنى أبوالوليد حدثنا نافع ابن عمر حدثنى أمية بن صفوان عن أبى بكر بن أبى زهير الثقفى عن أبيه : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنباوة يقول «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم » قالوا بم يارسول الله ؟ قال « بالثناء الحسن والثناء السىء أنتم شهداء الله فى الأرض » ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يزيد بن هرون ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هرون وعبد الملك بن عمر وشريح عن نافع عن ابن عمر به .

وقوله تعالى (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) يقول تعالى إنما شرعنا لك يامحمد التوجه أولا إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه ، أى مرتدا عن دينه وإن كانت لكبيرة ، أى هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة،أى وان كان هذا الأمر عظيما فى النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ماجاء به فهو الحق الذى لامرية فيه ، وأن الله يفعل مايشاء ويحكم مايريد فله أن يكلف عباده بماشاء وينسخ مايشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك بخلاف الذين فى قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكا كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق ، كما قال الله تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم) وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى) وقال تعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) . ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه فى ذلك وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب

(١) فى نسخة فهاس بالفاء والهاء لحرر

من سادات الصحابة : وقد ذهب بعضهم إلى ان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا الى القبلتين .
وقال البخاري في تفسير هذه الآية : حدثنا مسدد حدثنا يحي عن سفيان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال : بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال : قد أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها . فتوجهوا إلى الكعبة . وقد رواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر ورواه الترمذي من حديث سفيان الثوري وعنده أنهم كانوا ركوعا فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع . وكذا رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مثله ، وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لأوامر الله عزوجل رضى الله عنهم أجمعين:

وقوله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله وفي الصحيح من حديث أبي إسحق السبيعي عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ؟ فقال الناس ما حالهم في ذلك : فأنزل الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه . وقال ابن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أي ليعطيكم أجرهما جميعا (إن الله بالناس لرؤف رحيم) وقال الحسن البصري (وما كان ليضيع إيمانكم) أي ما كان الله ليضيع محمدا ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف (إن الله بالناس لرءوف رحيم) وفي الصحيح ان رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبيا من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها . فقال رسول الله ﷺ « أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه » ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : « فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها » .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . كان أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك في السماء) الى قوله (فولوا وجوهكم شطره) فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب) وقال (فأينما تولوا فثم وجه الله) وقال الله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمري عن عمه عبيد الله بن عمرو عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس : قال كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه الى السماء . فأنزل الله (فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) إلى الكعبة الى الميزاب يؤم به جبرائيل عليه السلام . وروى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء عن يحي بن قطة قال : رأيت عبد الله بن عمرو جالسا في المسجد الحرام بإزاء الميزاب فتلا هذه الآية (فلنولينك قبلة ترضاها) قال نحو ميزاب الكعبه . ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه . ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن عرفة عن هشام عن يعلى بن عطاء به . وهكذا قال غيره وهو أحد قولي الشافعي رضى الله عنه : إن الغرض إصابة عين الكعبة والقول الآخر وعليه الأكثرون أن المراد المواجهة كما رواه الحاكم من حديث محمد بن إسحق عن عمير بن زياد الكندي عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه (فول وجهك شطر المسجد الحرام) قال شطره قبله . ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وهذا قول أبي العالية ومجاهد وعكرمه وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم . وكما تقدم في الحديث الآخر « ما بين المشرق والمغرب قبلة » وقال القرطبي : روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس

رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتى » وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : حدثنا زهير عن أبى إسحق عن البراء أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه قبلته قبل البيت ؟ وأنه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت .

وقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أوسبعة عشر شهرا وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحول نحو الكعبة فنزلت (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) فصرف إلى الكعبة وروى النسائى عن أبى سعيد بن المعلى قال : كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فنصلى فيه فمررنا يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد على المنبر ، فقلت لقد حدث أمر فجلست فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها) حتى فرغ من الآية ، فقلت لصاحبى تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أول من صلى فتوارينا فصليناهما . ثم نزل النبى ﷺ وصلى للناس الظهر يومئذ . وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر : أن أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلاة الظهر وأنها الصلاة الوسطى، والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر . ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا الحسين بن إسحق التسترى حدثنا رجاء بن محمد السقطى حدثنا إسحق بن إدريس حدثنا إبراهيم بن جعفر حدثنى أبى عن جدته أم أبيه نويلة بنت مسلم قالت : صلينا الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا ركعتين ، ثم جاء من يحدثنا أن رسول ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام ، فحدثنى رجل من بنى حارثة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أولئك رجال يؤمنون بالغيب » وقال ابن مردويه أيضا : حدثنا محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا مالك بن إسماعيل النهدى حدثنا قيس عن زياد بن علاقة عن عمارة بن أوس قال : بينما نحن فى الصلاه نحو بيت المقدس ونحن ركوع إذ نادى مناد بالباب ان القبلة قد حولت إلى الكعبة . قال فأشهد على إمامنا أنه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة وقوله (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة فى حال السفر فانه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة وكذا فى حال المسايفة فى القتال يصلى على كل حال . وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده وإن كان مخطئا فى نفس الأمر لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها .

﴿ مسئلة ﴾ وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعى وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : بقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام) فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينا فى كمال القيام . وقال بعضهم . ينظر المصلى فى قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضى : ينظر فى حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة لأنه أبلغ فى الخضوع وآكد فى الخشوع وقد ورد به الحديث وأما فى حال ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفى حال سجوده إلى موضع أنفه وفى حال قعوده إلى حجره .

وقوله (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) أى واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما فى كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ولكن أهل الكتاب يتكاتمون

ذلك بينهم حسدا وكفراً وعنادا ولهذا تهددهم تعالى بقوله (وما الله بغافل عما يعملون)

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ماجاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ولهذا قال ههنا (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك) وقوله (وما أنت بتابع قبلتهم) إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته وأنه لايتبع أهواءهم فى جميع أحواله ولا كونه متوجها إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذى يعلمه العالم إلى الهوى ، فان العالم الحجة عليه أقوم من غيره . ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد به الأمة (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين)

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشىء بهذا كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير « ابنك هذا» ؟ قال نعم يارسول الله أشهد به ، قال « أما إنه لايخفى عليك ولاتخفى عليه » قال القرطبى : ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام أتعرف محمدا كما تعرف ولدك ؟ قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته وإنى لا أدرى ما كان من أمه (قلت) وقد يكون المراد (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) من بين أبناء الناس كلهم . لا يشك أحد ولايمترى فى معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى انهم مع هذا التحقق والإتقان العلمى (ليكتمون الحق) أى ليكتمون الناس مافى كتبهم من صفة النبى صلى الله عليه وسلم (وهم يعلمون) ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ماجاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لامرية فيه ولاشك فقال (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قال العوفى عن ابن عباس ولكل وجهة هو موليها يعنى بذلك أهل الأديان ، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون . وقال أبو العالية لليهودى وجهة هو موليها ، وللنصرانى وجهة هو موليها وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التى هى القبلة . وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس والسدى نحو هذا وقال مجاهد فى الرواية الأخرى والحسن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة ، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر (ولكل وجهة هو مولاها) وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا) وقال ههنا (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شىء قدير) أى هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * ﴾

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض وقد اختلفوا فى حكمة هذا التكرار ثلاث مرات فقيل تأكيد لأنه أول ناسخ وقع فى الاسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره ، وقيل بل هو منزل على أحوال فالأمر ، الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثانى لمن هو فى مكة غائبا عنها ، والثالث لمن هو فى بقية البلدان هكذا وجهه فخر الدين الرازى . وقال القرطبى الأول لمن هو بمكة والثانى لمن هو فى بقية الأمصار والثالث لمن خرج فى الأسفار ورجح هذا الجواب القرطبى ، وقيل إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق : فقال أولا (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها) الى قوله (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون) فذكر فى هذا المقام إجابته إلى طلبته وأمره بالقبلة التى كان يود التوجه إليها ويرضاها : وقال فى الأمر الثانى (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون) فذكر أنه الحق من الله وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقا لرضا الرسول ﷺ فبين أنه الحق أيضا من الله يحبه ويرتضيه وذكر فى الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما فى كتبهم انه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التى هى أشرف وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول اليها ، وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار وقد بسطها الرازى وغيره والله أعلم : وقوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أى أهل الكتاب فانهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة فاذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس وهذا أظهر قال أبو العالية (لئلا يكون للناس عليكم حجة) يعنى به أهل الكتاب حين قالوا صرف محمد إلى الكعبة . وقالوا اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه وكان حجتهم على النبى ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع ابن أنس وقتادة والسدى نحو هذا . وقال هؤلاء فى قوله (إلا الذين ظلموا منهم) يعنى مشركى قريش . ووجه بعضهم حجة الظلمة وهى داحضة ان قالوا إن هذا الرجل يزعم انه على دين إبراهيم فان كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه والجواب أن الله تعالى اختار له التوجه الى بيت المقدس أولا لما له تعالى فى ذلك من الحكمة فأطاع ربه تعالى فى ذلك ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهى الكعبة فامتثل أمر الله فى ذلك أيضا فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله فى جميع أحواله لايخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له ، وقوله (فلاتخشوهم واخشونى) أى لاتخشوا شبه الظلمة المتعنتين وأفردوا الخشية لى ، فانه تعالى هو أهل أن يخشى منه : وقوله (ولأتم نعمتى عليكم) عطف على (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أى لأتم نعمتى عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها (ولعلكم تهتدون) أى الى ماضلت عنه الأمم هديناكم اليه وخصصناكم به ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ اليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات

ويزكيهم أى يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهى السنة ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون ، فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول الفرا فانتقلوا ببركة رسالته ، ويمن سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء . فصاروا أعمق الناس علما ، وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا ، وأصدقهم لهجة . وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم) الآية وذمّ من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) قال ابن عباس يعنى بنعمة الله محمدا ﷺ ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره : وقال (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) قال مجاهد فى قوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) يقول كما فعلت فاذكرونى ، قال عبد الله بن وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم ان موسى عليه السلام قال يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه « تذكرنى ولا تنسانى ، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى » قال الحسن البصرى وأبو العالية والسدى والربيع بن أنس ان الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره وقال بعض السلف فى قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) قال هو أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا يزيد بن هرون أخبرنا عمارة الصيدلانى أخبرنا مكحول الأزدى قال قلت لابن عمر أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله ، وقد قال الله تعالى (فاذكرونى أذكركم) قال إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت وقال الحسن البصرى فى قوله (فاذكرونى أذكركم) قال اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى وعن سعيد بن جبير اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى ، وفى رواية برحمتى . وعن ابن عباس فى قوله (اذكرونى أذكركم) قال ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه وفى الحديث الصحيح « يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله عز وجل يا ابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ من الملائكة — أو قال فى ملأ خير منه — وإن دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا ، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة » صحيح الاسناد أخرجه البخارى من حديث قتادة وعنده قال قتادة الله أقرب بالرحمة : وقوله (واشكروا لى ولا تكفرون) أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) وقال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة — رجل من قيس — حدثنا أبو رجاء العطاردى قال خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال إن رسول الله ﷺ قال « من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه » وقال روح مرة : على عبده .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع فى بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة فان العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها أو فى نقمة فيصبر عليها كما جاء فى الحديث « عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له : إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له » وبين تعالى ان أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم فى قوله (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وفى الحديث ان رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى والصبر صبران فصبر على ترك المحارم والمآثم وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثانى أكثر ثوابا لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب فذاك أيضا واجب كالاستغفار من المعايب كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الصبر فى بابين الصبر لله بما أحب

وإن ثقل على الأنفس والأبدان والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله : وقال على بن الحسين زين العابدين إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين يا بنى آدم ؟ فيقولون إلى الجنة فيقولون قبل الحساب ؟ قالوا نعم ، قالوا ومن أنتم ، قالوا نحن الصابرون ، قالوا وما كان صبركم ؟ قالوا صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله ، قالوا أنتم كما قلتم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين (قلت) ويشهد لهذا قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال سعيد بن جبير الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر

وقوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء) يخبر تعالى أن الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون كما جاء فى صحيح مسلم أن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال ماذا تبغون ؟ فقالوا يا ربنا وأى شىء نبغى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعى عن الإمام مالك عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضا وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر فى القرآن تشريفا لهم وتكريما وتعظيما

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾

أخبرنا تعالى أنه يبتلى عباده : أى يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع كما قال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) فان الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه . ولهذا قال لباس الجوع والخوف . وقال ههنا (بشىء من الخوف والجوع) أى بقليل من ذلك (ونقص من الأموال) أى ذهاب بعضها (والأنفس) كموت الأصحاب والأقارب والأحباب (والثمرات) أى لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها . قال بعض السلف ، فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه . ولهذا قال تعالى (وبشر الصابرين) وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله ، وبالجوع صيام رمضان ، وبنقص الأموال الزكاة ، والأنفس الأمراض ، والثمرات الأولاد ، وفى هذا نظر والله أعلم ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) أى تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف فى عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون فى الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) أى ثناء من الله عليهم . قال سعيد بن جبير : أى أمنة من العذاب (وأولئك هم المهتدون) قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نعم العدلان ونعمت العلاوة (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) فهذان العدلان (وأولئك هم المهتدون) فهذه العلاوة وهى ما توضع بين العدلين وهى زيادة فى الحمل

فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول (إنا لله وإنا إليه راجعون)عند المصائب أحاديث كثيرة . فمن ذلك مارواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث يعنى ابن سعد عن يزيد بن عبد الله حدثنا أسامة بن الهاد عن عمرو ابن أبى عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت أتانى أبو سلمة يوما من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سررت به . قال « لا يصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول . اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها، إلا فعل ذلك به» ، قالت أم سلمة فحفظت ذلك منه فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها ، ثم رجعت إلى نفسى . فقلت من أين لى خير من أبى سلمة ؟ فلما انقضت عدتى استأذن علىّ رسول الله ﷺ وانا أدبغ إهابا لى فغسلت يدى من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبنى إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته قلت يا رسول الله مابى أن لا يكون بك الرغبة ولكنى امرأة فىّ غيرة شديدة فأخاف أن ترى منى شيئاً يعذبنى الله به وانا امرأة قد دخلت فى السن وانا ذات عيال ، فقال « أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك . وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ،وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالى» .قالت . فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة بعد : أبدلنى الله بأبى سلمة خيرا منه : رسول الله ﷺ . وفى صحيح مسلم عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول(إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرا منها » . قالت فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيرا منه : رسول الله ﷺ . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد وعباد بن عباد قالا حدثنا هشام بن أبى هشام حدثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن على عن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها - وقال عباد قدم عهدها - فيحدث لذلك استرجاعا إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب». ورواه ابن ماجه فى سننه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن وكيع عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها.وقد رواه إسماعيل بن علية ويزيد بن هرون عن هشام بن زياد عن أبيه (كذا) عن فاطمة عن أبيها.وقال الإمام أحمد أنا يحيى بن إسحق السيلحينى(١) أنا حماد بن سلمة عن أبى سنان قال. دفنت ابنا لى فإنى لفى القبر إذ أخذ بيدى أبو طلحة يعنى الخولانى فأخرجنى وقال لى : ألا أبشرك قلت بلى. قال.حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ «قال الله : يا ملك الموت قبضت ولد عبدى؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال نعم. قال فما قال ؟ قال حمدك واسترجع . قال « ابنوا له بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد » ثم رواه عن على بن إسحق عن عبد الله بن المبارك فذكره . وهكذا رواه الترمذى عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به ، وقال حسن غريب واسم أبى سنان عيسى بن سنان

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمى أنا إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن عروة عن عائشة قال .قالت أرأيت قول الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) قلت فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما ، فقالت عائشة بئسما قلت يا ابن أختى إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانو يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوّف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ

(١) الياء بعد السين المهملة لأجل الإمالة وقد تستبدل ألفا لينة كما فى التقريب .

فقالوا يارسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوّف بالصفا والمروة فى الجاهلية . فأنزل الله عز وجل (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) قالت عائشة : ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية عن الزهرى أنه قال فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. فقال إن هذا العلم ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون إن الناس — إلا من ذكرت عائشة — كانوا يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) قال أبو بكر بن عبد الرحمن فلعلها نزلت فى هؤلاء وهؤلاء . ورواه البخارى من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ما تقدم . ثم قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنسا عن الصفا والمروة قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهليـة ، فلما جاء الاسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عزوجل (إن الصفا والمروة من شعائر الله) وذكر القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله وكانت بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما فنزلت هذه الآية . وقال الشعبى : كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الاسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية (قلت) ذكر محمد بن إسحق فى كتاب السيرة أن إسافا ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عبدا ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ، ولهذا يقول أبو طالب فى قصيدته المشهورة :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم * لمفضى السيول من إساف ونائل

وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ثم قال « أبدأ بما بدأ الله به » وفى رواية النسائى « ابدؤا بما بدأ الله به » وقال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبى رباح عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبى تجراة قالت رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى يدور به إزاره وهو يقول « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى » ثم رواه الإمام أحمد عن عبد الرزاق . أنا معمر عن واصل مولى أبى عيينة عن موسى ابن عبيدة عن صفية بنت شيبة ان امرأة أخبرتها انها سمعت النبى ﷺ بين الصفا والمروة يقول « كتب عليكم السعى فاسعوا » وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعى بين الصفا والمروة ركن فى الحج كما هو مذهب الشافعى ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك . وقيل إنه واجب وليس بركن فان تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة ، وقيل بل مستحب واليه ذهب أبو حنيفة والثورى والشعبى وابن سيرين وروى عن أنس وابن عمر وابن عباس وحكى عن مالك فى العتبية قال القرطبى واحتجوا بقوله تعالى (فمن تطوع خيراً) والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال « لتأخذوا عنى مناسككم » فكل ما فعله فى حجته تلك واجب لابد من فعله فى الحج إلا ما خرج بدليل والله أعلم ، وقد تقدم قوله عليه السلام « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى » فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله أى مما شرع الله تعالى لإبراهيم فى مناسك الحج وقد تقدم فى حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة فى طلب الماء لولدها لما نفد ماؤها وزادها حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك وليس عندها أحد من الناس فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفد ما عندها قامت تطلب الغوث من الله عز وجل فلم تزل تتردد فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التى ماؤها «طعام طعم ، وشفاء سقم[1] » فالساعى بينهما ينبغى له أن يستحضر

(١) هذا نص نسخة الأزهر وفى النسخة الأميرية : طعامها طعام طعم . والأصل « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » رواه ابن أبى شيبة والبزار من حديث أبى ذر

فقره وذله وحاجته إلى الله فى هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه : وان يلتجىء إلى الله عز وجل لتفريج ماهو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصى إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام .

وقوله (فمن تطوع خيراً) قيل زاد فى طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك وقيل يطوف بينهما فى حجة تطوع أو عمرة تطوع وقيل المراد تطوع خيراً فى سائر العبادات حكى ذلك الرازى وعزى الثالث إلى الحسن البصرى والله أعلم وقوله (فإن الله شاكر عليم) أى يثيب على القليل بالكثير عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدا ثوابه و(لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ماجاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد مابينه الله تعالى لعباده فى كتبه التى أنزلها على رسله قال أبو العالية نزلت فى أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شىء على صنيعهم ذلك فكما أن العالم يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى الماء والطير فى الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، وقدورد فى الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضا عن أبى هريرة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » والذى فى الصحيح عن أبى هريرة أنه قال لولا آية فى كتاب الله ماحدثت أحدا شيئا (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى) الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عمار بن محمد عن ليث ابن أبى سليم عن المنهال بن عمرو عن زاذان بن عمرو عن البراء بن عازب قال كنا مع النبى ﷺ فى جنازة فقال «إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه يسمعها كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله تعالى (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) يعنى دواب الأرض » ورواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح عن عامر بن محمد به ، وقال عطاء بن أبى رباح : كل دابة والجن والإنس وقال مجاهد إذا أجدبت الأرض قال البهائم هذا من أجل عصاة بنى آدم لعن الله عصاة بنى آدم وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة (ويلعنهم اللاعنون) يعنى تلعنهم الملائكة والمؤمنون وقد جاء فى الحديث أن العالم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر وجاء فى هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضا وهم كل فصيح وأعجمى إما بلسان المقال أو الحال أن لو كان له عقل ويوم القيامة والله أعلم * ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب اليه فقال (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) أى رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه (فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وفى هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب الى الله تاب الله عليه : وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة نبى التوبة ونبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه ، ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن (عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها) أى فى اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ثم المصاحبة لهم فى نار جهنم التى (لايخفف عنهم العذاب) فيها أى لاينقص عماهم فيه (ولاهم ينظرون) أى لايغير عنهم ساعة واحدة ولايفتر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك : قال أبو العالية وقتادة إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون .

﴿ فصل ﴾ لاخلاف في جواز لعن الكفار وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لايلعن لأنا لا ندرى بما يختم الله له واستدل بعضهم بالآية (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) وقالت طائفة أخرى بل يجوز لعن الكافر المعين ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف واستدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذى كان يؤتى به سكران فيحده فقال رجل لعنه الله ما أكثر مايؤتى به فقال رسول الله ﷺ « لاتلعنه فانه يحب الله ورسوله » فدل على أن من لايحب الله ورسوله يلعن والله أعلم

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن تفرده بالالهية وأنه لاشريك له ولا عديل له بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم . وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) و (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) » ثم ذكر الدليل على تفرده بالالهية بخلق السموات والأرض ومافيهما ومابين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى (إن في خلق السموات والأرض) تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها ـ وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع واختلاف الليل والنهار هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أى يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا (والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس) أى في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الاقليم ونقل هذا إلى هؤلاء وماعند أولئك إلى هؤلاء (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) كما قال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ـ إلى قوله ـ ومما لا يعلمون) (وبث فيها من كل دابة) أى على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لايخفى عليه شيء من ذلك كما قال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) (وتصريف الرياح) أى فتارة تأتى بالرحمة وتارة تأتى بالعذاب وتارة تأتى مبشرة بين يدى السحاب وتارة تسوقه وتارة تجمعه وتارة تفرقه وتارة تصرفه ثم تارة تأتى من الجنوب وهى الشامية وتارة تأتى من ناحية اليمن وتارة صبا وهى الشرقية التى تصدم وجه الكعبة وتارة دبوراً وهى غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة . وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها وبسط ذلك يطول ههنا والله أعلم (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) أى سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن كما يصرفه تعالى (لآيات لقوم يعقلون) أى في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى كما قال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت

هـذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا أبو سعيد الدشتكى حدثنى أبى عن أبيه عن أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت قريش محمداً ﷺ فقالوا يا محمد إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا فنشترى به الخيل والسلاح فنؤمن بك ونقاتل معك قال « أو ثقوا لى لئن دعوت ربى فجعل لكم الصفا ذهبا لتؤمنن بى » فأوثقوا له فدعا ربه فأتاه جبريل فقال إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهبا على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين قال محمد ﷺ « رب لا بل دعنى وقومى فلأدعهم يوما بيوم » فأنزل الله هذه الآية (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) الآية ورواه ابن أبى حاتم من وجه آخر عن جعفر بن أبى المغيرة به وزاد فى آخره : وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ماهو أعظم من الصفا ؟ وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن عطاء قال نزلت على النبى ﷺ بالمدينة (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) فقال كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحد فأنزل الله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) إلى قوله (لآيات لقوم يعقلون) فبهذا يعلمون أنه إله واحد وأنه إله كل شىء وخالق كل شىء ، وقال وكيع بن الجراح حدثنا سفيان عن أبيه عن أبى الضحى قال لما نزلت (وإلهكم إله واحد) إلى آخر الآية قال المشركون إن كان هكذا فليأتنا بآية فأنزل الله عز وجل (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) إلى قوله (يعقلون) ورواه آدم بن أبى إياس عن أبى جعفر هو الرازى عن سعيد بن مسروق والد سفيان عن أبى الضحى به .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

يذكر تعالى حال المشركين به فى الدنيا ومالهم فى الدار الآخرة حيث(١) جعلوا له أندادا أى أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه وهو الله لا إله إلا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه . وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » وقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئا بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون فى جميع أمورهم إليه . ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا) قال بعضهم تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعا أى أن الحكم له وحده لاشريك له وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه (وأن الله شديد العذاب) كما قال (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) يقول لو يعلمون مايعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عماهم فيه من الضلال ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرى المتبوعين من التابعين فقال (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى الدار الدنيا فتقول الملائكة (تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) ويقولون (سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) والجن أيضا تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى (ومن

(١) استعمل حيث هنا للتعليل كما شاع فى كتابة متأخرى المولدين ولو حملت على الظرفية المكانية كما هو معناها الأصلى لكان معنى الكلام أنهم جعلوا الأنداد له تعالى فى الآخرة وليس بمراد قطعاً

أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقال الخليل لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) وقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذجاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) وقال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) وقوله (ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) أى عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا . قال عطاء عن ابن عباس (وتقطعت بهم الأسباب) قال المودة: وكذا قال مجاهد فى رواية ابن أبى نجيح : وقوله (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا) أى لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم فلا نلتفت إليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة : وهم كاذبون فى هذا بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك ولهذا قال (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) أى تذهب وتضمحل كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) الآية . وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) الآية : ولهذا قال تعالى (وماهم بخارجين من النار) :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو وأنه المستقل بالخلق شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه فذكر فى مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما فى الأرض فى حال كونه حلالا من الله طيبا أى مستطابا فى نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهى طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زينه لهم فى جاهليتهم كما فى حديث عياض بن حماد الذى فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال « يقول الله تعالى إن كل مال منحته عبادى فهو لهم حلال - وفيه - وإنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد ابن عيسى بن شيبة المصرى حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطى حدثنا أبو عبد الله الجوزجانى رفيق إبراهيم ابن أدهم حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال تليت هذه الآية عند النبى ﷺ (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبى وقاص فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال « ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

وقوله (إنه لكم عدو مبين) تنفير عنه وتحذير منه كما قال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال

قتادة والسدى فى قوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان وقال عكرمة هى نزغات الشيطان ، وقال مجاهد خطؤه أوقال خطاياه[1] وقال أبو مجلز هى النذور فى المعاصى، وقال الشعبى نذر رجل أن ينحر ابنه فأفتاه مسروق بذبح كبش ، وقال هـذا من خطوات الشيطان وقال أبو الضحى عن مسروق أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود ناولوا صاحبكم ، فقال لا أريده ، فقال أصائم أنت ؟ قال لا قال ، فما شأنك ؟ قال حرمت أن آكل ضرعا أبدا ، فقال ابن مسعود هذا من خطوات الشيطان فاطعم وكفر عن يمينك رواه ابن أبى حاتم ، وقال أيضا حـدثنا أبى حدثنا حسان بن عبد الله المصرى عن سليمان التيمى عن أبى رافع قال غضبت يوما على امرأتى فقالت هى يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك . فأتيت عبدالله ابن عمر فقال إنما هذه من خطوات الشيطان ، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهى يومئذ أفقه امرأة فى المدينة وأتيت عاصما وابن عمر فقالا مثل ذلك ، وقال عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم عن شريك عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس قال ما كان من يمين أو نذر فى غضب فهو من خطوات الشيطان وكفارته كفارة يمين . وقوله (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) أى إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئه وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلاعلم فيدخل فى هذا كل كافر وكل مبتدع أيضا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا فى جواب ذلك بل نتبع ما ألفينا أى وجدنا عليه آباءنا أى من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكرا عليهم (أولو كان آباؤهم) أى الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم (لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) أى ليس لهم فهم ولا هداية . وروى ابن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس انها نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الاسلام فقالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله هذه الآية ثم ضرب لهم تعالى مثلا. كما قال تعالى (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) فقال (ومثل الذين كفروا) أى فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل كالدواب السارحة التى لا تفقه ما يقال لها بل إذا نعق بها راعيها أى دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل إنما تسمع صوته فقط : هكذا روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس نحو هذا . وقيل إنما هذا مثل ضرب لهم فى دعائهم الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا اختاره ابن جرير والأول أولى لأن الأصنام لا تسمع شيئا ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها . وقوله (صم بكم عمى) أى صم عن سماع الحق بكم لا يتفوهون به عمى عن رؤية طريقه ومسلكه (فهم لا يعقلون) أى لا يعقلون شيئا ولا يفهمونه كما قال تعـالى (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده

(١) وفى نسخة الأزهر خطاياه .

والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا الفضيل بن مرزوق عن عدى بن ثابت عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟ » ورواه مسلم فى صحيحه والترمذى من حديث فضيل ابن مرزوق . ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة وهى التى تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى (أحل لكم صيد البحر وطعامه) على ما سيأتى إن شاء الله وحديث العنبر فى الصحيح وفى المسند والموطأ والسنن قوله عليه السلام فى البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وروى الشافعى وأحمد وابن ماجه والدارقطنى حديث ابن عمر مرفوعا « أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال » وسيأتى تقرير ذلك إن شاء الله فى سورة المائدة .

﴿ مسئلة ﴾ ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعى وغيره لأنه جزء منها . وقال مالك فى رواية هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة وكذلك انفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس فقال القرطبى فى التفسير ههنا يخالط اللبن منها يسير ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع . وقد روى ابن ماجه من حديث سيف بن هرون عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن سلمان رضى الله عنه : سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء فقال « الحلال ما أحل الله فى كتابه والحرام ما حرم الله فى كتابه وماسكت عنه فهو مما عفا عنه » وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكى أم مات حتف أنفه ويدخل شحمه فى حكم لحمه إما تغليبا أو أن اللحم يشمل ذلك أو بطريق القياس على رأى . وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له . وذكر القرطبى عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصرى انه سئل عن امرأة عملت عرسا للعبها فنحرت فيه جزورا فقال لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم وأورد القرطبى عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت ماذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم . ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج اليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) أى فى غير بغى ولا عدوان وهو مجاوزة الحد (فلا إثم عليه) أى فى أكل ذلك (إن الله غفور رحيم) وقال مجاهد فمن اضطر غير باغ ولا عاد قاطعاً للسبيل أو مفارقا للأئمة أو خارجا فى معصية الله فله الرخصة ومن خرج باغياً أو عاديا أو فى معصية الله فلا رخصة له وإن اضطر اليه وكذا روى عن سعيد ابن جبير . وقال سعيد فى رواية عنه — ومقاتل بن حيان : غير باغ — يعنى غير مستحله ، وقال السدى غير باغ يبتغى فيه شهوته ، وقال آدم بن أبى إياس حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الخراسانى عن أبيه قال لا يشوى من الميتة ليشتهيه ولا يطبخه ولا يأكل إلا العلقة ويحمل معه ما يبلغه الحلال فإذا بلغه ألقاه وهو قوله (ولا عاد) ويقول لا يعدو به الحلال وعن ابن عباس لا يشبع منها وفسره السدى بالعدوان وعن ابن عباس (غير باغ ولا عاد) قال (غير باغ) فى الميتة ولا عاد فى أكله وقال قتادة فمن اضطر غير باغ ولا عاد قال غير باغ فى الميتة أى فى أكله أن يتعدى حلالا إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة . وحكى القرطبى عن مجاهد فى قوله فمن اضطر أى أكره على ذلك بغير اختياره

﴿ مسئلة ﴾ إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لاقطع فيه ولا أذى فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف — كذا قال — ثم قال وإذا أكله والحالة هذه هل يضمن أم لا ؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك ثم أورد من سنن ابن ماجه من حديث شعبة عن أبى إياس جعفر بن أبى وحشية سمعت عباد بن شرحبيل العنزى قال

أصابتنا عاما مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلت منه فى كسائى فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال للرجل « ما أطعمته إذ كان جائعا ولا ساعيا ولا علمته إذ كان جاهلا » فأمره فرد اليه ثوبه وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق إسناد صحيح قوى جيد وله شواهد كثيرة من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق فقال « من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ خبنة فلا شىء عليه » الحديث : وقال مقاتل بن حيان فى قوله (فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) فيما أكل من اضطرار وبلغنا والله أعلم أنه لا يزاد على ثلاث لقم وقال سعيد بن جبير : غفور لما أكل من الحرام ، رحيم إذ أحل له الحرام فى الاضطرار ، وقال وكيع أخبرنا الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراسى رفيق الغزالى فى الاشتغال وهذا هو الصحيح عندنا كالإفطار للمريض ونحو ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

يقول تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتبهم التى بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا لعنهم الله إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فان الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه وصاروا عونا له على قتالهم وباءوا بغضب على غضب وذمهم الله فى كتابه فى غير موضع فمن ذلك هذه الآية الكريمة (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا) وهو عرض الحياة الدنيا (أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار) أى إنما يأكلون ما يأكلونه فى مقابلة كتمان الحق نارا تأجج فى بطونهم يوم القيامة كما قال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » .

وقوله (ولا يكلمهم الله يوم القيامه ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب فلا ينظر اليهم ولا يزكيهم أى يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذابا أليما . وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه ههنا حديث الأعمش عن أبى حازم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر » ثم قال تعالى مخبراً عنهم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى اعتاضوا عن الهدى وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم (والعذاب بالمغفرة) أى اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة :

وقوله تعالى (فما أصبرهم على النار) يخبر تعالى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذاً بالله من ذلك وقيل معنى قوله (فما أصبرهم على النار) أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار وقوله تعالى (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) أى إنما استحقوا

هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا فكتابهم يأمرهم باظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته فاستهزؤا بآيات الله المنزلة على رسله فلهذا استحقوا العذاب والنكال ولهذا قال (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد)

﴿ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبيد بن هشام الحلبى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفى عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبى ذر أنه سأل رسول الله ﷺ ما الايمان ؟ فتلا عليه (ليس البر أن تولوا وجوهكم) إلى آخر الآية قال ثم سأله أيضاً فتلاها عليه ثم سأله فقال : « إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك » وهذا منقطع فان مجاهدا لم يدرك أباذر فانه مات قديما وقال المسعودى : حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال جاء رجل إلى أبى ذر فقال ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية (ليس البر أن تولوا وجوهكم) حتى فرغ منها فقال الرجل ليس عن البرسألتك فقال أبو ذر جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتنى عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده « المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها » رواه ابن مردويه وهذا أيضاً منقطع والله أعلم

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فان الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه واتباع ماشرع فهذا هو البر والتقوى والايمان الكامل وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من الشرق أو المغرب بر ولاطاعة إن لم يكن عن أمرالله وشرعه ولهذا قال (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الآية كما قال فى الأضاحى والهدايا (لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولاتعملوا فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود فأمر الله بالفرائض والعمل بها وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك وقال أبو العالية : كانت اليهود تقبل قبل المغرب وكانت النصارى تقبل قبل المشرق فقال الله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) يقول هذا كلام الايمان وحقيقته العمل وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله وقال مجاهد : ولكن البرماثبت فى القلوب من طاعة الله عز وجل وقال الضحاك : ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها وقال الثورى : (ولكن البر من آمن بالله) الآية قال هذه أنواع البر كلها ، وصدق رحمه الله فان من اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الاسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله وهو الايمان بالله وانه لا إله إلا هو وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله (والكتاب) وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الانبياء حتى ختمت بأشرفها وهو

القرآن المهيمن على ماقبله من الكتب الذى انتهى إليه كل خير واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ونسخ به كل ماسواه من الكتب قبله وآمن بانبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين وقوله (وآتى المال على حبه) أى أخرجه وهو محب له راغب فيه نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة والثورى عن منصور عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ « (وآتى المال على حبه) أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر » ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (قلت) وقد رواه وكيع عن الأعمش وسفيان عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود موقوفا وهو أصح والله أعلم . وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا) وقال تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وقوله (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ماهم محبون له وقوله (ذوى القربى) وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت فى الحديث « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوى الرحم ثنتان صدقة وصلة فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك » وقد أمر الله تعالى بالاحسان اليهم فى غير موضع من كتابه العزيز (واليتامى) هم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب وقد قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن على عن رسول الله ﷺ قال : « لايتم بعد حلم » (والمساكين) وهم الذين لايجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لايجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » (وابن السبيل) وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى مايوصله إلى بلده وكذا الذى يريد سفرا فى طاعة فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه ويدخل فى ذلك الضيف كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال . ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان (والسائلين) وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الامام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبى يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها ـ قال عبد الرحمن حسين بن على ـ قال قال رسول الله ﷺ « للسائل حق وإن جاء على فرس » رواه أبو داود (وفى الرقاب) وهم المكاتبون الذين لايجدون ما يؤدونه فى كتابتهم وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف فى آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى . وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا شريك عن أبى حمزة عن الشعبى حدثتنى فاطمة بنت قيس أنها سألت رسول الله ﷺ أفى المال حق سوى الزكاة ؟ قالت فتلا على (وآتى المال على حبه) ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبى إياس ويحيى بن عبد الحميد كلاهما عن شريك عن أبى حمزة عن الشعبى عن فاطمة بنت قيس قالت . قال رسول الله ﷺ « فى المال حق سوى الزكاة » ثم قرأ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ـ إلى قوله ـ وفى الرقاب) وأخرجه ابن ماجه والترمذى وضعف أبا حمزة ميمونا الأعور وقد رواه سيار وإسماعيل بن سالم عن الشعبى وقوله (وأقام الصلاة) أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى وقوله (وآتى الزكاة) يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) وقول موسى لفرعون : (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى) وقوله تعالى (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان

ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس أن فى المال حقا سوى الزكاة والله أعلم

وقوله (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) كقوله (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وعكس هذه الصفة النفاق كما صح فى الحديث « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » وفى الحديث الآخر « وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » وقوله (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) أى فى حال الفقر وهو البأساء ، وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء (وحين البأس) أى فى حال القتال والتقاء الأعداء قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمدانى ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم وإنما نصب (الصابرين) على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته والله أعلم وهو المستعان وعليه التكلان : وقوله (أولئك الذين صدقوا) أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقول والأفعال فهؤلاء هم الذين صدقوا (وأولئك هم المتقون) لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى كتب عليكم العدل فى القصاص أيها المؤمنون حركم بحركم وعبدكم بعبدكم وأنثاكم بأنثاكم ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم ، وسبب ذلك قريظة والنضير كانت بنو النضير قد غزت قريظة فى الجاهلية وقهروهم فكان إذا قتل النضرى القرظى لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر وإذا قتل القرظى النضرى قتل وإن فادوه فدوه بمائتى وسق من التمر ضعف دية القرظى فأمر الله بالعدل فى القصاص ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرا وبغيا فقال تعالى (كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) وذكر فى سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنى عبد الله بن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى) يعنى إذا كان عمدا الحر بالحر وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم والمرأة منا الرجل منهم فنزل فيهم (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) منها منسوخة نسختها النفس بالنفس : وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (والأنثى بالأنثى) وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة فأنزل الله النفس بالنفس والعين بالعين فجعل الأحرار فى القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم فى النفس وفيما دون النفس وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد فى النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم وكذلك روى عن أبى مالك أنها منسوخة بقوله النفس بالنفس

﴿ مسئلة ﴾ ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة وإليه ذهب الثورى وابن ابى ليلى وداود وهو مروى عن علىّ وابن مسعود وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعى وقتادة والحكم قال البخارى وعلى بن المدينى وإبراهيم النخعى والثورى فى رواية عنه ويقتل السيد بعبده لعموم حديث الحسن عن سمرة «من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ومن خصاه خصيناه » وخالفهم الجمهور فقالوا لا يقتل الحر بالعبد لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب

فيه دية وإنما تجب فيه قيمته ولأنه لا يقاد بطرفه فني النفس بطريق الأولى وذهب الجمهور إلى أن المسلم لايقتل بالكافر لما ثبت فى البخارى عن على قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقتل مسلم بكافر » ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة

﴿ مسئلة ﴾ قال الحسن وعطاء لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية وخالفهم الجمهور لآية المائدة ولقوله عليه السلام « المسلمون تتكافأ دماؤهم » وقال الليث إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة

﴿ مسئلة ﴾ ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد : قال عمر فى غلام قتله سبعة فقتلهم وقال لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ، ولا يعرف له فى زمانه مخالف من الصحابة وذلك كالاجماع وحكى عن الإمام أحمد رواية أن الجماعة لا يقتلون بالواحد ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة وحكاه ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير وعبدالملك ابن مروان والزهرى وابن سيرين وحبيب بن أبى ثابت ثم قال ابن المنذر وهذا أصح ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه وإذا اختلف الصحابة فسبيله النظر . وقوله (فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان) قال مجاهد عن ابن عباس (فمن عفى له من أخيه شيء) فالعفو أن يقبل الدية فى العمد وكذا روى عن أبى العالية وأبى الشعثاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الضحاك عن ابن عباس (فمن عفى له من أخيه شيء) يعنى فمن ترك له من أخيه شيء يعنى أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو (فاتباع بالمعروف) يقول فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية (وأداء إليه بإحسان) يعنى من القاتل من غير ضرر ولا معك يعنى المدافعة وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرو عن مجاهد عن ابن عباس ويؤدى المطلوب باحسان وكذا قال سعيد بن جبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان

﴿ مسئلة ﴾ قال مالك رحمه الله فى رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور وأبو حنيفة وأصحابه والشافعى وأحمد فى أحد قوليه ليس لولى الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل وقال الباقون له أن يعفو عليها وإن لم يرض

﴿ مسئلة ﴾ وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو ، منهم الحسن وقتادة والزهرى وابن شبرمة والليث والأوزاعى وخالفهم الباقون وقوله (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) يقول تعالى إنما شرع لكم أخذ الدية فى العمد تخفيفا من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتوما على الأمم قبلكم من القتل أو العفو كما قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار أخبرنى مجاهد عن ابن عباس قال كتب على بنى إسرائيل القصاص فى القتلى ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الأمة (كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء) فالعفو أن يقبل الدية فى العمد ، ذلك تخفيف مما كتب على بنى إسرائيل من كان قبلكم فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان . وقد رواه غير واحد عن عمرو وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن عمرو بن دينار ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس بنحوه : وقال قتادة (ذلك تخفيف من ربكم) رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش وهكذا روى عن سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس نحو هذا وقوله (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) يقول تعالى فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها فله عذاب من الله أليم موجع شديد . وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان أنه هو الذى يقتل بعد أخذ الدية كما قال محمد بن إسحق عن الحارث بن فضيل عن سفيان بن أبى العوجاء عن أبى شريح الخزاعى أن النبى ﷺ قال « من أصيب بقتل أو خبل فانه يختار إحدى ثلاث إما أن يقتص وإما أن يعفو وإما أن يأخذ الدية فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها » رواه أحمد وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاأعافى

رجلا قتل بعد أخذ الدية » يعنى لا أقبل منه الدية بل أقتله .

وقوله (ولكم فى القصاص حياة) يقول تعالى وفى شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهى بقاء المهج وصونها لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان فى ذلك حياة للنفوس ، وفى الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل(١) فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح وأبلغ وأوجز (ولكم فى القصاص حياة) قال أبو العالية جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل . وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى مالك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان (يا أولى الألباب لعلكم تتقون) يقول يا أولى العقول والأفهام والنهى لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه ، والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين وقد كان ذلك واجبا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتما من غير وصية ولا تحمل منة الموصى ولهذا جاء فى الحديث الذى فى السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علية عن يونس بن عبيد عن محمد بن سيرين قال : جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية (إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين) فقال نسخت هذه الآية وكذا رواه سعيد بن منصور عن هشيم عن يونس به ورواه الحاكم فى مستدركه وقال صحيح على شرطهما وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (الوصية للوالدين والأقربين) قال : كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين فأنزل الله آية الميراث فبين ميراث الوالدين وأقر وصية الأقربين فى ثلث مال الميت وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس فى قوله (الوصية للوالدين والأقربين) نسختها هذه الآية (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) ثم قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر وأبى موسى وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وعكرمة وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان وطاوس وإبراهيم النخعى وشريح والضحاك والزهرى أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث . والعجب من أبى عبد الله محمد بن عمر الرازى رحمه الله كيف حكى فى تفسيره الكبير عن أبى مسلم الأصفهانى ان هذه الآية غير منسوخة وإنما هى مفسرة بآية المواريث ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله (يوصيكم الله فى أولادكم) قال وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء قال ومنهم من قال إنها منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن لا يرث وهو مذهب ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد (قلت) وبه قال أيضا سعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخا فى اصطلاحنا المتأخر لأن آية المواريث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية لأن الأقربين أعم ممن يرث ومن لا يرث فرفع حكم من يرث بما عين له وبقى الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم ان الوصاية فى ابتداء الاسلام إنما كانت ندبا حتى نسخت فأما من يقول إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء فان

(١) ذكر البغوى أن هذا مثل . والمشهور أنه من كلام فصحاء العرب .

وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع بل منهى عنه للحديث المتقدم « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلاوصية لوارث » فآية الميراث حكم مستقل ووجوب من عندالله لأهل الفروض والعصبات رفع بها حكم هذه بالكلية ، بقى الأقارب الذين لاميراث لهم يستحب له أن يوصى لهم من الثلث استئناسا بآية الوصية وشمولها ولما ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ماحق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » قال ابن عمر مامرت علىّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصيتى . والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والاحسان اليهم كثيرة جدا وقال عبدبن حميد فى مسنده أخبرنا عبدالله عن مبارك بن حسان عن نافع قال : قال عبدالله قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى « يا ابن آدم ثنتان لم يكن لك واحدة منهما : جعلت لك نصيبا فى مالك حين أخذت بكظمك لأطهرك به وأزكيك وصلاة عبادى عليك بعد انقضاء أجلك » وقوله (إن ترك خيراً) أى مالا قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبو العالية وعطية العوفى والضحاك والسدى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم ثم منهم من قال الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة ومنهم من قال إنما يوصى إذا ترك مالا جليلا ثم اختلفوا فى مقداره فقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى أخبرنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قيل لعلى رضى الله عنه إن رجلا من قريش قدمات وترك ثلثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص قال ليس بشىء إنما قال الله (إن ترك خيرا) وقال أيضا وحدثنا هرون بن إسحق الهمدانى حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه أن عليا دخل على رجل من قومه يعوده فقال له أوص فقال له على إنما قال الله (إن ترك خيرا الوصية) إنما تركت شيئا يسيرا فاتركه لولدك وقال الحاكم : إن أبان حدثنى عن عكرمة عن ابن عباس (إن ترك خيرا) قال ابن عباس : من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرا قال الحاكم قال طاوس لم يترك خيرا من لم يترك ثمانين دينارا وقال قتادة كان يقال ألفا فما فوقها . وقوله (بالمعروف) أى بالرفق والإحسان كما قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبدالله بن بشار حدثنى سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قوله (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت) فقال نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصى إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر والمراد بالمعروف أن يوصى لأقربيه وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير كما ثبت فى الصحيحين أن سعدا قال يا رسول الله إن لى مالا ولا يرثنى إلا ابنة لى أفأوصى بثلثى مالى ؟ قال «لا» قال فبالشطر ؟ قال «لا». قال فالثلث ؟ قال « الثلث والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » وفى صحيح البخارى أن ابن عباس قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فان رسول الله ﷺ قال «الثلث والثلث كثير» وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد مولى بنى هاشم عن زياد بن عتبة بن حنظلة سمعت حنظلة بن جذيم بن حنيفة أن جده حنيفة أوصى ليتيم فى حجره بمائة من الإبل فشق ذلك على بنيه فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ فقال حنيفة إنى أوصيت ليتيم لى بمائة من الإبل كنا نسميها المطية فقال النبى ﷺ « لا لا لا ، الصدقة خمس وإلا فعشر وإلا فخمس عشرة وإلا فعشرون وإلا فخمس وعشرون وإلا فثلاثون وإلا فخمس وثلاثون فإن كثرت فأربعون » وذكر الحديث بطوله .

وقوله (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) يقول تعالى فمن بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص ويدخل فى ذلك الكتمان لها بطريق الأولى (فإنما إثمه على الذين يبدلونه) قال ابن عباس وغير واحد وقد وقع أجر الميت على الله وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك (إن الله سميع عليم) أى قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدله الموصى اليهم وقوله تعالى (فمن خاف من موص جنفا أو إثما) قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس والسدى الجنف الخطأ وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثا بواسطة أو وسيلة كما إذا أوصى ببيعة الشىء الفلانى محاباة أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل إما مخطئا غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر أو متعمدا آثما فى ذلك فللوصى والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل

فى الوصية على الوجه الشرعى ، ويعدل عن الذى أوصى به الميت إلى ماهو أقرب الأشياء اليه وأشبه الأمور به جمعا بين مقصود الموصى والطريق الشرعى ، وهـذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل فى شىء ولهذا عطف هـذا فبينه على النهى عن ذلك ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل والله أعلم : وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد قراءة أخبرنى أبى عن الأوزاعى قال الزهرى حدثنى عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يرد من صدقة الجانف[1] فى حياته ما يرد من وصية المجنف عند موته » وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه من حديث العباس بن الوليد به قال ابن أبى حاتم وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد ، وهذا الـكلام إنما هو عن عروة فقط وقد رواه الوليد بن مسلم عن الأوزاعى فلم يجاوز به عروة ، وقال ابن مردويه أيضا حـدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن يوسف حـدثنا هشام بن عمـار حدثنا عمر بن المغيرة عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « الجنف فى الوصية من الـكبائر » وهـذا فى رفعه أيضا نظر وأحسن ما ورد فى هذا الباب ماقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سـنة فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سـنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (تلك حدود الله فلا تعتدوها) الآية .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا للمؤمنين من هـذه الأمة وآمرا لهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة وذكر انه كما أوجبـه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه أسوة وليجتهد هؤلاء فى أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك كما قال تعالى (لـكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولـكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات) الآية ولهذا قال ههنا (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلـكم لعلـكم تتقون) لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان ولهذا ثبت فى الصحيحين « يامعشر الشباب من استطاع منـكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » ثم بين مقـدار الصوم وأنه ليس فى كل يوم لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل فى أيام معدودات . وقد كان هذا فى ابتداء الاسـلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سـيأتى بيانه . وقد روى أن الصيام كان أولا كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك بن مزاحم وزاد لم يزل هذا مشروعا من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان . وقال عباد بن منصور عن الحسن البصرى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلـكم لعلـكم تتقون * أياما معدودات) فقال نعم والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهرا كاملا وأياما معدودات عددا معلوما ، وروى عن السدى نحوه . وروى ابن أبى حاتم من حديث أبى عبد الرحمن المقرى حدثنى سعيد بن أبى أيوب حدثنى عبد الله بن الوليد عن أبى الربيع رجل من أهل المدينة عن عبـد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلـكم » فى حديث طويل اختصر منه ذلك . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عمن حدثه عن ابن عمر قال أنزلت (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلـكم) كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ،

(١) فى نسخة الأزهر الحائف

قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس وأبي العالية وعبد الرحمن بن أبي ليلى ومجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس وعطاء الخراساني نحو ذلك : وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس (كما كتب على الذين من قبلكم) يعنى بذلك أهل الكتاب وروى عن الشعبي والسدى وعطاء الخراساني مثله . ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام فقال (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) أى المريض والمسافر لا يصومان فى حال المرض والسفر لما فى ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر وأما الصحيح المقيم الذى يطيق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير وإن صام فهو أفضل من الإطعام قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاوس ومقاتل بن حيان وغيرهم من السلف ولهذا قال تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا المسعودى حدثنا عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام ثلاثة أحوال فأما أحوال الصلاة فان النبى صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو يصلى سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس ثم إن الله عز وجل أنزل عليه (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها) الآية فوجهه الله إلى مكة هذا حول ، قال وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضاً حتى نقسوا أو كادوا ينقسون ثم إن رجلا من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله ﷺ : فقال يارسول الله إنى رأيت فيما يرى النائم ولو قلت إنى لم أكن نائما لصدقت إنى بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصا عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله - مثنى - حتى فرغ من الأذان ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذى قال غير أنه يزيد فى ذلك : قد قامت الصلاة - مرتين - قال رسول الله ﷺ « علمها بلالا فليؤذن بها » فكان بلال أول من أذن بها : قال وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يارسول الله قد طاف بى مثل الذى طاف به غير أنه سبقنى ، فهذان حالان ، قال وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبى صلى الله عليه وسلم ببعضها فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى فيقول واحدة أو اثنتين فيصليهما ثم يدخل مع القوم فى صلاتهم قال فجاء معاذ فقال لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها ثم قضيت ما سبقنى قال فجاء وقد سبقه النبى ﷺ ببعضها قال فثبت معه فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى فقال رسول الله ﷺ « إنه قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا » فهذه ثلاثة أحوال ، وأما أحوال الصيام فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) إلى قوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) إلى قوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام ، فهذان حالان ، قال وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا فإذا ناموا امتنعوا ثم إن رجلا من الأنصار يقال له صرمة كان يعمل صائما حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائما فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديدا فقال « مالى أراك قد جهدت جهداً شديدا ؟ » قال يارسول الله إنى عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسى فنمت فأصبحت حين أصبحت صائما قال وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله عزوجل (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - ثم أتموا الصيام إلى الليل) وأخرجه أبو داود فى سننه والحاكم فى مستدركه من حديث المسعودى به وقد أخرجه البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة أنها قالت كان عاشوراء يصام فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر وروى

البخاري عن ابن عمر وابن مسعود مثله

وقوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كما قال معاذ رضى الله عنه كان فى ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا ، وهكذا روى البخارى عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كان من أراد أن يفطر يفتدى حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها وروى أيضا من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال هى منسوخة: وقال السدى عن مرة عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قال يقول (وعلى الذين يطيقونه) أى يتجشمونه : قال عبد الله فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينا (فمن تطوع) يقول أطعم مسكينا آخر (فهو خير له وأن تصوموا خير لكم) فكانوا كذلك حتى نسختها (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وقال البخارى أيضا أخبرنا إسحق حدثنا روح حدثنا زكريا بن إسحق حدثنا عمرو بن دينار عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قال ابن عباس ليست منسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه ، وقال أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) فى الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم ثم ضعف فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينا ، وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد حدثنا الحسين بن محمد بن بهرام المخزومى حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد بن عبد الله عن ابن أبى ليلى، قال دخلت على عطاء فى رمضان وهو يأكل فقال: قال ابن عباس نزلت هذه الآية فنسخت الأولى إلا الكبير الفانى إن شاء أطعم عن كل يوم مسكينا وأفطر ـ فحاصل الأمر أن النسخ ثابت فى حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وأما الشيخ الفانى الهرم الذى لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينا إذا كان ذا جدة ؟ فيه قولان للعلماء أحدهما لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه فلم يجب عليه فدية كالصبى لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وهو أحد قولى الشافعى والثانى وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء أنه يجب عليه فدية عن كل يوم كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ (وعلى الذين يطيقونه) أى يتجشمونه كما قاله ابن مسعود وغيره وهو اختيار البخارى فانه قال وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعد ما كبر عاما أو عامين عن كل يوم مسكينا خبزاً ولحما وأفطر وهذا الذى علقه البخارى قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده فقال حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبى حدثنا عمران عن أيوب بن أبى تميمة قال ضعف أنس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد فدعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم ،ورواه عبد بن حميد عن روح بن عبادة عن عمران وهو ابن جرير عن أيوب به . ورواه عبد أيضا من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه . ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ففيهما خلاف كثير بين العلماء فنهم من قال يفطران ويفديان ويقضيان وقيل يفديان فقط ولا قضاء وقيل يجب القضاء بلا فدية وقيل يفطران ولا فدية ولا قضاء وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة فى كتاب الصيام الذى أفردناه ولله الحمد والمنة

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا أبو سعيد

مولى بنى هاشم حدثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن أبى فليح عن واثلة يعنى ابن الأسقع أن رسول صلى الله عليه وسلم : قال : « أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» وقد روى من حديث جابر بن عبد الله وفيه : أن الزبور أنزل لثنتى عشرة خلت من رمضان والإنجيل لثمانى عشرة والباقى كما تقدم . رواه ابن مردويه وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل فنزل كل منها على النبى الذى أنزل عليه جملة واحدة وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا وكان ذلك فى شهر رمضان فى ليلة القدر منه كما قال تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وقال (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) ثم نزل بعد مفرقا بحسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس كما قال إسرائيل عن السدى عن محمد بن أبى المجالد عن مقسم عن ابن عباس أنه سأل عطية بن الأسود فقال وقع فى قلبى الشك : قول الله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وقوله (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) وقوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وقد أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عباس : إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلا فى الشهور والأيام رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه وهذا لفظه وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أنزل القرآن فى النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل فى بيت العزة ثم أنزل على رسول الله ﷺ فى عشرين سنة لجواب كلام الناس وفى رواية عكرمة عن ابن عباس قال : نزل القرآن فى شهر رمضان فى ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجىء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه وذلك قوله (وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقوله (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) هذا مدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه (وبينات) أى ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافى للضلال والرشد المخالف للغى ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام وقد روى عن بعض السلف أنه كره أن يقال إلا شهر رمضان ولا يقال رمضان، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن بكار بن الريان حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى وسعيد هو المقبرى عن أبى هريرة قال لا تقولوا رمضان فان رمضان اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان — قال ابن أبى حاتم وقد روى عن مجاهد ومحمد بن كعب نحو ذلك ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت (قلت) أبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن المدنى إمام المغازى والسير ولكن فيه ضعف وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعا عن أبى هريرة وقد أنكره عليه الحافظ ابن عدى وهو جدير بالانكار فإنه متروك وقد وهم فى رفع هذا الحديث وقد انتصر البخارى رحمه الله فى كتابه لهذا فقال : باب يقال رمضان وساق أحاديث فى ذلك منها « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ونحو ذلك وقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر أى كان مقيما فى البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح فى بدنه أن يصوم لا محالة ونسخت هذه الآية الاباحة المتقدمة لمن كان صحيحا مقيما أن يفطر ويفدى بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه(١) ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر فى الافطار بشرط القضاء فقال (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) معناه ومن كان به مرض فى بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر أى فى حالة السفر فله أن يفطر فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره فى السفر من الأيام ولهذا قال (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) أى إنما رخص لكم فى الفطر فى حال المرض والسفر مع تحتمه فى حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم

وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية (إحداها) أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيما فى أول الشهر ثم سافر فى أثنائه فليس له الافطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وإنما يباح

(١) هذا على القول بنسخه والأرجح مارواه البخارى عن ابن عباس من عدم نسخه وأن الفدية على من يطيقه بمشقة وحرج كالزمن والهرم

الإفطار لمسافر استهل الشهر وهومسافر وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم فى كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين وفيما حكاه عنهم نظر والله أعلم فانه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج فى شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر أخرجه صاحبا الصحيح (الثانية) ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار فى السفر لقوله (فعدة من أيام أخر) والصحيح قول الجمهور أن الأمر فى ذلك على التخيير وليس بحتم لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان قال: فمنا الصائم ومنا المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم فلوكان الافطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام بل الذى ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان فى مثل هذه الحالة صائما لما ثبت فى الصحيحين عن أبى الدرداء قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان فى حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة (الثالثة) قالت طائفة منهم الشافعى: الصيام فى السفر أفضل من الافطار لفعل النبى ﷺ كما تقدم وقالت طائفة بل الافطار أفضل أخذاً بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم فى السفر فقال: « من أفطر فحسن ومن صام فلا جناح عليه » وقال فى حديث آخر « عليكم برخصة الله التى رخص لكم » وقالت طائفة هما سواء لحديث عائشة ان حمزة بن عمرو الأسلمى قال يارسول الله إنى كثير الصيام أفأصوم فى السفر؟ فقال « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » وهو فى الصحيحين وقيل إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر ان رسول الله ﷺ رأى رجلا قد ظلل عليه فقال: « ما هذا » ؟ قالوا صائم فقال « ليس من البر الصيام فى السفر » أخرجاه فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه اليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه لما جاء فى مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما: من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة (الرابعة) القضاء هل يجب متتابعا أو يجوز فيه التفريق فيه قولان: (أحدهما) أنه يجب التتابع لأن القضاء يحكى الأداء (والثانى) لا يجب التتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابع وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل لأن التتابع إنما وجب فى الشهر لضرورة أدائه فى الشهر فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ولهذا قال تعالى (فعدة من أيام أخر) ثم قال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو سلمة الخزاعى حدثنا أبو هلال عن حميد بن هلال العدوى عن أبى قتادة عن الأعرابى الذى سمع النبى ﷺ يقول « إن خير دينكم أيسره إن خير دينكم أيسره » وقال أحمد أيضا حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا عاصم بن هلال حدثنا عامر بن عروة الفقيمى حدثنى أبى عروة قال كنا ننتظر النبى ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل فصلى فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه علينا حرج فى كذا؟ فقال رسول الله ﷺ « إن دين الله فى يسر » — ثلاثا يقولها — ورواه الإمام أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن أبى تميم عن عاصم بن هلال به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال حدثنا أبو التياح سمعت أنس بن مالك يقول إن رسول الله ﷺ قال « يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا » أخرجاه فى الصحيحين وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما إلى اليمن « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا » وفى السنن والمسانيد أن رسول الله ﷺ قال: « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا عبدالله بن إسحق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن أبى طالب حدثنا عبدالوهاب بن عطاء حدثنا أبو مسعود الجريرى عن عبدالله بن شقيق عن محجن بن الأدرع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يصلى فتراءاه ببصره ساعة فقال « أتراه يصلى صادقا؟ » قال قلت يارسول الله: هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسمعه فتهلكه » وقال « إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بهم العسر » ومعنى قوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة) أى إنما أرخص لكم فى الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم وقوله (ولتكبروا الله على ما هداكم) أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) وقال (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وقال (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلا بالتكبير ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير فى عيد الفطر من هذه الآية (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم) حتى ذهب داود بن على الأصبهانى الظاهرى إلى وجوبه فى عيد الفطر لظاهر الأمر فى قوله (ولتكبروا الله على ما هداكم) وفى مقابلته مذهب أبى حنيفة رحمه الله أنه لا يشرع التكبير فى عيد الفطر والباقون على استحبابه على اختلاف فى تفاصيل بعض الفروع بينهم وقوله (ولعلكم تشكرون) أى إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم ان تكونوا من الشاكرين بذلك

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن عبدة بن أبى برزة[1] السختيانى عن الصلت بن حكيم بن معاوية: ابن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده ان اعرابيا قال يارسول الله صلى الله عليك وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبى ﷺ فأنزل الله (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى) إذا أمرتهم ان يدعونى فدعونى استجبت ، ورواه ابن جرير عن محمد بن حميد الرازى عن جرير به ورواه ابن مردويه وأبو الشيخ الأصبهانى من حديث محمد بن أبى حميد عن جرير به وقال عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان عن عوف عن الحسن قال سأل أصحاب رسول الله ﷺ أين ربنا ؟ فأنزل الله عز وجل (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى) الآية وقال ابن جريج عن عطاء انه بلغه لما نزلت (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) قال الناس لو نعلم أى ساعة ندعو ؟ فنزلت (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى) وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى حدثنا خالد الحذاء عن أبى عثمان النهدى عن أبى موسى الأشعرى قال كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شرفا ولا نهبط واديا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال فدنا منا فقال « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا بصيراً إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ياعبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة من حديث أبى عثمان النهدى واسمه عبد الرحمن بن على عنه بنحوه : وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود حدثنا شعبة حدثنا قتادة عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا دعانى » وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا على بن إسحق أنبأنا عبد الله أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا إسماعيل بن عبيد الله عن كريمة بنت ابن خشخاش المزنية قالت حدثنا أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » (قلت) وهذا كقوله تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقوله لموسى وهرون عليهما السلام (إننى معكما أسمع وأرى) والمراد من هذا انه تعالى لا يخيب دعاء داع ولا يشغله عنه شىء بل هو سميع الدعاء ففيه ترغيب فى الدعاء وأنه لا يضيع لديه تعالى كما قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا رجل أنه سمع أبا عثمان هو النهدى يحدث عن سلمان يعنى الفارسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « إن الله تعالى ليستحى أن يبسط العبد اليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين » — قال يزيد سموا لى هذا الرجل فقالوا : جعفر بن ميمون — وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جعفر بن ميمون صاحب الانباط به : وقال الترمذى حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه قال الشيخ الحافظ أبو الحجاج المزى رحمه الله فى أطرافه : وتابعه أبو همام محمد بن أبى الزبرقان عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى به : وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو عامر حدثنا على بن أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال « ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الأخرى ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » قالوا إذا نكثر قال « الله أكثر » وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا إسحق بن منصور الكوسج أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير أن عبادة بن الصامت حدثهم أن النبى ﷺ قال « ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها أو كف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » ورواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن محمد بن يوسف الفريابى عن ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان به وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقال الإمام مالك عن ابن شهاب عن أبى عبيد مولى ابن أزهر عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يستجاب لأحدكم ما لم

(١) وفى النسخة الأميرية عن ابن أبى برزة وهو غلط

يعجل يقول دعوت فلم يستجب لى » أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك به وهذا لفظ البخارى رحمه الله وأثابه الجنة وقال مسلم فى صحيحه حدثنى أبو الطاهر حدثنا ابن وهب أخبرنى معاوية بن صالح عن ربيعة عن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل» قيل يا رسول الله وما الاستعجال قال « يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « لا يزال العبد بخير مالم يستعجل» قالوا وكيف يستعجل قال « يقول قد دعوت ربى فلم يستجب لى » وقال الإمام أبو جعفر الطبرى فى تفسيره حدثنى يونس ابن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب حدثنى أبو صخر أن يزيد بن عبد الله بن قسيط حدثه عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت مامن عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب حتى تعجل له فى الدنيا أو تؤخر له فى الآخرة إذا لم يعجل أو يقنط قال عروة قلت يا أماه كيف عجلته وقنوطه ؟ قالت يقول سألت فلم أعط ودعوت فلم أجب . قال ابن قسيط وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا بكر بن عمرو عن أبى عبد الرحمن الجيلى عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله أيها الناس فأسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل » وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن إسحق ابن أيوب حدثنا إسحق بن إبراهيم بن أبى نافع بن معد يكرب ببغداد حدثنى ابن أبى نافع بن معد يكرب قال كنت أنا وعائشة سألت رسول الله ﷺ عن آية (أجيب دعوة الداعى إذا دعانى) قال « يارب مسئلة عائشة» فهبط جبريل فقال « الله يقرؤك السلام هذا عبدى الصالح بالنية الصادقة وقلبه نقى يقول يارب فأقول لبيك فأقضى حاجته » وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وروى ابن مردويه من حديث الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس حدثنى جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قرأ (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى) الآية فقال رسول الله ﷺ « اللهم أمرت بالدعاء وتوكلت بالإجابة لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك، أشهد أنك فرد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وأشهد أن وعدك حق ولقاءك حق والجنة حق والنار حق والساعة آتية لاريب فيها وأنت تبعث من فى القبور » وقال الحافظ أبو بكر البزار وحدثنا الحسن بن يحيى الأزدى ومحمد بن يحيى القطعى قالا حدثنا الحجاج بن منهال حدثنا صالح المزى عن الحسن عن أنس عن النبى ﷺ قال « يقول الله تعالى يا ابن آدم واحدة لك وواحدة لى وواحدة فيما بينى وبينك فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا وأما التى لك فما عملت من شىء أو من عمل وفيتكه وأما الذى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة وفى ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد فى الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر كما رواه الإمام أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا أبو محمد المليكى عن عمرو هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا، وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى سننه حدثنا هشام بن عمار أخبرنا الوليد بن مسلم عن إسحق بن عبد الله المدنى عن عبيد الله بن أبى مليكة عن عبد الله بن عمرو قال قال النبى ﷺ « إن للصائم عند فطره دعوة ماترد » قال عبيد الله بن أبى مليكة سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى وفى مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين »

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ورفع لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة والرفث هنا هو الجماع قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وطاوس وسالم بن عبد الله وعمرو بن دينار والحسن وقتادة والزهرى والضحاك وإبراهيم النخعى والسدى وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان : وقوله (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان يعنى هن سكن لكم وأنتم سكن لهن ، وقال الربيع بن أنس هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخص لهم فى المجامعة فى ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا قال الشاعر : إذا ما الضجيع ثنى جيدها * تداعت فكانت عليه لباسا

وكان السبب فى نزول هذه الآية كما تقدم فى حديث معاذ الطويل وقال أبو إسحق عن البراء بن عازب قال : كان أصحاب النبى ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها وان قيس بن صرمة الأنصارى كان صائماً[1] وكان يومه ذلك يعمل فى أرضه فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ؟ قالت لا ولكن أنطلق فأطلب لك فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائماً قالت : خيبة لك أنمت ؟ فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبى ﷺ فنزلت هذه الآية (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم — إلى قوله — وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) ففرحوا بها فرحاً شديداً ولفظ البخارى ههنا من طريق أبى إسحق سمعت البراء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كان المسلمون فى شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة ثم إن أناسا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام فى شهر رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن) الآية وكذا روى العوفى عن ابن عباس وقال موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : إن الناس كانوا قبل أن ينزل فى الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون ويحل لهم شأن النساء فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتى أهله حتى يفطر من القابلة فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعد ما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله ثم جاء إلى النبى ﷺ فقال أشكو إلى الله وإليك الذى صنعت قال « وما صنعت » ؟ قال إنى سولت لى نفسى فوقعت على أهلى بعد ما نمت وأنا أريد الصوم فزعموا أن النبى ﷺ قال : « ما كنت خليقاً أن تفعل » فنزل الكتاب (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وقال سعيد بن أبى عروبة عن قيس بن سعد عن عطاء بن أبى رباح عن أبى هريرة فى قول الله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم — إلى قوله — ثم أتموا الصيام إلى الليل) قال كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا وان عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء وان صرمة بن قيس الأنصارى غلبته عيناه بعد صلاة المغرب فنام ولم يشبع من الطعام ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء فقام فأكل وشرب فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله عند ذلك (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) يعنى بالرفث مجامعة النساء (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) يعنى تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء (فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن) يعنى جامعوهن (وابتغوا ما كتب الله لكم) يعنى الولد (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) فكان ذلك عفوا من الله ورحمة وقال هشام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يارسول الله إنى أردت أهلى البارحة على ما يريد الرجل أهله فقالت إنها قد نامت فظننتها تعتل فواقعتها فنزل فى عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وهكذا رواه شعبة عن عمرو بن مرة عن ابن أبى ليلى به

(١) اختلف فى اسمه لاختلاف الروايات فقيل صرمة بن قيس أو ابن أنس وقيل ضمرة بن أنس وذكر هذا فى حاشية نسخة الازهر فراجع هذه الاسماء فى الاصابة .

وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى المثنى حدثنا سويد أخبرنا ابن المبارك عن أبى لهيعة حدثنى موسى بن جبير مولى بنى سلمة أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال : كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر بن الخطاب من عند النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وقد سمر عنده فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت إنى قد نمت فقال ما نمت ثم وقع بها وصنع كعب بن مالك مثل ذلك فغدا عمر بن الخطاب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن) الآية وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة وغيرهم فى سبب نزول هذه الآية فى عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع وفى صرمة بن قيس فأباح الجماع والطعام والشراب فى جميع الليل رحمة ورخصة ورفقا وقوله (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال أبو هريرة وابن عباس وأنس وشريح القاضى ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والربيع بن أنس والسدى وزيد بن أسلم والحكم بن عتبة ومقاتل بن حيان والحسن البصرى والضحاك وقتادة وغيرهم يعنى الولد وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (وابتغوا ما كتب الله لكم) يعنى الجماع وقال عمرو بن مالك البكرى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال ليلة القدر رواه ابن أبى حاتم وابن جرير . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر قال : قال قتادة ابتغوا الرخصة التى كتب الله لكم يقول ما أحل الله لكم : وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا ابن عيينة عن عمرو ابن دينار عن عطاء بن أبى رباح قال قلت لابن عباس كيف تقرأ هذه الآية (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال أيتهما شئت عليك بالقراءة الأولى واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله .

قوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع فى أى الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود ورفع اللبس بقوله (من الفجر) كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الله البخارى حدثنى ابن أبى مريم حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف حدثنا أبو حازم عن سهل بن سعد قال أنزلت (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ولم ينزل (من الفجر) وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد (من الفجر) فعلموا أنما يعنى الليل والنهار . وقال الإمام أحمد حدثنا هشام أخبرنا حصين عن الشعبى أخبرنى عدى بن حاتم قال لما نزلت هذه الآية (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض قال فجعلتهما تحت وسادتى ، قال فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لى الأبيض من الأسود أمسكت فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذى صنعت فقال « إن وسادك إذاً لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل » أخرجاه فى الصحيحين من غير وجه عن عدى . ومعنى قوله إن وسادك إذا لعريض أى إن كان ليسع الخيطين الخيط الأسود والأبيض المرادين من هذه الآية تحتها فإنهما بياض النهار وسواد الليل فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب وهكذا وقع فى رواية البخارى مفسرا بهذا حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن حصين عن الشعبى عن عدى قال أخذ عدى عقالا أبيض وعقالا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا فلما أصبح قال يا رسول الله جعلت تحت وسادتى قال « إن وسادك إذا لعريض إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك » وجاء فى بعض الألفاظ « إنك لعريض القفا » ففسره بعضهم بالبلادة وهو ضعيف بل يرجع إلى هذا لأنه إذا كان وساده عريضا فقفاه أيضا عريض والله أعلم : ويفسره رواية البخارى أيضا حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن مطرف عن الشعبى عن عدى بن حاتم قال : قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان ؟ قال « إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال لا بل هو سواد الليل وبياض النهار » .

وفى إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور فى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « تسحروا فإن فى السحور بركة » وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور» وقال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى هو ابن الطباع حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ «السحور أكله بركة فلا تدعوه ولو أن أحدكم تجرع

جرعةماء فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين» ، وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبها بالآكلين ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك عن زيد بن ثابت ، قال تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة قال أنس قلت لزيد كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال قدر خمسين آية . وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن سالم بن غيلان عن سليمان بن أبي عثمان عن عدي بن حاتم الحمصي عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الافطار وأخروا السحور » وقد ورد أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سماه الغذاء المبارك وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه من رواية حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زيد ابن حبيش عن حذيفة قال تسحر نا مع رسول الله ﷺ وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع وهو حديث تفرد به عاصم بن أبي النجود قاله النسائي وحمله على أن المراد قرب النهار كما قال تعالى (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) أي قاربن انقضاء العدة فإما إمساك بمعروف أو ترك للفراق وهذا الذي قاله هو المتعين حمل الحديث عليه أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر حتى ان بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك وقد روى عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر روى مثل هذا عن أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعن طائفة كثيرة من التابعين منهم محمد بن علي بن الحسين وأبو مجلز وإبراهيم النخعي وأبو الضحى وأبو وائل وغيره من أصحاب ابن مسعود وعطاء والحسن والحاكم بن عيينة ومجاهد وعروة بن الزبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد وإليه ذهب الأعمش وجابر بن راشد وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد ولله الحمد وحكى أبو جعفر بن جرير في تفسيره عن بعضهم أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الافطار بغروبها (قلت) وهذا القول ما أظن أحدا من أهل العلم يستقر له قدم عليه لمخالفته نص القرآن في قوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) وقد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فانه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فانه لا يؤذن حتى يطلع الفجر » لفظ البخاري وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الفجر المستطيل في الأفق ولكن المعترض الأحمر » ورواه الترمذي ولفظهما « كلوا واشربوا ولا يهيدنكم الساطع المصعد فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر » وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا شعبة عن شيخ من بني قشير سمعت سمرة بن جندب يقول : قال رسول الله ﷺ « لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى ينفجر الفجر أو يطلع الفجر » ثم رواه من حديث شعبة وغيره عن سواد بن حنظلة عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ . « لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكنه الفجر المستطير في الأفق » قال وحدثني يعقوب بن إبراهيم بن علية عن عبد الله بن سودة القشيري عن أبيه عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض - لعمود الصبح - حتى يستطير » رواه مسلم في صحيحه عن زهير بن حرب عن إسماعيل ابن إبراهيم هو ابن علية مثله سواء وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا ابن المبارك عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا يمنعن أحدكم أذان بلال عن سحوره أو قال نداء بلال فان بلالا يؤذن بليل أو قال ينادي لينبه نائمكم وليرجع قائمكم وليس الفجر أن يقول هكذا وهكذا حتى يقول هكذا » ورواه من وجه آخر عن التيمي به وحدثني الحسن بن الزبرقان النخعي حدثني أبو أسامة عن محمد بن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن محمد بن عبد الرحمن ابن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ «الفجر فجران فالذي كأنه ذنب السرحان لا يحرم شيئا وإنما هو المستطير الذي يأخذ الأفق فانه يحل الصلاة ويحرم الطعام » وهذا مرسل جيد وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء سمعت ابن عباس يقول : هما فجران فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئا ولكن الفجر الذي يستنير على رءوس الجبال هو الذي يحرم الشراب وقال عطاء فأما إذا سطع سطوعا في السماء وسطوعه أن يذهب في السماء طولا فانه لا يحرم به شراب للصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج ولكن إذا انتشر على رءوس الجبال حرم الشراب للصيام وفات الحج وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء وهكذا روى عن غير واحد من السلف رحمهم الله (مسألة) ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنبا فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه وهذا مذهب الأئمة

الأربعة وجمهور العلماء سلفا وخلفا لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا كان رسول الله ﷺ يصبح جنبا من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وفي حديث أم سلمة عندهما ثم لا يفطر ولا يقضي وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رجلا قال يارسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم ؟ فقال رسول الله ﷺ « وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم » فقال لست مثلنا يا رسول الله قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فقال « والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي » فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا نودي للصلاة صلاة الصبح وأحدكم جنب فلا يصم يومئذ » فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين كما ترى وهو في الصحيحين عن أبي هريرة عن الفضل بن عباس عن النبي ﷺ وفي سنن النسائي عنه عن أسامة بن زيد والفضل بن عباس ولم يرفعه فمن العلماء من علل هذا الحديث بهذا ومنهم من ذهب إليه ويحكى هذا عن أبي هريرة وسالم وعطاء وهشام بن عروة والحسن البصري ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنبا نائما فلا عليه لحديث عائشة وأم سلمة أو مختارا فلا صوم له لحديث أبي هريرة يحكى هذا عن عروة وطاوس والحسن ، ومنهم من فرق بين الفرض فيتم فيقضيه وأما النفل فلا يضره رواه الثوري عن منصور عن إبراهيم النخعي وهو رواية عن الحسن البصري أيضاً ومنهم من ادعى نسخ حديث أبي هريرة بحديثي عائشة وأم سلمة ولكن لا تاريخ معه وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية وهو بعيد أيضا إذ لا تاريخ بل الظاهر من التاريخ خلافه ومنهم من حمل حديث أبي هريرة على نفي الكمال فلا صوم له لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها والله أعلم (ثم أتموا الصيام إلى الليل) يقتضي الافطار عند غروب الشمس حكما شرعيا كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم » وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « لا يزال الناس بخير ماعجلوا الفطر » أخرجاه وقال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي حدثنا قرة بن عبد الرحمن عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « يقول الله عز وجل إن أحب عبادي إلي أعجلهم فطرا » ورواه الترمذي من غير وجه عن الأوزاعي به وقال هذا حديث حسن غريب وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبيد الله بن إياد سمعت إياد بن لقيط سمعت ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت أردت أن أصوم يومين مواصلة فمنعني بشير وقال إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال « يفعل ذلك النصارى ولكن صوموا كما أمركم الله (ثم أتموا الصيام إلى الليل فإذا كان الليل فأفطروا) » ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال وهو أن يصل يوما بيوم آخر ولا يأكل بينهما شيئا قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا تواصلوا » قالوا يا رسول الله إنك تواصل قال « فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني » قال فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال فقال « لو تأخر الهلال لزدتكم » كالمنكل لهم وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به وكذلك أخرجا النهي عن الوصال من حديث أنس وابن عمر ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم فقالوا إنك تواصل قال « إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني » فقد ثبت النهي عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ وأنه كان يقوى على ذلك ويعان والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنويا لا حسيا وإلا فلا يكون مواصلا مع الحسي ولكن كما قال الشاعر : لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الشراب وتلهيها عن الزاد

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر » قالوا فإنك تواصل يارسول الله قال « إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني » أخرجاه في الصحيحين أيضاً وقال ابن جرير ، حدثنا أبو كريب حدثنا أبو نعيم حدثنا أبو إسرائيل العبسي عن أبي بكر بن حفص عن أم ولد حاطب بن أبي بلتعة أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسحر فدعاها إلى الطعام فقالت إني صائمة قال وكيف تصومين فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال أين أنت من وصال آل محمد من السحر إلى السحر » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا إسرائيل عن عبد الأعلى عن محمد بن علي عن علي أن النبي ﷺ

كان يواصل من السحر إلى السحر وقد روى ابن جرير عن عبدالله بن الزبير وغيره من السلف أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة وحمله منهم على أنهم كانو يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهى أنه إرشاد من باب الشفقة كما جاء في حديث عائشة رحمة لهم فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه لأنهم كانوا يجدون قوة عليه وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولا . وقد روى عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم ، وقال أبو العالية إنما فرض الله الصيام بالنهار فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل . وقوله تعالى (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هذا فى الرجل يعتكف فى المسجد فى رمضان أو فى غير رمضان فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلا أو نهارا حتى يقضى اعتكافه وقال الضحاك كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء فقال الله تعالى (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) أى لا تقربوهن مادمتم عاكفين فى المسجد ولا فى غيره . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية قال ابن أبى حاتم روى عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ومجاهد وعطاء والحسن وقتادة والضحاك والسدى والربيع بن أنس ومقاتل : قالوا لا يقربها وهو معتكف وهذا الذى حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء مادام معتكفا فى مسجده ولو ذهب إلى منزله لحاجة لابد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشىء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار فى طريقه وللاعتكاف أحكام مفصلة فى بابها منها ماهو مجمع عليه بين العلماء ومنها ماهو مختلف فيه . وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك فى آخر كتاب الصيام ولله الحمد والمنة ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم فانه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم . وفى ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف فى الصيام أو فى آخر شهر الصيام كما ثبتت فى السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وفى الصحيحين أن صفية بنت حيى كانت تزور النبى ﷺ وهو معتكف فى المسجد فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها وكان ذلك ليلا فقام النبى ﷺ ليمشى معها حتى تبلغ دارها وكان منزلها فى دار أسامة بن زيد فى جانب المدينة فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا وفى رواية تواريا أى حياء من النبى ﷺ لكون أهله معه فقال لهما ﷺ «على رسلكما إنها صفية بنت حيى » أى لا تسرعا واعلما أنها صفية بنت حيى أى زوجتى فقالا سبحان الله يارسول الله فقال ﷺ « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً أوقال شرا» قال الشافعى رحمه الله أراد عليه السلام أن يعلم أمته التبرى من التهمة فى محلها لئلا يقعا فى محذور وهما كانا أتقى لله من أن يظنا بالنبى ﷺ شيئا والله أعلم ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك فأما معاطاة الشىء ونحوه فلا بأس به فقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى إلى رأسه فأرجله وأنا حائض وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان قالت عائشة ولقد كان المريض يكون فى البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة وقوله (تلك حدود الله) أى هذا الذى بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا فيه وما حرمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه حدود الله أى شرعها الله وبينها بنفسه فلا تقربوها أى لا تجاوزوها وتتعدوها وكان الضحاك ومقاتل يقولان فى قوله (تلك حدود الله) أى المباشرة فى الاعتكاف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعنى هذه الحدود الأربعة ويقرأ (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم – حتى بلغ – ثم أتموا الصيام إلى الليل) قال وكان أبى وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا (كذلك يبين الله آياته للناس) أى كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ (للناس لعلهم يتقون) أى يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون كما قال تعالى (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤف رحيم)

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قال على ابن أبي طلحة وعن ابن عباس هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم وقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا إنما أنا بشر وإنما يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها » فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء فى نفس الأمر فلا يحل فى نفس الأمر حراما هو حرام ولا يحرم حلالا هو حلال[1] وإنما هو ملزم فى الظاهر فان طابق فى نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ولهذا قال تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) أى تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه فى كلامكم قال قتادة : اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضى لا يحل لك حراما ولا يحق لك باطلا وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى وتشهد به الشهود والقاضى بشر يخطىء ويصيب واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقص حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضى على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق فى الدنيا

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

قال العوفى عن ابن عباس سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس) يعلمون بها حل دينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية بلغنا أنهم قالوا يا رسول الله لم خلقت الأهلة ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس) يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم وكذا روى عن عطاء والضحاك وقتادة والسدى والربيع بن أنس نحو ذلك وقال عبد الرزاق عن عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فان غم عليكم فعدوا ثلاثين يوما » ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث ابن أبى رواد به وقال كان ثقة عابدا مجتهدا شريف النسب فهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه قال : قال رسول ﷺ : « جعل الله الأهلة فإذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا فان أغمى عليكم فأكملوا العدة ثلاثين » وكذا روى من حديث أبى هريرة ومن كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه

وقوله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) قال البخارى : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من أتقى وأتوا البيوت من أبوابها) وكذا رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة عن أبى إسحق عن البراء قال . كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه فنزلت هذه الآية وقال الأعمش . عن أبى سفيان عن جابر كانت قريش تدعى الحمس وكانوا يدخلون من الأبواب فى الاحرام وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب فى الاحرام فبينا رسول الله ﷺ فى بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا يا رسول الله . إن قطبة بن عامر رجل تاجر وإنه خرج معك من الباب فقال له . ما حملك على ما صنعت ؟ قال . رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت فقال . إنى أحمس قال له . فان

(١) هذه عبارة نسخة الأزهر ، وفى النسخة الأميرية فلا يحل فى نفس الأمر حراماً هو حلال ولا يحرم باطلا هو حلال اه وهو خطأ ظاهر .

دينى دينك فأنزل الله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) رواه ابن أبى حاتم ورواه العوفى عن ابن عباس بنحوه وكذا روى عن مجاهد والزهرى وقتادة وإبراهيم النخعى والسدى والربيع بن أنس وقال الحسن البصرى : كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً وخرج من بيته يريد سفره الذى خرج له ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسوره من قبل ظهره فقال الله تعالى : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) الآية : وقال محمد بن كعب : كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت فأنزل الله هذه الآية وقال عطاء بن أبى رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون أن ذلك أدنى إلى البر فقال الله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) ولا يرون أن ذلك أدنى إلى البر وقوله (واتقوا الله لعلكم تفلحون) أى اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه (لعلكم تفلحون) غدا إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال

﴿ وَقَـٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ * فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم) قال هذه أول آية نزلت فى القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال هذه منسوخة بقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وفى هذا نظر لأن قوله (الذين يقاتلونكم) إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله أى كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم كما قال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ولهذا قال فى هذه الآية (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى اخراجهم من بلادهم التى أخرجوكم منها قصاصا

وقوله (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) أى قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتدوا فى ذلك ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى كما قاله الحسن البصرى من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم ولهذا جاء فى صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اغزوا فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع » رواه الإمام أحمد وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال اخرجوا باسم الله قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » رواه الإمام أحمد ولأبى داود عن أنس مرفوعا نحوه وفى الصحيحين عن ابن عمر قال وجدت امرأة فى بعض مغازى النبى ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان . وقال الإمام أحمد حدثنا مصعب بن سلام حدثنا الأجلح عن قيس بن أبى مسلم عن ربعى بن حراش قال سمعت حذيفة يقول ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثالا واحد وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر فضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منها مثلا وترك سائرها قال « إن قوما كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداوة فأظهر الله أهل الضعف عليهم فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة » هذا حديث حسن الإسناد ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء فاعتدوا عليهم فاستعملوهم فيما لا يليق بهم أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الإعتداء والأحاديث والآثار فى هذا

كثيرة جدا . ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال نبه تعالى على أن ماهم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل ولهذا قال (والفتنة أشد من القتل) قال أبو مالك أى ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل . وقال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس فى قوله (والفتنة أشد من القتل) يقول الشرك أشد من القتل وقوله (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) كما جاء فى الصحيحين « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ولم يحل إلا ساعة من نهار وإنها ساعتى هذه حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه فان أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » يعنى بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة فانه فتحها عنوة وقتلت رجال منهم عند الخندمة وقيل صلحاً لقوله « من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » وقوله (حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) يقول تعالى ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدأوكم بالقتال فيه فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل كما بايع النبى ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ ثم كف الله القتال بينهم فقال (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وقال (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما) وقوله (فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم) أى فان تركوا القتال فى الحرم وأنابوا إلى الاسلام والتوبة فان الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين فى حرم الله فانه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه اليه ثم أمر الله بقتال الكفار (حتى لا تكون فتنة) أى شرك قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل بن حيان والسدى وزيد بن أسلم (ويكون الدين لله) أى يكون دين الله هو الظاهر العالى على سائر الأديان كما ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وفى الصحيحين « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

وقوله (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين وهذا معنى قول مجاهد أن لا يقاتل إلا من قاتل أو يكون تقديره فان انتهوا فقد تخلصوا من الظلم وهو الشرك فلا عدوان عليهم بعد ذلك والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقاتلة كقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ولهذا قال عكرمة وقتادة الظالم الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله وقال البخارى قوله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) الآية حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبى ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال يمنعنى أن الله حرم دم أخى قالا : ألم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله ، وزاد عثمان بن صالح عن ابن وهب أخبرنى فلان وحيوة بن شريح عن بكر بن عمر المغافرى أن بكير بن عبد الله حدثه عن نافع أن رجلا أتى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عاماً وتقيم عاماً وتترك الجهاد فى سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغب الله فيه ؟ فقال يا ابن أخى بنى الاسلام على خمس : الإيمان بالله ورسوله والصلاة الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت . قالوا يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله فى كتابه (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال فعلنا على عهد رسوله صلى الله عليه وسلم

وكان الاسلام قليلا فكان الرجل يفتن فى دينه إما قتلوه أوعذبوه حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة ، قال فما قولك فى على وعثمان ؟ قال أما عثمان فكان الله عفا عنه وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه ، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه فأشار بيده فقال هذا بيته حيث ترون .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قال عكرمة عن ابن عباس والضحاك والسدى وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم لما سار رسول الله ﷺ معتمراً فى سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان من المسلمين وأقصه الله منهم فنزلت فى ذلك هذه الآية (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) وقال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا ليث بن سعد عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو فى الشهر الحرام إلا أن يغزى وتغزوا فاذا حضره أقام حتى ينسلخ . هذا إسناد صحيح . ولهذا لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم وهو مخيم بالحديبيه أن عثمان قتل وكان قد بعثه فى رسالة إلى المشركين بايع أصحابه وكانوا ألفا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف عدل اليها فحاصرها ودخل ذوالقعدة وهو محاصرلها بالمنجنيق واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً كما ثبت فى الصحيحين عن أنس فلما كثر القتل فى أصحابه انصرف عنها ولم تفتتح ثم كر راجعا إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين . وكانت عمرته هذه فى ذى القعدة أيضا عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه : وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) أمر بالعدل حتى فى المشركين كما قال (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) وقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن قوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد ثم نسخ بآية القتال بالمدينة وقد رد هذا القول ابن جرير وقال بل الآية مدنية بعد عمرة القضية وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله وقوله (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) أمرهم بطاعة الله وتقواه وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال البخارى حدثنا إسحق أخبرنا النضر أخبرنا شعبة عن سليمان سمعت أباوائل عن حذيفة (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال نزلت فى النفقة ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن أبى معاوية عن الأعمش به مثله قال وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران قال حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصارى فقال ناس ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الاسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار نجياً فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصره حتى فشا الاسلام وكثر أهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فكانت التهلكة فى الاقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد رواه أبو داود والترمذى والنسائى وعبد بن حميد فى تفسيره وابن أبى حاتم

وابن جرير وابن مردويه والحافظ أبويعلى فى مسنده وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه كلهم من حديث يزيد ابن أبى حبيب به وقال الترمذى حسن صحيح غريب وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ولفظ أبى داود عن أسلم أبى عمران كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى أهل الشام رجل يزيد بن فضالة بن عبيد فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ثم خرج إلينا فصاح الناس اليه فقالوا سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب : يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل وإنما نزلت فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا . لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها فأنزل الله هذه الآية وقال أبو بكر بن عياش عن أبى إسحق السبيعى قال : قال رجل للبراء بن عازب إن حملت على العدو وحدى فقتلونى أكنت ألقيت بيدى إلى التهلكة ؟ قال لا قال الله لرسوله (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) وإنما هذه فى النفقة رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث إسرائيل عن أبى إسحق وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الترمذى وقيس بن الربيع عن أبى إسحق عن البراء فذكره وقال بعد قوله (لا تكلف إلا نفسك) ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثنى الليث حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبى بكر ابن نمير بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن عبد الرحمن الأسود بن عبد يغوث أخبره أنهم حاصروا دمشق فانطلق رجل من أزدشنوءة فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل فعاب ذلك عليه المسلمون ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص فأرسل اليه عمرو فرده وقال عمرو قال الله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال ليس ذلك فى القتال إنما هو فى النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة فى سبيل الله ولا تلق بيدك إلى التهلكة قال حماد بن سلمة عن داود عن الشعبى عن الضحاك بن أبى جبير قال كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم فأصابتهم سنة فأمسكوا عن النفقة فى سبيل الله فنزلت (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال الحسن البصرى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال هو البخل ، وقال سماك بن حرب عن النعمان بن بشير فى قوله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أن يذنب الرجل الذنب فيقول لا يغفر لى فأنزل الله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) رواه ابن مردويه : وقال ابن أبى حاتم وروى عن عبيدة السلمانى والحسن وابن سيرين وأبى قلابة نحو ذلك يعنى نحو قول النعمان بن بشير أنها فى الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له فيلقى بيده إلى التهلكة أى يستكثر من الذنوب فيهلك . ولهذا روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس التهلكة عذاب الله وقال ابن أبى حاتم وابن جرير جميعا حدثنا يونس حدثنا ابن وهب أخبرنى أبو صخر عن القرظى [محمد بن كعب] أنه كان يقول فى هذه الآية (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة قال كان القوم فى سبيل الله فيتزود الرجل فكان أفضل زادا من الآخر أنفق البائس[1] من زاده حتى لا يبقى من زاده شىء أحب أن يواسى صاحبه فأنزل الله (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وبه قال ابن وهب أيضا أخبرنى عبد الله بن عياش عن زيد ابن أسلم فى قول الله (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وذلك ان رجالا كانوا يخرجون فى بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة فاما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالا فأمرهم الله ان يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع والعطش أو من المشى . وقال لمن بيده فضل (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) ومضمون الآية الأمر بالانفاق فى سبيل الله فى سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات وخاصة صرف الأموال فى قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم والاخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) .

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ

(١) فى الدر المنثور اليابس ، وفى نسخة الأزهر . والنسخة الأميرية أنفقوا الباقين فليحرر .

مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد شرع فى بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما . ولهذا قال بعده فإن أحصرتم أى صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما ، ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع فى الحج والعمرة ملزم سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هما قولان للعلماء وقد ذكرناها بدلائلهما فى كتابنا الأحكام مستقصى ولله الحمد والمنة : وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن على أنه قال فى هذه الآية (وأتموا الحج والعمرة لله) قال أن تحرم من دويرة أهلك وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ، وعن سفيان الثورى أنه قال فى هذه الآية إتمامهما أن تحرم من أهلك لاتريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت لوحججت أو اعتمرت . وذلك يجزىء ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره : وقال مكحول إتمامهما إنشاؤهما جميعا من الميقات ، وقال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى قال بلغنا أن عمر قال فى قول الله (وأتموا الحج والعمرة لله) من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر وأن تعتمر فى غير أشهر الحج إن الله تعالى يقول (الحج أشهر معلومات) وقال هشام عن ابن عون سمعت القاسم بن محمد يقول إن العمرة فى أشهر الحج ليست بتامة فقيل له فالعمرة فى المحرم قال كانوا يرونها تامة وكذا روى عن قتادة بن دعامة رحمهما الله وهذا القول فيه نظر لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر كلها فى ذى القعدة عمرة الحديبية فى ذى القعدة سنة ست وعمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع وعمرة الجعرانة فى ذى القعدة سنة ثمان وعمرته التى مع حجته أحرم بهما معا فى ذى القعدة سنة عشر وما اعتمر فى غير ذلك بعد هجرته ولكن قال لأم هانىء « عمرة فى رمضان تعدل حجة معى » وماذاك إلا لأنها قدعزمت على الحج معه عليه السلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر كما هو مبسوط فى الحديث عند البخارى ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها والله أعلم .

وقال السدى فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) أى أقيموا الحج والعمرة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) يقول من أحرم بحج أو بعمرة فليس له ان يحل حتى يتمهما تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل . وقال قتادة عن زرارة عن ابن عباس انه قال الحج عرفة والعمرة الطواف وكذا روى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) قال هى قراءة عبدالله وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لايجاوز[1] بالعمرة البيت . قال إبراهيم فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال كذلك قال ابن عباس : وقال سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة انه قال : وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت . وكذاروى الثورى أيضا عن إبراهيم عن منصور عن إبراهيم انه قرأ وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت . وقرأ الشعبى (وأتموا الحج والعمرة لله) برفع العمرة وقال ليست بواجبة . وروى عنه خلاف ذلك وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة عن أنس وجماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ جمع فى إحرامه بحج وعمرة وثبت عنه فى الصحيح أنه قال لأصحابه «من كان معه هدى فليهل بحج وعمرة» وقال فى الصحيح أيضا « دخلت العمرة فى الحج الى يوم القيامة » .

وقد روى الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى سبب نزول هذه الآية حديثا غريبا فقال حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو عبد الله الهروى حدثنا غسان الهروى حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عطاء عن صفوان بن أمية أنه قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم متضمخ بالزعفران عليه جبة فقال كيف تأمرنى يارسول الله فى عمرتى ؟ قال فأنزل الله

(١) فى نسخة الأزهر تجاوز بالمثناة الفوقية .

(وأتموا الحج والعمرة لله) فقال رسول الله ﷺ « أين السائل عن العمرة » فقال ها أنا ذا فقال له « ألق عنك ثيابك ثم اغتسل واستنشق ما استطعت ثم ما كنت صانعا فى حجك فاصنعه فى عمرتك » هذا حديث غريب وسياق عجيب والذى ورد فى الصحيحين عن يعلى بن أمية فى قصة الرجل الذى سأل النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالجعرانة فقال كيف ترى فى رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق فسكت رسول الله ﷺ ثم جاءه الوحى ثم رفع رأسه فقال أين السائل فقال ها أنا ذا فقال « أما الجبة فانزعها وأما الطيب الذى بك فاغسله ثم ما كنت صانعا فى حجك فاصنعه فى عمرتك » ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق ولا ذكر نزول هذه الآية وهو عن يعلى بن أمية لا صفوان ابن أمية فالله أعلم .

وقوله (فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) ذكروا أن هذه الآية نزلت فى سنة ست أى عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت وأنزل الله فى ذلك سورة الفتح بكمالها وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدى وكان سبعين بدنة وأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا فلم يفعلوا انتظارا للنسخ حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه فلذلك قال ﷺ « رحم الله المحلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله . فقال فى الثالثة « والمقصرين » وقد كانوا اشتركوا فى هديهم ذلك كل سبعة فى بدنة وكانوا ألفا وأربعمائة وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم وقيل بل كانوا على طرف الحرم فالله أعلم . ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض ولا غيره على قولين فقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس ، وابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس ، وابن أبى نجيح عن ابن عباس أنه قال لا حصر إلا حصر العدو فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شىء إنما قال الله تعالى (فإذا أمنتم) فليس الأمن حصرا قال : وروى عن ابن عمر وطاوس والزهرى وزيد بن أسلم نحو ذلك. والقول الثانى أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك، قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حجاج بن الصواف عن يحيى بن أبى كثير عن عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصارى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كسر أو وجع أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى » قال فذكرت ذلك لابن عباس وأبى هريرة فقالا صدق[1] وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة من حديث يحيى بن أبى كثير به وفى رواية لأبى داود وابن ماجه من عرج أو كسر أو مرض فذكر معناه . ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن عرفة عن إسماعيل بن علية عن الحجاج ابن أبى عثمان الصواف به ثم قال وروى عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ومجاهد والنخعى وعطاء ومقاتل بن حيان أنهم قالوا الاحصار من عدو أو مرض أو كسر ، وقال الثورى الاحصار من كل شىء آذاه وثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت يارسول الله إنى أريد الحج وأنا شاكية فقال « حجى واشترطى أن محلى حيث حبستنى » ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط فى الحج لهذا الحديث وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعى القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث ، قال البيهقى وغيره من الحفاظ وقد صح ولله الحمد .

وقوله (فما استيسر من الهدى) قال الإمام مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على بن أبى طالب أنه كان يقول (فما استيسر من الهدى) شاة وقال ابن عباس الهدى من الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والمعز والضأن : وقال الثورى عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (فما استيسر من الهدى) قال شاة وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وأبو العالية ومحمد بن على بن الحسين وعبدالرحمن بن القاسم والشعبى والنخعى والحسن وقتادة والضحاك ومقاتل ابن حيان وغيرهم مثل ذلك وهو مذهب الأئمة الأربعة : وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى إلا من الإبل والبقر

(١) يعنيان الحجاج بن عمرو الراوى .

قال وروى عن سالم والقاسم وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير نحو ذلك (قلت) والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا اليه قصة الحديبية فانه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح فى تحلله ذلك شاة وإنما ذبحوا الإبل والبقر ففى الصحيحين عن جابر قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك فى الإبل والبقر كل سبعة منا فى بقرة : وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس فى قوله (فما استيسر من الهدى) قال بقدر يسارته ، وقال العوفى عن ابن عباس إن كان موسرا فمن الإبل وإلا فمن البقر وإلا فمن الغنم ، وقال هشام بن عروة عن أبيه (فما استيسر من الهدى) قال إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا اليه من إجزاء ذبح الشاة فى الاحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى أى مهما تيسر مما يسمى هديا والهدى من بهيمة الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت أهدى النبى ﷺ مرة غنما .

وقوله (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) معطوف على قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) وليس معطوفا على قوله (فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) كما زعمه ابن جرير رحمه الله لأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم فأما فى حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق (حتى يبلغ الهدى محله) ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارنا أو من فعل أحدهما إن كان مفردا أو متمتعا كما ثبت فى الصحيحين عن حفصة انها قالت : يارسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك ؟ فقال . « إنى لبدت رأسى وقلدت هديى فلا أحل حتى أنحر »

وقوله (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال البخارى : حدثنا آدم حدثنا شعبة عن عبد الرحمن بن الاصبهانى سمعت عبد الله بن معقل قال قعدت إلى كعب بن عجرة فى هذا المسجد يعنى مسجد الكوفة فسألته عن فدية من صيام فقال : حملت إلى النبى صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهى فقال . «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاة»؟ قلت : لا قال : «صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك » فنزلت فىّ خاصة وهى لكم عامة وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن مجاهد عن عبدالرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة قال : أتى علىّ النبى ﷺ وأنا أوقد تحت قدر والقمل يتناثر على وجهى أوقال حاجبى فقال « يؤذيك هوام رأسك ؟ » قلت نعم قال « فاحلقه وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة » قال أيوب لا أدرى بأيتهن بدأ وقال أحمد أيضا حدثنا هشام حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى عن كعب ابن عجرة قال : كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية ونحن محرمون وقد حصره المشركون وكانت لى وفرة فجعلت الهوام تساقط على وجهى فمر علىّ النبى ﷺ فقال : « أيؤذيك هوام رأسك » فأمره أن يحلق قال : ونزلت هذه الآية (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) وكذا رواه عثمان عن شعبة عن أبى بشر وهو جعفر بن إياس به ، وعن شعبة عن الحكم عن عبدالرحمن بن أبى ليلى به. وعن شعبة عن داود عن الشعبى عن كعب بن عجرة نحوه ، ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة فذكر نحوه وقال سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة عن أبان بن صالح عن الحسن البصرى انه سمع كعب بن عجرة يقول فذبحت شاة ورواه ابن مردويه ، وروى أيضا من حديث عمر ابن قيس وهو ضعيف عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « النسك شاة والصيام ثلاثة أيام والطعام فرق بين ستة » وكذا روى عن على ومحمد بن كعب وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعطاء والسدى والربيع بن أنس وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا عبدالله بن وهب أن مالك بن أنس حدثه عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآذاه القمل فى رأسه فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه وقال « صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين مدين مدين لكل إنسان

أو انسك شاة أى ذلك فعلت أجزأ عنك » وهكذا روى ليث ابن أبى سليم عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال إذا كان أو ، فأية أخذت أجزأ عنك قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وعكرمة وعطاء وطاوس والحسن وحميد الأعرج وإبراهيم النخعي والضحاك نحو ذلك (قلت) وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير فى هذا المقام إن شاء صام وإن شاء تصدق بفرق وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء أى ذلك فعل أجزأه ولما كان لفظ القرآن فى بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال : انسك شاة أو أطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام فكل حسن فى مقامه ولله الحمد والمنة . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش قال : ذكر الأعمش قال : سأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) فأجابه بقول يحكم عليه طعام فإن كان عنده اشترى شاة وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فتصدق وإلا صام لكل نصف صاع يوما قال إبراهيم كذلك سمعت علقمة يذكر قال : لما قال لى سعيد بن جبير من هذا ما أظرفه ؟ قال : قلت هذا إبراهيم فقال ما أظرفه كان يجالسنا قال : فذكرت ذلك لإبراهيم قال : فلما قلت يجالسنا انتفض منها وقال ابن جرير أيضا حدثنا ابن أبى عمران حدثنا عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن أشعث عن الحسن فى قوله (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال إذا كان بالمحرم أذى من رأسه حلق وافتدى بأى هذه الثلاثة شاء والصيام عشرة أيام والصدقة على عشرة مساكين كل مسكين مكوكين مكوكا من تمر ومكوكا من بر والنسك شاة وقال قتادة عن الحسن وعكرمة فى قوله (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال : إطعام عشرة مساكين وهذان القولان من سعيد بن جبير وعلقمة والحسن وعكرمة قولان غريبان فيهما نظر لأنه قد ثبتت السنة فى حديث كعب بن عجرة الصيام ثلاثة أيام لاستة أو إطعام ستة مساكين أو نسك شاة وأن ذلك على التخيير كما دل عليه سياق القرآن وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف فى قتل الصيد كما هو نص القرآن وعليه أجمع الفقهاء هناك بخلاف هذا والله أعلم . وقال هشام . أخبرنا ليث عن طاوس أنه كان يقول ما كان من دم أو طعام فبمكة وما كان من صيام فحيث شاء ، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن ، وقال هشام أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء أنه كان يقول : ما كان من دم فبمكة وما كان من طعام وصيام فحيث شاء ، وقال هشيم أخبرنا يحيى بن سعيد عن يعقوب بن خالد أخبرنا أبو أسماء مولى ابن جعفر قال حج عثمان بن عفان ومعه على والحسين بن على فارتحل عثمان قال أبو أسماء وكنت مع ابن جعفر فاذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه قال فقلت أيها النائم فأستيقظ فإذا الحسين بن على قال فحمله ابن جعفر حتى أتينا به السقيا قال : فأرسل إلى على ومعه أسماء بنت عميس قال : فمرضناه نحوا من عشرين ليلة قال: قال على للحسين ما الذى تجد ؟ قال فأومأ بيده إلى رأسه قال: فأمر به على فحلق رأسه ثم دعا ببدنة فنحرها فان كانت هذه الناقة عن الحلق ففيه أنه نحرها دون مكة . وإن كانت عن التحلل فواضح

وقوله (فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فاذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعا بالعمرة إلى الحج وهو يشمل من أحرم بهما أو أحرم بالعمرة أولا فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص وهو المعروف فى كلام الفقهاء والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الأحاديث الصحاح فان من الرواة من يقول تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخر يقول قرن ولا خلاف أنه ساق هديا وقال تعالى فمن (تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فليذبح ما قدر عليه من الهدى وأقله شاة وله أن يذبح البقر لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عن نسائه البقر ، وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات رواه أبو بكر بن مردويه وفى هذا دليل على مشروعية التمتع كما جاء فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال: نزلت آية المتعة فى كتاب الله وفعلناها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات قال رجل برأيه ما شاء . قال البخارى يقال إنه عمر

وهذا الذى قاله البخارى قد جاء مصرحا به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعنى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) وفى نفس الأمر لم يكن عمر رضى الله عنه ينهى عنها محرما لها إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين كما قد صرح به رضى الله عنه

وقوله (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) يقول تعالى فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام فى الحج أى فى أيام المناسك قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة فى العشر قاله عطاء أو من حين يحرم قاله ابن عباس وغيره لقوله فى الحج ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال قاله طاوس ومجاهد وغير واحد وجوز الشعبى صيام يوم عرفة وقبله يومين وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدى وعطاء وطاوس والحكم والحسن وحماد وإبراهيم وأبو جعفر الباقر والربيع ومقاتل بن حيان وقال العوفى عن ابن عباس إذا لم يجد هديا فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم عرفة فإذا كان يوم عرفة الثالث فقدتم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله وكذا روى أبو إسحق عن وبرة عن ابن عمر قال. يصوم يوما قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة وكذا روى جعفر بن محمد عن أبيه عن على أيضا فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد فهل يجوز أن يصومها فى أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء وهما للامام الشافعى أيضا القديم منهما أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر فى صحيح البخارى لم يرخص فى أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدى هكذا رواه مالك عن الزهرى عن عروة عن عائشة وعن سالم عن ابن عمر وقد روى من غير وجه عنهما ورواه سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على أنه كان يقول من فاته صيام ثلاثة أيام فى الحج صامهن أيام التشريق وبهذا يقول عبيد بن عمير الليثى عن عكرمة والحسن البصرى وعروة بن الزبير وإنما قالوا ذلك لعموم قوله (فصيام ثلاثة أيام فى الحج) والجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم عن قتيبة الهذلى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل»

وقوله (وسبعة إذا رجعتم) فيه قولان: (أحدهما) إذا رجعتم إلى رحالكم ولهذا قال مجاهد هى رخصة إذا شاء صامها فى الطريق وكذا قال عطاء بن أبى رباح والقول (الثانى) إذا رجعتم إلى أوطانكم قال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى عن يحيى بن سعيد عن سالم سمعت ابن عمر قال: (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم) قال إذا رجع إلى أهله وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبى العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والزهرى والربيع بن أنس وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع وقد قال البخارى حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدى من ذى الحليفة فأهل بعمرة ثم أهل بالحج فتمتع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج فكان من الناس من أهدى فساق الهدى ومنهم من لم يهد فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل لشىء حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله» وذكر تمام الحديث قال الزهرى وأخبرنى عروة عن عائشة بمثل ما أخبرنى سالم عن أبيه والحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى به وقوله (تلك عشرة كاملة) قيل تأكيد كما تقول العرب رأيت بعينى وسمعت بأذنى وكتبت بيدى وقال الله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) وقال (ولا تخطه بيمينك) وقال (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وقيل معنى كاملة الأمر بإكمالها وإتمامها اختاره ابن جرير وقيل معنى كاملة أى مجزئة عن الهدى قال. هشام عن عباد بن راشد عن الحسن البصرى فى قوله (تلك عشرة كاملة) قال من الهدى

وقوله (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) قال ابن جرير واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به وأنه لا متعة لهم فقال بعضهم عنى

بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان هو الثورى قال : قال ابن عباس هم أهل الحرم وكذا روى ابن المبارك عن الثورى وزاد الجماعة عليه وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول يا أهل مكة لامتعة لكم أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم إنما يقطع أحدكم واديا أو قال يجعل بينه وبين الحرم واديا ثم يهل بعمرة وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : المتعة للناس لا لأهل مكة من لم يكن أهله من الحرم . وكذا قول الله عزوجل (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) قال وبلغنى عن ابن عباس مثل قول طاوس وقال آخرون هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت كما قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن عطاء قال : من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع وقال عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن مكحول فى قوله (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) قال من كان دون الميقات وقال ابن جريج عن عطاء ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام قال عرفة ومزدلفة وعرنة والرجيع وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر سمعت الزهرى يقول من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع وفى رواية عنه اليوم واليومين واختار ابن جرير فى ذلك مذهب الشافعى أنهم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة لأن من كان كذلك يعد حاضرا لا مسافرا والله أعلم

وقوله (واتقوا الله) أى فيما أمركم ونهاكم (واعلموا أن الله شديد العقاب) أى لمن خالف أمره وارتكب ماعنه زجره

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

اختلف أهل العربية فى قوله (الحج أشهر معلومات) فقال بعضهم تقديره الحج حج أشهر معلومات فعلى هذا التقدير يكون الاحرام بالحج فيها أكمل من الاحرام فيما عداها وإن كان ذاك صحيحاً والقول بصحة الاحرام بالحج فى جميع السنة مذهب مالك وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وبه يقول إبراهيم النخعى والثورى والليث بن سعد واحتج لهم بقوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) وبأنه أحد النسكين فصح الاحرام به فى جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعى رحمه الله إلى أنه لا يصح الاحرام بالحج إلا فى أشهره فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به وهل ينعقد عمرة ، فيه قولان عنه . والقول بأنه لا يصح الاحرام بالحج إلا فى أشهره مروى عن ابن عباس وجابر وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله والدليل عليه قوله (الحج أشهر معلومات) وظاهره التقدير الآخر الذى ذهب إليه النحاة وهو أن وقت الحج أشهر معلومات فخصصه بها من بين سائر شهور السنة فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة : وقال الشافعى رحمه الله أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج أخبرنى عمر بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال لا ينبغى لأحد أن يحرم بالحج إلا فى شهور الحج من أجل قول الله تعالى (الحج أشهر معلومات) وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن يحيى بن مالك السوسى[1] عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج به ورواه ابن مردويه فى تفسيره من طريقين عن حجاج بن أرطاة عن الحاكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس أنه قال من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج وقال ابن خزيمة فى صحيحه حدثنا أبو كريب حدثنا أبو خالد الأحمر عن شعبة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج فان من سنة الحج أن يحرم بالحج فى أشهر الحج وهذا سناد صحيح وقول الصحابى من السنة كذا فى حكم المرفوع عند الأكثرين ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه . وقد ورد فيه حديث مرفوع ، قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقى حدثنا نافع حدثنا الحسن ابن المثنى حدثنا أبو حذيفة حدثنا سفيان عن أبى الزبير عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لاينبغى لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج » وإسناده لابأس به لكن رواه الشافعى والبيهقى من طرق عن ابن جريج عن أبى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل أيهل بالحج قبل أشهر الحج ؟ فقال لا وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع ويبقى

(1) فى نسخة الأزهر السرسى .

حينئذ مذهب صحابى يتقوى بقول ابن عباس من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهره والله أعلم

وقوله (أشهر معلومات) قال البخارى قال ابن عمر هى شوال وذوالقعدة وعشر من ذى الحجة وهذا الذى علقه البخارى بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولا : حدثنا أحمد بن حازم بن أبى زغرة حدثنا أبو نعم حدثنا ورقاء عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر (الحج أشهر معلومات) قال شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، إسناد صحيح وقد رواه الحاكم أيضاً فى مستدركه عن الأصم عن الحسن بن على بن عفان عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر فذكره وقال هو على شرط الشيخين (قلت) وهو مروى عن عمر وعلى وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد وإبراهيم النخعى والشعبى والحسن وابن سيرين ومكحول وقتادة والضحاك بن مزاحم والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وهو مذهب الشافعى وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل وأبى يوسف وأبى ثور رحمهم الله واختار هذا القول ابن جرير قال وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب كما تقول العرب رأيته العام ورأيته اليوم وإنما وقع ذلك فى بعض العام واليوم (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه) وإنما تعجل فى يوم ونصف يوم، و قال الإمام مالك بن أنس والشافعى فى القديم هى شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله وهو رواية عن ابن عمر أيضا قال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر قال : شوال وذو القعدة وذوالحجة وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى ابن جريج قال قلت لنافع أسمعت عبد الله بن عمر يسمى شهور الحج قال نعم كان عبد الله يسمى شوالا وذوا القعدة وذا الحجة قال ابن جريج وقال ذلك ابن شهاب وعطاء وجابر بن عبد الله صاحب النبى ﷺ وهذا إسناد صحيح إلى ابن جريج وقد حكى هذا أيضاً عن طاوس ومجاهد وعروة بن الزبير والربيع بن أنس وقتادة وجاء فيه حديث مرفوع لكنه موضوع ، رواه الحافظ بن مردويه من طريق حصين بن مخارق وهو متهم بالوضع عن يونس بن عبيد عن شهر بن حوشب عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « الحج أشهر معلومات شوال وذو القعدة وذو الحجة » وهذا كما رأيت لا يصح رفعه والله أعلم . وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذى الحجة بمعنى أنه مختص بالحج فيكره الاعتمار فى بقية ذى الحجة لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن قيس ابن مسلم عن طارق بن شهاب قال: قال عبدالله الحج أشهر معلومات ليس فيها عمرة وهذا إسناد صحيح . قال ابن جرير. وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة إنما هى للحج وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى كما قال محمد بن سيرين ما أحد من أهل العلم يشك فى أن عمرة فى غير أشهر الحج أفضل من عمرة فى أشهر الحج وقال ابن عون . سألت القاسم بن محمد عن العمرة فى أشهر الحج فقال كانوا لا يرونها تامة (قلت) وقد ثبت عن عمر وعثمان رضى الله عنهما أنهما كان يحبان الاعتمار فى غير أشهر الحج وينهيان عند ذلك فى أشهر الحج والله أعلم

وقوله (فمن فرض فيهن الحج) أى أوجب باحرامه حجا ـ فيه دلالة على لزوم الاحرام بالحج والمضى فيه قال ابن جرير. أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والالزام وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فمن فرض فيهن الحج) يقول من أحرم بحج أو عمرة وقال عطاء . الفرض الاحرام . وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم وقال ابن جريج . أخبرنى عمر بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال (فمن فرض فيهن الحج) فلا ينبغى أن يلبى بالحج ثم يقيم بأرض قال ابن أبى حاتم. وروى عن ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وإبراهيم النخعى وعكرمة والضحاك وقتادة وسفيان الثورى والزهرى ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال طاوس والقاسم بن محمد هو التلبية وقوله (فلا رفث) أى من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث وهو الجماع كما قال تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وكذلك يحرم تعاطى دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك وكذلك التكلم به بحضرة النساء قال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا بن وهب أخبرنى يونس أن نافعا أخبره أن عبد الله بن عمر كان يقول الرفث إتيان النساء والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم قال ابن وهب وأخبرنى أبو صخر عن محمد بن كعب

مثله قال ابن جرير وحدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن قتادة عن رجل عن أبي العالية الرياحي عن ابن عباس أنه كان يحدو وهو محرم وهو يقول : وهن يمشين بنا هميسا * إن تصدق الطير ننك لميسا

قال أبو العالية : فقلت تكلم بالرفث وأنت محرم ؟ قال : إنما الرفث ماقيل عند النساء : ورواه الأعمش عن زياد ابن حصين عن أبي العالية عن ابن عباس فذكره وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن عوف حدثني زياد بن حصين حدثني أبي حصين بن قيس قال : أصعدت مع ابن عباس في الحاج وكنت خليلا له فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس : فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز ويقول :

وهن يمشين بنا هميسا * إن تصدق الطير ننك لميسا

قال : فقلت أترفث وأنت محرم ؟ فقال إنما الرفث ماقيل عند النساء . وقال عبدالله بن طاوس عن أبيه سألت ابن عباس عن قول الله عز وجل (فلا رفث ولا فسوق) قال الرفث التعريض بذكر الجماع وهي العرابة في كلام العرب وهو أدنى الرفث وقال عطاء بن أبي رباح الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش وكذا قال عمرو بن دينار وقال عطاء كانوا يكرهون العرابة وهو التعريض وهو محرم وقال طاوس : هو أن يقول للمرأة إذا حللت أصبتك وكذا قال أبو العالية وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الرفث غشيان النساء والقبلة والغمز وأن تعرض لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك وقال ابن عباس أيضا وابن عمر الرفث غشيان النساء وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم وأبو العالية عن عطاء ومكحول وعطاء الخراساني وعطاء بن يسار وعطية وإبراهيم النخعي والربيع والزهري والسدي ومالك بن أنس ومقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم

وقوله (ولا فسوق) قال مقسم وغير واحد عن ابن عباس هي المعاصي وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة وإبراهيم النخعي والزهري والربيع بن أنس وعطاء بن يسار وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وقال محمد بن إسحق عن نافع عن ابن عمر قال : الفسوق ما أصيب من معاصي الله صيدا أو غيره وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع أن عبدالله بن عمر كان يقول : الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم وقال آخرون الفسوق ههنا السباب قاله ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومجاهد والسدي وإبراهيم النخعي والحسن وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ولهذا رواه ههنا الحبر أبو محمد بن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري عن زبيد عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ قال : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وروى من حديث عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه ومن حديث أبي إسحق عن محمد بن سعد عن أبيه وقال عبدالرحمن ابن زيد بن أسلم الفسوق ههنا الذبح للأصنام قال الله تعالى (أو فسقا أهل لغير الله به) وقال الضحاك : الفسوق التنابز بالألقاب . والذين قالوا الفسوق ههنا هو جميع المعاصي الصواب معهم كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم وإن كان في جميع السنة منهيا عنه إلا أنه في الأشهر الحرم آكد ولهذا قال : (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) وقال في الحرم : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا هو ارتكاب ما نهي عنه في الاحرام من قتل الصيد وحلق الشعر وقلم الأظفار ونحو ذلك كما تقدم عن ابن عمر وما ذكرناه أولى والله أعلم : وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[1] » .

وقوله (ولا جدال في الحج) فيه قولان : (أحدهما) ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح كما قال وكيع عن العلاء بن عبدالكريم سمعت مجاهدا يقول (ولا جدال في الحج) قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (ولا جدال في الحج) قال لا شهر ينسأ ولا جدال في الحج قد تبين ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسيء الذي ذمهم الله به . وقال الثوري عن عبد العزيز ابن رفيع عن مجاهد في قوله (ولا جدال في الحج) قال قد استقام الحج فلا جدال فيه وكذا قال السدي وقال هشام :

---

(١) رواية الصحيحين « رجع كيوم ولدته أمه » وليس فيهما خرج من ذنوبه ولفظ مسلم في أوله « من أتى هذا البيت » وفي رواية للبخاري « من حج لله » .

أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس (ولا جدال فى الحج) قال المراء فى الحج وقال عبدالله بن وهب قال مالك قال الله تعالى (ولا جدال فى الحج) فالجدال فى الحج والله أعلم أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة وكانوا يتجادلون يقول هؤلاء : نحن أصوب، ويقول هؤلاء : نحن أصوب فهذا فيما نرى والله أعلم وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون كلهم يدعى أن موقفه موقف إبراهيم فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك . وقال ابن وهب عن أبى صخر عن محمد بن كعب قال كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء حجنا أتم من حجكم وقال هؤلاء حجنا أتم من حجكم . وقال حماد بن سلمة عن جبير ابن حبيب عن القاسم بن محمد أنه قال : الجدال فى الحج أن يقول بعضهم الحج غداً ويقول بعضهم الحج اليوم وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال وهو قطع التنازع فى مناسك الحج والله أعلم .

(والقول الثانى) أن المراد بالجدال هنا المخاصمة قال ابن جرير : حدثنا عبدالحميد بن حسان حدثنا إسحق عن شريك عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عن عبدالله بن مسعود فى قوله (ولا جدال فى الحج) قال أن تمارى صاحبك حتى تغضبه وبهذا الاسناد إلى أبى إسحق عن التميمى : سألت ابن عباس عن الجدال قال : المراء تمارى صاحبك حتى تغضبه . وكذلك روى مقسم والضحاك عن ابن عباس وكذا قال أبوالعالية وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وجابر ابن زيد وعطاء الخراسانى ومكحول والسدى ومقاتل بن حيان وعمرو بن دينار والضحاك والربيع بن أنس وإبراهيم النخعى وعطاء بن يسار والحسن وقتادة والزهرى ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ولا جدال فى الحج المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك فنهى الله عن ذلك ، وقال إبراهيم النخعى (ولا جدال فى الحج) قال كانوا يكرهون الجدال ، وقال محمد بن إسحق عن نافع عن ابن عمر ، قال الجدال فى الحج السباب والمنازعة وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع أن ابن عمر كان يقول الجدال فى الحج السباب والمراء والخصومات ، وقال ابن أبى حاتم وروى عن ابن الزبير والحسن وإبراهيم وطاوس ومحمد بن كعب قالوا الجدال المراء : وقال عبدالله بن المبارك عن يحيى بن بشير عن عكرمة (ولا جدال فى الحج) والجدال الغضب أن تغضب عليك مسلما إلا أن تستعتب مملوكا فتغضبه من غير أن تضربه فلا بأس عليك إن شاء الله (قلت) ولو ضربه لكان جائزا سائغا . والدليل على ذلك مارواه الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن إدريس حدثنا محمد بن إسحق عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجا حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ وجلست إلى جنب أبى وكانت زمالة أبى بكر وزمالة رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة مع غلام أبى بكر فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه فاطلع وليس معه بعيره فقال : أين بعيرك ؟ فقال أضللته البارحة ، فقال أبو بكر بعير واحد تضله ، فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول « انظروا إلى هذا المحرم مايصنع » وهكذا أخرجه أبوداود وابن ماجه من حديث ابن إسحق ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال من تمام الحج ضرب الجمال ولكن يستفاد من قول النبى ﷺ عن أبى بكر رضى الله عنه « انظروا إلى هذا المحرم مايصنع » كهيئة الانكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك والله أعلم .

وقد قال الإمام عبد بن حميد فى مسنده حدثنا عبيدالله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيد الله عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقوله (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) لما نهاهم عن إتيان القبيح قولا وفعلا حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة : وقوله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) قال العوفى عن ابن عباس كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة يقولون نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس . وقال بن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن

عكرمة أن ناسا كانوا يحجون بغير زاد فأنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وكذا رواه ابن جرير عن عمرو وهو الفلاس عن ابن عيينة قال ابن أبي حاتم: وقد روى هذا الحديث ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس ، قال وما يرويه عن ابن عيينة أصح (قلت) قد رواه النسائي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس كان ناس يحجون بغير زاد فأنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وأما حديث ورقاء فأخرجه البخاري عن يحيي بن بشر عن شبابة وأخرجه أبو داود عن أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي ومحمد بن عبد الله المخزومي عن شبابة عن ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فأنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن شبابة . ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث شبابة به ، وروى ابن جرير وابن مردويه من حديث عمرو بن عبد الغفار عن نافع عن ابن عمر قال كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادا آخر فأنزل الله تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك . وكذا قال ابن الزبير وأبو العالية ومجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي وسالم بن عبد الله وعطاء الخراساني وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان : وقال سعيد بن جبير فتزودوا الدقيق والسويق والكعك . وقال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير (وتزودوا) قال الخشكنانج والسويق وقال وكيع أيضا حدثنا إبراهيم المكي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عمر قال إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر وزاد فيه حماد بن سلمة عن أبي ريحانة أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجودة[1] .

وقوله (فإن خير الزاد التقوى) لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى اليها كما قال (وريشاً ولباس التقوى ذلك خير) لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدا إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة والتقوى وذكر أنه خير من هذا وأنفع قال عطاء الخراساني في قوله (فان خير الزاد التقوى) يعني زاد الآخرة . وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا عبدان حدثنا هشام بن عمار حدثنا مروان بن معاوية عن إسماعيل عن قيس عن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من يتزود في الدنيا ينفعه في الآخرة» وقال مقاتل بن حيان لما نزلت هذه الآية (وتزودوا) قام رجل من فقراء المسلمين فقال يارسول الله مانجد مانتزوده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تزود ما تكفّ به وجهك عن الناس وخير ما تزودتم التقوى » رواه ابن أبي حاتم وقوله (واتقون يا أولي الألباب) يقول واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري يا ذوي العقول والأفهام .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾

قال البخاري حدثنا محمد أخبرني ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج . وهكذا رواه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وغير واحد عن سفيان بن عيينة به ولبعضهم فلما جاء الاسلام تأثموا أن يتجروا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله هذه الآية وكذا رواه ابن جريج عن عمرو ابن دينار عن ابن عباس قال كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومجنة وذو المجاز فلما كان الاسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية وروى أبو داود وغيره من حديث يزيد بن أبي زياد . عن مجاهد عن ابن عباس قال . كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج يقولون أيام ذكر فأنزل الله (ليس جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم)

(١) وفي نسخة الأزهر الجوزة .

وقال ابن جرير . حدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشام أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس انه قال (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية لا حرج عليكم فى الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده وهكذا روى العوفى عن ابن عباس وقال وكيع . حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمى عن عطاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج وقال عبد الرحمن عن ابن عيينة عن عبد الله بن أبى يزيد . سمعت ابن الزبير يقرأ (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج وهكذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومنصور بن المعتمر وقتادة وإبراهيم النخعى والربيع بن أنس وغيرهم . وقال ابن جرير . حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا شبابة بن سوار حدثنا شعبة عن أبى أميمة قال . سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحج ومعه تجارة فقرأ ابن عمر (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وهذا موقوف وهو قوى جيد وقد روى مرفوعا قال أحمد حدثنا أسباط حدثنا الحسن ابن عمرو الفقيمى عن أبى أمامة التيمى قال . قلت لابن عمر إنا نكرى فهل لنا من حج ؟ قال أليس تطوفون بالبيت وتأتون المعرف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم قال قلنا بلى فقال ابن عمر جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال « أنتم حجاج » وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن العلاء بن المسيب عن رجل من بنى تيم قال . جاء رجل إلى عبد الله بن عمر فقال . يا أبا عبد الرحمن إنا قوم نكرى ويزعمون أنه ليس لنا حج قال ألستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون قال. بلى قال فأنت حاج ثم قال ابن عمر. جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عما سألت عنه فنزلت هذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) ورواه عبد ابن حميد فى تفسيره عن عبد الرزاق به ، وهكذا روى هذا الحديث أبو حذيفة عن الثورى مرفوعا وهكذا روى من غير هذا الوجه مرفوعا فقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عباد بن العوام عن العلاء بن المسيب عن أبى أمامة التيمى قال قلت لابن عمر : إنا أناس نكرى فى هذا الوجه إلى مكة وإن أناسا يزعمون أنه لا حج لنا فهل ترى لنا حجا ؟ قال ألستم تحرمون وتطوفون بالبيت وتقضون المناسك قال : قلت بلى ، قال « فأنتم حجاج » ثم قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألت فلم يدر ما يعود عليه أو قال . فلم يرد عليه شيئا حتى نزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فدعا الرجل فتلاها عليه وقال « أنتم حجاج » وكذا رواه مسعود بن سعد وعبد الواحد بن زياد وشريك القاضى عن العلاء بن المسيب به مرفوعا . وقال ابن جرير . حدثنى طليق بن محمد الواسطى حدثنا أسباط هو ابن محمد أخبرنا الحسن بن عمر وهو الفقيمى عن أبو أمامة التيمى قال قلت لابن عمر إنا قوم نكرى فهل لنا من حج ؟ فقال : أليس تطوفون بالبيت وتأتون المعرف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم ؟ قلنا بلى ، قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى عنه فلم يدر ما يقول له حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) إلى آخر الآية . وقال النبى ﷺ « أنتم حجاج » وقال ابن جرير حدثنى أحمد ابن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا غندر عن عبد الرحمن بن المهاجر عن أبى صالح مولى عمر قال . قلت يا أمير المؤمنين كنتم تتجرون فى الحج ؟ قال . وهل كانت معايشهم إلا فى الحج ؟

وقوله تعالى (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) إنما صرف عرفات وإن كان علما على مؤنث لأنه فى الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات سمى به بقعة معينة فروعى فيه الأصل فصرف اختاره ابن جرير وعرفة موضع الوقوف فى الحج وهى عمدة أفعال الحج ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن باسناد صحيح عن الثورى عن بكير عن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحج عرفات — ثلاثا — فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر لأن النبى صلى الله عليه وسلم وقف

فى حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال . « لتأخذوا عنى مناسككم » وقال فى هـذا الحديث « فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك » وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى رحمهم الله وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة واحتجوا بحديث الشعبى عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائى قال : أتيت رسـول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت يا رسـول الله إنى جئت من جبل طيء أكللت راحلتى وأتعبت نفسى والله ما تركت من جبـل إلا وقفت عليه فهل لى من حج ؟ فقال رسـول الله ﷺ « من شهد صلاتنا هـذه فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبـل ذلك ليلا أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه » رواه الإمام أحمـد وأهل السنن وصححه الترمذى ثم قيل إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق أخبرنى ابن جريج قال : قال ابن المسيب قال على بن أبى طالب بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ﷺ فحج به حتى إذا أتى عرفة قال عرفت وكان قد أتاها مرة قبل ذلك فلذلك سميت عرفة وقال ابن المبارك عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء قال : إنما سميت عرفة أن جبريل كان يرى إبراهيم المناسك فيقول عرفت عرفت فسميت عرفات وروى نحوه عن ابن عباس وابن عمر وأبى مجلز فالله أعلم وتسمى عرفات المشعر الحرام والمشعر الأقصى وإلال على وزن هلال ويقال للجبل فى وسطها جبل الرحمة قال أبو طالب فى قصيدته المشهورة .

وبالمشعر الأقصى إذا قصدوا له * إلال إلى تلك الشراج القوابل * وقال ابن أبى حاتم . حدثنا حماد بن الحسن بن عيينة حدثنا أبو عامر عن زمعة هو ابن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كأنها العمائم على رءوس الرجال دفعوا فأخر رسول الله صلى عليه وسلم الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس ورواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح وزاد ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس حتى إذا أسفر كل شيء وكان فى الوقت الآخر دفع وهـذا أحسن الإسناد وقال ابن جريج عن محمـد ابن قيس عن المسور بن مخرمة قال . خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعـد — وكان إذا خطب خطبة قال أما بعـد — فان هـذا اليوم الحج الأكبر ألا وإن أهـل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هـذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت الشمس فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفا هدينا هدى أهل الشرك » هكذا رواه ابن مردويه وهذا لفظه والحاكم فى مستدركه كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشى عن عبد الوارث بن سعيد عن ابن جريج وقال الحاكم . صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع المسور من رسول الله ﷺ لا كما يتوهمه رعاع أصحابنا أنه ممن له رؤية بلا سماع ، وقال وكيع عن شعبة عن إسماعيل بن رجاء الزبيدى عن المعرور بن سويد قال . رأيت عمر رضى الله عنه حين دفع من عرفة كأنى أنظر إليـه رجل أصلع على بعير له يوضع وهو يقول إنا وجدنا الإفاضة هى الإيضاع وفى حديث جابر بن عبد الله الطويل الذى فى صحيح مسلم قال فيـه — فلم يزل واقفا يعنى بعرفة حتى غربت الشمس وبدت الصفرة قليلا حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه ودفع رسـول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى « أيها النـاس السكينة السكينة » كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفا حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وفى الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه سئل كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع ؟ قال . كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص . والعنق هو انبساط السير والنص فوقه وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا أبو محمد بن بنت الشافعى فيما كتب إلى عن أبيه أو عمه عن سفيان بن عيينة قوله (فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وهى الصلاتين(١) جميعا وقال أبو إسحق السبيعى عن عمرو بن ميمون سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام فسكت حتى

(١) كذا فى النسختين ولعل أصله جمع الصلاتين

إذا هبطت أيدى رواحلنا بالمزدلفة قال . أين السائل عن المشعر الحرام ، هـذا المشعر الحرام وقال عبـد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن سالم قال : قال ابن عمر . المشعر الحرام المزدلفة كلها وقال هشام عن حجاج عن نافع عن ابن عمر أنه سئل عن قوله (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) قال: فقال هذا الجبل وما حوله وقال عبـد الرزاق أخبرنا معمرعن المغيرة عن إبراهيم قال رآهم ابن عمر يزدحمون على قزح فقال على ما(1) يزدحم هؤلاء كل ما ههنا مشعر وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدى والربيع بن أنس والحسن وقتادة أنهم قالوا . هو ما بين الجبلين وقال ابن جريج . قلت لعطاء أين المزدلفة ؟ قال . إذا أفضت من مأزمى عرفة فذلك إلى محسر قال وليس المأزمان مأزما عرفة من المزدلفة ولـكن مفضاهما قال . فقف بينهما إن شئت قال وأحب أن تقف دون قزح هلم إلينا من أجل طريق الناس (قلت) والمشاعر هى المعالم الظاهرة وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم وهل الوقوف بها ركن فى الحج لا يصح إلا به كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعى منهم القفال وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس ! أو واجب كما هو أحد قولى الشافعى يجبر بدم ! أو مستحب لا يجب بتركه شىء كما هو القول الآخر ؟ فى ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا والله أعلم وقال عبـد الله ابن المبارك عن سفيان الثورى عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عرفة كلها موقف وارفعوا عن عرفة وجمع كلها موقف إلا محسراً » هـذا حديث مرسل وقد قال الإمام أحمـد حدثنا أبو المغيرة حدثنا سعيد ابن عبد العزيز حدثنى سليمان بن موسى عن جبير بن مطعم عن النبى ﷺ قال . «كل عرفات موقف وارفعوا عن عرفات وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن محسر وكل فجاج مكة منحر وكل أيام التشريق ذبح » وهـذا أيضاً منقطع فان سليمان بن موسى هذا وهو الأشدق لم يدرك جبير بن مطعم ولـكن رواه الوليد بن مسلم وسويد بن عبدالعزيز عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان فقال الوليد عن جبير بن مطعم عن أبيه وقال سويد عن نافع بن جبير عن أبيه عن النبى ﷺ فذكره والله أعلم .

وقوله (واذكروه كما هداكم) تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهـداية إبراهيم الخليل عليـه السلام ولهـذا قال (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) قيل من قبـل هذا الهدى وقبل القرآن وقبل الرسول والـكل متقارب ومتلازم وصحيح

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم ههنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليـه كأنه تعـالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كان جمهور الناس يصنعون يقفون بها إلا قريشاً فانهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون فى طرف الحرم عند أدنى الحل ويقولون نحن أهل الله فى بلدته وقطان بيته قال البخارى . حدثنا على بن عبد الله حدثنا محمد بن حازم حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله (من حيث أفاض الناس) وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم واختاره ابن جرير وحكى عليه الاجماع . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن عمرو عن مجاهد عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال أضللت بعيراً لى بعرفة فذهبت أطلبه فاذا النبى ﷺ واقف قلت إن هـذا من الحمس ما شأنه ههنا ! أخرجاه فى الصحيحين ثم رواه البخارى من حديث موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس ما يقتضى أن المراد بالإفاضة ههنا هى الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمى الجمار فالله أعلم . وحكاه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم فقط . قال والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام ،وفى رواية عند الإمام ،قال ابن جرير ولولا إجماع الحجة على خلافه لـكان هو الأرجح

وقوله (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ولهذا ثبت فى صحيح

(1) هكذا فى النسخة الأميرية ولـكن الفصيح حذف الف ما الاستفهامية إن جرت وأن تكتب هكذا (علام) اهـ

مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثا وفى الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين . وقد روى ابن جرير ههنا حديث ابن عباس بن مرداس السلمى فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لأمته عشية عرفة وقد أوردناه فى جزء جمعناه فى فضل يوم عرفة وأورد ابن مردويه ههنا الحديث الذى رواه البخارى عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ « سيد الاستغفار أن يقول العبد . اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها فى ليلة فمات فى ليلته دخل الجنة ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة » وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » والأحاديث فى الاستغفار كثيرة

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها وقوله (كذكركم آباءكم) اختلفوا فى معناه فقال ابن جريج عن عطاء هو كقول الصبى أبه أمه يعنى كما يلهج الصبى بذكر أبيه وأمه فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس ، وروى ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه . وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم فيقول الرجل منهم كان أبى يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله على محمد ﷺ (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) قال ابن أبى حاتم : وروى السدى عن أنس بن مالك وأبى وائل وعطاء بن أبى رباح فى أحد قوليه وسعيد بن جبير وعكرمة فى أحد رواياته ومجاهد والسدى وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب ومقاتل ابن حيان نحو ذلك ، وهكذا حكاه ابن جرير عن جماعة والله أعلم . والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل ولهذا كان انتصاب قوله أو أشد ذكرا على التمييز تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا وأو ههنا لتحقيق المماثلة فى الخبر كقوله (فهى كالحجارة أو أشد قسوة) وقوله (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) (فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (فكان قاب قوسين أو أدنى) فليست ههنا للشك قطعا وإنما هى لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فانه مظنة الإجابة وذم من لا يسأله إلا فى أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق) أى من نصيب ولا حظ وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك قال سعيد بن جبير عن ابن عباس كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق) وكان يجئ بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فأنزل الله (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فجمعت هذه الدعوة كل خير فى الدنيا وصرفت كل شر فان الحسنة فى الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافية ودار رحبة وزوجة حسنة ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح ومركب هين وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ولا منافاة بينها فانها كلها مندرجة

فى الحسنة فى الدنيا . وأما الحسنة فى الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرصات وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه فى الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام . وقال القاسم أبو عبد الرحمن: من أعطى قلبا شاكراً ولساناً ذاكرا وجسداً صابرا فقد أوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووقى عذاب النار . ولهذا وردت السنة بالترغيب فى هذا الدعاء . فقال البخارى : حدثنا معمر حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس بن مالك قال :كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وقال أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال : سأل قتادة أنسا أى دعوة كان أكثر مايدعوها النبى صلى الله عليه وسلم قال : يقول « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه ورواه مسلم وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد السلام بن شداد يعنى أبا طالوت قال كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم ، فقال « اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام قال ياأبا حمزة : إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور إذا آتاكم الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله وقال أحمد أيضاً حدثنا محمد بن أبى عدى عن حميد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدعو الله بشىء أو تسأله إياه ؟ قال نعم : كنت أقول اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله لا تطيقه أولا تستطيعه فهلا قلت (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) » قال فدعا الله فشفاه انفرد باخراجه مسلم فرواه من حديث ابن أبى عدى به. وقال الإمام الشافعى: أخبرنا سعيد ابن سالم القداح عن ابن جريج عن يحيى بن عبيد مولى السائب عن أبيه عن عبد الله بن السائب أنه سمع النبى ﷺ يقول فيما بين ركن بنى جمح والركن الأسود (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ورواه الثورى عن ابن جريج كذلك وروى ابن ماجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحو ذلك وفى سنده ضعف والله أعلم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الباقى أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور حدثنا سعيد بن سليمان عن عبد الله بن هرمز عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكا يقول آمين فإذا مررتم عليه فقولوا (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) » وقال الحاكم فى مستدركه حدثنا أبو زكريا العنبرى حدثنا محمد بن عبد السلام حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا جرير عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إنى أجرت نفسى من قوم على أن يحملونى ووضعت لهم من أجرتى على أن يدعونى أحج معهم أفيجزى ذلك ؟ فقال أنت من الذين قال الله (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) ثم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق والأيام المعلومات أيام العشر وقال عكرمة (واذكروا الله فى أيام معدودات) يعنى التكبير فى أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر. وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا موسى بن على عن أبيه قال . سمعت عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام وهى أيام أكل وشرب » وقال أحمد أيضاً . حدثنا هشام أخبرنا

خالد عن أبي المليح عن نبيشة الهذلي قال : قال رسول الله ﷺ « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله » ورواه مسلم أيضا وتقدم حديث جبير بن مطعم « عرفة كلها موقف وأيام التشريق كلها ذبح » وتقدم أيضا حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي « وأيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم وخلاد بن أسلم قالا حدثنا هشام عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « أيام التشريق أيام طعم وذكر الله » وحدثنا خالد بن أسلم حدثنا روح حدثنا صالح حدثني ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يطوف فى منى « لا تصوموا هذه الأيام فانها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل » وحدثنا يعقوب حدثنا هشام عن سفيان بن حسين عن الزهري قال بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة فنادى فى أيام التشريق فقال « إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله إلا من كان عليه صوم من هدى » زيادة حسنة ولكن مرسلة . وبه قال هشام عن عبدالملك ابن أبي سليمان عن عمرو بن دينار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بشر بن سحيم فنادى فى أيام التشريق فقال « إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله » وقال هشيم عن ابن أبي ليلى عن عطاء عن عائشة قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم أيام التشريق قال « وهى أيام أكل وشرب وذكر الله » وقال محمد بن إسحق عن حكيم بن حكيم عن مسعود بن الحكم الزرقي عن أمه قالت : لكأني أنظر إلى علىّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول : يا أيها الناس إنها ليست بأيام صيام إنما هى أيام أكل وشرب وذكر الله . وقال مقسم عن ابن عباس . الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام يوم النحر وثلاثة بعده ، وروى عن ابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعطاء ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك وإبراهيم النخعي ويحيى ابن أبي كثير والحسن وقتادة والسدي والزهري والربيع بن أنس والضحاك ومقاتل بن حيان وعطاء الخراساني ومالك بن أنس وغيرهم مثل ذلك ، وقال على بن أبي طالب هى ثلاثة يوم النحر ويومان بعده اذبح فى أيهن شئت وأفضلها أولها والقول الأول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) فدل على ثلاثة بعد النحر ويتعلق بقوله (واذكروا الله فى أيام معدودات) ذكر الله على الأضاحى وقد تقدم أن الراجح فى ذلك مذهب الشافعي رحمه الله وهو ان وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق ، ويتعلق به أيضا الذكر المؤقت خلف الصلوات والمطلق فى سائر الأحوال وفى وقته أقوال للعلماء أشهرها الذى عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو آخر النفر الآخر وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطني ولكن لايصح مرفوعا والله أعلم . وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يكبر فى قبته فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منى تكبيرا ويتعلق بذلك أيضا التكبير وذكر الله عند رمى الجمرات كل يوم من أيام التشريق وقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره إنما جعل الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل . ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم فى المشاعر والمواقف قال (واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون) كما قال (وهو الذى ذرأكم فى الأرض واليه تحشرون) .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

قال السدي . نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهر الاسلام وفى باطنه

خلاف ذلك وعن ابن عباس أنها نزلت فى نفر من المنافقين تكلموا فى خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم فأنزل الله فى ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله) وقيل بل ذلك عام فى المنافقين كلهم وفى المؤمنين كلهم وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد وهو الصحيح : وقال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن القرظى عن نوف وهو البكالى وكان ممن يقرأ الكتب قال إنى لأجد صفة ناس من هذه الأمة فى كتاب الله المنزل : قوم يحتالون على الدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، يلبسون للناس مسوك الضأن ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله تعالى : فعلىّ يجترئون وبى يغترون حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران ، قال القرظى تدبرتها فى القرآن فاذاهم المنافقون فوجدتها (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه) الآية وحدثنى محمد بن أبى معشر أخبرنى أبو معشر نجيح قال سمعت سعيدا المقبرى يذاكر محمد بن كعب القرظى فقال سعيد إن فى بعض الكتب . إن عبادا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين ، يجترون الدنيا بالدين قال الله تعالى : على تجترئون وبى تغترون ؟ وعزتى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران فقال محمد بن كعب هذا فى كتاب الله فقال سعيد وأين هو من كتاب الله قال قول الله (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا)الآية فقال سعيد . قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب إن الآية تنزل فى الرجل ثم تكون عامة بعد وهذا الذى قاله القرظى حسن صحيح . وأما قوله (ويشهد الله على ما فى قلبه) فقرأه ابن محيصن (ويشهد الله) بفتح الياء وضم الجلالة (على ما فى قلبه) ومعناها أن هذا وإن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم من قلبه القبيح كقوله تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة (ويشهد الله على ما فى قلبه) ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما فى قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) الآية هذا معنى ما رواه ابن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذى فى قلبه موافق للسانه وهذا المعنى صحيح ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس وحكاه عن مجاهد والله أعلم .

وقوله (وهو ألد الخصام) الألد فى اللغة الأعوج (وتنذر به قوما لدا) أى عوجا وهكذا المنافق فى حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه بل يفترى ويفجر كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وقال البخارى . حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة ترفعه . قال . «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » قال : وقال عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان حدثنا ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » وهكذا رواه عبد الرزاق عن معمر فى قوله (وهو ألد الخصام) عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة عن النبى ﷺ قال « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »

وقوله (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) أى هو أعوج المقال سىء الفعال فذلك قوله وهذا فعله ، كلامه كذب ، واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة ، والسعى ههنا هو القصد كما قال إخبارا عن فرعون (ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) أى اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة فان السعى الحسى إلى الصلاة منهى عنه بالسنة النبوية « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة والوقار» فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد فى الأرض وإهلاك الحرث وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما . وقال مجاهد إذا

سعى فى الأرض إفسادا منع الله القطر فهلك الحرث والنسل (والله لايحب الفساد) أى لايحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك

وقوله (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) أى إذا وعظ هذا الفاجر فى مقاله وفعاله وقيل له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم أى بسبب ما اشتمل عليه من الآثام وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) ولهذا قال فى هذه الآية (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) أى هى كافيته عقوبة فى ذلك .

وقوله (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدى وعكرمة وجماعة نزلت فى صهيب بن سنان الرومى وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل فتخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له ربح البيع فقال وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ربح البيع صهيب » قال ابن مردويه حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الله بن رسته حدثنا سليمان بن داود حدثنا جعفر بن سليمان الضبى حدثنا عوف عن أبى عثمان النهدى عن صهيب قال لما أردت الهجرة من مكة إلى النبى ﷺ قالت لى قريش ياصهيب قدمت الينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك والله لا يكون ذلك أبدا فقلت لهم أرأيتم إن دفعت اليكم مالى تخلون عنى؟ قالوا نعم ، فدفعت اليهم مالى فخلوا عنى فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال «ربح صهيب ربح صهيب» مرتين وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال أقبل صهيب مهاجرا نحو النبى ﷺ فاتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته وانتثل ما فى كنانته ثم قال يامعشر قريش قد علمتم أنى من أرماكم رجلا وأيم والله لاتصلون إلى حتى أرمى بكل سهم فى كنانتى ثم أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شىء ثم افعلوا ما شئتم وإن شئتم دللتكم على مالى وقنيتى بمكة وخليتم سبيلى قالوا نعم فلما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم قال « ربح البيع » قال ونزلت (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد) وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت فى كل مجاهد فى سبيل الله كما قال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى آمرا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الاسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدى وابن زيد فى قوله (ادخلوا فى السلم) يعنى الاسلام وقال الضحاك عن ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس (ادخلوا فى السلم) يعنى الطاعة . وقال قتادة أيضا الموادعة وقوله (كافة) قال ابن عباس ومجاهد

وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك جميعا ، وقال مجاهد أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

وزعم عكرمة أنها نزلت فى نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ فى أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلا فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها وفى ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر إذ يبعد أن يستأذن فى إقامة السبت وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفعه وبطلانه والتعويض عنه بأعياد الاسلام .

ومن المفسرين من يجعل قوله (كافة) حالا من الداخلين أى ادخلوا فى الاسلام كلكم والصحيح الأول وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الاسلام وهى كثيرة جدا ما استطاعوا منها كما قال ابن أبى حاتم أخبرنا على بن الحسين أخبرنا أحمد بن الصباح أخبرنى الهيثم بن يمان حدثنا إسماعيل بن زكريا حدثنى محمد بن عون عن عكرمة عن ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) كذا قرأها بالنصب يعنى مؤمنى أهل الكتاب فانهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم فقال الله (ادخلوا فى السلم كافة) يقول ادخلوا فى شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئا وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها . وقوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ف(إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)،و(إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ، ولهذا قال (إنه لكم عدو مبين) : قال مطرف : أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان ؟ وقوله (فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات) أى عدلتم عن الحق بعد ماقامت عليكم الحجج فاعلموا أن الله عزيز أى فى انتقامه لايفوته هارب ولا يغلبه غالب حكيم فى أحكامه ونقضه وإبرامه ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس . عزيز فى نقمته حكيم فى أمره وقال محمد بن إسحق : العزيز فى نصره ممن كفر به إذا شاء الحكيم فى عذره وحجته إلى عباده .

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

يقول تعالى مهددا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزى كل عامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ولهذا قال تعالى (وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) كما قال الله تعالى (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك صفا صفا * وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) وقال (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك) الآية . وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم وفيه ـ أن الناس إذا اهتموا لموقفهم فى العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدا واحدا من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا جاءوا اليه قال « أنا لها أنا لها » فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتى فى ظلل من الغمام بعد ماتنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة وينزل حملة العرش والكروبيون قال وينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذى السلطان والعظمة سبحانه سبحانه أبدا أبدا .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ههنا أحاديث فيها غرابة والله أعلم . فمنها ما رواه من حديث المنهال بن عمرو عن أبى عبيدة بن عبد الله بن ميسرة عن مسروق عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يجمع الله الأولين

والآخرين لميقات يوم معلوم قياما شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو بكر بن عطاء بن مقدم حدثنا معتمر بن سليمان سمعت عبد الجليل القيسى يحدث عن عبد الله بن عمرو (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) الآية . قال يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع له القلوب . قال : وحدثنا أبى حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى حدثنا الوليد قال . سألت زهير بن محمد عن قول الله (هـل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) قال. ظلل من الغمام منظوم من الياقوت مكلل بالجوهر والزبرجد وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى ظلل من الغمام قال . هو غير السحاب ولم يكن قط إلا لبنى إسرائيل فى تيههم حين تاهوا وقال : أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية . (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) يقول والملائكة يجيئون فى ظلل من الغمام والله تعالى يجئ فيما يشاء وهى فى بعض القرءات (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة فى ظلل من الغمام) وهى كقوله (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا)

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن بنى إسرائيل كم شاهدوا مع موسى من آية بينة أى حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به كيده وعصاه وفلقه البحر وضربه الحجر وماكان من تضليل الغمام عليهم فى شدة الحر ومن إنزال المن والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار وصدق من جرت هـذه الخوارق على يديه ومع هذا أعرض كثير منهم عنها وبدلوا نعمة الله كفراً أى استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والاعراض عنها (ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فان الله شديد العقاب) كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار) ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التى أمروا بها مما يرضى الله عنهم وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم وبذلوه ابتغاء وجه الله فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم فكانوا فوق أولئك فى محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم فاستقروا فى الدرجات فى أعلى عليين وخلد أولئك فى الدركات فى أسفل سافلين ؛ ولهذا قال تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) أى يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيراً جزيلا بلا حصر ولا تعداد فى الدنيا والآخرة كما جاء فى الحديث « ابن آدم أنفق أنفق عليك » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا » وقال تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) وفى الصحيح « أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما. اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر. اللهم أعط ممسكا تلفا » وفى الصحيح « يقول ابن آدم . مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت وما لبست فأبليت وما تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » وفى مسند الإمام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال « الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له »

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءامنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾

قال ابن جرير . حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين قال . وكذلك هى فى قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث بندار عن محمد بن بشار ثم قال . صحيح الإسناد ولم يخرجاه وكذا روى أبو جعفر الرازى عن أبى العالية عن أبى بن كعب أنه كان يقرؤها (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (كان الناس أمة واحدة) قال . كانوا على الهدى جميعاً (فاختلفوا فبعث الله النبيين) فكان أول من بعث نوحا . وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس أولا . وقال العوفى عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) يقول . كانوا كفارا (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) والقول الأول عن ابن عباس أصح سندا ومعنى لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

ولهذا قال تعالى (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم) أى من بعد ما قامت الحجج عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغى من بعضهم على بعض (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن سليمان الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة فى قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) الآية قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون الأولون يوم القيامه نحن أول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود وبعد غدا للنصارى » ثم رواه عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة . وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه فى قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) فاختلفوا فى يوم الجمعة فاتخذوا اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد فهدى الله أمة محمد (ﷺ) ليوم الجمعة واختلفوا فى القبلة فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس فهدى الله أمة محمد للقبلة واختلفوا فى الصلاة فمنهم من يركع ولا يسجد ومنهم من يسجد ولا يركع ومنهم من يصلى وهو يتكلم ومنهم من يصلى وهو يمشى فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك واختلفوا فى الصيام فمنهم من يصوم بعض النهار ومنهم من يصوم عن بعض الطعام فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا فى إبراهيم عليه السلام فقالت اليهود كان يهودياً وقالت النصارى كان نصرانيا وجعله الله حنيفا مسلما فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا فى عيسى عليه السلام فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتانا عظيما وجعلته النصارى إلها وولداً وجعله الله روحه وكلمته فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك وقال الربيع بن أنس فى قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) أى عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فأقاموا على الأمر الأول الذى كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف وكانو شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغوهم وأنهم قد كذبوا رسلهم وفى قراءة أبى بن كعب وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وكان أبو العالية يقول فى هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن

وقوله (بإذنه) أى بعلمه بهم وبما هداهم له قاله ابن جرير (والله يهدى من يشاء) أى من خلقه (إلى صراط مستقيم) أى وله الحكمة والحجة البالغة وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قام من الليل يصلى يقول . « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة

أنت تحكم بين عبادك فيما كانو فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » وفى الدعاء المأثور « اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل واجعلنا للمتقين إماما »

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

يقول تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم ولهذا قال (ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء) وهى الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب . قال ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير ومرة الهمدانى والحسن وقتادة والضحاك والربيع والسدى ومقاتل بن حيان (البأساء) الفقر (والضراء) السقم (وزلزلوا) خوفوا من الأعداء زلزالا شديداً وامتحنوا امتحانا عظيما كما جاء فى الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال : قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا فقال « إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع الميشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه » ثم قال « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون » وقال الله تعالى (الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضى الله تعالى عنهم فى يوم الأحزاب كما قال الله تعالى (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) الآيات . ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه قال : نعم . قال فكيف كانت الحرب بينكم ؟ قال سجالا يدال علينا وندال عليه قال : كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة . وقوله (مثل الذين خلوا من قبلكم) أى سنتهم كما قال تعالى (فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين) وقوله (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) أى يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة ، قال الله تعالى (ألا إن نصر الله قريب) كما قال (فان مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً) وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها ولهذا قال (ألا إن نصر الله قريب) وفى حديث أبى رزين « عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه فينظر إليهم قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب » الحديث

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

قال مقاتل بن حيان : هذه الآية فى نفقة التطوع . وقال السدى : نسختها الزكاة وفيه نظر ومعنى الآية . يسألونك كيف ينفقون ؟ قاله ابن عباس ومجاهد فبين لهم تعالى ذلك فقال (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى اصرفوها فى هذه الوجوه . كما جاء الحديث « أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك » وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال . هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلا ولا مزماراً ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان . ثم قال تعالى (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) أى مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

هـذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام وقال الزهرى : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين وإذا استغيث أن يغيث وإذا استنفر أن ينفر وان لم يحتج إليه قعد (قلت) ولهـذا ثبت فى الصحيح « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية » وقال عليه السلام يوم الفتح « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » وقوله (وهو كره لكم) أى شديد عليكم ومشقة وهو كذلك فإنه إما أن يقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء . ثم قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) أى لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم (وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) وهـذا عام فى الأمور كلها قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم . ثم قال تعالى (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى هو أعلم بعواقب الأمور منكم وأخبر بما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه حدثنى الحضرمى عن أبى السوار عن جندب بن عبد الله أن رسـول الله ﷺ بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسـول الله ﷺ فحبسه فبعث عليهم مكانه عبـد الله بن جحش وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال « لا تكرهن أحدا على السير معك من أصحابك » فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : سمعا وطاعة لله ولرسوله فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلان وبقى بقيتهم فلقوا ابن الحضرمى فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين : قتلتم فى الشهر الحرام فأنزل الله (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) الآية : وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) الآية . وذلك أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم عـبد الله بن جحش الأسدى وفيهم عمار ابن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان السلمى حليف لبنى نوفل وسهيل ابن بيضاء وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله اليربوعى حليف لعمر بن الخطاب وكتب لابن جحش كتابا وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن نخلة فلما نزل بطن نخلة فتح الكتاب فاذا فيه « أن سر حتى تنزل بطن نخلة » فقال لأصحابه من كان يريد الموت فليمض وليوص فانى موص وماض لأمر رسول الله ﷺ فسار فتخلف عنه سعد بن أبى وقاص وعتبة أضلا راحلة لهما فتخلفا يطلبانها وسار ابن جحش إلى بطن نخلة فاذا هو بالحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن

المغيرة وانفلت وقتل عمرو قتله واقد بن عبد الله فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب رسول الله ﷺ فلما رجعوا إلى المدينة بأسيرين وما أصابوا من المال أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين عليه المشركون(١) وقالوا إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا فى رجب فقال المسلمون إنما قتلناه فى جمادى وقتل فى أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب وأنزل الله يعير أهل مكة (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) لا يحل وما صنعتم أنتم يامعشر المشركين أكبر من القتل فى الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد ﷺ وأصحابه وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً ﷺ وأصحابه أكبر من القتل عند الله .

وقال العوفى عن ابن عباس (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) وذلك أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وردوه عن المسجد فى شهر حرام قال ففتح الله على نبيه فى شهر حرام من العام المقبل فعاب المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم القتال فى شهر حرام فقال الله (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله) من القتال فيه وأن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث سرية فلقوا عمرو بن الحضرمى وهو مقبل من الطائف فى آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب وأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى وكانت أول رجب ولم يشعروا فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك فقال الله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه) إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذى أصاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والشرك أشد منه وهكذا روى أبو سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت فى سرية عبد الله بن جحش وقتل عمرو ابن الحضرمى وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) إلى آخر الآية وقال عبد الملك بن هشام راوى السيرة عن زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن إسحق بن يسار المدنى رحمه الله فى كتاب السيرة له أنه قال وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش بن رباب الأسدى فى رجب مقفله من بدر الأولى وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى كما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحدا وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ثم من بنى عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ومن حلفائهم عبد الله بن جحش وهو أمير القوم وعكاشة بن محصن أحد بنى أسد بن خزيمة حليف لهم ومن بنى نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر حليف لهم ومن بنى زهرة ابن كلاب سعد بن أبى وقاص ومن بنى كعب عدى بن عامر بن ربيعة حليف لهم من غير ابن وائل وواقد بن عبد الله ابن عبد مناف بن عرس بن ثعلبة بن يربوع أحد بنى تميم حليف لهم وخالد بن البكير أحد بنى سعد بن ليث حليف لهم ومن بنى الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فإذا فيه . إذا نظرت فى كتابى فى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب قال . سمعا وطاعة ثم قال لأصحابه . قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له نجران أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه فتخلفا عليه فى طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة فمرت به عير لقريش تحمل زيتا وأدما وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمى واسم الحضرمى عبد الله بن عباد أحد الصدف وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا

(١) قوله أن يفادوا الأسيرين عليه المشركون كذا بالنسخ التى بأيدينا وفيه سقط بين الأسيرين وبين عليه الخ يعلم من سياق القصة فليحرر .

قريبا منهم فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه فلما رأوه آمنوا وقالوا : عمار لا بأس عليكم منهم وتشاور القوم فيهم وذلك فى آخر يوم من رجب فقال القوم والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام فتردد القوم وهابوا الاقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ مامعهم فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان وأفلت القوم نوفل بن عبدالله فأعجزهم وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة قال ابن إسحق : وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم فعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خمس العير وقسم سائرها بين أصحابه قال ابن إسحق : فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال . « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال ، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان وقالت اليهود تفاءلوا بذلك على رسول الله ﷺ عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبدالله . عمرو، عمرت الحرب، والحضرمى حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب، فجعل الله عليهم ذلك لا لهم فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسول الله ﷺ (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله (أكبر عند الله) من قتل من قتلتم منهم (والفتنة أكبر من القتل) أى قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه فذلك أكبر عند الله من القتل (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) أى ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين قال ابن إسحق : فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العير والأسيرين وبعثت اليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال رسول الله ﷺ « لا نفديكموها حتى يقدم صاحبانا » يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان فانا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله ﷺ منهم فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرا قال ابن إسحق . فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر فقالوا يارسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء قال ابن إسحق . والحديث فى هذا عن الزهرى ويزيد بن رومان عن عروة وقد روى يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق وروى موسى بن عقبة عن الزهرى نفسه نحو ذلك وروى شعيب بن أبى حمزة عن الزهرى عن عروة بن الزبير نحوا من هذا أيضا وفيه فكان ابن الحضرمى أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا . أيحل القتال فى الشهر الحرام ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الشهر الحرام) الآية وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب دلائل النبوة ثم قال ابن هشام عن زياد عن ابن إسحق وقد ذكر عن بعض آل عبدالله أن عبد الله قسم الفىء بين أهله فجعل أربعة أخماسه لمن أفاءه وخمسا إلى الله ورسوله فوقع على ما كان عبدالله ابن جحش صنع فى تلك العير قال ابن هشام . وهى أول غنيمة غنمها المسلمون وعمرو بن الحضرمى أول من قتل المسلمون وعثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون قال ابن إسحق : فقال أبو بكر الصديق

رضى الله عنه فى غزوة عبدالله بن جحش ويقال بل عبدالله بن جحش قالها حين قالت قريش قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه المال وأسروا فيه الرجال قال ابن هشام : هى لعبد الله بن جحش .

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة * وأعظم منه لو يرى الرشد راشد * صدودكم عما يقول محمد
وكفر به والله راء وشاهد * وإخراجكم من مسجد الله أهله * لئلا يرى لله فى البيت ساجد
فانا وإن عيرتمونا بقتله * وأرجف بالاسلام باغ وحاسد * سقينا من ابن الحضرمى رماحنا
بنخلة لما أوقد الحرب واقد * دما وابن عبدالله عثمان بيننا * ينازعه غل من القيد عائد

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن أبى ميسرة عن عمر أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت هذه الآية التى فى البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ (فهل أنتم منتهون ؟) قال عمر انتهينا انتهينا . وهكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرق عن إسرائيل عن أبى إسحق وكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق الثورى عن أبى إسحق عن أبى ميسرة واسمه عمرو ابن شرحبيل الهمدانى الكوفى عن عمر وليس له عنه سواه لكن قد قال أبو زرعة لم يسمع منه والله أعلم . وقال على ابن المدينى هذا إسناد صالح صحيح وصححه الترمذى وزاد ابن أبى حاتم بعد قوله انتهينا إنها تذهب المال وتذهب العقل ، وسيأتى هذا الحديث أيضا مع ما رواه أحمد من طريق أبى هريرة أيضا عند قوله فى سورة المائدة (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) الآيات فقوله (يسألونك عن الخمر والميسر) أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كل ما خامر العقل كما سيأتى بيانه فى سورة المائدة وكذا الميسر وهو القمار

وقوله (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) أما إثمهما فهو فى الدين وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن وتهضيم الطعام وإخراج الفضلات وتشحيذ بعض الأذهان ولذة الشدة المطربة التى فيها كما قال حسان بن ثابت فى جاهليته

ونشربها فتتركنا ملوكا * وأسدا لا ينهنها اللقاء

وكذا بيعها والانتفاع بثمنها وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله ولكن هذه المصالح لا توازى مضرته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين ولهذا قال الله تعالى (وإثمهما أكبر من نفعهما) ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات ولم تكن مصرحة بل معرضة ولهذا قال عمر رضى الله عنه لما قرئت عليه : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا حتى نزل التصريح بتحريمها فى سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وسيأتى الكلام على ذلك فى سورة المائدة

إن شاء الله تعالى وبه الثقة قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إن هذه أول آية نزلت في الخمر (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) ثم نزلت الآية التي في سورة النساء ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر .

وقوله (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قرئ بالنصب وبالرفع وكلاهما حسن متجه قريب قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا موسى ابن إسماعيل حدثنا أبان حدثنا يحيى أنه بلغه أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا يارسول الله إن لنا أرقاء وأهلين من أموالنا فأنزل الله (ويسألونك ماذا ينفقون) وقال الحكم عن مقسم عن ابن عباس (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قال مايفضل عن أهلك وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والقاسم وسالم وعطاء الخراساني والربيع بن أنس وغير واحد أنهم قالوا في قوله (قل العفو) يعني الفضل وعن طاوس اليسير من كل شيء وعن الربيع أيضا أفضل مالك وأطيبه والكل يرجع إلى الفضل . وقال عبد بن حميد في تفسيره . حدثنا هوذة بن خليفة عن عوف عن الحسن في الآية (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قال ذلك ألا يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس ويدل على ذلك مارواه ابن جرير حدثنا على بن مسلم حدثنا أبو عاصم عن ابن عجلان عن المقبرى عن أبي هريرة قال : قال رجل يارسول الله عندى دينار قال « أنفقه على نفسك » قال : عندى آخر قال « أنفقه على أهلك » قال عندى آخر قال « أنفقه على ولدك » قال : عندى آخر قال . « فأنت أبصر » وقد رواه مسلم في صحيحه وأخرجه مسلم أيضا عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل « ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك فان فضل شيء عن أهلك فلذى قرابتك فان فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا » وعنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » وفي الحديث أيضا « ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف » ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة كما رواه على بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس وقاله عطاء الخراساني والسدى وقيل مبينة بآية الزكاة قاله مجاهد وغيره وهو أوجه .

وقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة . قال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها . وقال بن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا على ابن محمد الطنافسي حدثنا أبو أسامة عن الصعق التميمي قال شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) قال هي والله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء ، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء وهكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة . لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا . وفي رواية عن قتادة فآثروا الآخرة على الأولى .

وقوله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم) الآية . قال ابن جرير . حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) و(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم) فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. وهكذا رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طرق عن عطاء بن السائب به . وكذا رواه على ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وكذا رواه السدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود بمثله وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد وعطاء والشعبي وابن أبي ليلى وقتادة وغير واحد من

السلف والخلف قال وكيع بن الجراح : حدثنا هشام صاحب الدستوائى عن حماد عن إبراهيم قال : قالت عائشة رضى الله عنها إنى لأكره أن يكون مال اليتيم عندى على حدة حتى أخلط طعامه بطعامى وشرابه بشرابى فقوله (قل إصلاح لهم خير) أى على حدة (وإن تخالطوهم فإخوانكم) أى وأن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم لأنهم إخوانكم فى الدين ولهذا قال (والله يعلم المفسد من المصلح) أى يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح وقوله (ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم) أى ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم وأباح لكم مخالطتهم بالتى هى أحسن قال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجانا كما سيأتى بيانه فى سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة

﴿ وَلَا تَنكِحُوا ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان ثم إن كان عمومها مراداً وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضحاك وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وغيرهم وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان ولم يرد أهل الكتاب بالكلية والمعنى قريب من الأول والله أعلم . فأما مارواه ابن جرير حدثنى عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى حدثنا أبى حدثنى عبد الحميد بن بهرام الفزارى حدثنا شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عباس يقول نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات وحرم كل ذات دين غير الإسلام . قال الله عز وجل (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) وقد نكح طلحة بن عبد الله يهودية ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً حتى هم أن يسطو عليهما فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب فقال : لئن حل طلاقهن لقد حل نكاحهن ولكنى أنتزعهن منكم صغرة قمأة — فهو حديث غريب جداً وهذا الأثر غريب عن عمر أيضاً ، قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس فى المسلمات أو لغير ذلك من المعانى كما حدثنا أبو كريب حدثنا ابن إدريس حدثنا الصلت بن بهرام عن شقيق قال تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر . خل سبيلها ، فكتب إليه أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها ؟ فقال . لا أزعم أنها حرام ولكنى أخاف أن تعاطوا المؤمنات منهن[1] وهذا إسناد صحيح وروى الخلال عن محمد بن إسماعيل عن وكيع عن الصلت نحوه. وقال ابن جرير حدثنى موسى بن عبد الرحمن المسروقى حدثنا محمد بن بشر حدثنا سفيان بن سعيد عن يزيد بن أبى زياد عن زيد بن وهب قال. قال عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصرانى المسلمة قال: وهذا أصح إسنادا من الأول ثم قال : وقد حدثنا تميم بن المنتصر أخبرنا إسحق الأزرقى عن شريك عن أشعث بن سوار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا » ثم قال وهذا الخبر وإن كان فى إسناده ما فيه فالقول به لا جماع الجميع من الأمة عليه كذا قال ابن جرير رحمه الله وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا وكيع عن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران عن

(١) كذا فى النسخ التى بأيدينا فحرر الرواية اهـ

ابن عمر أنه كره نكاح أهل الكتاب وتأول (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وقال البخارى : وقال ابن عمر لا أعلم شركا أعظم من أن تقول : ربها عيسى وقال أبو بكر الخلال الحنبلى حدثنا محمد بن هرون حدثنا إسحق ابن إبراهيم ح وأخبرنى محمد بن على حدثنا صالح بن أحمد أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن قول الله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) قال مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام . وقوله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) قال السدى : نزلت فى عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها فقال له « ماهى ؟ » قال تصوم وتصلى وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال « يا أبا عبد الله هذه مؤمنة » فقال والذى بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا نكح أمته وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة فى أحسابهم فأنزل الله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) وقال عبد بن حميد حدثنا جعفر بن عون حدثنا عبدالرحمن بن زياد الافريقى عن عبدالله بن يزيد عن عبدالله بن عمر عن النبى ﷺ قال « لا تنكحوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن وانكحوهن على الدين فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل » والإفريقى ضعيف وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « تنكح المرأة لأربع . لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » ولمسلم عن جابر مثله وله عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » وقوله (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) أى لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات كما قال تعالى (لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن) ثم قال تعالى (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) أى ولرجل مؤمن ولو كان عبدا حبشيا خير من مشرك ، وإن كان رئيسا سريا (أولئك يدعون إلى النار) أى معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة وعاقبة ذلك وخيمة (والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه) أى بشرعه وما أمر به وما نهى عنه (ويبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون)

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها فى البيوت(١) فسأل أصحاب النبى ﷺ فأنزل الله عز وجل (ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ « اصنعوا كل شىء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا . ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يا رسول الله إن اليهود قالت كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل فى آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما رواه مسلم من حديث حماد بن زيد بن سلمة فقوله (فاعتزلوا النساء فى المحيض) يعنى الفرج لقوله « اصنعوا كل شىء إلا النكاح » ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . قال أبو داود أيضاً . حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن أيوب عن عكرمة عن بعض أزواج النبى ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوبا وقال أبو داود أيضاً حدثنا الشعبى حدثنا عبد الله يعنى ابن عمر بن غانم عن عبد الرحمن يعنى بن زياد عن عمارة بن

(١) المراد بالمجامعة هنا الاجتماع بهن لا الوقاع وهو المعنى الحقيقى واستعماله بالمعنى الآخر كناية اه

غراب أن عمة له حدثته أنها سألت عائشة قالت : إحدانا تحيض وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد قالت أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ دخل فمضى إلى مسجده قال أبو داود : تعنى مسجد بيتها فما انصرف حتى غلبتنى عينى فأوجعه البرد فقال : « ادنى منى » فقلت إنى حائض فقال : « اكشفى عن فخذيك » فكشفت فخذى فوضع خده وصدره على فخذى وحنيت عليه حتى دفىء ونام صلى الله عليه وسلم وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا أيوب عن كتاب أبى قلابة أن مسروقا ركب إلى عائشة فقال : السلام على النبى وعلى أهله ، فقالت عائشة مرحبا مرحبا فأذنوا له فدخل : فقال إنى أريد أن أسألك عن شىء وأنا أستحى فقالت إنما أنا أمك وأنت ابنى فقال : ما للرجل من امرأته وهى حائض فقالت له : كل شىء إلا فرجها . ورواه أيضاً عن حميد بن مسعدة عن يزيد بن زريع عن عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن عن مروان الأصفر عن مسروق قال قلت لعائشة ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضا ؟ قالت : كل شىء إلا الجماع . وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة وروى ابن جرير أيضا عن أبى كريب عن ابن أبى زائدة عن حجاج عن ميمون بن مهران عن عائشة قالت له ما فوق الإزار (قلت) ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى فأغسل رأسه وأنا حائض وكان يتكىء فى حجرى وأنا حائض فيقرأ القرآن وفى الصحيح عنها قالت : كنت أتعرق العرق[1] وأنا حائض فأعطيه النبى ﷺ فيضع فمه فى الموضع الذى وضعت فمى فيه وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه فى الموضع الذى كنت أشرب منه وقال أبو داود حدثنا مسدد حدثنا يحى عن جابر بن صبح سمعت خلاسا الهجرى قال سمعت عائشة تقول كنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعار الواحد وأنا حائض طامث فان أصابه منى شىء غسل مكانه لم يعده[2] وإن أصابه — يعنى ثوبه — شىء غسل مكانه لم يعده وصلى فيه فأما ما رواه أبو داود حدثنا سعيد بن الجبار حدثنا عبد العزيز يعنى ابن محمد عن أبى اليمان عن أم ذرة عن عائشة أنها قالت كنت إذا حضت نزلت عن المثال[3] على الحصير فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم تدن منه حتى تطهر فهو محمول على التنزه والاحتياط — وقال آخرون إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الازار كما ثبت فى الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهى حائض وهذا لفظ البخارى ولهما عن عائشة نحوه وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث العلاء عن حزام بن حكيم عن عمه عبد الله بن سعد الأنصارى أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لى من امرأتى وهى حائض ؟ قال « ما فوق الازار » ولأبى داود أيضا عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يحل لى من امرأتى وهى حائض قال : « ما فوق الازار والتعفف عن ذلك أفضل » وهو رواية عن عائشة كما تقدم وابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح فهذه الأحاديث وماشابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل مافوق الازار منها وهو أحد القولين فى مذهب الشافعى رحمه الله الذى رجحه كثير من العراقيين وغيرهم ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطى ما حرم الله عز وجل الذى أجمع العلماء على تحريمه وهو المباشرة فى الفرج ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله ويتوب إليه وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا ؟ فيه قولان (أحدهما) نعم لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الذى يأتى امرأته وهى حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار وفى لفظ للترمذى « إذا كان دما أحمر فدينار وإن كان دما أصفر فنصف دينار » وللامام أحمد أيضاً عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فى الحائض تصاب دينارا فان أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل فنصف دينار (والقول الثانى) وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعى وقول الجمهور أنه لا شىء فى ذلك بل يستغفر الله عز وجل لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث فانه قد روى مرفوعا كما تقدم وموقوفا وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث فقوله تعالى (ولا تقربوهن حتى يطهرن) تفسير لقوله (فاعتزلوا النساء فى المحيض) ونهى عن قربانهن بالجماع مادام الحيض موجودا ومفهومه حله إذا انقطع قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل فيما أملاه فى الطاعة وقوله (ويسألونك عن المحيض قل

---

(١) عرق اللحم وتعرقه واعترقه تناوله بفمه من العظم (٢) لم يتجاوزه (٣) هو الفراش

هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث) الآية الطهر يدل على أن يقربها فلما قالت ميمونه وعائشة كانت إحدانا إذا حاضت اتزرت ودخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعاره دل ذلك على أنه إنما أراد الجماع

وقوله (فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله (فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) وليس له فى ذلك مستند لأن هذا أمر بعد الحظر وفيه أقوال لعلماء الأصول منهم من يقول إنه على الوجوب كالمطلق وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم ومنهم من يقول إنه للاباحه ويجعلون تقدم النهى عليه قرينة صارفة له عن الوجوب وفيه نظر والذى ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهى فان كان واجبا فواجب كقوله (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) أو مباحا فمباح كقوله (وإذا حللتم فاصطادوا) (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) وعلى هذا القول تجتمع الأدلة وقد حكاه الغزالى وغيره فاختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل والله أعلم . وقال ابن عباس (حتى يطهرن) أى من الدم (فإذا تطهرن) أى بالماء وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن ومقاتل بن حيان والليث بن سعد وغيرهم

وقوله (من حيث أمركم الله) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعنى الفرج قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فأتوهن من حيث أمركم الله) يقول فى الفرج ولا تعدوه إلى غيره فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة (من حيث أمركم الله) أى أن تعتزلوهن وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء فى الدبر كما سيأتى تقريره قريبا إن شاء الله تعالى وقال أبو رزين وعكرمة والضحاك وغير واحد (فأتوهن من حيث أمركم الله) يعنى طاهرات غير حيض ولهذا قال (إن الله يحب التوابين) أى من الذنب وإن تكرر غشيانه (ويحب المتطهرين) أى المتنزهين عن الأقذار والأذى وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو فى غير المأتى

وقوله (نساؤكم حرث لكم) قال ابن عباس : الحرث موضع الولد (فأتوا حرثكم أنى شئتم) أى كيف شئتم مقبلة ومدبرة فى صمام واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث قال البخارى : حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن ابن المنكدر قال سمعت جابرا قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) ورواه مسلم وأبو داود من حديث سفيان الثورى به وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثورى أن محمد بن المنكدر حدثهم أن جابر بن عبدالله أخبره أن اليهود قالوا للمسلمين من أتى امرأة وهى مدبرة جاء الولد أحول فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال ابن جريج فى الحديث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك فى الفرج » وفى حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده أنه قال يا رسول الله : نساؤنا ما نأتى منها وما نذر قال . «حرثك ائت حرثك أنى شئت غير أن لا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » الحديث رواه أحمد وأهل السنن ، حديث آخر قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن عامر ابن يحيى عن حنش عن عبد الله بن عباس قال . أتى ناس من حمير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن أشياء فقال له رجل إنى أحب النساء فكيف ترى فى فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) ورواه الإمام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثنى الحسن بن ثوبان عن عامر بن يحيى المعافرى عن حنش عن ابن عباس قال انزلت هذه الآية (نسائكم حرث لكم) فى اناس من الأنصار أتوا النبى ﷺ فسألوه فقال النبى ﷺ « ائتها على كل حال إذا كان فى الفرج » (حديث) آخر قال أبو جعفر الطحاوى فى كتابه مشكل الحديث

حدثنا أحمد بن داود بن موسى حدثنا يعقوب بن كاسب حدثنا عبدالله بن نافع عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد الخدرى أن رجلا أصاب امرأة في دبرها فأنكر الناس عليه ذلك فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم) الآية ورواه ابن جرير عن يونس عن يعقوب ورواه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن الحارث بن شريح عن عبد الله بن نافع به (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا عبيد الله بن عثمان بن خثيم عن عبد الله بن سابط قال : دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت إني لسائلك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك قالت : فلا تستحي يا ابن أخي قال عن إتيان النساء فى أدبارهن قالت : حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا يحبون النساء وكانت اليهود تقول : إنه من أحى امرأته كان ولده أحول فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فأحبوهن فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت : لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فد خلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت : اجلسى حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم استحت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ فخرجت فسألته أم سلمة فقال ادعى « الأنصارية » فدعتها فتلا عليها هذه الآية (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) « صماما واحداً » ورواه الترمذى عن بندار عن ابن مهدى عن سفيان عن أبي خثيم به وقال حسن (قلت) وقد روى من طريق حماد بن أبي حنيفة عن أبيه عن ابن خثيم عن يوسف ابن ماهك عن حفصة أم المؤمنين أن امرأة أتتها فقالت . إن زوجي يأتيني مجبية ومستقبلة فكرهته ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه سلم فقال . « لا بأس إذا كان فى صمام واحد » (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا حسن حدثنا يعقوب يعنى القمى عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال . جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول هلكت قال ما الذى أهلكك ؟ قال حولت رحلى البارحة قال فلم يرد عليه شيئا قال فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) « أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة » ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن حسن بن موسى الأشيب به وقال حسن غريب وقال الحافظ أبو يعلى . حدثنا الحارث بن شريح حدثنا عبدالله بن نافع حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال . أثفر رجل امرأته على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا . أثفر فلان امرأته فأنزل الله عز وجل (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال أبو داود . حدثنا عبد العزيز بن يحيى أبو الأصبغ قال حدثني محمد يعني ابن سلمة عن محمد بن إسحق عن أبان بن صالح عن مجاهد عن ابن عباس قال . إن ابن عمر قال ــ والله يغفر له ــ أوهم وإنما كان هذا الحى من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحى من يهود وهم أهل كتاب وكانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم فكانوا يقتدون كثيراً[1] من فعلهم وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف وذلك أستر ما تكون المرأة فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحا منكرا ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت إنما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبنى فسرى أمرهما فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) أى مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعنى بذلك موضع الولد تفرد به أبو داود ويشهد له بالصحة ما تقدم له من الأحاديث ولاسيا رواية أم سلمة فانها مشابهة لهذا السياق وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو القاسم الطبرانى من طريق محمد بن إسحق عن أبان بن صالح عن مجاهد قال . عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها حتى انتهيت إلى هذه الآية (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقال ابن عباس . إن هذا الحى من قريش كانوا يشرحون النساء بمكة ويتلذذون بهن فذكر القصة بتمام سياقها وقول ابن عباس إن ابن عمر ــ والله يغفر له ــ أوهم كأنه يشير إلى ما رواه البخارى حدثنا إسحق حدثنا النضر بن شميل أخبرنا ابن عون عن نافع قال كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه فأخذت عنه[2] يوما فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكان قال . أتدرى فيم أنزلت ؟ قلت لا قال : أنزلت فى كذا وكذا ثم مضى

(١) وفى نسخة الأزهر بكثير (٢) فى نسخة الأزهر عليه.

وعن عبد الصمد قال: حدثني أبي حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال: أن يأتيها في[1] ؟ هكذا رواه البخاري وقد تفرد به من هذا الوجه وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا ابن عون عن نافع قال قرأت ذات يوم (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقال ابن عمر أتدري فيم نزلت ؟ قلت لا قال نزلت في إتيان النساء في أدبارهن . وحدثني أبو قلابة حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثني أبي عن أيوب عن نافع عن ابن عمر (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال : في الدبر . وروى من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر ولا يصح وروى النسائي عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن أبي بكر بن أبي أويس عن سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم عن ابن عمر أن رجلا أتى امرأته في دبرها فوجد في نفسه من ذلك وجداً شديداً فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال أبو حاتم الرازي . لو كان هذا عند زيد بن أسلم عن ابن عمر لما أولع الناس بنافع وهذا تعليل منه لهذا الحديث وقد رواه عبد الله ابن نافع عن داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر فذكره وهذا الحديث محمول على ما تقدم وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها لما رواه النسائي عن علي بن عثمان النفيلي عن سعيد بن عيسى عن الفضل بن فضالة عبد الله بن سليمان الطويل عن كعب بن علقمة عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر انه قد أكثر عليك القول انك تقول عن ابن عمر إنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن قال . كذبوا عليّ ولكن سأحدثك كيف كان الأمر . إن ابن عمر عرض المصحف يوما وأنا عنده حتى بلغ (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقال يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية ؟ قلت . لا قال . إنا كنا معشر قريش نجبي النساء فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كنا نريد فآذاهن فكرهن ذلك وأعظمنه وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتين على جنوبهن فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) وهذا إسناد صحيح وقد رواه ابن مردويه عن الطبراني عن الحسين بن إسحق عن زكريا بن يحيى الكاتب العمري عن مفضل بن فضالة عن عبد الله بن عياش عن كعب بن علقمة فذكره وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحا وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه فقال الحسن بن عرفة حدثنا إسماعيل بن عياش عن سهيل بن أبي صالح عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « استحيوا إن الله لا يستحي من الحق لا يحل أن تأتوا النساء في حشوشهن » وقال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن عبد بن شداد عن خزيمة بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها (طريق أخرى) قال أحمد . حدثنا يعقوب سمعت أبي يحدث عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد أن عبيد الله بن الحصين الوالبي حدثه أن عبد الله الواقفي حدثه أن خزيمة بن ثابت الخطمي حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « استحيوا إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن » ورواه النسائي وابن ماجه من طرق عن خزيمة بن ثابت وفي إسناده اختلاف كثير (حديث آخر) قال أبو عيسى الترمذي والنسائي حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة في الدبر » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه وصححه ابن حزم أيضا ولكن رواه النسائي أيضا عن هناد عن وكيع عن الضحاك به موقوفا . وقال عبد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه أن رجلا سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها قال . تسألني عن الكفر إسناده صحيح وكذا رواه النسائي من طريق ابن المبارك عن معمر به نحوه وقال عبد أيضا في تفسيره حدثنا إبراهيم بن الحاكم عن أبيه عن عكرمة قال . جاء رجل إلى ابن عباس وقال . كنت آتي أهلي في دبرها وسمعت قول الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فظننت أن ذلك لي حلال فقال. يا لكع إنما قوله (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقبالهن لا تعدوا ذلك إلى غيره (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد

(1) لم يذكر المجرور تنزها وهو جائز للعلم به وفي نسخة الأزهر نقطة في دائرة وهي تصلح إشارة إلى الكلمة الساقطة

حدثنا همام حدثناقتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الذى يأتى امرأته فى دبرها هى اللوطية الصغرى » وقال عبدالله بن أحمد : حدثنى هدبة حدثنا همام قال : سئل قتادة عن الذى يأتى امرأته فى دبرها فقال قتادة أخبرنا عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هى اللوطية الصغرى » قال قتادة وحدثنى عقبة بن وساج عن أبى الدرداء قال . وهل يفعل ذلك إلا كافر ؟ وقد روى هذا الحديث يحى بن سعيد القطان عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله[1] وهذا أصح والله أعلم وكذلك رواه عبد بن حميد عن يزيد بن هرون عن حميد الأعرج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبدالله بن عمرو موقوفا من قوله (طريق أخرى) قال جعفر الفريابى حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم عن أبى عبدالرحمن الحبلى عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « سبعة لاينظر الله اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ويقول ادخلوا النار مع الداخلين : الفاعل والمفعول به والناكح يده وناكح البهيمة وناكح المرأة فى دبرها وجامع بين المرأة وابنتها والزانى بحليلة جاره ومؤذى جاره حتى يلعنه » ابن لهيعة وشيخه ضعيفان (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن عاصم عن عيسى بن حطان عن مسلم بن سلام عن على بن طلق قال نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء فى أدبارهن فان الله لايستحى من الحق ، وأخرجه أحمد أيضا عن أبى معاوية وأبى عيسى الترمذى من طريق أبى معاوية أيضا عن عاصم الأحول به وفيه زيادة وقال : هو حديث حسن ومن الناس من يورد هذا الحديث فى مسند على بن أبى طالب كما وقع فى مسند الإمام أحمد بن حنبل والصحيح أنه على بن طلق (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن سهيل بن أبى صالح عن الحارث بن مخلد عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال « إن الذى يأتى امرأته فى دبرها لاينظر الله اليه » وقال أحمد أيضا : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن الحارث بن مخلد عن أبى هريرة يرفعه قال « لاينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها » وكذا رواه ابن ماجه من طريق سهيل ، وقال أحمد أيضا . حدثنا وكيع عن سهيل بن أبى صالح عن الحارث بن مخلد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « ملعون من أتى امرأته فى دبرها » وهكذا رواه أبو داود والنسائى من طريق وكيع به « طريق أخرى » قال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى، أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان ، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائى حدثنا هناد ومحمد ابن إسماعيل واللفظ له قالا : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ملعون من أتى امرأة فى دبرها » ليس هذا الحديث هكذا فى سنن النسائى وإنما الذى فيه عن سهيل عن الحارث بن مخلد كما تقدم : قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى . ورواية أحمد بن القاسم بن الزيان هذا الحديث بهذا السند وهم منه وقد ضعفوه (طريق أخرى) رواها مسلم بن خالد الزنجى عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ملعون من أتى النساء فى أدبارهن » ومسلم بن خالد فيه كلام والله أعلم (طريق أخرى) رواها الإمام أحمد وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم عن أبى تميمة الهجيمى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها أو كاهنا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد » وقال الترمذى ضعف البخارى هذا الحديث والذى قاله البخارى فى حكيم الترمذى عن أبى تميمة لايتابع على حديثه (طريق أخرى) قال النسائى ، حدثنا عثمان بن عبدالله حدثنا سليمان بن عبدالرحمن من كتابه عن عبدالملك بن محمد الصنعانى عن سعيد بن عبدالعزيز عن الزهرى عن أبى سلمة رضى الله عنه عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال « استحيوا من الله حق الحياء لا تأتوا النساء فى أدبارهن » تفرد به النسائى من هذا الوجه . قال حمزة بن محمد الكنانى الحافظ هذا حديث منكر باطل من حديث الزهرى ومن حديث أبى سلمة ومن حديث سعيد فان كان عبد الملك سمعه من سعيد فانما سمعه بعد الاختلاط وقد رواه الترمذى عن أبى سلمة أنه كان ينهى عن ذلك فأما عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا انتهى كلامه وقد أجاد وأحسن الانتقاد إلا أن عبد الملك بن محمد الصنعانى لايعرف أنه اختلط ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة عن الكنانى وهو ثقة

(١) لعلها من قوله كالرواية التى بعدها وقوله : وهذا أصح يعنى أن الموقوف عليه أصح سندا من المرفوع .

ولكن تكلم فيه دحيم وأبو حاتم وابن حبان وقال : لايجوز الاحتجاج به والله أعلم . وقد تابعه زيد بن يحي بن عبيد عن سعيد بن عبد العزيز . وروى من طريقين آخرين عن أبي سلمة ولا يصح منها شيء (طريق أخرى) قال النسائي: حدثنا إسحق بن منصور حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان الثورى عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن أبي هريرة قال : إتيان الرجال النساء في أدبارهن كفر ثم رواه عن بندار عن عبد الرحمن به قال : من أتى امرأة في دبرها وتلك كفر، هكذا رواه النسائي من طريق الثورى عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة موقوفا وكذا رواه من طريق على بن ندبة عن مجاهد عن أبي هريرة موقوفا ورواه بكر بن خنيس عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر » والموقوف أصح وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة وتركه آخرون (حديث آخر) قال محمد بن أبان البلخي حدثنا وكيع حدثني زمعة بن صالح عن ابن طاوس عن أبيه وعن عمرو بن دينار عن عبد الله بن يزيد بن الهاد قالا : قال عمر بن الخطاب . قال رسول الله ﷺ « إن الله لايستحى من الحق لاتأتوا النساء في أدبارهن » وقد رواه النسائي حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني عن عثمان بن اليمان عن زمعة بن صالح عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن الهاد عن عمر قال : لاتأتوا النساء في أدبارهن . وحدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا يزيد بن أبي حكيم عن زمعة بن صالح عن عمرو بن دينار عن طاوس عن عبد الله بن الهاد الليثي قال : قال عمر رضى الله عنه . استحيوا من الله فان الله لا يستحى من الحق لاتأتوا النساء في أدبارهن والموقوف أصح (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا غندر ومعاذ بن معاذ قالا . حدثنا شعبة عن عاصم الأحول عن عيسى بن حطان عن مسلم بن سلام عن طلق بن يزيد أو يزيد بن طلق عن النبي ﷺ قال « إن الله لايستحى من الحق لاتأتوا النساء في أستاههن » وكذا رواه غير واحد عن شعبة ورواه عبد الرزاق عن معمر عن عاصم الأحول عن عيسى ابن حطان عن مسلم بن سلام عن طلق بن على والأشبه أنه على بن طلق كما تقدم والله أعلم (حديث آخر) قال أبو بكر الأثرم في سننه . حدثنا أبو مسلم الجرمى حدثنا أخو أنيس بن إبراهيم أن أباه إبراهيم بن عبد الرحمن بن القعقاع أخبره عن أبيه أبي القعقاع عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « محاش النساء حرام » وقد رواه إسماعيل بن علية وسفيان الثورى وشعبة وغيرهم عن أبي عبد الله الشقرى واسمه سلمة بن تمام ثقة عن أبي القعقاع عن ابن مسعود موقوفا وهو أصح (طريق أخرى) قال ابن عدى حدثنا أبو عبد الله المحاملي حدثنا سعيد بن يحي الثورى حدثنا محمد بن حمزة عن زيد بن رفيع عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « لاتأتوا النساء في أعجازهن » محمد بن حمزة هو الجزرى وشيخه فيهما مقال . وقد روى من حديث أبي بن كعب والبراء بن عازب وعقبة بن عامر وأبي ذر وغيرهم وفي كل منها مقال لا يصح معه الحديث والله أعلم وقال الثورى عن الصلت بن بهرام عن أبي المعتمر عن أبي جويرة قال : سأل رجل عليا عن إتيان المرأة في دبرها فقال . سفلت سفل الله بك ألم تسمع قول الله عز وجل (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) ، وقد تقدم قول ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس وعبد الله ابن عمرو في تحريم ذلك وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه يحرمه . قال أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله الدارمي في مسنده حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال . قلت لابن عمر ماتقول في الجوارى أيحمض لهن ؟ قال وما التحميض ؟ فذكر الدبر فقال وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين ؟ وكذا رواه ابن وهب وقتيبة عن الليث به وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك فكل ماورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم ، قال ابن جرير . حدثني عبد الرحمن ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أبو زيد أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي العمر حدثني عبد الرحمن ابن القاسم عن مالك ابن أنس أنه قيل له يا أبا عبد الله إن الناس يروون عن سالم بن عبد الله أنه قال : كذب العبد أو العلج على أبي عبد الله ، قال مالك . أشهد على يزيد بن رومان أنه أخبرني عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر مثل ما قال نافع . فقيل له فان الحارث بن يعقوب يروى عن أبي الحباب سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر فقال له يا أبا

عبد الرحمن إنا نشترى الجوارى أفنحمض لهن فقال وما التحميض ؟ فذكر له الدبر فقال ابن عمر : أف أف وهل يفعل ذلك مؤمن أو قال مسلم ؟ فقال مالك أشهد على ربيعة لأخبرنى عن أبى الحباب عن ابن عمر مثل ما قال نافع . وروى النسائى عن الربيع بن سليمان عن أصبغ بن الفرج الفقيه حدثنا عبد الرحمن بن القاسم قال : قلت لمالك إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال قلت لابن عمر إنا نشترى الجوارى أفنحمض لهن ؟ قال : وما التحميض ؟ قلت نأتيهن فى أدبارهن فقال . أف أف أو يعمل هـذا مسلم ؟ فقال لى مالك فأشهد على ربيعة لحدثنى عن سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر فقال لا بأس به وروى النسائى أيضاً من طريق يزيد بن رومان عن عبيد الله ابن عبد الله أن ابن عمر كان لا يرى بأسا أن يأتى الرجل المرأة فى دبرها. وروى معمر بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام. وقال أبو بكر بن زياد النيسابورى حدثنى إسماعيل بن حسين حدثنى إسرائيل بن روح سألت مالك بن أنس ما تقول فى إتيان النساء فى أدبارهن قال. ما أنتم إلا قوم عرب هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ، لا تعدوا الفرج ، قلت يا أبا عبد الله إنهم يقولون إنك تقول ذلك . قال يكذبون على يكذبون على فهذا هو الثابت عنه وهو قول أبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة وهو قول سعيد بن المسيب وأبى سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف أنهم أنكروا ذلك أشد الانكار ومنهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء ، وقد حكى فى هذا شىء عن بعض فقهاء المدينة حتى حكوه عن الإمام مالك وفى صحته نظر قال الطحاوى روى أصبغ بن الفرج عن عبـد الرحمن بن القاسم قال ما أدركت أحدا أقتدى به فى دينى يشك أنه حلال يعنى وطء المرأة فى دبرها ثم قرأ (نساؤكم حرث لكم) ثم قال فأى شىء أبين من هذا ؟ هذه حكاية الطحاوى وقد روى الحاكم والدار قطنى والخطيب البغدادى عن الإمام مالك من طرق ما يقتضى إباحة ذلك ولكن فى الاسانيد ضعف شديد وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى فى جزء جمعه فى ذلك والله أعلم وقال الطحاوى : حكى لنا محمد ابن عبـد الله بن عبـد الحكم أنه سمع الشافعى يقول ما صح عن النبى ﷺ فى تحليله ولا تحريمه شىء والقياس أنه حلال وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب عن أبى سعيد الصيرفى عن أبى العباس الأصم سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم سمعت الشافعى يقول فذكره قال أبو نصر الصباغ . كان الربيع يحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد كذب — يعنى ابن عبد الحكم — على الشافعى فى ذلك لأن الشافعى نص على تحريمه فى ستة كتب من كتبه والله أعلم

وقوله (وقدموا لأنفسكم) أى من فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ولهذا قال (واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه) أى فيحاسبكم على أعمالكم جميعها (وبشر المؤمنين) أى المطيعين لله فيما أمرهم التاركين ما عنه زجرهم وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى محمد بن كثير عن عبد الله بن واقد عن عطاء قال . أراه عن ابن عباس (وقدموا لأنفسكم) قال . تقول باسم الله التسمية عند الجماع وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبداً »

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها كقوله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير كما قال البخارى . حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا عبـد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال . هـذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبى ﷺ قال «نحن

الآخرون السابقون يوم القيامة » وقال رسول الله ﷺ « والله لأن يلج أحدكم بيمينه فى أهله آثم له عند الله من أن يعطى كفارته التى اقترض الله عليه» وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبدالرزاق بهورواه أحمدعنه به ثم قال البخارى . حدثنا إسحق بن منصور حدثنا يحيى بن صالح حدثنا معاوية هو ابن سلام عن يحيى وهو ابن أبى كثير عن عكرمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من استلج فى أهله بيمين فهو أعظم إثما ليس تغنى(١) الكفارة » وقال على بن طلحة عن ابن عباس فى قوله(ولا تجعلوا اللهعرضة لأيمانكم) قال لاتجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير . ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير وكذا قال مسروق والشعبى وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهرى والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخراسانى والسدى رحمهم الله ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت فى الصحيحين عن أبىموسى الأشعرىرضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى اللهعليهوسلم « إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هوخير وتحللتها» وثبتفيهما أيضاً أن رسولالله صلىالله عليه وسلم قاللعبد الرحمن بن سمرة « يا عبدالرحمن ابن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك » وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير » . وقال الإمام أحمد . حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا خليفة بن خياط حدثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فتركها كفارتها » ورواه أبو داود من طريق أبى عبيد اللهبنالأخنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ولا فى معصية الله ولا فى قطيعة رحم ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها وليأت الذى هو خير فإن تركها كفارتها» ثم قال أبو داود والأحاديث عن النبى ﷺ كلها « فليكفر عن يمينه » وهى الصحاح

وقال ابن جرير : حدثنا على بن سعيد الكندى حدثنا على بن مسهر عن حارثة بن محمد عن عمرةعنعائشة قالت: قال رسول الله ﷺ « من حلف على يمين قطيعة رحم ومعصية فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه » وهذا حديث ضعيف لأن حارثة هذا هو ابن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن متروك الحديث ضعيف عند الجميع ثم روى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبى أنهم قالوا لا يمين فى معصية ولا كفارة عليها

وقوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) أى لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية وهى التى لا يقصدها الحالف بل تجرى على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد كما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن رسول صلى الله عليه وسلم قال « من حلف فقال فى حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » فهذا قاله لقوم حديثى عهد بجاهلية قد أسلموا وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذهبهذه ولهذا قال تعالى (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) الآية وفى الآية الأخرى (بماعقدتم الأيمان) قال أبو داود . ﴿ باب لغو اليمين ﴾ حدثنا حميد بن مسعدة الشامى حدثنا حيان يعنى ابن إبراهيم حدثنا إبراهيم يعنى الصائغ عن عطاء . اللغو فى اليمين قال قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال : « اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته كلا والله وبلى والله » ثم قال أبو داود رواه داودبنالفرات عن إبراهيم الصائغ عن عطاء عن عائشة موقوفا ورواه الزهرى وعبد الملك ومالك بن مغول كلهم عن عطاء عن عائشة موقوفاً أيضاً (قلت) وكذا رواه ابن جريج وابن أبى ليلى عن عطاء عن عائشة موقوفا ورواه ابنجرير عن هناد عن وكيع وعبدة وأبى معاويةعن هشامبنعروة عن أبيه عن عائشة فى قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) لا والله وبلى والله ثم رواه عن محمد بن حميد عن سلمة

(١) وفى رواية ليبر موضع ليس وهو أمر من البر وبعده يعنى الكفارة وهو تفسير للبر المأمور به لحقائه .

عن ابن إسحق عن هشام عن أبيه عنها وبه عن ابن إسحق عن الزهرى عن القاسم عنها وبه عن ابن إسحق عن ابن أبى نجيح عن عطاء عنها وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة فى قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) قالت هم القوم يتدارءون فى الأمر فيقول هذا لا والله وبلى والله وكلا والله يتدارءون فى الأمر لا تعقد عليه قلوبهم وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا هرون بن إسحق الهمدانى حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى قول الله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) قالت : هو قول الرجل لا والله وبلى والله . وحدثنا أبى حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثنى ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة قال كانت عائشة تقول إنما اللغو فى المزاحة والهزل وهو قول الرجل لا والله وبلى والله فذاك لا كفارة فيه إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله ثم قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر وابن عباس فى أحد قوليه والشعبى وعكرمة فى أحد قوليه وعروة بن الزبير وأبى صالح والضحاك فى أحد قوليه وأبى قلابة والزهرى نحو ذلك (الوجه الثانى) قرئ على يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى الثقة عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية يعنى قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) وتقول هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه ثم قال وروى عن أبى هريرة وابن عباس فى أحد قوليه وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد فى أحد قوليه وإبراهيم النخعى فى أحد قوليه والحسن وزرارة بن أوفى وأبى مالك وعطاء الخراسانى وبكر بن عبد الله وأحد قولى عكرمة وحبيب بن أبى ثابت والسدى ومكحول ومقاتل وطاوس وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن سعيد وربيعة نحو ذلك وقال ابن جرير حدثنا محمد بن موسى الجرشى حدثنا عبد الله بن ميمون المرادى حدثنا عوف الأعرابى عن الحسن ابن أبى الحسن قال مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون يعنى يرمون ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أصحابه فقام رجل من القوم فقال أصبت والله وأخطأت والله فقال الذى مع النبى ﷺ للنبى ﷺ حنث الرجل يارسول الله قال « كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة » هذا مرسل حسن عن الحسن وقال ابن أبى حاتم وروى عن عائشة القولان جميعا حدثنا عصام بن رواد أنبأنا آدم حدثنا شيبان عن جابر عن عطاء ابن أبى رباح عن عائشة قالت : هو قوله لا والله وبلى والله وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك (أقوال أخر) قال عبد الرزاق عن هشيم عن مغيرة عن إبراهيم هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه وقال زيد بن أسلم هو قول الرجل أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا أخرجنى الله من مالى إن لم آتك غدا فهو هذا قال ابن أبى حاتم وحدثنا على بن الحسين حدثنا مسدد بن خالد حدثنا خالد حدثنا عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان وأخبرنى أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد بن بشير حدثنى أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة وكذا روى عن سعيد بن جبير . وقال أبو داود ﴿باب اليمين فى الغضب﴾ حدثنا محمد بن المنهال أنبأنا يزيد بن زريع حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألنى عن القسمة فكل مالى فى رتاج الكعبة فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يمين عليك ولا نذر فى معصية الرب عز وجل ولا فى قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك » وقوله (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب قال مجاهد وغيره . وهى كقوله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) الآية (والله غفور حليم) أى غفور لعباده حليم عليهم .

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

الإيلاء الحلف فإذا حلف الرجل أن لايجامع زوجته مدة فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثرمنها فان كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهرا فنزل لتسع وعشرين وقال « الشهر تسع وعشرون » ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر إما أن يفيء أي يجامع وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا وهذا لئلا يضر بها ولهذا قال تعالى (للذين يؤلون من نسائهم) أي يحلفون على ترك الجماع من نسائهم فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور (تربص أربعة أشهر) أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق ولهذا قال (فإن فاؤا) أي رجعوا إلى ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع قاله ابن عباس ومسروق والشعبي وسعيد بن جبير وغير واحد ومنهم ابن جرير رحمه الله (فإن الله غفور رحيم) لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين وقوله (فان فاؤا فان الله غفور رحيم) فيه دلالة لأحد قولي العلماء وهو القديم عن الشافعي أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه ويعتضد بما تقدم في الحديث عند الآية التي قبلها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فتركها كفارتها » كما رواه أحمد وأبوداود والترمذي والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف كما تقدم أيضا في الأحاديث الصحاح والله أعلم .

وقوله (وإن عزموا الطلاق) فيه دلالة على أن الطلاق لايقع بمجرد مضي الأربعة أشهر كقول الجمهور من المتأخرين وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة وهو مروي بأسانيد صحيحة عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه يقول ابن سيرين ومسروق والقاسم وسالم والحسن وأبو سلمة وقتادة وشريح القاضي وقبيصة بن ذؤيب وعطاء وأبو سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن طرخان التيمي وإبراهيم النخعي والربيع بن أنس والسدي ثم قيل انها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية قاله سعيد بن المسيب وأبوبكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومكحول وربيعة والزهري ومروان بن الحكم وقيل انها تطلق طلقة بائنة روي عن علي وابن مسعود وعثمان وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه يقول عطاء وجابر بن زيد ومسروق وعكرمة والحسن وابن سيرين ومحمد بن الحنفية وإبراهيم وقبيصة بن ذؤيب وأبو حنيفة والثوري والحسن بن صالح فكل من قال إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة إلا ماروي عن ابن عباس وأبي الشعثاء إنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلاعدة عليها وهو قول الشافعي والذي عليه الجمهور من المتأخرين ان يوقف فيطالب إما بهذا وإما بهذا ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق وروى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال . إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف فإما ان يطلق وإما أن يفيء وأخرجه البخاري وقال الشافعي رحمه الله أخبرنا سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار قال أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يوقف المولي . قال الشافعي وأقل ذلك ثلاثة عشر ورواه الشافعي عن علي رضي الله عنه أنه يوقف المولي ثم قال وهكذا نقول وهو موافق لما رويناه عن عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . هكذا قال الشافعي رحمه الله قال ابن جرير حدثنا ابن أبي مريم حدثنا يحيى ابن أيوب عن عبيد الله بن عمر عن سهيل ابن أبي صالح عن أبيه قال سألت اثني عشر رجلا من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته فكلهم يقول ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر فيوقف فان فاء وإلا طلق ورواه الدارقطني من طريق سهيل (قلت) وهو يروى عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عباس وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وطاوس ومحمد بن كعب والقاسم وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم رحمهم الله وهو اختيار ابن جرير أيضا وهو قول الليث وإسحق بن راهويه وأبي عبيد وأبي ثور وداود وكل هؤلاء قالوا إن لم يفيء

ألزم بالطلاق فان لم يطلق طلق عليه الحاكم والطلقة تكون رجعية له رجعتها فى العدة وانفرد مالك بأن قال : لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها فى العدة وهذا غريب جداً

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم فى مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر الأثر الذى رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله فى الموطأ عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقنى أن لاخليل ألاعبه

فوالله لولا الله أنى أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضى الله عنها كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت . ستة أشهر أو أربعة أشهر فقال عمر لا أحبس أحدا من الجيوش أكثر من ذلك وقال محمد بن إسحق عن السائب بن جبير مولى ابن عباس وكان قد أدرك أصحاب النبى ﷺ قال : مازلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة وكان يفعل ذلك كثيراً إذ مر بامرأة من نساء العرب مغلقة بابها تقول .

تطاول هذا الليل وازور جانبه * وأرقنى أن لا ضجيع ألاعبه * ألاعبه طورا وطورا كأنما
بدا قمراً فى ظلمة الليل حاجبه * يسر به من كان يلهو بقربه * لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه
فوالله لولا الله لا شىء غيره * لنقض من هذا السرير جوانبه * ولكننى أخشى رقيبا موكلا
بأنفاسنا لا يفتر الدهر كاتبه * مخافة ربى والحياء يصدنى * وإكرام بعلى أن تنال مراكبه[1]

ثم ذكر بقية ذلك كما تقدم أو نحوه وقد روى هذا من طرق وهو من المشهورات

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء أى بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت فانها تعتد عندهم بقرأين لأنها على النصف من الحرة والقرء لا يتبعض فكمل لها قرآن ولما رواه ابن جرير عن مظاهر بن أسلم المخزومى المدنى عن القاسم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ولكن مظاهر هذا ضعيف بالكلية وقال الحافظ الدارقطنى وغيره الصحيح أنه من قول القاسم بن محمد نفسه ورواه ابن ماجه من طريق عطية العوفى عن ابن عمر مرفوعا قال الدار قطنى والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر قوله[2] وهكذا روى عن عمر بن الخطاب قالوا . ولم يعرف بين الصحابة خلاف وقال بعض السلف . بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية ولأن هذا أمر جبلى فكان الحرائر والإماء فى هذا سواء حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبدالبر عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل يعنى ابن عياش عن عمرو بن مهاجر عن أبيه أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت : طلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلقة عدة فأنزل الله عز وجل حين طلقت أسماء العدة للطلاق فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق يعنى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وقد اختلف السلف والخلف والأئمة فى المراد بالأقراء ما هو على قولين . (أحدهما) أن المراد بها الأطهار وقال مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أنها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر حين دخلت فى الدم من الحيضة الثالثة فذكرت ذلك لعمرة

(١) وفى نسخة مراتبه (٢) أى من قوله لا مرفوعا .

بنت عبد الرحمن فقالت صدق عروة وقد جادلها فى ذلك ناس فقالوا إن الله تعالى يقول فى كتابه (ثلاثة قروء) فقالت عائشة صدقتم وتدرون ما الأقراء ؟ إنما الأقراء الأطهار وقال مالك عن ابن شهاب سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول ما أدركت أحداً من فقهائنا إلا وهو يقول ذلك يريد قول عائشة وقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه كان يقول إذا طلق الرجل امرأته فدخلت فى الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها وقال مالك وهو الأمر عندنا وروى مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار وأبى بكر بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان وعطاء بن أبى رباح وقتادة والزهرى وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعى وغير واحد وداود وأبى ثور وهو رواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) أى فى الأطهار ولما كان الطهر الذى يطلق فيه محتسباً دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ولهذا قال هؤلاء . إن المعتدة تنقضى عدتها وتبين من زوجها بالطعن فى الحيضة الثالثة وأقل مدة تصدق فيها المرأة فى انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوما ولحظتان واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر وهو الأعشى

ففى كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مورثة مالا وفى الأصل رفعة لما ضاع فيها من قروء نسائكا

يمدح أميرا من أمراء العرب آثر الغزو على القام حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها. (والقول الثانى) أن المراد بالأقراء الحيض فلا تنقضى العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة زاد آخرون وتغتسل منها وأقل وقت تصدق فيه المرأة فى انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوما ولحظة قال الثورى عن منصور عن إبراهيم عن علقمة قال كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجاءته امرأة فقالت إن زوجى فارقنى بواحدة أو اثنتين فجاءنى وقد نزعت ثيابى وأغلقت بابى فقال عمر لعبد الله بن مسعود : أراها امرأته مادون أن تحل لها الصلاة قال وأنا أرى ذلك . وهكذا روى عن أبى بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى وأبى الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ وأبى بن كعب وأبى موسى الأشعرى وابن عباس وسعيد بن السيب وعلقمة والأسود وإبراهيم ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة والشعبى والربيع ومقاتل بن حيان والسدى ومكحول والضحاك وعطاء الخراسانى أنهم قالوا . الأقراء : الحيض وهذا مذهب أبى حنيفة وأصحابه وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل وحكى عنه الأثرم أنه قال الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون الأقراء الحيض وهو مذهب الثورى والأوزاعى وابن أبى ليلى وابن شبرمة والحسن بن صالح بن حى وأبى عبيد وإسحق ابن راهويه ويؤيد هذا ماجاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى من طريق المنذر بن المغيرة عن عروة بن الزبير عن فاطمة بنت أبى حبيش أن رسول الله ﷺ قال لها « دعى الصلاة أيام أقرائك » فهذا لو صح لكان صريحا فى أن القرء هو الحيض ولكن المنذر هذا قال فيه أبو حاتم مجهول ليس بمشهور وذكره ابن حبان فى الثقات وقال ابن جرير أصل القرء فى كلام العرب الوقت لمجىء الشىء المعتاد مجيئه فى وقت معلوم ولإدبار الشىء المعتاد إدباره لوقت معلوم وهذه العبارة تقتضى أن يكون مشتركا بين هذا وهذا وقد ذهب إليه بعض الأصوليين والله أعلم . وهذا قول الأصمعى أن القرء هو الوقت . وقال أبو عمرو بن العلاء . العرب تسمى الحيض قرءا وتسمى الطهر قرءا وتسمى الطهر والحيض جميعا قرءا . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر وإنما اختلفوا فى المراد من الآية ماهو على قولين

وقوله (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) أى من حبل أو حيض . قاله ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبى والحكم بن عيينة والربيع بن أنس والضحاك وغير واحد وقوله (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) تهديد لهن على خلاف الحق ودل هذا على أن المرجع فى هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ويتعذر إقامة البينة غالبا على ذلك فرد الأمر إليهن وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق إما استعجالا منها لانقضاء العدة أو رغبة منها فى تطويلها لما لها فى

ذلك من المقاصد فأمرت أن تخبر بالحق فى ذلك من غير زيادة ولا نقصان

وقوله (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا) أى وزوجها الذى طلقها أحق بردها مادامت فى عدتها إذا كان مراده بردها الاصلاح والخير وهذا فى الرجعيات فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن وإنما كان ذلك لما حصروا فى الطلاق[1] الثلاث فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة فلما قصروا فى الآية التى بعدها على ثلاث تطليقات صار للناس مطلقة بائن وغير بائن وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسئلة عود الضمير هل يكون مخصصا لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة فان التمثيل بها غير مطلق لما ذكروه والله أعلم

وقوله (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) أى ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته فى حجة الوداع « فاتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فان فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وفى حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده أنه قال يارسول الله ماحق زوجة أحدنا قال « أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » وقال وكيع عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عباس قال : إنى لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى المرأة لأن الله يقول (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وقوله (وللرجال عليهن درجة) أى فى الفضيلة فى الخلق والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)

وقوله (والله عزيز حكيم) أى عزيز فى انتقامه ممن عصاه وخالف أمره حكيم فى أمره وشرعه وقدره

﴿ الطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ * فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة مادامت فى العدة فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات وأباح الرجعة فى المرة والثنتين وأبانها بالكلية فى الثالثة . فقال (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أوتسريح بإحسان) قال أبوداود رحمه الله فى سننه (باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث) حدثنا أحمد بن محمد المروزى حدثنى على بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن) الآية وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثا فنسخ ذلك فقال (الطلاق مرتان) الآية ورواه النسائى عن زكريا بن يحيى عن إسحق بن إبراهيم عن على بن الحسين به وقال ابن أبى حاتم حدثنا هرون بن إسحق حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا قال لامرأته : لا أطلقك أبدا ولا آويك أبداً قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل (الطلاق مرتان) وهكذا رواه ابن جرير فى تفسيره من طريق جرير بن عبد الحميد وابن إدريس ورواه

(١) فى نسخة الأزهر الطلقات .

عبد بن حميد فى تفسيره عن جعفر بن عون كلهم عن هشام عن أبيه قال . كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء مادامت فى العدة وإن رجلا من الأنصار غضب على امرأته فقال : والله لا آويك ولا أفارقك قالت وكيف ذلك قال أطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك ثم أطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (الطلاق مرتان) قال فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق وقدرواهأبو بكر بن مردويه من طريق محمد بن سليمان عن يعلى بن شبيب مولى الزبير عن هشام عن أبيه عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم ورواه الترمذى عن قتيبة عن يعلى بن شبيب به ثم رواه عن أبى كريب عن ابن إدريس عن هشام عن أبيه مرسلا وقال هـذا أصح ورواه الحاكم فى مستدركه من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب عن يعلى بن شبيب به وقال صحيح الإسناد ثم قال ابن مردويه . حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت لم يكن للطلاق وقت يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس فقال والله لأتركنك لا أيما ولا ذات زوج ، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضى راجعها ففعل ذلك مرارا فأنزل الله عز وجل فيـه (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فوقت الطلاق ثلاثا لارجعة فيـه بعد الثالثة حتى تنكح زوجا غيره وهكذا روى عن قتادة مرسلا ذكره السدى وابن زيد وابن جرير كذلك واختار أن هـذا تفسير هذه الآية وقوله (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) أى إذا طلقتها واحدة أواثنتين فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناويا الاصلاح بها والإحسان إليها وبين أن تتركها حتى تنقضى عدتها فتبين منك وتطلق سراحها محسنا إليها لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضاربها . وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله فى ذلك أى فى الثالثة فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً وقال ابن أبى حاتم أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرنى سفيان الثورى حدثنى إسماعيل بن سميع قال سمعت أبا رزين يقول جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت قول الله عز وجل (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) أين الثالثة قال . « التسريح بإحسان » ورواه عبد بن حميد فى تفسيره ولفظه أخبرنا يزيد بن أبى حكيم عن سفيان عن إسماعيل بن سميع أن أبا رزين الأسدى يقول: قال رجل يا رسول الله أرأيت قول الله (الطلاق مرتان) فأين الثالثة؟ قال « التسريح بإحسان الثالثة » ورواه الإمام أحمد أيضاً . وهكذا رواه سعيد بن منصور عن خالد بن عبد الله عن إسماعيل ابن زكريا وأبى معاوية عن إسماعيل بن سميع عن أبى رزين به وكذا رواه ابن مردويه أيضاً من طريق قيس بن الربيع عن إسماعيل بن سميع عن أبى رزين به مرسلا ورواه ابن مردويه أيضاً من طريق عبد الواحد بن زياد عن إسماعيل بن سميع عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكره ثم قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم حدثنا أحمد ابن يحيى حـدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة حدثنا ابن عائشة حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس بن مالك قال. جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسـول الله ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثلاثة ؟ قال « (إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) »

وقوله (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) أى لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها فقد قال تعالى (فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً) وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدى منه بمـا أعطاها ولا حرج عليها فى بذلها له ولا حرج عليه فى قبول ذلك منها ولهذا قال تعالى (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) الآية فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فقد قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب ح وحدثنى يعقوب بن

إبراهيم حدثنا ابن علية قالا جميعا : حدثنا أيوب عن أبي قلابة عمن حدثه عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » وهكذا رواه الترمذى عن بندار عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى به وقال حسن قال ويروى عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان ورواه بعضهم عن أيوب بهذا الإسناد ولم يرفعه : وقال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة قال وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان قال : قال رسـول الله ﷺ « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » وهكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن جرير من حديث حماد بن زيد به (طريق أخرى) قال ابن جرير . حدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث بن أبي إدريس عن ثوبان مـولى رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال « أيما امرأة سـألت زوجهـا الطلاق في غير ما بأس حرم الله عليها رائحة الجنــة » وقال « المختلعات هن المنافقات » ثم رواه ابن جرير والترمــذى جميعا عن أبي كريب عن مزاحم بن داود بن علية عن أبيه عن ليث هو ابن أبي سليم عن أبي الخطاب عن أبي زرعة عن أبي إدريس عن ثوبان قال : قال رسـول الله ﷺ « المختلعات هن المنافقات » : ثم قال الترمذى : غريب من هـذا الوجه وليس إسناده بالقوى (حديث آخر) قال ابن جرير . حدثنا أيوب حدثنا حفص بن بشر حدثنا قيس بن الربيع عن أشعث ابن سوار عن الحسن عن ثابت بن يزيد عن عقبة بن عامر قال : قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم « إن المختلعات المنتزعات هن المنافقات » غريب من هـذا الوجه ضعيف (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا أيوب عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « المختلعات والمنتزعات هن المنافقات » (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا بكر بن خلف أبو بشر حدثنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى بن ثوبان عن عمه عمارة بن ثوبان عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى (ولا يحل لكم أن تأخذوا ممـا آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) قالوا : فلم يشرع الخلع إلا في هـذه الحالة فلا يجوز في غيرها إلا بدليل والأصل عدمه وممن ذهب إلى هذا ابن عباس وطاوس وإبراهيم وعطاء والحسن والجمهور حتى قال مالك والأوزاعى . لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها وجب رده إليها وكان الطلاق رجعيا قال مالك وهو الأمر الذى أدركت النـاس عليه وذهب الشافعى رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعنـد الاتفاق بطريق الأولى والأحرى وهذا قول جميع أصحابه قاطبة وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستذكار له عن بكر بن عبد الله المزنى أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله (وآتيتم إحـداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً) ورواه ابن جرير عنه وهـذا قول ضعيف ومأخذ مردود على قائله وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هـذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول ولنذكر طرق حديثها واختلاف ألفاظه : قال الإمام مالك في موطئه عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصارى أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وأن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس فقال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم « من هـذه ؟ » قالت أنا حبيبة بنت سهل « فقال ما شأنك » فقالت . لا أنا ولا ثابت بن قيس لزوجها فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسـول الله ﷺ « هـذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر » فقالت حبيبة . يارسـول الله كل ما أعطانى عنـدى فقال رسـول الله ﷺ « خذ منها » فأخـذ منها وجلست في أهلها . وهـكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدى عن مالك بإسناده مثله ورواه أبو داود عن القعنبى عن مالك والنسائى عن محمد بن مسلمة عن ابن القاسم عن مالك (حديث آخر) عن عائشة قال أبو داود وابن جرير حدثنا محمد بن معمر حدثنا أبو عامر

حدثنا أبو عمرو السدوسى عن عبد الله بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس فضربها فانكسر(١) بعضها فأتت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكته إليه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتا فقال « خذ بعض مالها وفارقها » قال ويصلح ذلك يا رسول الله ؟ قال « نعم » قال . إنى أصدقتها حديقتين فهما بيدها فقال النبى ﷺ « خذهما وفارقها » ففعل وهذا لفظ ابن جرير وأبو عمرو السدوسى هو سعيد بن سلمة بن أبى الحسام (حديث آخر) فيه عن ابن عباس رضى الله عنه . قال البخارى : حدثنا أزهر بن جميل أخبرنا عبد الوهاب الثقفى حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله . ما أعيب عليه فى خلق ولا دين ولكن أكره الكفر فى الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتردين عليه حديقته » قالت : نعم قال رسول الله ﷺ « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » وكذا رواه النسائى عن أزهر بن جميل بإسناده مثله ورواه البخارى أيضاً به عن إسحق الواسطى عن خالد هو ابن عبد الله الطحاوى عن خالد هو ابن مهران الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس به نحوه، وهكذا رواه البخارى أيضا من طرق عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس وفى بعضها أنها قالت لا أطيقه يعنى بغضا . وهذا الحديث من إفراد البخارى من هذا الوجه . ثم قال حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة أن جميلة رضى الله عنها ـ كذا قال ـ والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم لكن قال الإمام أبو عبد الله بن بطة حدثنى أبو يوسف يعقوب بن يوسف الطباخ حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنى عبد الأعلى حدثنا سعيد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : والله ما أعتب على ثابت بن قيس فى دين ولا خلق ولكننى أكره الكفر فى الإسلام لا أطيقه بغضا فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم « تردين عليه حديقته ؟ » قالت نعم . فأمره النبى ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره عن موسى بن هرون حدثنا أزهر بن مروان حدثنا عبد الأعلى مثله وهكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان بإسناده مثله سواء وهو إسناد جيد مستقيم وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يحى بن واضح حدثنا الحسين بن واقد عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول أنها كانت تحت ثابت بن قيس فنشزت عليه فأرسل إليها النبى ﷺ فقال « يا جميلة ما كرهت من ثابت ؟ » قالت . والله ما كرهت منه دينا ولا خلقا إلا أنى كرهت دمامته فقال لها : « أتردين عليه الحديقة » قالت نعم فردت الحديقة وفرق بينهما . وقال ابن جرير أيضاً حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال قرأت على فضيل عن أبى جرير أنه سأل عكرمة هل كان للخلع أصل قال . كان ابن عباس يقول إن أول خلع كان فى الإسلام فى أخت عبد الله بن أبى أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله لا يجمع رأسى ورأسه شىء أبداً إنى رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل فى عدة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فقال زوجها يا رسول الله إنى قد أعطيتها أفضل مالى حديقة لى فان ردت على حديقتى قال « ماتقولين » ؟ قالت نعم وإن شاء زدته . قال ففرق بينهما (حديث آخر) قال ابن ماجه : حدثنا أبو كريب حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال . كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس وكان رجلا دميما فقالت . يا رسول الله والله لولا مخافة الله إذا دخل علىّ بصقت فى وجهه فقال رسول الله ﷺ « اتردين عليه حديقته ؟ » قالت نعم فردت عليه حديقته قال ففرق بينهما رسول الله ﷺ

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) وقال ابن جرير . حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا أيوب عن كثير مولى ابن سمرة أن عمر أتى بامرأة ناشز فأمر بها إلى بيت كثير الزبل ثم دعا بها فقال كيف وجدت فقالت ماوجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التى كنت حبستنى فقال لزوجها اخلعها ولو من قرطها ورواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن كثير مولى ابن سمرة فذكر مثله وزاد فحبسها فيه ثلاثة أيام قال سعيد بن أبى عروبة

(١) فى نسخة الأزهر فكسر .

عن قتادة عن حميد بن عبد الرحمن أن امرأة أتت عمر بن الخطاب فشكت زوجها فأباتها فى بيت الزبل فلما أصبحت قال لها كيف وجدت مكانك ؟ قالت ما كنت عنده ليلة أقر لعيني من هذه الليلة . فقال خذ ولو عقاصها، وقال البخارى وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل أن الربيع بنت معوّذ ابن عفراء حدثته قالت : كان لى زوج يقل على الخير إذا حضرنى ويحرمنى إذا غاب عنى قالت فكانت منى زلة يوما فقلت له أختلع منك بكل شىء أملكه قال . نعم قالت ففعلت قالت فخاصم عمى معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان فأجاز الخلع وأمره أن يأخذ عقاص رأسى فما دونه أوقالت مادون عقاص الرأس ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل مابيدها من قليل وكثير ولا يترك لها سوى عقاص شعرها وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعى وقبيصة بن ذؤيب والحسن بن صالح وعثمان البتى وهذا مذهب مالك والليث والشافعى وأبى ثور واختاره ابن جرير وقال أصحاب أبى حنيفة إن كان الاضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها ولا يجوز الزيادة عليه فان ازداد جاز فى القضاء وإن كان الاضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئا فان أخذ جاز فى القضاء وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحق بن راهويه لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب والزهرى وطاوس والحسن والشعبى وحماد بن أبى سليمان والربيع بن أنس وقال معمر والحكم كان على يقول لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها وقال الأوزاعى القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق اليها (قلت) ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة عن ابن عباس فى قصة ثابت بن قيس فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد وبما روى عبد بن حميد حيث قال : أخبرنا قبيصة عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء أن النبى صلى الله عليه وسلم كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها يعنى المختلعة وحملوا معنى الآية على معنى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى من الذى أعطاها لتقدم قوله (ولا تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى من ذلك وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس (فلا جناح عليهما فيما افتدت به منه) رواه ابن جرير ولهذا قال بعده (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) ﴿ فصل ﴾ قال الشافعى : اختلف أصحابنا فى الخلع فأخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس فى رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد . يتزوجها إن شاء لأن الله تعالى يقول (الطلاق مرتان - قرأ إلى - أن يتراجعا) قال الشافعى : وأخبرنا سفيان عن عمرو عن عكرمة قال : كل شىء أجازه المال فليس بطلاق وروى غير الشافعى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس أن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص سأله فقال رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها ؟ قال : نعم ليس الخلع بطلاق ذكر الله الطلاق فى أول الآية وآخرها والخلع فيما بين ذلك فليس الخلع بشىء ثم قرأ (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقرأ (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) وهذا الذى ذهب اليه ابن عباس رضى الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق وإنما هو فسخ هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر وهو قول طاوس وعكرمة وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وأبو ثور وداود بن على الظاهرى وهو مذهب الشافعى فى القديم وهو ظاهر الآية الكريمة والقول الثانى فى الخلع إنه طلاق بائن إلا أن ينوى أكثر من ذلك قال مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن جهمان مولى الأسلميين عن أم بكر الأسلمية أنها اختلعت من زوجها عبدالله بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان بن عفان فى ذلك فقال تطليقة إلا أن تكون سميت شيئاً فهو ماسميت قال الشافعى ولا أعرف جهمان وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر والله أعلم . وقد روى نحوه عن عمر وعلى وابن مسعود وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وشريح والشعبى وإبراهيم وجابر بن زيد واليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى وأبو عثمان البتى والشافعى فى الجديد غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق فهو واحدة بائنة وإن نوى ثلاثا فثلاث وللشافعى قول آخر فى الخلع وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق وعرى عن البينة فليس هو بشىء بالكلية

﴿ مسألة ﴾ وذهب مالك وأبوحنيفة والشافعي وأحمد وإسحق بن راهويه في رواية عنهما وهي المشهورة إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض وروى ذلك عن عمر وعلي وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وعروة وسالم وأبو سلمة وعمر بن عبدالعزيز وابن شهاب والحسن والشعبي وإبراهيم النخعي وأبو عياض وخلاس بن عمر وقتادة وسفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وأبو العبيد قال الترمذي وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق فتعتد كسائر المطلقات والقول الثاني انها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها قال ابن أبي شيبة حدثنا يحي بن سعيد عن نافع عن ابن عمر أن الربيع اختلعت من زوجها فأتى عمها عثمان رضى الله عنه فقال تعتد بحيضة قال وكان ابن عمر يقول تعتد ثلاث حيض حتى قال هذا عثمان فكان ابن عمر يفتي به ويقول عثمان خيرنا وأعلمنا . وحدثنا عبدة عن عبيدالله عن نافع عن ابن عمر قال : عدة المختلعة حيضة . وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : عدتها حيضة وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول إن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود والترمذي حيث قال كل منهما حدثنا محمد بن عبد الرحيم البغدادي ، حدثنا علي بن بحي أخبرنا هشام بن يوسف عن معمر عن عمرو ابن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد بحيضة ثم قال الترمذي حسن غريب وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن عمرو ابن مسلم عن عكرمة مرسلا (حديث آخر) قال الترمذي حدثنا محمود بن غيلان حدثنا الفضل بن موسى عن سفيان حدثنا محمد بن عبد الرحمن وهو مولى آل طلحة عن سليمان بن يسار عن الربيع بنت معوذ بن عفراء أنها اختلعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أو أمرت أن تعتد بحيضة قال الترمذي . الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة (طريق أخرى) قال ابن ماجه . حدثنا علي بن سلمة النيسابوري حدثنا يعقوب بن إبراهيم ابن سعد حدثنا أبي عن ابن إسحق أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال . قلت لها حدثيني حديثك قالت . اختلعت من زوجي ثم جئت عثمان فسألت عثمان ماذا على من العدة ؟ قال لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين عنده حتى تحيضي حيضة قالت . وإنما أتبع في ذلك قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مريم المغالية وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه وقد روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن أبي سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن الربيع بنت معوذ قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر امرأة ثابت ابن قيس حين اختلعت منه أن تعتد بحيضة .

﴿مسئلة﴾ وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء وروى عن عبدالله بن أبي أوفى وماهان الحنفي وسعيد بن المسيب والزهري أنهم قالوا . إن رد اليها الذي أعطاها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها وهو اختيار أبي ثور رحمه الله وقال سفيان الثوري . إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها . وإن كان يسمى طلاقا فهو أملك لرجعتها مادامت في العدة وبه يقول داود بن علي الظاهري واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها في العدة وحكى الشيخ أبو عمر بن عبدالبر عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك كما لا يجوز لغيره وهو قول شاذ مردود .

﴿مسئلة﴾ وهل له أن يوقع عليها طلاقا آخر في العدة ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء . (أحدها) ليس له ذلك لانها قد ملكت نفسها وبانت منه وبه يقول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصري والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق ابن راهويه وأبو ثور ، (والثاني) قال مالك . إن أتبع الخلع طلاقا من غير سكوت بينهما وقع وإن سكت بينهما لم يقع قال ابن عبد البر : وهذا يشبه ماروى عن عثمان رضي الله عنه . والثالث أنه يقع عليها الطلاق بكل حال مادامت في العدة وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح وطاوس وإبراهيم والزهري والحاكم والحكم وحماد بن أبي سليمان وروى ذلك عن ابن مسعود وأبي الدرداء قال ابن عبد البر : وليس ذلك بثابت عنهما

وقوله (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) أى هذه الشرائع التى شرعها لكم هى حدوده فلا تتجاوزوها كما ثبت فى الحديث الصحيح « إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها وفرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله (الطلاق مرتان) ثم قال (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) ويقوون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذى رواه النسائى فى سننه حيث قال : حدثنا سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب عن مخرمة بن بكير عن أبيه عن محمود بن لبيد قال : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » حتى قام رجل فقال يارسول الله ألا أقتله ؟ — فيه انقطاع —

وقوله تعالى (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) أى أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين فانها تحرم عليه حتى تنكح زوجا غيره أى حتى يطأها زوج آخر فى نكاح صحيح فلو وطئها واطىء فى غير نكاح ولو فى ملك اليمين لم تحل للأول لأنه ليس بزوج وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول واشتهر بين كثير من الفقهاء أن[1] سعيد بن المسيب رحمه الله أنه يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثانى وفى صحته عنه نظر على أن الشيخ أباعمر بن عبدالبر قد حكاه عنه فى الاستذكار والله أعلم . وقد قال أبوجعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن علقمة بن مرثد عن سالم بن رزين عن سالم بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أترجع إلى الأول ؟ قال « لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها » هكذا وقع فى رواية ابن جرير وقد رواه الإمام أحمد فقال : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد قال : سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله يعنى ابن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى زوجها الأول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حتى تذوق العسيلة » وهكذا رواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس وابن ماجه عن محمد بن بشار بندار كلاهما عن محمد ابن جعفر غندر عن شعبة به كذلك فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعا على خلاف ما يحكى عنه فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند والله أعلم . وقد روى أحمد أيضا والنسائى وابن جرير هذا الحديث من طريق سفيان الثورى عن علقمة بن مرثد عن رزين بن سليمان الأحمرى عن ابن عمر قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يطلق امرأته ثلاثا فيتزوجها آخر فيغلق الباب ويرخى الستر ثم يطلقها قبل أن يدخل بها هل تحل للأول ؟ قال : « لا حتى تذوق العسيلة » وهذا لفظ أحمد وفى رواية لأحمد سليمان بن رزين (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا محمد ابن دينار حدثنا يحيى بن يزيد الهنائى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثا فتزوجت بعده رجلا فطلقها قبل أن يدخل بها أتحل لزوجها الأول ؟ فقال رسول الله ﷺ « لا حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذاقت من عسيلته » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن إبراهيم الأنماطى عن هشام بن عبد الملك حدثنا محمد بن دينار فذكره (قلت) ومحمد بن دينار بن صندل أبو بكر الأزدى ثم الطائى البصرى ويقال له ابن أبى الفرات اختلفوا فيه فمنهم من ضعفه ومنهم من قواه وقبله وحسن له وذكر أبو داود أنه تغير قبل موته فالله أعلم . (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى حدثنا أبى حدثنا شيبان حدثنا يحيى بن أبى كثير عن أبى الحارث الغفارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المرأة يطلقها زوجها ثلاثا فتتزوج غيره فيطلقها قبل أن يدخل بها فيريد الأول أن يراجعها قال : « لا حتى يذوق الآخر

(١) ولعله عن .

عسيلتها » ثم رواه من وجه آخر عن شيبان وهو ابن عبد الرحمن به — وأبو الحارث غير معروف — (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا يحيى عن عبيد الله حدثنا القاسم عن عائشة أن رجلا طلق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجا فطلقها قبل أن يمسها فسئل رسول الله ﷺ أتحل للأول ؟ فقال « لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول » أخرجه البخارى ومسلم والنسائى من طرق عن عبيد الله بن عمر العمرى عن القاسم بن أبى بكير عن عمته عائشة به (طريق أخرى) قال ابن جرير : حدثنا عبيد الله بن إسماعيل الهبارى وسفيان بن وكيع وأبو هشام الرفاعى قالوا : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : سئل النبى ﷺ عن رجل طلق امرأته فتزوجت رجلا غيره فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها أتحل لزوجها الأول ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا تحل لزوجها الأول حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته » وكذا رواه أبو داود عن مسدد والنسائى عن أبى كريب كلاهما عن أبى معاوية وهو محمد بن حازم الضرير به (طريق أخرى) قال مسلم فى صحيحه : حدثنا محمد بن العلاء الهمدانى حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها فتتزوج رجلا آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أتحل لزوجها الأول قال : « لا حتى يذوق عسيلتها » قال مسلم : وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أبو فضيل وحدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية جميعا عن هشام بهذا الاسناد وقد رواه البخارى من طريق أبى معاوية محمد بن حازم عن هشام به وتفرد به مسلم من الوجهين الآخرين وهكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الله بن المبارك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا بنحوه أو مثله — وهذا إسناد جيد — وكذا رواه ابن جرير أيضا من طريق على بن زيد بن جدعان عن امرأة أبيه أمينة أم محمد عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله وهذا السياق مختصر من الحديث الذى رواه البخارى حدثنا عمرو بن على حدثنا يحيى عن هشام بن عروة حدثنى أبى عن عائشة مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن رفاعة القرظى تزوج امرأة ثم طلقها فأتت النبى ﷺ فذكرت له أنه لا يأتيها وأنه ليس معه إلا مثل هدبة الثوب فقال . « لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » تفرد به من هذا الوجه (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الأعلى عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظى وأنا وأبو بكر عند النبى صلى الله عليه وسلم فقالت إن رفاعة طلقنى البتة وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى وإنما عنده مثل الهدبة وأخذت هدبة من جلبابها وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له فقال . ياأبابكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدى رسول الله ﷺ فما زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبسم فقال رسول الله ﷺ « كأنك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة ، لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » وهكذا رواه البخارى من حديث عبد الله بن المبارك ومسلم من حديث عبد الرزاق والنسائى من حديث يزيد بن زريع ثلاثتهم عن معمر به وفى حديث عبد الرزاق عند مسلم أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات وقد رواه الجماعة إلا أبو داود من طريق سفيان بن عيينة والبخارى من طريق عقيل ومسلم من طريق يونس بن يزيد وعنده آخر ثلاث تطليقات والنسائى من طريق أيوب بن موسى ورواه صالح بن أبى الأخضر كلهم عن الزهرى عن عروة عن عائشة به . وقال مالك عن المسور بن رفاعة القرظى عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير أن رفاعة بن سموأل طلق امرأته تميمة بنت وهب فى عهد رسول الله ﷺ ثلاثا فنكحت عبد الرحمن بن الزبير فاعترض عنها فلم يستطع أن يمسها ففارقها فأراد رفاعة بن سموأل أن ينكحها وهو زوجها الأول الذى كان طلقها فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه عن تزويجها وقال « لا تحل لك حتى تذوق العسيلة » هكذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك وفيه انقطاع وقد رواه إبراهيم بن طهمان وعبد الله بن وهب عن مالك عن رفاعة عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير عن أبيه فوصله

﴿فصل﴾ والمقصود من الزوج الثانى أن يكون راغباً فى المرأة قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثانى وطأ مباحا فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض

أو نفساء أوالزوج صائم أو محرم أو معتكف لم تحل للأول بهذا الوطء وكذا لوكان الزوج الثانى ذميا لم تحل للمسلم بنكاحه لأن أنكحة الكفار باطلة عنده واشترط الحسن البصرى فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثانى وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه الصلاة والسلام «حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك» ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضاً وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الإمام أحمد والنسائى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «ألا إن العسيلة الجماع» فأما إذا كان الثانى إنما قصده أن يحلها للأول فهذا هو المحلل الذى وردت الأحاديث بذمه ولعنه ومتى صرح بمقصوده فى العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة

﴿ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك﴾

(الحديث الأول) عن ابن مسعود رضى الله عنه. قال الإمام أحمد: حدثنا الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن أبى قيس عن الهزيل عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ: الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله. ثم رواه أحمد والترمذى والنسائى من غير وجه عن سفيان وهو الثورى عن أبى قيس واسمه عبد الرحمن بن ثروان الأودى عن هذيل بن شرحبيل الأودى عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ به ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح. قال. والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر وهو قول الفقهاء من التابعين ويروى ذلك عن على وابن مسعود وابن عباس (طريق أخرى) عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبيد الله عن عبد الكريم عن أبى الواصل عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال «لعن الله المحلل والمحلل له» (طريق أخرى) روى الإمام أحمد والنسائى من حديث الأعمش عن عبد الله بن مرة عن الحارث الأعور عن عبد الله بن مسعود قال. آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه إذا علموا به والواصلة والمستوصلة ولاوى الصدقة والمتعدى فيها والمرتد على عقبيه أعرابيا بعد هجرته والمحلل والمحلل له ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة

(الحديث الثانى) عن على رضى الله عنه قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن جابر عن الشعبى عن الحارث عن على قال. لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه والواشمة والمستوشمة للحسن ومانع الصدقة والمحلل والمحلل له وكان ينهى عن النوح وكذا رواه عن غندر عن شعبة عن جابر وهو ابن يزيد الجعفى عن الشعبى عن الحارث عن على به وكذا رواه من حديث إسماعيل بن أبى خالد وحصين بن عبد الرحمن ومجالد بن سعيد وابن عون عن عامر الشعبى به وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الشعبى به. ثم قال أحمد أخبرنا محمد بن عبد الله أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحق عن الحارث عن على قال لعن رسول الله ﷺ صاحب الربا وآكله وكاتبه وشاهده والمحلل والمحلل له

(الحديث الثالث) عن جابر رضى الله عنه قال الترمذى. أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا أشعث بن عبد الرحمن ابن يزيد الأيامى حدثنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله وعن الحارث عن على أن رسول الله ﷺ لعن الله المحلل والمحلل له ثم قال. وليس إسناده بالقائم ومجالد ضعفه غير واحد من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل قال. ورواه ابن نمير عن مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله عن على قال: وهذا وهم من ابن نمير والحديث الأول أصح

(الحديث الرابع) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه. قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه حدثنا يحيى بن عثمان ابن صالح المصرى أخبرنا أبى سمعت الليث بن سعد يقول: قال أبو المصعب مسرح هو ابن عاهان(١) قال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أخبركم بالتيس المستعار» قالوا. بلى يا رسول الله قال «هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له» تفرد به ابن ماجه وكذا رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى عن عثمان بن صالح عن الليث به، ثم قال: كانوا ينكرون على عثمان فى هذا الحديث إنكاراً شديداً (قلت) عثمان هذا أحد الثقات روى عنه البخارى فى

(١) فى نسخة الأزهر أبو المصعب سرح بن عاهان.

صحيحه ثم قد تابعه غيره فرواه جعفر الفريابي عن العباس المعروف بابن فريق عن أبي صالح عبد الله بن صالح عن الليث به فبرئ من عهدته والله أعلم

(الحديث الخامس) عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال ابن ماجه : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عامر عن زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له (طريق أخرى) قال الإمام الحافظ خطيب دمشق أبو إسحق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني السعدي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حنيفة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال . سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل قال « لا ، إلا نكاح رغبة لا نكاح دلسة ولا استهزاء بكتاب الله ثم يذوق عسيلتها » ويتقوى هذان الإسنادان بما رواه أبو بكر بن أبي شيبة عن حميد بن عبد الرحمن عن موسى بن أبي الفرات عن عمرو بن دينار عن النبي ﷺ بنحو من هذا فيتقوى كل من هذا المرسل والذي قبله بالآخر والله أعلم

(الحديث السادس) عن أبي هريرة رضى الله عنه . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر حدثنا عبد الله هو ابن جعفر عن عثمان بن محمد المقبري عن أبي هريرة قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له . وهكذا رواه أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني البيهقي من طريق عبد الله بن جعفر القرشي وقد وثقه أحمد بن حنبل وعلى بن المديني ويحيى ابن معين وغيرهم وأخرج له مسلم في صحيحه عن عثمان بن محمد الأخنسي وثقه ابن معين عن سعيد المقبري وهو متفق عليه

(الحديث السابع) عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال الحاكم في مستدركه : حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا محمد بن إسحق الصنعاني حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف المدني عن عمر بن نافع عن أبيه أنه قال : جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول فقال : لا إلا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله ﷺ ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد رواه الثوري عن عبد الله بن نافع عن أبيه عن ابن عمر به وهذه الصيغة مشعرة بالرفع وهكذا روى أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني وحرب الكرماني وأبو بكر الأثرم من حديث الأعمش عن المسيب بن رافع عن قبيصة بن جابر عن عمر أنه قال لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما وروى البيهقي من حديث ابن لهيعة عن بكير بن الأشج عن سليمان بن يسار أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما وكذا روى عن على وابن عباس وغير واحد من الصحابة رضى الله عنهم

وقوله (فان طلقها) أى الزوج الثاني بعد الدخول بها (فلا جناح عليهما أن يتراجعا) أى المرأة والزوج الأول (إن ظنا أن يقيما حدود الله) أى يتعاشرا بالمعروف . قال مجاهد : إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة (وتلك حدود الله) أى شرائعه وأحكامه (يبينها) أى يوضحها (لقوم يعلمون)

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين وتركها حتى انقضت عدتها ثم تزوجت بآخر فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها ثم تزوجها الأول هل تعود إليه بما بقى من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو قول طائفة من الصحابة رضى الله عنهم أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فلأن يهدم مادونها بطريق الأولى والأحرى والله أعلم

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ

عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقا له عليها فيه رجعة أن يحسن فى أمرها إذا انقضت عدتها ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فإما أن يمسكها أى يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها وينوى عشرتها بالمعروف أو يسرحها أى يتركها حتى تنقضى عدتها ويخرجها من منزله بالتى هى أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح قال الله تعالى (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) قال ابن عباس ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد : كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) أى بمخالفته أمر الله تعالى

وقوله تعالى (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) قال ابن جرير : عند هذه الآية أخبرنا أبو كريب أخبرنا إسحق ابن منصور عن عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن أبى العلاء الأودى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين فأتاه أبو موسى فقال يا رسول الله أغضبت على الأشعريين ؟ فقال « يقول أحدكم قد طلقت قد راجعت ليس هذا طلاق المسلمين طلقوا المرأة فى قبل عدتها » ثم رواه من وجه آخر عن أبى خالد الدلال وهو يزيد بن عبد الرحمن وفيه كلام . وقال مسروق : هو الذى يطلق فى غير كنهه ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة . وقال الحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع ومقاتل بن حيان : هو الرجل يطلق ويقول : كنت لاعبا أو يعتق أو ينكح ويقول كنت لاعبا فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فألزم الله بذلك : وقال ابن مردويه : حدثنا إبراهيم بن محمد حدثنا أبو أحمد الصيرفى حدثنى جعفر بن محمد السمسار عن إسماعيل بن يحيى عن سفيان عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن هو البصرى قال كان الرجل يطلق ويقول: كنت لاعبا ويعتق ويقول : كنت لاعبا وينكح ويقول : كنت لاعبا فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح جادا أو لاعبا فقد جاز عليه » وكذا رواه ابن جرير من طريق الزهرى عن سليمان بن أرقم عن الحسن مثله وهذا مرسل وقد رواه ابن مردويه من طريق عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبى الدرداء موقوفا عليه . وقال أيضاً حدثنا أحمد بن الحسن بن أيوب حدثنا يعقوب بن أبى يعقوب حدثنا يحى بن عبد الحميد حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن سلمة عن الحسن عن عبادة بن الصامت فى قول الله تعالى (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) قال : كان الرجل على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يقول للرجل زوجتك ابنتى ثم يقول : كنت لاعبا ويقول : قد أعتقت ويقول: كنت لاعبا فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من قالهن لاعبا أو غير لاعب فهن جائزات عليه الطلاق والعتاق والنكاح » والمشهور فى هذا الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من طريق عبد الرحمن ابن حبيب بن أدرك عن عطاء عن ابن ماهك عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة » وقال الترمذى . حسن غريب

وقوله (واذكروا نعمة الله عليكم) أى فى إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة) أى السنة (يعظكم به) أى يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم (واتقوا الله) أى فيما تأتون وفيما تذرون (واعلموا أن الله بكل شىء علىم) أى فلا يخفى عليه شىء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ

يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضي عدتها ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها . وكذا روى العوفي عنه عن ابن عباس أيضاً ، وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهري والضحاك انها أنزلت في ذلك وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها وأنه لابد في النكاح من ولي كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية كما جاء في الحديث « لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها فان الزانية هي لا تزوج نفسها » وفي الأثر الآخر « لانكاح إلا بولي مرشد وشاهدى عدل » وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر في موضعه من كتب الفروع وقد قررنا ذلك في كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة

وقد روى أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته فقال البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا أبو عامر العقدي حدثنا عباد بن راشد حدثنا الحسن قال حدثني معقل بن يسار قال : كانت لي أخت تخطب الي قال البخاري وقال إبراهيم عن يونس عن الحسن حدثني معقل بن يسار وحدثنا أبو معمر وحدثنا عبد الوارث حدثنا يونس عن الحسن أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل فنزلت (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن عن معقل بن يسار به وصححه الترمذي أيضاً ولفظه عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلا من المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال له يالكع ابن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك قال فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) إلى قوله (وأنتم لا تعلمون) فلما سمعها معقل قال : سمع لربي وطاعة ثم دعاه ، فقال أزوجك وأكرمك زاد ابن مردويه ، وكفرت عن يميني . وروى ابن جرير عن ابن جريج قال : هي جميل[1] بنت يسار كانت تحت أبي البداح. وقال سفيان الثوري . عن أبي إسحق السبيعي قال هي فاطمة بنت يسار وهكذا ذكر غير واحد من السلف أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته . وقال السدي نزلت في جابر بن عبد الله وابنة عم له والصحيح الأول والله أعلم

وقوله (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به ويتعظ به وينفعل له (من كان منكم) أيها الناس (يؤمن بالله واليوم الآخر) أي يؤمن بشرع الله ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة وما فيها من الجزاء (ذلكم أزكى لكم وأطهر) أي اتباعكم شرع الله في رد الموليات إلى أزواجهن وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم (والله يعلم) أي من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه (وأنتم لا تعلمون) أي الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(١) جميل بضم الجيم مصغر جمل بوزن قفل .

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهى سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ولهذا قال (لمن أراد أن يتم الرضاعة) وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لايحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم . قال الترمذى .﴿باب ماجاء أن الرضاعة لاتحرم إلا فى الصغر دون الحولين﴾ حدثنا قتيبة حدثنا أبو عوانة عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء فى الثدى وكان قبل الفطام » هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين وما كان بعد الحولين الكاملين فانه لا يحرم شيئا وفاطمة بنت المنذر بن الزبير بن العوام وهى امرأة هشام بن عروة (قلت) تفرد الترمذى برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين ومعنى قوله « إلا ما كان فى الثدى » أى فى محال الرضاعة قبل الحولين كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد عن وكيع وغندر عن شعبة عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن ابنى مات فى الثدى إن له مرضعا فى الجنة » وهكذا أخرجه البخارى من حديث شعبة وإنما قال عليه السلام ذلك لأن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر فقال إن له مرضعا يعنى تكمل رضاعه ويؤيده ما رواه الدارقطنى من طريق الهيثم بن جميل عن سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لايحرم من الرضاع إلا ما كان فى الحولين » ثم قال ولم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل وهو ثقة حافظ (قلت) وقد رواه الإمام مالك فى الموطأ عن ثور بن يزيد عن ابن عباس مرفوعا ورواه الدراوردى عن ثور عن عكرمة عن ابن عباس وزاد «وما كان بعد الحولين فليس بشىء» وهذا أصح

وقال أبوداود الطيالسى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام » وتمام الدلالة من هذا الحديث فى قوله تعالى (وفصاله فى عامين أن اشكرلى) وقال (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) والقول بأن الرضاعة لاتحرم بعد الحولين يروى عن علىّ وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبى هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور وهو مذهب الشافعى وأحمد وإسحق والثورى وأبى يوسف ومحمد ومالك فى رواية وعنه أن مدته سنتان وشهران وفى رواية وثلاثة أشهر وقال أبوحنيفة سنتان وستة أشهر وقال زفر بن الهذيل مادام يرضع فإلى ثلاث سنين وهذا رواية عن الأوزاعى قال مالك : ولو فطم الصبى دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم لأنه قد صار بمنزلة الطعام وهو رواية عن الأوزاعى وقد روى عن عمر وعلى أنهما قالا : لارضاع بعد فصال فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور سواء فطم أولم يفطم ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك والله أعلم . وقد روى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر فى التحريم وهو قول عطاء بن أبى رباح والليث بن سعد وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها فترضعه وتحتج فى ذلك بحديث سالم مولى أبى حذيفة حيث أمر النبى ﷺ امرأة أبى حذيفة أن ترضعه وكان كبيرا فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة وأبى ذلك سائر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ورأين ذلك من الخصائص وهو قول الجمهور وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة والأكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى عائشة ماثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انظرن من إخوانكن فانما الرضاعة من المجاعة » وسيأتى الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير عند قوله تعالى (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم)

وقوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) أى وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف أى بما جرت به عادة أمثالهن فى بلدهن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته فى يساره وتوسطه وإقتاره كما قال تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا) قال الضحاك : إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف .

وقوله (لاتضار والدة بولدها) أى بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبأ الذى لايعيش بدون تناوله غالبا ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلايحل لها ذلك كما لايحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها ولهذا قال (ولا مولود له بولده) أى بأن يريد أن ينتزع الولد منها اضرارا بها قاله مجاهد وقتادة والضحاك والزهرى والسدى والثورى وابن زيد وغيرهم .

وقوله تعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) قيل فى عدم الضرار لقريبه قاله مجاهد والشعبى والضحاك وقيل عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها وهو قول الجمهور وقد استقصى ذلك ابن جرير فى تفسيره وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض وهو مروى عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ويرشح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعا « من ملك ذا رحم محرم عتق عليه » وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما فى بدنه أو فى عقله وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال لاترضعيه .

وقوله (فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) أى فان اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا فى ذلك مصلحة له وتشاورا فى ذلك وأجمعا عليه فلا جناح عليهما فى ذلك فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفى ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر قاله الثورى وغيره وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر فى أمره وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين فى تربية طفلهما وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه كما قال فى سورة الطلاق (فان أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهنّ وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) .

وقوله تعالى (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف) أى إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو لعذر له فلا جناح عليهما فى بذله ولا عليه فى قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتى هى أحسن واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف قاله غير واحد . وقوله (واتقوا الله) أى فى جميع أحوالكم (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) أى فلا يخفى عليه شىء من أحوالكم وأقوالكم .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

هذا أمر من الله للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع ومستنده فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فترددوا إليه مرارا فى ذلك فقال أقول فيها برأيى فان يك صوابا فمن الله وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملا وفى لفظ لها صداق مثلها لاوكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث فقام معقل بن يسار الأشجعى فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به فى بروع بنت واشق ففرح عبدالله بذلك فرحا شديدا وفى رواية فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به فى بروع بنت واشق . ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهى حامل فان عدتها بوضع الحمل ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله (وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ) وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية المخرج فى الصحيحين من غير وجه أنها توفى عنها زوجها سعد بن خولة وهى حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته وفى رواية فوضعت حملها بعده بليال فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل

عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها : مالى أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة، فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج إن بدالى ، قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة يعنى لما احتج عليه به قال ويصحح ذلك عنه أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة . وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة فان عدتها على النصف من عدة الحرة شهران وخمس ليال على قول الجمهور لأنها لما كانت على النصف من الحرة فى الحد فكذلك فلتكن على النصف منها فى العدة . ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوى بين الزوجات الحرائر والإماء فى هذا المقام لعموم الآية ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التى تستوى فيها الخليقة وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً لاحتمال اشتمال الرحم على حمل فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح » فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم . قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة سألت سعيد بن المسيب ما بال العشر ؟ قال : فيه ينفخ الروح وقال الربيع بن أنس : قلت لأبى العالية لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة ؟ قال : لأنه ينفخ فيه الروح رواهما ابن جرير ومن ههنا ذهب الإمام أحمد فى رواية عنه إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا لأنها صارت فراشا كالحرائر وللحديث الذى رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هرون عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن رجاء بن حيوة عن قبيصة ابن ذؤيب عن عمرو بن العاص أنه قال : لا تلبسوا علينا سنة نبينا : عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر ورواه أبو داود عن قتيبة عن غندر وعن ابن المثنى عن عبد الأعلى ، وابن ماجه عن على بن محمد عن الربيع ثلاثتهم عن سعيد بن أبى عروبة عن مطر الوراق عن رجاء بن حيوة عن قبيصة عن عمرو بن العاص فذكره وقد روى عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث وقيل إن قبيصة لم يسمع عمرا وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف منهم سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين وأبو عياض والزهرى وعمر بن عبد العزيز وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو أمير المؤمنين وبه يقول الأوزاعى وإسحق بن راهويه وأحمد بن حنبل فى رواية عنه وقال طاوس وقتادة : عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها نصف عدة الحرة شهران وخمس ليال وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن صالح بن حي تعتد بثلاث حيض وهو قول على وابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعى وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه عدتها حيضة وبه يقول ابن عمر والشعبى ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور وقال الليث : ولو مات وهى حائض أجزأتها وقال مالك : فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر وقال الشافعى والجمهور : شهر وثلاثة أحب إلى والله أعلم

وقوله (فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير) يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمى المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » وفى الصحيحين أيضاً عن أم سلمة أن امرأة قالت يا رسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟ فقال « لا » كل ذلك يقول — لا — مرتين أو ثلاثا ثم قال « إنما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة » قالت زينب بنت أم سلمة : كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشا ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبا ولا شيئاً حتى تمر بها سنة ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتض به فقلما تفتض بشىء إلا مات[1] ومن ههنا ذهب كثيرون من

(١) أى من نتنها والافتضاض مسح الفرج به .

العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها وهي قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) الآية كما قاله ابن عباس وغيره وفي هذا نظر كما سيأتى تقريره . والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى وغير ذلك وهو واجب في عدة الوفاة قولا واحداً ولا يجب في عدة الرجعية قولا واحداً وهل يجب في عدة البائن فيه قولان . ويجب الاحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية وقال الثورى وأبو حنيفة وأصحابه لا إحداد على الكافرة وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك وحجة قائل هذه المقالة قوله صلى الله عليه وسلم « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » قالوا فجعله تعبداً وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثورى الصغيرة بها لعدم التكليف وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام والفروع والله الموفق للصواب

وقوله (فإذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن قاله الضحاك والربيع بن أنس (فلا جناح عليكم) قال الزهرى أى على أوليائها (فيما فعلن) يعنى النساء اللاتى انقضت عدتهن قال الوالبى عن ابن عباس إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج فذلك المعروف وروى عن مقاتل بن حيان نحوه وقال ابن جريج عن مجاهد (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) قال النكاح الحلال الطيب وروى عن الحسن والزهرى والسدى ونحو ذلك

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (ولا جناح عليكم) أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح قال الثورى وشعبة وجرير وغيرهم عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس في قوله (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) قال التعريض أن يقول إنى أريد التزويج وإنى أحب امرأة من امرها ومن امرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفي رواية وددت أن الله رزقنى امرأة ونحو هذا ولا ينتصب للخطبة وفي رواية إنى لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله ولوددت أنى وجدت امرأة صالحة ولا ينتصب لها مادامت في عدتها ورواه البخارى تعليقا فقال . وقال لى طلق بن غنام عن زائدة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) هو أن يقول إنى أريد التزويج وإن النساء لمن حاجتى ولوددت أن ييسر لى امرأة صالحة . وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى والشعبى والحسن وقتادة والزهرى ويزيد بن قسيط ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم وقال لها فاذا حللت فآذنينى فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها إياه فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم

وقوله (أو أكننتم في أنفسكم) أى أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن وهذا كقوله تعالى (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) وكقوله (وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) ولهذا قال (علم الله أنكم ستذكرونهن) أى

فى أنفسكم فرفع الحرج عنكم فى ذلك ثم قال (ولكن لاتواعدوهن سراً) قال أبو مجلز وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن البصرى وإبراهيم النخعى وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وسليمان التيمى ومقاتل بن حيان والسدى يعنى الزنا وهو معنى رواية العوفى عن ابن عباس واختاره ابن جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ولكن لا تواعدوهن سراً) لاتقل لها إنى عاشق وعاهدينى أن لاتتزوجى غيرى ونحو هذا وكذا روى عن سعيد بن جبير والشعبى وعكرمة وأبى الضحى والضحاك والزهرى ومجاهد والثورى هو أن يأخذ ميثاقها أن لاتتزوج غيره وعن مجاهد هو قول الرجل للمرأة لاتفوتينى بنفسك فانى ناكحك وقال قتادة : هو أن يأخذ عهد المرأة وهى فى عدتها أن لاتنكح غيره فنهى الله عن ذلك وقدم فيه وأحل الخطبة والقول بالمعروف وقال ابن زيد (ولكن لاتواعدون سراً) هو أن يتزوجها فى العدة سراً فاذا حلت أظهر ذلك وقد يحتمل أن تكون الآية عامة فى جميع ذلك ولهذا قال (إلا أن تقولوا قولا معروفا) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسدى والثورى وابن زيد : يعنى به ماتقدم من إباحة التعريض كقوله : إنى فيك لراغب ونحو ذلك وقال محمد بن سيرين قلت لعبيدة : مامعنى قوله (إلا أن تقولوا قولا معروفا) قال : يقول لوليها : لاتسبقنى بها ، يعنى لاتزوجها حتى تعلمنى ، رواه ابن أبى حاتم .

وقوله (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) يعنى ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضى العدة . قال ابن عباس ومجاهد والشعبى وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان والزهرى وعطاء الخراسانى والسدى والثورى والضحاك (حتى يبلغ الكتاب أجله) يعنى ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضى العدة وقد أجمع العلماء على أنه لايصح العقد فى مدة العدة . واختلفوا فيمن تزوج امرأة فى عدتها فدخل بها فانه يفرق بينهما وهل تحرم عليه أبدا ؟ على قولين : الجمهور على أنها لاتحرم عليه بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها . وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد واحتج فى ذلك بما رواه عن ابن شهاب وسليمان بن يسار أن عمر رضى الله عنه قال : أيما امرأة نكحت فى عدتها فان كان زوجها الذى تزوج بها لم يدخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول وكان خاطبا من الخطاب وإن كان دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول ثم اعتدت من الآخر ثم لم ينكحها أبدا ، قالوا . ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أجل الله عوقب بنقيض قصده فحرمت عليه على التأبيد كالقاتل يحرم الميراث . وقد روى الشافعى هذا الأثر عن مالك . قال البيهقى . وذهب اليه فى القديم ورجع عنه فى الجديد لقول على انها تحل له (قلت) قال . ثم هو منقطع عن عمر . وقد روى الثورى عن أشعث عن الشعبى عن مسروق أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان .

وقوله (واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه) توعدهم على مايقع فى ضمائرهم من أمور النساء وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ثم لم يؤيسهم من رحمته ولم يقنطهم من عائدته فقال (واعلموا أن الله غفور رحيم) .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها . قال ابن عباس وطاوس وإبراهيم والحسن البصرى : المس النكاح بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها إن كانت مفوضة وإن كان فى هذا انكسار لقلبها ولهذا أمر تعالى بامتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشىء تعطاه من زوجها بحسب حاله على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال سفيان الثورى عن إسماعيل بن أمية عن عكرمة عن ابن عباس قال . متعة الطلاق أعلاه الخادم ودون ذلك الورق ودون ذلك الكسوة . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس . إن كان موسرا متعها بخادم أو نحو ذلك وإن كان معسرا أمتعها بثلاثة أثواب . وقال الشعبى أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب قال . وكان شريح يمتع

بخمسمائة . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب بن سيرين قال . كان يمتع بالخادم أو بالنفقة أو بالكسوة . قال . ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف ويروى أن المرأة قالت* متاع قليل من حبيب مفارق * وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعي في الجديد . لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل مايقع عليه اسم المتعة وأحب ذلك إليّ أن يكون أقله ماتجزئ فيه الصلاة وقال في القديم لا أعرف في المتعة قدراً إلا أني أستحسن ثلاثين درهما كما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما . وقد اختلف العلماء أيضاً هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها على أقوال : أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) ولقوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميعا) وقد كن مفروضا لهن ومدخولا بهن وهذا قول سعيد بن جبير وأبي العالية والحسن البصري وهو أحد قولي الشافعي . ومنهم من جعله الجديد الصحيح والله أعلم .

(والقول الثاني) انها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضا لها لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) قال شعبة وغيره عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة وقد روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد وأبي أسيد أنهما قالا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أميمة بنت شرحبيل فلما أدخلت عليه بسط يده اليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين (والقول الثالث) ان المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها فان كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره فان دخل بها استقر الجميع وكان ذلك عوضا لها عن المتعة وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها وهذا قول ابن عمر ومجاهد ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول وهذا ليس بمنكور وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ولهذا قال تعالى (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين * وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) ومن العلماء من يقول إنها مستحبة مطلقا . قال ابن أبي حاتم . حدثنا كثير بن شهاب القزويني حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا عمرو — يعني ابن أبي قيس — عن أبي إسحق عن الشعبي قال . ذكروا له المتعة أيحبس فيها فقرأ (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) قال الشعبي . والله مارأيت أحداً حبس فيها والله لوكانت واجبة لحبس فيها القضاة .

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول فانه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها لاسيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية والله أعلم وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء لاخلاف بينهم في ذلك فانه متى كان قد سمى لها صداقا ثم فارقها قبل دخوله بها فانه يجب لها نصف ماسمى من الصداق الا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها وهومذهب الشافعي في القديم وبه حكم الخلفاء الراشدون لكن قال الشافعي : أخبرنا مسلم بن خالد أخبرنا ابن جريج عن ليث بن أبي سليم عن طاوس عن ابن عباس أنه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها . ليس لها إلا نصف الصداق لان الله يقول (وإن طلقتموهن من قبل تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) قال الشافعي بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب قال البيهقي وليث بن

أبي سليم وإن كان غير محتج به فقد رويناه من حديث ابن أبي طلحة عن ابن عباس فهو مقوله

وقوله (إلا أن يعفون) أي النساء عما وجب لها على زوجها فلا يجب لها عليه شيء قال السدى عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (إلا أن يعفون) قال : إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها . قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله وروى عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والشعبي والحسن ونافع وقتادة وجابر بن زيد وعطاء الخراساني والضحاك والزهري ومقاتل بن حيان وابن سيرين والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك . قال : وخالفهم محمد بن كعب القرظي فقال (إلا أن يعفون) يعني الرجال وهو قول شاذ لم يتابع عليه انتهى كلامه .

وقوله (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) قال ابن أبي حاتم . ذكر عن ابن لهيعة حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « ولي عقدة النكاح الزوج » وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة به وقد أسنده ابن جرير عن ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — فذكره ولم يقل عن أبيه عن جده فالله أعلم ثم قال ابن أبي حاتم وحدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا جابر يعني ابن أبي حازم عن عيسى يعني ابن عاصم قال : سمعت شريحا يقول سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح فقلت له هو ولي المرأة فقال علي : لا بل هو الزوج ثم قال وفي إحدى الروايات عن ابن عباس وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح في أحد قوليه وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعكرمة ونافع ومحمد بن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وجابر بن زيد وأبي مجلز والربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان أنه الزوج (قلت) وهذا هو الجديد من قولي الشافعي ومذهب أبي حنيفة وأصحابه والثوري وابن شبرمة والأوزاعي واختاره ابن جرير ومأخذ هذا القول أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج فان بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها وكما أنه لا يجوز للولي أن يهب شيئا من مال المولية للغير فكذلك في الصداق قال والوجه الثاني حدثنا أبي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عمرو بن دينار عن ابن عباس — في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح — قال ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا باذنه وروى عن علقمة والحسن وعطاء وطاوس والزهري وربيعة وزيد بن أسلم وإبراهيم النخعي وعكرمة في أحد قوليه ومحمد بن سيرين في أحد قوليه أنه الولي وهذا مذهب مالك وقول الشافعي في القديم ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها وقال ابن جرير : حدثنا سعيد بن الربيع الرازي حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال : أذن الله في العفو وأمر به فأي امرأة عفت جاز عفوها فان شحت وضنت عفا وليها[1] جاز عفوه وهذا يقتضي صحة عفو الولي وإن كانت شديدة وهو مروى عن شريح لكن أنكر عليه الشعبي فرجع عن ذلك وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه .

وقوله (وأن تعفوا أقرب للتقوى) قال ابن جرير قال بعضهم : خوطب به الرجال والنساء حدثني يونس أنبأنا ابن وهب سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس (وأن تعفوا أقرب للتقوى) قال أقربهما للتقوى الذي يعفو وكذا روى عن الشعبي وغيره وقال مجاهد والنخعي والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثوري : الفضل ههنا أن تعفو المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها ولهذا قال (ولا تنسوا الفضل بينكم) أي الإحسان قاله سعيد وقال الضحاك وقتادة والسدى وأبو وائل المعروف يعني لا تهملوه بل استعملوه بينكم وقد قال أبو بكر ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا موسى بن إسحق حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا يونس بن بكير حدثنا عبد الله بن الوليد الرصافي عن عبد الله بن عبيد عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال ليأتين على الناس زمان عضوض يعض المؤمن على ما في يديه وينسى الفضل وقد قال الله تعالى (ولا تنسوا الفضل بينكم) « شرار يبايعون كل مضطر » وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع المضطر وعن بيع الغرر فان كان عندك خير فعد به على أخيك ولا تزده هلاكا إلى هلاكه فان المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه . وقال سفيان عن أبي هرون قال رأيت عون بن عبد الله في مجلس القرظي فكان عون يحدثنا ولحيته ترش من البكاء ويقول صحبت الأغنياء فكنت من

(١) الظاهر أن أصله : وعفا وليها — وفي نسخة الأزهر : عفا وليها وجاز عفوه .

أكثرهم هما حين رأيتهم أحسن ثيابا وأطيب ريحا وأحسن مركبا وجالست الفقراء فاسترحت بهم وقال (ولا تنسوا الفضل بينكم) إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدع له رواه ابن أبي حاتم (إن الله بما تعملون بصير) أي لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم وسيجزي كل عامل بعمله .

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة في وقتها » قلت ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قلت ثم أي ؟ قال « بر الوالدين » قال : حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني وقال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا ليث عن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم عن القاسم بن غنام عن جدته أم أبيه الدنيا عن جدته أم فروة وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم ذكر الأعمال فقال « إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة لأول وقتها » وهكذا رواه أبو داود والترمذي وقال لا نعرفه إلا من طريق العمري وليس بالقوي عند أهل الحديث وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى وقد اختلف السلف والخلف فيها أي صلاة هي فقيل إنها الصبح حكاه مالك في الموطأ بلاغا عن علي وابن عباس وقال هشيم وابن علية وغندر وابن أبي عدي وعبد الوهاب وشريك وغيرهم عن عوف الاعرابي عن أبي رجاء العطاردي قال : صليت خلف ابن عباس الفجر فقنت فيها ورفع يديه ثم قال : هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين رواه ابن جرير ورواه أيضا من حديث عوف عن خلاس بن عمرو عن ابن عباس مثله سواء وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا عوف عن أبي المنهال عن أبي العالية عن ابن عباس أنه صلى الغداة في مسجد البصرة فقنت قبل الركوع وقال هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) وقال أيضا حدثنا محمد بن عيسى الدامغاني أخبرنا ابن المبارك أخبرنا الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : صليت خلف عبد الله ابن قيس بالبصرة صلاة الغداة فقلت لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانبي ما الصلاة الوسطى قال : هذه الصلاة . وروى من طريق أخرى عن الربيع عن أبي العالية أنه صلى مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغداة فلما فرغوا قال قلت لهم أيتهن الصلاة الوسطى ؟ قالوا التي قد صليتها قبل . وقال أيضا حدثنا ابن بشار حدثنا ابن عثمة عن سعيد بن بشير عن قتادة عن جابر بن عبد الله قال : الصلاة الوسطى صلاة الصبح وحكاه ابن أبي حاتم عن ابن عمر وأبي أمامة وأنس وأبي العالية وعبيد بن عمير وعطاء ومجاهد وجابر بن زيد وعكرمة والربيع بن أنس ورواه ابن جرير عن عبد الله بن شداد بن الهاد أيضا وهو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله محتجا بقوله تعالى (وقوموا لله قانتين) والقنوت عنده في صلاة الصبح ومنهم من قال هي وسطى باعتبار أنها لا تقصر وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين وترد المغرب وقيل لأنها بين صلاتي ليل جهريتين وصلاتي نهار سريتين وقيل إنها صلاة الظهر قال أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا ابن أبي ذئب عن الزبرقان يعني ابن عمرو عن زهرة يعني ابن معبد قال : كنا جلوسا عند زيد بن ثابت فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى فقال هي الظهر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليها بالهجير وقال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثني عمرو بن أبي حكيم سمعت الزبرقان يحدث عن عروة بن الزبير عن زيد ابن ثابت قال : كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فنزلت (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) وقال إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين . ورواه أبو داود في سننه من حديث شعبة به وقال أحمد أيضا : حدثنا يزيد حدثنا ابن أبي وهب عن الزبرقان أن رهطا من قريش مر بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون فأرسلوا اليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى فقال هي

العصر فقام إليه رجلان منهم فسألاه فقال . هى الظهر . ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه فقال : هى الظهر إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى الظهر بالهجير فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان والناس فى قائلتهم وفى تجارتهم فأنزل الله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لينتهين رجال أو لأحرقن بيوتهم » والزبرقان هو ابن عمرو بن أمية الضمرى لم يدرك أحداً من الصحابة والصحيح ما تقدم من روايته عن زهرة بن معبد وعروة بن الزبير وقال شعبة وهمام عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن زيد بن ثابت قال : الصلاة الوسطى صلاة الظهر . وقال أبو داود الطيالسى وغيره عن شعبة أخبرنى عمر ابن سليمان من ولد عمر بن الخطاب قال سمعت عبدالرحمن بن أبان بن عثمان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى هى الظهر ورواه ابن جرير عن زكريا بن يحيى بن أبى زائدة عن عبدالصمد عن شعبة عن عمر بن سليمان عن زيد ابن ثابت فى حديث رفعه قال « الصلاة الوسطى صلاة الظهر » وممن روى عنه أنها الظهر ابن عمر وأبو سعيد وعائشة على اختلاف عنهم وهو قول عروة بن الزبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ورواية عن أبى حنيفة رحمهم الله وقيل إنها صلاة العصر قال الترمذى والبغوى رحمهما الله وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم وقال القاضى الماوردى هو قول جمهور التابعين وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر هو قول أكثر أهل الأثر وقال أبو محمد بن عطية فى تفسيره وهو قول جمهور الناس وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى فى كتابه المسمى بكشف الغطا فى تبيين الصلاة الوسطى وقد نص فيه أنها العصر وحكاه عن عمر وعلى وابن مسعود وأبى أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبى هريرة وأبى سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عمر وابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم وبه قال عبيدة وإبراهيم النخعى ورزين وزر بن حبيش وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وقتادة والضحاك والكلبى ومقاتل وعبيد بن مريم وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل قال القاضى الماوردى والشافعى قال ابن المنذر وهو الصحيح عن أبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد واختاره ابن حبيب المالكى رحمهم الله

ذكر الدليل على ذلك — قال الإمام أحمد :حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم عن شتير بن شكل عن على قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً » ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء ، وكذا رواه مسلم من حديث أبى معاوية محمد بن حازم الضرير والنسائى من طريق عيسى بن يونس كلاهما عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن أبى الضحى عن شتير بن شكل بن حميد عن على ابن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم مثله ، وقد رواه مسلم أيضاً من طريق شعبة عن الحكم بن عينية عن يحيى ابن الجزار عن على بن أبى طالب وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وغير واحد من أصحاب المساند والسنن والصحاح من طرق يطول ذكرها عن عبيدة السلمانى عن على به ورواه الترمذى والنسائى من طريق الحسن البصرى عن على به قال الترمذى : ولا يعرف سماعه منه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن عاصم عن زر قال قلت لعبيدة سل علياً عن الصلاة الوسطى فسأله فقال : كنا نراها الفجر أو الصبح حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وأجوافهم أو بيوتهم ناراً » ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدى به . وحديث يوم الأحزاب وشغل المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن أداء الصلاة العصر يومئذ مروى عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم وإنما المقصود رواية من نص منهم فى روايته أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر . وقد رواه مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود والبراء بن عاذب رضى الله عنهما (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال « صلاة الوسطى صلاة العصر » وحدثنا بهز وعفان قالا . حدثنا أبان حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) وسماها لنا أنها هى صلاة العصر وحدثنا محمد بن جعفر وروح قالا : حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال « هى

العصر » قال ابن جعفر : سئل عن صلاة الوسطى ورواه الترمذى من حديث سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة وقال : حسن صحيح : وقد سمع منه حديث آخر وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن منيع حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن التيمى عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الصلاة الوسطى صلاة العصر » (طريق أخرى بل حديث آخر) قال ابن جرير وحدثنى المثنى حدثنا سليمان بن أحمد الجرشى الواسطى حدثنا الوليد بن مسلم قال أخبرنى صدقة بن خالد حدثنى خالد بن دهقان عن خالد بن سيلان عن كهيل بن حرملة قال سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى فقال . اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ وفينا الرجل الصالح أبوهاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فقال : أنا أعلم لكم ذلك فقام فاستأذن على رسول الله ﷺ فدخل عليه ثم خرج إلينا فقال أخبرنا أنها صلاة العصر . غريب من هذا الوجه جداً (حديث آخر) قال ابن جرير . حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد السلام عن مسلم مولى أبى جبير حدثنى إبراهيم بن يزيد الدمشقى قال : كنت جالسا عند عبد العزيز بن مروان فقال يا فلان اذهب إلى فلان فقل له : أى شىء سمعت من رسول الله ﷺ فى الصلاة الوسطى ؟ فقال رجل جالس : أرسلنى أبو بكر وعمر وأنا غلام صغير أسأله عن الصلاة الوسطى فأخذ اصبعى الصغيرة فقال « هذه صلاة الفجر » وقبض التى تليها فقال « هذه الظهر » ثم قبض الابهام فقال « هذه المغرب » ثم قبض التى تليها فقال « هذه العشاء » ثم قال « أى أصابعك بقيت » فقلت الوسطى فقال « أى الصلاة بقيت ؟ » فقلت العصر فقال « هى العصر » غريب أيضاً جداً (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنى محمد بن عوف الطائى حدثنا محمد بن إسماعيل ابن عياش حدثنى أبى حدثنى أبو ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة الوسطى صلاة العصر » إسناده لا بأس به (حديث آخر) قال أبو حاتم بن حبان فى صحيحه حدثنا أحمد بن يحى بن زهير حدثنا الجراح بن مخلد حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا هام بن مورق العجلى عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « صلاة الوسطى صلاة العصر » وقد روى الترمذى من حديث محمد ابن طلحة بن مصرف عن زبيد اليامى عن مرة الهمدانى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « صلاة الوسطى صلاة العصر » ثم قال حسن صحيح وأخرجه مسلم فى صحيحه من طريق محمد بن طلحة به ولفظه « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » الحديث فهذه نصوص فى المسأله لا تحتمل شيئاً ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها وقوله ﷺ فى الحديث الصحيح من رواية الزهرى عن سالم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » وفى الصحيح أيضاً من حديث الأوزاعى عن يحى بن أبى كثير عن أبى قلابة عن أبى كثير عن أبى المهاجر عن بريدة بن الحصيب عن النبى ﷺ قال « بكروا بالصلاة فى يوم الغيم فانه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » وقال الإمام أحمد : حدثنا يحى بن إسحق أخبرنا ابن لهيعة عن عبدالله ابن هبيرة عن أبى تميم عن أبى نضرة الغفارى قال : صلى بنا رسول الله ﷺ فى واد من أوديتهم يقال له الحميص[1] صلاة العصر فقال « إن هذه الصلاة عرضت على الذين من قبلكم فضيعوها ألا ومن صلاها ضعف له أجره مرتين ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد » ثم قال رواه عن يحى بن إسحق عن الليث عن جبير بن نعيم عن عبد الله ابن هبيرة به وهكذا رواه مسلم والنسائى جميعاً عن قتيبة عن الليث ورواه مسلم أيضاً من حديث محمد بن إسحق حدثنى يزيد بن أبى حبيب كلاهما عن جبير بن نعيم الحضرمى عن عبد الله بن هبيرة السبائى به فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد أيضاً حدثنا إسحق أخبرنى مالك عن زيد بن أسلم عن القعقاع بن حكيم عن أبى يونس مولى عائشة قال : أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفا قالت . إذا بلغت هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فآذنى فلما بلغتها آذنتها فأملت على (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) قالت سمعتها من رسول الله ﷺ وهكذا رواه مسلم عن يحى بن يحى عن مالك به . وقال ابن جرير . حدثنى ابن المثنى حدثنا الحجاج حدثنا حماد عن هشام بن عروة عن أبيه قال . كان فى مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى

(١) فى نسخة الازهر يقال له : المخصص .

صـلاة العصر) وهكذا رواه من طريق الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك وقد روى الامام مالك أيضا عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع قال كنت أكتب مصحفا لحفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فقالت إذا بلغت هذه الآية فآذنى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فلما بلغتها آذنتها فأملت على (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصـلاة العصر وقوموا لله قانتين) وهكذا رواه محمد بن إسحق بن يسار فقال حدثنى أبو جعفر محمد بن على ونافع مولى بن عمر أن عمر بن نافع قال فذكر مثله وزاد كما حفظتها من النبى ﷺ (طريق أخرى عن حفصة) قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن عبد الله ابن يزيد الأزدى عن سالم بن عبد الله أن حفصة أمرت إنسانا أن يكتب لها مصحفا فقالت إذا بلغت هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فآذنى فلما بلغ آذنها فقالت اكتب (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر) (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثنى ابن المثنى حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيدالله عن نافع أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفا فقالت إذ بلغت هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها فلما بلغتها أمرته فكتبها (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) قال نافع فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو وكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهما قرآ كذلك وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبيدة حدثنا محمد بن عمرو حدثنى أبو سلمة عن عمرو بن رافع مولى عمر قال كان فى مصحف حفصة (حافظوا على الصلوات والصلاة الواسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التى تقتضى المغايرة فدل ذلك على أنها غيرها وأجيب عن ذلك بوجوه (أحدها) أن هذ إن روى على أنه خبر فحديث على أصح وأصرح منه وهـذا يحتمل أن تكون الواو زائدة كما فى قوله (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين * وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات كقوله (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وكقوله (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى) وأشباه ذلك كثيرة وقال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وقال أبو داود الايادى :

سلط الموت والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام

والموت هو المنون قال عدى بن زيد[1] العبادى :

فقددت الأديم لراهشيه فألفى قولها كذبا ومينا

والكذب هو المين وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل مررت بأخيك وصاحبك ويكون الصاحب هو الأخ نفسه والله أعلم وأما إن روى على أنه قرآن فانه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ولهـذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فى المصحف ولاقرأ بذلك أحـد من القراء الذين تثبت الحجـة بقراءتهم لامن السبعة ولا من غـيرهم . ثم قد روى مايدل على نسخ هـذه التلاوة المذكورة فى هـذا الحديث قال مسلم : حدثنا إسحق بن راهويه أخبرنا يحي بن آدم عن فضيل بن مرزوق عن شقيق بن عقبة عن البراء بن عازب قال: نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على رسول الله ﷺ ماشاء الله ثم نسخها الله عز وجل فأنزل (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فقال له زاهر رجل كان مع شقيق : أفهى العصر ؟ قال قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله عزوجل قال مسلم : ورواه الأشجعى عن الثورى عن الأسود عن شقيق قلت وشقيق هذا لم يرو له مسلم سوى هذا الحديث الواحد والله أعلم فعلى هـذا تكون هـذه التلاوة وهى تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ولمعناها إن كانت الواو دالة على المغايرة وإلا فلفظها فقط والله أعلم .

وقيل إن الصلاة الواسطى هى صلاة المغرب رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وفى إسناده نظر فانه رواه عن أبيه عن أبى الجماهر عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى الخليل عن عمه عن ابن عباس قال . صلاة الوسطى المغرب

(١) فى نسخة الأزهر زيد بن عدى .

وحكى هذا القول ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب وحكى أيضا عن قتادة على اختلاف عنه ووجه هـذا القول بعضهم بأنها وسطى فى العدد بين الرباعية والثنائية وبأنها وتر المفروضات وبما جاء فيها من الفضيلة والله أعلم .

وقيـل إنها العشاء الأخـيرة اختاره على بن أحمد الواحـدى فى تفسيره المشهور وقيل هى واحدة من الخمس لا بعينها وأبهمت فيهن كما أبهمت ليلة القدر فى الحول أو الشهر أو العشر ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب وشريح القاضى ونافع مولى ابن عمر والربيع بن خيثم ونقل أيضا عن زيد بن ثابت واختاره إمام الحرمين الجوينى فى نهايته

وقيل بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر وفى صحته أيضا نظر والعجب أن هـذا القول اختـاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمرى إمام ماوراء البحر وإنها لاحـدى الـكبر إذ اختاره مع اطلاعه وحفظه مالم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولاأثر وقيل إنها صلاة العشاء وصـلاة الفجر . وقيـل بل هى صـلاة الجماعة وقيل صلاة الجمعة وقيل صلاة الخوف وقيل بل صلاة عيد الفطر وقيل بل صـلاة الأضحى وقيل الوتر وقيـل الضحى وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ولم يقع الإجماع على قول واحد بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة وإلى الآن قال ابن جرير . حدثنى محمد بن بشار وابن مثنى قالا : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال : سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين فى الصـلاة الوسطى هـكذا وشبك بين أصابعه وكل هـذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التى قبلها وإنمـا المدار ومعترك النزاع فى الصبح والعصر وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها . وقد روى الامام أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى رحمهما الله فى كتاب الشافعى رحمه الله حدثنا أبى سمعت حرملة ابن يحيى اللخمى يقول قال الشـافعى كل ماقلت فـكان عن النبى ﷺ بخلاف قولى مما يصح فحديث النبى ﷺ أولى ولاتقلدونى وكذا روى الربيع والزعفرانى وأحمد بن حنبل عن الشافعى وقال موسى أبو الوليد بن أبى الجارود عن الشافعى إذا صح الحديث وقلت قولا فأنا راجع عن قولى وقائل بذلك فهذا من سيادته وأمانته وهذا نفس إخوانه من الأئمة رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين آمين ومن ههنا قطع القاضى المـاوردى بأن مذهب الشافعى رحمه الله أن صلاة الوسطى هى صلاة العصر وإن كان قد نص فى الجديد وغيره أنها الصبح لصحة الأحاديث أنها العصر وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثى المذهب ولله الحمد والمنة : ومن الفقهاء فى المذهب من ينكر أن تكون هى العصر مذهب[1] الشافعى وصمموا على أنها الصبح قولا واحدا . قال الماوردى : ومنهم من حكى فى المسألة قولين ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا وقد أفردناه على حدة ولله الحمد والمنة .

وقوله تعالى (وقوموا لله قانتين) أى خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه وهـذا الأمر مستلزم ترك الـكلام فى الصلاة لمنـافاته إياها ولهذا لما امتنع النبى ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو فى الصـلاة اعتـذر إليه بذلك وقال « إن فى الصلاة لشغلا » وفى صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعـاوية بن الحـكم السلمى حين تكلم فى الصلاة « إن هذه الصلاة لايصلح فيها شىء من كلام الناس إنما هى التسبيح والتكبير وذكر الله » وقال الامام أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل حدثنى الحارث بن شبيل عن أبى عمرو الشيبانى عن زيد بن أرقم قال : كان الرجل يكلم صاحبه فى عهـد النبى ﷺ فى الحاجة فى الصلاة حتى نزلت هـذه الآية (وقوموا لله قانتين) فأمرنا بالسكوت رواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن اسماعيل به وقد أشكل هذا الحديث على جمـاعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام فى الصلاة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة كما دل على ذلك حـديث ابن مسعود الذى فى الصحيح قال : كنا نسلم على النبى ﷺ قبـل أن نهاجر إلى الحبشة وهو فى الصلاة فيرد علينا قال فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد على فأخذنى ماقرب وما بعد فلما سلم قال « إنى لم أرد عليك إلا أنى كنت فى الصلاة وإن الله يحـدث من أمره مايشاء وإن مما أحدث أن لاتكلموا فى الصلاة » وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم فهاجر إلى المدينة وهذه الآية

(١) فى نسخة الأزهر مذهبا الشافعى .

(وقوموا لله قانتين) مدنيـة بلا خلاف فقال قائلون إنمـا أراد زيد بن أرقم بقوله كان الرجل يكلم أخاه فى حاجته فى الصلاة الاخبار عن جنس الكلام واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها والله أعلم . وقال آخرون إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها ويكون ذلك قد أبيح مرتين وحرم مرتين كما اختارذلك قوم من أصحابنا وغيرهم والأول أظهر والله أعلم . وقال الحافظ أبو يعلى : أخبرنا بشر بن الوليد أخبرنا إسحق بن يحيى عن المسيب عن ابن مسعود قال : كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه فلم يرد على فوقع فى نفسى أنه نزل فى شىء فلما قضى النبى ﷺ صلاته قال « وعليك السلام أيها المسلم ورحمة الله إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء فإذا كنتم فى الصلاة فاقنتوا ولا تكلموا » وقوله (فان خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون) لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذى يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل وهى حال القتال والتحام الحرب فقال (فإن خفتم فرجالا أو ركبانا) أى فصلوا على أى حال كان رجالا أو ركبانا يعنى مستقبلى القبلة وغير مستقبليها كما قال مالك عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ثم قال فان كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا على أقدامهم أو ركبانا مستقبلى القبلة أو غير مستقبليها. قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ ورواه البخارى وهذا لفظ مسلم ورواه البخارى أيضاً من وجه آخر عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ نحوه أو قريبا منه ، ولمسلم أيضاً عن ابن عمر قال: فان كان خوف أشد من ذلك فصل راكبا أو قائما تومىء إيماء . وفى حديث عبد الله بن أنيس الجهنى لما بعثه النبى ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلى ليقتله وكان نحو عرفة أو عرفات فلما واجهه حانت صلاة العصر قال فخشيت أن تفوتنى فجعلت أصلى وأنا أومىء إيماء — الحديث بطوله رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد وهذا من رخص الله التى رخص لعباده ووضعه الآصار والأغلال عنهم ، وقد روى ابن أبى حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال : فى هذه الآية يصلى الراكب على دابته والراجل على رجليه. قال وروى عن الحسن ومجاهد ومكحول والسدى والحكم ومالك والأوزاعى والثورى والحسن بن صالح نحو ذلك — وزاد ويومىء برأسه أينما توجه ثم قال : حدثنا أبى حدثنا غسان حدثنا داود يعنى ابن علية عن مطرف عن عطية عن جابر بن عبد الله قال : إذا كانت المسايفة فليومىء برأسه إيماء حيث كان وجهه فذلك قوله (فرجالا أو ركبانا) وروى عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعطية والحكم وحماد وقتادة نحو ذلك وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل فى بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان وعلى ذلك ينزل الحديث الذى رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن جرير من حديث أبى عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكرى - زاد مسلم والنسائى وأيوب بن عائذ - كلاهما عن بكير بن الأخنس الكوفى عن مجاهد عن ابن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ فى الحضر أربعا وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة وبه قال الحسن البصرى وقتادة والضحاك وغيرهم .وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا ابن مهدى عن شعبة قال : سألت الحكم وحمادا وقتادة عن صلاة المسايفة فقالوا : ركعة وهكذا روى الثورى عنهم سواء وقال ابن جرير أيضاً حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية بن الوليد حدثنا المسعودى حدثنا يزيد الفقير عن جابر بن عبد الله قال: صلاة الخوف ركعة . واختار هذا القول ابن جرير وقال البخارى (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو) وقال الأوزاعى : إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء كل امرىء لنفسه فان لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنوا فيصلوا ركعتين فان لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين فان لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا وبه قال مكحول وقال أنس بن مالك : حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبى موسى ففتح لنا قال أنس : وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها . هذا لفظ البخارى ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره صلى الله

عليه وسلم صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلىغيبوبةالشمس ، وبقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بنى قريظة « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » فمنهم من أدركته الصلاة فى الطريق فصلوا وقالوالم يردمنا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ومنهم من أدركته فلم يصل إلىأن غربت الشمس فى بنى قريظة فلم يعنف واحداًمن الفريقين وهذا يدل على اختيار البخارى لهذا القول والجمهور على خلافه ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التى ورد بها القرآن فى سورة النساء ووردت بها الأحاديث لم تكنمشروعة فىغزوة الخندق وإنما شرعت بعد ذلك وقد جاءمصرحا بهذافى حديث أبى سعيد وغيره وأما مكحول والأوزاعى والبخارى فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافى جواز ذلك لأن هذا حال نادر خاص فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمن عمر فى فتح تستر وقد اشتهرولم ينكر والله أعلم

وقوله (فإذا أمنتم فاذكروا الله) أى أقيموا صلاتكم كما أمرتم فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها (كما علمكم مالم تكونوا تعلمون) أى مثلما أنعم عليكم وهداكم للايمان وعلمكم ما ينفعكم فىالدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر كقوله بعد ذكر صلاة الخوف (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وستأتى الأحاديث الواردة فىصلاة الخوف وصفاتها فى سورة النساء عند قوله تعالى (وإذا كنت فيهمفأقمت لهم الصلاة) الآية

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قال الأكثرون هذه الآية منسوخة بالتى قبلها وهى قوله (يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) قال البخارى حدثنا أميةحدثنا يزيد بن زريع عن حبيب عن ابن أبى مليكة قال ابن الزبير : قلت لعثمان بن عفان (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أوتدعها قال . يا ابن أخى لا أغير شيئاً منه من مكانه . ومعنى هذا الاشكال الذى قاله ابنالزبير لعثمان إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة فى إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التى نسختها يوهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفى وأنا وجدتها مثبتة فى المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها : قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج ابن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس فى قوله (والذين يتوفون منكمويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها فى الدار سنة فنسختها آية المواريث فجعللهن الثمن أوالربع مما ترك الزوج ثمقال: وروى عنأبى موسى الأشعرى وابن الزبير ومجاهد وإبراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وزيد بن أسلم والسدى ومقاتل بن حيان وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس أنها منسوخة وروى من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته ينفق عليها من ماله ثم أنزل الله بعد(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) فهذه عدة المتوفى عنها زوجها إلا أن تكون حاملا فعدتها أن تضع مافى بطنها وقال (ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم) فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة قال : وروى عن مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان قالوا نسختها (أربعة أشهر وعشرا) قال : وروى عن سعيد ابن المسيب قال نسختها التى فى الأحزاب (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) الآية (قلت) وروى عن مقاتل وقتادة أنها منسوخة بآية الميراث وقال البخارى حدثنا إسحق بن منصور حدثنا روح حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن

مجاهد (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) قال كانت هذه للمعتدة تعتدعندأهل زوجها واجب فأنزل الله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) قال : جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت وهو قول الله (غير إخراج فان خرجن فلا جناح عليكم) فالعدة كما هى واجب عليها زعم ذلك عن مجاهد رحمه الله وقال عطاء قال ابن عباس نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها فتعتد حيث شاءت وهو قول الله تعالى (غير إخراج) قال عطاء : إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت لقول الله (فلاجناح عليكم فيما فعلن) قال عطاء . ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت ولا سكنى لها ثم أسند البخارى عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه بهذا القول الذى عول عليه مجاهد وعطاء من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كمازعمه الجمهورحتى يكون ذلك منسوخا بالأربعة الأشهر وعشر وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يمكن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا إن اخترن ذلك ولهذا قال (وصية لأزواجهم) أى يوصيكم الله بهن وصية كقوله (يوصيكم الله فى أولادكم) الآية وقوله (وصية من الله) وقيل إنما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية وقرأ آخرون بالرفع وصية على معنى كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير ولا يمنعن من ذلك لقوله (غير إخراج) فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر أو بوضع الحمل واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فانهن لا يمنعن من ذلك لقوله (فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) وهذا القول له اتجاه وفى اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلم وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب فى تركة الميت فهذا محل خلاف بين الأئمة وهما قولان للشافعى رحمه الله وقد استدلوا على وجوب السكنى فى منزل الزوج بما رواه مالك فى موطئه عن سعد بن إسحق ابن كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهى أخت أبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله أن ترجع إلى أهلها فى بنى خدرة فان زوجها خرج فى طلب أعبدله أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت : فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرجع إلى أهلى فى بنى خدرة فان زوجى لم يتركنى فى مسكن يملكه ولا نفقة ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » قالت فانصرفت حتى إذا كنت فى الحجرة نادانى رسول الله ﷺ أو أمرنى فنوديت له فقال « كيف قلت ؟ » فرددت عليه القصة التى ذكرت له من شأن زوجى فقال « امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى فسألنى عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به وكذا رواه أبوداود والترمذى والنسائى من حديث مالك به . ورواه النسائى أيضاً وابن ماجه من طرق عن سعد بن إسحق به وقال الترمذى حسن صحيح .

وقوله (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل قوله تعالى (متاعا بالمعروف حقاً على المحسنين) قال رجل : إن شئت أحسنت ففعلت وإن شئت لم أفعل فأنزل الله هذه الآية (وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضا لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولا بها وهو قول عن الشافعى رحمه الله وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير ومن لم يوجبها مطلقا يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى (لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة ومتعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقاً على المحسنين) وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم فلا تخصيص على المشهور المنصور والله أعلم .

وقوله (كذلك يبين الله لكم آياته) أى فى إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه بينه ووضحه وفسره ولم يتركه مجملا فى وقت احتياجكم اليه (لعلكم تعقلون) أى تفهمون وتتدبرون

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

روى عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف وعنه كانوا ثمانية آلاف وقال أبو صالح . تسعة آلاف وعن ابن عباس أربعون ألفا . وقال وهب بن منبه وأبو مالك . كانوا بضعة وثلاثين ألفا . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كانوا أهل قرية يقال لها ذاوردان . وكذا قال السدى وأبو صالح وزاد من قبل واسط ، وقال سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات ، وقال ابن جريج عن عطاء قال : هذا مثل[1] وقال على بن عاصم . كانوا من أهل ذاوردان قرية على فرسخ من قبل واسط . وقال وكيع بن الجراح فى تفسيره ، حدثنا سفيان عن ميسرة بن حبيب النهدى عن المنهال بن عمرو الأسدى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) قال . كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون قالوا : نأتى أرضاً ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم (موتوا) فماتوا فمر عليهم نبى من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية . وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة فى زمان بنى إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فرارا من الموت هاربين إلى البرية فنزلوا واديا أفيح فملأوا ما بين عدوتيه فأرسل الله اليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد فحيزوا إلى حظائر وبنى عليهم جدران وفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر مر بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له حزقيل فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يقول : أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعى ، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض ، ثم أمره فنادى أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحماً وعصباً وجلدا ، فكان ذلك وهو يشاهده ، ثم أمره فنادى أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره فقاموا أحياء ينظرون . قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون سبحانك لا إله إلا أنت وكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة ولهذا قال (إن الله لذو فضل على الناس) أى فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم فى دينهم ودنياهم . وفى هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغنى حذر من قدر وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه فان هؤلاء خرجوا فرارا من الوباء طلباً لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعا فى آن واحد . ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى أخبرنا مالك وعبد الرزاق أخبرنا معمر كلاهما عن الزهرى عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام فذكر الحديث فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا لبعض حاجته فقال : إن عندى من هذا علما ، سمعت رسول الله ﷺ يقول . « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف ، وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى به بطريق أخرى لبعضه قال أحمد حدثنا حجاج ويزيد العمى قالا أخبرنا ابن أبى ذئب عن الزهرى عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو فى

(١) يعنى أنها ضرب مثل لا قصة وقعت .

الشام عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فاذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً » قال فرجع عمر من الشام ، وأخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك عن الزهرى بنحوه . وقوله (وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) أى كما أن الحذر لايغنى من القدر كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلا ولا يبعده بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ولا ينقص منه كما قال تعالى (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ماقتلوا ، قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) وقال تعالى (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ،قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) وروينا عن أمير الجيوش ومقدم العساكر وحامى حوزة الاسلام وسيف الله المسلول على أعدائه أبى سليمان خالد بن الوليد رضى الله عنه أنه قال وهو فى سياق الموت : لقد شهدت كذا وكذا موقفا وما من عضو من أعضائى إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء — يعنى أنه يتألم لكونه مامات قتيلا فى الحرب ويتأسف على ذلك ويتألم أن يموت على فراشه . وقوله (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) يحث تعالى عباده على الانفاق فى سبيل الله وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع ، وفى حديث النزول أنه يقول تعالى « من يقرض غير عديم ولا ظلوم » وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال . « نعم يا أبا الدحداح » قال أرنى يدك يارسول الله . قال فناوله يده قال : فانى قد أقرضت ربى عز وجل حائطى قال وحائط له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها قال فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت لبيك قال اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل وقد رواه ابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضى الله عنه مرفوعا بنحوه وقوله (قرضا حسنا) روى عن عمر وغيره من السلف هو النفقة فى سبيل الله وقيل هو النفقة على العيال وقيل هو التسبيح والتقديس وقوله (فيضاعفه له أضعافا كثيرة) كما قال تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) الآية وسيأتى الكلام عليها وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا مبارك بن فضالة عن على بن زيد عن أبى عثمان النهدى قال أتيت أبا هريرة رضى الله عنه فقلت له إنه بلغنى أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة قال وما أعجبك من ذلك لقد سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة » هذا حديث غريب وعلى بن زيد بن جدعان عنده مناكير لكن رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد المؤدب حدثنا يونس بن محمد المؤدب حدثنا محمد بن عقبة الرفاعى(١) عن زياد الجصاص عن أبى عثمان النهدى قال لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى فقدم قبلى حاجا قال وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يأثرون عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة » فقلت ويحكم والله ماكان أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى فما سمعت هذا الحديث قال فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجا فانطلقت إلى الحج أن ألقاه فى هذا الحديث فلقيته لهذا فقلت يا أبا هريرة ماحديث سمعت أهل البصرة يأثرون عنك ؟ قال ماهو قلت زعموا أنك تقول إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة قال يا أبا عثمان وما تعجب من ذا والله يقول (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) ويقول (وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) والذى نفسى بيده لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة » وفى معنى هذا الحديث مارواه الترمذى وغيره من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن عبد الله بن عمر ابن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال « من دخل سوقا من الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على شىء قدير — كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة » الحديث وقال

(١) فى نسخة الأزهر الرباعى .

ابن أبي حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام حدثنا أبو إسماعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر قال لما نزلت (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل) إلى آخرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب زد أمتي » فنزلت (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) قال « رب زد أمتي » فنزلت (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وروى ابن أبي حاتم أيضا عن كعب الأحبار أنه جاءه رجل فقال إني سمعت رجلا يقول من قرأ (قل هو الله أحد) مرة واحدة بنى الله له عشرة آلاف ألف غرفة من در وياقوت فى الجنة أفأصدق بذلك ؟ قال نعم أوعجبت من ذلك؟ قال نعم وعشرين ألف ألف وثلاثين ألف ألف وما لايحصى ذلك إلا الله ثم قرأ (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) فالكثير من الله لايحصى وقوله (والله يقبض ويبسط) أي أنفقوا ولا تبالوا فالله هو الرزاق يضيق على من يشاء من عباده فى الرزق ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة فى ذلك (واليه ترجعون) أي يوم القيامة

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا ؟ قَالُوا وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: هذا النبي هو يوشع بن نون قال ابن جرير يعني ابن أفرايم بن يوسف بن يعقوب وهذا القول بعيد لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل وكان ذلك فى زمان داود عليه السلام كما هو مصرح به فى القصة وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم . وقال السدى هو شمعون وقال مجاهد هو شمويل عليه السلام وكذا قال محمد بن إسحق عن وهب بن منبه وهو شمويل بن بالى بن علقمة بن ترخام بن اليهد[1] بن بهرض بن علقمة ابن ماجب بن عمرصا بن عزريا بن صفية بن علقمة بن أبي ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقال وهب بن منبه وغيره كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقا كثيرا وأخذوا منهم بلادا كثيرة ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذى كان فى قديم الزمان وكان ذلك موروثا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك فى بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوى الذى يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل فأخذوها فحبسوها فى بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاما يكون نبيا لهم ولم تزل المرأة تدعو الله عزوجل أن يرزقها غلاما فسمع الله لها ووهبها غلاما فسمته شمويل أي سمع الله دعائي ومنهم من يقول شمعون وهو بمعناه فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نباتا حسنا فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله اليه وأمره بالدعوة اليه وتوحيده فدعا بنى إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا يقاتلون معه أعداءهم وكان الملك أيضا قد باد فيهم فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه (قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد قال الله تعالى . (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) أي ماوفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ

(١) فى نسخة اليهو .

وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

أى لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكا منهم فعين لهم طالوت وكان رجلا من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم لأن الملك كان فى سبط يهوذا ولم يكن هذا من ذلك السبط فلهذا قالوا (أنى يكون له الملك علينا) أى كيف يكون ملكا علينا (ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) أى هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء وقيل دباغا وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبى قائلا (إن الله اصطفاه عليكم) أى اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم يقول لست أنا الذى عينته من تلقاء نفسى بل الله أمرنى به لما طلبتم منى ذلك (وزاده بسطة فى العلم والجسم) أى وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبراً فى الحرب ومعرفة بها أى أتم علماً وقامة منكم ومن ههنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة فى بدنه ونفسه ثم قال (والله يؤتى ملكه من يشاء) أى هو الحاكم الذى ما شاء فعل ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه ولهذا قال (والله واسع عليم) أى هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يقول لهم نبيهم إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذى كان أخذ منكم (فيه سكينة من ربكم) قيل معناه فيه وقار وجلالة قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (فيه سكينة) أى وقار وقال الربيع : رحمة وكذا روى عن العوفى عن ابن عباس وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله (فيه سكينة من ربكم) قال ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه وكذا قال الحسن البصرى وقيل السكينة طست من ذهب كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء أعطاها الله موسى عليه السلام فوضع فيها الألواح ورواه السدى عن أبى مالك عن ابن عباس وقال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الأحوص عن على قال : السكينة لها وجه كوجه الإنسان ثم هى روح هفافة وقال ابن جرير : حدثنى المثنى حدثنا أبو داود حدثنا شعبة وحماد بن سلمة وأبو الأحوص كلهم عن سماك عن خالد بن عرعرة عن علىّ قال : السكينة ريح خجوج ولها رأسان وقال مجاهد لها جناحان وذنب وقال محمد بن إسحق عن وهب بن منبه السكينة رأس هرة ميتة إذا صرخت فى التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح وقال عبد الرزاق : أخبرنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه يقول السكينة روح من الله تتكلم إذا اختلفوا فى شىء تكلم فتخبرهم ببيان ما يريدون

وقوله (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) قال ابن جرير أخبرنا ابن مثنى حدثنا أبو الوليد حدثنا حماد عن داود ابن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) قال عصاه ورضاض الألواح وكذا قال قتادة والسدى والربيع بن أنس وعكرمة وزاد والتوراة وقال أبو صالح (وبقية مما ترك آل موسى) يعنى عصا موسى وعصا هرون ولوحين من التوراة والمن وقال عطية بن سعد : عصا موسى وعصا هرون وثياب موسى وثياب هرون ورضاض الألواح وقال عبد الرزاق : سألت الثورى عن قوله (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) فقال منهم من يقول قفيز من منّ ورضاض الألواح ومنهم من يقول العصا والنعلان

وقوله (تحمله الملائكة) قال ابن جريج : قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون ، وقال السدى : أصبح التابوت فى دار طالوت فآمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا

طالوت ،وقال عبد الرزاق عن الثورى عن بعض أشياخه جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة وقيل على بقرتين وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا وكان المشركون لما أخذوه وضعوه فى بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير فأصبح التابوت على رأس الصنم فأنزلوه فوضعوه تحته فأصبح كذلك فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيداً فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به فأخرجوا التابوت من بلدهم فوضعوه فى بعض القرى فأصاب أهلها داء فى رقابهم فأمرتهم جارية من سبى بنى إسرائيل أن يردوه إلى بنى إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء فحملوه على بقرتين فسارتا به لا يقربه أحد إلا مات حتى اقتربتا من بلد بنى إسرائيل فكسرتا النيرين ورجعتا وجاء بنو إسرائيل فأخذوه فقيل إنه تسلمه داود عليه السلام وإنه لما قام إليهما خجل من فرحه بذلك وقيل شابان منهم فالله أعلم وقيل كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها أزدوه(١)

(وقوله إن فى ذلك لآية لكم) أى على صدقى فيما جئتكم به من النبوة وفيما أمرتكم به من طاعه طالوت (إن كنتم مؤمنين) أى بالله واليوم الآخر

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بنى إسرائيل حين خرج فى جنوده ومن أطاعه من ملأ بنى إسرائيل وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدى ثمانين ألفا فالله أعلم أنه قال (إن الله مبتليكم) أى مختبركم بنهر قال ابن عباس وغيره : وهو نهر بين الأردن وفلسطين يعنى نهر الشريعة المشهور (فمن شرب منه فليس منى) أى فلا يصحبنى اليوم فى هذا الوجه (ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده) أى فلا بأس عليه قال الله تعالى (فشربوا منه إلا قليلا منهم) قال ابن جريج قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روى ومن شرب منه لم يرو . وكذا رواه السدى عن أبى مالك عن ابن عباس وكذا قال قتادة وابن شوذب ، وقال السدى . كان الجيش ثمانين ألفا فشرب منه ستة وسبعون ألفا وتبقى معه أربعة آلاف كذا قال وقد روى ابن جرير من طريق إسرائيل وسفيان الثورى ومسعر بن كدام عن أبى إسحق السبيعى عن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه والنهر وما جازه معه إلا مؤمن ورواه البخارى عن عبد الله بن رجاء عن إسرائيل بن يونس عن أبى إسحق عن جده عن البراء بنحوه ولهذا قال تعالى (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق فان النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد . ولهذا قالوا (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثير بإذن الله والله مع الصابرين)

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ

(١) وفى نسخة الأزهر ازدرد .

وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

أى لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير (قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً) أى أنزل علينا صبراً من عندك (وثبت أقدامنا) أى فى لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز (وانصرنا على القوم الكافرين)

قال الله تعالى (فهزموهم بإذن الله) أى غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم (وقتل داود جالوت)ذكروا فى الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان فى يده رماه به فأصابه فقتله وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ويشركه فى أمره فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ولهذا قال تعالى (وآتاه الله الملك) الذى كان بيد طالوت (والحكمة) أى النبوة بعد شمويل (وعلمه مما يشاء)أى مما يشاء الله من العلم الذى اختصه به ﷺ ثم قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)أى لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى (ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) الآية . وقال ابن جرير . حدثنى أبو حميد الحمصى أحد بنى المغيرة حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء » ثم قرأ ابن عمر (ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وهذا إسناد ضعيف فان يحيى بن سعيد هذا هو ابن العطار الحمصى وهو ضعيف جداً ثم قال ابن جرير . حدثنا أبو حميد الحمصى حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله عز وجل مادام فيهم » وهذا أيضاً غريب ضعيف لما تقدم أيضاً وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد ابن إبراهيم حدثنا على بن إسماعيل بن حماد أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد أخبرنا زيد بن الحباب حدثنى حماد بن زيد عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى السماء عن ثوبان رفع الحديث قال: «لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتى يأتى أمر الله» ، وقال ابن مردويه أيضاً وحدثنا محمد بن أحمد حدثنا محمد بن جرير بن يزيد حدثنا أبو معاذ نهار بن معاذ بن عثمان الليثى أخبرنا زيد بن الحباب أخبرنى عمر البزار عن عنبسة الخواص عن قتادة عن أبى قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « الأبدال فى أمتى ثلاثون . بهم ترزقون وبهم تمطرون وبهم تنصرون » قال قتادة . إنى لأرجو أن يكون الحسن منهم

وقوله (ولكن الله ذو الفضل على العالمين) أى ذو من عليهم ورحمة بهم يدفع عنهم ببعضهم بعضا وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه فى جميع أفعاله وأقواله

ثم قال تعالى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) أى هذه آيات الله التى قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق أى بالواقع الذى كان عليه الأمر المطابق لما بأيدى أهل الكتاب من الحق الذى يعلمه علماء بنى إسرائيل (وإنك) يا محمد (لمن المرسلين) وهذا توكيد وتوطئة للقسم

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا) وقال ههنا (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله) . يعني موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروى في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه (ورفع بعضهم درجات) كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل (فان قيل) فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسم يقسمه . لا والذي اصطفى موسى على العالمين . فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي فقال . أي خبيث ؟ وعلى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فجاء اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاشتكى على المسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تفضلوني على الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ؟ فلا تفضلوني على الأنبياء » وفي رواية « لا تفضلوا بين الأنبياء » فالجواب من وجوه (أحدها) أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل وفي هذا نظر (الثاني) أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع (الثالث) أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر (الرابع) لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية (الخامس) ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به

وقوله (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ماجاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم (وأيدناه بروح القدس) يعني أن الله أيده بجبريل عليه السلام ثم قال تعالى (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله مااقتتلوا) أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره ولهذا قالوا (ولكن الله يفعل ما يريد)

﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده بالانفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا (من قبل أن يأتي يوم) يعني يوم القيامة (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) أي لا يباع أحد من نفسه ولا يفادى بمال لو بذله ولو جاء بملء الأرض ذهبا ولا تنفعه خلة أحد يعني صداقته بل ولا نسابته كما قال (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ولا شفاعة . أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين

وقوله (والكافرون هم الظالمون) مبتدأ محصور في خبره أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافرا وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال . الحمد لله الذي قال (والكافرون هم الظالمون) ولم يقل والظالمون هم الكافرون

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

هذه آية الكرسي ولها شأن عظيم وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل آية في كتاب الله قال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن سعيد الجريري عن أبي السليل عن عبد الله بن رباح عن أبي هو ابن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله « أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم فرددها مراراً ثم قال : آية الكرسي قال : « ليهنك العلم أبا المنذر والذي نفسي بيده إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق

العرش » وقد رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن الجريري به وليس عنده زيادة والذي نفسي بيده الخ

(حديث آخر) عن أبي أيضا في فضل آية الكرسي قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا ميسرة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عبيدة بن أبي لبابة عن عبدالله بن أبي بن كعب أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر قال فكان أبي يتعاهده فوجده ينقص قال فحرسه ذات ليلة فاذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم قال : فسلمت عليه فرد السلام قال : فقلت ما أنت ؟ جني أم إنسي قال . جني قال : قلت ناولني يدك قال فناولني يده فاذا يد كلب وشعر كلب فقلت هكذا خلق الجن ؟ قال لقد علمت الجن مافيهم أشد مني ، قلت فما حملك على ما صنعت ؟ قال بلغني أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك قال : فقال له أبي فما الذي يجيرنا منكم ؟ قال هذه الآية آية الكرسي ثم غدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال النبي ﷺ « صدق الخبيث » وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي داود الطيالسي عن حرب بن شداد عن يحيى بن أبي كثير عن الحضرمي بن لاحق عن عن محمد بن عمرو بن أبي بن كعب عن جده به وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عثمان بن عتاب قال سمعت أبا السليل قال : كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يحدث الناس حتى يكثروا عليه فيصعد على سطح بيت فيحدث الناس قال : قال رسول الله ﷺ « أي آية في القرآن أعظم ؟ » فقال رجل (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) قال فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي أو قال فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي وقال ليهنك العلم يا أبا المنذر (حديث آخر) عن الأسقع البقري قال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أبو يزيد القراطيسي حدثنا يعقوب بن أبي عباد المكي حدثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج أخبرني عمر بن عطاء أن مولى ابن الأسقع رجل صدق أخبره عن الأسقع البكري أنه سمعه يقول إن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين فسأله إنسان : أي آية في القرآن أعظم ؟ فقال النبي ﷺ (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) حتى انقضت الآية

(حديث آخر) عن أنس — قال الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن الحارث حدثني سلمة بن وردان أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سأل رجلا من صحابته فقال « أي فلان هل تزوجت ؟ » قال : لا وليس عندي ما أتزوج به قال « أو ليس معك . قل هو الله أحد » قال بلى قال « ربع القرآن » قال « أليس معك قل يا أيها الكافرون ؟ » قال: بلى قال: « ربع القرآن » قال: « أليس معك إذا زلزلت ؟ » قال: بلى قال: « ربع القرآن » قال: « أليس معك إذا جاء نصر الله ؟ » قال بلى قال « ربع القرآن » قال « أليس معك آية الكرسي الله لا إله إلا هو » ؟ قال بلى قال « ربع القرآن »

(حديث آخر) عن أبي ذر جندب بن جنادة قال الإمام أحمد . حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا المسعودي أنبأني أبو عمر الدمشقي عن عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال « يا أبا ذر هل صليت ؟ » قلت لا قال « قم فصل » قال فقمت فصليت ثم جلست فقال: « يا أباذر تعوذ بالله من شر شياطين الانس والجن » قال: قلت يارسول الله أو للانس شياطين ؟ قال نعم قال: قلت يارسول الله الصلاة قال : « خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قال قلت يارسول الله فالصوم ؟ قال « فرض مجزى وعند الله مزيد » قلت يارسول الله فالصدقة ، قال « أضعاف مضاعفة » قلت يارسول الله فأيها أفضل ، قال « جهد من مقل أو سر إلى فقير » قلت يارسول الله أي الأنبياء كان أول ، قال « آدم » قلت يارسول الله ونبي كان ، قال « نعم نبي مكلم » قلت يارسول الله كم المرسلون ، قال « ثلثمائة وبضعة عشر جما غفيرا » وقال مرة « وخمسة عشر » قلت يارسول الله أي ما أنزل عليك أعظم ، قال « آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) » ورواه النسائي

(حديث آخر) عن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه قال الإمام أحمد . حدثنا سفيان عن ابن أبي ليلى عن أخيه عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي أيوب أنه كان في سهوة له وكانت الغول تجيء فتأخذ فشكاها إلى

النبي ﷺ فقال « فاذا رأيتها فقل باسم الله أجيبي رسول الله » قال فجاءت فقال لها فأخذها فقالت إنى لا أعود فأرسلها فجاء فقال له النبي ﷺ « مافعل أسيرك ؟ » قال أخذتها فقالت إنى لا أعود فأرسلتها فقال إنها عائدة فأخذتها مرتين أو ثلاثا كل ذلك تقول لا أعود وأجيء إلى النبي ﷺ « فيقول مافعل أسيرك » فأقول أخذتها فتقول لا أعود فيقول « إنها عائدة » فأخذتها فقالت أرسلنى وأعلمك شيئا تقوله فلا يقربك شيء : آية الكرسى . فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال « صدقت وهى كذوب » ورواه الترمذى فى فضائل القرآن عن بندار عن أبى أحمد الزبيرى به وقال حسن غريب والغول فى لغة العرب : الجان إذا تبدى فى الليل

وقد ذكر البخارى هذه القصة عن أبى هريرة فقال فى كتاب فضائل القرآن وفى كتاب الوكالة وفى صفة إبليس من صحيحه ، قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال دعنى فإنى محتاج وعلى عيال ولى حاجة شديدة قال فخليت عنه فأصبحت فقال النبي ﷺ « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة » قال : قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال « أما إنه قد كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه سيعود » فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعنى فانى محتاج وعلى عيال لا أعود . فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة » قلت يا رسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال . دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت وما هى . قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) حتى تختم الآية فانك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما فعل أسيرك البارحة . » قلت يارسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله قال: « ماهى » . قال لى إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وقال لى لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شيء على الخير فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة » قلت لا قال: « ذاك شيطان » كذا رواه البخارى معلقا بصيغة الجزم وقد رواه النسائى فى اليوم والليلة عن إبراهيم بن يعقوب عن عثمان بن الهيثم فذكره ـ وقد روى من وجه آخر عن أبى هريرة بسياق آخر قريب من هذا فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرويه الصفار حدثنا أحمد بن زهير بن حرب أنبأنا مسلم بن إبراهيم أنبأنا إسماعيل بن مسلم العبدى أنبأنا أبو المتوكل الناجى أن أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوما ففتح الباب فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف ودخل يوما آخر فاذا قد أخذ منه ملء كف ثم دخل يوما آخر ثالثا فاذا قد أخذ منه مثل ذلك فشكا ذلك أبو هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم تحب أن تأخذ صاحبك هذا » قال نعم قال « فاذا فتحت الباب فقل سبحان من سخرك محمد » فذهب ففتح الباب فقال سبحان من سخرك محمد . فاذا هو قائم بين يديه قال ياعدو الله أنت صاحب هذا . قال نعم دعنى فانى لا أعود ما كنت آخذا إلا لأهل بيت من الجن فقراء فخلى عنه ثم عاد الثانية ثم عاد الثالثة فقلت أليس قد عاهدتنى ألا تعود . لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . قال لا تفعل فانك إن تدعنى علمتك كلمات إذا أنت قلتها لم يقربك أحد من الجن صغير ولا كبير ذكر ولا أنثى ، قال له لتفعلن ، قال نعم ، قال ماهن قال (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) قرأ آية الكرسى حتى ختمها فتركه فذهب فلم يعد فذكر ذلك أبو هريرة للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أماعلمت أن ذلك كذلك » وقد رواه النسائى عن أحمد بن محمد بن عبيد الله عن شعيب بن حرب عن

إسماعيل بن مسلم عن أبي المتوكل عن أبي هريرة به وقد تقدم لأبي بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً فهذه ثلاث وقائع

﴿ قصة أخرى ﴾ قال أبو عبيد في كتاب الغريب : حدثنا أبو معاوية عن أبي عاصم الثقفي عن الشعبي عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رجل من الإنس فلقيه رجل من الجن فقال : هل لك أن تصارعني؟ فان صرعتني علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان فصارعه فصرعه فقال : إني أراك ضئيلا شخيتا كأن ذراعيك ذراعا كلب أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم أم أنت من بينهم ؟ فقال إني بينهم لضليع فعاودني فصارعه فصرعه الانسي فقال تقرأ آية الكرسي فانه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خبج كخبج الحمار فقيل لابن مسعود أهو عمر ؟ فقال من عسى أن يكون إلا عمر قال أبو عبيد : الضئيل النحيف الجسم والخبج بالخاء المعجمة ويقال بالحاء المهمله الضراط

(حديث آخر) عن أبي هريرة قال الحاكم أبو عبد الله في مستدركه حدثنا علي بن حشاد حدثنا بشر بن موسى حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثني حكيم بن جبير الأسدي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لاتقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسي » وكذا رواه من طريق آخر عن زائدة عن حكيم بن جبير ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه كذا قال وقد رواه الترمذي من حديث زائدة ولفظه « لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن : آية الكرسي» ثم قال غريب لانعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم فيه شعبة وضعفه (قلت) وكذا ضعفه أحمد ويحي بن معين وغير واحد من الأئمة وتركه ابن مهدي وكذبه السعدي

(حديث آخر) قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي بن نافع أخبرنا عيسى بن محمد الروزي أخبرنا عمر بن محمد البخاري أخبرنا عيسى بن موسى غنجار عن عبد الله بن كيسان حدثنا يحي أخبرنا يحي بن عقيل عن يحي بن يعمر عن ابن عمر عن عمر ابن الخطاب أنه خرج ذات يوم إلى الناس وهم سماطات فقال : أيكم يخبرني بأعظم آية في القرآن . فقال ابن مسعود على الخبير سقطت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «أعظم آية في القرآن (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)»

(حديث آخر) في اشتماله على اسم الله الأعظم . قال الإمام أحمد . حدثنا محمد بن بكير أنبأنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) و(الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) « إن فيهما اسم الله الأعظم» وكذا رواه أبو داود عن مسدد والترمذي عن علي بن خشرم وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ثلاثتهم عن عيسى بن يونس عن عبد الله بن أبي زياد به وقال الترمذي . حسن صحيح

(حديث آخر) في معنى هذا عن أبي أمامة رضي الله عنه قال ابن مردويه . أخبرنا عبد الله بن نمير أخبرنا إسحق ابن إبراهيم بن إسماعيل أخبرنا هشام بن عمار أنبأنا الوليد بن مسلم أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زيد أنه سمع القاسم ابن عبد الرحمن يحدث عن أبي أمامة يرفعه قال « اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث : سورة البقرة وآل عمران وطه» وقال هشام وهو ابن عمار خطيب دمشق: أما البقرة ف(الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وفي آل عمران (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وفي طه (وعنت الوجوه للحي القيوم)

(حديث آخر) عن أبي أمامة في فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة قال أبو بكر بن مردويه. حدثنا محمد بن محرز ابن يناور الأدمي أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسن أخبرنا الحسن بن بشر بن بطرسوس أخبرنا محمد بن حمير أخبرنا محمد ابن زياد عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت » وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن الحسن بن بشر به وأخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث محمد بن حمير وهو الحمصي من رجال البخاري أيضاً فهو إسناد على شرط البخاري وقد زعم أبو الفرج ابن الجوزي أنه حديث موضوع والله أعلم . وقد روى ابن مردويه من حديث علي والمغيرة بن شعبة وجابر بن عبد الله نحو هذا الحديث ولكن في إسناد كل منهما ضعف . وقال ابن مردويه أيضاً حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرى

أخبرنا يحيى بن درستويه المروزى أخبرنا زياد بن إبراهيم أخبرنا أبو حمزة السكرى عن المثنى عن قتادة عن الحسن عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : « أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام أن اقرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة فانه من يقرؤها فى دبر كل صلاة مكتوبة أجعل له قلب الشاكرين ولسان الذاكرين وثواب النبيين وأعمال الصديقين ولا يواظب على ذلك إلا نبي أو صديق أو عبد امتحنت قلبه للايمان أو أريد قتله فى سبيل الله » وهذا حديث منكر جداً

(حديث آخر) فى أنها تحفظ من قرأها فى أول النهار وأول الليل . قال أبو عيسى الترمذى . حدثنا يحيى بن المغيرة أبو سلمة المخزومى المدينى أخبرنا ابن أبي فديك عن عبد الرحمن المليكى عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ . حم المؤمن إلى (إليه المصير) وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح » ثم قال هذا حديث غريب وقد تكلم بعض أهل العلم فى عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة المليكى من قبل حفظه

وقد ورد فى فضلها أحاديث أخر تركناها اختصارا لعدم صحتها وضعف أسانيدها كحديث على فى قراءتها عند الحجامة إنها تقوم مقام حجامتين وحديث أبي هريرة فى كتابتها فى اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات وتلحس للحفظ وعدم النسيان أوردهما ابن مردويه وغير ذلك .

﴿ وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ﴾

فقوله (الله لا إله إلا هو) إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق (الحى القيوم) أى الحى فى نفسه الذى لا يموت أبداً القيم لغيره ، وكان عمر يقرأ القيام فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غنى عنها ولا قوام لها بدون أمره كقوله (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) وقوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) أى لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم فقوله (لا تأخذه) أى لا تغلبه سنة وهى الوسن والنعاس ولهذا قال ولا نوم لأنه أقوى من السنة وفى الصحيح عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرنى الحكم بن أبان عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) أن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله عز وجل ؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما قال فجعل ينعس وهما فى يده فى كل يد واحدة قال فجعل ينعس وينبه وينعس وينبه حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما . قال معمر إنما هو مثل ضربه الله عز وجل يقول فكذلك السموات والأرض فى يده . وهكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق فذكره وهو من أخبار بنى إسرائيل وهو مما يعلم أن موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل وأنه منزه عنه وأغرب من هذا كله الحديث الذى رواه ابن جرير : حدثنا إسحق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر قال « وقع فى نفس موسى هل ينام الله ؟ فأرسل إليه ملكا فأرقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما . قال فجعل ينام وكادت يداه يلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان - قال ضرب الله عز وجل مثلا أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » وهذا حديث غريب جداً والأظهر أنه إسرائيلى لا مرفوع والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن القاسم ابن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدستكى حدثنى أبي عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبي المغيرة عن

سعيد بن جبير عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا : ياموسى هل ينام ربك ؟ قال اتقوا الله فناداه ربه عزوجل ياموسى سألوك هل ينام ربك فخذ زجاجتين فى يديك فقم الليلة ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا فقال ياموسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان فى يديك . فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ آية الكرسى

وقوله (له مافى السموات ومافى الأرض) إخبار بأن الجميع عبيده وفى ملكه وتحت قهره وسلطانه كقوله (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً)

وقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) كقوله (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وكقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لايتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا باذنه له فى الشفاعة كما فى حديث الشفاعة « آتى تحت العرش فأخر ساجداً فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى . ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع - قال - فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة »

وقوله (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها كقوله إخباراً عن الملائكة (وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وماخلفنا ومابين ذلك وما كان ربك نسيا)

وقوله (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) أى لايطلع أحد من علم الله على شىء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه . ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شىء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله (ولا يحيطون به علما)

وقوله (وسع كرسيه السموات والأرض) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبوسعيد الأشج حدثنا ابن إدريس عن مطرف ابن طريف عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (وسع كرسيه السموات والأرض) قال علمه وكذا رواه ابن جرير من حديث عبدالله بن إدريس وهشيم كلاهما عن مطرف بن طريف به قال ابن أبى حاتم : وروى عن سعيد بن جبير مثله : ثم قال ابن جرير : وقال آخرون الكرسى موضع القدمين ثم رواه عن أبى موسى والسدى والضحاك ومسلم البطين . وقال شجاع بن مخلد فى تفسيره : أخبرنا أبو عاصم عن سفيان عن عمار الذهبى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل (وسع كرسيه السموات والأرض) قال : « كرسيه موضع قدميه والعرش لايقدر قدره إلا الله عزوجل » كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبوبكر بن مردويه من طريق شجاع بن مخلد الفلاس فذكره وهو غلط ، وقد رواه وكيع فى تفسيره حدثنا سفيان عن عمار الذهبى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الكرسى موضع القدمين والعرش لايقدر أحد قدره . وقد رواه الحاكم فى مستدركه عن أبى العباس محمد بن أحمد المحبوبى عن محمد بن معاذ عن أبى عاصم عن سفيان وهو الثورى باسناده عن ابن عباس موقوفا مثله وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقد رواه ابن مردويه من طريق الحاكم بن ظهير الفزارى الكوفى وهو متروك عن السدى عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعا ولا يصح أيضا . وقال السدى عن أبى مالك : الكرسى تحت العرش . وقال السدى : السموات والأرض فى جوف الكرسى والكرسى بين يدى العرش . وقال الضحاك عن ابن عباس : لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن فى سعة الكرسى إلا بمنزلة الحلقة فى المفازة . ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم وقال ابن جرير : حدثنى يونس أخبرنى ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدثنى أبى قال : قال رسول الله ﷺ . « ماالسموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس » قال وقال أبوذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرانى فلاة من الأرض »

وقال أبوبكر بن مردويه أخبرنا سليمان بن أحمد أخبرنا عبدالله بن وهيب المقرى أخبرنا محمد بن أبى السرى العسقلانى أخبرنا محمد بن عبد الله التميمى عن القاسم بن محمد الثقفى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى أنه سأل النبى

صلى الله عليه وسلم عن الكرسى فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة » وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا زهير حدثنا ابن أبى بكر حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عبدالله بن خليفة عن عمر رضى الله عنه قال : أتت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ادع الله أن يدخلنى الجنة قال فعظم الرب تبارك وتعالى وقال « إن كرسيه وسع السموات والأرض وإن له أطيطا كأطيط الرحل الحديد من ثقله » وقد رواه الحافظ البزار فى مسنده المشهور وعبد بن حميد وابن جرير فى تفسيريهما والطبرانى وابن أبى عاصم فى كتابى السنة لهما والحافظ الضياء فى كتابه المختار من حديث أبى إسحق السبيعى عن عبد الله بن خليفة وليس بذاك المشهور وفى سماعه من عمر نظر . ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفا ومنهم من يرويه عنه مرسلا ومنهم من يزيد فى متنه زيادة غريبة ومنهم من يحذفها . وأغرب من هذا حديث جبير بن مطعم فى صفة العرش كما رواه أبو داود فى كتابه السنة من سننه والله أعلم . وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما فى وضع الكرسى يوم القيامة لفصل القضاء والظاهر أن ذلك غير المذكور فى هذه الآية وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الاسلاميين أن الكرسى عندهم هو الفلك الثامن وهو فلك الثوابت الذى فوقه الفلك التاسع وهو الفلك الأثير ويقال له الأطلس وقد رد ذلك عليهم آخرون وروى ابن جرير من طريق جويبر عن الحسن البصرى أنه كان يقول: الكرسى هو العرش والصحيح أن الكرسى غير العرش والعرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبدالله بن خليفة عن عمر فى ذلك وعندى فى صحته نظر والله أعلم

وقوله (ولا يؤوده حفظهما) أى لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شىء ولا يغيب عنه شىء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة اليه محتاجة فقيرة ، وهو الغنى الحميد ، الفعال لما يريد الذى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، وهو القاهر لكل شىء الحسيب على كل شىء . الرقيب العلى العظيم لا إله غيره ولا رب سواه ، فقوله (وهو العلى العظيم) كقوله (وهو الكبير المتعال) وهذه الآيات وما فى معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح أمروها(١) كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (لا إكراه فى الدين) أى لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الاسلام فانه بين واضح جلى دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للاسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فانه لا يفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار وإن كان حكمها عاما وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا . لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) وقد رواه أبو داود والنسائى جميعا عن بندار به ومن وجوه أخر عن شعبة به نحوه وقد رواه ابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه من حديث شعبة به وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبى والحسن البصرى وغيرهم أنها نزلت فى ذلك وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد الجرشى عن زيد ابن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد عن ابن عباس قوله (لا إكراه فى الدين) قال : نزلت فى رجل من الأنصار من

(١) فى نسخة الأزهر امرارها إلخ والمعنى عدم تأويلها بآراء الناس بل نؤمن بها مع تنزيه الله تعالى عن الشبه بشىء من خلقه .

بنى سالم بن عوف يقال له الحصينى كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلا مسلما فقال للنبى ﷺ ألا أستكرههما فانهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك رواه ابن جرير وروى السدى نحو ذلك وزاد وكانا قد تنصرا على أيدى تجار قدموا من الشام يحملون زبيبا فلما عزما على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث فى آثارهما فنزلت هذه الآية وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى حدثنا عمرو بن عوف أخبرنا شريك عن أبى هلال عن أسبق قال . كنت فى دينهم مملوكا نصرانيا لعمر بن الخطاب فكان يعرض على الاسلام فآبى فيقول (لا إكراه فى الدين) ويقول يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل فى دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية وقال آخرون. بل هى منسوخة بآية القتال وانه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول فى الدين الحنيف دين الاسلام فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقد له أو يبذل الجزية قوتل حتى يقتل وهذا معنى الاكراه قال الله تعالى (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) وفى الصحيح « عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة فى السلاسل ». يعنى الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الاسلام فى الوثاق والأغلال والقيود والأكبال ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا يحيى عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « أسلم » قال إنى أجدنى كارها قال « وإن كنت كارها » فانه ثلاثى صحيح ولكن ليس من هذا القبيل فانه لم يكرهه النبى صلى الله عليه وسلم على الاسلام بل دعاه اليه فأخبره أن نفسه ليست قابلة له بل هى كارهة فقال له أسلم وإن كنت كارها فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص

وقوله (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) أى من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم قال أبو القاسم البغوى . حدثنا أبو روح البلدى حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم عن أبى إسحق عن حسان هو ابن قائد العبسى قال : قال عمر رضى الله عنه ان الجبت السحر والطاغوت الشيطان وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون فى الرجال يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ويفر الجبان من أمه وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسيا أو نبطيا. وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث الثورى عن أبى إسحق عن حسان بن قائد العبسى عن عمر فذكره ومعنى قوله فى الطاغوت إنه الشيطان قوى جدا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم اليها والاستنصار بها

وقوله (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) أى فقد استمسك من الدين بأقوى سبب وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنفصم هى فى نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوى شديد ولهذا قال (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) الآية ، قال مجاهد : العروة الوثقى يعنى الإيمان وقال السدى : هو الاسلام وقال سعيد بن جبير والضحاك يعنى لا إله إلا الله وعن أنس بن مالك العروة الوثقى القرآن وعن سالم بن أبى الجعد قال هو الحب فى الله والبغض فى الله وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافى بينها وقال معاذ بن جبل فى قوله (لا انفصام لها) دون دخول الجنة وقال مجاهد وسعيد بن جبير (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) ثم قرأ (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقال الإمام أحمد . أنبأنا إسحق بن يوسف حدثنا ابن عوف عن محمد بن قيس بن عبادة قال . كنت فى المسجد فجاء رجل فى وجهه أثر من خشوع فصلى ركعتين أوجز فيهما فقال القوم هذا رجل من أهل الجنة فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته فلما استأنس قلت له إن القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا

قال سبحان الله ما ينبغى لأحد أن يقول مالا يعلم وسأحدثك لم : إنى رأيت رؤيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه رأيت كأنى فى روضة خضراء — قال ابن عون فذكر من خضرتها وسعتها — وفى وسطها عمود حديد أسفله فى الأرض وأعلاه فى السماء فى أعلاه عروة فقيل لى اصعد عليه فقلت لا أستطيع فجاءنى منصف — قال ابن عون هو الوصيف — فرفع ثيابى من خلفى فقال اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة فقال استمسك بالعروة فاستيقظت وإنها لفى يدى فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه فقال « أما الروضة فروضة الاسلام وأما العمود فعمود الاسلام وأما العروة فهى العروة الوثقى أنت على الاسلام حتى تموت » قال وهو عبد الله ابن سلام . أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الله بن عون فقمت اليه[1] وأخرجه البخارى من وجه آخر عن محمد بن سيرين به

(طريق أخرى وسياق آخر) قال الإمام أحمد : أنبأنا حسن بن موسى وعثمان قالا أنبأنا حماد بن سلمة عن عاصم ابن بهدلة عن المسيب بن رافع عن خرشة بن الحر قال : قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فجاء شيخ يتوكأ على عصا له فقال القوم : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . فقام خلف سارية فصلى ركعتين فقلت له : قال بعض القوم كذا وكذا فقال الجنة لله يدخلها من يشاء وإنى رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا كأن رجلا أتانى فقال انطلق فذهبت معه فسلك بى منهجا عظيما فعرضت لى طريق عن يسارى فأردت أن أسلكها فقال : إنك لست من أهلها ثم عرضت لى طريق عن يمينى فسلكتها حتى انتهيت إلى جبل زلق فأخذ بيدى فدحابى فإذا أنا على ذروته فلم أتقار ولم أتماسك فإذا عمود حديد فى ذروته حلقة من ذهب فأخذ بيدى فدحابى حتى أخذت بالعروة فقال : استمسك فقلت نعم فضرب العمود برجله فاستمسك بالعروة فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « رأيت خيرا أما المنهج العظيم فالمحشر وأما الطريق التى عرضت عن يسارك فطريق أهل النار ولست من أهلها وأما الطريق التى عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة وأما الجبل الزلق فمنزل الشهداء ، وأما العروة التى استمسكت بها فعروة الاسلام فاستمسك بها حتى تموت » قال فانما أرجو أن أكون من أهل الجنة . قال وإذا هو عبد الله بن سلام وهكذا رواه النسائى عن أحمد بن سليمان عن عفان وابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن الحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن حماد بن سلمة به نحوه وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش عن سليمان بن مسهر عن خرشة بن الحر الفزارى به

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَٰتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين[2] لهم ماهم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وقال تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقال تعالى (عن اليمين وعن الشمال) إلى غير ذلك من الآيات التى فى لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى حدثنا على بن ميسرة حدثنا عبد العزيز بن أبى عثمان عن موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد قال يبعث أهل الأهواء أو قال تبعث أهل الفتن فمن كان هواه الايمان كانت فتنته بيضاء مضيئة ومن كان هواه الكفر كانت فتنته سوداء مظلمة ، ثم قرأ هذه الآية (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون

(١) هذه الجملة المعترضة ليست فى نسخة الأزهر والله أعلم بأصلها (٢) فى نسخة الأزهر : الشياطين تزين الخ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَاجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

هذا الذى حاج إبراهيم فى ربه هو ملك بابل نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ويقال نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح والأول قول مجاهد وغيره . قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود وذوالقرنين والكافران نمرود وبختنصر والله أعلم ومعنى قوله (ألم تر) أى بقلبك يا محمد (إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) أى وجود ربه وذلك أنه انكر أن يكون ثم إله غيره كما قال بعده فرعون لملئه (ما علمت لكم من إله غيرى) وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته فى الملك وذلك انه يقال انه مكث أربعمائة سنة فى ملكه ولهذا قال (أن آتاه الله الملك) وكان طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذى يدعو إليه فقال إبراهيم (ربى الذى يحيي ويميت) أى إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له . فعند ذلك قال المحاج وهو النمرود (أنا أحيي وأميت) قال قتادة ومحمد بن إسحق والسدى وغير واحد ، وذلك أنى أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل فذلك معنى الإحياء والإماتة والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جوابا لما قال إبراهيم ولا فى معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذى يحيي ويميت كما اقتدى به فرعون فى قوله (ما علمت لكم من إله غيرى) ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أى إذا كنت كما تدعى من أنك تحيي وتميت فالذى يحيي ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فان كنت إلها كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بهت أى أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة قال الله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى لا يلهمهم حجة ولا برهانا بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه[1] وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى ويبين بطلان ما ادعاه نمرود فى الأول والثانى ولله الحمد والمنة وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار ولم يكن اجتمع بالملك إلا فى ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يغدون إليه للميرة فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شىء من الطعام فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلى عنى إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت طعاما فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال : أنى لكم هذا ؟ قالت : من الذى جئت به فعلم أنه رزق رزقهم الله عز وجل قال زيد بن أسلم وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ثم دعاه الثانية فأبى ثم الثالثة فأبى وقال : اجمع جموعك وأجمع جموعى فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس وأرسل الله عليهم بابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بادية ودخلت واحدة منها فى منخرى الملك فمكثت

(١) وفى نسخة الأزهر ردية .

فى منخرى الملك أربعمائة سنة عذبه الله بها فكان يضرب برأسه (١) بالمرازب فى هذه المدة حتى أهلكه الله بها

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

تقدم قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) وهو فى قوة قوله هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه ولهذا عطف عليه بقوله (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) اختلفوا فى هذا المار من هو فروى ابن أبى حاتم عن عصام بن داود عن آدم بن أبى إياس عن إسرائيل عن أبى إسحق عن ناجية بن كعب عن على بن أبى طالب أنه قال: هو عزير، ورواه ابن جرير عن ناجية نفسه وحكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى وسليمان بن بريدة وهذا القول هو المشهور وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد هو ازميا بن حلقيا قال محمد بن إسحق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه أنه قال : هو اسم الخضر عليه السلام وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى قال سمعت سليمان ابن محمد اليسارى الجارى من أهل الجارى ابن عم مطرف قال سمعت سلمان يقول إن رجلا من أهل الشام يقول إن الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه حزقيل بن بوار وقال مجاهد بن جبر هو رجل من بنى إسرائيل وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها (وهى خاوية) أى ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار تخوى خويا

وقوله (على عروشها) أى ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال (أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟) وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه قال الله تعالى (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) قال وعمرت البلدة بعد مضى سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شىء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه فلما استقل سويا (قال) الله له أى بواسطة الملك (كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم) قال وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال (أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما تقدم لم يتغير منه شىء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب نقص (وانظر إلى حمارك) أى كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر (ولنجعلك آية للناس) أى دليلا على المعاد (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) أى نرفعها فيركب بعضها على بعض وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث نافع بن أبى نعيم عن إسماعيل بن حكيم عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (كيف ننشزها) بالزاى ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقرىء (ننشرها) أى نحييها قاله مجاهد (ثم نكسوها لحماً) وقال السدى وغيره تفرقت عظام حماره حوله يمينا ويساراً فنظر إليها وهى تلوح من بياضها فبعث الله ريحا فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ثم ركب كل عظم فى موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله لحما وعصبا وعروقا وجلدا وبعث الله ملكا فنفخ فى منخرى الحمار فنهق كله بإذن الله عز وجل وذلك كله بمرأى من العزير فعند ذلك لما تبين له هذا كله (قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) أى أنا عالم بهذا وقد رأيته عيانا فأنا أعلم أهل زمانى بذلك وقرأ آخرون « قال اعلم » على أنه أمر له بالعلم

(١) رأسه

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابا منها أنه لما قال لنمرود (ربي الذي يحيي ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال (رب أرني كيف تحيي الموتى . قال أو لم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » وكذا رواه مسلم عن حرملة بن يحيي عن وهب به فليس المراد ههنا بالشك ماقد يفهمه من لاعلم عنده بلا خلاف وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها (١)

وقوله (قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك) اختلف المفسرون في هذه الأربعة ماهي وإن كان لا طائل تحت تعيينها إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن فروى عن ابن عباس أنه قال هي الغرنوق والطاوس والديك والحمامة وعنه أيضاً أنه أخذ وزاً ورألا وهو فرخ النعام وديكا وطاوسا وقال مجاهد وعكرمة كانت حمامة وديكا وطاوسا وغرابا وقوله (فصرهن إليك) أي وقطعهن قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلي ووهب ابن منبه والحسن والسدي وغيرهم وقال العوفي عن ابن عباس (فصرهن إليك) أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً قيل أربعة أجبل وقيل سبعة قال ابن عباس : وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره الله عزوجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه يأباه فإذا قدم اليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ولهذا قال (واعلم أن الله عزيز حكيم) أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء وما شاء كان بلا مانع لأنه القاهر لكل شيء حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أيوب في قوله (ولكن ليطمئن قلبي) قال : قال ابن عباس . ما في القرآن آية أرجى

(١) هنا بياض بالنسخ التي بأيدينا ، ونذكر ماقاله البغوي إتماما للفائدة . قال . حكى محمد بن إسحق بن خزيمة عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيي المزني أنه قال على هذا الحديث لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى وإنما شكا في أنه هل يجيبهما إلى ماسألا . وقال أبو سليمان الخطابي ليس في قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما يقول إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله «لو لبثت في السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعي» . وفيه الاعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالا يفيده الاستدلال ، وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه اه

عندي منها وقال ابن جرير : حدثني محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت زيد بن على يحدث عن رجل عن سعيد بن المسيب قال : اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا قال : ونحن شببة . فقال أحدهما لصاحبه أى آية فى كتاب الله أرجى عندك لهذه الأمة فقال عبد الله بن عمرو قول الله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) الآية فقال ابن عباس أما إن كنت تقول هذا ! فأنا أقول أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم (رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني محمد بن أبي سلمة عن عمرو حدثني بن المنكدر أنه قال : التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص أى آية فى القرآن أرجى عندك ، فقال عبد الله بن عمرو : قول الله عز وجل (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا) الآية فقال ابن عباس : لكن أنا أقول قول الله عز وجل (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى) فرضى من إبراهيم قوله (بلى) قال فهذا لما يعترض فى النفوس ويوسوس به الشيطان وهكذا رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى عبدالله محمد بن يعقوب بن الأحزم عن إبراهيم بن عبدالله السعدى عن بشر بن عمر الزهرانى عن عبد العزيز بن أبى سلمة باسناده مثله ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فقال (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قال سعيد بن جبير يعنى فى طاعة الله وقال مكحول يعنى به الانفاق فى الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف ولهذا قال تعالى (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف قال الإمام أحمد : حدثنا زياد بن الربيع أبو خداش حدثنا واصل مولى ابن عيينة عن بشار بن أبى سيف الجرمى عن عياض ابن غطيف قال : دخلنا على أبى عبيدة نعوده من شكوى أصابه بجنبه وامرأته تحيفة قاعدة عند رأسه قلنا كيف بات أبو عبيدة . قالت : والله لقد بات بأجر قال أبو عبيدة ما بت بأجر وكان مقبلا بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه وقال ألا تسألونى عما قلت . قالوا ما أعجبنا ماقلت فنسألك عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فسبعمائة ومن أنفق على نفسه وأهله أوعاد مريضا أو ماز أذى فالحسنة بعشر أمثالها والصوم جنة مالم يخرقها ومن ابتلاه الله عز وجل ببلاء فى جسده فهوله حطة » وقد روى النسائى فى الصوم بعضه من حديث واصل به ومن وجه آخر موقوفا

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سليمان سمعت أباعمرو الشيبانى عن ابن مسعود أن رجلا تصدق بناقة مخطومة فى سبيل الله فقال رسول الله ﷺ « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة » ورواه مسلم والنسائى من حديث سليمان بن مهران عن الأعمش به ولفظ مسلم جاء رجل بناقة مخطومة فقال يارسول الله هذه فى سبيل الله فقال « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة »

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا عمرو بن مجمع أبو المنذر الكندى أخبرنا إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله جعل حسنة ابن آدم إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة

ضعف إلا الصوم والصوم لى وأنا أجزى به وللصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »

(حديث آخر) قال أحمد أخبرنا وكيع أخبرنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ماشاء الله يقول الله إلا الصوم فانه لى وأنا أجزى به يدع طعامه وشرابه من أجلى ، وللصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، الصوم جنة ، الصوم جنة » وكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى سعيد الأشج كلاهما عن وكيع به

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا حسين بن على عن زائدة عن الركين عن بشر بن عميلة عن حريم بن وائل قال: قال رسول الله ﷺ « من أنفق نفقة فى سبيل الله تضاعف بسبعمائة [1] ضعف »

(حديث آخر) قال أبو داود أنبأنا محمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبى أيوب عن زبان بن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف [2] »

(حديث آخر) قال ابن أبى حاتم : أنبأنا أبى حدثنا هارون بن عبد الله بن مروان حدثنا ابن أبى فديك عن الخليل ابن عبد الله عن الحسن عن عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أرسل بنفقة فى سبيل وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة ومن غزا فى سبيل الله وأنفق فى جهة ذلك فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم » ثم تلا هذه الآية (والله يضاعف لمن يشاء) وهذا حديث غريب وقد تقدم حديث أبى عثمان النهدى عن أبى هريرة فى تضعيف الحسنة إلى ألفى ألف حسنة عند قوله (من الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) الآية

(حديث آخر) قال ابن مردويه : حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن العسكرى البزار أخبرنا الحسن بن على بن شبيب أخبرنا محمود بن خالد الدمشقى أخبرنا أبى عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر لما نزلت هذه الآية (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قال النبى ﷺ « رب زد أمتى » قال فأنزل الله (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا) قال « رب زد أمتى » قال فأنزل الله (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقد رواه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه عن حاجب بن اركين عن أبى عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز المقرى عن أبى إسماعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر فذكره وقوله ههنا (والله يضاعف لمن يشاء) أى بحسب إخلاصه فى عمله (والله واسع عليم) أى فضله واسع كثير أكثر من خلقه عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه وبحمده

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون فى سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منا على من أعطوه فلا يمنون به على أحد ولا يمنون به لا بقول ولا فعل

(١) فى نسخة الأزهر : سبعمائة ضعف (٢) سبعمائة

وقوله (ولا أذى) أى لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحبطون به ما سلف من الإحسان ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال (لهم أجرهم عند ربهم) أى ثوابهم على الله لا على أحد سواه (ولا خوف عليهم) أى فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة (ولا هم يحزنون) أى على ما خلفوه من الأولاد ولا مافاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ماهو خير لهم من ذلك

ثم قال تعالى (قول معروف) أى من كلمة طيبة ودعاء لمسلم (ومغفرة) أى عفو وغفر عن ظلم قولى أو فعلى (خير من صدقة يتبعها أذى) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا ابن فضيل قال : قرأت على معقل بن عبد الله عن عمرو ابن دينار قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال مامن صدقة أحب إلى الله من قول معروف الم تسمع قوله (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى) عن خلقه (حليم) أى يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم وقد وردت الأحاديث بالنهى عن المن فى الصدقة ففى صحيح مسلم من حديث شعبة عن الأعمش عن سليمان بن «مسهر عن خرشة ابن الحر عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » وقال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن عثمان بن يحى أخبرنا عثمان بن محمد الدورى أخبرنا هشيم بن خارجة أخبرنا سليمان بن عقبة عن يونس بن ميسرة عن أبى إدريس عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال « لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر » وروى أحمد وابن ماجه من حديث يونس بن ميسرة نحوه ثم روى ابن مردويه وابن حبان والحاكم فى مستدركه والنسائى من حديث عبد الله بن يسار الأعرج عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ومدمن الخمر والمنان بما أعطى » وقد روى النسائى عن مالك بن سعد عن عمه روح بن عبادة عن عتاب بن بشير عن خصيف الجزرى عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاق لوالديه ولا منان » وقد رواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن المنهال عن محمد بن عبد الله بن عصار الموصلى عن عتاب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس ورواه النسائى من حديث عبد الكريم بن مالك الجزرى عن مجاهد قوله وقد روى عن مجاهد عن أبى سعيد وعن مجاهد عن أبى هريرة نحوه ولهذا قال الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى فما يفى ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ثم قال تعالى (كالذى ينفق ماله رئاء الناس) أى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس أو يقال إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ولهذا قال (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائى بانفاقه قال الضحاك : والذى يتبع نفقته منا أو أذى فقال (فمثله كمثل صفوان) وهو جمع صفوانة فمنهم من يقول الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً وهو الصفا وهو الصخر الأملس (عليه تراب فأصابه وابل) وهو المطر الشديد (فتركه صلداً) أى فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أى أملس يابساً أى لا شىء عليه من ذلك التراب بل قد ذهب كله أى وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ولهذا قال (لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين)

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم فى ذلك (وتثبيتاً من أنفسهم) أى وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ونظير هذا فى معنى قوله عليه السلام فى الحديث الصحيح المتفق على صحته « من صام رمضان إيمانا واحتسابا » أى يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه قال الشعبى : (وتثبيتاً

من أنفسهم) أى تصديقاً ويقيناً وكذاقال قتادةوأبوصالحوابن زيدواختاره ابن جرير وقال مجاهد والحسن أى يتثبتون أين يضعون صدقاتهم

وقوله (كمثل جنة بربوة) أى كمثل بستان بربوة وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض وزاد ابن عباس والضحاك وتجرى فيه الأنهار . قال ابن جرير رحمه الله . وفى الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات بضم الراء وبهاقرأ عامة أهل المدينة والحجازو والعراق وفتحها وهى قراءة بعض أهل الشام والكوفة ويقال انها لغة تميم وكسر الراء ويذكر أنها قراءة ابن عباس

وقوله (أصابها وابل) وهو المطر الشديد كما تقدم فآتت (أكلها) أى ثمرتها (ضعفين) أى بالنسبة إلى غيرها من الجنان (فان لم يصبها وابل فطل) قال الضحاك هو الرذاذ وهو اللين من المطر أى هذه الجنة بهذه الربوة لاتمحل أبداً لأنها إن لم يصبها وابل فطل وأيا ما كان فهو كفايتهاوكذلك عمل المؤمن لايبور أبداً بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه ولهذا قال (والله بما تعملون بصير) أى لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام هو ابن يوسف عن ابن جريج سمعت عبد الله بن أبى مليكة يحدث عن ابن عباس وسمعت أخاه أبا بكر بن أبى مليكة يحدث عن عبيد بن عمير قال : قال عمر ابن الخطاب يوماً لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) قالوا : الله أعلم فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أولا نعلم ، فقال ابن عباس : فى نفسى منها شيء يا أمير المؤمنين فقال عمر : يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك فقال ابن عباس رضى الله عنهما ضربت مثلا بعمل قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس لرجل غنى يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله . ثم رواه البخارى عن الحسن بن محمد الزعفرانى عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج فذكره وهو من أفراد البخارى رحمه الله وفى هذا الحديث كفاية فى تفسير هذه الآية وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولا ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذا بالله من ذلك فأبطل بعمله الثانى ما أسلفه فيما تقدم من الصالح واحتاج إلى شيء من الأول فى أضيق الأحوال فلم يحصل منه شيء وخانه أحوج ما كان اليه ولهذا قال تعالى (وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار) وهو الريح الشديد (فيه نار فاحترقت) أى أحرق ثمارها وأباد أشجارها فأى حال يكون حاله ؟ وقد روى ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال . ضرب الله مثلا حسنا وكل أمثاله حسن قال (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات) يقول صنعه فى شيبته (وأصابه الكبر) وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه وكذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رد إلى الله عزوجل ليس له خير فيستعتب كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ولا يجده قدم لنفسه خيرا يعود عليه كما لم يغن عن هذا ولده وحرم أجره عند أفقر ما كان اليه كما حرم هذا جنته عند ما كان أفقر ما كان اليها عند كبره وضعف ذريته . وهكذا روى الحاكم فى مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه « اللهم اجعل أوسع رزقك على عند كبر سنى وانقضاء عمرى » ولهذا قال تعالى (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) أى تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعانى وتنزلونها على المراد منها كما قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ * ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالانفاق والمراد به الصدقة ههنا قاله ابن عباس من طيبات مارزقهم من الأموال التى اكتسبوها قال مجاهد : يعنى التجارة بتيسيره إياهالهم وقال على والسدى (من طيبات ما كسبتم) يعنى الذهب والفضة ومن الثمار والزروع التى أنبتهالهم من الأرض قال ابن عباس أمرهم بالانفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه فان الله طيب لايقبل إلا طيباً ولهذا قال (ولا تيمموا الخبيث) أى تقصدوا الخبيث (منه تنفقون ولستم بآخذيه) أى لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون وقيل معناه (ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون) أى لاتعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه . ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا إسحق عن الصباح بن محمد عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولايعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذى نفسى بيده لايسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولايؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ـ قالوا : ومابوائقه يانبى الله ؟ قال : «غشه وظلمه ولايكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولايتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لايمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لايمحو الخبيث » والصحيح القول الأول قال ابن جرير رحمه الله : حدثنا الحسين بن عمرو العبقرى حدثنى أبى عن أسباط عن السدى عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى قول الله (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) الآية قال . نزلت فى الأنصار كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الاسطوانتين فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل فقراء المهاجرين منه فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر يظن أن ذلك جائز فأنزل الله فيمن فعل ذلك (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) ثم رواه ابن جرير وابن ماجه وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طريق السدى عن عدى بن ثابت عن البراء بنحوه وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبيد الله عن اسرائيل عن السدى عن أبى مالك عن البراء رضى الله عنه (ولا تيمموا الخبيث منهم تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) قال : نزلت فينا كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثرته وقلته فيأتى الرجل بالقنو فيعلقه فى المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه فسقط منه البسر والتمر فيأكل وكان أناس ممن لايرغبون فى الخير يأتى بالقنو الحشف والشيص فيأتى بالقنو قد انكسر فيعلقه فنزلت (ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) قال لو أن أحدكم أهدى له مثل ماأعطى ما أخذه إلا على اغماض وحياء فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ماعنده وكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن عبيد الله هو ابن موسى العبسى عن إسرائيل عن السدى وهو إسماعيل بن عبد الرحمن عن أبى مالك الغفارى واسمه غزوان عن البراء فذكر نحوه ثم قال وهذا حديث حسن غريب وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الوليد حدثنا سليمان بن كثير عن الزهرى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم نهى عن لونين من التمر الجعرور والحبيق(١) وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم ثم يخرجونها فى الصدقة فنزلت (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) ورواه أبو داود من حديث سفيان بن حسين عن الزهرى ثم قال أسنده أبو الوليد عن سليمان بن كثير عن الزهرى ولفظه نهى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عن الجعرور ولون الحبيق أن يؤخذ فى الصدقة وقد روى النسائى هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حميد اليحصبى عن الزهرى عن أبى أمامة ولم يقل عن أبيه فذكر نحوه وكذا رواه ابن وهب عن عبد الجليل وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن مغفل فى هذه الآية (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) قال كسب المسلم لا يكون خبيثا ولـكن لا يصدق بالحشف والدرهم الزيف ومالا خير فيه وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا حماد بن سلمة عن حماد هو ابن سليمان عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت أتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت : يا رسول الله نطعمه المساكين قال « لا تطعموهم مما لا تأكلون » ثم رواه عن عفان عن حماد بن سلمة به فقلت يا رسول الله ألا أطعمه المساكين ؟ قال « لا تطعموهم مما لا تأكلون » وقال الثورى : عن السدى عن أبى مالك عن البراء (ولستم بآخـذيه إلا أن تغمضوا فيـه) يقول لو كان لرجل على رجل(٢) فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه ؟ رواه ابن جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) يقول لو كان لـكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقـكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه قال فذلك قوله (إلا أن تغمضوا فيه) فـكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم وحقى عليـكم من أطيب أموالـكم وأنفسه ؟ رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وزاد وهو قوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممـا تحبون) ثم روى من طريق العوفى وغيره عن ابن عباس نحو ذلك وكذا ذكره غير واحد

وقوله (واعلموا أن الله غنى حميد) أى وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى عنها وما ذاك إلا أن يساوى الغنى الفقير كقوله (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولـكن يناله التقوى منكم) وهو غنى عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه وهو واسع الفضل لا ينفد مالديه فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غنى واسع العطاء كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافا كثيرة من يقرض غـير عديم ولا ظلوم وهو الحميد أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه

وقوله (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعـدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا هناد بن السرى حدثنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتـكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجـد ذلك فليعـلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجـد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) الآية وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننهما جميعاً عن هناد بن السرى وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى الموصلى عن هناد به وقال الترمذى حسن غريب وهو حديث أبى الأحوص يعنى سلام بن سليم لا نعرفه مرفوعا إلا من حديثه ، كذا قال وقد رواه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره عن محمد بن أحمد عن محمد بن عبد الله بن مسعود مرفوعا نحوه ولـكن رواه مسعر عن عطاء بن السائب عن أبى الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن ابن مسعود فجعله من قوله والله أعـلم ، ومعنى قوله تعالى (الشيطان يعـدكم الفقر) أى يخوفـكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله (ويأمركم بالفحشاء) أى مع نهيه إياكم عن الانفاق خشية الاملاق ، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق قال تعالى (والله يعدكم مغفرة منه) أى فى مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء (وفضلا) أى فى مقابلة ما خوفـكم الشيطان من الفقر (والله واسع عليم)

(١) الجعرور بضم الجيم . والحبيق بضم المهملة : نوعان من الدقل وهو بالتحريك : التمر الردىء اليابس (٢) كذا والمراد حق .

وقوله (يؤتى الحكمة من يشاء)قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا « الحكمة القرآن » يعني تفسيره قال ابن عباس فانه قد قرأه البر والفاجر رواه ابن مردويه وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد يعني بالحكمة الاصابة في القول وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد (يؤتى الحكمة من يشاء)ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن وقال أبو العالية . الحكمة خشية الله فان خشية الله رأس كل حكمة وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن عثمان بن زفر الجهني عن أبي عمار الأسدي عن ابن مسعود مرفوعا « رأس الحكمة مخافة الله» وقال أبو العالية في رواية عنه الحكمة الكتاب والفهم وقال إبراهيم النخعي : الحكمة الفهم وقال أبو مالك: الحكمة السنة وقال ابن وهب عن مالك قال زيد بن أسلم : الحكمة العقل قال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفا في أمر دنياه عالما بأمر دينه بصيرا به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا فالحكمة الفقه في دين الله وقال السدي الحكمة النبوة . والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها وأعلاها النبوة والرسالة أخص ولكن لاتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع كما جاء في بعض الأحاديث « من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه » رواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن إسماعيل بن رافع عن رجل لم يسمه عن عبدالله بن عمرو وقوله وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ويزيد قالا : حدثنا إسماعيل يعني ابن أبي خالد عن قيس وهو ابن أبي حازم عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة(١) فهو يقضي بها ويعلمها » وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق متعددة عن إسماعيل بن أبي خالد به

وقوله (وما يذكر إلا أولو الألباب) أي وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعني به الخطاب ومعنى الكلام

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده ، وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال (وما للظالمين من أنصار) أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته

وقوله (إن تبدوا الصدقات فنعماهي) أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي

وقوله (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية . ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه : ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت

(١) وفي بعض روايات الصحيح الحكمة بالتعريف .

فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يارب هل فى خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار . قال : نعم الماء قالت يارب فهل من خلقك شىء أشدمن الماء . قال : نعم الريح قالت . يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح . قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله » وقد ذكرنا فى فضل آية الكرسى عن أبى ذر قال . قلت يا رسول الله أى الصدقة أفضل . قال « سر إلى فقير أو جهد من مقل » رواه أحمد ورواه ابن أبى حاتم من طريق على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة عن أبى ذر فذكره وزاد ثم شرع فى هذه الآية (إن تبدوا الصدقات فنعماهى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) الآية وفى الحديث المروى « صدقة السر تطفىء غضب الرب عز وجل » وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى حدثنا الحسين بن زياد المحاربى مؤدب محارب أنا موسى بن عمير عن عامر الشعبى فى قوله (إن تبدوا الصدقات فنعماهى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) قال أنزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ « ماخلفت وراءك لأهلك ياعمر » قال خلفت لهم نصف مالى وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ « ماخلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر » فقال عدة الله وعدة رسوله . فبكى عمر رضى الله عنه وقال بأبى أنت وأمى يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقا . وهذا الحديث روى من وجه آخر عن عمر رضى الله عنه وإنما أوردناه ههنا لقول الشعبى إن الآية نزلت فى ذلك ثم إن الآية عامة فى أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة لكن روى ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال . جعل الله صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها يقال[1] بسبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا

وقوله (ويكفر عنكم من سيئاتكم) أى بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سرا يحصل لكم الخير فى رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات وقد قرىء ويكفر بالجزم عطفا على محل جواب الشرط وهو قوله (فنعماهى) كقوله فأصدق وأكون وأكن وقوله (والله بما تعملون خبير) أى لايخفى عليه من ذلك شىء وسيجزيكم عليه

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

قال أبو عبد الرحمن النسائى أنبأنا محمد بن عبد السلام بن عبد الرحيم أنبأنا الفريابى حدثنا سفيان عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فرخص لهم فنزلت هذه الآية (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وماتنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لاتظلمون) وكذا رواه أبوحذيفة وابن المبارك وأبو أحمد الزبيرى وأبو داود الحضرمى عن سفيان وهوالثورى به وقال ابن أبى حاتم : أنبأنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثنى أحمد ابن عبد الرحمن يعنى الدشتكى حدثنى أبى عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه كان يأمر بأن لايتصدق إلا على أهل الاسلام حتى نزلت هذه الآية (ليس عليك هداهم) إلى

(١) ليس فى تفسير ابن جرير كلمة يقال هنا بل فيها بعده سقط .

آخرها فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين وسيأتى عند قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم) الآية حديث أسماء بنت الصديق فى ذلك

وقوله (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم) كقوله (من عمل صالحا فلنفسه) ونظائرها فى القرآن كثيرة

وقوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) قال الحسن البصرى : نفقة المؤمن لنفسه ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله وقال عطاء الخراسانى : يعنى إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله وهذا معنى حسن وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله ولا عليه فى نفس الأمر لمن أصاب ألبر أو فاجر أو مستحق أو غيره وهو مثاب على قصده ومستند هذا تمام الآية (وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) والحديث المخرج فى الصحيحين من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبح الناس يتحدثون تصدق على زانية فقال اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على غنى قال : اللهم لك الحمد على غنى ، لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غنى وعلى سارق فأتى فقيل له أما صدقتك فقد قبلت وأما الزانية فلعلها أن تستعفف بها عن زنا ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته »

وقوله (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله) يعنى المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و (لا يستطيعون ضربا فى الأرض) يعنى سفراً للتسبب فى طلب المعاش والضرب فى الأرض هو السفر قال الله تعالى (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) وقال تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) الآية

وقوله (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) أى الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم فى لباسهم وحالهم ومقالهم وفى هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً » وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضاً

وقوله (تعرفهم بسيماهم) أى بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى (سيماهم فى وجوههم) وقال (ولتعرفنهم فى لحن القول) وفى الحديث الذى فى السنن « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » ثم قرأ (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين)

وقوله (لا يسألون الناس إلحافا) أى لا يلحون فى المسئلة ويكلفون الناس مالا يحتاجون إليه فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسئلة فقد ألحف فى المسئلة قال البخارى : حدثنا ابن أبى مريم حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شريك بن أبى نمر أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبى عمرة الأنصارى قالا : سمعنا أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذى يتعفف اقرءوا إن شئتم يعنى قوله (لا يسألون الناس إلحافا) وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن جعفر المدينى عن شريك بن عبد الله ابن أبى نمر عن عطاء بن يسار وحده عن أبى هريرة به ، وقال أبو عبد الرحمن النسائى : أخبرنا على بن حجر حدثنا إسماعيل أخبرنا شريك وهو ابن أبى نمر عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان إنما المسكين المتعفف اقرءوا إن شئتم (لا يسألون الناس إلحافا) وروى البخارى من حديث شعبة عن محمد بن أبى زياد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن أبى ذئب عن أبى الوليد عن أبى هريرة أن

رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال « ليس المسكين بالطواف عليكم فتطعمونه لقمة لقمة إنما المسكين المتعفف الذى لا يسأل الناس إلحافا » وقال ابن جرير : حدثنى معتمر عن الحسن بن مالك عن صالح بن سويد عن أبى هريرة قال: ليس المسكين بالطواف الذى ترده الأكلة والأكلتان ولكن المسكين المتعفف فى بيته لا يسأل الناس شيئاً تصيبه الحاجة اقرءوا إن شئتم (لا يسألون الناس إلحافا) وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو بكر الحنفى حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن رجل من مزينة أنه قالت له أمه ألا تنطلق فتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يسأله الناس فانطلقت أسأله فوجدته قائما يخطب وهو يقول « ومن استعف أعفه الله ومن استغنى أغناه الله ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافا » فقلت بينى وبين نفسى[1] لناقة لهى خير من خمس أواق ولغلامه ناقة أخرى فهى خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال عن عمارة ابن عرفة عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال، سرحتنى أمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فأتيته فقعدت قال : فاستقبلنى فقال « من استغنى أغناه الله ومن استعف أعفه الله ومن استكف كفاه الله ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف » قال فقلت ناقتى الياقوتة خير من أوقية فرجعت فلم أسأله وهكذا رواه أبو داود والنسائى كلاهما عن قتيبة زاد أبو داود وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى الرجال بإسناده نحوه وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال عن عمارة بن عرفة عن عبد الرحمن بن أبى سعيد قال: قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف » والأوقية أربعون درهما وقال أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن رجل من بنى أسد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا » وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حكيم بن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل وله ما يغنيه جاءت مسئلته يوم القيامة خدوشا أو كدوحا فى وجهه » قالوا يا رسول الله وما غناه ؟ قال : « خمسون درهما أو حسابها من الذهب » وقد رواه أهل السنن الأربعة من حديث حكيم بن جبير الأسدى الكوفى وقد تركه شعبة بن الحجاج وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا أبو حسين عبد الله بن أحمد بن يونس حدثنى أبى حدثنا أبو بكر بن عياش عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين قال : بلغ الحارث رجلا كان بالشام من قريش أن أبا ذر كان به عوز فبعث إليه ثلثمائة دينار فقال ما وجد عبد الله رجلا أهون عليه منى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سأل وله أربعون فقد ألحف » ولآل أبى ذر أربعون درهما وأربعون شاة وماهنان قال أبو بكر بن عياش : يعنى خادمين وقال ابن مردويه . حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم أخبرنا إبراهيم بن محمد أنبأنا عبد الجبار أخبرنا سفيان عن داود بن سابور عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله أربعون درهما فهو ملحف وهو مثل سف الملة » يعنى الرمل ، ورواه النسائى عن أحمد بن سليمان عن أحمد بن آدم عن سفيان وهو ابن عيينة بإسناده نحوه وقوله (وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) أى لا يخفى عليه شىء منه وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه

وقوله (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف ولا هم يحزنون) هذا مدح منه تعالى للمنفقين فى سبيله وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار والأحوال من سر وجهر حتى ان النفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضا كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص حين عاده مريضاً عام الفتح ، وفى رواية عام حجة الوداع « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل فى فى امرأتك » ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر وبهز قالا : حدثنا شعبة عن عدى ابن ثابت قال : سمعت عبد الله بن يزيد الأنصارى يحدث عن أبى مسعود رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم

(١) هكذا فى النسخ ولعله لنا ناقة الخ أو نحو ذلك وقوله ولغلامه ناقة الخ كذا فى النسخ وحرر الرواية

أنه قال « إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة » أخرجاه من حديث شعبة به وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن شعيب قال سمعت سعيد بن يسار عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكى عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم » فى أصحاب الخيل. وقال حبش الصنعانى : عن ابن شهاب عن ابن عباس فى هذه الآية قال هم الذى يعلفون الخيل فى سبيل الله ، رواه ابن أبى حاتم ثم قال وكذا روى عن أبى أمامة وسعيد بن المسيب ومكحول ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج أخبرنا يحيى بن يمان عن عبد الوهاب بن مجاهد عن ابن جبير عن أبيه قال : كان لعلى أربعة دراهم فأنفق درهما ليلا ودرهما نهاراً ودرهما سراً ودرهما علانية فنزلت (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية) وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف لكن رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وقوله (فلهم أجرهم عند ربهم) أى يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق فى الطاعات (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) تقدم تفسيره :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات المخرجين الزكوات المتفضلين بالبر والصدقات لذوى الحاجات والقرابات فى جميع الأحوال والأوقات شرع فى ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) أى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له وذلك أنه يقوم قياما منكراً ، وقال ابن عباس . آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق ، رواه ابن أبى حاتم قال وروى عن عوف ابن مالك وسعيد بن جبير والسدى والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك وحكى عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا . فى قوله (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) يعنى لا يقومون يوم القيامة ، وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد والضحاك وابن زيد ، وروى ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر بن أبى مريم عن ضمرة بن حنيف عن أبى عبد الله بن مسعود عن أبيه أنه كان يقرأ ـ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة ـ وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا ربيعة بن كلثوم حدثنا أبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب وقرأ (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) وذلك حين يقوم من قبره وفى حديث أبى سعيد فى الإسراء كما هو مذكور فى سورة سبحان أنه عليه السلام مر ليلتئذ بقوم لهم أجواف مثل البيوت فسأل عنهم فقيل : هؤلاء أكلة الربا . رواه البيهقى مطولا ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى الصلت عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجرى من خارج بطونهم فقلت . من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا » ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان كلاهما عن حماد ابن سلمة به ، وفى إسناده ضعف وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب فى حديث النام الطويل فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه حجراً وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا

وقوله (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا. وأحل الله البيع وحرم الربا) أى إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه وليس هذا قياسا منهم للربا على البيع لأن المشركين لايعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع وإنما قالوا (إنما البيع مثل الربا) أى هو نظيره فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع أى هذا مثل هذا وقد أحل هذا وحرم هذا وقوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) . يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردا عليهم أى على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكما وهو العليم الحكيم الذى لامعقب لحكمه ولايسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وماينفع عباده فيبيحه لهم وما يضرهم فينهاهم عنه وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل ولهذا قال (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله) أى من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع اليه فله ماسلف من المعاملة لقوله (عفا الله عما سلف) وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة « وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمىّ هاتين وأول ربا أضع ربا العباس » ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى (فله ما سلف وأمره إلى الله) قال سعيد بن جبير والسدى : فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحريم . وقال ابن أبى حاتم قرأ على محمد بن عبدالله بن عبد الحكم أخبرنا ابن وهب أخبرنى جرير بن حازم عن أبى إسحق الهمدانى عن أم يونس يعنى امرأته العالية بنت أبقع أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم بحنة أم ولد زيد بن أرقم يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم قالت : نعم قالت : فانى بعته عبدا إلى العطاء بثمانمائة فاحتاج إلى ثمنه فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة فقالت بئس مااشتريت وبئس ما اشتريت أبلغى زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بطل إن لم يتب قالت : فقلت أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة قالت : نعم (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) وهذا الأثر مشهور وهو دليل لمن حرم مسئلة العينة مع ماجاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة فى كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة ، ثم قال تعالى (ومن عاد) أى إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهى الله عنه فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة ولهذا قال (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقد قال أبوداود : حدثنا يحيى أبوداود حدثنا يحيى بن معين أخبرنا عبدالله بن رجاء المكى عن عبدالله بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابر قال : لما نزلت (الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله » ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى خيثم ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وإنما حرمت المخابرة وهى المزارعة ببعض مايخرج من الأرض والمزابنة وهى اشتراء الرطب فى رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض والمحاقلة وهى اشتراء الحب فى سنبله فى الحقل بالحب على وجه الأرض إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسما لمادة الربا لأنه لا يعلم التساوى بين الشيئين قبل الجفاف ولهذا قال الفقهاء : الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة ، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة اليه وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم وقد قال تعالى (وفوق كل ذى علم عليم) وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد الينا فيهن عهداً ننتهى اليه : الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا ـ يعنى بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة اليه مثله لأن ما أفضى إلى الحرام حرام كما أن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وقد ثبت فى الصحيحين عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » وفى السنن عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « دع مايريبك إلى مالا يريبك » وفى الحديث الآخر « الاثم ما حاك فى القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » وفى رواية « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك »

وقال الثورى عن عاصم عن الشعبى عن ابن عباس قال : آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا رواه البخارى عن قبيصة عنه وقال أحمد عن يحيى عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب أن عمرقال من آخر ما نزل آية الربا وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا فدعوا الربا والريبة وقال رواه ابن ماجه وابن مردويه من طريق هياج بن بسطام عن داود بن أبى هند عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال إنى لعلى أنهاكم عن أشياء تصلح لكم وآمركم بأشياء لا تصلح لكم وإن من آخر القرآن نزولا آية الربا وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا فدعوا ما يريبكم إلى مالا يريبكم وقد قال ابن أبى عدى بالاسناد موقوفا فذكره ورده الحاكم فى مستدركه وقد قال ابن ماجه حدثنا عمرو بن على الصيرفى حدثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن زبيد عن إبراهيم عن مسروق عن عبد الله هو ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الربا ثلاثة وسبعون بابا » ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عمرو بن على الفلاس باسناد مثله وزاد أيسرها أن ينكح الرجل أمه وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال ابن ماجه حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا عبد الله بن إدريس عن أبى معشر عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الربا سبعون جزءا أيسرها أن ينكح الرجل أمه » وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم عن عباد بن راشد عن سعيد ابن أبى خيرة حدثنا الحسن منذ نحو من أربعين أو خمسين سنة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا » قال قيل له الناس كلهم ؟ قال « من لم يأكله منهم ناله من غباره » وكذا رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه من غير وجه عن سعيد بن أبى خيرة عن الحسن به ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن فحرم التجارة فى الخمر وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذى من طرق عن الأعمش به وهكذا لفظ رواية البخارى عند تفسير هذه الآية فحرم التجارة وفى لفظ له عن عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس ثم حرم التجارة فى الخمر قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة : لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضى اليه من تجارة ونحو ذلك كما قال عليه السلام فى الحديث المتفق عليه « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها » وقد تقدم فى حديث على وابن مسعود وغيرهما عند لعن المحلل فى تفسير قوله (حتى تنكح زوجا غيره) قوله ﷺ « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه » قالوا وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر فى صورة عقد شرعى ويكون داخله فاسدا فالاعتبار بمعناه لا بصورته لأن الأعمال بالنيات وفى الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية كتابا فى إبطال التحليل تضمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية إلى كل باطل وقد كفى فى ذلك وشفى فرحمه الله ورضى عنه

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يمحق الربا أى يذهبه إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به بل يعدمه به فى الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة كما قال تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) وقال تعالى (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم) وقال (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) الآية وقال ابن جرير : فى قوله (يمحق الله الربا) وهذا نظير الخبر الذى روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال

الربا وإن كثر فان عاقبته تصير إلى قل وهـذا الحديث قد رواه الإمام أحمـد فى مسنده فقال : حدثنا حجاج حدثنا شريك عن الركين بن الربيع عن أبيه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الربا وإن كثر فان عاقبته تصير إلى قل » وقد رواه ابن ماجه عن العباس بن جعفر عن عمرو بن عون عن يحيى بن أبى زائدة عن إسرائيل عن الركين ابن الربيع بن عميلة الفزارى عن أبيه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قل » وهـذا من باب المعاملة بنقيض المقصود كما قال الإمام أحمـد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا الهيثم بن نافع الظاهرى حدثنى أبو يحيى رجل من أهل مكة عن فروخ مولى عثمان أن عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين خرج من المسجد فرأى طعاما منشوراً فقال : ما هـذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جلب إلينا قال بارك الله فيه وفيمن جلبه قيل يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر قال من احتكره ؟ قالوا فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر فأرسل إليهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالا : يا أمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافـلاس أو بجذام » فقال فروخ عنـد ذلك أعاهـد الله وأعاهدك أن لا أعود فى طعام أبداً وأما مولى عمر فقال إنما نشترى بأموالنا ونبيع قال أبو يحيى فلقد رأيت مولى عمر مجذوما ورواه ابن ماجه من حديث الهيثم بن رافع به ولفظه «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس والجذام»

وقوله (ويربى الصدقات) قرىء بضم الياء والتخفيف من ربا الشىء يربو وأرباه يربيه أى كثره ونماه ينميه وقرىء يربى بالضم والتشديد من التربية قال البخارى حدثنا عبد الله بن كثير أخبرنا كثير سمع أبا النضر حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فان الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل » كذا رواه فى كتاب الزكاة وقال فى كتاب التوحيد وقال خالد بن مخلد بن سليمان بن بلال عن عبد الله بن دينار فذكر بإسناده نحوه وقد رواه مسلم فى الزكاة عن أحمـد بن عثمان بن حكيم عن خالد بن مخلد فذكره قال البخارى ورواه مسلم بن أبى مريم وزيد بن أسـلم وسهيل عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قلت أما رواية مسلم ابن أبى مريم فقد تفرد البخارى بذكرها وأما طريق زيد بن أسلم فرواها مسلم فى صحيحه عن أبى الطاهر بن السرح عن أبى وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم به وأما حديث سهيل فرواه مسلم عن قتيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن عن سهيل به والله أعلم قال البخارى وقال ورقاء عن ابن دينار عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد أسند هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البيهقى عن الحاكم وغيره عن الأصم عن العباس المروزى عن أبى الزناد هاشم بن القاسم عن ورقاء وهو ابن عمر اليشكرى عن عبد الله بن دينار عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى يكون مثل أحد » وهكذا روى هذا الحديث مسلم والترمذى والنسائى جميعاً عن قتيبة عن الليث بن سعد عن سعيد المقبرى وأخرجه النسائى من رواية مالك عن يحيى بن سعيد الأنصارى ومن طريق يحيى القطان عن محمد بن عجلان ثلاثتهم عن سعيد بن يسار أبى الحباب المدنى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فذكره وقد روى عن أبى هريرة من وجه آخر فقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن عبـد الله الأودى حدثنا وكيع عن عباد بن منصور حدثنا القاسم بن محمد قال سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد » وتصديق ذلك فى كتاب الله (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) وكذا رواه أحمـد عن وكيع وهو فى تفسير وكيع ورواه الترمذى عن أبى كريب عن وكيع به وقال حسن صحيح وكذا رواه الترمذى عن عباد بن منصور به ورواه أحمد أيضاً عن خلف بن الوليد عن ابن المبارك عن عبد الواحد بن ضمرة وعباد بن منصور كلاهما عن أبى نضرة عن القاسم به وقد رواه ابن جرير عن محمـد بن عبد الملك بن إسحق عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن القاسم

ابن محمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا تصدق من طيب يقبلها الله منه فيأخذها بيمينه ويربيها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله أو قال في كف الله حتى تكون مثل أحد فتصدقوا » وهكذا رواه أحمد عن عبد الرزاق وهذا طريق غريب صحيح الإسناد ولكن لفظه عجيب والمحفوظ ما تقدم وروى عن عائشة أم المؤمنين فقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن ثابت عن القاسم بن محمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله ليربي لأحدكم التمرة واللقمة كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال البزار حدثنا يحي بن المعلى بن منصور حدثنا إسماعيل حدثني أبي عن يحي بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الضحاك بن عثمان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب فيتلقاها الرحمن بيده فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو وصيفه » أو قال فصيله ثم قال لا نعلم أحدا رواه عن يحي بن سعيد عن عمرة إلا أبا أويس

وقوله (والله لا يحب كل كفار أثيم) أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من النعمة ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل — ثم قال تعالى مادحا للمؤمنين بربهم المطيعين أمره المؤدين شكره المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مخبراً عما أعد لهم من الكرامة وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ناهيا لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون (وذروا ما بقي من الربا) أي اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الانذار (إن كنتم مؤمنين) أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك . وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدي أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف وبني المغيرة من بني مخزوم كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا فتركوه كلهم وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الانذار قال ابن جريج قال ابن عباس فأذنوا بحرب أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله وتقدم من رواية ربيعة بن كلثوم عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب ثم قرأ (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) فمن كان مقيما على الربا لا ينزع عنه كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه فان نزع وإلا ضرب عنقه وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد

ابن بشار حدثنا عبد الأعلى حدثنا هشام بن حسان عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح وقال قتادة أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون وجعلهم بهرجا أين ما أتوا فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه فلا يلجئنكم إلى معصيته فاقة . رواه ابن أبي حاتم ، وقال الربيع بن أنس : أوعد الله آكل الربا بالقتل رواه ابن جرير وقال السهيلي : ولهذا قالت عائشة لأم محبة مولاة زيد بن أرقم في مسئلة العينة أخبريه أن جهاده مع النبي ﷺ قد أبطل إلا أن يتوب فخصت الجهاد لأنه ضد قوله (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) قال وهذا المعنى ذكره كثير قال ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف

ثم قال تعالى (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون) أي بأخذ الزيادة (ولا تظلمون) أي بوضع رءوس الأموال أيضا بل لكم مابذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن الحسين بن اشكاب حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن شبيب بن غرقدة البارقي عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال : خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال « ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله لكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله » كذا وجده سليمان بن الأحوص وقد قال ابن مردويه حدثنا الشافعي حدثنا معاذ بن المثنى أخبرنا مسدد أخبرنا أبو الأحوص حدثنا شبيب بن غرقدة عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » وكذا رواه من حديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي حمزة الرقاشي عن عمرو هو ابن خارجة فذكره

وقوله (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين إما أن تقضي وإما أن تربي ، ثم يندب إلى الوضع عنه ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال (وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن الدين ، وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك (فالحديث الأول) عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال الطبراني حدثنا عبد الله بن محمد بن شعيب المرجاني حدثنا يحيى بن حكيم المقوم حدثنا محمد بن بكر البرساني حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثني عاصم بن عبيد الله عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ « من سره أن يظله الله يوم لاظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه » (حديث آخر) عن بريدة قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا محمد بن جحادة عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال سمعت النبي ﷺ يقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة » قال ثم سمعته يقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثلاه صدقة » قلت سمعتك يارسول الله تقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة » ثم سمعتك تقول «من أنظر معسرا فله بكل يوم مثلاه صدقة » قال «له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة » (حديث آخر) عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري قال أحمد حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا أبو جعفر الخطمي عن محمد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبيء منه فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه فقال نعم هو في البيت يأكل خزيرة فناداه فقال يافلان اخرج فقد أخبرت أنك هاهنا فخرج اليه فقال مايغيبك عني ؟ فقال إني معسر وليس عندي شيء ، قال آلله إنك معسر ؟ قال نعم فبكى أبو قتادة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة » ورواه مسلم في صحيحه (حديث آخر) عن حذيفة بن اليمان قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا الأخنس أحمد بن عمران حدثنا محمد بن فضيل حدثنا أبو مالك الأشجعي عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال ماذا عملت لي في الدنيا ؟

فقال ماعملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها ـ قالها ثلاث مرات ـ قال العبد عند آخرها يارب إنك كنت أعطيتنى فضل مال وكنت رجلا أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر ، قال فيقول الله عز وجل أنا أحق من ييسر ادخل الجنة » وقد أخرجه البخارى ومسلم وابن ماجه من طرق عن ربعى ابن حراش عن حذيفة زاد مسلم وعقبة بن عامر وأبى مسعود البدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه ولفظ البخارى(١) حدثنا هشام بن عمار حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا الزهرى عن عبدالله بن عبد الله أنه سمع أباهريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه » (حديث آخر) عن سهل بن حنيف قال الحاكم فى مستدركه حدثنا أبوعبدالله محمد بن يعقوب حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى حدثنا أبو الوليد هشام بن عبدالملك حدثنا عمرو بن ثابت حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل عن عبدالله بن سهل ابن حنيف أن سهلا حدثه أن رسول الله ﷺ قال « من أعان مجاهدا فى سبيل الله أو غازيا أو غارما فى عسرته أو مكاتبا فى رقبته أظله الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله » ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه

(حديث آخر) عن عبدالله بن عمر قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد عن يوسف بن صهيب عن زيد العمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » انفرد به أحمد (حديث آخر) عن أبى مسعود عقبة بن عمرو قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا أبومالك عن ربعى ابن حراش عن حذيفة أن رجلا أتى به الله عزوجل فقال ماذا عملت فى الدنيا ؟ فقال له الرجل ماعملت مثقال ذرة من خير فقال له ثلاثا وقال فى الثالثة إنى كنت أعطيتنى فضلا من المال فى الدنيا فكنت أبايع الناس فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال تبارك وتعالى نحن أولى بذلك منك تجاوزوا عن عبدى ، فغفر له قال أبومسعود هكذا سمعت من النبى ﷺ وهكذا رواه مسلم من حديث أبى مالك سعد بن طارق به

(حديث آخر) عن عمران بن حصين قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر أخبرنا أبوبكر عن الأعمش عن أبى داود عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « من كان له على رجل حق فأخره كان له بكل يوم صدقة » غريب من هذا الوجه وقدتقدم عن بريدة نحوه

(حديث آخر) عن أبى اليسر كعب بن عمرو قال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى قال حدثنا أبو اليسر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله عز وجل فى ظله يوم لاظل إلا ظله » وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من وجه آخر من حديث عباد بن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال خرجت أنا وأبى نطلب العلم فى هذا الحى من الأنصار قبل أن يهلكوا فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غلام له معه ضمامة من صحف وعلى أبى اليسر بردة ومعافرى وعلى غلامه بردة ومعافرى فقال له أبى ياعم إنى أرى فى وجهك سفعة من غضب قال أجل كان لى على فلان بن فلان الرامى مال فأتيت أهله فسلمت فقلت أثم هو قالوا لا فخرج على ابن له جفر فقلت أين أبوك فقال سمع صوتك فدخل أريكة أمى فقلت اخرج إلى فقد علمت أين أنت فخرج فقلت ماحملك على أن اختبأت منى ؟ قال أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك خشيت والله أن أحدثك فأكذبك أو أعدك فأخلفك وكنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت والله معسرا قال قلت آلله قال قلت الله ؟ الله ثم قال فأتى بصحيفته فمحاها بيده ثم قال فإن وجدت قضاء فاقضنى وإلا فأنت فى حل ، فأشهد أبصر عيناى هاتان ـ ووضع اصبعيه على عينيه ـ وسمع أذناى هاتان ووعاه قلبى ـ وأشار إلى نياط قلبه ـ رسول الله ﷺ وهو يقول « من أنظر معسرا أووضع عنه أظله الله فى ظله » وذكر تمام الحديث (حديث آخر) عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنى أبو يحيى البزار محمد ابن عبد الرحمن حدثنا الحسن بن أسيد بن سالم الكوفى حدثنا العباس بن الفضل الأنصارى عن هشام بن زياد القرشى عن أبيه عن محجن مولى عثمان عن عثمان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أظل الله عينا فى ظله يوم لاظل

(١) هنا بياض فى النسختين الأميرية والمخطوطة ووقعت هذه الزيادة من قوله حدثنا إلى آخر الحديث فى نسخة أخرى ولعلها نقلت من صحيح البخارى والله أعلم.

إلا ظله من أنظر معسراً أو ترك لغارم »

(حديث آخر) عن ابن عباس قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا نوح بن جعونة السلمي الخراساني عن مقاتل ابن حيان عن عطاء عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا وأومأ أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض «من أنظر معسراً أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم ألا إن عمل الجنة حزن بربوة ـ ثلاثا ـ ألا إن عمل النار سهل بسهوة ، والسعيد من وقى الفتن وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيمانا » تفرد به أحمد ،

(طريق آخر) قال الطبراني حدثنا أحمد بن محمد البوراني قاضي الحديبية[1] من ديار ربيعة حدثنا الحسن بن علي الصدائي حدثنا الحكم بن الجارود حدثنا ابن أبي المتئد خال ابن عيينة عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ « من أنظر معسراً إلى ميسرته أنظره الله بذنبه إلى توبته »

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته فقال (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وقد روى أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم فقال ابن لهيعة حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال آخر ما نزل من القرآن كله (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول رواه ابن أبي حاتم وقد رواه ابن مردويه من حديث المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال آخر آية نزلت (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) وقد رواه النسائي من حديث يزيد النحوي عن عكرمة عن عبد الله بن عباس قال آخر شيء نزل من القرآن (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وكذا رواه الضحاك والعوفي عن ابن عباس وروى الثوري عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال آخر آية نزلت (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) فكان بين نزولها وموت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوما وقال ابن جريج قال ابن عباس آخر آية نزلت (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الآية قال ابن جريج يقولون إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدئ يوم السبت ومات يوم الاثنين رواه ابن جرير ورواه ابن عطية عن أبي سعيد قال آخر آية نزلت (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْـَٔمُوٓا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(١) وفي نسخة الأزهر (الحديثه) ولعلها الصواب والرجل ليس من رواة الجماعة .

هذه الآية الكريمة أطول آية فى القرآن العظيم وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب قال حدثنى سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من جحد آدم عليه السلام أن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذار إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلا يزهو فقال أى رب من هذا؟ قال هو ابنك داود قال أى رب كم عمره ؟ قال ستون عاما ، قال رب زد فى عمره قال لا إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف سنة فزاده أربعين عاما فكتب عليه بذلك كتابا وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال إنه قد بقى من عمرى أربعون عاما فقيل له إنك قد وهبتها لابنك داود قال ، ما فعلت ، فأبرز الله عليه الكتاب وأشهد عليه الملائكة » وحدثنا أسود بن عامر عن حماد بن سلمة فذكره وزاد فيه « فأتمها الله لداود مائة وأتمها لآدم ألف سنة » وكذا رواه ابن أبى حاتم عن يوسف بن أبى حبيب عن أبى داود الطيالسى عن حماد بن سلمة هذا حديث غريب جداً وعلى بن زيد ابن جدعان فى أحاديثه نكارة وقد رواه الحاكم فى مستدركه بنحوه من حديث الحارث بن عبد الرحمن بن أبى وثاب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة ومن رواية أبى داود بن أبى هند عن الشعبى عن أبى هريرة ومن طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة ومن حديث تمام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فذكره بنحوه

فقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا معاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها وقد نبه على هذا فى آخر الآية حيث قال (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) قال أنزلت فى السلم إلى اجل معلوم وقال قتادة عن أبى حسان الأعرج عن ابن عباس قال أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى) رواه البخارى وثبت فى الصحيحين من رواية سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح عن عبد الله بن كثير عن أبى المنهال عن ابن عباس قال: قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله ﷺ « من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » وقوله (فاكتبوه) أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ فان قيل فقد ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلا لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم قال ابن جريج من ادان فليكتب ومن ابتاع فليشهد وقال قتادة ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشى كان رجلا صحب كعبا فقال ذات يوم لأصحابه هل تعلمون مظلوما دعا ربه فلم يستجب له ؟ فقالوا وكيف يكون ذلك ؟ قال رجل باع بيعا إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب فلما حل ماله جحده صاحبه فدعا ربه فلم يستجب له لأنه قد عصى ربه. وقال أبو سعيد والشعبى والربيع بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم كان ذلك واجبا ثم نسخ بقوله (فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته) والدليل على ذلك أيضا الحديث الذى حكى عن شرع من قبلنا مقرراً فى شرعنا ولم ينكر عدم الكتابة والإشهاد قال الإمام أحمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال ائتنى بشهداء أشهدهم قال كفى بالله شهيداً قال ائتنى بكفيل قال كفى بالله كفيلا قال صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يقدم عليه للأجل

الذى آجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ثم قال اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت فلاناً ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضى بذلك وسألنى شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً فرضى بذلك وإنى قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها اليه بالذى أعطانى فلم أجد مركباً وإنى استودعتكها فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يطلب مركباً إلى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيئه بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه . قال هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال ألم أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل هذا الذى جئت فيه ؟ قال فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة فانصرف بألفك راشداً . وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخارى فى سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم فقال وقال الليث بن سعيد فذكره ويقال إنه رواه فى بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه

وقوله تعالى (فليكتب بينكم كاتب بالعدل) أى بالقسط والحق ولا يجر فى كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان وقوله (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) أى ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ولا ضرورة عليه فى ذلك فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب كما جاء فى الحديث « إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » وفى الحديث الآخر « من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وقال مجاهد وعطاء واجب على الكاتب أن يكتب وقوله (وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه) أى وليملل المدين على الكاتب ما فى ذمته من الدين وليتق الله فى ذلك (ولا يبخس منه شيئاً) أى لا يكتم منه شيئاً (فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً) محجوراً عليه بتبذير ونحوه (أو ضعيفاً) أى صغيراً أو مجنوناً (أو لا يستطيع أن يمل هو) إما لعى أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه (فليملل وليه بالعدل)

وقوله (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) أمر بالاشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) وهذا إنما يكون فى الأموال وما يقصد به المال وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة كما قال مسلم فى صحيحه حدثنا قتيبة حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبى عمرو عن المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يامعشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فانى رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يارسول الله أكثر أهل النار ؟ قال « تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن » قالت يارسول الله ما نقصان العقل والدين : قال « أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالى لا تصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين »

وقوله (ممن ترضون من الشهداء) فيه دلالة على اشتراط العدالة فى الشهود وهذا مقيد حكم به الشافعى على كل مطلق فى القرآن من الأمر بالاشهاد من غير اشتراط وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلا مرضياً . وقوله (أن تضل إحداهما) يعنى المرأتين إذا نسيت الشهادة (فتذكر إحداهما الأخرى) أى يحصل لها ذكر بما وقع به من الاشهاد وبهذا قرأ آخرون فتذكر بالتشديد من التذكار ومن قال إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد والصحيح الأول والله أعلم

وقوله (ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) قيل معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الاجابة وهو قول قتادة والربيع بن أنس وهذا كقوله (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية قيل وهو مذهب الجمهور والمراد بقوله (ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) للاداء لحقيقة قوله الشهداء والشاهد حقيقة فيمن تحمل فإذا دعى لأدائها فعليه الاجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية والله أعلم . وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار وإذا شهدت فدعيت فأجب وقد ثبت فى صحيح مسلم والسنن من طريق مالك عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عبد الله بن عمرو بن عثمان

عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن زيد بن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذى يأتى بشهادته قبل أن يسئلها » فأما الحديث الآخر فى الصحيحين « ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا » وكذا قوله « ثم يأتى قوم تسبق أيمانهم شهاداتهم وتسبق شهاداتهم أيمانهم » وفى رواية « ثم يأتى قوم يشهدون ولا يستشهدون » وهؤلاء[1] شهود الزور وقد روى عن ابن عباس والحسن البصرى أنها تعم الحالين التحمل والأداء

وقوله (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أوكبيرا إلى أجله) هذا من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيرا كان أو كبيرا فقال ولا تسأموا أى لا تملوا أن تكتبوا الحق على أى حال كان من القلة والكثرة إلى أجله وقوله (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) أى هذا الذى أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلا هو أقسط عند الله أى أعدل وأقوم للشهادة أى أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه كما هو الواقع غالبا (وأدنى أن لا ترتابوا) وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذى كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة

وقوله (إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) أى إذا كان البيع بالحاضر يدا بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور فى تركها

فأما الاشهاد على البيع فقد قال تعالى (وأشهدوا إذا تبايعتم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنى يحيى بن عبدالله ابن بكر حدثنى ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى (وأشهدوا إذا تبايعتم) يعنى أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن فيه أجل. فأشهدوا على حقكم على كل حال قال وروى عن جابر بن زيد ومجاهد وعطاء والضحاك نحو ذلك وقال الشعبى والحسن هذا الأمر منسوخ بقوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته) وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الارشاد والندب لا على الوجوب والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصارى وقد رواه الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى حدثنى عمارة بن خزيمة الأنصارى أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابى فاستتبعه النبى صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه فأسرع النبى ﷺ وأبطأ الأعرابى فطفق رجال يعترضون الأعرابى فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبى صلى الله عليه وسلم ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه النبى ﷺ فنادى الأعرابى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته فقام النبى ﷺ حين سمع نداء الأعرابى قال أوليس قد ابتعته منك قال الأعرابى لا والله ما بعتك فقال النبى ﷺ « بل قد ابتعته منك » فطفق الناس يلوذون بالنبى ﷺ والأعرابى وهما يتراجعان فطفق الأعرابى يقول هلم شهيدا يشهد أنى بايعتك فمن جاء من المسلمين قال للاعرابى ويلك إن النبى ﷺ لم يكن يقول إلا حقا حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبى ﷺ ومراجعة الأعرابى يقول هلم شهيدا يشهد أنى بايعتك قال خزيمة أنا أشهد أنك قد بايعته فأقبل النبى ﷺ على خزيمة فقال « بم تشهد » ؟ فقال بتصديقك يارسول الله فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب والنسائى من رواية محمد بن الوليد الزبيدى كلاهما عن الزهرى به نحوه ولكن الاحتياط هو الارشاد لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه والحاكم فى مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبرى عن شعبة عن فراس عن الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم : رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ ورجل أقرض رجلا مالا فلم يشهد » ثم قال الحاكم صحيح الاسناد على شرط الشيخين قال ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبى موسى وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الاسناد « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين »

وقوله تعالى (ولا يضار كاتب ولا شهيد) قيل معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد فيكتب هذا خلاف ما يملى ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما وقيل معناه لا يضر بهما قال ابن أبى حاتم حدثنا

---

(١) لعل الأصل فهؤلاء ـ لأنه جواب فأما .

أسيد بن عاصم حدثنا الحسين يعنى ابن حفص حدثنا سفيان عن يزيد بن أبى زياد عن مقسم عن ابن عباس فى هذه الآية (ولا يضار كاتب ولا شهيد) قال يأتى الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة فيقولان إنا على حاجة فيقول إنكما قد أمرتما أن تجيبا ، فليس له أن يضارهما ، ثم قال وروى عن عكرمة ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير والضحاك وعطية ومقاتل ابن حيان والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك وقوله (وإن تفعلوا فانه فسوق بكم) أى إن خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه فانه فسق كائن بكم أى لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه وقوله (واتقوا الله) أى خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره (ويعلمكم الله) كقوله (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وكقوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) وقوله (والله بكل شىء عليم) أى هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شىء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (وإن كنتم على سفر) أى مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى (ولم تجدوا كاتبا) يكتب لكم قال ابن عباس أو وجدوه ولم يجدوا قرطاسا أو دواة أو قلما فرهن مقبوضة أى فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أى فى يد صاحب الحق وقد استدل بقوله (فرهن مقبوضة) على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعى والجمهور واستدل بها آخرون على أنه لابد أن يكون الرهن مقبوضا فى يد المرتهن وهو رواية عن الإمام أحمد وذهب إليه طائفة واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعا إلا فى السفر قاله مجاهد وغيره وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقا من شعير رهنها قوتا لأهله وفى رواية من يهود المدينة . وفى رواية الشافعى عند أبى الشحم اليهودى وتقرير هذه المسائل فى كتاب الأحكام الكبير ولله الحمد والمنة وبه المستعان

وقوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته) روى ابن أبى حاتم بإسناد جيد عن أبى سعيد الخدرى أنه قال هذه نسخت ما قبلها . وقال الشعبى : إذا ائتمن بعضكم بعضا فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا وقوله (وليتق الله ربه) يعنى المؤتمن كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال « على اليد ما أخذت حتى تؤديه »

وقوله (ولا تكتموا الشهادة) أى لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها قال ابن عباس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك ولهذا قال (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) قال السدى يعنى فاجر قلبه وهذه كقوله تعالى (ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) وهكذا قال ههنا (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم)

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن وأنه المطلع على ما فيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت ، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه فى صدورهم كما قال تعالى (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير) وقال (يعلم السر

وأخفى) والآيات فى ذلك كثيرة جداً وقد أخبر فى هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضى الله عنهم وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنى أبو عبد الرحمن يعنى العلاء عن أبيه عن أبى هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى أثرها (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله .

(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلى آخره ورواه مسلم متفرداً به من حديث يزيد بن زريع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة فذكر مثله ولفظه . فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال نعم (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) قال نعم (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) قال نعم (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال نعم ﴿ حديث ابن عباس فى ذلك ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن آدم بن سليمان سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) قال دخل قلوبهم منها شىء لم يدخل قلوبهم من شىء قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » فألقى الله الإيمان فى قلوبهم فأنزل الله (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) إلى قوله (فانصرنا على القوم الكافرين) وهكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى كريب وإسحق بن إبراهيم ثلاثتهم عن وكيع به وزاد (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال قد فعلت (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) قال قد فعلت (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) قال قد فعلت (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال قد فعلت (طريق أخرى) عن ابن عباس قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال دخلت على ابن عباس فقلت يا أبا عباس كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فبكى قال : أية آية ؟ قلت (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه) قال ابن عباس إن هذه الآية حين أنزلت غمت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غماً شديداً وغاظتهم غيظ شديد يعنى وقالوا يا رسول الله هلكنا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل فأما قلوبنا فليست بأيدينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « قولوا سمعنا وأطعنا » فقالوا سمعنا وأطعنا ، قال فنسختها هذه الآية (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله) إلى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فتجوز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال (طريق أخرى) عنه قال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن سعيد بن مرجانة سمعه يحدث أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية (لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء) الآية فقال والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن ، ثم بكى ابن عمر حتى سمع نشيجه قال ابن مرجانة فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس يغفر الله لأبى عبد الرحمن لعمرى لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد

عبد الله بن عمر فأنزل الله بعدها (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) إلى آخر السورة قال ابن عباس فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها وصار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فى القول والفعل (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا إسحق حدثنا يزيد بن هرون عن سفيان بن حسين عن الزهرى عن سالم أن أباه قرأ (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فدمعت عيناه فبلغ صنيعه ابن عباس فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ حين أنزلت فنسختها الآية التى بعدها (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس ، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس قال البخارى حدثنا إسحق حدثنا روح حدثنا شعبة عن خالد الحذاء عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أحسبه ابن عمر (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه) قال نسختها الآية التى بعدها وهكذا روى عن على وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبى والنخعى ومحمد بن كعب القرظى وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة أنها منسوخة بالتى بعدها ، وقد ثبت بما رواه الجماعة فى كتبهم الستة من طريق قتادة عن زرارة بن أبى أوفى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل »

وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «قال الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً » . لفظ مسلم وهو فى إفراده من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله : إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة » وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ قال : « قال الله إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإن عملها فأنا أكتبها له بمثلها » وقال رسول الله ﷺ « قالت الملائكة رب وذاك أن عبدك(١) يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة وإنما تركها من جراى » وقال رسول الله ﷺ « إذا أحسن أحد إسلامه فان له بكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل » تفرد به مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ وبعضه فى صحيح البخارى وقال مسلم أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا خالد الأحمر عن هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له وإن عملها كتبت » تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب وقال مسلم أيضا حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا عبد الوارث عن الجعد أبى عثمان حدثنا أبو رجاء العطاردى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى قال « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة وان هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة » ثم رواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن جعفر بن سليمان عن الجعد أبى عثمان فى هذا الاسناد بمعنى حديث عبد الرزاق زاد «ومحاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك » وفى حديث سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال جاء ناس من أصحاب رسول ﷺ فسألوه فقالوا إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال «وقد وجدتموه ؟» قالوا نعم قال « ذاك صريح الإيمان » لفظ مسلم وهو عند مسلم أيضاً من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ به وروى مسلم أيضاً من حديث مغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة قال «تلك صريح الإيمان»

(١) وفى نسخة الأزهر وإن عبدك .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فإنها لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول إنى أخبركم بما أخفيتم فى أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتى فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ماحدثوا به أنفسهم وهو قوله (يحاسبكم به الله) يقول يخبركم وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب وهو قوله (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وهو قوله (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) أى من الشك والنفاق وقد روى العوفى والضحاك عنه قريباً من هذا

وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه وعن الحسن البصرى أنه قال هى محكمة لم تنسخ واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر وقد يحاسب ويعاقب بالحديث الذى رواه عند هذه الآية قائلا حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبى عدى عن سعيد بن هشام (ح) وحدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية حدثنا ابن هشام قالا جميعا فى حديثهما عن قتادة عن صفوان بن محرز قال بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله ابن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال يا ابن عمر ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له هل تعرف كذا فيقول رب أعرف مرتين حتى إذا بلغ به ماشاء الله أن يبلغ قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم قال فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الأشهاد (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين) وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة عن قتادة به وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبيه قال سألت عائشة عن هذه الآية (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فقالت ماسألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقالت هذه مبايعة الله العبد وما يصيبه من الحمى والنكبة والبضاعة يضعها فى يد كمه فيفقدها فيفزع لها ثم يجدها فى ضبنته[1] حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر وكذا رواه الترمذى وابن جرير من طريق حماد بن سلمة به وقال الترمذى غريب لانعرفه إلا من حديثه (قلت) وشيخه على بن زيد بن جدعان ضعيف يغرب فى رواياته وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد أمية بنت عبد الله عن عائشة وليس لها عنها فى الكتب سواه

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ ذكر الأحاديث الواردة فى فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما ﴾

﴿ الحديث الأول ﴾ قال البخارى حدثنا محمد بن كثير أخبرنا شعبة عن سليمان عن إبراهيم عن عبد الرحمن عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال « من قرأ الآيتين — وحدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بالآيتين — من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مهران الأعمش باسناده مثله وهو فى الصحيحين من طريق الثورى عن منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن عنه به وهو فى الصحيحين أيضاً عن عبد الرحمن عن علقمة عن ابن مسعود قال عبد الرحمن ثم لقيت أبا مسعود فحدثنى به وهكذا رواه أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك

(١) قوله ثم يجدها فى ضبنته ، هذا ليست فى رواية الترمذى وقوله التبر الأحمر فى النسخة الأميرية (البسر) والظاهر أنه تحريف .

عن عاصم عن المسيب بن رافع عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلته كفتاه »

﴿ الحديث الثاني ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا حسين حدثنا شيبان عن منصور عن ربعى عن خرشة بن الحر عن المعرور ابن سويد عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي » وقد رواه ابن مردويه من حديث الأشجعي عن الثورى عن منصور عن ربعى عن زيد بن ظبيان عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش »

﴿ الحديث الثالث ﴾ قال مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو أسامة حدثنا مالك بن مغول (ح) وحدثنا ابن نمير وزهير بن حرب جميعاً عن عبد الله بن نمير وألفاظهم متقاربة قال ابن نمير حدثنا أبي حدثنا مالك بن مغول عن الزبير بن عدى عن طلحة عن مرة عن عبد الله قال لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال فراش من ذهب قال وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثا أعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سووة البقرة وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات

﴿ الحديث الرابع ﴾ قال أحمد حدثنا إسحق بن إبراهيم الرازى حدثنا سلمة بن الفضل حدثني محمد بن إسحق عن يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ « اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإني أعطيتهما من كنز تحت العرش » هذا إسناد حسن ولم يخرجوه في كتبهم

﴿ الحديث الخامس ﴾ قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا إبراهيم بن إسحق الحربي أخبرنا مروان أنبأنا ابن عوانة عن أبي مالك عن ربعى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « فضلنا على الناس بثلاث أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كنز تحت العرش لم يعطها أحد قبلي ولا يعطاها أحد بعدى » ثم رواه من حديث نعيم بن أبي هند عن ربعى عن حذيفة بنحوه

﴿ الحديث السادس ﴾ قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي بن نافع أنبأنا إسماعيل بن الفضل أخبرنا محمد بن حاتم بن بزيع أخبرنا جعفر بن عون عن مالك بن مغول عن أبي إسحق عن الحارث عن علي قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة فانها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش ورواه وكيع في تفسيره عن إسرائل عن أبي إسحق عن عمير بن عمرو الخارقى عن على قال ما أرى أحداً يعقل بلغه الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة فانها من كنز تحت العرش

﴿ الحديث السابع ﴾ قال أبو عيسى الترمذى حدثنا بندار حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا حماد بن سلمة عن أشعث ابن عبد الرحمن الحرمى عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » ثم قال هذا حديث غريب وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث حماد بن سلمة به وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

﴿ الحديث الثامن ﴾ قال ابن مردويه حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن مدين أخبرنا الحسن بن الجهم أخبرنا إسماعيل بن عمرو أخبرنا ابن مريم حدثني يوسف بن أبي الحجاج عن سعيد عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسى ضحك وقال « إنهما من كنز الرحمن تحت العرش » وإذا قرأ (من يعمل سوءا يجز به) (وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) استرجع واستكان

﴿ الحديث التاسع ﴾ قال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن محمد بن كوفى حدثنا أحمد بن يحيى بن حمزة حدثنا محمد بن بكر حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن أبي حميد عن أبي مليح عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ

« أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش والمفصل نافلة »

﴿ الحديث العاشر ﴾ قد تقدم فى فضائل الفاتحة من رواية عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته رواه مسلم والنسائى وهذا لفظه

فقوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) إخبار عن النبى ﷺ بذلك قال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت عليه هذه الآية « ويحق له أن يؤمن » وقد روى الحاكم فى مستدركه حدثنا أبو النضر الفقيه حدثنا معاذ بن نجدة القرشى حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا أبو عقيل عن يحيى بن أبى كثير عن أنس بن مالك قال لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) قال النبى ﷺ « حق له أن يؤمن » ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه

وقوله (والمؤمنون) عطف على الرسول ثم أخبر عن الجميع فقال (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ولا رب سواه . ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تقوم الساعة على شريعته ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين وقوله (وقالوا سمعنا وأطعنا) أى سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه (غفرانك ربنا) سؤال للمغفرة والرحمة واللطف ، قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن حرب الموصلى حدثنا ابن فضل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قول الله (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون - إلى قوله - غفرانك ربنا) قال قد غفرت لكم (وإليك المصير) أى المرجع والمآب يوم الحساب . قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن سنان عن حكيم عن جابر قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) قال جبريل إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسأل (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) إلى آخر الآية وقوله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) أى لا يكلف أحدا فوق طاقته وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم وهذه هى الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة فى قوله (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) أى هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان ، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان ، وقوله (لها ما كسبت) أى من خير (وعليها ما اكتسبت) أى من شر وذلك فى الأعمال التى تدخل تحت التكليف . ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) أى إن تركنا فرضا على جهة النسيان أو فعلنا حراما كذلك أو أخطأنا أى الصواب فى العمل جهلا منا بوجهه الشرعى . وقد تقدم فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال: « قال الله نعم » ولحديث ابن عباس قال الله « قد فعلت » وروى ابن ماجه فى سننه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى عمرو الأوزاعى عن عطاء قال ابن ماجه فى روايته عن ابن عباس وقال الطبرانى وابن حبان عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا

عليه » وقد روى من طريق آخر وأعله أحمد وأبو حاتم والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبو بكر الهذلى عن شهر عن أم الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تجاوز لأمتى عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه » قال أبو بكر فذكرت ذلك للحسن فقال أجل أما تقرأ بذلك قرآنا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

وقوله (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) أى لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للامم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التى كانت عليهم التى بعثت نبيك محمداً صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة بوضعه(١) فى شرعه الذى أرسلته به من الدين الحنيفى السهل السمح وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قال الله نعم » وعن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قال الله قد فعلت » وجاء فى الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة »

وقوله (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) أى من التكليف والمصائب والبلاء لا تبتلنا بما لا قبل لنا به وقد قال مكحول فى قوله (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) قال العزبة والغلمة رواه ابن أبى حاتم قال الله نعم وفى الحديث الآخر قال الله قد فعلت

وقوله (واعف عنا) أى فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا (واغفر لنا) أى فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة (وارحمنا) أى فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك فى ذنب آخر ولهذا قالوا إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم وأن يعصمه فلا يوقعه فى نظيره . وقد تقدم فى الحديث أن الله قال نعم وفى الحديث الآخر قال الله قد فعلت

وقوله (أنت مولانا) أى أنت ولينا وناصرنا وعليك توكلنا وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول لنا ولا قوة إلا بك (فانصرنا على القوم الكافرين) أى الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك وعبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك : فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم فى الدنيا والآخرة قال الله نعم وفى الحديث الذى رواه مسلم عن ابن عباس قال الله قد فعلت . وقال ابن جرير حدثنى مثنى بن إبراهيم حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبى إسحق أن معاذا رضى الله عنه كان إذا فرغ من هذه السورة (وانصرنا على القوم الكافرين) قال آمين ورواه وكيع عن سفيان عن أبى إسحق عن رجل عن معاذ بن جبل أنه كان إذا ختم البقرة قال آمين

﴿تفسير سورة آل عمران وهى مدنية﴾

لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزل فى وفد نجران وكان قدومهم فى سنة تسع من الهجرة كما سيأتى بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها إن شاء الله تعالى وقد ذكرنا ما ورد فى فضلها مع سورة البقرة أول البقرة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الٓمٓ * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ .

قد ذكرنا الحديث الوارد فى أن اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) و (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) عند تفسير آية الكرسى وقد تقدم الكلام على قوله (الم) فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته وتقدم الكلام على قوله (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) فى تفسير آية الكرسى

وقوله تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق) يعنى نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أى لا شك فيه ولا ريب بل هو منزل

(١) كذا فى النسختين بتذكير الضمير .

من عند الله أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً وقوله (مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء فهى تصدقه بما أخبرت به وبشرت فى قديم الزمان وهو يصدقها لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه. وقوله (وأنزل التوراة) أى على موسى بن عمران (والإنجيل) أى على عيسى بن مريم عليهما السلام (من قبل) أى من قبل هذا القرآن (هدى للناس) أى فى زمانهما (وأنزل الفرقان) وهو الفارق بين الهدى والضلال والحق والباطل والغى والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك وقال قتادة والربيع بن أنس الفرقان ههنا القرآن واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا لتقدم ذكر القرآن فى قوله (نزل عليك الكتاب بالحق) وهو القرآن . وأما ما رواه ابن أبى حاتم عن أبى صالح أن المراد بالفرقان ههنا التوراة فضعيف أيضاً لتقدم ذكر التوراة والله أعلم .

وقوله تعالى (إن الذين كفروا بآيات الله) أى جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل (لهم عذاب شديد) أى يوم القيامة (والله عزيز) أى منيع الجناب عظيم السلطان (ذو انتقام) أى ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض لا يخفى عليه شىء من ذلك (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) أى يخلقكم فى الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى وحسن وقبيح وشقى وسعيد (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) أى هو الذى خلق وهو المستحق للالهية وحده لا شريك له وله العزة التى لا ترام، والحكمة والأحكام ، وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر لأن الله صوره فى الرحم وخلقه كما يشاء فكيف يكون إلها كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله وقد تقلب فى الأحشاء وتنقل من حال إلى حال كما قال تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

يخبر تعالى أن فى القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب أى بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ومنه آيات أخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس ولهذا قال تعالى (هن أم الكتاب) أى أصله الذى يرجع إليه عند الاشتباه (وأخر متشابهات) أى تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد وقد اختلفوا فى المحكم والمتشابه فروى عن السلف عبارات كثيرة فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما المحكمات ناسخة وحلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وما يؤمر به ويعمل به وعن ابن عباس أيضاً أنه قال المحكمات قوله تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) والآيات بعدها وقوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) إلى ثلاث آيات بعدها ورواه ابن

أبي حاتم وحكاه عن سعيد بن جبير به قال حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن إسحق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية (هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فقال أبو فاختة: فواتح السور وقال يحيى بن يعمر: الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام. وقال ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير: (هن أم الكتاب) لأنهن مكتوبات في جميع الكتب، وقال مقاتل بن حيان: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن وقيل في المتشابهات: المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال فيه والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان، وعن مجاهد المتشابهات يصدق بعضها بعضا وهذا إنما هو في تفسير قوله (كتابا متشابها مثاني) هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار وذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك. وأما هاهنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم وأحسن ماقيل فيه هو الذي قدمنا وهو الذي نص عليه محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله حيث قال (منه آيات محكمات) فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم الباطل ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. قال: والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق

ولهذا قال الله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ) أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل (فيتبعون ماتشابه منه) أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع[1] لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى (ابتغاء الفتنة) أي الاضلال لأتباعهم إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) وبقوله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله

وقوله تعالى (وابتغاء تأويله) أي تحريفه على مايريدون وقال مقاتل بن حيان والسدي يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن وقد قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا يعقوب عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) إلى قوله (أولو الألباب) فقال «إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم» هكذا وقع هذا الحديث في مسند الإمام أحمد من رواية ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها ليس بينهما أحد وهكذا رواه ابن ماجه من طريق إسماعيل بن علية وعبد الوهاب الثقفي كلاهما عن أيوب به ورواه محمد بن يحيى العبدي في مسنده عن عبد الوهاب الثقفي به وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب وكذا رواه غير واحد عن أيوب وقد رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أيوب به ورواه أبو بكر بن المنذر في تفسيره من طريقين عن أبي النعمان محمد بن الفضل السدوسي ولقبه عارم حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة به وتابع أيوب أبو عامر الخراز وغيره عن ابن أبي مليكة فرواه الترمذي عن بندار عن أبي داود الطيالسي عن أبي عامر الخراز فذكره ورواه سعيد بن منصور في سننه عن حماد بن يحيى عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة ورواه ابن جرير من حديث روح بن القاسم ونافع بن عمر الجمحي كلاهما عن ابن أبي مليكة عن عائشة وقال نافع في روايته عن ابن أبي مليكة حدثتني عائشة فذكره وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية ومسلم في كتاب القدر من صحيحه وأبو داود في السنة من سننه ثلاثتهم عن القعنبي عن يزيد بن إبراهيم التستري عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) إلى قوله (وما يذكر إلا أولو الألباب) قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فإذا رأيتم الذين يتبعون

(١) وفي نسخة الأزهر (دامغ) وهي أظهر.

ما تشابه منـه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » لفظ البخارى ، وكذا رواه الترمذى أيضا عن بندار عن أبى داود الطيالسى عن يزيد بن إبراهيم به وقال حسن صحيح وذكر أن يزيد بن إبراهيم التسترى تفرد بذكر القاسم فى هذا الاسناد وقد رواه غير واحد عن ابن أبى مليكة عن عائشة ولم يذكر القاسم كذا قال وقد رواه ابن أبى حاتم فقال حدثنا أبى حدثنا أبو الوليد الطيالسى حدثنا يزيد بن إبراهيم التسترى وحماد بن سلمة عن ابن أبى مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » وقال ابن جرير حدثنا على بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم عن حماد بن سلمة عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة فقال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم « قد حذركم الله فإذا رأيتموهم فاحـذروهم » ورواه ابن مردويه من طريق أخرى عن القاسم عن عائشة به وقال الإمام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا حماد عن أبى غالب قال سمعت أبا أمامة يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) قال « هم الخوارج » وفى قوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) قال «هم الخوارج» وقد رواه ابن مردويه من غير وجه عن أبى غالب عن أبى أمامة فذكره وهـذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفا من كلام الصحابى ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت فى الاسلام فتنة الخوارج وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبى صـلى الله عليه وسـلم غنائم حنين فكأنهم رأوا فى عقولهم الفاسـدة أنه لم يعدل فى القسمة ففاجأوه بهذه المقالة فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة بقر الله خاصرته اعدل فانك لم تعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل أيأمننى[1] على أهل الأرض ولا تأمنونى » فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب وفى رواية خالد بن الوليد فى قتله فقال « دعه فانه يخرج من ضئضىء هذا أى من جنسـه قوم يحقر أحدكم صـلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتـلوهم فان فى قتلهم أجرا لمن قتلهم » ثم كان ظهورهم أيام على بن أبى طالب رضى الله عنه وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ثم انبعث القدرية ثم المعتزلة ثم الجهمية وغير ذلك من البدع التى أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ فى قوله « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » قالوا وما هم[2] يارسول الله ؟ قال « من كان على ما أنا عليه وأصحابى » أخرجه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا المعتمر عن أبيه عن قتادة عن الحسن بن جندب ابن عبد الله أنه بلغه عن حذيفة أو سمعه منه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر « ان فى أمتى قوما يقرءون القرءان ينثرونه نثر الدقل يتأولونه على غير تأويله » لم يخرجوه

وقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) اختلف القراء فى الوقف ههنا فقيل على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء ، فتفسير لايعذر أحد فى فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم ، وتفسير لايعلمه إلا الله : ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبى الشعثاء وأبى نهيك وغيرهم وقال الحافظ أبو القاسم فى المعجم الكبير : حدثنا هاشم بن مرثد حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثنى أبى حدثنى ضمضم ابن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خـلال أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا وأن يفتح لهم الكتاب فيأخـذه المؤمن يبتغى تأويله (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) الآية وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يسألون عنه » غريب جدا وقال ابن مردويه . حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن أبى حاتم عن أبيه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابن العاص عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه

(١) فى النسخة الأميرية . أما يأمننى وما هنا فيه تلفيق وتقص كما يعلم من روايات الصحيحين وغيرها (٢) وفى نسخة الأزهر ومن هم.

بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به » وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: كان ابن عباس يقرأ وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون آمنا به . وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله . وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود . إن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به وكذا عن أبى بن كعب واختار ابن جرير هذا القول

ومنهم من يقف على قوله والراسخون فى العلم وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول وقالوا الخطاب بما لا يفهم بعيد وقد روى ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد والراسخون فى العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به . وكذا قال الربيع بن أنس وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير : وما يعلم تأويله الذى أراد ما أراد إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التى لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضا فنفذت الحجة وظهر به العذر وزاح به الباطل ودفع به الكفر ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس فقال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ومن العلماء من فصل فى هذا المقام وقال : التأويل يطلق ويراد به فى القرآن معنيان أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشىء وما يؤول أمره اليه ومنه قوله تعالى (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) وقوله (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله) أى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد فان أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عزوجل ويكون قوله (والراسخون فى العلم) مبتدأ و (يقولون آمنا به) خبره ، وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشىء كقوله (نبئنا بتأويله) أى بتفسيره فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على (والراسخون فى العلم) لأنهم يعلمون ويفهمون ماخوطبوا به بهذا الاعتبار وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ماهى عليه وعلى هذا فيكون قوله (يقولون آمنا به) حالا منهم وساغ هذا وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ــ إلى قوله ــ يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا) الآية ، وقوله تعالى (وجاء ربك والملك صفاصفا) أى وجاء الملائكة صفوفا صفوفا

وقوله إخبارا عنهم أنهم يقولون آمنا به أى المتشابه كل من عند ربنا أى الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له لأن الجميع من عند الله وليس شىء من عند الله بمختلف ولا متضاد كقوله (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ولهذا قال تعالى (وما يذكر إلا أولوا الألباب) أى إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعانى على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة ، وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد ابن عوف الحمصى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا فياض الرقى حدثنا عبيد الله بن يزيد وكان قد أدرك أصحاب النبى ﷺ أنسا وأبا أمامة وأبا الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الراسخين فى العلم فقال « من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين فى العلم » . وقال الإمام أحمد حدثنا معمر عن الزهرى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمع رسول الله ﷺ قوما يتدارءون فقال « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا به . وما جهلتم فكلوه إلى عالمه » وتقدم رواية ابن مردويه لهذا الحديث من طريق هشام بن عمار عن أبى حازم عن عمرو بن شعيب به ، وقد قال أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا زهير بن حرب حدثنا أنس بن عياض عن أبى حازم عن أبى سلمة قال : لا أعلمه إلا عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء فى القرآن كفر ــ قالها ثلاثا ــ ماعرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه جل جلاله » وهذا إسناد صحيح ولكن فيه علة بسبب قول الراوى لا أعلمه إلا عن أبى هريرة . وقال ابن المنذر فى تفسيره : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد قال: يقال الراسخون فى العلم المتواضعون لله المتذللون لله فى مرضاته لا يتعاظمون

على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم . ثم قال تعالى عنهم مخبرا أنهم دعوا ربهم قائلين (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) أى لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين فى قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم (وهب لنا من لدنك رحمة) تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيمانا وإيقانا (إنك أنت الوهاب) قال ابن أبى حاتم . حدثنا عمرو بن عبدالله الأودى وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب قالا جميعا حدثنا وكيع عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن النبى ﷺ كان يقول « يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » ثم قرأ (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكار عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة عن أسماء بنت يزيد ابن السكن سمعتها تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من دعائه « اللهم مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قالت : قلت يارسول الله وإن القلب ليتقلب ؟ قال « نعم ما خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه » فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ـ وهكذا رواه ابن جرير من حديث أسد بن موسى عن عبدالحميد بن بهرام به مثله ورواه أيضا عن المثنى عن الحجاج بن منهال عن عبد الحميد بن بهرام به مثله وزاد قلت يارسول الله ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى قال « بلى قولى اللهم رب محمد النبى اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن » ثم قال ابن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن هرون بن بكار الدمشقى حدثنا العباس بن الوليد الخلال أنا يزيد بن يحيى بن عبيد الله أنا سعيد بن بشير عن قتادة عن حسان الأعرج عن عائشة رضى الله عنها قالت . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يدعو « يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قلت يارسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال « ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه أما تسمعى قوله (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) » غريب من هذا الوجه ولكن أصله ثابت فى الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة ، وقد رواه أبو داود والنسائى وابن مردويه من حديث أبى عبد الرحمن المقبرى زاد النسائى وابن حبان وعبدالله بن وهب كلاهما عن سعيد ابن أبى أيوب حدثنى عبد الله بن الوليد التجيبى عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ من الليل قال « لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك اللهم زدنى علما ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » لفظ ابن مردويه . وقال عبد الرزاق عن مالك عن أبى عبيد مولى سليمان بن عبد الملك عن عبادة بن نسى أنه أخبره أنه سمع قيس بن الحارث يقول أخبرنى أبو عبد الله الصنابحى أنه صلى وراء أبى بكر الصديق رضى الله عنه المغرب فقرأ أبو بكر فى الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل وقرأ فى الركعة الثالثة قال فدنوت منه حتى إن ثيابى لتكاد تمس ثيابه فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) الآية . قال أبو عبيد : وأخبرنى عبادة بن نسى أنه كان عند عمر بن عبد العزيز فى خلافته فقال عمر لقيس : كيف أخبرتنى عن أبى عبد الله قال عمر فما تركناها منذ سمعناها منه وإن كنت قبل ذلك لعلى غير ذلك ، فقال له رجل على أى شىء كان أمير المؤمنين قبل ذلك قال كنت أقرأ (قل هو الله أحد) وقد روى هذا الأثر الوليد بن مسلم عن مالك والأوزاعى كلاهما عن أبى عبيد به وروى هذا الأثر الوليد أيضا عن ابن جابر عن يحيى بن يحيى الغسانى عن محمود بن لبيد عن الصنابحى أنه صلى خلف أبى بكر المغرب فقرأ فى الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة قصيرة يجهر بالقراءة فلما قام إلى الثالثة ابتدأ القراءة فدنوت منه حتى إن ثيابى لتمس ثيابه فقرأ هذه الآية (ربنا لا تزغ قلوبنا) الآية

وقوله (ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه) أى يقولون فى دعائهم إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزى كلا بعمله وما كان عليه فى الدنيا من خير وشر

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ * كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وليس ما أوتوه فى الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى (ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وقال تعالى (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وقال ههنا (إن الذين كفروا) أى بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار) أى حطبها الذى تسجر به وتوقد به كقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية. قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا ابن لهيعة أخبرنى ابن الهاد عن هند بنت الحارث عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل فنادى « هل بلغت اللهم هل بلغت » ثلاثا فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال نعم ثم أصبح فقال رسول الله ﷺ « ليظهرن الإسلام حتى يرد الكفر إلى مواطنه ، وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرؤونه ثم يقولون قرأنا وعلمنا فمن هذا الذى هو خير منا ، فهل فى أولئك من خير؟ » قالوا يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال « أولئك منكم وهم وقود النار » وقد رواه ابن مردويه من حديث يزيد بن عبد الله ابن الهاد عن هند بنت الحارث امرأة عبد الله بن شداد عن أم الفضل أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال « هل بلغت » يقولها ثلاثا فقام عمر بن الخطاب وكان أواها فقال اللهم نعم وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر ؟ فقال النبى ﷺ « ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى مواطنه وليخوضن رجال البحار بالإسلام وليأتين على الناس زمان يقرؤون القرآن فيقرؤونه ويعلمونه فيقولون قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذى هو خير منا ؟ فما فى أولئك من خير » قالوا يا رسول الله فمن أولئك قال « أولئك منكم أولئك هم وقود النار » ثم رواه من طريق موسى بن عبيدة عن محمد بن إبراهيم عن بنت الهاد عن العباس بن عبد المطلب بنحوه

وقوله تعالى (كدأب آل فرعون) قال الضحاك عن ابن عباس : كصنيع آل فرعون وكذا روى عن عكرمة ومجاهد وأبى مالك والضحاك وغير واحد ، ومنهم من يقول : كسنة آل فرعون وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون والألفاظ متقاربة والدأب بالتسكين والتحريك أيضاً كنهر ونهر هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة كما يقال لا يزال هذا دأبى ودأبك ، وقال امرؤ القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم * يقولون لا تأسف[1] أسى وتجمل * كدأبك من أم الحويرث قبلها * وجارتها أم الرباب بمأسل

والمعنى كعادتك فى أم الحويرث حين أهلكت نفسك فى حبها وبكيت دارها ورسمها، والمعنى فى الآية أن الكافرين لا تغنى عنهم الأموال ولا الأولاد بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه (والله شديد العقاب) أى شديد الأخذ أليم العذاب لا يمتنع منه أحد ولا يفوته شىء بل هو الفعال لما يريد الذى قد غلب كل شىء لا إله غيره ولا رب سواه

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

(١) المحفوظ المشهور ، لا تهلك .

يقول تعالى قل يا محمد للكافرين ستغلبون أى فى الدنيا وتحشرون أى يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد . وقد ذكر محمد بن إسحق بن يسار عن عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال « يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا » فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغمار لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله فى ذلك من قولهم (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ـ إلى قوله ـ لعبرة لأولى الأبصار) وقد رواه محمد بن إسحق أيضا عن محمد بن أبى محمد عن سعيد وعكرمة عن ابن عباس فذكروه ، ولهذا قال تعالى (قد كان لكم آية)أى قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أى دلالة على أن الله معز دينه ، وناصر رسوله ، ومظهر كلمته ، ومعل أمره (فى فئتين) أى طائفتين (التقتا) أى للقتال (فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة) وهم مشركو قريش يوم بدر ، وقوله (يرونهم مثليهم رأى العين) قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم فى العدد رأى أعينهم أى جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم ، وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة وهى أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزر لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلثمائة يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، وهكذا كان الأمر . كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم (والقول الثانى) أن المعنى فى قوله تعالى (يرونهم مثليهم رأى العين) أى يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم أى ضعيفهم فى العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم ، وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفى عن ابن عباس : أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس ، وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأل ذلك العبد الأسود لبنى الحجاج عن عدة قريش قال : كثير قال « كم ينحرون كل يوم » ؟ قال يوما تسعا ويوما عشراً ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « القوم ما بين تسعمائة إلى ألف » . وروى أبو إسحق السبيعى عن جارية عن على رضى الله عنه قال : كانوا ألفاً ، وكذا قال ابن مسعود والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين ، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم ، لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحاً كما تقول عندى ألف وأنا محتاج إلى مثليها وتكون محتاجا إلى ثلاثة آلاف كذا قال ، وعلى هذا فلا إشكال لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين ، وهو أن يقال ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى قصة بدر (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا) فالجواب أن هذا كان فى حالة والآخر كان فى حالة أخرى كما قال السدى عن الطيب عن ابن مسعود فى قوله تعالى (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا) الآية قال . هذا يوم بدر . قال عبد الله بن مسعود . وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحداً وذلك قوله تعالى (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم) الآية : وقال أبو إسحق عن أبى عبدة عن عبد الله بن مسعود قال لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبى تراهم سبعين قال : أراهم مائة قال : فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم ؟ قال . ألفاً ، فعند ما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم أى أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء وهؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر (ليقضى الله أمراً كان مفعولا) أى ليفرق بين الحق والباطل فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ، كما قال تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) وقال ههنا (والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) أى إن فى ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجارى بنصر عباده

المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

يخبر تعالى عما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين فبدأبالنساء لأن الفتنة بهن أشد كما ثبت فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء» فأما إذا كان القصد بهن الاعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيـه مندوب إليـه كما وردت الأحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء وقوله صلى الله عليه وسلم « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » وقوله فى الحديث الآخر « حبب إلىّ النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . وقالت عائشة رضى الله عنها : لم يكن شىء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء إلا الخيل ، وفى رواية:من الخيل إلا النساء : وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل فى هـذا ، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد صلى الله عليـه وسلم ممن يعبد الله وحده لاشريك له ، فهذا محمود[1] ممدوح كما ثبت فى الحديث«تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذ مذموم ، وتارة يكون للنفقة فى القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً . وقد اختلف المفسرون فى مقدار القنطار على أقوال وحاصلها أنه المال الجزيل كما قاله الضحاك وغيره ، وقيـل : ألف دينار ، وقيـل ألف ومائتا دينار ، وقيـل اثنا عشر ألفا ، وقيـل أربعون ألفا ، وقيـل ستون ألفا ، وقيل سبعون ألفا ، وقيل ثمانون ألفا وقيل غير ذلك : وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن عاصم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « القنطار اثنا عشر ألف أوقية كل أوقية خير مما بين السماء والأرض » وقد رواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عبد الصمد بن عبد الوارث عن حماد بن سلمة به ، وقد رواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدى عن حماد بن سلمة[2] عن عاصم بن بهدلة عن أبى صالح عن أبى هريرة موقوفا كرواية وكيع فى تفسيره حيث قال : حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن ذكوان أبى صالح عن أبى هريرة قال « القنطار اثنا عشر ألف أوقية الأوقية خير مما بين السماء والأرض » وهذا أصح ، وهكذا رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل وابن عمر ، وحكاه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة وأبى الدرداء أنهم قالوا : القنطار ألف ومائتا أوقية ثم قال ابن جرير رحمه الله : حدثنا زكريا ابن يحي الضرير حدثنا شبابة حدثنا مخلد بن عبد الواحد عن على بن زيد عن عطاء بن أبى ميمونة عن زر بن حبيش عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية » وهذا حديث منكر أيضاً والأقرب أن يكون موقوفا على أبى بن كعب كغيره من الصحابة . وقد روى ابن مردويه من طريق موسى بن عبيدة الربذى عن محمد بن إبراهيم عن موسى عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ مائة آية لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية إلى ألف أصبح له قنطار من الأجر عند الله القنطار منه مثل الجبل العظيم » ورواه وكيع عن موسى بن عبيدة بمعناه . وقال الحاكم فى مستدركه . حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عيسى ابن زيد اللخمى حدثنا عمرو بن أبى سلمة حدثنا زهير بن محمد حدثنا حميد الطويل ورجل آخر عن أنس بن مالك قال

(١) فى نسخة الأزهر محسود عليه (٢) وفيها ابن زيد كما فى تفسير ابن جرير .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (القناطير المقنطرة) ؟ قال . « القنطار ألفا أوقية » صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وهكذا رواه الحاكم ، وقد رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر فقال، أنبأنا أحمد بن عبد الرحمن الرقي أنبأنا عمرو بن أبي سلمة أنبأنا زهير يعني ابن محمد أنبأنا حميد الطويل ورجل آخر قد سماه يعني يزيد الرقاشي عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « قنطار يعني ألف دينار » وهكذا رواه الطبراني[1] عن عبد الله بن محمد ابن أبي مريم عن عمرو بن أبي سلمة فذكر بإسناده مثله سواء . وروى ابن جرير عن الحسن البصري عنه مرسلا أو موقوفا عليه القنطار ألف ومائتا دينار ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس . وقال الضحاك . من العرب من يقول القنطار ألف ومائتا دينار ، ومنهم من يقول . اثنا عشر ألفا . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عارم عن حماد عن سعيد الحرسي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال القنطار ملء مسك الثور ذهبا ، قال أبو محمد . ورواه محمد بن موسى الحرسي عن حماد ابن زيد مرفوعا ، والموقوف أصح

﴿ وحب الخيل على ثلاثة أقسام ﴾ تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون وتارة تربط فخرا ونواء لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) الآية : وأما المسومة فعن ابن عباس رضى الله عنهما المسومة الراعية والمطهمة الحسان وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبزى والسدي والربيع بن أنس وأبي سنان وغيرهم : وقال مكحول . المسومة الغرة والتحجيل وقيل غير ذلك وقد قال الإمام أحمد . حدثنا يحي بن سعيد عن عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن أبي حبيب عن سويد بن قيس عن معاوية بن خديج عن أبي ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول : اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم فاجعلني من أحب ماله وأهله إليه أو أحب أهله وماله إليه » وقوله تعالى (والأنعام) يعني الابل والبقر والغنم (والحرث) يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة : وقال الإمام أحمد . حدثنا روح بن عبادة حدثنا أبو نعامة العدوي عن مسلم ابن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة » المأبورة الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف والمأبورة الملقحة

ثم قال تعالى (ذلك متاع الحياة الدنيا) أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة (والله عنده حسن المآب) أي حسن المرجع والثواب

وقد قال ابن جرير . حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن عطاء عن أبي بكر بن حفص بن عمر بن سعد قال : قال عمر بن الخطاب لما نزلت (زين للناس حب الشهوات) قلت . الآن يارب حين زينتها لنا فنزلت (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا) الآية ، ولهذا قال تعالى (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) أي قل يا محمد للناس أؤخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة ثم أخبر عن ذلك فقال (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار) أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (خالدين فيها) أي ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولا ، (وأزواج مطهرة) أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا (ورضوان من الله) أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة (ورضوان من الله أكبر) أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم ، ثم قال تعالى (والله بصير بالعباد) أي يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾

(١) وفي نسخة الأزهر ابن مردويه عن الطبراني

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى (الذين يقولون ربنا إننا آمنا) أى بك وبكتابك وبرسولك (فاغفر لنا ذنوبنا) أى بإيماننا بك وبماشرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا(١) بفضلك ورحمتك (وقنا عذاب النار) ثم قال تعالى (الصابرين) أى فى قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات (والصادقين) فيما أخبروابه من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة (والقانتين) والقنوت الطاعة والخضوع (والمنفقين) أى من أموالهم فى جميع ما أمروابه من الطاعات ، وصلة الأرحام والقرابات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوى الحاجات (والمستغفرين بالأسحار) دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار ، وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه (سوف أستغفر لكم ربى) إنه أخرهم إلى وقت السحر . وثبت فى الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ينزل الله تبارك وتعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ » الحديث وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطنى فى ذلك جزءا على حدة فرواه من طرق متعددة . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوله وأوسطه وآخره فانتهى وتره إلى السحر. وكان عبد الله بن عمر يصلى من الليل ثم يقول : يانافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح ، رواه ابن أبى حاتم . وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن حريث بن أبى مطر عن إبراهيم ابن حاطب عن أبيه قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفرلى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضى الله عنه . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

شهد تعالى وكفى به شهيدا وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين (أنه لا إلا هو) أى المنفرد بالالهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء اليه وهو الغنى عما سواه كما قال تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك) الآية ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام (قائما بالقسط) منصوب على الحال وهو فى جميع الأحوال كذلك (لاإله إلاهو) تأكيد لماسبق (العزيز الحكيم) العزيز الذى لايرام جنابه عظمة وكبرياء ، الحكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثنى جبير بن عمرو القرشى حدثنا أبو سعيد الأنصارى عن أبى يحى مولى آل الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة يقرأ هذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لاإله إلا هو العزيز الحكيم) وأنا على ذلك من الشاهدين يارب وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال حدثنا على بن حسين حدثنا محمد بن المتوكل العسقلانى حدثنا عمر بن حفص بن ثابت أبو سعيد الأنصارى حدثنا عبد الملك بن يحى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده عن الزبير قال سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية (شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة) قال قال « وأنا أشهد أى رب » وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى المعجم الكبير حدثنا عبدان بن أحمد وعلى بن سعيد

(١) كذا وإنما يقال قصر فى الأمر وقصر عن فلان أو عن الغاية والمنزلة .

الرازى قالا حدثنا عمار بن عمر المختار حدثنى أبى حدثنى غالب القطان قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام) ثم قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله وديعة (إن الدين عند الله الإسلام) قالها مرارا ، قلت : لقد سمع فيها شيئا فغدوت اليه فودعته ثم قلت يا أبا محمد إنى سمعتك ترددهذه الآية ، قال : أوما بلغك مافيها قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثنى قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة فأقمت سنة فكنت على بابه فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة قال : حدثنى أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل عبدى عهد إلىّ وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » وقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الاسلام وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذى سد جميع الطرق اليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم فمن لقى الله بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) الآية . وقال فى هذه الآية مخبرا بانحصار الدين المتقبل منه عنده فى الاسلام (إن الدين عند الله الإسلام) . وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ (شهد الله إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم أن الدين عند الله الإسلام) بكسر إنه وفتح أن الدين عند الله الاسلام أى شهد هو والملائكة وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الاسلام ، والجمهور قرءوها بالكسر على الخبر وكلا المعنيين صحيح ، ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل اليهم وإنزال الكتب عليهم فقال (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) أى بغى بعضهم على بعض فاختلفوا فى الحق تحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته فى جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقا ، ثم قال تعالى (ومن يكفر بآيات الله) أى من جحد ما أنزل الله فى كتابه (فإن الله سريع الحساب) أى فان الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه .

ثم قال تعالى (فإن حاجوك) أى جادلوك فى التوحيد (فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) أى فقل أخلصت عبادتى لله وحده لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له (ومن اتبعن) أى على دينى يقول كمقالتى كما قال تعالى (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) الآية ثم قال تعالى آمرا لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول فى شرعه وما بعثه الله به . الكتابيين من المليين والأميين من المشركين فقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) أى والله عليه حسابهم واليه مرجعهم ومآبهم وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى (والله بصير بالعباد) أى هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة وهو الذى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) وما ذلك إلا لحكمته ورحمته ، وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) وقال تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) . وفى الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالا لأمر الله له بذلك . وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار » رواه مسلم . وقال ﷺ « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »

وقال الإمام أحمد : حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس رضى الله عنه : أن غلاما يهوديا كان يضع للنبى ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمرض فأتاه النبى ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبى ﷺ « يافلان قل لا إله إلا الله » فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبى ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه : أطع أبا القاسم . فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فخرج النبى ﷺ وهو يقول « الحمد لله الذى أخرجه بى من النار » رواه البخارى فى الصحيح ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم فى تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثا التى بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم وعناداً لهم وتعاظما على الحق واستنكافا عن اتباعه ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم اليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) وهذا هو غاية الكبر كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .
وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو الزبير الحسن بن على بن مسلم النيسابورى نزيل مكة حدثنى أبو حفص عمر بن حفص يعنى ابن ثابت بن زرارة الأنصارى حدثنا محمد بن حمزة حدثنا أبو الحسن مولى لبنى أسد عن مكحول عن أبى قبيصة بن ذئب الخزاعى عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال « رجل قتل نبيا أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ثم قرأ رسول الله ﷺ (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) الآية ثم قال رسول الله ﷺ « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلا من بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عزوجل » وهكذا رواه ابن جرير عن أبى عبيد الوصابى محمد بن حفص عن ابن حمير عن أبى الحسن مولى بنى أسد عن مكحول به ، وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبى من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره ، رواه ابن أبى حاتم . ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار فى الدنيا والعذاب المهين فى الآخرة فقال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) أى موجع مهين (أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم وهم التوراة والانجيل وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم تولوا وهم معرضون عنهما ، وهذا فى غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد ثم قال تعالى (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) أى إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة فى الدنيا يوما ، وقد تقدم تفسير ذلك فى سورة البقرة . ثم قال تعالى (وغرهم فى

دينهم ما كانوا يفترون) أى ثبتهم على دينهم الباطل ماخدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لاتمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه ولم ينزل الله به سلطانا ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا (فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه) أى كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والله تعالى سائلهم عن ذلك كله وحاكم عليهم ومجازيهم به ، ولهذا قال تعالى (فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه) أى لاشك فى وقوعه وكونه (ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون)

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يقول تبارك وتعالى (قل) يامحمد معظما لربك وشاكراً له ومفوضاً اليه ومتوكلا عليه (اللهم مالك الملك) أى لك الملك كله (تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) أى أنت المعطى وأنت المانع وأنت الذى ما شئت كان ومالم تشأ لم يكن . وفى هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة لأن الله تعالى حول النبوة من بنى إسرائيل إلى النبى العربى القرشى الأمى المكى خاتم الأنبياء على الاطلاق ، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن ، الذى جمع الله فيه محاسن من كان قبله وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء ولا رسولا من الرسل فى العلم بالله وشريعته واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية وكشفه له عن حقائق الآخرة ونشر أمته فى الآفاق فى مشارق الأرض ومغاربها وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار ، ولهذا قال تعالى (قل اللهم مالك الملك) الآية أى أنت المتصرف فى خلقك الفعال لما تريد كارد تعالى على من يحكم[1] عليه فى أمره حيث قال (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) قال الله رداً عليهم (أهم يقسمون رحمة ربك) الآية أى نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة فى ذلك وهكذا يعطى النبوة لمن يريد كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته)وقال تعالى(انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض)الآية[2] وقد روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة إسحق ابن أحمد من تاريخه عن المأمون الخليفة أنه رأى فى قصر ببلاد الروم مكتوبا بالحميرية فعرب له فإذا هو باسم الله ما اختلف الليل والنهار ولادارت نجوم السماء فى الفلك إلا بنقل النعيم عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك . وملك ذى العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشترك ، وقوله تعالى (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) أى تأخذ من طول هذا فتزيده فى قصر هذا فيعتدلان ثم تأخذ من هذا فى هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان ، وهكذا فى فصول السنة ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء ، وقوله تعالى (وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى) أى تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء (وترزق من تشاء بغير حساب) أى تعطى من شئت من المال مالا يعده ولا يقدر على إحصائه وتقتر على آخرين لما لك فى ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة قال الطبرانى : حدثنا محمد بن زكريا العلائى حدثنا جعفر بن حسن بن فرقد حدثنا أبى عن عمر بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى هذه الآية من آل عمران (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) »

(١) وفى نسخة الأزهر يتحكم (٢) قوله وقد روى الحافظ ابن عساكر الى بمشترك ــ سقط من النسخة الأميرية فنقلت من نسخة الأزهر .

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ثم توعد على ذلك فقال تعالى (ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء) أى ومن يرتكب نهى الله فى هذا فقد برىء من الله كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة — إلى أن قال — ومن يفعله منكم فقد ضل سواء سبيل) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم) الآية . وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) وقوله تعالى (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أى إلا من خاف فى بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما قال البخارى عن أبى الدرداء إنه قال : «إنا لنكشر فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم» . وقال الثورى : قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ، وكذا رواه العوفى عن ابن عباس إنما التقية باللسان ، وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس . ويؤيد ما قالوه قول الله تعالى (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) الآية . وقال البخارى : قال الحسن التقية إلى يوم القيامة ، ثم قال تعالى (ويحذركم الله نفسه) أى يحذركم نقمته فى مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ثم قال تعالى (وإلى الله المصير) أى إليه المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله . قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا مسلم بن خالد عن ابن أبى حسين عن عبد الرحمن بن سابط عن ميمون بن مهران قال : قام فينا معاذ فقال : يا بنى أود إنى رسول رسول الله إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله(١) إلى الجنة أو إلى النار

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر وأنه لا يخفى عليه منهم خافية بل علمه محيط بهم فى سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات وجميع ما فى الأرض والسموات لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك فى جميع أقطار الأرض والبحار والجبال (والله على كل شىء قدير) أى وقدرته نافذة فى جميع ذلك ، وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم فانه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة وإن أنظر من أنظر منهم فانه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ولهذا قال بعد هذا (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) الآية يعنى يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصه وود لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول لشيطانه الذى كان مقرونا(٢) به فى الدنيا وهو الذى جرأه على فعل السوء (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) ثم قال تعالى مؤكدا ومهدداً ومتوعداً (ويحذركم الله نفسه) أى يخوفكم عقابه ثم قال جل جلاله مرجيا لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه (والله رءوف بالعباد) قال الحسن البصرى من رأفته

(١) وفى نسخة الأزهر أن المعاد إلى الجنة أو إلى النار (١) وفى نسخة الأزهر مقترنا .

بهم حذرهم نفسه وقال غيره . أى رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم وأن يتبعوا رسوله الكريم

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ ﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فانه كاذب فى دعواه فى نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ولهذا قال (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) أى يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول كما قال بعض العلماء الحكماء . ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب . وقال الحسن البصرى وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا عبد الله ابن موسى بن عبد الأعلى بن أعين عن يحيى بن أبى كثير عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « وهل الدين إلا الحب فى الله والبغض فى الله ؟ قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى) » وقال أبو زرعة عبد الأعلى : هذا منكر الحديث

ثم قال تعالى (ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم) أى باتباعكم الرسول صلى الله عليه وسلم يحصل لكم هذا من بركة سفارته ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا) أى تخالفوا عن أمره (فإن الله لا يحب الكافرين) فدل على أن مخالفته فى الطريقة كفر والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم فى نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبى الأمى خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذى لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم فى زمانه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول فى طاعته واتباع شريعته كما سيأتى تقريره عند قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) الآية إن شاء الله تعالى

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدم عليه السلام خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لماله فى ذلك من الحكمة واصطفى نوحاً عليه السلام وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرانى قومه يدعوهم إلى الله ليلا ونهاراً ، سراً وجهاراً ، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً ، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذى بعثه الله به واصطفى آل إبراهيم ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الاطلاق محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل عمران والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام . قال محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله ــ هو عمران بن ياشم (١) بن ميشا بن حزقيا بن إبراهيم ابن غرايا بن ناوش بن أجر بن بهوا بن نازم بن مقاسط بن إيشا بن اياذ بن رخيعم بن سليمان بن داود عليهما السلام ، فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم كما سيأتى بيانه فى سورة الانعام إن شاء الله تعالى وبه الثقة

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

(١) زاد فى نسخة الأزهر بن أمون

امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام وهي حنة بنت فاقوذ . قال محمد بن إسحق : وكانت امرأة لا تحمل فرأت يوما طائراً يزق فرخه فاشتهت الولد فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً أي خالصا مفرغا للعبادة لخدمة بيت المقدس فقالت : يا رب (إني نذرت لك ما بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم) أي السميع لدعائي العليم بنيتي ، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكر أم أنثى (فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) قرئ برفع التاء على أنها تاء التكلم وأن ذلك من تمام قولها ، وقرئ بتسكين التاء على أنه من قول الله عز وجل (وليس الذكر كالأنثى) أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى (وإني سميتها مريم) فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا وقد حكي مقررا وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم » أخرجاه ، وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه وسماه عبد الله : وفي صحيح البخاري : أن رجلا قال : يا رسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه ؟ قال « سم ابنك عبد الرحمن » وثبت في الصحيح أيضا . أنه لما جاءه أبو أسيد بابنه ليحنكه فذهل عنه فأمر به أبوه فرد إلى منزلهم فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس سماه المنذر . فأما حديث قتادة عن الحسن البصري عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل غلام مرتهن[1] بعقيقته يذبح عنه يوم السابع ويسمى ويحلق رأسه » فقد رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي وروى ويدمى وهو أثبت وأحفظ والله أعلم . وكذا ما رواه الزبير بن بكار في كتاب النسب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عق عن ولده إبراهيم وسماه إبراهيم ، فإسناده لا يثبت وهو مخالف لما في الصحيح ولو صح لحمل على أنه اشتهر[2] اسمه بذلك يومئذ والله أعلم ، وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أي عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام فاستجاب الله لها ذلك كما قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مسه إياه إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أخرجاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية عن الزبيدي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وروى من حديث قيس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ومن حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ، ورواه مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة ، ورواه ابن وهب أيضا عن ابن أبي ذئب عن عجلان مولى المشمعل عن أبي هريرة ورواه محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بأصل الحديث ، وهكذا رواه الليث بن سعد عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج قال : قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين تلده أمه إلا عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن بالحجاب »

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة وأنه أنبتها نباتا حسنا أي جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا ويسر لها أسباب القبول وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين فلهذا قال (وكفلها زكريا) بتشديد الفاء ونصب زكريا

(١) في النسخة الأميرية « رهين » وفي نسخة الأزهر « رهينة » وهذه رواية ولفظ الترمذي مرتهن (٢) وفي نسخة الأزهر أشهر

على المفعولية أى جعله كافلا لها . قال ابن إسحق : وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة وذكر غيره أن بنى إسرائيل أصابتهم سنة جدب فكفل زكريا مريم لذلك ولا منافاة بين القولين والله أعلم . وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها لتقتبس منه علما جما نافعا وعملا صالحا ، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحق وابن جرير وغيرهما ؛ وقيل زوج أختها كما ورد فى الصحيح «فاذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة» وقديطلق على ما ذكره ابن إسحق ذلك أيضا توسعا فعلى هذا كانت فى حضانة خالتها : وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى عمارة[1] بنت حمزة أن تكون فى حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبى طالب وقال «الخالة بمنزلة الأم» ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلادتها فى محل عبادتها فقال (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وابراهيم النخعى والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفى والسدى يعنى وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف وعن مجاهد (وجد عندها رزقا) أى علما ، أوقال . صحفا فيها علم ، رواه ابن أبى حاتم والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء . وفى السنة لهذا نظائر كثيرة ، فاذا رأى زكريا هذا عندها (قال يا مريم أنى لك هذا) أى يقول من أين لك هذا ؟ (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سهل بن زنجلة حدثنا عبد الله ابن صالح حدثنا عبد الله بن لهيعة عن محمد بن المنكدر عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال « يا بنية هل عندك شىء آكله فانى جائع ؟ » قالت . لا والله - بأبى أنت وأمى - فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته فى جفنة لها وقالت . والله لأوثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى ومن عندى ، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليها فقالت : بأبى أنت وأمى قد أتى الله بشىء فخبأته لك فقال « هلمى يا بنية » قالت فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فاذا هى مملوءة خبزاً ولحما فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله وصليت على نبيه وقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه حمد الله وقال «من أين لك هذا يابنية » ؟ قالت . ياأبت (هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فحمد الله وقال «الحمد لله الذى جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل فانها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » فبعث رسول الله ﷺ إلى على ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل على وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبى ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعا قالت : وبقيت الجفنة كما هى قالت . فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيراً .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ * قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء طمع حينئذ فى الولد وإن كان شيخا كبيرا قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا وقال (رب هب لى من لدنك) أى من عندك (ذرية طيبة) أى ولدا صالحا (إنك سميع الدعاء) . قال الله تعالى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب) أى خاطبته الملائكة شفاها

(١) فى النسخة الأميرية عمرة وهى غلط فاعتمدنا نسخة الأزهر وهى احدى الروايتين فى اسمها والرواية الأخرى أمامة .

خطاباً أسمعته وهو قائم يصلى فى محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته . ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة (أن الله يبشرك بيحيى) أى بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى . قال قتادة وغيره : إنما سمى يحيى لأن الله أحياه بالإيمان . وقوله (مصدقاً بكلمة من الله) [1]روى العوفى وغيره عن ابن عباس وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدى والربيع بن أنس والضحاك وغيره فى هذه الآية (مصدقاً بكلمة من الله) أى بعيسى بن مريم . وقال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى بن مريم . وقال قتادة : وعلى سنته ومنهاجه . وقال ابن جريج : قال ابن عباس فى قوله مصدقاً بكلمة من الله قال : كان يحيى وعيسى ابنى خالة وكانت أم يحيى تقول لمريم : إنى أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك فذلك تصديقه له فى بطن أمه وهو أول من صدق عيسى وكلمة الله عيسى ، وهو أكبر من عيسى عليه السلام وهكذا قال السدى أيضا

وقوله (وسيداً) قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم : الحليم ، وقال قتادة : سيداً فى العلم والعبادة . وقال ابن عباس والثورى والضحاك السيد الحليم التقى : قال سعيد بن المسيب : هو الفقيه العالم ، وقال عطية : السيد فى خلقه ودينه ، وقال عكرمة : هو الذى لا يغلبه الغضب وقال ابن زيد : هو الشريف ، وقال مجاهد وغيره هو الكريم على الله عز وجل .

وقوله (وحصوراً) روى عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبى الشعثاء وعطية العوفى أنهم قالوا : الذى لا يأتى النساء . وعن أبى العالية والربيع بن أنس : هو الذى لا يولد له ولا ماء له . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس فى الحصور : الذى لا ينزل الماء ، وقد روى ابن أبى حاتم فى هذا حديثا غريبا جداً فقال : حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب البغدادى حدثنى سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعنى ابن العوام عن يحيى بن سعيد عن المسيب عن ابن العاص — لا يدرى عبد الله أو عمرو — عن النبى ﷺ فى قوله (وسيداً وحصوراً) قال : ثم تناول شيئا من الأرض فقال « كان ذكره مثل هذا » . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن يحيى بن سعيد الأنصارى أنه سمع سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا ثم قرأ سعيد (وسيداً وحصوراً) ثم أخذ شيئا من الأرض فقال : الحصور من كان ذكره مثل ذا ، وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف أصبعه السبابة فهذا موقوف أصح إسناداً من المرفوع ورواه ابن المنذر فى تفسيره : حدثنا أحمد بن داود السمنانى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا على بن مسهر عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يلقى الله إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا فإن الله يقول (وسيداً وحصوراً) — قال — : وإنما ذكره مثل هدبة الثوب » وأشار بأنملته ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى ابن حماد ومحمد بن سلمة المرادى قالا : حدثنا حجاج بن سليمان المقرى عن الليث بن سعد عن محمد بن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « كل ابن آدم يلقى الله بذنب يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين » ثم أهوى النبى ﷺ إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : « وكان ذكره مثل هذه القذاة »

وقد قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان (حصوراً) ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوبا أولا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقاد العلماء وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أى لا يأتيها كأنه حصور عنها ، وقيل : مانعا نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة فى النساء وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ثم هى فى حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه : درجة عليا وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه ، بل زاده

(١) قوله روى العوفى إلى قوله (مصدقا بكلمة من الله) ساقط من النسخة الأميرية .

ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن وإكسابه لهن وهدايته إياهن بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال : «حبب إلىّ من دنياكم» هذا لفظه . والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتى النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : (هب لى من لدنك ذرية طيبة) كأنه قال ولداً له ذرية ونسل وعقب ، والله سبحانه وتعالى أعلم

قوله (ونبياً من الصالحين) هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته وهى أعلى من الأولى كقوله لأم موسى (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر (قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال) أى الملك (كذلك الله يفعل مايشاء) أى هكذا أمر الله عظيم لايعجزه شىء ولا يتعاظمه أمر (قال رب اجعل لى آية) أى علامة أستدل بها على وجود الولد منى (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) أى إشارة لاتستطيع النطق مع أنك سوى صحيح كما فى قوله (ثلاث ليال سويا) ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح فى هذه الحال فقال تعالى (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشىّ والابكار) . وسيأتى طرف آخر فى بسط هذا المقام فى أول سورة مريم إن شاء الله تعالى

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَٰكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَٰلَمِينَ : يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّٰكِعِينَ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها أى اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين . قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) قال كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده ، ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط» ولم يخرجه من هذا الوجه سوى مسلم فانه رواه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد[1] كلاهما عن عبد الرزاق به وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد» أخرجاه فى الصحيحين من حديث هشام به مثله . وقال الترمذى : حدثنا أبو بكر بن زنجويه حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون» تفرد به الترمذى وصححه . وقال عبد الله بن أبى جعفر الرازى عن أبيه قال : كان ثابت البنانى يحدث عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «خير نساء العالمين أربع ، مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت رسول الله» رواه ابن مردويه أيضاً ، ومن طريق شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث ، مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» . وقال ابن جرير : حدثنى المثنى حدثنا آدم العسقلانى حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة سمعت مرة الهمدانى يحدث عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون» وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود من طرق عن شعبة به ، ولفظ البخارى «ويكمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية

(١) فى نسخة الأزهر وابن عبد الحميد .

امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة عن النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه فى قصة عيسى بن مريم عليه السلام فى كتابنا البداية والنهاية ولله الحمد والمنة ، ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب فى العمل لما يريد الله بها من الأمر الذى قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة فى الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولداً من غير أب فقال تعالى (يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) أما القنوت فهو الطاعة فى خشوع كما قال تعالى (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال « كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » ورواه ابن جرير من طريق ابن لهيعة عن دراج به وفيه نكارة . وقال مجاهد كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها ، والقنوت هو طول الركوع فى الصلاة يعنى امتثالا لقول الله تعالى (يا مريم اقنتى لربك) قال الحسن . يعنى اعبدى لربك (واسجدى واركعى مع الراكعين) أى كونى منهم وقال الأوزاعى . ركدت فى محرابها راكعة وساجدة وقائمة حتى نزل ماء الأصفر فى قدميها رضى الله عنها وأرضاها . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر[1] فى ترجمتها من طريق محمد بن يونس الكديمى وفيه مقال : ثنا على بن بحر بن برى ثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير فى قوله (يا مريم اقنتى لربك واسجدى) قال سجدت حتى نزل الماء الأصفر فى عينيها . وذكر ابن أبى الدنيا ثنا الحسن ابن عبد العزيز ثنا ضمرة عن أبى شوذب قال كانت مريم عليها السلام تغتسل فى كل ليلة . ثم قال لرسوله بعد ما أطلعه على جلية الأمر (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أى نقصه عليك (وما كنت لديهم) أى ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة عما جرى بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا فى شأن مريم أيهم يكفلها وذلك لرغبتهم فى الأجر . قال ابن جرير : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى حجاج عن ابن جريج عن القاسم بن أبى بزة أنه أخبره عن عكرمة ، وأبى بكر عن عكرمة قال ثم خرجت بها يعنى[2] مريم فى خرقها إلى بنى الكاهن بن هرون أخى موسى عليهما السلام قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلى الحجبة من الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فإنى حررتها وهى أنثى ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردها إلى بيتى فقالوا : هذه ابنة إمامنا وكان عمران يؤمهم فى الصلاة ، وصاحب قرباننا فقال زكريا . ادفعوها لى فإن خالتها تحتى فقالوا : لا تطيب أنفسنا هى ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التى يكتبون بها التوراة فقرعهم زكريا فكفلها وقد ذكر عكرمة أيضا والسدى وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد دخل حديث بعضهم فى بعض . أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت فى جرية الماء فهو كافلها فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت ، ويقال : إنه ذهب صاعدا يشق جرية الماء ، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير قال الله تعالى (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) أى بولد يكون وجوده بكلمة من الله أى يقول له كن فيكون ، وهذا تفسير قوله (مصدقا بكلمة من الله) كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) أى يكون هذا مشهوراً فى الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك وسمى المسيح قال بعض السلف : لكثرة سياحته . وقيل لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما

(١) قوله وقد ذكر الحافظ الخ سقط من الأميرية فنقلناه من نسخة الأزهر (٢) وفى نسخة الأزهر أم مريم بمريم تحملها .

وقيل لأنه كان إذا مسح أحدا من ذوى العاهات برئ بإذن الله تعالى وقوله تعالى : (عيسى ابن مريم) نسبة إلى أمه حيث لا أب له (وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) أى له وجاهة ومكانة عند الله فى الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به ، وفى الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولى العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقوله (ويكلم الناس فى المهد وكهلا) أى يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له فى حال صغره ، معجزة وآية ، وفى حال كهولته حين يوحى الله إليه (ومن الصالحين) أى فى قوله وعمله له علم صحيح وعمل صالح . قال محمد بن إسحق : عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد ابن شرحبيل عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماتكلم أحد(١) فى صغره إلا عيسى وصاحب جريج » وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبو الصقر يحيى بن محمد بن قزعة حدثنا الحسين يعنى المروزى حدثنا جرير يعنى ابن أبى حازم عن محمد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاث ، عيسى وصبى كان فى زمن جريج وصبى آخر » فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل قالت فى مناجاتها : (رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟) تقول كيف يوجد هذا الولد منى وأنا لست بذات زوج ولا من عزمى أن أتزوج ولست بغيا حاشا لله فقال لها الملك عن الله عز وجل فى جواب ذلك السؤال (كذلك الله يخلق من يشاء) أى هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شىء ، وصرح ههنا بقوله (يخلق ما يشاء) ولم يقل يفعل كما فى قصة زكريا ، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله (إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) أى فلا يتأخر شيئا بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشىء سريعا كلمح البصر

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام . إن الله يعلمه الكتاب والحكمة ، الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة ، والحكمة تقدم تفسيرها فى سورة البقرة ، والتوراة والإنجيل فالتوراة هو الكتاب الذى أنزل على موسى بن عمران ، والإنجيل الذى أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام . وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا وهذا وقوله (ورسولا إلى بنى إسرائيل) قائلا لهم (أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) وكذلك كان يفعل يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عيانا بإذن الله عز وجل الذى جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله (وأبرىء الأكمه) قيل إنه الذى يبصر نهارا ولا يبصر ليلا ، وقيل بالعكس ، وقيل الأعشى ، وقيل الأعمش ، وقيل هو الذى يولد أعمى وهو أشبه لأنه أبلغ فى المعجزة وأقوى فى التحدى (والأبرص) معروف (وأحيي الموتى بإذن الله) قال كثير من العلماء بعث الله كل نبى من الأنبياء بما يناسب(٢) أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للاسلام وصاروا من عباد الله الأبرار . وأما عيسى

(١) فى نسخة الأزهر مولود . (٢) وفيها بمعجزة تناسب .

عليه السلام فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد . وكذلك محمد ﷺ بعث فى زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل فلو اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وماذاك إلا أن كلام الرب عز جل لا يشبه كلام الخلق أبدا ، وقوله (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) أى أخبركم بما أكل أحدكم الآن وماهو مدخر له فى بيته لغد (إن فى ذلك) أى فى ذلك كله (لآية لكم) أى على صدقى فيما جئتكم به (إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة) أى مقرراً لها ومثبتا (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة . وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال لم ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ وانكشف لهم عن الغطاء(١) فى ذلك كما قال فى الآية الأخرى (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) والله أعلم . ثم قال (وجئتكم بآية من ربكم) أى بحجة ودلالة على صدقى فيما أقوله لكم (فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربى وربكم فاعبدوه) أى أنا وأنتم سواء فى العبودية له والخضوع والاستكانة إليه (هذا صراط مستقيم)

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

يقول تعالى (فلما أحسن عيسى) أى استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال (من أنصارى إلى الله ؟) قال مجاهد : أى من يتبعنى إلى الله ، وقال سفيان الثورى وغيره : أى من أنصارى مع الله ، وقول مجاهد أقرب . والظاهر أنه أراد من أنصارى فى الدعوة إلى الله كما كان النبى ﷺ يقول فى مواسم الحج قبل أن يهاجر « من رجل يؤوينى حتى أبلغ كلام ربى فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضى الله عنهم وأرضاهم . وهكذا عيسى بن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بنى إسرائيل فآمنوا به ووازروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، ولهذا قال الله تعالى مخبر عنهم (قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) الحواريون قيل : كانوا قصارين ، وقيل سموا بذلك لبياض ثيابهم ، وقيل صيادين . والصحيح أن الحوارى الناصر كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير رضى الله عنه فقال النبى ﷺ « لكل نبى حوارى وحوارى الزبير » وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (فاكتبنا مع الشاهدين) قال . مع أمة محمد ﷺ ، وهذا إسناد جيد . ثم قال تعالى مخبرا عن ملإ بنى إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب حين تمالؤا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان كافراً أن هنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك مما تقلدوه فى رقابهم ورموه به من الكذب وأنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك فبعث فى طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده فى المنزل فلما دخل أولئك اعتقدوه فى ظلمة الليل عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم فانه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم

(١) فى نسخة الأزهر فأخطأوا فكشف لهم عن المغطى .

وتركهم فى ضلالهم يعمهون يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم وأسكن الله فى قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازما لهم وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد ولهذا قال تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ * ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾

اختلف المفسرون فى قوله تعالى (إنى متوفيك ورافعك إلى) فقال قتادة وغيره . هذا من المقدم والمؤخر تقديره إنى رافعك إلى ومتوفيك يعنى بعد ذلك . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس . إنى متوفيك أى مميتك . وقال محمد ابن إسحق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه قال . توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه اليه . قال ابن إسحق والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه قال إسحق بن بشر عن إدريس عن وهب : أماته الله ثلاثة أيام ثم بعثه ثم رفعه ، قال مطر الوراق . إنى متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت ، وكذا قال ابن جرير توفيه هو رفعه : وقال الأكثرون . المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) الآية . وقال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا قام من النوم . « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا » الحديث وقال تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم — إلى قوله — وماقتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) والضمير فى قوله قبل موته عائد على عيسى عليه السلام أى وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتى بيانه فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عبد الله بن أبى جعفر عن أبيه حدثنا الربيع بن أنس عن الحسن أنه قال فى قوله تعالى (إنى متوفيك) يعنى وفاة المنام رفعه الله فى منامه قال الحسن : قال رسول الله ﷺ لليهود « إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة » وقوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) أى برفعى إياك إلى السماء (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وهكذا وقع فان المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعا بعده فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته . ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا هو الله وآخرون قالوا هو ثالث ثلاثة . وقد حكى الله مقالتهم فى القرآن ورد على كل فريق فاستمروا على ذلك قريبا من ثلثمائة سنة ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين فدخل فى دين النصرانية قيل حيلة ليفسده فانه كان فيلسوفا ، وقيل جهلا منه الا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه وزاد فيه ونقص منه ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التى هى الخيانة الحقيرة ، وأحل فى زمانه لحم الخنزير ، وصلوا له إلى المشرق ، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع ، وزاد فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارت ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد وبنى المدينة المنسوبة إليه واتبعه طائفة الملكية منهم وهم فى هذا كله قاهرون لليهود أيده الله عليهم لأنه أقرب إلى الحق منهم ، وان كان الجميع كفارا عليهم لعائن الله ، فلما بعث الله محمدا ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، فكانوا هم أتباع كل نبى على وجه الأرض ، إذ قد صدقوا الرسول النبى الأمى

العربي خاتم الرسل وسيد ولد آدم على الاطلاق الذى دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مما قد حرفوا وبدلوا ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذى لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ولا يزال قائماً منصوراً ظاهرا على كل دين فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها واحتازوا جميع الممالك ودانت لهم جميع الدول وكسروا كسرى وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما وأنفقت فى سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل فى قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً) الآية فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقا سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤهم إلى الروم فلجؤا إلى مدينتهم القسطنطينية ولا يزال الاسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة وقد أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون مافيها من الأموال ، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدا لم ير الناس مثلها ولايرون بعدها نظيرها ، وقدجمعت فى هذا جزءا مفردا ، ولهذا قال تعالى (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين) وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى عذبهم فى الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدى عن الممالك وفى الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق (وما لهم من الله من واق) (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) أى فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بالنصر والظفر ، وفى الآخرة بالجنات العاليات (والله لا يحب الظالمين)

ثم قال تعالى (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) أى هذا الذى قصصنا عليك يامحمد فى أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره هو مما قاله تعالى وأوحاه اليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ فلا مرية فيه ولا شك كما قال تعالى فى سورة مريم (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) وههنا قال تعالى

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول جل وعلا (إن مثل عيسى عند الله)فى قدرة الله حيث خلقه(١) من غير أب (كمثل آدم)حيث خلقه من غير أب ولا أم بل (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فالذى خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ، وإن جاز ادعاء البنوة فى عيسى لكونه مخلوقا من غير أب فجواز ذلك فى آدم بالطريق الأولى ، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل فدعواه فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فساداً ، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى فى سورة مريم (ولنجعله آية للناس) وقال ههنا (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) أى هذا هو القول الحق فى عيسى الذى لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال . ثم قال تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يباهل من عاند الحق فى أمر عيسى بعد ظهور البيان (فمن حاجك فيه

(١) فى نسخة الأزهر فإن الله تعالى .

من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناء وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أى نحضرهم فى حال المباهلة (ثم نبتهل) أى نلتعن (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) أى منا ومنكم .

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نجران : أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه مايزعمون من البنوة والالهية فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار وغيره : قال ابن إسحق فى سيرته المشهورة وغيره وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ستون راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم يؤول أمرهم اليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأويس بن الحارث ، وزيد ، وقيس ، ويزيد وابناه وخويلد ، وعمرو ، وخالد ، وعبدالله ، ومحسن ، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذى لايصدرون إلا عن رأيه ، والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارستهم ، وكان رجلا من العرب من بنى بكر بن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته فى دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة ، ولكن حمله ذلك[1] على الاستمرار فى النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها . قال ابن إسحق . وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال . قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فى جمال رجال بنى الحارث ابن كعب قال : يقول من رآهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « دعوهم » فصلوا إلى المشرق قال : فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون هو الله ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا . وكذلك النصرانية فهم يحتجون فى قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا ، وذلك كله بأمر الله . وليجعله الله آية للناس ، ويحتجون فى قولهم بأنه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم فى المهد بشىء لم يصنعه أحد من بنى آدم قبله ، ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا فيقولون لو كان واحداً ماقال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم — تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيرا — وفى كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن ، فلما كلمه الحبران قال لهما رسول صلى الله عليه وسلم « أسلما » قالا قد أسلمنا قال « إنكما لم تسلما فأسلما » قالا : بلى قد أسلمنا قبلك قال : « كذبتما يمنعكما من الاسلام ادعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير » قالا . فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ثم تكلم ابن إسحق على تفسيرها إلى أن قال : فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك فقالوا يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا اليه ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم فقالوا . ياعبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال . والله يا معشر النصارى لقد عرفتم ان محمداً لنبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم . ولقد علمتم أنه مالاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وانه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فان كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا ياأباالقاسم قدرأينا ان لانلاعنك وتتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها فى أموالنا فانكم عندنا رضا ، قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ « ائتونى العشية

---

(١) فى نسخة الأزهر احتمله جهله .

أبعث معكم القوى الأمين» فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببت الامارة قط حتى إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها فرحت إلى الظهر مهجرا فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليرانى فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال « اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه» قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضى الله عنه . وقد روى ابن مردويه من طريق محمد بن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج : أن وفد أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ فذكر نحوه إلا أنه قال فى الأشراف كانوا اثنى عشر ، وذكر بقيته بأطول من هذا السياق وزيادات أخر .

وقال البخارى : حدثنا عباس بن الحسين حدثنا يحيى بن آدم عن إسرائيل عن أبى إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضى الله عنه قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لانفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالا : إنا نعطيك ماسألتنا وابعث معنا رجلا أميناً ولا تبعث معنا إلا أمينا فقال « لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين » فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قم يا أبا عبيدة بن الجراح » فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا أمين هذه الأمة » رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث إسرائيل عن أبى إسحق عن صلة عن حذيفة بنحوه وقد رواه أحمد والنسائى وابن ماجه من حديث إسرائيل عن أبى إسحق عن صلة عن ابن مسعود بنحوه . وقال البخارى : حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن خالد عن أبى قلابة عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وقال الإمام أحمد . حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقى أبو يزيد حدثنا قرة عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو جهل قبحه الله إن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته(١) قال : فقال « لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا » وقد رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم به ، وقال الترمذى : حسن صحيح

وقد روى البيهقى فى دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة جداً ، ولنذكره فان فيه فوائد كثيرة وفيه غرابة وفيه مناسبة لهذا المقام قال البيهقى : حدثنا أبو عبد الله الحافظ أبو سعيد ومحمد بن موسى بن الفضل قالا حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده قال يونس — وكان نصرانيا فأسلم — إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان « باسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . من محمد النبى رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران أسلم (٢) فانى أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . أما بعد فانى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام» . فلما أتى الأسقف الكتاب وقرأه فظع به وذعره ذعراً شديداً وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة ، وكان من همدان ، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب فدفع الأسقف كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شرحبيل فقرأه فقال الأسقف: يا أبا مريم ما رأيك فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله إبراهيم فى ذرية إسماعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل ليس لى فى أمر النبوة رأى ولو كان فى أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأيى واجتهدت لك فقال الأسقف : تنح فاجلس فتنحى شرحبيل فجلس ناحية فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له عبد الله بن شرحبيل وهو من ذى أصبح من حمير فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأى فيه فقال له مثل قول شرحبيل فقال له الأسقف . تنح فاجلس فتنحى عبد الله فجلس ناحية فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له جبار بن فيض من بنى الحارث بن كعب أحد بنى الحماس فأقرأه

---

(١) فى نسخة الأزهر عنقه وهو لفظ البخارى (٢) فيها زيادة (أنتم) وليس فيها بياض كالأميرية .

الكتاب وسأله عن الرأى فيه ؟ فقال له مثل قول شرحبيل وعبدالله فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحية فلما اجتمع الرأى منهم على تلك المقالة جميعا أمر الأسقف بالناقوس فضرب به ورفعت النيران والمسوح فى الصوامع ، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار ، وإذا كان فزعهم ليلا ضربوا بالناقوس ورفعت النيران فى الصوامع فاجتمعوا حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادى أعلاه وأسفله . وطول الوادى مسيرة يوم للراكب السريع ، وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألهم عن الرأى فيه فاجتمع رأى أهل الرأى منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمدانى وعبد الله بن شرحبيل الأصبحى وجبار بن فيض الحارثى فيأتونهم بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حللا لهم يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه فلم يرد عليهم وتصدوا لكلامه نهارا طويلا فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب فانطلقوا يتبعون عثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف وكانا معرفة لهم فوجدوهما فى ناس من المهاجرين والأنصار فى مجلس فقالوا ياعثمان وياعبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا كتابا فأقبلنا مجيبين له فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا وتصدينا لكلامه نهارا طويلا فأعيانا أن يكلمنا فما الرأى منكما أترون أن نرجع ؟ فقالا لعلى بن أبى طالب وهو فى القوم : ماترى يا أبا الحسن فى هؤلاء القوم ؟ فقال على لعثمان وعبد الرحمن : أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودون اليه ففعلوا فسلموا عليه فرد سلامهم ثم قال « والذى بعثنى بالحق لقد أتونى المرة الأولى وإن إبليس لمعهم » ثم سألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسئلة حتى قالوا له : ماتقول فى عيسى فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبيا أن نسمع ماتقول فيه ؟ فقال رسول الله ﷺ « ماعندى فيه شىء يومى هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول لى ربى فى عيسى » فأصبح الغد وقد أنزل الله هذه الآية (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم — إلى قوله — الكاذبين) فأبوا أن يقروا بذلك فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا على الحسن والحسين فى خميل له وفاطمة تمشى عند ظهره للملاعنة وله يومئذ عدة نسوة فقال شرحبيل لصاحبيه : لقد علمتما أن الوادى إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأبى وإنى والله أرى أمرا ثقيلا والله لئن كان هذا الرجل مبعوثا فكنا أول العرب طعنا فى عينيه وردا عليه أمره لايذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبنا بجائحة وإنا لأدنى العرب منهم جوارا ، ولئن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلاعناه لايبقى منا على وجه الأرض شعر ولا ظفر إلا هلك ، فقال له صاحباه . فما الرأى يا أبا مريم ؟ فقال : أرى أن أحكمه فإنى أرى رجلا لايحكم شططا أبدا فقالا له : أنت وذاك قال : فتلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال له : إنى قد رأيت خيرا من ملاعنتك فقال « وماهو ؟ » فقال : حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح فمهما حكمت فينا فهو جائز فقال رسول الله ﷺ « لعل وراءك أحدا يثرب عليك » ؟ فقال شرحبيل . سل صاحبى فسألهما فقالا : مايرد الوادى ولا يصدر إلا عن رأى شرحبيل . فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم حتى إذا كان من الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب النبى محمد[1] رسول الله لنجران — إن كان عليهم حكمه — فى كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فاضل عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفى حلة ، فى كل رجب ألف حلة وفى كل صفر ألف حلة » وذكر تمام الشروط وبقية السياق

والغرض أن وفودهم كان فى سنة تسع لأن الزهرى قال : كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح وهى قوله تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الآية وقال أبوبكر بن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن داود المكى حدثنا بشر بن مهران حدثنا محمد بن دينار عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن جابر قال : قدم على النبى ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة قال : فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى بعثنى بالحق لوقالا :

(١) فى نسخة الأزهر تقديم محمد على النبى .

لا لأمطر عليهم الوادى ناراً » قال جابر : وفيهم نزلت (ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) قال جابر (أنفسنا وأنفسكم) رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب (وأبناءنا) الحسن والحسين (ونساءنا)فاطمة وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه عن على بن عيسى عن أحمد بن محمد الأزهرى عن على بن حجر عن على بن مسهر عن داود بن أبى هند به بمعناه ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه هكذا . قال : وقد رواه أبوداودالطيالسى عن شعبة عن المغيرة عن الشعبى مرسلا ، وهذا أصح وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك ثم قال الله تعالى(إن هذا لهو القصص الحق) أى هذا الذى قصصناه عليك يامحمد فى شأن عيسى هو الحق الذى لامعدل عنه ولا محيد(ومامن إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم * فان تولوا) أى عن هذا إلى غيره (.فإن الله عليم بالمفسدين) أى من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذى لا يفوته شىء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمته

﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم (قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة) والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ثم وصفها بقوله (سواء بيننا وبينكم) أى عدل ونصف نستوى نحن وأنتم فيها ثم فسرها بقوله (أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) لاوثنا ولا صليبا ولا صنما ولا طاغوتا ولا ناراً ولا شيئا بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له وهذه دعوة جميع الرسل قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا إن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ثم قال تعالى (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) وقال ابن جريج : يعنى يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله وقال عكرمة يسجد بعضنا لبعض (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) أى فان تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذى شرعه الله لكم . وقد ذكرنا فى شرح البخارى عند روايته من طريق الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن أبى سفيان فى قصته حين دخل على قيصر فسأله عن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن صفته ونعته وما يدعو إليه فأخبره بجميع ذلك على الجلية ، مع أن أبا سفيان إذ ذاك كان مشركا لم يسلم إلا بعد ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح كما هو مصرح به فى الحديث ، ولأنه لما سأله هل يغدر ؟ قال : فقلت لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها قال ولم يمكنى كلمة أزيد فيها شيئا سوى هذه والغرض أنه قال ثم جىء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فاذا فيه .

«بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فإنما عليك إثم الأريسيين و (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)»

وقد ذكر محمد بن إسحق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت فى وفد نجران وقال الزهرى : هم أول من بذل الجزية ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل فى جملة الكتاب وبين ما ذكره محمد بن إسحق والزهرى ؟ والجواب من وجوه (أحدها) يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين مرة قبل الحديبية ومرة بعد الفتح (الثانى) يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل فى وفد نجران إلى هذه الآية وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ويكون قول ابن إسحق إلى بضع وثمانين آية ليس بمحفوظ لدلالة حديث أبى سفيان (الثالث) يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية وأن الذى بذلوه مصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية بل يكون من باب المهادنة والمصالحة ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك كما جاء فرض

الخمس والأربعة أخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش فى تلك السرية قبل بدر ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك (الرابع) يحتمل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمر بكتب هذا فى كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد ثم أنزل القرآن موافقة له صلى الله عليه وسلم كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب فى الحجاب وفى الأسارى ، وفى عدم الصلاة على المنافقين ، وفى قوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وفى قوله (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن) الآية

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى فى محاجتهم فى إبراهيم الخليل عليه السلام ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم كما قال محمد بن إسحق بن يسار حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ماكان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى ماكان إبراهيم إلا نصرانيا فأنزل الله تعالى (ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم) الآية أى كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهوديا وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانيا وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ، ولهذا قال تعالى (أفلا تعقلون) ثم قال تعالى (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) الآية . هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به فان اليهود والنصارى تحاجوا فى إبراهيم بلا علم ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التى شرعت لهم إلى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لكان أولى بهم وإنما تكلموا فيما لا يعلمون ، فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد مالا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذى يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها ، ولهذا قال تعالى (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ثم قال تعالى (ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) أى متحنفا عن الشرك قاصدا إلى الإيمان (وماكان من المشركين) وهذه الآية كالتى تقدمت فى سورة البقرة (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) الآية . ثم قال تعالى (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) يقول تعالى . أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه وهذا النبى يعنى محمداً ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . قال سعيد بن منصور حدثنا أبو الأحوص عن سعيد بن مسروق عن أبى الضحى عن مسروق عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لكل نبى ولاة من النبيين ، وإن وليي منهم أبى وخليل ربى عز وجل » ثم قرأ (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه) الآية ، وقد رواه الترمذى والبزار من حديث أبى أحمد الزبيرى عن سفيان الثورى عن أبيه به ، ثم قال البزار : ورواه غير أبى أحمد عن سفيان عن أبيه عن أبى الضحى عن عبدالله ولم يذكر مسروقا وكذا رواه الترمذى من طريق وكيع عن سفيان ثم قال : وهذا أصح ، لكن رواه وكيع فى تفسيره فقال : حدثنا سفيان عن أبيه عن أبى إسحاق عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لكل نبى ولاية من النبيين وإن وليي منهم أبى وخليل ربى عزوجل إبراهيم عليه السلام » ثم قرأ (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا) الآية ، وقوله (والله ولى المؤمنين) أى ولى جميع المؤمنين برسله

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ءَامِنُوا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓا ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الاضلال وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكوربهم ، ثم قال تعالى منكرا عليهم (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) أى تعلمون صدقها وتتحققون حقها (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) أى تكتمون مافى كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره) الآية هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين ولهذا قالوا (لعلهم يرجعون) وقال ابن أبى نجيح . عن مجاهد فى قوله تعالى إخباراً عن اليهود بهذه الآية يعنى يهودا صلت مع النبى ﷺ صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرا منهم ليروا الناس أن قد بدت لهم الضلالة منه بعد أن كانوا اتبعوه . وقال العوفى عن ابن عباس :قالت طائفة من أهل الكتاب إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا ، وهكذا روى عن قتادة والسدى والربيع وأبى مالك وقوله تعالى (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) أى لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم. قال الله تعالى (قل إن الهدى هدى الله) أى هو الذى يهدى قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبى الأمى فى كتبكم التى نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين وقوله (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) يقولون لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ويساوونكم فيه ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به أو يحاجوكم به عند ربكم أى يتخذوه حجة عليكم بما فى أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة وتتركب الحجة فى الدنيا والآخرة قال الله تعالى (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) أى الأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطى المانع يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام ، ويضل من يشاء فيعمى بصره وبصيرته ويختم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره عشاوة وله الحجة التامة والحكمة البالغة (والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد ولا يوصف بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء وهداكم به إلى أكمل الشرائع

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ

أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم فان منهم (من إن تأمنه بقنطار) أى من المال (يؤده إليك) أى وما دونه بطريق الأولى أن يؤده[1] إليك (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما) أى بالمطالبة والملازمة والالحاح فى استخلاص حقك وإذا كان هذا صنيعه فى الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك . وقد تقدم الكلام على القنطار فى أول السورة، وأما الدينار فمعروف . وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية عن زياد بن الهيثم حدثنى مالك بن دينار قال : إنما سمى الدينار لأنه دين ونار . وقيل معناه من أخذه بحقه فهو دينه ومن أخذه بغير حقه فله النار . ومناسب أن يذكر ههنا الحديث الذى علقه البخارى فى غير موضع من صحيحه ، ومن أحسنها سياقه فى كتاب الكفالة حيث قال : وقال الليث حدثنى جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم فقال كفى بالله شهيداً قال : ائتنى بالكفيل قال : كفى بالله كفيلا قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يركبها ليقدم عليه فى الأجل الذى أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ثم أتى بها إلى البحر فقال اللهم إنك تعلم أنى استسلفت فلانا ألف دينار فسألنى شهيدا فقلت كفى بالله شهيدا وسألنى كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضى بك وإنى جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى استودعتكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه لينظر لعل مركباً يجيئه بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله مازلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه قال : هل كنت بعثت إلىّ بشىء ؟ قال : ألم أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل هذا قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة فانصرف بألف دينار راشداً ، هكذا رواه البخارى فى موضع معلقاً بصيغة الجزم ، وأسنده فى بعض المواضع من الصحيح عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه . ورواه الإمام أحمد فى مسنده هكذا مطولا عن يونس بن محمد المؤدب عن الليث به ، ورواه البزار فى مسنده عن الحسن بن مدرك عن يحيى بن حماد عن أبى عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه ، ثم قال : لا يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد ، كذا قال وهو خطأ لما تقدم . وقوله (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) أى إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا فى ديننا حرج فى أكل أموال الأميين وهم العرب فإن الله قد أحلها لنا قال الله تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أى وقد اختلقوا هذه المقالة ، وائتفكوها بهذه الضلالة ، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت . قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أبى إسحق الهمدانى عن أبى صعصعة بن يزيد أن رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا بذلك بأس قال هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الأميين سبيل ، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم، وكذا رواه الثورى عن أبى إسحق بنحوه وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو الربيع الزهرانى حدثنا يعقوب حدثنا جعفر عن سعيد بن جبير قال لما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الأميين سبيل قال نبى الله صلى الله عليه وسلم « كذب أعداء الله مامن شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فانها مؤداة إلى البر والفاجر » ثم قال تعالى (بلى من أوفى بعهده واتقى) أى لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذى عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك واتقى محارم الله واتبع طاعته وشريعته التى بعث بها خاتم رسله وسيدهم (فإن الله يحب المتقين)

(١) كذا فى النسختين والوجه أن يؤديه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ان الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة وهى عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة (أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة) أى لانصيب لهم فيها ولاحظ لهم منها (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة) أى برحمة منه لهم يعنى لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ولاينظر إليهم بعين الرحمة (ولايزكيهم) أى من الذنوب والأدناس بل يأمر بهم إلى النار (ولهم عذاب أليم) . وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ماتيسر .

(الحديث الأول) قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا شعبة قال على بن مدرك أخبرنى قال : سمعت أبازرعة عن خرشة بن الحر عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قلت يارسول الله . من هم ؟ خسروا وخابوا قال . وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال «المسبل ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنان » ورواه مسلم وأهل السنن من حديث شعبة به (طريق أخرى) قال أحمد : حدثنا إسماعيل عن الجريرى عن أبى العلاء بن الشخير عن أبى الأحمس قال : لقيت أباذر فقلت له بلغنى عنك أنك تحدث حديثا عن رسول الله ﷺ قال أما إنه لايخالنى أن أكذب على رسول الله ﷺ بعدما سمعته منه فما الذى بلغك عنى ؟ قلت بلغنى أنك تقول : ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يشنؤهم الله ، قال : قلته وسمعته قلت فمن هؤلاء الذين يحبهم الله ؟ قال « الرجل يلقى العدو فى فئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه ، والقوم يسافرون فيطول سراهم حتى يحبوا أن يمسوا الأرض فينزلون فيتنحى أحدهم فيصلى حتى يوقظهم لرحيلهم ، والرجل يكون له الجار يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أوظعن » قلت : ومن هؤلاء الذين يشنؤهم الله ؟ قال « التاجر الحلاف ـ أو قال البائع الحلاف ـ والفقير المختال والبخيل المنان » غريب من هذا الوجه

(الحديث الثانى) قال الإمام أحمد . حدثنا يحيى بن سعيد عن جرير بن حازم حدثنا عدى بن عدى أخبرنى رجاء ابن حيوة والعرس بن عميرة عن أبيه عدى هو ابن عميرة الكندى قال خاصم رجل من كندة يقال له امرؤ القيس ابن عامر رجلا من حضرموت إلى رسول الله ﷺ فى أرض فقضى على الحضرمى بالبينة فلم يكن له بينة فقضى على امرىء القيس باليمين فقال الحضرمى : أمكنته من اليمين يارسول الله ؟ ذهبت ورب الكعبة أرضى ، فقال النبى ﷺ « من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان » قال رجاء وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) فقال امرؤ القيس : ماذا لمن تركها يارسول الله ؟ فقال « الجنة » قال : فاشهد أنى قد تركتها له كلها ، ورواه النسائى من حديث عدى بن عدى به

(الحديث الثالث) قال أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان » فقال الأشعث : فىَّ والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى أرضى فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لى رسول الله ﷺ « ألك بينة » ؟ قلت : لا فقال اليهودى احلف . فقلت يارسول الله إذاً يحلف فيذهب مالى فأنزل الله عز وجل (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية ، أخرجاه من حديث الأعمش (طريق أخرى) قال أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود عن شقيق بن سلمة حدثنا عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من اقتطع مال امرىء مسلم بغير حق لقى الله وهو عليه غضبان » قال فجاء الأشعث ابن قيس فقال : مايحدثكم أبو عبد الرحمن ؟ فحدثناه فقال : كان فىَّ هذا الحديث خاصمت ابن عم لى إلى رسول الله ﷺ فى بئر كانت لى فى يده فجحدنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينتك أنها بئرك وإلا فيمينه » قال :

قلت يارسول الله مالى بينة ، وإن تجعلها بيمينه تذهب بئرى إن خصمى امرؤ فاجر فقال رسول الله ﷺ « من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله وهو عليه غضبان » قال : وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية

(الحديث الرابع) قال أحمد : حدثنا يحى بن غيلان قال حدثنا رشدين عن زياد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « إن لله تعالى عبادا لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر اليهم » قيل ومن أولئك يارسول الله ؟ قال « متبرئ من والديه راغب عنهما ومتبرئ من ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم »

(الحديث الخامس) قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا هشيم أنبأنا العوام يعنى ابن حوشب عن إبراهيم ابن عبد الرحمن يعنى السكسكى عن عبدالله بن أبى أوفى ان رجلا أقام سلعة له فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها مالم يعطه ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت هذه الآية (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية ورواه البخارى من غير وجه عن العوام

(الحديث السادس) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم ولايزكيهم ولهم عذاب أليم ، رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده ، ورجل حلف على سلعة بعد العصر يعنى كاذبا ، ورجل بايع إماما فإن أعطاه وفى له وإن لم يعطه لم يف له » ورواه أبوداود والترمذى من حديث وكيع وقال الترمذى : حديث حسن صحيح

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ليوهموا الجهلة أنه فى كتاب الله كذلك وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله ، ولهذا قال الله تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وقال مجاهد والشعبى والحسن وقتادة والربيع بن أنس : (يلوون ألسنتهم بالكتاب) يحرفونه ، وهكذا روى البخارى عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيلون وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله وقال وهب بن منبه : إن التوراة والانجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منهما حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول رواه ابن أبى حاتم ، فان عنى وهب مابأيديهم من ذلك فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك الشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان ووهم فاحش ، وهو من باب تفسير المعرب المعبر(١) وفهم كثير منهم بل أكثرهم بل جميعهم فاسد وأما إن عنى كتب الله التى هى كتبه من عنده فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شىء

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(١) وفيها المعبر المعرب .

قال محمد بن إسحق حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرعن ابن عباس قال : قال **أبو** رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا ؟ أوكما قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله(١) ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني » أو كما قال صلى الله عليه وسلم فأنزل الله فى ذلك من قولهما (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة – إلى قوله – بعد إذ أنتم مسلمون) فقوله (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله) أى ما ينبغى لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس اعبدونى من دون الله أى مع الله ، فإذا كان هذا لا يصلح لنبى ولا لمرسل ، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال الحسن البصرى : لا ينبغى هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته قال وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا يعنى أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم كما قال الله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) الآية . وفى المسند والترمذى كما سيأتى أن عدى بن حاتم قال : يا رسول الله ما عبدوهم قال « بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين فانهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام . وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام . فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم السفراء بين الله وبين خلقه فى أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة فقاموا بذلك أتم القيام ونصحوا الخلق ، وبلغوهم الحق ، وقوله (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أى ولكن يقول الرسول للناس كونوا ربانيين قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد أى حكماء علماء حلماء ، وقال الحسن وغير واحد فقهاء ، وكذا روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وعطاء الخراسانى وعطية العوفى والربيع بن أنس . وعن الحسن أيضا يعنى أهل عبادة وأهل تقوى . وقال الضحاك فى قوله (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيها تعلمون أى تفهمون معناه وقرئ تعلمون بالتشديد من التعليم (وبما كنتم تدرسون) تحفظون ألفاظه ثم قال الله تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) أى ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله لا نبي مرسل ولا ملك مقرب (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) أى لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) الآية ، وقال (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الله آلهة يعبدون) وقال إخبارا عن الملائكة (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبى بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أى مبلغ ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ولا يمنعه ماهو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته ولهذا قال تعالى وتقدس (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة) أى لمهما

(١) فى نسخة الأزهر غيره

أعطيتكم من كتاب وحكمة (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري) وقال ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وقتادة والسدي: يعني عهدي. وقال محمد بن إسحق (إصري) أي ثقل ماحملتم من عهدي أي ميثاقي الشديد المؤكد (قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك) أي عن هذا العهد والميثاق (فأولئك هم الفاسقون). قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. وقال طاوس والحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا، وهذا لا يضاد ماقاله علي وابن عباس ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه. ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول علي وابن عباس. وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن جابر عن الشعبي عن عبدالله بن ثابت قال جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إني أمرت بأخ لي يهودي[1] من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟. قال فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله ابن ثابت قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا قال: فسري عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»

(حديث آخر) قال الحافظ أبو يعلى[2] حدثنا إسحق حدثنا حماد عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني» وفي بعض الأحاديث «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي» فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ﴾

يقول تعالى منكراً على من أراد دينا سوى دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي له أسلم من في السموات والأرض أي استسلم له من فيهما طوعا وكرها كما قال تعالى (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها) الآية وقال تعالى (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون * ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرها، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع. وقد ورد حديث في تفسير هذه الآية على معنى آخر فيه غرابة فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن النضر العسكري حدثنا سعيد بن حفص النفيلي حدثنا محمد بن محصن العكاشي حدثنا الأوزاعي عن عطاء بن أبي رباح عن النبي صلى الله عليه وسلم «وله أسلم من في السموات والأرض طوعا

(١) وفي نسخة الأزهر مررت بأخ لي من قريظة (٢) وفيها أبو بكر يعني البزار فيراجعان.

وكرها) « أما من فى السموات فالملائكة ، وأما من فى الأرض فمن ولد على الإسلام . وأما كرهاً فمن أتى به من سبايا الأمم فى السلاسل والأغلال ، يقادون إلى الجنة وهم كارهون » وقد ورد فى الصحيح «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة فى السلاسل » وسيأتى له شاهد من وجه آخر ، ولكن المعنى الأول للآية أقوى . وقد قال وكيع فى تفسيره حدثنا سفيان عن منصور عن مجاهد (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً) قال : هو كقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال أيضاً : حدثنا سفيان عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً) قال حين أخذ الميثاق (وإليه يرجعون) أى يوم المعاد فيجازى كلا بعمله .

ثم قال تعالى (قل آمنا بالله وما أنزل علينا) يعنى القرآن (وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب) أى من الصحف والوحى (والأسباط) وهم بطون بنى إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل — وهو يعقوب — الاثنى عشر (وما أوتى موسى وعيسى) يعنى بذلك التوراة والإنجيل (والنبيون من ربهم) وهذا يعم جميع الأنبياء جملة (لا نفرق بين أحد منهم) يعنى بل نؤمن بجميعهم (ونحن له مسلمون) فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبى أرسل ، وبكل كتاب أنزل لا يكفرون بشىء من ذلك بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله ، وبكل نبى بعثه الله

ثم قال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) الآية أى من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه (وهو فى الآخرة من الخاسرين) كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عباد بن راشد حدثنا الحسن حدثنا أبو هريرة إذ ذاك ونحن بالمدينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة فتقول يارب أنا الصلاة فيقول إنك على خير ، وتجىء الصدقة فتقول يا رب أنا الصدقة فيقول إنك على خير ، ثم يجىء الصيام فيقول يا رب أنا الصيام فيقول إنك على خير ، ثم تجىء الأعمال ، كل ذلك يقول الله تعالى إنك على خير ، ثم يجىء الإسلام فيقول يا رب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول الله تعالى إنك على خير بك اليوم آخذ وبك أعطى . قال الله فى كتابه (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) » تفرد به أحمد قال أبو عبد الرحمن عبد الله ابن الإمام أحمد : عباد بن راشد ثقة ولكن الحسن لم يسمع من أبى هريرة

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع البصرى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لى رسول الله هل لى من توبة ؟ فنزلت (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم — إلى قوله — فإن الله غفور رحيم) فأرسل إليه قومه فأسلم ، وهكذا رواه النسائى والحاكم وابن حبان من طريق داود بن أبى هند به . وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال عبد الرزاق أنبأنا جعفر بن سليمان حدثنا حميد الأعرج عن مجاهد قال : جاء الحارث ابن سويد فأسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه[1] (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم — إلى قوله — غفور رحيم) قال . فحملها إليه رجل من قومه فقرأ عليه فقال الحارث . إنك — والله ماعلمت — لصدوق وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة قال : فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه فقوله تعالى (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات) أى قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ، ووضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى

(١) فى نسخة الأزهر قرآنا .

ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية ولهذا قال تعالى (والله لايهدى القوم الظالمين) ثم قال تعالى (أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) أى يلعنهم الله ويلعنهم خلقه (خالدين فيها) أى فى اللعنة (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أى لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة ثم قال تعالى (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرا أى استمر عليه إلى الممات ومخبرا بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات كما قال تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت) الآية ولهذا قال ههنا (لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) أى الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغى قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أن قوما أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) هكذا رواه وإسناده جيد ، ثم قال تعالى (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به) أى من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربة كما سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جدعان وكان يقرى الضيف ويفك العانى ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال « لا إنه لم يقل يوما من الدهر رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضاً ذهبا ما قبل منه كما قال تعالى (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وقال (لا بيع فيه ولا خلال) وقال (إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) ولهذا قال تعالى ههنا (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به) فعطف ولو افتدى به على الأول فدل على أنه غيره ، وما ذكرناه أحسن من أن يقال إن الواو زائدة والله أعلم ويقتضى ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شىء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبا ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبا بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها . وقال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنى شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به قال : فيقول نعم ، فيقول الله قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك » وهكذا أخرجه البخارى ومسلم (طريق أخرى) وقال الإمام أحمد . حدثنا روح حدثنا حماد عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له يا ابن آدم كيف وجدت منزلك فيقول أى رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن ، فيقول . ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرار ، لما يرى من فضل الشهادة . ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له يا ابن آدم كيف وجدت منزلك فيقول : يا رب شر منزل فيقول له أتفتدى منى بطلاع الأرض ذهبا فيقول أى رب نعم فيقول : كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد إلى النار » ولهذا قال (أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) أى وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه

﴿ لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

روى وكيع فى تفسيره عن شريك عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون (لن تنالوا البر) قال: الجنة. وقال الإمام أحمد: حدثنا روح حدثنا مالك عن إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة سمع أنس بن مالك يقول: كان أبوطلحة أكثر الأنصار[1] بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله اليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد وكان النبى ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس: فلما نزلت (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قال أبوطلحة: يارسول الله إن الله يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وإن أحب أموالى إلىّ بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عندالله تعالى فضعها يارسول الله حيث أراك الله فقال النبى ﷺ «بخ بخ ذاك مال رابح ذاك مال رابح، وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين» فقال أبوطلحة: أفعل يارسول الله فقسمها أبوطلحة فى أقاربه وبنى عمه، أخرجاه[2] وفى الصحيحين أن عمر قال: يارسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندى من سهمى الذى هو بخيبر فما تأمرنى به؟ قال «حبس الأصل وسبل الثمرة» وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبوالخطاب زياد بن يحيى الحسانى حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى عمرو بن حماس عن حمزة بن عبدالله بن عمر قال: قال عبدالله حضرتنى هذه الآية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فذكرت ما أعطانى الله فلم أجد شيئا أحب الىّ من جارية لى رومية فقلت: هى حرة لوجه الله فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله لنكحتها يعنى تزوجتها

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر قال: قال ابن عباس حضرت عصابة من اليهود نبى الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لايعلمهن إلا نبى: قال «سلونى عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أناحدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعنى على الاسلام» قالوا فذلك لك قالوا: أخبرنا عن أربع خلال، أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى النوم ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه فقال «أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا شديدا وطال سقمه فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان أحب الطعام اليه لحم الإبل وأحب الشراب اليه ألبانها» فقالوا: اللهم نعم فقال «اللهم اشهد عليهم» وقال «أنشدكم بالله الذى لاإله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكرا بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله» قالوا: نعم قال «اللهم اشهد عليهم» قال «وأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولاينام قلبه» قالوا: اللهم نعم قال «اللهم اشهد» قال «وإن ولىى جبريل ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه» قالوا: فعند ذلك نفارقك ولو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى (قل من كان عدوا لجبريل) الآية ورواه أحمد أيضا عن حسين بن محمد عن عبدالحميد به (طريق أخرى) قال أحمد حدثنا أبوأحمد الزبيرى حدثنا عبدالله بن الوليد العجلى عن بكير بن شهاب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذقال (والله على مانقول وكيل) قال

(١) فى نسخة الأزهر أنصارى (٢) أى فى الصحيحين.

« هاتوا » قالوا أخبرنا عن علامة النبي ؟ «قال تنام عيناه ولا ينام قلبه» قالوا أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر. قال « يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة أنثت » قالوا أخبرناماحرم إسرائيل على نفسه ؟ قال « كان يشتكي عرق النسا فلم يجد شيئا يلائمه إلا ألبان كذا وكذا ـ قال أحمد قال بعضهم يعني الإبل ـ فحرم لحومها» قالوا صدقت قالوا أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال « ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده ـ أو في يديه ـ مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله عز وجل » قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع ؟ قال « صوته » قالوا صدقت إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها إنه . ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك قال « جبريل عليه السلام » قالوا جبريل ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان ، فأنزل الله تعالى (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) والآية بعدها وقد رواه الترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن الوليد العجلي به نحوه ، وقال الترمذي حسن غريب : وقال ابن جريج والعوفي عن ابن عباس . كان إسرائيل عليه السلام ـ وهو يعقوب ـ يعتريه عرق النسا بالليل ، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم ويقلع الوجع عنه بالنهار فنذر لله لئن عافاه الله لا يأكل عرقا ولا يأكل ولد ماله عرق ، وهكذا قال الضحاك والسدي كذا ورواه حكاه ابن جرير في تفسيره قال . فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استنانا به واقتداء بطريقه قال : وقوله (من قبل أن تنزل التوراة) أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قلت: ولهذا السياق بعد ماتقدم مناسبتان (إحداهما) أن إسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله وكان هذا سائغا في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فهذا هو المشروع عندنا وهو الانفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه كما قال تعالى (وآتى المال على حبه) وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه) الآية (المناسبة الثانية) لما تقدم بيان[1] الرد على النصارى واعتقادهم الباطل في المسيح وتبيين زيف ماذهبوا اليه ، وظهور الحق واليقين في عيسى وأمه كيف خلقه الله بقدرته ومشيئته وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالى ، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى ، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فان الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم[2] الإبل وألبانها فاتبعه بنوه في ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء أخرى زيادة على ذلك ، وكان الله عزوجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك بعد ذلك ، وكان التسري على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم ، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً ، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة ، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم ، وهذا هو النسخ بعينه فكذلك فليكن ماشرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ماحرم في التوراة فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه ؟ وكذلك ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وملة أبيه إبراهيم ، فما بالهم لايؤمنون ؟ ولهذا قال تعالى (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) أي كان حلا لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ماحرمه إسرائيل ثم قال تعالى (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فإنها ناطقة بما قلناه (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائما ، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ماذكرنا (فأولئك هم الظالمون) ثم قال تعالى (قل صدق الله) أي قل يامحمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فانه الحق الذي لاشك فيه ولا مرية وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم كما قال تعالى (قل إنني هداني ربي إلى صراط

---

(١) في نسخة الأزهر السياق في . (٢) وفيها لحمان .

مستقيم * دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) وقال تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أى لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون اليه ويعتكفون عنده (للذى ببكة) يعنى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذى يزعم كل من طائفتى النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ولا يحجون إلى البيت الذى بناه عن أمر الله فى ذلك ونادى الناس إلى حجه ولهذا قال تعالى (مباركا) أى وضع مباركا (وهدى للعالمين) وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت . ثم أى ؟ قال « المسجد الأقصى » قلت كم بينهما ؟ قال « أربعون سنة » قلت . ثم أى قال « ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد » وأخرجه البخارى ومسلم من حديث الأعمش به. وقال ابن أبى حاتم . حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان عن شريك عن مجاهد[1] عن الشعبى عن على رضى الله عنه فى قوله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) قال كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله . وحدثنا أبى حدثنا الحسن ابن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة قال : قام رجل إلى على رضى الله عنه فقال : ألا تحدثنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الأرض ؟ قال : لا ولكنه[2] أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ، وذكر تمام الخبر فى كيفية بناء إبراهيم البيت ، وقد ذكرنا ذلك مستقصى فى أول سورة البقرة فأغنى عن إعادته هنا . وزعم السدى أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقا ، والصحيح قول على رضى الله عنه . فأما الحديث الذى رواه البيهقى فى بناء الكعبة فى كتابه دلائل النبوة من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عبد الله ابن عمرو بن العاص مرفوعا « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فأمرهما ببناء الكعبة فبناه آدم ثم أمر بالطواف به وقيل له . أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس » فانه كما ترى من مفردات ابن لهيعة وهو ضعيف . والأشبه والله أعلم أن يكون هذا موقوفا على عبد الله بن عمرو ، ويكون من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كلام أهل الكتاب

وقوله تعالى (للذى ببكة) بكة من أسماء مكة على المشهور قيل سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أى يزدحمون . قال قتادة . إن الله بك به الناس جميعا فيصلى النساء أمام الرجال ولا يفعل ذلك ببلد غيرها وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعمرو بن شعيب ومقاتل بن حيان . وذكر حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه قال . مكة من الفج إلى التنعيم ، وبكة من البيت إلى البطحاء وقال شعبة عن المغيرة عن إبراهيم : بكة البيت والمسجد وكذا قال الزهرى . وقال عكرمة فى رواية وميمون بن مهران : البيت وما حوله بكة ، وما وراء ذلك مكة . وقال أبو مالك وأبو صالح وإبراهيم النخعى وعطية العوفى ومقاتل بن حيان بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة ، مكة ، وبكة ، والبيت العتيق والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، والمأمون ، وأم رحم[3] ، وأم القرى ، وصلاح ، والعرش على وزن بدر ، والقادس لأنها تطهر من الذنوب ؛ والمقدسة ، والناسة بالنون وبالباء أيضا والباسة والحاطمة ، والرأس ، وكوثاء والبلدة ، والبنية ، والكعبة

وقوله تعالى (فيه آيات بينات) أى دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم ، وأن الله عظمه وشرفه ثم قال تعالى

(١) فى نسخة الأزهر مجالد وهو الصواب (٢) وفيها كان (٣) وفيها جم .

(مقام إبراهيم) يعنى الذى لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل ، وقد كان ملتصقا بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف . لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقد قدمنا الأحاديث فى ذلك فأغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) أى فمنهم مقام إبراهيم والمشاعر وقال مجاهد أثر قدميه فى المقام آية بينة ، وكذا روى عن عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان وغيرهم . وقال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد وعمرو الأودى قالا : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فى قوله تعالى (مقام إبراهيم) قال : الحرم كله مقام إبراهيم ، ولفظ عمرو : الحجر كله مقام إبراهيم ، وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : الحج مقام إبراهيم . هكذا رأيته فى النسخة ولعله الحجر كله مقام إبراهيم . وقد صرح بذلك مجاهد وقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) يعنى حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء ، وكذلك كان الأمر فى حال الجاهلية كما قال الحسن البصرى وغيره : كان الرجل يقتل فيضع فى عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى التيمى عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فإذا خرج أخذ بذنبه : وقال الله تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) الآية . وقال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره ، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها ، كما ثبتت الأحاديث والآثار فى ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفاً . ففى الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة « لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » وقال يوم فتح مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا فى ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فانه لقينهم ولبيوتهم فقال « إلا الإذخر » ولهما عن أبى هريرة مثله أو نحوه ولهما واللفظ لمسلم أيضاً عن أبى شريح العدوى أنه قال : لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة ائذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله صلى الله عليه سلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما . أو يعضد بها شجرة ، فان أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب » فقيل لأبى شريح ما قال لك عمرو ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة » رواه مسلم . وعن عبدالله بن عدى بن الحمراء الزهرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بالحزورة[1] بسوق مكة يقول « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » رواه الإمام أحمد وهذا لفظه والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح ، وكذا صحح من حديث ابن عباس نحوه . وروى أحمد عن أبى هريرة نحوه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا بشر بن آدم ابن بنت أزهر السمان حدثنا بشر بن عاصم عن زريق بن مسلم الأعمى مولى بنى مخزوم حدثنى زياد بن أبى عياش عن يحيى بن جعدة بن هبيرة فى قوله تعالى (ومن دخله كان آمنا)

(١) فى نسخة الأزهر الحزورة

قال : آمنا من النار . وفى معنى هذا القول الحديث الذى رواه البيهقى . أخبرنا أبوالحسن على بن أحمد بن عبدان حدثنا أحمد بن عبيد حدثنا محمد بن سليمان بن الواسطى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا ابن المؤمل عن ابن محيصن عن عطاء عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من دخل البيت دخل فى حسنة وخرج من سيئة وخرج مغفورا له » ثم قال : تفرد به عبد الله بن المؤمل وليس بالقوى. وقوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) هذه آية وجوب الحج عند الجمهور . وقيل بل هى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الاسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا وإنما يجب على المكلف فى العمر مرة واحدة بالنص والاجماع . قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يزيد بن هرون حدثنا الربيع ابن مسلم القرشى عن محمد بن زياد عن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » فقال رجل أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله ﷺ « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ثم قال « ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » ورواه مسلم عن زهير ابن حرب عن يزيد بن هرون به بنحوه . وقدروى سفيان بن حسين وسليمان بن كثير وعبد الجليل بن حميد ومحمد بن أبى حفصة عن الزهرى عن أبى سنان الدؤلى واسمه يزيد بن أمية عن ابن عباس رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال « يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج » فقام الأقرع بن حابس فقال : يارسول الله أفى كل عام ؟ فقال « لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولن[1] تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع » رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه ، والحاكم من حديث الزهرى به ، ورواه شريك عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس بنحوه . وروى من حديث أسامة بن زيد

وقال الإمام أحمد : حدثنا منصور بن وردان عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن أبيه عن البخترى عن على رضى الله عنه قال : لما نزلت (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) قالوا يارسول الله فى كل عام فسكت قالوا يارسول الله فى كل عام ؟ قال « لا ولو قلت نعم لوجبت » فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) وكذا رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث منصور بن وردان به ثم قال الترمذى حسن غريب ، وفيما قال نظر لأن البخارى قال : لم يسمع أبو البخترى من على . وقال ابن ماجه : حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا محمد بن أبى عبيدة عن أبيه عن الأعمش عن أبى سفيان عن أنس بن مالك قال : قالوا يارسول الله الحج فى كل عام ؟ قال « لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لم تقوموا بها ولو لم تقوموا بها لتعذبتم » . وفى الصحيحين من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر عن سراقة بن مالك قال : يارسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ قال « لا . بل للأبد » وفى رواية « بل لأبد الأبد »

وفى مسند الإمام أحمد وسنن أبى داود من حديث واقد بن أبى واقد الليثى عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه فى حجته هذه « ثم ظهور الحصر – يعنى ثم الزمن ظهور الحصر – ولا تخرجن من البيوت » وأما الاستطاعة فأقسام تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه وتارة بغيره كما هو مقرر فى كتب الأحكام : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا إبراهيم بن يزيد قال : سمعت محمد بن عباد بن جعفر يحدث عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من الحاج يارسول الله ؟ قال : « الشعث التفل » فقام آخر فقال أى الحج أفضل يارسول الله : قال « العج والثج » فقام آخر فقال : ما السبيل يارسول الله قال : « الزاد والراحلة » وهكذا رواه ابن ماجه من حديث إبراهيم بن يزيد وهو الجوزى . قال الترمذى : ولا يرفعه إلا من حديثه وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه كذا قال ههنا وقال فى كتاب الحج : هذا حديث حسن لايشك أن هذا الاسناد رجاله كلهم ثقات سوى الجوزى هذا وقد تكلموا فيه من أجل هذا الحديث لكن قد تابعه غيره فقال ابن

(١) فى نسخة الأزهر ولم .

أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبد العزيز بن عبد الله العامري حدثنا محمد بن عبدالله بن عبيد بن عمير الليثي عن محمد بن عباد ابن جعفر قال : جلست إلى عبد الله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له ما السبيل ؟ قال «الزاد والراحلة» وهكذا رواه ابن مردويه من رواية محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير به . ثم قال ابن أبي حاتم : وقد روى عن ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك وقد روى هـذا الحديث من طرق أخرى من حديث أنس وعبد الله بن عباس وابن مسعود وعائشة كلها مرفوعة ، ولـكن في أسانيدها مقال كما هو مقرر في كتاب الأحكام والله أعلم . وقد اعتنى الحافظ أبوبكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث ، ورواه الحاكم من حديث قتادة عن حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله عزوجل (من استطاع إليه سبيلا) فقيل ما السبيل ؟ قال « الزاد والراحلة » ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وقال ابن جرير : حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن قال : قرأ رسول الله ﷺ (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) فقالوا : يارسول الله ما السبيل ؟ قال « الزاد والراحلة » ورواه وكيع في تفسيره عن سفيان عن يونس به.

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن إسماعيل وهو أبو إسرائيل الملائي عن فضيل يعني ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجلوا إلى الحج – يعني الفريضة – فإن أحدكم لايدري مايعرض له » . وقال أحمـد أيضا : حـدثنا أبو معاوية حـدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي عن مهران ابن أبي صفوان عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من أراد الحج فليتعجل » ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي معاوية الضرير به وقـد روى وكيع وابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى (من استطاع إليه سبيلا) قال من ملك ثلثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلا وعن عكرمة مولاه أنه قال : السبيل الصحة . وروى وكيع بن الجراح عن أبي جناب يعني الـكلبي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال : (من استطاع إليه سبيلا) قال « الزاد والبعير » وقوله تعالى (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه . وقال سعيد بن منصور عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن عكرمة قال : لما نزلت (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) قالت اليهود : فنحن مسلمون قال الله عز وجل فاخصمهم فحجهم يعني فقال لهم النبي صـلى الله عليه وسلم « إن الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلا » فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا قال الله تعالى (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين)» وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه . وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إسماعيل بن عبدالله بن مسعود حدثنا مسلم بن إبراهيم وشاذ بن فياض قالا : حدثنا هلال أبوهاشم الخراساني حدثنا أبوإسحق الهمداني عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ملك زادا وراحلة ولم يحج بيت الله فلايضره مات يهوديا أونصرانيا وذلك بأن الله قال (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا * ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » ورواه ابن جرير من حديث مسلم بن إبراهيم به وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي زرعة الرازي حـدثنا هلال بن الفياض حدثنا هلال أبوهاشم الخراساني فذكره بإسناده مثله ، ورواه الترمذي عن محمد بن علي[1] القطعي عن مسلم بن إبراهيم عن هلال بن عبدالله مولى ربيعة بن عمرو ابن مسلم الباهلي به وقال : هذا حديث غريب لانعرفه إلامن هذا الوجه وفي إسناده مقال ، وهلال مجهول ، والحارث يضعف في الحديث . وقال البخاري ، هلال هذا منكر الحديث . وقال ابن عدي ، هذا الحديث ليس بمحفوظ . وقد روى أبوبكر الاسماعيلي الحافظ من حديث أبي عمرو الأوزاعي حـدثني إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر حدثني عبد الرحمن بن غنم[2] أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا ، وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه . وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هـذه الأمصار فينظروا إلى كل من كان عنده جـدة فلم يحج فيضربوا عليهم الجزية ماهم بمسلمين ماهم بمسلمين

(١) فيها يحيى (٢) وفيها غنيم .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق وكفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم. وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء ، وقد توعدهم الله على ذلك ، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون أي وسيجزيهم على ذلك (يوم لا ينفع مال ولا بنون)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما منحهم من إرسال رسوله كما قال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم) الآية ، وهكذا قال ههنا (إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) ثم قال تعالى (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) يعني أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهاراً وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم ، وهذا كقوله تعالى وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) الآية بعدها . وكما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوما « أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ » قالوا : الملائكة قال « وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم » قالوا : فنحن قال « وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم » قالوا : فأي الناس أعجب إيمانا؟ قال « قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها » وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه في أول شرح البخاري ولله الحمد . ثم قال تعالى (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية ، والعدة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد وحصول المراد

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

قال ابن أبي حاتم . حدثنا محمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن سفيان وشعبة عن زبيد اليامي عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود (اتقوا الله حق تقاته) قال : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وهذا إسناد صحيح موقوف ، وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود ، وقد رواه ابن مردويه من حديث يونس ابن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سفيان الثوري عن زبيد عن مرة عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى » وكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث مسعر عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود مرفوعا فذكره ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا

قال . والأظهر أنه موقوف والله أعلم . ثم قال ابن أبي حاتم . وروى نحوه عن مرة الهمدانى والربيع بن خيثم وعمرو ابن ميمون وإبراهيم النخعى وطاوس والحسن وقتادة وأبى سنان والسدى نحو ذلك . وروى عن أنس أنه قال لايتقى الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية. والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم والسدى وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) .وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) قال : لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فى سبيله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وقوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى حافظوا على الإسلام فى حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فان الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شىء مات عليه ومن مات على شىء بعث عليه فعياذا بالله من خلاف ذلك

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا شعبة قال سمعت سليمان عن مجاهد : إن الناس كانوا يطوفون بالبيت وإن ابن عباس جالس معه محجن فقال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم (١) فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم » وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من طرق عن شعبة به وقال الترمذى ؛ حسن صحيح : وقال الحاكم : على شرط الشيخين ولم يخرجاه

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه »

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » ورواه مسلم من طريق الأعمش به وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا يونس عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله قال أنا عند ظن عبدى بى ، فان ظن بى خيرا فله ، وإن ظن بى شرا فله » وأصل هذا الحديث ثابت فى الصحيحين من وجه آخر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله أنا عند ظن عبدى بى »

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الملك القرشى حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت وأحسبه عن أنس قال : كان رجل من الأنصار مريضاً فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فوافقه فى السوق فسلم عليه فقال له « كيف أنت يا فلان » ؟ قال : بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف » ثم قال لا نعلم رواه عن ثابت غير جعفر بن سليمان ، وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديثه ثم قال الترمذى غريب ، وكذا رواه بعضهم عن ثابت مرسلا فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن يوسف بن ماهك عن حكيم بن حزام قال : بايعت رسول صلى الله عليه وسلم أن لا أخر إلا قائما ، ورواه النسائى فى سننه عن إسماعيل ابن مسعود عن خالد بن الحارث عن شعبة به وترجم عليه فقال ﴿ باب كيف يخر للسجود ﴾ ثم ساقه مثله فقيل معناه أن لا أموت إلا مسلماً ، وقيل : معناه أن لا أقتل إلا مقبلا غير مدبر وهو يرجع إلى الأول

وقوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) قيل (بحبل الله) أى بعهد الله كما قال فى الآية بعدها (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أى بعهد وذمة وقيل بحبل من الله يعنى القرآن كما فى حديث الحارث الأعور عن على مرفوعا فى صفة القرآن « هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم »

وقد ورد فى ذلك حديث خاص بهذا المعنى فقال الإمام الحافظ أبو جعفر الطبرى : حدثنا سعيد بن يحيى الأموى حدثنا أسباط بن محمد عن عبد الملك بن (٢) سليمان العزرمى عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) فى نسخة الأزهر : لأمرت على أهل الأرض عيشتهم (٢) وفيها : أبى سليمان .

« كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض »

وروى ابن مردويه من طريق إبراهيم بن مسلم الهجرى عن أبى الأحوص عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه » وروى من حديث حذيفة وزيد بن أرقم نحو ذلك . وقال وكيع حدثنا الأعمش عن أبى وائل قال : قال عبد الله : إن هذا الصراط محتضر يحضره الشياطين . يا عبد الله هذا الطريق ، هلم إلى الطريق فاعتصموا بحبل الله فان حبل الله القرآن

وقوله (ولا تفرقوا) أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة . وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهى عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف كما فى صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضا . وخيف عليهم الافتراق والاختلاف فقد وقع ذلك فى هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلمة من عذاب النار وهم الذين على ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه

وقوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) إلى آخر الآية ، وهذا السياق فى شأن الأوس والخزرج فانه قد كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية ، وعداوة شديدة وضغائن وإحن وذحول ، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم ، فلما جاء الله بالاسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله ، متواصلين فى ذات الله ؛ متعاونين على البر والتقوى قال الله تعالى (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) إلى آخر الآية وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أن هداهم للايمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين فعتب من عتب منهم بما فضل عليهم فى القسمة بما أراه الله فخطبهم فقال « يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ؟» فكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمنّ . وقد ذكر محمد بن إسحق بن يسار وغيره : أن هذه الآية نزلت فى شأن الأوس والخزرج . وذلك أن رجلا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج فساءه ماهم عليه من الاتفاق والألفة فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ماكان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟» وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضى الله عنهم وذكر عكرمة . أن ذلك نزل فيهم حين تثاوروا فى قضية الإفك والله أعلم

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ

يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

يقول تعالى ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأولئك هم المفلحون قال الضحاك : هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة يعنى المجاهدين والعلماء . وقال أبو جعفر الباقر قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) ثم قال « الخير اتباع القرآن وسنتى » رواه ابن مردويه . والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد فرد من الأمة بحسبه كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه . فان لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الايمان » وفى رواية « وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل »

وقال الامام أحمد حدثنا سليمان الهاشمى أنبأنا إسماعيل بن جعفر أخبرنى عمرو بن أبى عمرو عن عبدالله بن عبدالرحمن الأشهلى عن حذيفة بن اليمان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث عمرو بن أبى عمرو به ، وقال الترمذى حسن والأحاديث فى هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة كما سيأتى تفسيرها فى أماكنها . ثم قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات) الآية ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين فى افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع قيام الحجة عليهم .

قال الأمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنى أزهر بن عبد الله الهروى عن أبى عامر عبد الله بن يحى قال : حججنا مع معاوية بن أبى سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال« إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة — يعنى الأهواء — كلها فى النار إلا واحدة — وهى الجماعة — وإنه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله» والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أحرى أن لايقوم به . وهكذا رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحى كلاهما عن أبى المغيرة واسمه عبد القدوس بن الحجاج الشامى به ، وقد ورد[1] هذا الحديث من طرق

وقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) يعنى يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعه والفرقة قاله ابن عباس رضى الله عنهما (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) قال الحسن البصرى : وهم المنافقون (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وهذا الوصف يعم كل كافر (وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمه الله هم فيها خالدون) يعنى الجنة ما كثون فيها أبدا لا يبغون عنها حولا . وقد قال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن الربيع بن صبيح وحماد بن سلمة عن أبى غالب قال: رأى أبو أمامة رءوسا منصوبة على درج مسجد دمشق فقال أبو أمامة . كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه ثم قرأ (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) إلى آخر الآية قلت : لأبى أمامة أنت سمعته من رسول الله ﷺ قال : لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا — حتى عد سبعا — ما حدثتكموه ، ثم قال هذا حديث حسن ، وقد رواه ابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة عن أبى غالب ، وأخرجه أحمد فى مسنده عن عبد الرزاق عن معمر عن أبى غالب بنحوه

وقد روى ابن مردويه عند تفسير هذه الآية عن أبى ذر حديثا مطولا غريبا عجيبا جدا . ثم قال تعالى(تلك آيات الله نتلوها عليك) أى هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد (بالحق) أى نكشف ما الأمر عليه فى الدنيا

(١) فى نسخة الأزهر : روى

والآخرة (وما الله يريد ظلماً للعالمين) أى ليس بظالم لهم بل هو الحاكم[1] العدل الذى لا يجور ، لأنه القادر على كل شىء ، العالم بكل شىء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه ، ولهذا قال تعالى (ولله مافى السموات ومافى الأرض) أى الجميع ملك له وعبيد له (وإلى الله ترجع الأمور) أى هو الحاكم المتصرف فى الدنيا والآخرة

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان بن ميسرة عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال : خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الاسلام ، وهكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطية العوفى وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس (كنتم خير أمة أخرجت للناس) يعنى خير الناس للناس : والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ، ولهذا قال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا شريك عن سماك عن عبدالله بن عميرة عن درة[2] بنت أبى لهب قالت : قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر فقال يا رسول الله أى الناس خير ؟ قال « خير الناس أقراهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » ورواه أحمد فى مسنده والنسائى فى سننه والحاكم فى مستدركه من حديث سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة . والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، كما قال فى الآية الأخرى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أى خيارا (لتكونوا شهداء على الناس) الآية

وفى مسند الإمام أحمد وجامع الترمذى وسنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذى . ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبى سعيد نحوه . وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبى قبله ولا رسول من الرسل فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه مالا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه كما قال الإمام أحمد حدثنا عبدالرحمن حدثنا ابن زهير عن عبدالله يعنى ابن محمد بن عقيل عن محمد بن على وهو ابن الحنفية أنه سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ « أعطيت مالم يعط أحد من الأنبياء » فقلنا يارسول الله ماهو ؟ قال « نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وسميت أحمد وجعل التراب لى طهورا ، وجعلت أمتى خير الأمم » تفرد به أحمد من هذا الوجه وإسناده حسن

وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو العلاء الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية بن أبى حبيش[3] عن يزيد بن ميسرة قال سمعت أبا الدرداء رضى الله عنه يقول : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها يقول

(١) فى نسخة الأزهر : الحكم (٢) وفيها زوج درة (٣) وفيها حليس .

« إن الله تعالى يقول ياعيسى إني باعث بعدك أمة إن أصابهم مايحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولاحلم ولاعلم قال : يارب كيف هذا لهم ولاحلم ولا علم ؟ قال أعطيهم من حلمي وعلمي »

وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها ههنا قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا المسعودي حدثنا بكير بن الأخنس عن رجل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستزدت ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً » فقال أبو بكر رضي الله عنه : فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى ومصيب من حافات البوادي

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن بكر السهمي حدثنا هشام بن حسان عن القاسم بن مهران عن موسى بن عبيد عن ميمون بن مهران عن عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال « إن ربي أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » فقال عمر يارسول الله فهلا استزدته فقال « استزدته فأعطاني مع كل ألف سبعين ألفاً » قال عمر فهلا استزدته قال « قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً » قال عمر : فهلا استزدته قال « قد استزدته فأعطاني هكذا » وفرج عبد الرحمن ابن أبي بكر بين يديه ، وقال عبد الله وبسط باعيه وحثا عبد الله وقال هاشم : وهذا من الله لا يدري ما عدده

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة قال : قال شريح بن عبيدة : مرض ثوبان بحمص وعليها عبد الله بن قرط الأزدي فلم يعده فدخل على ثوبان رجل من الكلاعيين عائداً له فقال له ثوبان : أتكتب؟ قال : نعم قال اكتب فكتب للأمير عبد الله بن قرط من ثوبان مولى رسول الله ﷺ . أما بعد فانه لو كان لموسى وعيسى عليهما السلام بحضرتك خادم لعدته ، ثم طوى الكتاب وقال له : أتبلغه إياه ؟ قال نعم فانطلق الرجل بكتابه فدفعه إلى ابن قرط فلما رآه قام فزعا فقال الناس ماشأنه أحدث أمر : فأتى ثوبان فدخل عليه فعاده وجلس عنده ساعة ثم قام فأخذ ثوبان بردائه وقال : اجلس حتى أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول « ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً لاحساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفاً » تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناد رجاله كلهم ثقات شاميون حمصيون فهو حديث صحيح ولله الحمد والمنة

(طريق أخرى) قال الطبراني حدثنا عمرو بن إسحق بن زريق الحمصي حدثنا محمد بن إسماعيل يعني ابن عياش حدثني أبي عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن ربي عزوجل وعدني من أمتي سبعين ألفاً لايحاسبون ، مع كل ألف سبعون ألفا » هذا لعله هو المحفوظ بزيادة أبي أسماء الرحبي بين شريح وبين ثوبان والله أعلم

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة ثم غدونا إليه فقال « عرضت على الأنبياء الليلة بأممها ، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة والنبي ومعه العصابة ، والنبي ومعه النفر ، والنبي وليس معه أحد ، حتى مر على موسى عليه السلام ومعه كبكبة من بني إسرائيل فأعجبوني فقلت من هؤلاء ؟ قيل : هذا أخوك موسى ومعه بنو إسرائيل فقلت . فأين أمتي ؟ فقيل انظر عن يمينك فنظرت فإذا الضراب(١) قد سد بوجوه الرجال فقيل لي أرضيت فقلت . رضيت يارب - قال - فقيل لي إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » فقال النبي ﷺ « فدا كم أبي وأمي إن استطعتم أن تكونوا من السبعين ألفاً فافعلوا فإن قصرتم فكونوا من أهل الضراب ، فان قصرتم فكونوا من أهل الأفق فإني قد رأيت ثم أناسا يتهاوشون » فقام عكاشة بن محصن فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم أي من السبعين فدعا له ، فقام رجل آخر فقال ادع الله يارسول الله أن يجعلني منهم فقال « سبقك بها عكاشة » قال ثم تحدثنا فقلنا من ترون هؤلاء السبعين الألف ، قوم ولدوا في الاسلام ولم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال « هم الذين لا يسترقون . ولا يكتوون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » هكذا رواه أحمد بهذا السند وهذا السياق ، ورواه أيضا عن عبد الصمد عن هشام عن قتادة باسناده مثله وزاد بعد قوله « رضيت يارب، رضيت يارب قال : رضيت . قلت نعم قال : انظر عن يسارك

(١) قوله فإذا الضراب هكذا في الموضعين وفي نسخة في موضع الظراب بالظاء وحرر .

ـ قال ـ فنظرت فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال فقال : رضيت؟قلت:رضيت» وهذا إسناد صحيح من هذا الوجه تفرد به أحمد ولم يخرجوه

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أحمد بن منيع حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز حدثنا حماد عن عاصم عن زر عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « عرضت علىّ الأمم بالموسم فراثت علىّ أمتى ، ثم رأيتهم فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم ، قد ملئوا السهل والجبل فقال أرضيت يا محمد ؟ فقلت : نعم قال : فان مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال « أنت منهم » فقام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم فقال « سبقك بها عكاشة » رواه الحافظ الضياء المقدسى وقال : هذا عندى على شرط مسلم .

(حديث آخر) قال الطبرانى حدثنا محمد بن محمد الجذوعى القاضى حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا محمد بن أبى عدى عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب » قيل .من هم ، قال « هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » ورواه مسلم من طريق هشام بن حسان وعنده ذكر عكاشة

(حديث آخر) ثبت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة حدثه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل الجنة من أمتى زمرة وهم سبعون ألفاً تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » قال أبو هريرة . فقام عكاشة بن محصن الأسدى يرفع نمرة عليه فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال رسول الله ﷺ « اللهم اجعله منهم » ثم قام رجل من الأنصار فقال مثله فقال « سبقك بها عكاشة »

(حديث آخر) قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا أبو غسان عن أبى حازم عن السهل بن سعد أن النبى ﷺ قال « ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفاً — أو سبعمائة ألف — آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر » أخرجه البخارى ومسلم جميعاً عن قتيبه عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن سهل به .

(حديث آخر) قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه حدثنا سعيد بن منصور حدثنا هشيم أنبأنا حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة ، قلت أنا ثم قلت أما إنى لم أكن فى صلاة ولكنى لدغت قال فما صنعت ، قلت استرقيت قال فما حملك على ذلك قلت حديث حدثناه الشعبى قال وما حدثكم الشعبى قلت حدثنا عن بريدة بن الحصيب الأسلمى أنه قال « لا رقية إلا من عين أو حمة » قال قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن حدثنا ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهيط والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد . إذ رفع لى سواد عظيم فظننت أنهم أمتى ؛ فقيل لى هذا موسى وقومه . ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم . فقيل لى : انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لى هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما الذى تخوضون فيه ؟ » فأخبروه فقال « هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة بن محصن فقال ادع الله أن يجعلنى منهم « قال أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم قال « سبقك بها عكاشة » وأخرجه البخارى عن أسيد بن زيد عن هشيم وليس عنده : لا يرقون .

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا روح بن عبادة حدثنا ابن جرير أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديثاً وفيه « فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر لا يحاسبون ثم الذين

يلونهم كأضوأ نجم فى السماء » ثم كذلك وذكر بقيته ، رواه مسلم من حديث روح غير أنه لم يذكر النبي ﷺ

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم فى كتاب السنن له حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا إسماعيل بن عياش عن محمد بن زياد سمعت أبا أمامة الباهلى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا ، مع كل ألف سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ، وثلاث حثيات من حثيات ربى عز وجل » وكذا رواه الطبرانى من طريق هشام بن عمار عن إسماعيل بن عياش به ، وهذا إسناد جيد

(طريق أخرى) عن أبى أمامة . قال ابن أبى عاصم حدثنا دحيم حدثنا الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر عن أبى اليمان الهروى واسمه عامر بن عبد الله بن يحيى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال « إن الله وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً بغير حساب » فقال يزيد بن الأخنس ، والله ما أولئك فى أمتك يا رسول الله إلا مثل الذباب الأصهب فى الذباب قال رسول الله ﷺ « فإن الله وعدنى سبعين ألفاً ، مع كل ألف سبعون ألفا ، وزادنى ثلاث حثيات » وهذا أيضاً إسناد حسن

(حديث آخر) قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا أحمد بن خليد حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن يزيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول حدثنى عامر بن زيد البكالى أنه سمع عتبة بن عبد السلمى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن ربى عز وجل وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا بغير حساب ، ثم يشفع كل ألف لسبعين ألفاً ثم يحثى ربى عز وجل بكفيه ثلاث حثيات » فكبر عمر وقال : إن السبعين الأول يشفعهم الله فى آبائهم وأبنائهم وعشيرتهم وأرجو أن يجعلنى الله فى إحدى الحثيات الأواخر. قال الحافظ الضياء أبو عبد الله المقدسى فى كتابه صفة الجنة: لا أعلم لهذا الإسناد علة والله أعلم

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام يعنى الدستوائى حدثنا يحيى بن أبى كثير عن هلال بن أبى ميمونة حدثنا عطاء بن يسار أن رفاعة الجهنى حدثه قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد — أو قال بقديد — فذكر حديثا وفيه ثم قال « وعدنى ربى عز وجل أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا بغير حساب ، وإنى لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن فى الجنة » قال الضياء : وهذا عندى على شرط مسلم

(حديث آخر) قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة عن النضر بن أنس عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى أربعمائة ألف » قال أبو بكر رضى الله عنه . زدنا يا رسول الله قال « والله هكذا » قال عمر حسبك يا أبا بكر فقال أبو بكر :دعنى وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا . قال عمر: إن الله(1) إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحد فقال النبي ﷺ « صدق عمر » هذا الحديث بهذا الإسناد تفرد به عبد الرزاق . قال الضياء وقد رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهانى قال : حدثنا محمد بن أحمد بن مخلد حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال « وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى مائة ألف » فقال له أبو بكر يا رسول الله زدنا قال « وهكذا » وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك قلت يا رسول الله زدنا فقال عمر : إن الله قادر على أن يدخل الناس الجنة بحفنة واحدة ، فقال رسول الله ﷺ «صدق عمر» هذا حديث غريب من هذا الوجه . وأبو هلال اسمه محمد بن سليم الراسبى بصرى

(طريق أخرى) عن أنس . قال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد بن بكير حدثنا عبد القاهر بن السرى السلمى حدثنا حميد عن أنس عن النبي ﷺ قال « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا » قالوا زدنا يا رسول الله قال « لكل رجل سبعون ألفا » قالوا زدنا وكان على كثيب فقالوا: فقال «هكذا» وحثا بيديه قالو يا رسول الله أبعد الله من دخل النار بعد هذا وهذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات ، ماعدا عبد القاهر بن السرى، وقد سئل عنه ابن معين .فقال صالح .

(1) فى نسخة الأزهر : إن شاء الله

(حديث آخر) روى الطبراني من حديث قتادة عن أبي بكر بن عمر عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله وعدني أن يدخل من أمتي ثلثمائة ألف الجنة بغير حساب» فقال عمر : يارسول الله زدنا فقال وهكذا بيده فقال عمر يارسول الله زدنا فقال عمر : حسبك إن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بحفنة أو بحثية واحدة ، فقال نبي الله ﷺ : «صدق عمر»

(حديث آخر) قال الطبراني حدثنا أحمد بن خليد حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن يزيد بن سلام يقول حدثني عبد الله بن عامر أن قيسا الكندي حدثه أن أبا سعيد الأنماري حدثه أن رسول الله ﷺ قال « إن ربي وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب ويشفع كل ألف لسبعين ألفا ، ثم يحثي ربي ثلاث حثيات بكفيه» كذا قال قيس فقلت لأبي سعيد آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم بأذني ووعاه قلبي قال أبو سعيد قال يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم «وذلك إن شاء الله يستوعب مهاجري أمتي ويوفي الله بقيته من أعرابنا» وقد روى هذا الحديث محمد بن سهل بن عسكر عن أبي توبة الربيع بن نافع بإسناده مثله وزاد : قال أبو سعيد ، فحسب ذلك عند رسول الله ﷺ فبلغ أربعمائة ألف ألف وتسعين ألفا

(حديث آخر) قال أبو القاسم الطبراني حدثنا هشيم بن مرثد الطبراني حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك قال : قال رسول الله ﷺ « أما والذي نفس محمد بيده ليبعثن منكم يوم القيامة إلى الجنة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض تقول الملائكة لما جاء مع محمد أكثر مما جاء مع الأنبياء » وهذا إسناد حسن

(حديث آخر[1]) من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله عزوجل ، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة : قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرا أنه سمع النبي ﷺ يقول «إني لأرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع أهل الجنة» قال: فكبرنا ، ثم قال: « أرجو أن يكونوا ثلث الناس » قال : فكبرنا ثم قال : « أرجو أن يكونوا الشطر » وهكذا رواه عن روح عن ابن جريج به وهو على شرط مسلم. وثبت في الصحيحين من حديث أبي إسحق السبيعي عن عمرو بن ميمون عن عبدالله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله ﷺ « أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبرنا ثم قال « أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة » فكبرنا ، ثم قال « إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة »

(طريق أخرى) عن ابن مسعود : قال الطبراني حدثنا أحمد بن القاسم بن مساور حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثني الحارث بن حصين حدثني القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « كيف أنتم وربع الجنة لكم ولسائر الناس ثلاثة أرباعها » قالوا الله ورسوله أعلم قال « كيف أنتم وثلثها » قالوا . ذاك أكثر قال « كيف أنتم والشطر لكم » قالوا ذاك أكثر فقال رسول الله ﷺ « أهل الجنة عشرون ومائة صف لكم منها ثمانون صفا » قال الطبراني . تفرد به الحارث بن حصين

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا ضرار بن مرة أبو سنان الشيباني عن محارب بن دينار عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال « أهل الجنة عشرون ومائة صف . هذه الأمة من ذلك ثمانون صفا » وكذا رواه عن عفان عن عبدالعزيز به ، وأخرجه الترمذي من حديث أبي سنان به وقال : هذا حديث حسن ، ورواه ابن ماجه من حديث سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه به

(حديث آخر) روى الطبراني من حديث سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا خالد بن يزيد البجلي حدثنا سليمان ابن علي ابن عبدالله بن عباس عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من أمتي » تفرد به خالد بن يزيد البجلي ، وقد تكلم فيه ابن عدي

(حديث آخر) قال الطبراني حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل حدثنا موسى بن غيلان حدثنا هاشم بن مخلد حدثنا

---

(١) في نسخة الأزهر : نوع آخر .

عبد الله بن المبارك عن سفيان عن أبي عمرو عن أبيه عن أبي هريرة قال : لما نزلت (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) قال رسول الله ﷺ : « أنتم ربع أهل الجنة ، أنتم ثلث أهل الجنة ، أنتم نصف أهل الجنة ، أنتم ثلثا أهل الجنة »

وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولا الجنة . بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع غداً لليهود وللنصارى بعد غد » رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا بنحوه ، ورواه مسلم أيضا من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة » وذكر تمام الحديث

(حديث آخر) روى الدارقطني في الافراد من حديث عبدالله بن محمد بن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي » ثم قال : انفرد به ابن عقيل عن الزهري، ولم يرو عنه سواه ، وتفرد به زهير بن محمد عن ابن عقيل، وتفرد به عمرو بن أبي سلمة عن زهير . وقد رواه أبو أحمد بن عدى الحافظ فقال : حدثنا أحمد بن الحسين بن إسحق حدثنا أبو بكر الأعين محمد بن أبي غياث حدثنا أبو حفص التنيسى حدثنا صدقة الدمشقي عن زهير بن محمد عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الزهري . ورواه الثعلبي حدثنا أبو عباس المخلدى أنبأنا أبو نعيم عبدالملك بن محمد أنبأنا أحمد ابن عيسى التنيسى حدثنا عمرو بن سلمة حدثنا صدقة بن عبدالله عن زهير بن محمد بن عقيل به

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح[1] كما قال قتادة : بلغنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه في حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ثم قال من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها . رواه ابن جرير، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) الآية: ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال تعالى (ولو آمن أهل الكتاب) أي بما أنزل على محمد (لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) أي قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان

ثم قال تعالى مخبرا عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين فقال تعالى (لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) هكذا وقع فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولا تزال عصابة الاسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى بن مريم وهم كذلك ، ويحكم بملة الاسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الاسلام . ثم قال تعالى (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون (إلا بحبل من الله) أي بذمة من الله وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة (وحبل من الناس) أي أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين ولو امرأة ، وكذا عبد على أحد قولي العلماء قال ابن عباس (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أي بعهد من الله وعهد من الناس ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدى والربيع بن أنس . وقوله (وباءوا بغضب من الله) أي ألزموا : فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه (وضربت عليهم المسكنة) أي ألزموها قدرا وشرعا . ولهذا قال (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبدا متصلا بذل الآخرة ثم قال تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا

(١) في نسخة الأزهر : الثناء عليهم .

يعتدون) اى انما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله ، وقيضوا لذلك أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله والغشيان لمعاصى الله والاعتداء فى شرع الله ، فعياذا بالله من ذلك ، والله عزوجل المستعان . قال ابن ابى حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن سليمان الأعمش عن ابراهيم عن أبى معمر الأزدى عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : كانت بنو إسرئيل تقتل فى اليوم ثلثمائة نبى ثم يقوم سوق بقلهم فى آخر النهار

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

قال ابن أبى نجيح : زعم الحسن بن أبى يزيد العجلى عن ابن مسعود فى قوله تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة) قال : لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ ، وهكذا قال السدى . ويؤيد هذا القول الحديث الذى رواه الامام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا ابو النضر وحسن بن موسى قالا: حدثنا شيبان عن عاصم عن زر عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال « أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم » قال فنزلت هذه الآيات (ليسوا سواء من أهل الكتاب - إلى قوله - والله عليم بالمتقين) والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحق وغيره ، ورواه العوفى عن ابن عباس - أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى (ليسوا سواء) أى ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ، ولهذا قال تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة) أى قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة نبى الله فهى قائمة يعنى مستقيمة (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) أى يقيمون الليل ويكثرون التهجد ويتلون القرآن فى صلواتهم (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) وهؤلاء هم المذكورون فى آخر السورة (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية ، ولهذا قال تعالى ههنا (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) أى لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء (والله عليم بالمتقين) أى لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) أى لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار فى هذه الدار قاله مجاهد والحسن والسدى فقال تعالى (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيه صر) أى برد شديد قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم . وقال عطاء : برد وجليد ؛ وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد (فيها صر) أى نار وهو يرجع إلى الأول فإن البرد الشديد ولاسيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشىء بالنار (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) أى فأحرقته يعنى بذلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه . فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم فى هذه الدنيا وثمرها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك

هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس (وما ظلمهم الله ولـكن أنفسهم يظلمون)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

يقول تبارك وتعالى ناهيا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة أى يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالا أى يسعون فى مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ؛ ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم وقوله تعالى (لا تتخذوا بطانة من دونكم » أى من غيركم من أهل الأديان وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره . وقد روى البخارى والنسائى وغيرهما من حديث جماعة منهم يونس ويحى بن سعيد وموسى بن عقبة وابن أبى عتيق عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ؛ والمعصوم من غصمه[1] الله وقد رواه الأوزاعى ومعاوية بن سلام عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعاً بنحوه ؛ فيحتمل أنه عند الزهرى عن أبى سلمة عنهما وأخرجه النسائى عن الزهرى أيضا ؛ وعلقه البخارى فى صحيحه فقال : وقال عبيد الله بن أبى جعفر عن صفوان بن سليم عن أبى سلمة عن أبى أيوب الأنصارى مرفوعا فذكره ، فيحتمل أنه عند أبى سلمة عن ثلاثة من الصحابة والله أعلم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو أيوب محمد بن الوزان حدثنا عيسى بن يونس عن أبى حيان التيمى عن أبى الزنباع عن ابن أبى الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إن ههنا غلاما من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كاتبا فقال . قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين . ففى هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة التى فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل امورهم التى يخشى أن يفشوها إلى الاعداء من أهل الحرب ؛ ولهذا قال تعالى (لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم) وقال الحافظ : أبو يعلى حدثنا إسحاق بن إسرائيل حدثنا هشيم حدثنا العوام عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنسا فاذا حدثهم بحديث لا يدرون ماهو أتوا الحسن يعنى البصرى فيفسره لهم قال : فحدث ذات يوم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربيا » فلم يدروا ماهو ؛ فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنسا حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربيا » فقال الحسن : أما قوله « لا تنقشوا فى خواتيمكم عربيا » محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأما قوله « لا تسضيئوا بنار المشركين » يقول لا تستشيروا المشركين فى أموركم . ثم قال الحسن . تصديق ذلك فى كتاب الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) هكذا رواه الحافظ ابو يعلى رحمه الله تعالى ؛ وقد رواه النسائى عن مجاهد بن موسى عن هشيم ؛ ورواه الامام أحمد عن هشيم باسناده مثله من غير ذكر تفسير الحسن البصرى ؛ وهذا التفسير فيه نظر ومعناه ظاهر « لا تنقشوا فى خواتيمكم عربيا » اى بخط عربى لئلا يشابه نقش خاتم النبى صلى الله عليه وسلم فانه كان نقشه محمد رسول الله ؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه . وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه لا تقاربوهم فى المنازل بحيث تكونون معهم فى بلادهم بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ، ولهذا

(١) فى نسخة الازهر : عصم

روى أبو داود « لاتتراءى ناراهما » وفى الحديث الآخر « من جامع المشرك أوسكن معه فهو مثله » فحمل الحديث على ما قاله الحسن رحمه الله والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر والله أعلم .

ثم قال تعالى (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) أى قدلاح على صفحات وجوههم. وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ماهم مشتملون عليه فى صدورهم من البغضاء للاسلام وأهله ما لايخفى مثله على لبيب عاقل ولهذا قال تعالى (قد بينالكم الآيات إن كنتم تعقلون) وقوله تعالى (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) أى أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم لا باطنا ولا ظاهراً (وتؤمنون بالكتاب كله) أى ليس عندكم فى شىء منه شك ولا ريب وهم عندهم الشك والريب والحيرة . وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وتؤمنون بالكتاب كله) أى بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم رواه ابن جرير (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) والأنامل أطراف الأصابع ، قاله قتادة

وقال الشاعر . ❊ وما حملت كفاى أنملى العشرا ❊

وقال ابن مسعود والسدى والربيع بن أنس : الأنامل الأصابع ، وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة وهم فى الباطن بخلاف ذلك من كل وجه كما قال تعالى (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وذلك أشد الغيظ والحنق قال الله تعالى (قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) أى مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه ؛ ومعل كلمته ومظهر دينه ، فموتوا أنتم بغيظكم (إن الله عليم بذات الصدور) أى هو عليم بما تنطوى عليه ضمائركم وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين وهو مجازيكم عليه فى الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفى الآخرة بالعذاب الشديد فى النار التى أنتم خالدون فيها لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها . ثم قال تعالى (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين سنة أى جدب أو أديل عليهم الأعداء ، لما لله تعالى فى ذلك من الحكمة كما جرى يوم أحد — فرح المنافقون بذلك قال الله تعالى مخاطبا للمؤمنين (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) الآية يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم إلا به . وهو الذى ما شاء كان . ومالم يشأ لم يكن . ولا يقع فى الوجود شىء إلا بتقديره ومشيئته ومن توكل عليه كفاه

ثم شرع تعالى فى ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين . والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبيان الصابرين[(1)] فقال تعالى

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ❊ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ❊ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

المراد بهذه الوقعة يوم أحد عند الجمهور قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدى وغير واحد . وعن الحسن البصرى المراد بذلك يوم الأحزاب . ورواه ابن جرير . وهو غريب لا يعول عليه . وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . قال قتادة . لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال . وقال عكرمة . يوم السبت للنصف من شوال فالله أعلم وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم . بدر وسلمت العير بما فيها من التجارة التى كانت مع أبى سفيان[(2)] قال

(١) فى نسخة الأزهر : صبر الصابرين (٢) وفيها فلما رجع قفلهم .

أبناء من قتل ورؤساء من بقى لأبى سفيان ارصد هذه الأموال لقتال محمد فأنفقوها فى ذلك فجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا فى نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبا من أحد تلقاء المدينة فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة فلما فرغ منها صلى على رجل من بنى النجار يقال له مالك بن عمرو واستشار رسول الله ﷺ الناس « أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة » فأشار عبدالله بن أبى بالمقام بالمدينة فان أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرا بالخروج إليهم فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وخرج عليهم ، وقد ندم بعضهم وقالوا لعلنا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله إن شئت أن نمكث ، فقال رسول الله ﷺ « ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له » فسار ﷺ فى ألف من أصحابه فلما كانوا بالشوط رجع عبد الله بن أبى بثلث الجيش مغضبا لكونه لم يرجع إلى قوله وقال هو وأصحابه : لو نعلم اليوم قتالا لاتبعناكم ولكنا لا نراكم تقاتلون . واستمر رسول الله ﷺ سائرا حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى . وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال « لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال » وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو فى سبعمائة من أصحابه . وأمر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو ابن عوف . والرماة يومئذ خمسون رجلا فقال لهم « انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم » وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بنى عبد الدار . وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الغلمان يومئذ وأخر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين وتهيأ قريش وهم ثلاثة آلاف . ومعهم مائة فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد . وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ودفعوا اللواء إلى بنى عبد الدار ثم كان بين الفريقين ما سيأتى تفصيله فى موضعه[1] إن شاء الله تعالى. ولهذا قال تعالى (وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال) أى تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم (والله سميع عليم) أى سميع لما تقولون عليم بضمائركم

وقد أورد ابن جرير ههنا سؤالا حاصله كيف تقولون إن النبى صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة وقد قال الله تعالى (وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال) الآية ثم كان جوابه عنه أن غدوه ليبوأهم مقاعد إنما كان يوم السبت أول النهار . وقوله تعالى (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) الآية قال البخارى حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان قال : قال عمر سمعت جابر بن عبد الله يقول : فينا نزلت (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) الآية قال نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما نحب — وقال سفيان مرة — وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله تعالى (والله وليهما) وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به وكذا قال غير واحد من السلف إنهم بنو حارثة وبنو سلمة . وقوله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر) أى يوم بدر ، وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ ، فانهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فيهم فارسان وسبعون بعيرا والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه . وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف فى سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلى الزائد ، فأعز الله رسوله وأظهر وحيه وتنزيله وبيض وجه النبى وقبيله وأخزى الشيطان وجيله ، ولهذا قال تعالى ممتنا على عبادة المؤمنين وحزبه المتقين (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) أى قليل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا — إلى — غفور رحيم) . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك قال . سمعت عياضا الأشعرى قال شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد ، وعياض — وليس عياض هذا الذى حدث سماكا قال : وقال عمر : إذا كان قتالا فعليكم أبو عبيدة[2] قال فكتبنا إليه أنه قد جاش إلينا الموت واستمددناه فكتب الينا انه قد جاءنى كتابكم تستمدوننى

(١) فى نسخة الأزهر عند هذه الآيات . (٢) أى أمير .

وإني أدلكم على من هو أعز نصراً ، وأحصن جندا ، الله عز وجل فاستنصروه فان محمداً ﷺ قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم فاذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني قال فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ قال : وأصبنا أموالا فتشاورنا فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة قال : وقال أبو عبيدة : من يراهنني فقال شاب أنا إن لم تغضب قال : فسبقه فرأيت عقيصتي أبي عبيدة ينفران وهو خلفه على فرس أعرابي . وهذا إسناد صحيح . وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث بندار عن غندر بنحوه ، واختاره الحافظ الضياء القدسي في كتابه ، وبدر محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها منسوبة إلى رجل حفرها يقال له بدر بن النارين ، قال الشعبي : بدر بئر لرجل يسمى بدراً : وقوله (فاتقوا الله لعلكم تشكرون) أي تقومون بطاعته

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد ؟ على قولين (أحدهما) أن قوله (إذ تقول للمؤمنين) متعلق بقوله (ولقد نصركم الله ببدر) وهذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي والربيع بن أنس وغيرهم واختاره ابن جرير قال عباد بن منصور عن الحسن في قوله (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة) قال : هذا يوم بدر ، رواه ابن أبي حاتم . ثم قال : حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا وهيب حدثنا داود عن عامر يعني الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين — إلى قوله — مسومين) قال : فبلغت كرزا الهزيمة فلم يمد المشركين ولم يمد الله المسلمين بالخمسة وقال الربيع بن أنس . أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف ، فإن قيل فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين — إلى قوله — إن الله عزيز حكيم) ؟ فالجواب أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله (مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم . وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران ، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر والله أعلم . وقال سعيد بن أبي عروبة[1] أمد[2] المسلمين يوم بدر بخمسة آلاف (القول الثاني) إن هذا الوعد متعلق بقوله (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) وذلك يوم أحد وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك والزهري وموسى بن عقبة وغيرهم . لكن قالوا لم يحصل الامداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ ؛ زاد عكرمة ولا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى (بلى إن تصبروا وتتقوا) فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد . وقوله تعالى (بلى إن تصبروا وتتقوا) يعني تصبروا على مصابرة عدوكم وتتقوني وتطيعوا أمري وقوله تعالى (ويأتوكم من فورهم هذا) قال الحسن وقتادة والربيع والسدي أي من وجههم هذا وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح أي من غضبهم هذا . وقال الضحاك . من غضبهم ووجههم . وقال العوفي عن ابن عباس . من سفرهم هذا ، ويقال من غضبهم هذا . وقوله تعالى (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) أي معلمين بالسيما وقال أبو إسحق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكان سيماهم أيضا في نواصي خيولهم ،

(١) في نسخة الأزهر عن قتادة (٢) وفيها أمد الله المؤمنين

رواه ابن أبي حاتم . ثم قال حدثنا أبوزرعة حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه فى هذه الآية (مسوِّمين) قال : بالعهن الأحمر ، وقال مجاهد : (مسومين) أى محذفة أعرافها معلمة نواصيها بالصوف الأبيض فى أذناب الخيل . وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنه قال: أتت الملائكة محمداً صلى الله عليه وسلم مسومين بالصوف فسوم محمد وأصحابه أنفسهم وخيلهم[1] على سيماهم بالصوف وقال قتادة وعكرمة (مسومين) أى بسيما القتال : وقال مكحول . مسومين بالعمائم . وروى ابن مردويه من حديث عبد القدوس بن حبيب عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله (مسومين) قال « معلمين » . وكان سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ، ويوم حنين عمائم حمر » وروى من حديث حسين[2] بن مخارق عن سعيد عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس : قال لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر وقال ابن إسحق حدثنى من لا أتهم عن مقسم عن ابن عباس قال : كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها فى ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمر . ولم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون ، ثم رواه عن الحسن بن عمارة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس فذكر نحوه وقال ابن أبي حاتم حدثنا الأحمسى حدثنا وكيع حدثنا هشام بن عروة عن يحيى بن عباد أن الزبير رضى الله عنه كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر ، رواه ابن مردويه من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير فذكره . وقوله تعالى (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) أى وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بانزالهم إلا البشارة لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً ، وإلا فإنما النصر من عند الله الذى لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم) ولهذا قال ههنا (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) أى هو ذو العزة التى لا ترام ، والحكمة فى قدره والأحكام ثم قال تعالى (ليقطع طرفاً من الذين كفروا) أى أمركم بالجهاد والجلاد لما له فى ذلك من الحكمة فى كل تقدير ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة فى الكفار المجاهدين فقال (ليقطع طرفاً) أى ليهلك أمة (من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا) أى يرجعوا (خائبين) أى لم يحصلوا على ما أملوا . ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم فى الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى (ليس لك من الأمر شىء) أى بل الأمر كله إلىَّ كما قال تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقال (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وقال (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وقال محمد بن إسحق فى قوله (ليس لك من الأمر شىء) أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم ثم ذكر بقية الأقسام فقال (أو يتوب عليهم) أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة (أو يعذبهم) أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم ، ولهذا قال (فإنهم ظالمون) أى يستحقون ذلك . وقال البخارى حدثنا حبان بن موسى أنبأنا عبد الله أنبأنا معمر عن الزهرى حدثنى سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الثانية من الفجر « اللهم العن فلانا وفلانا » بعد ما يقول « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » فأنزل الله تعالى (ليس لك من الأمر شىء) الآية . وهكذا رواه النسائى من حديث عبد الله بن المبارك وعبد الرزاق كلاهما عن معمر به . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو عقيل ــ قال أحمد . وهو عبد الله بن عقيل صالح الحديث ثقة ــ حدثنا عمرو بن حمزة عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم العن فلانا وفلانا ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية (ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) فتيب عليهم كلهم : وقال أحمد . حدثنا أبو معاوية العلائى حدثنا خالد بن الحارث حدثنا محمد بن عجلان عن نافع عن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة قال : فأنزل الله (ليس لك من الأمر شىء) إلى آخر الآية قال : وهداهم الله للاسلام : قال البخارى . قال محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان

(١) فى نسخة الأزهر : خيولهم (٢) وفيها حصين

رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله تعالى (ليس لك من الأمر شيء) الآية وقال البخارى أيضاً : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع وربما قال: إذا قال «سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد : اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين . اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» يجهر بذلك . وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر « اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) الآية .

وقال البخارى : قال حميـد وثابت عن أنس بن مالك شج النبي ﷺ يوم أحد فقال « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ » فنزلت (ليس لك من الأمر شيء) وقد أسند هذا الحديث الذى علقه البخارى فى صحيحه فقال فى غزوة أحد : حدثنا يحيى بن عبد الله السلمى أخبرنا عبـد الله أخبرنا معمر عن الزهرى حدثنى سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر «اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا » بعد مايقول « سمع الله لمن حمـده ، ربنا ولك الحمـد » فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) الآية . وعن حنظلة بن أبي سفيان قال : سمعت سالم بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام فنزلت (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) هكذا ذكر هذه الزيادة البخارى معلقة مرسلة ، وقد تقدمت مسندة متصلة فى مسند أحمد آنفا

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم حدثنا حميد عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل » فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون) انفرد به مسلم فرواه عن القعنبى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس فذكره

وقال ابن جرير :حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسين بن واقد عن مطر عن قتادة قال : أصيب النبي ﷺ يوم أحـد وكسرت رباعيته ، وفرق حاجبه ، فوقع وعليه درعان والدم يسيل فمر به سـالم مولى أبي حذيفة فأجلسه ومسح عن وجهه فأفاق وهو يقول « كيف بقوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله عز وجل ؟» فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) الآية وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة بنحوه ، ولم يقل فأفاق .

ثم قال تعالى (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) الآية أى الجميع ملك له ، وأهلهما عبيد بين يديه (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون والله غفور رحيم

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ * وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن تعاطى الربا وأكله أضعافا مضاعفة كما كانوا فى الجاهلية يقولون إذاحل أجل الدين إما أن تقضى واما أن تربى فان قضاه وإلازاده فى المدة وزاده الآخر فى القدر وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفا وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون فى الأولى وفى الآخرة ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها فقال تعالى (واتقوا النار التى أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات فقال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) أى كما أعدت النار للكافرين وقد قيل إن معنى قوله عرضها السموات والأرض تنبيها على اتساع طولها كما قال فى صفة فرش الجنة (بطائنها من إستبرق) أى فما ظنك بالظهائر وقيل بل عرضها كطولها لأنها قبة فيه تحت العرش والشىء المقبب والمستدير عرضه كطوله وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح « إذا سألتم الله الجنه فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن » وهذه الآية كقوله فى سورة الحديد (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) الآية وقد روينا فى مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبى ﷺ انك دعوتنى إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار » وقد رواه ابن جرير فقال حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أخبرنى مسلم بن خالد عن أبى خيثمة عن سعيد بن أبى راشد عن يعلى بن مرة قال لقيت التنوخى رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص شيخا كبيرا قد فسد فقال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل فتناول الصحيفة رجل عن يساره قال: قلت من صاحبكم الذى يقرأ؟ قالوا معاوية فإذا كتاب صاحبى . إنك كتبت تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض[1] فأين النار قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار » وقال الأعمش وسفيان الثورى وشعبة عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب . أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال لهم عمر . أرأيتم إذا جاء النهار أين الليل ؟ وإذا جاء الليل أين النهار فقالوا لقد نزعت مثلها من التوراة ؛ رواه ابن جرير من ثلاثة طرق . ثم قال حدثنا أحمد بن حازم حدثنا أبو نعيم حدثنا جعفر بن برقان أنبأنا يزيد بن الأصم : أن رجلا من أهل الكتاب قال : يقولون (جنة عرضها السموات والأرض) فأين النار فقال ابن عباس رضى الله عنه أين يكون الليل إذا جاء النهار ، وأين يكون النهار إذا جاء الليل وقد روى هذا مرفوعا فقال البزار حدثنا محمد بن معمر حدثنا المغيرة بن سلمة أبو هاشم حدثنا عبد الواحد بن زياد عن عبيد الله بن عبدالله بن الأصم عن عمه يزيد بن الأصم عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . أرأيت قوله تعالى (جنة عرضها السموات والأرض) فأين النار قال : «أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شىء فأين النهار ؟» قال حيث شاء الله قال «وكذلك النار تكون حيث شاء الله عزوجل » وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون المعنى فى ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون فى مكان . وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل ، وهذا أظهر كما تقدم فى حديث أبى هريرة عن البزار (الثانى) أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فان الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة فى أعلى عليين فوق السموات تحت العرش وعرضها كما قال الله عزوجل (كعرض السموات والأرض) والنار فى أسفل سافلين فلا تنافى بين كونها كعرض السموات والأرض بين وجود النار والله أعلم

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال (الذين ينفقون فى السراء والضراء) أى فى الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض وفى جميع الأحوال كما قال (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والانفاق فى مراضيه . والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر . وقوله تعالى (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) أى إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم. وقد ورد فى بعض الآثار « يقول الله تعالى يا ابن آدم اذكرنى إذا غضبت ، اذكرك إذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك »

(١) فى نسخة : زيادة أعدت للمتقين

رواه ابن أبي حاتم . وقد قال أبو يعلى فى مسنده : حدثنا أبو موسى الزمن حدثنا عيسى بن شعيب الضرير أبو الفضل حدثنى الربيع بن سليمان النميرى عن أبى عمرو بن أنس بن مالك عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن خزن لسانه ستر الله عورته ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » وهذا حديث غريب وفى إسناده نظر . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرحمن حدثنا مالك عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « ليس الشديد بالصرعة(١) ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » وقد رواه الشيخان من حديث مالك : وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمى عن الحارث بن سويد عن عبد الله وهو ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله » قالوا : يا رسول الله مامنا أحد إلا ماله أحب اليه من مال وارثه قال « اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب اليه من ماله مالك من مالك إلا ما قدمت وما لوارثك إلا ما أخرت » قال : وقال رسول الله ﷺ « ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا الذى لاتصرعه الرجال قال « لا ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب » قال : وقال رسول الله ﷺ « أتدرون ما الرقوب » قلنا الذى لا ولد له قال « لا ، ولكن الرقوب الذى لا يقدم من ولده شيئا » أخرج البخارى الفصل الأول منه وأخرج مسلم أصل هذا الحديث من رواية الأعمش به (حديث آخر) . قال الإمام أحمد . حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت عروة بن عبد الله الجعفى يحدث عن أبى حصبة أو ابن أبى حصين عن رجل شهد النبى ﷺ يخطب فقال « أتدرون(٢) ما الرقوب ؟ » قلنا الذى لا ولد له قال « الرقوب كل الرقوب الذى له ولد فمات ولم يقدم منهم شيئا » قال « أتدرون من الصعلوك » ؟ قالوا الذى ليس له مال فقال النبي ﷺ « الصعلوك كل الصعلوك الذى له مال فمات ولم يقدم منه شيئا » قال : ثم قال النبي ﷺ « ما الصرعة » ؟ قالوا : الصريع الذى لا تصرعه الرجال : فقال ﷺ « الصرعة كل الصرعة الذى يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ويقشعر شعره فيصرع غضبه » (حديث آخر) : قال الإمام أحمد . حدثنا ابن نمير حدثنا هشام هو ابن عروة عن أبيه عن الأحنف بن قيس عن عم له يقال له حارثة بن قدامة السعدى أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله قل لى قولا ينفعنى وأقلل علىّ لعلى أعيه : فقال رسول الله ﷺ : « لا تغضب » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً كل ذلك يقول « لا تغضب » وهكذا رواه عن أبى معاوية عن هشام به ، ورواه أيضا عن يحيى بن سعيد القطان عن هشام به . أن رجلا قال : يارسول الله قل لى قولا وأقلل علىّ لعلى أعقله : فقال « لا تغضب » الحديث انفرد به أحمد (حديث آخر) قال أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رجل يارسول الله أوصنى قال : « لا تغضب » قال الرجل ففكرت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم ماقال فإذا الغضب يجمع الشر كله ، انفرد به أحمد (حديث آخر) قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبى هند عن أبى حرب بن أبى الأسود عن أبى الأسود عن أبى ذر رضى الله عنه : قال كان يسقى على حوض له فجاء قوم فقالوا : أيكم يورد على أبى ذر ويحسب شعرات من رأسه ، فقال رجل : أنا فجاء فأورد على(٣) الحوض فدقه ، وكان أبو ذر قائما فجلس ثم اضطجع فقيل له ، يا أباذر لم جلست ثم اضطجعت : فقال . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل بإسناده إلا أنه وقع فى روايته عن أبى حرب عن أبى ذر والصحيح ابن أبى حرب عن أبيه عن أبى ذر كما رواه عبدالله بن أحمد عن أبيه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنا أبو وائل الصنعانى قال : كنا جلوسا عند عروة بن محمد إذ دخل عليه رجل فكلمه بكلام أغضبه فلما أن أغضبه(٤) قام ثم عاد إلينا وقد توضأ فقال : حدثنى أبى عن جدى عطية هو ابن سعد السعدى ــ وقد كانت له صحبة ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » وهكذا رواه أبو داود من حديث إبراهيم بن خالد الصنعانى عن أبى وائل القاص المرادى الصنعانى قال أبو داود . أراه عبد الله بن بحير (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن

(١) الصرعة بضم ففتح . (٢) فى نسخة الأزهر : ماتعدون فيكم (٣) وفيها عليه : (٤) وفيها : غصب .

يزيد حدثنا نوح بن معاوية(١) السلمى عن مقاتل بن حيان عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من أنظر معسراً أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم ألا إن عمل الجنة حزن بربوة — ثلاثا — ألا إن عمل النار سهل بسهوة . والسعيد من وقى الفتن ، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً » انفرد به أحمد وإسناده حسن ليس فيه مجروح ومتنه حسن (حديث آخر فى معناه) قال أبو داود حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا عبد الرحمن يعنى ابن مهدى عن بشر يعنى ابن منصور عن محمد بن عجلان عن سويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه ملأ الله جوفه أمناً وإيمانا ومن ترك لبس ثوب جمال وهو قادر عليه — قال بشر أحسبه قال تواضعا — كساه الله حلة الكرامة ومن توج لله كساه الله تاج الملك » (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن يزيد قال : حدثنا سعيد حدثنى أبو مرحوم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء » ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث سعيد بن أبى أيوب به وقال الترمذى : حسن غريب (حديث آخر) قال : عبد الرزاق أنبأنا داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن رجل من أهل الشام يقال له عبد الجليل عن عم له عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله تعالى (والكاظمين الغيظ) أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمناً وإيمانا » (حديث آخر) قال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن محمد بن زياد أنبأنا يحيى ابن أبى طالب أنبأنا على بن عاصم أخبرنى يونس بن عبيد عن الحسن عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله » رواه ابن جرير ، وكذا رواه ابن ماجه عن بشر بن عمر عن حماد بن سلمة عن يونس بن عبيد به فقوله تعالى (والكاظمين الغيظ) أى لا يعملون غضبهم فى الناس بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل . ثم قال تعالى (والعافين عن الناس) أى مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فى أنفسهم فلا يبقى فى أنفسهم موجدة على أحد وهذا أكمل الأحوال ولهذا قال (والله يحب المحسنين) فهذا من مقامات الإحسان وفى الحديث « ثلاث أقسم عليهن ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله » وروى الحاكم فى مستدركه من حديث موسى بن عقبة عن إسحق بن يحيى بن أبى طلحه القرشى عن عبادة بن الصامت عن أبىّ بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ويصل من قطعه » ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد أورده ابن مردويه من حديث على وكعب بن عجرة وأبى هريرة وأم سلمة رضى الله عنهم بنحو ذلك وروى عن طريق الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول أين العافون عن الناس هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم وحق على كل امرىء مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة » وقوله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) أى إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام بن يحيى عن إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « إن رجلا أذنب ذنبا فقال : رب إنى أذنبت ذنباً فاغفره لى فقال الله عز وجل : عبدى عمل ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنبا آخر فقال : رب إنى عملت ذنبا فاغفره فقال تبارك وتعالى علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ثم عمل ذنبا آخر فقال رب إنى عملت ذنبا فاغفره لى فقال عز وجل علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ثم عمل ذنبا آخر فقال : رب إنى عملت ذنبا فاغفره فقال الله عز وجل عبدى علم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » أخرجاه فى الصحيحين من حديث إسحق بن أبى طلحة بنحوه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا حدثنا زهير حدثنا سعد الطائى حدثنا أبو المدله مولى أم المؤمنين سمع أبا هريرة قلنا يا رسول الله : إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد فقال « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى كنتم عليها عندى لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم فى

(١) فى نسخة الأزهر : جعونة

بيوتكم . ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة مابناؤها ؟ قال «لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم لا ييأس ؟ ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم، الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول له الرب وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » ورواه الترمذى وابن ماجه من وجه آخر من حديث سعد به ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة لما رواه الإمام أحمد بن حنبل حدثنا وكيع حدثنا مسعر وسفيان الثورى عن عثمان بن المغيرة الثقفى عن على بن ربيعة عن أسماء بن الحكم الفزارى عن على رضى الله عنه قال كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعنى الله بما شاء منه . وإذا حدثنى عنه غيره استحلفته فإذا حلف لى صدقته ؛ وإن أبا بكر رضى الله عنه حدثنى وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن رجل يذنب ذنبا فيتوضأ ويحسن الوضوء — قال مسعر — فيصلى — وقال سفيان — ثم يصلى ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له » وهكذا رواه على بن المدينى والحميدى وأبو بكر بن أبى شيبة وأهل السنن وابن حبان فى صحيحه والبزار والدارقطنى من طرق عن عثمان بن المغيرة به، وقال الترمذى : هو حديث حسن، وقد ذكرنا طرقه والكلام عليه مستقصى فى مسند أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وبالجملة فهو حديث حسن وهو من رواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عن خليفة النبى ﷺ أبى بكر رضى الله عنهما ، ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم فى صحيحه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « مامنكم من أحد يتوضأ فيبلغ — أو فيسبغ — الوضوء ، ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه توضأ لهم وضوء النبى ﷺ ثم قال . سمعت النبى ﷺ يقول « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين ، وقد قال عبد الرزاق أنبأنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: بلغنى أن إبليس حين نزلت هذه الآية (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) الآية بكى وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محرز بن عون حدثنا عثمان بن مطر حدثنا عبد الغفور عن أبى نضرة عن أبى رجاء عن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما فان إبليس قال أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون » عثمان ابن مطر وشيخه ضعيفان وروى الإمام أحمد فى مسنده من طريق عمرو بن أبى عمرو وأبى الهيثم العتوارى عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « قال إبليس : يارب وعزتك لا أزال أغوى بنى آدم مادامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الله تعالى . وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » وقال الحافظ أبو بكر البزار . حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عمر بن خليفة(١) سمعت أبا بدر يحدث عن ثابت عن أنس قال جاء رجل فقال يارسول الله إنى أذنبت ذنبا فقال رسول الله ﷺ « إذا أذنبت فاستغفر ربك قال فإنى أستغفر ثم أعود فأذنب قال فإذا أذنبت فعد فاستغفر ربك فقالها فى الرابعة وقال استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور » وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقوله تعالى (ومن يغفر الذنوب إلا الله) أى لا يغفرها أحد سواه كما قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا سلام بن مسكين والمبارك(٢) عن الأسود بن سريع أن النبى ﷺ أتى بأسير فقال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبى ﷺ « عرف الحق لأهله » وقوله (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أى تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه كما قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده . حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل وغيره قالوا : حدثنا أبو يحيى عبد الحميد الحمانى عن عثمان بن واقد عن أبى نضرة عن مولى لأبى بكر عن أبى بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماأصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » ورواه أبو داود

(١) فيها ابن أبى خليفة (٢) وفيها عن الحسن

والترمذي والبزار في مسنده من حديث عثمان بن واقد — وقد وثقه يحيى بن معين به — وشيخه أبو نصر القاسطي واسمه سالم بن عبيد وثقه الإمام أحمد وابن حبان، وقول علي بن المديني والترمذي: ليس إسناد هذا الحديث بذاك فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر ولكن جهالة مثله لا تضر لأنه تابعي كبير ويكفيه نسبته إلى أبي بكر فهو حديث حسن والله أعلم. وقوله (وهم يعلمون) وقال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير (وهم يعلمون) أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وكقوله (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) ونظائر هذا كثيرة جداً. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد أنبأنا جرير حدثنا حبان هو ابن زيد الشرعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون» تفرد به أحمد. ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم) أي جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار) أي من أنواع المشروبات (خالدين فيها) أي ماكثين فيها (ونعم أجر العاملين) يمدح تعالى الجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين لما (١) أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون (قد خلت من قبلكم سنن) أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ولهذا قال تعالى (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ثم قال تعالى (هذا بيان للناس) يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم (وهدى وموعظة) يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم. ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين (ولا تهنوا) أي لا تضعفوا بسبب ما جرى (ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) أي إن كنتم قد أصابتكم جراح وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح (وتلك الأيام نداولها بين الناس) أي نديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا) قال ابن عباس: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء (ويتخذ منكم شهداء) يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته (والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا) أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب. وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. وقوله (ويمحق الكافرين) أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم ثم قال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى في سورة البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) الآية. وقال تعالى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) الآية ولهذا قال ههنا (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) أي لا يحصل لكم دخول الجنة

(١) فيها الذين.

حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهـدين فى سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء . وقوله (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) أى قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تمنون لقاء العدو وتحترقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم فها قد حصل لكم الذى تمنيتموه وطلبتموه فدونكم فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لاتتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ولهذا قال تعالى (فقد رأيتموه) يعنى الموت شاهدتموه وقت(١) حد الأسنة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال والمتكلمون يعبرون عن هـذا بالتخييل . وهو مشاهدة ماليس بمحسوس كالمحسوس كما تخيل الشاة صداقة الكبش ، وعداوة الذئب

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ * وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ فَـَٔاتَىٰهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لما انهزم ما انهزم من المسلمين يوم أحد وقتل من قتل منهم ، نادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل ، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمداً ، وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه فى رأسه ، فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل وجوزوا عليه ذلك كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ففى ذلك أنزل الله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) أى له أسوة بهم فى الرسالة وفى جواز القتل عليه قال ابن أبى نجيح عن أبيه : ان رجلا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه فقال له : يافلان أشعرت أن محمدا ﷺ قد قتل ، فقال الأنصارى : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم فنزل (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة . ثم قال تعالى منكرا على من حصل له ضعف (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) أى رجعتم القهقرى (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) أى الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حيا وميتا . وكذلك ثبت فى الصحاح والمساند والسنن وغيرها من كتب الاسلام من طرق متعددة تفيد القطع وقد ذكرت ذلك فى مسندى الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن الصديق رضى الله عنه تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ . وقال البخارى : حدثنا يحيى ابن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرنى أبو سلمة أن عائشة رضى الله عنها أخبرته أن أبا بكر رضى الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغطى(٢) بثوب حبرة : فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال : بأبى أنت وأمى والله لا يجمع الله عليك موتتين : أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها وقال الزهرى : وحدثنى أبو سلمة عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم(٣) الناس وقال : اجلس ياعمر قال أبو بكر : أما بعد من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت قال الله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ــ إلى قوله ــ وسيجزى الله الشاكرين) قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم فما أسمع(٤) بشرا من الناس إلا يتلوها وأخبرنى سعيد بن المسيب أن عمر قال والله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت إلى الأرض . وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا على

(١) فيها : لمان السيوف . (٢) وفيها : مغشى . (٣) وفيها : يحدث . (٤) وفيها : فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها .

ابن عبد العزيز حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد حدثنا أسباط بن نصر عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس أن عليا كان يقول في حياة رسول الله ﷺ (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت ، والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني . وقوله تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا) أي لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له ، ولهذا قال (كتابا مؤجلا) كقوله (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) وكقوله (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال فإن الاقدام والاحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه كما قال ابن أبي حاتم حدثنا العباس بن يزيد العبدي قال : سمعت أبا معاوية عن الأعمش عن حبيب بن ظبيان قال : قال رجل من المسلمين وهو حجر بن عدي : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو وهذه النطفة — يعني دجلة — ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا . ثم أقحم فرسه دجلة ، فلما أقحم أقحم الناس ، فلما رآهم العدو قالوا : ديوان فهربوا . وقوله (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا كما قال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب) وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) ولهذا قال ههنا (وسنجزي الشاكرين) أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير)قيل : معناه كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير . وهذا القول هو اختيار ابن جرير فانه قال : وأما الذين قرأوا (قتل معه ربيون كثير) فانهم قالوا إنما عنى بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين دون جميعهم ، وإنما نفى الوهن والضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يقتل ، قال : ومن قرأ قاتل فانه اختار ذلك لأنه قال : لو قتلوا لم يكن لقول الله (فما وهنوا) وجه معروف لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا ، ثم اختار قراءة من قرأ (قتل معه ربيون كثير) لأن الله عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم (أفإن مات أو قتل) أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم و (انقلبتم على أعقابكم) وقيل : وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير ، وكلام ابن إسحق في السيرة يقتضي قولا آخر فانه قال وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون أي جماعات فما وهنوا بعد نبيهم ، وما ضعفوا عن عدوهم ، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم ، وذلك الصبر (والله يحب الصابرين) فجعل قوله (معه ربيون كثير) حالا ، وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه ، وله اتجاه لقوله (فما وهنوا لما أصابهم) الآية ، وكذا حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم ولم يحك غيره ، وقرأ بعضهم (قاتل معه ربيون كثير) أي ألوف ، وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي والربيع وعطاء الخراساني : الربيون الجموع الكثيرة . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن(ربيون كثير أي علماء كثير ، وعنه أيضاً : علماء صبر أي أبرار أتقياء . وحكى ابن جرير عن بعض نحاة البصرة أن الربيين هم الذين يعبدون الرب عز وجل ، قال : ورد بعضهم عليه فقال : لو كان كذلك لقيل الربيون بفتح الراء ، وقال ابن زيد . الربيون الأتباع والرعية والربابيون الولاة (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) قال قتادة والربيع ابن أنس . (وما ضعفوا) بقتل نبيهم (وما استكانوا) يقول : فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله ، وقال ابن عباس (وما استكانوا) تخشعوا ، وقال ابن زيد : وما ذلوا لعدوهم وقال محمد بن إسحق والسدي وقتادة : أي ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم (والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) أي لم يكن لهم هجير[1] إلا ذلك (فآتاهم الله ثواب

(١) الهجير والهجيرة ، والهجرى بكسر الهاء وتشديد الجيم : الدأب والعادة كالذي يكثر جريانه على اللسان .

الدنيا) أى النصر والظفر والعاقبة (وحسن ثواب الآخرة) أى جمع لهم ذلك مع هذا (والله يحب المحسنين)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ * سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين فإن طاعتهم تورث الردى فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى (إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى (بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) ثم بشرهم بأنه سيلقى فى قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم مع ما ادخره لهم فى الدار الآخرة من العذاب والنكال فقال (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) وقد ثبت فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لى الغنائم ، وأعطيت الشفاعة. وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن سليمان التيمى عن سيار عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال « فضلنى الله على الأنبياء — أو قال على الأمم — بأربع ، أرسلت إلى الناس كافة ، وجعلت لى الأرض كلها ولأمتى مسجداً وطهوراً فأينما أدركت رجلا من أمتى الصلاة فعنده مسجده وطهوره، ونصرت بالرعب مسيرة شهر يقذف فى قلوب أعدائى ، وأحلت لى الغنائم» ورواه الترمذى من حديث سليمان التيمى عن سيار القرشى الأموى مولاهم الدمشقى سكن البصرة عن أبى أمامة صدى بن عجلان رضى الله عنه به وقال. حسن صحيح. وقال سعيد بن منصور : أنبأنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن أبا يونس حدثه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نصرت بالرعب على العدو » ورواه مسلم من حديث ابن وهب . وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن أبى بردة عن أبيه أبى موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لى الأرض طهورا ومسجداً وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة ، وليس من نبى إلا وقد سأل الشفاعة(1) وإنى قد اختبأت شفاعتى لمن مات لا يشرك بالله شيئا» تفرد به أحمد . وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) قال قذف الله فى قلب أبى سفيان الرعب فرجع إلى مكة فقال النبى صلى الله عليه وسلم «إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفا ، وقد رجع وقذف الله فى قلبه الرعب » رواه ابن أبى حاتم . وقوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) قال ابن عباس ، وعدهم الله النصر وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين فى قوله تعالى (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) أن ذلك كان يوم أحد لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للاسلام فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة تأخر الوعد الذى كان مشروطا بالثبات

(1) فى نسخة الأزهر : شفاعته

والطاعة ولهذا قال (ولقد صدقكم الله وعده) أى أول النهار (إذ تحسونهم) أى تقتلونهم (بإذنه) أى بتسليطه إيا كم عليهم (حتى إذا فشلتم) وقال ابن جريج، قال ابن عباس الفشل الجبن (وتنازعتم فى الأمر وعصيتم) كما وقع للرماة (من بعد ما أراكم ما تحبون) وهو الظفر بهم (منكم من يريد الدنيا) وهم الذين رغبوا فى المغنم حين رأوا الهزيمة (ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم (ولقد عفا عنكم) أى غفر لكم ذلك الصنيع وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم وقلة عدد المسلمين وعددهم قال ابن جريج : قوله (ولقد عفا عنكم) قال لم يستأصلكم وكذا قال محمد بن إسحق رواهما ابن جرير (والله ذو فضل على المؤمنين) قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الرحمن ابن أبى الزناد عن أبيه عن عبيد الله[1] عن ابن عباس أنه قال: ما نصر الله النبى ﷺ فى موطن كما نصره يوم أحد فأنكرنا ذلك فقال ابن عباس : بينى وبين من أنكر ذلك كتاب الله إن الله يقول فى يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) يقول ابن عباس والحسن الفشل[2] (حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) الآية، وإنما عنى بهذا الرماة ، وذلك أن النبى ﷺ أقامهم فى موضع وقال « احموا ظهورنا فان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا » فلما غنم النبى ﷺ وأناخوا[3] عسكر المشركين أكب الرماة جميعا فى العسكر ينهبون ، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم هكذا ــ وشبك بين يديه ــ وانتشبوا فلما أخل الرماة تلك الخلة التى كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب بعضهم بعضا والتبسوا وقتل من المسلمين ناس كثير ، وقد كان النصر لرسول الله ﷺ أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المشركون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار إنما كانوا تحت المهراس ، وصاح الشيطان قتل محمد فلم يشكوا به أنه حق ، فلا زلنا كذلك ما نشك أنه حق حتى طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السعدين نعرفه بكتفيه إذا مشى قال : ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا قال: فرقى نحونا وهو يقول « اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله » ويقول مرة أخرى « ليس لهم أن يعلونا[4] » حتى انتهى إلينا فمكث ساعة فإذا أبو سفيان يصيح فى أسفل الجبل اعل هبل ــ مرتين يعنى إلهه ــ أين ابن أبى كبشة أين ابن أبى قحافة أين ابن الخطاب فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله ألا أجيبه قال « بلى » فلما قال : اعل هبل قال عمر : الله أعلى وأجل فقال أبو سفيان قد أنعمت قال عنها فقال أين ابن أبى كبشة أين ابن أبى قحافة أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أبو بكر وها أنا عمر . قال: فقال أبو سفيان . يوم بيوم بدر ، الأيام دول وإن الحرب سجال قال : فقال عمر . لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلا كم فى النار قال : انكم تزعمون ذلك فقد خبنا وخسرنا اذن فقال أبو سفيان انكم ستجدون فى قتلاكم مثلا ولم يكن ذلك عن رأى سراتنا قال : ثم أدركته حمية الجاهلية فقال أما انه إن كان ذلك لم نكرهه هذا حديث غريب وسياق عجيب وهو من مرسلات ابن عباس فانه لم يشهد أحدا ولا أبوه وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه عن أبى النضر الفقيه عن عثمان بن سعيد عن سليمان بن داود بن على بن عبد الله بن عباس به وهكذا رواه ابن أبى حاتم والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث سليمان بن داود الهاشمى به ولبعضه شواهد فى الصحاح وغيرها ــ قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن عطاء ابن السائب عن الشعبى عن ابن مسعود قال ان النساء كن يوم أحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به أفرد النبى ﷺ فى تسعة ، سبعة من الأنصار ورجلين من قريش وهو عاشرهم ﷺ ، فلما أرهقوه قال « رحم الله رجلا ردهم عنا » قال فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل ، فلما أرهقوه أيضا قال « رحم الله رجلا ردهم عنا » فلم يزل يقول ... السبعة فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه « ما أنصفنا أصحابنا » فجاء أبو سفيان فقال اعل هبل فقال رسول الله ﷺ « قولوا الله أعلى وأجل » فقالوا : الله أعلى وأجل فقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ « قولوا : الله مولانا والكافرون لا مولى لهم » فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر . فيوم علينا ويوم لنا . ويوم نساء ويوم نسر : حنظلة بحنظلة

(١) فى نسخة الأزهر : أبى عبد الله (٢) كذا بالنسخ . (٣) فى نسخة الأزهر : أزاحوا (٤) فيها اللهم انه .

وفلان بفلان : فقال رسول الله ﷺ : « لاسواء : أماقتلانا فأحياء يرزقون ؛ وأماقتلاكم ففى النار يعذبون » فقال أبو سفيان : لقدكان فى القوم مثلة وإن كانت لعن غـير ملامنا ما أمرت ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ، ولا ساءنى ولا سرنى ، قال : فنظروا فإذاحمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبده فلا كتها فلم تستطع أن تأ كلها فقال رسول الله ﷺ : « أ كلت شيئاً » ؟ قالوا : لا قال « ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة فى النار » قال : فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه وجىء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصـلى عليه فرفع الأنصارى وترك حمزة حتى جىء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه ، ثم رفع وترك حمزة ، حتى صـلى عليه يومئذ سبعين صـلاة ، تفرد به أحمد أيضاً وقال البخارى : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبى ﷺ جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال « لاتبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن . قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله بن جبير : عهد إلى النبى صـلى الله عليه وسـلم أن لاتبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سـبعون قتيلا فأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد ، فقال « لاتجيبوه » فقال أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ قال : « لا تجيبوه » . فقال : أفى القوم ابن الخطاب ، فقال : إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأ... ! فلم يملك عمر نفسه فقال له كذبت ياعدوالله أبقى الله لك مايحزنك ؛ قال أبوسفيان : اعل هبل فقال النبى ﷺ « أجيبوه » قالوا : مانقول ؟ قال « قولوا : الله أعلى وأجل » قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لـكم فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أجيبوه » قالوا ما نقول ؟ قال « قولوا : الله مولانا ولا مولى لـكم » قال أبوسفيان يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ؛ وستجدون مثلة لم آمربها ولم تسؤنى ؛ تفرد به البخارى من هذا الوجه؛ ثم رواه عن عمرو بن خالد عن زهير بن معاوية عن أبى إسحق عن البراء بنحوه ؛ وسـيأتى بأبسط من هذا ــ وقال البخارى أيضا : حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا أبوأسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت لما كان يوم أحـد هزم المشركون فصرخ إبليس . أى عباد الله أخرا كم فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال : أى عباد الله أبى أبى قال : قالت فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه فقال حذيفة يغفرالله لكم قال عروة : فوالله مازالت فى حذيفة بقية خير حتى لحق بالله[1] عزوجل . وقال محمد بن إسحق حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير[2] عن جده أن الزبير بن العوام قال : والله لقدرأيتنى أنظر إلى خدم هند وصواحباتها مشمرات هوارب مادون أخذهن كثير ولاقليل ، ومالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب وخلوا ظهورنا للخيل فأوتينا من أدبارنا وصرخ صارخ ألا إن محمداً قدقتل فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعـدأن أصبنا أصحاب اللواء حتى مايدنو منه أحد من القوم . قال محمد بن إسحق . فلم يزل لواء المشركين صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فدفعته لقريش فلاثوابها . وقال السدى عن عبدخير عن على بن[3] عبدالله بن مسعود قال ما كنت أرى ان أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا مانزل يوم أحد (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) وقد روى من غير وجه عن ابن مسعود وكذا روى عن عبدالرحمن بن عوس وأبى طلحة ، رواه ابن مردويه فى تفسيره وقوله تعالى (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) قال ابن إسحق حدثنى القاسم بن عبدالرحمن بن رافع أحد بنى عدى بن النجار قال : انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله فى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم فقال مايخليكم ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ قال فماتصنعون بالحياة بعـده ؟ قوموا فموتوا على مامات عليه ؛ ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه ــ وقال البخارى حدثنا حسان بن حسان حدثنا محمد بن طلحة حدثنا حميد عن أنس بن مالك أن عمه يعـنى أنس بن النضر غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبى ﷺ لئن أشهدنى الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد فلقى يوم أحد فهزم الناس فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ــ يعنى المسلمين ــ وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ؛ فتقدم بسيفه فلقى سعد بن معاذ فقال : أين ياسعد إنى أجد ريح الجنة دون أحد فمضى

(١) فى نسخة الأزهر : لقى الله . (٢) وفيها . عن أبيه . (٣) وفيها : عند جواب .

فقتل فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ، هذا لفظ البخارى ؛ وأخرجه مسلم من حديث ثابت بن أنس بنحوه — وقال البخارى أيضا : حدثنا عبدان حدثنا أبو حمزة عن عثمان بن موهب قال : جاء رجل حج البيت فرأى قوما جلوسا فقال : من هؤلاء القعود ؟ قالوا . هؤلاء قريش قال : من الشيخ ؟ قالوا: ابن عمر فأتاه فقال إنى سائلك عن شىء فحدثنى قال سـل قال : أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد ؟ قال : نعم قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها قال : نعم قال فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها قال نعم فـكبر فقال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتنى عنه أما فراره يوم أحـد فأشهد أن الله عفا عنه ؛ وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال له رسول الله صـلى الله عليه وسلم « إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه » وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحـد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث عثمان فـكانت بيعة الرضوان بعد ماذهب عثمان إلى مكة فقال النبى ﷺ بيده اليمنى «هذه يد عثمان » فضرب بها على يده فقال « هـذه يد عثمان اذهب بها الآن معك» ثم رواه البخارى من وجه آخر عن أبى عوانة عن عثمان بن عبد الله بن موهب

وقوله تعالى (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد) أى صرفكم عنهم إذ تصعدون أى فى الجبل هاربين من أعدائـكم . وقرأ الحسن وقتادة (إذ تصعدون) أى فى الجبل (ولا تلوون على أحد) أى وأنتم لا تلوون على أحـد من الدهش والخوف والرعب (والرسول يدعوكم فى أخراكم) أى وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والـكرة . قال السدى لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها . فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس «إلىّ عباد الله، إلىّ عباد الله» فذكر الله صعودهم إلى الجبل ، ثم ذكر دعاء النبى ﷺ إياهم فقال (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم) وكذا قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد . وقال عبد الله بن الزبعرى : يذكر هزيمة المسلمين يوم أحد فى قصيدته وهو مشرك بعد لم يسلم التى يقول فى أولها

يا غراب البين أسمعت فقل * إنما تنطق شيئاً قد فعل * إن للخير وللشر مدى * وكلا ذلك وجه وقبل

إلى أن قال : ليت أشياخى ببدر يشهدوا * جزع الخزرج من وقع الأسـل

حـين حلت بقباء بركها * واستحر القتل فى عبد الأشل * ثم خفوا عندذا كم رقصا

رقص الحفان يعلو فى الجبل * فقتلنا الضعف من أشرافهم * وعدلنا ميل بدر فاعتدل

الحفان صغار النعم . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أفرد فى اثنى عشر رجلا من أصحابه كما قال الإمام أحـمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا زهير حدثنا أبو إسحق عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة يوم أحد — وكانوا خمسين رجلا — عبد الله بن جبير قال : ووضعهم موضعاً وقال « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » قال فهزموهم قال : فلقد والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله : الغنيمة أى قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لـكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة . فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك الذى يدعوهم الرسول فى أخراهم فلم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجـلا فأصابوا منا سـبعين ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين ، سبعين أسيراً وسبعين قتيلا . قال أبو سفيان : أفى القوم محمد أفى القوم محمد أفى القوم محمد ؟ — ثلاثا — قال . فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه ، ثم قال : أفى القوم ابن أبى قحافة . أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ أفى القوم ابن الخطاب أفى القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال ، أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم ، فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله إن الذين عددت لأحياء كلهم ، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك فقال : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال . إنكم ستجدون فى القوم مثلة

لم آمرها ولم تسؤنى . ثم أخذ يرتجز يقول اعل هبل اعل هبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تجيبوه؟ » قالوا : يارسول الله ما تقول ؟ قال « قولوا الله أعلى وأجل » قال لنا العزى ولا عزى لكم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تجيبوه ؟ » قالوا يارسول الله وما نقول ؟ قال « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » وقد رواه البخارى من حديث زهير بن معاوية مختصراً ، ورواه من حديث إسرائيل عن أبى إسحق بأبسط من هذا كما تقدم والله أعلم — وروى البيهقى فى دلائل النبوة من حديث عمارة بن غزية عن أبى الزبير عن جابر قال : انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد وبقى معه أحد عشر رجلا من الأنصار وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد فى الجبل ، فلحقهم المشركون فقال « ألا أحد لهؤلاء » فقال : طلحة أنا يا رسول الله فقال « كما أنت ياطلحة » ، فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقى معه ثم قتل الأنصارى فلحقوه فقال « ألا رجل لهؤلاء » فقال طلحة مثل قوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار ؟ فأنا يا رسول الله ، فقاتل عنه وأصحابه يصعدون ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول فيقول طلحة فأنا يا رسول الله فيحبسه فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له فيقاتل مثل من كان قبله ، حتى لم يبق معه إلا طلحة فغشوهما فقال رسول صلى الله عليه وسلم « من لهؤلاء ؟ » فقال طلحة : أنا فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيبت أنامله فقال حس(١) : فقال رسول الله « لو قلت باسم الله وذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك فى جو السماء » ثم صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم مجتمعون. وقد روى البخارى عن أبى بكر بن أبى شيبة عن وكيع عن إسماعيل عن قيس بن أبى حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى صلى الله عليه وسلم يعنى يوم أحد — وفى الصحيحين من حديث معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبى عثمان النهدى قال : لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض تلك الأيام التى قاتل فيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا طلحة بن عبيد الله وسعد عن حديثهما(٢). وقال الحسن بن عرفة حدثنا مروان بن معاوية عن هشام بن هشام الزهرى قال سمعت سعيد بن المسيب يقول : سمعت سعد بن أبى وقاص يقول : نثل لى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته يوم أحد وقال « ارم فداك أبى وأمى » ، وأخرجه البخارى عن عبد الله بن محمد عن مروان بن معاوية وقال محمد بن إسحق حدثنى صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد بن أبى وقاص أنه رمى يوم أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سعد فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يناولنى النبل ويقول « ارم فداك أبى وأمى » حتى إنه ليناولنى السهم ليس له نصل فأرمى به — وثبت فى الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : رأيت يوم أحد عن يمين النبى ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعنى جبريل وميكائيل عليهما السلام — وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد وثابت عن أنس بن مالك : أن رسول صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار واثنين من قريش، فلما أرهقوه قال «من يردهم عنا وله الجنة أو وهو رفيقى فى الجنة» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم أرهقوه أيضا فقال « من يردهم عنا وله الجنة» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبيه « ما أنصفنا أصحابنا » رواه مسلم عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة به بنحوه. وقال أبو الأسود عن عروة بن الزبير قال: كان أبى بن خلف أخو بنى جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال « بل أنا أقتله إن شاء الله » فلما كان يوم أحد أقبل أبى فى الحديد مقنعا وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول صلى الله عليه وسلم يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار يقى رسول الله ﷺ بنفسه فقتل مصعب بن عمير وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبى بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة وطعنة فيها بحربته فوقع إلى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش ؟ فذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل أنا أقتل أبيا » ثم قال، والذى نفسى بيده لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعون،

(١) : فحس بكسر الحاء وتشديد السين كلمة يقولها من اصابه على غفلة ما آلمه او أحرقه فيها (٢) هنا بياض بالنسخة الأميرية

فمات إلى النار (فسحقا لأصحاب السعير)وقدرواه موسى بن عقبة فى مغازيه عن الزهرى عن سعيد بن المسيب بنحوه - وذكر محمد بن إسحق قال : لما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول :لانجوت إن نجوت فقال القوم : يا رسول الله يعطف عليه رجل منا فقال رسول الله ﷺ « دعوه » فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فقال بعض القوم كما ذكر لى فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انفض ثم استقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً - وذكر الواقدى عن يونس بن بكير عن محمد(١) بن إسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة عن عبد الله ابن كعب بن مالك عن أبيه نحو ذلك . وقال الواقدى وكان ابن عمر يقول مات أبى بن خلف ببطن رابغ ، فإنى لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل فإذا أنا بنار تأجج لى فهبتها ، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها يهيج به العطش، وإذا رجل يقول لا تسقه ، فإن هذا قتيل رسول الله ﷺ ، هذا أبى بن خلف - وثبت فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ - وهو حينئذ يشير إلى رباعيته - واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله » وأخرجه البخارى أيضا من حديث ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس. قال اشتد غضب الله على من قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى سبيل الله واشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ - وقال ابن إسحق : أصيبت رباعية رسول الله ﷺ ، وشج فى وجنته ، وكلمت شفته ، وكان الذى أصابه عتبة ابن أبى وقاص . فحدثنى صالح بن كيسان عن من حدثه عن سعد بن أبى وقاص قال : ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبى وقاص ، وإن كان ماعلمته لسيء الخلق مُبغضا فى قومه ، ولقد كفانى فيه قول رسول الله ﷺ «اشتد غضب الله على من دمى وجه رسول الله ﷺ » - وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن عثمان الحريرى عن مقسم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبى وقاص يوم أحد حين كسر رباعيته ودمى وجهه فقال « اللهم لا تحل عليه الحول حتى يموت كافراً » فما حال عليه الحول حتى مات كافراً إلى النار - وذكر الواقدى عن ابن أبى سبرة عن إسحق بن عبد الله بن أبى فروة عن أبى الحويرث عن نافع بن جبير قال سمعت رجلا من المهاجرين يقول شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية ورسول الله ﷺ فى وسطها كل ذلك يصرف عنه ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يومئذ يقول : دلونى على محمد لانجوت إن نجا ورسول الله ﷺ إلى جنبه ليس معه أحد، ثم جاوزه فعاتبه فى ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته أحلف بالله أنه منا ممنوع ،خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك. قال الواقدى : والذى ثبت عندنا أن الذى دمى وجنتى رسول الله ﷺ ابن قميئة،والذى دمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبى وقاص : وقال أبو داود الطيالسى حدثنا ابن المبارك عن إسحق بن يحى بن طلحة بن عبيد الله أخبرنى عيسى بن طلحة عن أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله لطلحة ، ثم أنشأ يحدث قال : كنت أول من فاء يوم أحد فرأيت رجلا يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه وأراه قال حمية فقلت : كن طلحة حيث فاتنى مافاتنى فقلت يكون رجلا من قومى أحب إلى وبينى وبين المشركين رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشى خطفا لا أعرفه فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كسرت رباعيته وشج فى وجهه ، وقد دخل فى وجنته حلقتان من حلق المغفر فقال رسول الله ﷺ « عليكما صاحبكما يريد طلحة » وقد نزف فلم نلتفت إلى قوله قال: وذهبت لأنزع ذلك من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسمت عليك بحقى لما تركتنى فتركته، فكره أن يتناولها بيده فيؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة وذهبت لأصنع ما صنع فقال : أقسمت عليك بحقى لما تركتنى ، قال ففعل مثل ما فعل فى المرة الأولى ، ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتما فأصلحنا من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتينا طلحة فى بعض تلك الجفار ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت أصبعه ،

(١) فى نسخة الأزهر : يونس .

فأصلحنا من شأنه، ورواه الهيثم بن كليب والطبرانى من حديث إسحق بن يحيى به. وعند الهيثم قال أبو عبيدة أنشدك الله يا أبا بكر ألا تركتنى؟ فأخذ أبو عبيدة السهم بفيه فجعل ينضنضه كراهية أن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استل السهم بفيه فبدرت ثنية أبى عبيدة، وذكر تمامه، واختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه، وقد ضعف على بن المدينى هذا الحديث من جهة إسحق بن يحيى هذا فانه تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان وأحمد ويحيى بن معين والبخارى وأبو زرعة وأبو حاتم ومحمد بن سعد والنسائى وغيرهم — وقال ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن عمر بن السائب حدثه أنه بلغه أن مالكا أبا أبى سعيد الخدرى لما جرح النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد مص الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض فقيل له مجه فقال، لا والله لا أمجه أبدا، ثم أدبر يقاتل فقال النبى صلى الله عليه وسلم «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» فاستشهد — وقد ثبت فى الصحيحين من طريق عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: جرح وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه صلى الله عليه وسلم فكانت فاطمة تغسل الدم وكان على يسكب عليه الماء بالمجن فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رمادا ألصقته بالجرح فاستمسك الدم وقوله تعالى (فأثابكم غما بغم) أى فجزاكم غما على غم كما تقول العرب نزلت ببنى فلان، ونزلت على بنى فلان وقال ابن جرير: وكذا قوله (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى على جذوع النخل قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قيل قتل محمد صلى الله عليه وسلم، والثانى حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبى صلى الله عليه وسلم «اللهم ليس لهم أن يعلونا». وعن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثانى حين قيل قتل محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة، رواهما ابن مردويه. وروى عن عمر بن الخطاب نحو ذلك وذكر ابن أبى حاتم عن قتادة نحو ذلك أيضا. وقال السدى: الغم الأول بسبب مافاتهم من الغنيمة والفتح، والثانى باشراف العدو عليهم. وقال محمد بن إسحق (فأثابكم غما بغم) أى كربا بعد كرب قتل من قتل من إخوانكم، وعلو عدوكم عليكم، وما وقع فى أنفسكم من قول: قتل نبيكم، فكان ذلك متتابعا عليكم غما بغم. وقال مجاهد وقتادة. الغم الأول سماعهم قتل محمد، والثانى ما أصابهم من القتل والجراح. وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه. وعن السدى. الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثانى إشراف العدو عليهم وقد تقدم هذا القول عن السدى. قال ابن جرير وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال (فأثابكم غما بغم) فأثابكم نعمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ بعد الذى كان قد أراكم فى كل ذلك ماتحبون بمعصيتكم أمر ربكم، وخلافكم أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم، غم ظنكم أن نبيكم قد قتل وميل العدو عليكم ونبوكم منهم وقوله تعالى (لكيلا تحزنوا على مافاتكم) أى على مافاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم (ولا ما أصابكم) من الجراح والقتل قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف والحسن وقتادة والسدى (والله خبير بما تعملون) سبحانه وبحمده لا إله إلا هو جل وعلا

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذى غشيهم وهم مشتملون السلاح فى حال همهم وغمهم والنعاس فى مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال فى سورة الانفال فى قصة بدر (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم ووكيع عن سفيان عن عاصم عن أبى رزين عن عبد الله بن مسعود. قال النعاس فى القتال من الله وفى الصلاة من الشيطان وقال البخارى وقال لى خليفة حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن أبى طلحة قال كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارا يسقط وآخذه ويسقط وآخذه. هكذا رواه فى المغازى معلقا ورواه فى كتاب التفسير مسنداً عن شيبان عن قتادة عن أنس عن أبى طلحة قال غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد قال فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ويسقط وآخذه وقد رواه الترمذى والنسائى والحاكم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبى طلحة قال رفعت رأسى يوم أحد وجعلت أنظر ومامنهم يومئذ أحد إلا يميل تحت حجفته من النعاس لفظ الترمذى وقال حسن صحيح ورواه النسائى أيضا عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن أبى قتيبة عن ابن أبى عدى كلاهما عن حميد عن أنس قال: قال أبو طلحة كنت فيمن ألقى عليه النعاس الحديث وهكذا رواه عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف وقال البيهقى حدثنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنى أبو الحسين محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن إسحق الثقفى حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومى حدثنا يونس ابن محمد حدثنا شيبان عن قتادة حدثنا أنس بن مالك أن أبا طلحة قال غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ويسقط وآخذه قال والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) أى إنما هم أهل شك وريب فى الله عز وجل هكذا رواه بهذه الزيادة وكأنها من كلام قتادة رحمه الله وهو كما قال فان الله عز وجل يقول (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) يعنى أهل الايمان واليقين والثبات والتوكل الصادق وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله ولهذا قال (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) يعنى لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) كما قال فى الآية الأخرى (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا) إلى آخر الآية وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الاسلام قد باد وأهله وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة ثم أخبر تعالى عنهم أنهم (يقولون) فى تلك الحال (هل لنا من الأمر من شىء) فقال تعالى (قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك) ثم فسر ما أخفوه فى أنفسهم بقوله (يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا) أى يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ قال ابن إسحق فحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه فى صدره قال فوالله إنى لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول (لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا) فحفظتها منه وفى ذلك أنزل الله (يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا) لقول معتب رواه ابن أبى حاتم قال الله تعالى (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أى هذا قدر قدره الله عز وجل وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه وقوله تعالى (وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم) أى يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس فى الأقوال والأفعال (والله عليم بذات الصدور) أى بما يختلج فى الصدور من السرائر والضمائر ثم قال تعالى (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) أى ببعض ذنوبهم السالفة كما قال بعض السلف إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال تعالى (ولقد عفا الله عنهم) اى عما كان منهم من الفرار (إن الله غفور حليم) أى يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم وقد تقدم حديث ابن عمر فى شأن عثمان وتوليه يوم أحد وأن الله قد عفا عنه مع من عفا عنهم عند قوله (ولقد عفا عنكم) ومناسب ذكره ههنا قال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن عاصم عن شقيق قال لقى عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة فقال له الوليد مالى أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان فقال له عبد الرحمن أبلغه أنى لم أفر يوم حنين قال عاصم يقول يوم أحد ولم أتخلف

عن بدر ولم أترك سنة عمر قال فانطلق فأخبر بذلك عثمان قال: فقال عثمان أما قوله إنى لم أفر يوم حنين فكيف يعيرنى بذلك ولقد عفا الله عنه فقال تعالى (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم) وأما قوله إنى تخلفت يوم بدر فانى كنت أمرّض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت وقد ضرب لى رسول الله ﷺ بسهم ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد وأما قوله إنى تركت سنة عمر فانى لا أطيقها ولا هو فأته فحدثه بذلك

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار فى اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا فى الأسفار والحروب لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم فقال تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم) أى عن اخوانهم (إذا ضربوا فى الأرض) أى سافروا للتجارة ونحوها (أو كانوا غزى) أى كانوا فى الغزو (لو كانوا عندنا) أى فى البلد (ما ماتوا وما قتلوا) أى ما ماتوا فى السفر وما قتلوا فى الغزو وقوله تعالى (ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم) أى خلق هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم ثم قال تعالى ردا عليهم (والله يحيي ويميت) أى بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره ولا يزاد فى عمر أحد ولا ينقص منه شىء إلا بقضائه وقدره (والله بما تعملون بصير) أى علمه وبصره نافذ فى جميع خلقه لا يخفى عليه من أمورهم شىء وقوله تعالى (ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) تضمن هذا أن القتل فى سبيل الله والموت أيضا وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه وذلك خير من البقاء فى الدنيا وجميع حطامها الفانى ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله عز وجل فيجزيه بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر فقال تعالى (ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون)

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله ممتنا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته التبعين لأمره التاركين لزجره وأطاب لهم

لفظه (فبما رحمة من الله لنت لهم) أى بأى شىء جعلك الله لهم لينا لولا رحمة الله بك وبهم، وقال قتادة (فبما رحمة من الله لنت لهم) يقول فبرحمة من الله لنت لهم وما صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله (فبما نقضهم ميثاقهم) وبالنكرة كقوله (عما قليل) وهكذا ههنا قال (فبما رحمة من الله لنت لهم) أى برحمة من الله، وقال الحسن البصرى هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وقال الإمام أحمد حدثنا حيوة حدثنا بقية حدثنا محمد بن زياد حدثنى أبو راشد الحرانى قال: أخذ بيدى أبو أمامة الباهلى وقال: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فقال «يا أبا أمامة إن من المؤمنين من يلين له قلبى» تفرد به أحمد ثم قال تعالى (ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك) والفظ الغليظ المراد به ههنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك (غليظ القلب) أى لو كنت سىء الكلام قاسى القلب عليهم لا نفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو إنى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وقال أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى أنبأنا بشر بن عبيد حدثنا عمار بن عبد الرحمن عن المسعودى عن أبى مليكة عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى بإقامة الفرائض» حديث غريب. ولهذا قال تعالى (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى الأمر إذا حدث تطييبا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه كما شاورهم يوم بدر فى الذهاب إلى العير فقالوا يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا الى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم أيضا أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم. وشاورهم فى أحد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على ذرارى المشركين. فقال له الصديق. إنا لم نجىء لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال وقال صلى الله عليه وسلم فى قصة الافك «أشيروا علىّ معشر المسلمين فى قوم أبنوا أهلى ورموهم، وايم الله ماعلمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن؟ والله ماعلمت عليه إلا خيرا» واستشار عليا وأسامة فى فراق عائشة رضى الله عنها. فكان صلى الله عليه وسلم يشاورهم فى الحروب ونحوها وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجبا عليه أو من باب الندب تطييبا لقلوبهم؟ على قولين وقد روى الحاكم فى مستدركه: أنبأنا أبو جعفر محمد بن محمد البغدادى حدثنا يحيى بن أيوب العلاف بمصر حدثنا سعيد بن أبى مريم أنبأنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس فى قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وكذا رواه الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت فى أبى بكر وعمر، وكانا حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزيريه وأبوى المسلمين وقد روى الإمام أحمد. حدثنا وكيع حدثنا عبد الحميد عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر «لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما» وروى ابن مردويه عن على بن أبى طالب قال: سئل رسول الله ﷺ عن العزم؟ فقال «مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم» وقد قال ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا يحيى بن بكير عن سفيان عن عبد الملك بن عمير عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «المستشار مؤتمن» ورواه أبو داود والترمذى وحسنه النسائى من حديث عبد الملك بأبسط من هذا. ثم قال ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أسود بن عامر عن شريك عن الأعمش عن أبى عمرو الشيبانى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المستشار مؤتمن» تفرد به. وقال أيضا حدثنا أبو بكر حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة وعلى بن هاشم عن ابن أبى ليلى عن أبى الزبير عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه» تفرد به أيضا

وقوله تعالى (فإذا عزمت فتوكل على الله) أى إذا شاورتهم فى الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه (إن الله يحب المتوكلين) وقوله تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهذه الآية كما تقدم من قوله (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقوله تعالى (وما كان لنبى أن يغل) : قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد : ماينبغى لنبى أن يخون. وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا المسيب بن واضح حدثنا أبو إسحق الفزارى عن سفيان بن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال : فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا : لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فأنزل الله (وما كان لنبى أن يغل) أى يخون . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبدالملك بن أبى الشوارب حدثنا عبدالواحد بن زياد حدثنا خصيف حدثنا مقسم حدثنى ابن عباس أن هذه الآية (وما كان لنبى أن يغل) نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض الناس : لعل رسول الله أخذها ، فأكثروا فى ذلك فأنزل الله (وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) وكذا رواه أبوداود والترمذى جميعا عن قتيبة عن عبد الواحد بن زياد به وقال الترمذى حسن غريب ، ورواه بعضهم عن خصيف عن مقسم يعنى مرسلا ، ورواه ابن مردويه من طريق أبى عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس قال اتهم المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء فقد فأنزل الله تعالى (وما كان لنبى أن يغل) وروى من غير وجه عن ابن عباس نحو ماتقدم ، وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك . وقال العوفى عن ابن عباس (وما كان لنبى أن يغل) أى بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضا ، وكذا قال الضحاك . وقال محمد بن إسحق (وما كان لنبى أن يغل) بأن يترك بعض ما أنزل اليه فلا يبلغ أمته . وقرأ الحسن البصرى وطاوس ومجاهد والضحاك (وما كان لنبى أن يُغل) بضم الياء أى يخان وقال قتادة والربيع بن أنس : نزلت هذه الآية يوم بدر ، وقد غل بعض أصحابه ، ورواه ابن جرير عنهما ، ثم حكى عن بعضهم أنه فسر هذه القراءة بمعنى يتهم بالخيانة ثم قال تعالى (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد وقد وردت السنة بالنهى عن ذلك أيضا فى أحاديث متعددة قال الإمام أحمد حدثنا عبد الملك حدثنا زهير يعنى ابن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن عطاء بن يسار عن أبى مالك الأشجعى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين فى الأرض — أو فى الدار — فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعا فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن ابن هبيرة والحارث بن يزيد عن عبدالرحمن بن جبير قال سمعت المستورد بن شداد يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادما ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، ومن أصاب شيئا سوى ذلك فهو غال » هكذا رواه الإمام أحمد وقد رواه أبوداود بسند آخر وسياق آخر فقال : حدثنا موسى بن مروان الرقى حدثنا المعافى حدثنا الأوزاعى عن الحارث ابن يزيد عن جبير بن نفير عن المستورد بن شداد : قال سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول « من كان لنا عاملا فليكتسب زوجة ، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادما فان لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنا » قال : قال أبوبكر أخبرت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من اتخذ غير ذلك فهو غال — أو سارق » قال شيخنا الحافظ المزى رحمه الله رواه أبو جعفر بن محمد الفريابى عن موسى بن مروان فقال : عن عبدالرحمن بن جبير بدل جبير بن نفير وهو أشبه بالصواب

(حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا حفص بن بشر حدثنا يعقوب القمى حدثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادى يامحمد يامحمد فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل جملا له رغاء يقول : يامحمد يامحمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا له حمحمة ينادى يامحمد يامحمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل قشعا من أدم ينادى يامحمد يامحمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك » لم يروه أحد من أهل الكتب الستة

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن الزهرى سمع عروة يقول : حدثنا أبوحميد الساعدى قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدى لى . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال « مابال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدى لى . أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى اليه أم لا ؟ والذى نفس محمد بيده لايأتى أحدكم منها بشىء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أوشاة تيعر » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ، ثم قال « اللهم هل بلغت » ثلاثا ، وزاد هشام بن عروة فقال أبوحميد . بصرته عينى وسمعته أذنى واسألوا زيد بن ثابت ، أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة ، وعند البخارى واسألوا زيد بن ثابت ، ومن غير وجه عن الزهرى ، ومن طرق عن هشام بن عروة ، كلاهما عن عروة به . (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن عروة بن الزبير عن أبى حميد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هدايا العمال غلول » وهذا الحديث من أفراد أحمد ، وهو ضعيف الإسناد ، وكأنه مختصر من الذى قبله والله أعلم ، (حديث آخر) قال أبوعيسى الترمذى فى كتاب الأحكام : حدثنا أبوكريب حدثنا أبوأسامة عن داود بن يزيد الأودى عن المغيرة بن شبل عن قيس بن أبى حازم عن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فلما سرت أرسل فى أثرى فرددت فقال « أتدرى لم بعثت اليك ؟ لاتصيبن شيئا بغير إذنى فإنه غلول (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) لهذا دعوتك فامض لعملك » هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وفى الباب عن عدى بن عميرة وبريدة والمستورد بن شداد وأبى حميد وابن عمر ؛ (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا إسماعيل بن علية حدثنا أبوحيان يحيى بن سعيد التيمى عن أبى زرعة عن ابن عمر وابن جرير عن أبى هريرة قال . قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال « لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول : يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت . فيقول: يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك » أخرجاه من حديث أبى حيان به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبى خالد حدثنى قيس عن عدى بن عميرة الكندى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملا فكتمنا منه مخيطا فما فوقه فهو غل يأتى به يوم القيامة » قال : فقام رجل من الأنصار أسود ـ قال مجاهد : هو سعد بن عبادة كأنى أنظر اليه ـ فقال يارسول الله اقبل منى عملك قال « وماذاك ؟ » قال سمعتك تقول كذا وكذا قال « وأنا أقول ذاك الآن ، من استعملناه على عمل فليجىء بقليله وكثيره ، فما أوتى منه أخذه ، ومانهى عنه انتهى » وكذا رواه مسلم وأبوداود من طرق عن إسماعيل بن أبى خالد به

(حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا أبومعاوية عن أبى إسحق الفزارى عن ابن جريج حدثنى منبوذ رجل من آل أبى رافع عن الفضل بن عبد الله بن أبى رافع عن أبى رافع قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى العصر ربما ذهب إلى بنى عبد الأشهل فيتحدث معهم حتى ينحدر إلى المغرب قال أبورافع : فبينا[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرعا إلى المغرب إذ مر بالبقيع فقال « أف لك أف لك » فلزق فى درعى وتأخرت وظننت أنه يريدنى فقال « مالك ؟ » قلت أحدثت حدثا يارسول الله : قال « وماذاك » ؟ قال : إنك قلت لى قال « لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعيا على آل فلان فغل نمرة فدرع الآن مثلها من نار » (حديث آخر) قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثنا عبدالله بن سالم الكوفى المفلوج ـ وكان ثقة ـ حدثنا عبيد بن الأسود عن القاسم بن الوليد عن أبى صادق عن ربيعة بن ناجية عن عبادة بن الصامت قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الوبرة من ظهر البعير من المغنم ثم يقول « مالى فيه إلا مثل مالأحدكم ، إياكم والغلول فان الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك ، وجاهدوا فى سبيل الله القريب والبعيد ، فى الحضر والسفر فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، إنه لينجى الله به من الهم والغم ؛ وأقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم

(١) هكذا بالأصل ولعله قد سقط لفظ كان .

فى الله لومة لائم » وقد روى ابن ماجه بعضه عن الفلوج به . (حديث آخر) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ردوا الخياط والمخيط ، فان الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة » (حديث آخر) قال أبو داود . حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن مطرف عن أبى الجهم عن أبى مسعود الأنصارى قال : بعثنى رسول الله ﷺ ساعيا ثم قال : « انطلق أبا مسعود لا ألفينك يوم القيامة تجىء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته » قال إذاً لا أنطلق قال « إذاً لا أكرهك » تفرد به أبو داود . (حديث آخر) قال أبو بكر بن مردويه . أنبأنا محمد بن أحمد بن إبراهيم أنبأنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة أنبأنا عبد الحميد بن صالح أنبأنا أحمد ابن أبان عن علقمة بن مرثد عن أبى بريدة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الحجر يرمى به فى جهنم فيهوى سبعين خريفا ما يبلغ قعرها ويؤتى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به ائت به فذلك قوله (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) » (حديث أخر) قال الإمام أحمد . حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عكرمة بن عمار حدثنى سماك الحنفى أبو زميل حدثنى عبد الله بن عباس حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : فلان شهيد وفلان شهيد ، حتى أتوا على رجل فقالوا فلان شهيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها — أوعباءة — » ثم قال رسول الله ﷺ « اذهب فناد فى الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » قال فخرجت فناديت إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، وكذا رواه مسلم والترمذى من حديث عكرمة بن عمار به وقال الترمذى حسن صحيح (حديث آخر عن عمر رضى الله عنه) قال ابن جرير : حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب حدثنى عبد الله بن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن موسى بن جبير حدثه أن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحباب الأنصارى حدثه أن عبد الله ابن أنيس حدثه أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوما الصدقة فقال ألم تسمع قول رسول الله ﷺ حين ذكر غلول الصدقة « من غل منها بعيراً أوشاة فانه يحمله يوم القيامة » ؟ قال عبد الله بن أنيس . بلى ورواه ابن ماجه عن عمرو بن سوار عن عبد الله بن وهب به (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا يحيى بن سعيد الأموى حدثنا أبى حدثنا يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن عبادة مصدقا فقال « يا سعد إياك أن تجىء يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء » قال لا آخذه ولا أجىء به فأعفاه ثم رواه من طريق عبيد الله عن نافع به نحوه (حديث آخر) قال أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا عبد العزيز بن محمد حدثنا صالح بن محمد بن زائدة عن سالم بن عبد الله أنه كان مع مسلمة بن عبد الملك فى أرض الروم فوجد فى متاع رجل غلولا قال فسأل سالم بن عبد الله فقال حدثنى أبى عبد الله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من وجدتم فى متاعه غلولا فأحرقوه — قال وأحسبه قال — واضربوه » قال فأخرج متاعه فى السوق فوجد فيه مصحفا فسأل سالما فقال بعه وتصدق بثمنه وكذا رواه على بن المدينى وأبو داود والترمذى من حديث عبد العزيز بن محمد الدراوردى زاد أبو داود وأبو إسحق الفزارى كلاهما عن أبى واقد الليثى الصغير صالح بن محمد بن زائدة به وقال على بن المدينى والبخارى وغيرهما هذا حديث منكر من رواية أبى واقد هذا وقال الدارقطنى الصحيح أنه من فتوى سالم فقط وقد ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل ومن تابعه من أصحابه وقد رواه الأموى عن معاوية عن أبى إسحق عن يونس بن عبيد عن الحسن قال : عقوبة الغال أن يخرج رحله فيحرق على ما فيه . ثم روى عن معاوية عن أبى إسحاق عن عثمان بن عطاء عن أبيه عن على قال الغال يجمع رحله فيحرق ويجلد دون حد المملوك ويحرم نصيبه وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعى والجمهور فقالوا لا يحرق متاع الغال بل يعزر تعزير مثله وقد قال البخارى وقد امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة على الغال ولم يحرق متاعه والله أعلم — وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر أنبأنا إسرائيل عن أبى إسحق عن خمير بن مالك قال : أمر بالمصاحف أن تغير قال : فقال ابن مسعود من استطاع منكم أن يغل مصحفا فليغله فانه من غل شيئا جاء به يوم القيامة ثم قال قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين مرة أفأترك ما أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وروى وكيع فى تفسيره عن شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن إبراهيم قال لما أمر بتحريق المصاحف قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أيها الناس غلوا المصاحف فانه من غل يأت بما غل يوم القيامة ، ونعم الغل المصحف يأتى به أحدكم يوم القيامة — وقال أبو داود

عن سمرة بن جندب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادى فى الناس فيجوزوا بغنائمهم فيخمسه ويقسمه فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شعر فقال : يارسول الله هذا كان مما أصبناه من الغنيمة فقال «أسمعت بلالا ينادى » ثلاثا قال : نعم قال « فما منعك أن تجىء » فاعتذر إليه فقال «كلا أنت تجىء به يوم القيامة فلن أقبله منك» وقوله تعالى (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)أى لايستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير ، وهذه الآية لها نظائر كثيرة فى القرآن كقوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) كقوله (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الآية. ثم قال تعالى (هم درجات عند الله) قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحق: يعنى أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائى : منازل يعنى متفاوتون فى منازلهم ، درجاتهم فى الجنة ودركاتهم فى النار ، كقوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) الآية ، ولهذا قال تعالى (والله بصير بما يعملون) أى وسيوفيهم إياها ، لايظلمهم خيرا ولايزيدهم شرا ، بل يجازى كل عامل بعمله : وقوله تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) أى من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) أى من جنسكم وقال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) الآية . وقال تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) وقال تعالى (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) فهذا أبلغ فى الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته فى فهم الكلام عنه ولهذا قال تعالى (يتلو عليهم آياته) يعنى القرآن (ويزكيهم) أى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يعنى القرآن والسنة (وإن كانوا من قبل) أى من قبل هذا الرسول (لفى ضلال مبين) أى لفى غى وجهل ظاهر جلى بين لكل أحد

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يقول تعالى (أولما أصابتكم مصيبة) وهى ما أصيب منهم يوم أحد من قتلى السبعين منهم (قد أصبتم مثليها) يعنى يوم بدر فانهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا وأسروا سبعين أسيرا قلتم أنى هذا أى من أين جرى علينا هذا (قل هو من عند أنفسكم) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى أنبأنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا قراد بن نوح حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفى أبو زميل حدثنى ابن عباس حدثنى عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام القبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) بأخذكم الفداء . وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غزوان وهو قراد بن نوح باسناده ولكن بأطول منه ، وهكذا قال الحسن البصرى وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا إسماعيل بن علية عن ابن

عون ح قال سنيد وهو حسين وحدثني حجاج عن جريج عن محمد عن عبيدة عن علي قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد إن الله قد كره ماصنع قومك في أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين ، إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم قال : فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر لهم ذلك فقالوا : يارسول الله عشائرنا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ، ويستشهد منا عدتهم ، فليس في ذلك مانكره ؟ قال فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا ، عدة أسارى أهل بدر ، وهكذا رواه النسائي والترمذي من حديث أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين به ، ثم قال الترمذي حسن غريب لانعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة : وروى أبو أسامة عن هشام نحوه وروى عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبي ﷺ مرسلا . وقال محمد بن إسحق وابن جرير والربيع بن أنس والسدي (قل هو من عند أنفسكم) أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لاتبرحوا من مكانكم فعصيتم يعني بذلك الرماة (إن الله على كل شيء قدير) أي يفعل ما يشاء ويحكم مايريد لامعقب لحكمه ، ثم قال تعالى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله) أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره ، وله الحكمة في ذلك (وليعلم المؤمنين) أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أوادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الاتيان والقتال والساعدة ، ولهذا قال (أوادفعوا) قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي : يعني كثروا سواد المسلمين ، وقال الحسن بن صالح ادفعوا بالدعاء ، وقال غيره رابطوا ، فتعللوا قائلين (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) قال مجاهد يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم ؛ ولكن لاتلقون قتالا . قال محمد بن إسحق : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومحمد بن يحيى بن حيان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ؟ وغيرهم من علمائنا كلهم قد حدث قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يعني حين خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه ؟ حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس فقال : أطاعهم فخرج وعصاني ووالله ماندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب واتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول : ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند ما حضر من عدوكم قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال : فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم ومضى رسول الله ﷺ . قال الله عز وجل (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الايمان لقوله (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) ثم قال تعالى (يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم) يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته ، ومنه قولهم هذا (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) فانهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر . وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لامحالة . ولهذا قال تعالى (والله أعلم بما يكتمون) ثم قال تعالى (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا) أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ماقتلوا مع من قتل ، قال الله تعالى (قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لاتموتون ، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . قال مجاهد عن جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ

مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار . قال محمد بن جرير : حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا عمرو بن يونس عن عكرمة حدثنا إسحق بن أبي طلحة حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل بئر معونة قال : لا أدري أربعين أو سبعين ، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غارا مشرفا على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذا الماء فقال ــ أراه أبو ملحان الأنصاري ــ أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ (١) فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى (٢) أمام البيوت ثم قال يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فآمنوا بالله ورسوله فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل وقال ابن إسحق : حدثني أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآنا بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زمانا وأنزل الله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقد قال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا ؟ فقالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : [illegible] نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » وقد روي نحوه من حديث أنس وأبي سعيد (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها ان ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة » تفرد به مسلم من طريق حماد (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا علي بن عبد الله المديني حدثنا سفيان بن محمد بن علي بن ربيعة السلمي عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمن فقال له أرد إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى قال إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن أبا جابر وهو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه قتل يوم أحد شهيدا . قال البخاري وقال أبو الوليد عن شعبة عن ابن المنكدر سمعت جابرا قال لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يهوني والنبي ﷺ لم ينه فقال النبي ﷺ « لا تبكيه ــ أو ما تبكيه ــ مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع » وقد أسنده هو ومسلم والنسائي من طرق عن شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : لما قتل أبي يوم أحد جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي وذكر تمامه بنحوه : (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا

(١) قوله أهل هذا الماء إلى هنا سقط من النسختين وترك له بياض في الأميرية ونقلناه من تفسير ابن جرير . (٢) في نسخة الأزهر فاختبأ .

يعقوب حدثنا أبي عن أبي إسحق حدثنا إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد عن أبي الزبير المكي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) وما بعدها » وهكذا رواه أحمد، ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن إسماعيل بن عياش عن محمد بن إسحق به . ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحق به ، ورواه أبو داود والحاكم عن إسماعيل بن أمية عن أبي الزبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره، وهذا أثبت . وكذا رواه سفيان الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس – وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي إسحق الفزاري عن سفيان عن إسماعيل[1] بن أبي خالد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وكذلك قال قتادة والربيع والضحاك انها نزلت في قتلى أحد. (حديث آخر) قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا هارون بن سليمان أنبأنا على بن عبد الله المديني أنبأنا موسى بن إبراهيم ابن كثير بن بشير بن الفاكه الأنصاري سمعت طلحة بن خراش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصمت الأنصاري قال سمعت جابر بن عبد الله قال : نظر إلىّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال «ياجابر مالي أراك مهتما؟ » قلت يا رسول الله استشهد أبي وترك دينا وعيالا قال : فقال « ألا أخبرك ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحا » قال على والكفاح المواجهة «قال سلني أعطك قال: أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب عز وجل إنه قد سبق مني القول انهم إليها لا يرجعون قال أي رب فأبلغ من ورائي فأنزل الله (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا) الآية » ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري عن أبيه عن جابر به نحوه ،وكذا رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق على ابن المديني به ، وقد رواه البيهقي أيضا من حديث أبي عبادة الأنصاري وهو عيسى بن عبد الله[2] إن شاء الله عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ لجابر « ياجابر ألا أبشرك » قال بلى بشرك الله بالخير قال « شعرت بأن الله أحيا أباك فقال تمن علىّ عبدي ماشئت أعطكه قال يا رب ماعبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك وأقتل فيك مرة أخرى قال إنه سلف مني أنه إليها لا يرجع» (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحق حدثنا الحارث بن فضيل الأنصاري عن محمود بن لبيد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فيه قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية» تفرد به أحمد ، وقد رواه ابن جريج[3] عن أبي كريب حدثنا عبد الرحمن بن سليمان وعبيدة عن محمد بن إسحق به وهو إسناد جيد ؛ وكأن الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح والله أعلم – وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضا فيها وتأكل من ثمارها وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة فان الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» قوله « يعلق » أي يأكل وفي هذا الحديث « إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة » وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فانها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان – وقوله تعالى (فرحين بما آتاهم الله) إلى آخر الآية أي الشهداء

(١) في نسخة الأزهر : عن أبي سفيان عن إسماعيل (٢) وفيها : ابن عبد الرحمن (٣) وفيها ابن جرير

الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عنـد ربهم ، وهم فرحون بما هم فيـه من النعمة والغبطة ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم نسأل الله الجنة . وقال محمد بن إسحق (ويستبشرون) أى ويسرون بلحوق من لحقهم[1] من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذى أعطاهم ، قال السدى يؤتى الشهيد بكتاب فيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم قال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : ياليت إخواننا الذين فى الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وماهم فيه من الكرامه ، وأخبرهم أى ربهم أنى قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيـه فاستبشروا بذلك فذلك قوله (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) الآية وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا فى غداة واحـدة ، وقنت رسـول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم قال أنس ونزل فيهـم قرآن قرأناه حتى رفع « أن بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا »

ثم قال تعالى (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) قال محمد بن إسحق : استبشروا أى سروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب . وقال عبـد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم ، وقلما ذكر الله فضلا ذكر به الأنبياء وثوابا أعطاهم الله إياه إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم ، وقوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) هذا كان يوم حمراء الأسد وذلك أن المشركين لمـا أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ، فلمـا استمروا فى سيرهم ندموا لم لاتمموا على أهـل المدينة وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ ذلك رسـول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أن بهم قوة وجلدا ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضى الله عنه لما سنذكره فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عزوجل ولرسوله ﷺ . قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن عكرمة قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صـنعتم . ارجعوا فسمع رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد — أو بئر أبى عيينة — الشك من سفيان — فقال المشركون : نرجع من قابل، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت تعد غزوة فأنزل الله تعـالى (الذين استجابوا لله والرسول من بعـد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) وروى ابن مردويه من حديث محمـد بن منصور عن سفيان ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس فذكره — وكان محمد بن إسحق : كان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال ، فلمـا كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسـول الله ﷺ فى النـاس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فـكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو ابن حرام فقال يارسول الله إن أبى كان خلفنى على أخوات لى سبع وقال : يا بنى إنه لا ينبغى لى ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم على نفسى فتخلف على أخواتك فتخلفت عليهن ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج معه ؟ وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدو وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة ، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم قال محمد بن إسحق فحدثنى عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى عبد الأشهل ، كان قد شهد أحدا قال : شهدنا أحدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأخى رجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج فى طلب العدو وقلت لأخى — أوقال لى — أتفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله ما لنا من دابة نركبها ، ومامنا إلا جريح ثقيل فخرجنا مع رسول

(١) فى نسخة الأزهر : خلفهم .

الله ﷺ ، وكنت أيسر جراحا منه ؛ فكان إذا غلب حملته عقبة ؛ حتى انتهينا إلى ما انتهى اليه المسلمون . وقال البخارى حدثنا محمد بن سلام حدثنا أبومعاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها (الذين استجابوا لله والرسول) الآية قلت لعروة : يا ابن أختى كان أبوك منهم الزبير وأبو بكر رضى الله عنهما لما أصاب نبى الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال « من يرجع فى أثرهم » فانتدب منهم سبعون رجلا فيهم أبو بكر والزبير هكذا رواه البخارى منفردا بهذا السياق ، وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه عن الأصم عن أبى العباس (١) الدورى عن أبى النضر عن أبى سعيد المؤدب عن هشام بن عروة به ، ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه كذا قال ، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار وهدبة بن عبد الوهاب عن سفيان بن عيينة عن هشام بن عروة به وهكذا رواه سعيد بن منصور وأبوبكر الحميدى فى مسنده عن سفيان به وقد رواه الحاكم أيضا من حديث إسماعيل بن أبى خالد عن التيمى عن عروة وقال: قالت لى عائشة ان أباك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه - وقال أبو بكر بن مردويه :حدثنا عبد الله بن جعفر من أصل كتابه أنبأنا سمويه أنبأنا عبد الله بن الزبير أنبأنا سفيان أنبأنا هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ « ان كان أبواك لمن الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح أبوبكر والزبير » ورفع هذا الحديث خطأ محض من جهة إسناده لمخالفته رواية الثقات من وقفه على عائشة رضى الله عنها كما قدمناه ، ومن جهة معناه فإن الزبير ليس هو من آباء عائشة ، وإنما قالت ذلك عائشة لعروة بن الزبير لأنه ابن أختها أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهم - وقال ابن جرير ، حدثنى محمد بن سعد حدثنى عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس قال : ان الله قذف فى قلب أبى سفيان الرعب يوم أحد بعدما كان منه ما كان فرجع إلى مكة فقال النبى ﷺ « إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفا ، وقد رجع وقد قذف الله فى قلبه الرعب » وكانت وقعة أحد فى شوال وكان التجار يقدمون المدينة فى ذى القعدة فينزلون ببدر الصغرى فى كل سنة مرة وإنهم قدموا بعد وقعة أحد ، وكان أصاب المؤمنين القرح واشتكوا ذلك إلى النبى ﷺ واشتد عليهم الذى أصابهم وإن رسول الله ﷺ ندب الناس لينطلقوا معه ويتبعوا ما كانوا متبعين وقال « إنما يرتحلون الآن فيأتون الحج ولا يقدرون على مثلها حتى عام مقبل » فجاء الشيطان يخوف أولياءه فقال : إن الناس قد جمعوا لكم ، فأبى عليه الناس أن يتبعوه وقال « إنى ذاهب وان لم يتبعنى أحد لأحضض الناس » فانتدب معه الصديق وعمر وعثمان وعلى والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف وعبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح فى سبعين رجلا فساروا فى طلب أبى سفيان فطلبوه حتى بلغوا الصفراء فأنزل الله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) الآية . ثم قال ابن إسحق فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثمانية أميال ، قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة ، وقد مر به كما حدثنى عبدالله بن أبى بكر معبد بن أبى معبد الخزاعى وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئا كان بها ، ومعبد يومئذ كان مشركا فقال : يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم خرج رسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقالوا: أصبنا محمداً وأصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ لنكرن على بقيتهم ثم لنفرغن منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبدا قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال محمد وأصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم بشىء لم أر مثله قط قال : ويلك ماتقوله قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل قال فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم قال فانى أنهاك عن ذلك ووالله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتا من شعر قال وما قلت : قال قلت

كادت تهد من الأصوات راحلتى * إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل * تردى بأسد كرام لا تنابلة

عند اللقاء ولا ميل معازيل * فظلت أعدو أظن (٢) الأرض مائلة * لما سموا برئيس غير مخذول

(١) فى نسخة الأزهر : عباس . (٢) وفيها : عدوا .

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم * إذا تغطمطت البطحاء بالخيل * إني نذير لأهل السيل ضاحية
لكل ذي إربة منهم ومعقول * من جيش أحمد لا وخش تنابلة * وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

قال فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ومر به ركب من عبد القيس فقال أين تريدون ، قالوا نريد المدينة قال ولم ، قالوا نريد الميرة ، قال فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها اليه وأحمل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذ وافيتمونا ، قالوا نعم قال فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير اليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل. وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة قال : قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعهم «والذي نفسي بيده لقد سوّمت لهم حجارة لو أصبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب» وقال الحسن البصري في قوله (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) ان أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا فقال رسول الله ﷺ ان أبا سفيان قد رجع وقد قذف الله في قلبه الرعب فمن ينتدب في طلبه فقام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبعوهم فبلغ أبا سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم يطلبه فلقي عيرا من التجار فقال ردوا محمدا ولكم من الجعل كذا وكذا وأخبروهم أني قد جمعت جموعا وأني راجع اليهم فجاء التجار فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم « حسبنا الله ونعم الوكيل » فأنزل الله هذه الآية ، وهكذا قال عكرمة وقتادة وغير واحد ان هذا السياق نزل في شأن غزوة حمراء الأسد وقيل نزلت في بدر الموعد والصحيح الأول ، وقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً) الآية أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وقال البخاري حدثنا أحمد بن يونس قال أراه قال حدثنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . وقد رواه النسائي عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم وهرون بن عبد الله كلاهما عن يحيى بن أبي بكر عن أبي بكر وهو ابن عياش به والعجب أن الحاكم أبا عبد الله رواه من حديث أحمد بن يونس به ثم قال صحيح الاسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ثم رواه البخاري عن أبي غسان مالك بن إسماعيل عن إسرائيل عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار : حسبنا الله ونعم الوكيل وقال عبد الرزاق قال ابن عيينة وأخبرني زكريا عن الشعبي عن عبد الله بن عمرو قال: هي كلمة إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار رواه ابن جرير وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا إبراهيم بن موسى الثوري حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن زياد السكري أنبأنا أبو بكر بن عياش عن حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قيل له يوم أحد إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فأنزل الله هذه الآية وروى أيضا بسنده عن محمد بن عبد الله الرافعي عن أبيه عن جده أبي رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم وجه عليا في نفر معه في طلب أبي سفيان فلقيهم أعرابي من خزاعة فقال ان القوم قد جمعوا لكم فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فنزلت فيهم هذه الآية ثم قال ابن مردويه حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا الحسن بن سفيان أنبأنا أبو خيثمة بن مصعب بن سعد أنبأنا موسى بن أعين عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » هذا حديث غريب من هذا الوجه ـ وقد قال الإمام أحمد : حدثنا حيوة بن شريح وإبراهيم بن أبي العباس قالا : حدثنا بقية حدثنا يحيى بن سعيد عن خالد بن معدان عن سيف عن عوف بن مالك أنه حدثهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي ﷺ « ردوا عليّ الرجل» فقال «ما قلت؟» قال قلت حسبي الله ونعم الوكيل » فقال النبي ﷺ « إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » وكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث بقية عن يحيى بن خالد عن سيف وهو الشامي ولم ينسب عن عوف بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ـ وقال الإمام

أحمد حدثنا أسباط حدثنا مطرف عن عطية عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ» فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما نقول؟ قال «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» وقد روى هذا من غير وجه وهو حديث جيد وقد روينا عن أم[1] المؤمنين زينب وعائشة رضى الله عنهما أنهما تفاخرتا فقالت زينب زوجنى الله وزوجكن أهاليكن وقالت عائشة نزلت براءتى من السماء فى القرآن فسلمت لها زينب ثم قالت كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل قالت قلت حسبي الله ونعم الوكيل قالت زينب قلت كلمة المؤمنين ولهذا قال تعالى (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) أى لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم (بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) مما أضمر لهم عدوهم (واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) وقال البيهقى حدثنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو بكر بن داود الزاهد حدثنا محمد بن نعيم حدثنا بشر بن الحكم حدثنا مبشر بن عبد الله بن رزين حدثنا سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل) قال النعمة أنهم سلموا والفضل أن عيراً مرت فى أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالا فقسمه بين أصحابه وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قول الله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) قال هذا أبو سفيان قال لمحمد صلى الله عليه وسلم موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا فقال محمد ﷺ «عسى» فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعده حتى نزل بدراً فوافقوا السوق فيها فابتاعوا فذلك قول الله عز وجل (فانقلبوا بنعمة الله وفضل لم يمسسهم سوء) الآية قال وهى غزوة بدر الصغرى رواه ابن جرير وروى أيضا عن القاسم عن الحسين عن حجاج عن ابن جريج قال لما عمد رسول الله ﷺ لموعد أبى سفيان فجعلوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يكيدونهم بذلك يريدون أن يرعبوهم فيقول المؤمنون حسبنا الله ونعم الوكيل حتى قدموا بدرا فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد قال فقدم رجل من المشركين فأخبر أهل مكة بخيل محمد وقال فى ذلك

نفرت قلوصى من خيول محمد وعجوة منثورة كالعنجد
واتخذت ماء قديد موعدى

قال ابن جرير هكذا أنشدنا القاسم وهو خطأ إنما هو

قد نفرت من رفقتى محمد وعجوة من يثرب كالعنجد
فهى على دين أبيها الأتلد قد جعلت ماء قديد موعد
وماء ضجنان لها ضحى الغد

ثم قال تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة قال الله تعالى (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا على والجأوا إلى فانى كافيكم وناصركم عليهم كما قال تعالى (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه) إلى قوله (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) وقال تعالى (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) وقال تعالى (أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وقال (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال (ولينصرن الله من ينصره) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم) الآية وقال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار)

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ

(١) الظاهر أن يقال: عن أمى المؤمنين بالتثنية.

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق ، فقال تعالى : ولا يحزنك ذلك (إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله أن لا يجعل لهم حظا فى الآخرة) أى حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة (ولهم عذاب عظيم) : ثم قال تعالى مخبرا عن ذلك إخبارا مقررا (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان) أى استبدلوا هذا بهذا (لن يضروا الله شيئا) أى ولكن يضرون أنفسهم (ولهم عذاب أليم)؛ ثم قال تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) كقوله (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) وكقوله (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وكقوله (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) . ثم قال تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) أى لابد أن يعقد شيئا[1] من المحنة ، يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه . يعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعنى بذلك يوم أحد الذى امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ؛ وهتك به ستار المنافقين. فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد ، وقال قتادة : ميز بينهم بالجهاد والهجرة ، وقال السدى : قالوا إن كان محمد صادقا فليخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر به فأنزل الله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) أى حتى يخرج المؤمن من الكافر روى ذلك كله ابن جرير ـ ثم قال تعالى (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) أى أنتم لا تعلمون غيب الله فى خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق لولا مايعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك . ثم قال تعالى (ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء) كقوله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) ثم قال تعالى (فآمنوا بالله ورسله) أى أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم (وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) . وقوله تعالى (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم) أى لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه فى دينه ، وربما كان فى دنياه . ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) ، قال البخارى : حدثنا عبد الله بن منير سمع أبا النضر حدثنا عبد الرحمن هو ابن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى بشدقيه ـ ثم يقول أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم) إلى آخر الآية : تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه ابن حبان فى صحيحه من طريق الليث بن سعد عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبى صالح به

(١) فى نسخة الأزهر : سببا

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « إن الذى لا يؤدى زكاة ماله يمثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ثم يلزمه يطوقه يقول : أنا مالك أنا كنزك » وهكذا رواه النسائي عن الفضل بن سهل عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة به ثم قال النسائي ورواية عبد العزيز عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أثبت من رواية عبد الرحمن عن أبيه عبد الله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة (قلت) ولا منافاة بين الروايتين ، فقد يكون عند عبد الله بن دينار من الوجهين والله أعلم ، وقد ساقه الحافظ أبو بكر بن مردويه من غير وجه عن أبي صالح عن أبي هريرة. ومن حديث محمد بن حميد(١) عن زياد الخطمي عن أبي هريرة به (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن جامع عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ قال « مامن عبد لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له شجاع أقرع يتبعه(٢) يفر منه فيتبعه فيقول(٣) أنا كنزك » ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله (سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة) وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة عن جامع بن أبي راشد ، زاد الترمذي وعبد الملك بن أعين كلاهما عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود به ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي بكر بن عياش وسفيان الثوري كلاهما عن أبي إسحق السبيعي عن أبي وائل عن ابن مسعود به ورواه ابن جرير من غير وجه عن ابن مسعود موقوفا . (حديث آخر) قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أمية بن بسطام حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد بن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان عن النبي ﷺ قال « من ترك بعده كنزا مثل له شجاعا أقرع(٤) له زبيبتان يتبعه فيقول : من أنت ويلك فيقول : أنا كنزك الذى خلفت بعدك فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبع سائر جسده » إسناده جيد قوي ولم يخرجوه . وقد رواه الطبراني عن جرير بن عبد الله البجلي ورواه ابن جرير وابن مردويه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « لا يأتي الرجل مولاه فيسأله من فضل ماله عنده فيمنعه إياه إلا دعا له يوم القيامة شجاعا يتلمظ فضله الذى منع » لفظ ابن جرير وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود عن أبي قزعة عن رجل عن النبي ﷺ قال « مامن ذى رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده فيبخل به عليه إلا خرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه » ثم رواه من طريق أخرى عن أبي قزعة واسمه حجر بن بيان عن أبي مالك العبدي موقوفا ، ورواه من وجه آخر عن أبي قزعة مرسلا . وقال العوفي عن ابن عباس : نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها ، رواه ابن جرير والصحيح الأول وإن دخل هذا في معناه ، وقد يقال إن هذا أولى بالدخول والله سبحانه وتعالى أعلم وقوله تعالى (ولله ميراث السموات والأرض) أي (فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا من أموالكم ماينفعكم يوم معادكم (والله بما تعملون خبير) أي بنياتكم وضمائركم

﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس . لما نزل قوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) قالت اليهود . يا محمد . افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)

(١) فيها ابن أبي حمية (٢) وفيها : وهو يتبعه (٣) وفيها ويقول (٤) زاد فيها يوم القيامة .

الآية ؟ رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم . وقال محمد بن إسحق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس[1] فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له أشيع فقال له أبو بكر : ويحك يافنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والانجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر مابنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ماتتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر رضى الله عنه فضرب وجه فنحاص ضربا شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك ياعدو الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يامحمد أبصر ماصنع بى صاحبك فقال رسول الله ﷺ « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر » فقال : يارسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه فجحد فنحاص ذلك وقال : ماقلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص[2] (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) الآية . رواه ابن أبي حاتم وقوله (سنكتب ماقالوا) تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله (وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ولهذا قال تعالى (ونقول ذوقوا عذاب الحريق* ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً وقوله تعالى (الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لانؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) يقول تعالى تكذيباً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم فى كتبهم أن لايؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها. قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. قال الله عز وجل (قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات) أى بالحجج والبراهين (وبالذى قلتم) أى وبنار تأكل القرابين المتقبلة .(فلم قتلتموهم) أى فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم (إن كنتم صادقين)أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل ـ ثم قال تعالى مسليا لنبيه محمد ﷺ (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) أى لايوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ماجاءوا به من البينات وهى الحجج والبراهين القاطعة (والزبر) وهى الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين (والكتاب المنير) أى الواضح الجلى

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ * لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

يخبر تعالى إخباراً عاما يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فهو تعالى وحده الحى الذى لايموت والجن والانس يموتون وكذلك الملائكة وحملة العرش وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخرا كما كان أولا وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لايبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت فاذا انقضت المدة وفرغت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها كثيرها وقليلها كبيرها وصغيرها فلايظلم أحدا مثقال ذرة ولهذا قال تعالى (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) قال ابن أبي حاتم حدثنا عبد العزيز الأويسى حدثنا على بن أبي على الهاشمى عن جعفر بن محمد على بن الحسين عن أبيه عن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال : لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه ولايرون شخصه فقال : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته (كل نفس

---
(١) المدراس : المعلم المدرس (٢) زاد فيها : ردا وتصديقا لأبى بكر .

ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا وإياه فارجوا فان المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، قال جعفر بن محمد فأخبرنى أبى أن على بن أبى طالب قال أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام . وقوله (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) أى من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد ابن عبد الله الأنصارى حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) » هذا حديث ثابت فى الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة : وقد رواه بدون هذه الزيادة أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث محمد بن عمرو . هذا ورواه ابن مردويه من وجه آخر فقال : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يحيى أنبأنا حميد بن مسعدة أنبأنا عمرو بن على عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « لموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » قال ثم تلا هذه الآية (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) وتقدم عند قوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ما رواه وكيع بن الجراح فى تفسيره عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده عن وكيع به وقوله تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال (وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى) وفى الحديث « والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم اصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع إليه » وقال قتادة فى قوله تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) قال : هى متاع متروكة أو شكت والله الذى لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله وقوله تعالى (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم) كقوله تعالى (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) إلى آخر الآيتين . أى لابد أن يبتلى المؤمن فى شىء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ويبتلى المؤمن على قدر دينه ، فان كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلياً لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله فقال تعالى (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب بن أبى حمزة عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال : كان النبى ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى قال الله تعالى (ولتسمعن من الذين أوتو الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) قال : وكان رسول الله ﷺ يتأول فى العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم ، هكذا ذكره مختصرا . وقد ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية مطولا فقال : حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد حدثه أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر على مجلس فيه عبدالله بن أبى ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم ابن أبى(1) وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين ، وفى المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبى أنفه بردائه وقال: لاتغبروا علينا ، فسلم رسول الله ﷺ ، ثم وقف ، فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبى أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا . ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه بلى يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود

(1) أى قبل أن يظهر الإسلام كما قال القسطلانى وغيره فهو رأس المنافقين

حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي ﷺ « يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب » يريد عبد الله بن أبي ، قال كذا وكذا فقال سعد يا رسول الله اعف عنه واصفح فو الذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله تعالى (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) الآية ـ وقال تعالى (ودكثيرمن أهل الكتاب لويردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) الآية وكان النبي ﷺ يتأول فى العفو ماأمره الله به حتى أذن الله له فيهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبى ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام فبايعوا وأسلموا ـ فكل من قام بحق أو أمر بمعروف، أونهى عن منكر فلابد أن يؤذى فما له دواء إلا الصبر فى الله ، والاستعانة بالله ، والرجوع إلى الله

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوى السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم . وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئا ، فقد ورد فى الحديث المروى من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» وقوله تعالى (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) الآية ، يعنى بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا كما جاء فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم « من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة » وفى الصحيحين أيضا « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور » وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى ابن أبى مليكة أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره أن مروان قال: اذهب يا رافع لبوابه إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعين فقال ابن عباس مالكم وهذه ، إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون *لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بمالم يفعلوا) الآية . وقال ابن عباس : سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه ، وهكذا رواه البخارى فى التفسير ومسلم والترمذى والنسائى فى تفسيريهما ، وابن أبى حاتم ، وابن خزيمة، والحاكم فى مستدركه وابن مردويه، كلهم من حديث عبد الملك بن جريج بنحوه . ورواه البخارى أيضا من حديث ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن علقمة بن وقاص أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فذكره ـ وقال البخارى : حدثنا سعيد بن

أبي مريم أنبأنا محمد بن جعفر حدثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري: أن رجالا من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا اليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت (لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) الآية وكذا رواه مسلم من حديث ابن أبي مريم بنحوه وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث الليث بن سعد عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال: قال أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد ابن ثابت: كنا عند مروان فقال: يا أباسعيد أرأيت قوله تعالى (لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بمالم نفعل؟ فقال أبو سعيد: إن هذا ليس من ذاك، إنما ذاك أن ناسا من المنافقين يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثا، فان كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم، وان كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح، فقال مروان: أين هذا من هذا؟ فقال أبو سعيد: وهذا يعلم هذا؟ فقال مروان: أكذلك يازيد؟ قال نعم صدق أبو سعيد: ثم قال أبو سعيد، وهذا يعلم ذاك - يعني رافع بن خديج ولكنه يخشى إن أخبرك أن تنزع قلائصه في الصدقة، فلما خرجوا قال زيد لأبي سعيد الخدري: ألا تحمدني على ماشهدت لك؟ فقال له أبو سعيد: شهدت الحق فقال زيد: أولا تحمدني على ماشهدت الحق؟ ثم رواه من حديث مالك عن زيد بن أسلم عن رافع بن خديج أنه كان هو وزيد بن ثابت عند مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة، فقال مروان: يارافع في أي شيء نزلت هذه الآية؟ فذكره كما تقدم عن أبي سعيد رضي الله عنهم، وكان مروان يبعث بعد ذلك يسأل ابن عباس كما تقدم؟ فقال له ماذكرناه: ولا منافاة بين ماذكره ابن عباس وماقاله هؤلاء لأن الآية عامة في جميع ماذكر والله أعلم وقد روى ابن مردويه أيضا من حديث محمد بن عتيق وموسى بن عقبة عن الزهري عن محمد بن ثابت الأنصاري أن ثابت بن قيس الأنصاري قال: يارسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكت قال «لم؟» قال، نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل وأجدني أحب الحمد، ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال: ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وانا امرؤ جهير الصوت، فقال رسول الله ﷺ «أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة» فقال بلى يارسول الله فعاش حميدا وقتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب - وقوله تعالى (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الاخبار عنهم أي لا تحسب أنهم ناجون من العذاب، بل لابد لهم منه، ولهذا قال تعالى (ولهم عذاب أليم) ثم قال تعالى (ولله ملك السموات والأرض، والله على كل شيء قدير) أي هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا غضبه ونقمته، فإنه العظيم الذي لاأعظم منه القدير الذي لا أقدر منه

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

قال الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحق التستري حدثنا يحي الحماني حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بم جاءكم موسى؟ قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين وأتوا النصارى

فقالوا كيف كان عيسى ؟ قالوا كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فأتوا النبي ﷺ فقالوا : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهبا ، فدعا ربه فنزلت هـذه الآية (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) فليتفكروا فيها . وهذا مشكل ، فان هذه الآية مدنية . وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبا كان بمكة والله أعلم ومعنى الآية أن الله تعالى يقول (إن فى خلق السموات والأرض) أى هذه فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها . وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص (واختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر . فتارة يطول هذا ويقصر هذا . ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيرا ، ويقصر الذى كان طويلا وكل ذلك تقدير العزيز العليم . ولهذا قال تعالى (لآيات لأولى الألباب) أى العقول التامة الزكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها . وليسوا كالصم البكم الذين لايعقلون ، الذين قال الله فيهم (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) كما ثبت فى الصحيحين عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال « صل قائما ، فان لم تستطع فقاعدا ، فان لم تستطع فعلى جنبك » أى لايقطعون ذكره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) أى يفهمون مافيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته . وقال الشيخ أبوسليمان الدارانى : إنى لأخرج من منزلى فمايقع بصرى على شىء إلارأيت لله على فيه نعمة ولى فيه عبرة . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التوكل والاعتبار . وعن الحسن البصرى أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضيل : قال الحسن الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك وربما تمثل بهذا البيت :

إذا المرء كانت له فكرة * ففى كل شىء له عبرة

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : طوبى لمن كان قيله تذكرا . وصمته تفكرا ونظره عبرا . قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة . وقال وهب بن منبه : ماطالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلا علم ، ولا علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبدالعزيز : الكلام بذكر الله عز وجل حسن . والفكرة فى نعم الله أفضل العبادة . وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم . وشاهدوا الموقف بقلوبكم . وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار . وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها . وكان يبكى عند ذلك حتى يرفع صريعا من بين أصحابه قد ذهب عقله . وقال عبد الله بن المبارك : مر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال : ياراهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر . كنز الرجال وكنز الأموال. وعن ابن عمر : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : (كل شىء هالك إلا وجهه) وعن ابن عباس أنه قال : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه . وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم كل فى ثلث بطنك . واشرب فى ثلثه . ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة. وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة . وقال بشر بن الحارث الحافى : لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه . وقال الحسن عن عامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الايمان التفكر . وعن عيسى عليه السلام أنه قال : يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت . وكن فى الدنيا ضعيفاً . واتخذ المساجد بيتا . وعلم عينيك البكاء . وجسدك الصبر وقلبك الفكر ولاتهتم برزق غد . وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه بكى يوما بين أصحابه فسئل عن ذلك ، فقال فكرت فى الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ماتكاد شهواتها تنقضى حتى تكدرها مرارتها ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادكر . وقال ابن أبى الدنيا : أنشدنى الحسين بن عبدالرحمن :

نزهة المؤمن الفكر * لذة المؤمن العبر نحمد الله وحده * نحن كل على خطر
رب لاه وعمره * قد تقضى وما شعر رب عيش قد كان فو * ق المنى مونق الزهر
فى خرير من العيو * ن وظل من الشجر وسرور من النبا * ت وطيب من الثمر
غيرته وأهله * سرعة الدهر بالغير نحمد الله وحده * إن فى ذا لمعتبر
إن فى ذا لعبرة * للبيب إن اعتبر

وقد ذم الله تعالى من لايعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال : (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ومدح عباده المؤمنين (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) قائلين (ربنا ماخلقت هذا باطلا) أى ماخلقت هذا الخلق عبثا ، بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا (سبحانك) أى عن أن تخلق شيئا باطلا (فقنا عذاب النار) أى يامن خلق الخلق بالحق والعدل ؛ يامن هو منزه عن النقائص والعيب والعبث . قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقضينا لأعمال ترضى بها عنا . ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم . وتجيرنا به من عذابك الأليم . ثم قالوا (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) أى أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع (وماللظالمين من أنصار) أى يوم القيامة لامجير لهم منك . ولا محيد لهم عما أردت بهم (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان) أى داعيا يدعو إلى الإيمان . وهو الرسول ﷺ (أن آمنوا بربكم فآمنا) أى يقول آمنوا بربكم فآمنا أى فاستجبنا له واتبعناه أى بإيماننا واتباعنا نبيك (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) أى استرها (وكفر عنا سيئاتنا) فيما بيننا وبينك (وتوفنا مع الأبرار) أى ألحقنا بالصالحين (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك) قيل : معناه على الإيمان برسلك ، وقيل : معناه على ألسنة رسلك. وهذا أظهر — وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمرو بن محمد عن أبى عقال عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عسقلان أحد العروسين يبعث الله منها يوم القيامة سبعين ألفاً لاحساب عليهم ويبعث منها خمسين ألفا شهداء وفود إلى الله ، وبها صفوف الشهداء رؤوسهم مقطعة فى أيديهم تثج أوداجهم دما يقولون : (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد) فيقول الله : صدق عبيدى اغسلوهم بنهر البيضة . فيخرجون منه نقاء بيضاً . فيسرحون فى الجنة حيث شاءوا » وهذا الحديث يعد من غرائب المسند ، ومنهم من يجعله موضوعا والله أعلم (ولا تخزنا يوم القيامة) أى على رءوس الخلائق (إنك لاتخلف الميعاد) أى لا بد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك : وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الحافظ أبو شريح[1] حدثنا المعتمر حدثنا الفضل بن عيسى حدثنا محمد بن المنكدر أن جابر بن عبد الله حدثه أن رسول الله ﷺ قال « العار والتخزية تبلغ من ابن آدم فى القيامة فى المقام بين يدى الله عز وجل مايتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار » حديث غريب . وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده فقال البخارى رحمه الله : حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا محمد بن جعفر أخبرنى شريك بن عبد الله ابن أبى نمر عن كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت عند خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد : فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) الآيات . ثم قام فتوضأ واستن . ثم صلى إحدى عشرة ركعة . ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح . وهكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن إسحق الصنعانى عن ابن أبى مريم به ثم رواه البخارى من طرق عن مالك عن مخرمة بن سليمان عن كريب أن ابن عباس أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وهى خالته قال : فاضطجعت فى عرض الوسادة ، واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله فى طولها ، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف ذا الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من منامه فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده . ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن معلقة

(١) فى نسخة الأزهر : الحارث بن شريح ولم نجد هذا ولا ذاك .

فتوضأ منها فأحسن وضوءه ؛ ثم قام يصلى قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقمت فصنعت مثل ماصنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه ، فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسى وأخذ بأذنى اليمنى ففتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن ؛ فقام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلى الصبح . وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن مالك به . ورواه مسلم أيضاً وأبو داود من وجوه أخر عن مخرمة بن سليمان به طريق أخرى) لهذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن على حدثنا أبو يحيى عن أبى ميسرة أنبأنا خلاد بن يحيى أنبأنا يونس عن أبى إسحق عن المنهال بن عمرو عن على بن عبد الله بن عباس عن عبد الله بن عباس قال : أمرنى العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته . قال : فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الأخيرة حتى إذا لم يبق فى المسجد أحد غيرى قام فمر بى فقال من هذا ؟ عبد الله قلت : نعم ، قال فمه ؟ قلت مرنى العباس أن أبيت بكم الليلة . قال : «فالحق الحق » فلما دخل قال : افرش[1] عبد الله ؟ قال : فأتى بوسادة من مسوح قال فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سمعت غطيطه ثم استوى على فراشه قاعدا قال : فرفع رأسه إلى السماء فقال « سبحان الملك القدوس » ثلاث مرات ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها . وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى من حديث على بن عبد الله بن عباس عن أبيه حديثاً فى ذلك أيضا (طريق أخرى) رواها ابن مردويه من حديث عاصم بن بهدلة عن بعض أصحابه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) إلى آخر السورة . ثم قال « اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا وعن يمينى نورا وعن شمالى نورا ومن بين يدى نورا ومن خلفى نورا ومن فوقى نورا ومن تحتى نورا وأعظم لى نورا يوم القيامة » وهذا الدعاء ثابت فى بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس رضى الله عنه . ثم روى ابن مردويه وابن أبى حاتم من حديث جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى من الآيات ؟ قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا كيف كان عيسى فيكم ؟ فقالوا كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى . فأتوا النبى ﷺ فقالوا : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا فدعا ربه عز وجل ، فنزلت (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) قال فليتفكروا فيها ؛ لفظ ابن مردويه . وقد تقدم هذا الحديث من رواية الطبرانى فى أول الآية وهذا يقتضى أن تكون هذه الآيات مكية والمشهور أنها مدنية ودليله الحديث الآخر . قال ابن مردويه : حدثنا على بن إسماعيل حدثنا أحمد بن على الحرانى حدثنا شجاع بن أشرس حدثنا حشرج بن نباتة الواسطى حدثنا أبو مكرم عن الكلبى وهو ابن جناب[2] عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت ياعبيد مايمنعك من زيارتنا . قال: قول الشاعر * زرغبا تزدد حبا * فقال ابن عمر ذرينا أخبرينا بأعجب ما رأيتيه من رسول الله ﷺ ، فبكت وقالت كل أمره كان عجبا أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال « ذرينى أتعبد لربى عز وجل » قالت : فقلت والله إنى لأحب قربك وإنى أحب أن تعبد ربك فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت فقال : يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر : فقال « ويحك يابلال ومايمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله علىّ فى هذه الليلة (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) » ثم قال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » وقد رواه عبد بن حميد فى تفسيره عن جعفر بن عوف[3] الكلبى عن أبى حباب عطاء قال : دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى فى خدرها ، فسلمنا عليها فقالت من هؤلاء : قال فقلنا هذا عبد الله بن عمر وعبيد بن عمير. قالت ياعبيد بن عمير مايمنعك من زيارتنا . قال ماقال الأول * زرغبا تزدد حبا * قالت إنا لنحب زيارتك وغشيانك . قال عبد الله بن عمر دعينا من بطالتكما هذه . أخبرينا بأعجب مارأيت من رسول الله ﷺ قال فبكت ثم قالت كل أمره كان عجبا . أتانى فى ليلتى حتى دخل معى فى فراشى حتى لصق جلده بجلدى ثم قال «ياعائشة

(١) فيها : افرشا (٢) الصواب : أبو جناب (٣) الصواب : ابن عون عن أبى جناب .

ائذنى لى أتعبد لربى » قالت إنى لأحب قربك وأحب هواك، قالت فقام إلى قربة فى البيت فما أكثر صب الماء، ثم قام فقرأ القرآن ثم بكى حتى رأيت أن دموعه قد بلغت حقويه ؛ قالت ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت حجره قالت ثم اتكأ على جنبه الأيمن ووضع يده تحت خده، قالت ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت الأرض فدخل عليه بلال فآذنه بصلاة الفجر ثم قال الصلاة يارسول الله فلما رآه بلال يبكى قال يارسول الله تبكى وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فقال « يا بلال أفلا أكون عبداً شكورا ؟ ومالى لا أبكى وقد نزل على الليلة (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) إلى قوله (سبحانك فقنا عذاب النار - ثم قال - ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها » وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه عن عمران بن موسى عن عثمان بن أبى شيبة عن يحيى بن زكريا عن إبراهيم بن سويد النخعى عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء قال دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فذكر نحوه وهكذا رواه عبد الله بن محمد ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر والاعتبار عن شجاع بن أشرس به ثم قال: حدثنى الحسن بن عبد العزيز: سمعت سنيدا يذكر عن سفيان هو الثورى رفعه قال « من قرأ آخر آل عمران فلم يتفكر فيها ويله » يعد بأصابعه عشرا - قال الحسن بن عبد العزيز فأخبرنى عبيد بن السائب قال: قيل للأوزاعى ماغاية التفكر فيهن؟ قال. يقرؤهن وهو يعقلهن . قال ابن أبى الدنيا . وحدثنى قاسم بن هاشم حدثنا على بن عياش حدثنا عبد الرحمن بن سليمان قال : سألت الأوزاعى عن أدنى مايتعلق به المتعلق من الفكر فيهن وماينجيه من هذا الويل ؟ فأطرق هنيهة ثم قال : يقرؤهن وهو يعقلهن (حديث آخر) فيه غرابة. قال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحمن بن بشير بن نمير حدثنا إسحق بن إبراهيم البستى (ح) قال وحدثنا إسحق بن إبراهيم بن زيد حدثنا أحمد بن عمرو قال أنبأنا هشام بن عمار أنبأنا سليمان بن موسى الزهرى أنبأنا مظاهر بن أسلم المخزومى أنبأنا سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريره قال ، كان رسول الله ﷺ يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة . مظاهر بن أسلم ضعيف

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾

يقول تعالى (فاستجاب لهم ربهم) أى فأجابهم ربهم كما قال الشاعر :

وداع دعا : يامن يجيب إلى الندا   فلم يستجبه عند ذاك مجيب

قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن سلمة رجل من آل أم سلمة قال: قالت أم سلمة يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء . فأنزل الله تعالى (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) إلى آخر الآية . وقالت الأنصار هى أول ظعينة قدمت علينا ، وقد رواه الحاكم فى مستدركه من حديث سفيان ابن عيينة . ثم قال صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه وقد روى ابن أبى نجيح عن مجاهد عن أم سلمة قالت: آخر آية نزلت هـذه الآية . (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) إلى آخرها . رواه ابن مردويه ، ومعنى الآية أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك بفاء التعقيب كما قال تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان . فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) وقوله تعالى (أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) هذا تفسير للاجابة أى قال لهم مخبرا(١) أنه لا يضيع عمل عامل منكم(٢) لديه ، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى وقوله (بعضكم من بعض) أى جميعكم فى ثوابى سواء (فالذين هاجروا) أى تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران (وأخرجوا من ديارهم) أى ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ولهذا قال (وأوذوا فى سبيلى) أى إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) وقال تعالى (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)

(١) فى نسخة الأزهر : مجيبا لهم   (٢) الظاهر أن يقول : منهم أو تحذف كما فى نسخة الأزهر

وقوله تعالى (وقاتلوا وقتلوا) وهذا أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه ، وقد ثبت فى الصحيحين أن رجلا قال يا رسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله صابرا محتسباً مقبلا غير مدبر ، أيكفر الله عنى خطاياى ؟ قال « نعم » ثم قال « كيف قلت » فأعاد عليه ما قال . فقال « نعم . إلا الدين قاله لى جبريل آنفاً » ولهذا قال تعالى (لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى تجرى فى خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقوله (ثوابا من عند الله) أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزيلا كثيراً كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراما وإن يعـ ـط جزيلا فانه لا يبالى

وقوله تعالى (والله عنده حسن الثواب) أى عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحا . قال ابن أبى حاتم ذكر عن دحيم بن إبراهيم قال حدثنا الوليد بن مسلم أخبرنى جرير بن عثمان أن شداد بن أوس كان يقول أيها الناس لا تتهموا الله فى قضائه فانه لا يبغى على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئا مما يحب فليحمد الله وإذا أنزل به شيئا مما يكره فليصبر وليحتسب فان الله عنده حسن الثواب

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾

يقول تعالى لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور ، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجا وجميع ما هم فيه (متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وهذه الآية كقوله تعالى (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) وقال تعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقال تعالى (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقال تعالى (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) أى قليلا وقال تعالى (أفمن وعدناه وعداحسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) وهكذا لما ذكر حال الكفار فى الدنيا وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار) وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن نصر حدثنا أبو طاهر سهل بن عبد الله أنبأنا هشام بن عمار أنبأنا سعيد أنبأنا يحيى أنبأنا عبيد الله ابن الوليد الرصافى عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال « إنما سموا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقا كذا لولدك عليك حق » كذا رواه ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص مرفوعا ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن جناب حدثنا عيسى بن يونس عن عبد الله بن الوليد الرصافى عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمر وقال إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق ، وهذا أشبه والله أعلم . ثم قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائى عن رجل عن الحسن قال الأبرار الذين لا يؤذون الذر . وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن خيثمة عن الأسود قال : قال عبد الله يعنى ابن مسعود ما من نفس برة ولا فاجرة إلا الموت خير لها لئن كان برا لقد قال الله تعالى (وما عند الله خير للأبرار) وكذا رواه عبد الرزاق عن الثورى عن الأعمش به وقرأ (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا إسحق حدثنا ابن أبى جعفر عن نوح بن فضالة عن لقمان عن أبى الدرداء أنه كان يقول ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقنى فإن الله يقول (وما عند الله خير للأبرار) ويقول (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين)

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ

بِئَايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَـٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ماهم مؤمنون به من الكتب المتقدمة وأنهم خاشعون لله أى مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا أى لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانو هوداً أونصارى . وقد قال تعالى فى سورة القصص (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآية . وقد قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) الآية. وقد قال تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون) وقال تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) وقال تعالى (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) وهذه الصفات توجد فى اليهود ولكن قليلا كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس ، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق كما قال تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) إلى قوله تعالى (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) الآية وهكذا قال ههنا (أولئك لهم أجرهم عند ربهم) الآية وقد ثبت فى الحديث أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه لما قرأ سورة كهيعص بحضرة النجاشى ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساقسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم وثبت فى الصحيحين أن النجاشى لما مات نعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال « إن أخا لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه» فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه . وروى ابن أبى حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال لما توفى النجاشى قال رسول الله ﷺ « استغفروا لأخيكم » فقال بعض الناس يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة فنزلت (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية ورواه عبد بن حميد وابن أبى حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن عن النبى ﷺ ثم رواه ابن مردويه من طرق عن حميد عن أنس بن مالك نحو ما تقدم. ورواه أيضا ابن جرير من حديث أبى بكر الهذلى عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن جابر قال : قال لنا رسول الله ﷺ حين مات النجاشى « إن أخاكم أصحمة قد مات» فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى كما صلى على الجنائز فكبر أربعا . فقال المنافقون يصلى على علج مات بأرض الحبشة فأنزل الله (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) الآية. وقال أبو داود حدثنا محمد بن عمرو الرازى حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق حدثنى يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت لما مات النجاشى كنا نحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور . وقد روى الحافظ أبو عبد الله الحاكم فى مستدركه أنبأنا أبو العباس السيارى بمرو حدثنا عبد الله بن على الغزال حدثنا على بن الحسن بن شقيق حدثنا ابن المبارك حدثنا مصعب بن ثابت عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال نزل بالنجاشى عدو من أرضهم فجاءه المهاجرون فقالوا إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا فقال لداء[1] بنصر الله عز وجل خير من دواء بنصرة الناس قال وفيه نزلت (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية. ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (وإن من أهل الكتاب) يعنى مسلمة أهل الكتاب وقال عباد بن منصور سألت الحسن البصرى عن قول الله (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) الآية قال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم فاتبعوه وعرفوا الإسلام

(١) فى نسخة الأزهر : لادواء بنصرة الله الخ وهو موافق لما فى المستدرك المطبوع

فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذى كانوا عليه من الإيمان قبل محمد صلى الله عليه وسلم واتباعهم محمداً صلى الله عليه وسلم رواه ابن أبى حاتم ، وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين» فذكر منهم رجلا من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى وقوله تعالى (لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا) أى لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم بل يبذلون ذلك مجانا ولهذا قال تعالى (أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) قال مجاهد سريع الحساب يعنى سريع الاحصاء رواه ابن أبى حاتم وغيره وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) قال الحسن البصرى أمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم وكذلك قال غير واحد من علماء السلف ، وأما المرابطة فهى المداومة فى مكان العبادة والثبات وقيل انتظار الصلاة بعد الصلاة قاله ابن عباس وسهل بن حنيف ومحمد بن كعب القرظى وغيرهم وروى ابن ابى حاتم هٰهنا الحديث الذى رواه مسلم والنسائى من حديث مالك بن أنس عن العلاء بن عبد الرحمن عن يعقوب مولى الحرقة عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط» وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد حدثنا موسى بن إسحاق حدثنا أبو جحيفة على بن يزيد الكوفى أنبأنا ابن أبى كريمة عن محمد بن يزيد عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : أقبل علىّ أبو هريرة يوما فقال أتدرى يا ابن أخى فيم نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) قلت لا قال أما إنه لم يكن فى زمان النبى ﷺ غزو يرابطون فيه ولكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة فى مواقيتها ثم يذكرون الله بها فعليهم أنزلت (اصبروا) أى على الصلوات الخمس (وصابروا) أنفسكم وهواكم (ورابطوا) فى مساجدكم (واتقوا الله) فيما عليكم (لعلكم تفلحون) وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طريق سعيد بن منصور عن مصعب بن ثابت عن داود بن صالح عن أبى سلمة عن أبى هريرة بنحوه وقال ابن جرير حدثنى أبو السائب حدثنى ابن فضيل عن عبد الله بن سعيد المقبرى عن جده عن شرحبيل عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أدلكم على ما يكفر الذنوب والخطايا ؟ إسباغ الوضوء على المكاره وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط » وقال ابن جرير أيضا حدثنى موسى ابن سهل الرملى حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا محمد بن مهاجر حدثنى يحيى بن يزيد عن زيد بن أبى أنيسة عن شرحبيل عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويكفر به الذنوب ؟» قلنا بلى يا رسول الله قال « إسباغ الوضوء فى أماكنها وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط » وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن على أنبأنا محمد بن عبد الله بن سلام البرنوتى(١) أنبأنا محمد بن غالب الانطاكى أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن أنبأنا الوازع بن نافع عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى أيوب قال وفد علينا رسول الله ﷺ فقال « هل لكم إلى ما يمحو الله به الذنوب ويعظم به الأجر ؟» قلنا نعم يا رسول الله وماهو ؟ قال « إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة » قال وهو قول الله (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) فذلك هو الرباط فى المساجد » وهذا حديث غريب من هذا الوجه جداً . وقال عبد الله بن المبارك عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير حدثنى داود بن صالح قال : قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن يا ابن أخى هل تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية (اصبروا وصابروا ورابطوا) قال قلت لا قال إنه لم يكن يا ابن أخى فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو يرابط فيه ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة رواه ابن جرير ، وقد تقدم سياق ابن مردويه له وأنه من كلام أبى هريرة رضى الله عنه والله أعلم وقيل المراد بالمرابطة هٰهنا مرابطة الغزو فى نحو(٢) العدو وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين وقد وردت الأخبار بالترغيب فى ذلك وذكر كثرة الثواب فيه فروى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد الساعدى أن

(١) فى نسخة الأزهر : ابن عبد السلام البيروتى (٢) وفيها : نحور .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » (حديث آخر) روى مسلم عن سلمان الفارسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وان مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا ابن المبارك عن حيوة بن شريح أخبرنى أبو هانىء الخولانى أن عمرو بن مالك الجنبى أخبره أنه سمع فضالة ابن عبيد يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطاً فى سبيل الله فانه ينموله عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر » وهكذا رواه أبوداود والترمذى من حديث أبى هانىء الخولانى . وقال الترمذى حسن صحيح ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه أيضاً (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق حدثنا حسن بن موسى وأبوسعيد وعبد الله بن يزيد كلهم عن عبد الله بن لهيعة حدثنا مشرح ابن عاهان سمعت عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل ميت يختم له على عمله إلا المرابط فى سبيل الله يجرى عليه عمله حتى يبعث ويأمن الفتان » رواه الحارث بن محمد بن أبى المامة[1] فى مسنده عن المقبرى وهو عبد الله ابن يزيد إلى قوله « حتى يبعث » دون ذكر « الفتان » وابن لهيعة إذا صرح بالتحديث فهو حسن ولاسيما مع ما تقدم من الشواهد (حديث آخر) قال ابن ماجه فى سننه حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا عبدالله بن وهب أخبرنى الليث عن زهرة بن معبد عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « من مات مرابطاً فى سبيل الله أجرى عليه عمله الصالح الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع الأكبر » (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا موسى أنبأنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « من مات مرابطا وقى فتنة القبر وأمن من الفزع الأكبر وغدا عليه وريح برزقه من الجنة وكتب له أجر المرابط إلى يوم القيامة » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا إسماعيل بن عياش عن محمد بن عمرو بن حلحلة الديلى عن إسحق بن عبدالله عن أم الدرداء[2] ترفع الحديث قالت « من رابط فى شىء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزأت عنه رباط سنة » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا كهمس حدثنا مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال : قال عثمان وهو يخطب على منبره إنى محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعنى أن أحدثكم به إلا الظن[3] بكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » وهكذا رواه أحمد عن روح عن كهمس عن مصعب بن ثابت عن عثمان ، وقد رواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن مصعب بن ثابت عن عبدالله بن الزبير قال : خطب عثمان الناس فقال أيها الناس إنى سمعت من رسول الله ﷺ حديثا لم يمنعنى أن أحدثكم به إلا الظن[4] بكم وبصحابتكم فليختر مختار لنفسه أو ليدع » سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من رابط ليلة فى سبيل الله كانت كألف ليلة قيامها وصيامها » (طريق أخرى) عن عثمان رضى الله عنه قال الترمذى حدثنا الحسن بن على الخلال حدثنا هشام ابن عبدالملك حدثنا الليث بن سعد حدثنا أبو عقيل زهرة بن معبد عن أبى صالح مولى عثمان بن عفان قال سمعت عثمان وهو على المنبر يقول إنى كتمتكم حديثا سمعته من رسول الله ﷺ كراهية تفرقكم عنى ثم بدا لى أن أحدثكموه ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، قال محمد يعنى البخارى أبو صالح مولى عثمان اسمه بركان ، وذكر غير الترمذى أن اسمه الحارث والله أعلم وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة وعنده زيادة فى آخره فقال يعنى عثمان فليرابط امرؤ كيف شاء هل بلغت ؟ قالوا نعم قال اللهم اشهد (حديث آخر) قال أبو عيسى الترمذى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان حدثنا محمد بن المنكدر قال مر سلمان الفارسى بشرحبيل بن السمط وهو فى مرابط له وقد شق عليه وعلى أصحابه فقال : ألا أحدثك يا ابن السمط بحديث سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال بلى : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « رباط يوم فى سبيل الله أفضل — أو قال خير — من صيام شهر وقيامه ومن مات فيه وقى فتنة القبر ونمى له عمله إلى يوم القيامة » تفرد به الترمذى من هذا الوجه ، وقال هذا حديث حسن ، وفى بعض النسخ زيادة وليس إسناده بمتصل :

(١) فى نسخة الأزهر : ابن أبى أسامة . (٢) فى الدر المنثور : عن أبى الدرداء يرفع الحديث . (٣) فيها : إلا الضن . (٤) وفيها : الا الضن أيضا

وابن المنكدر لم يدرك سلمان (قلت) الظاهر ان محمد بن المنكدر سمعه من شرحبيل بن السمط وقد رواه مسلم والنسائي من حديث مكحول وأبي عبيدة بن عقبة كلاهما عن شرحبيل بن السمط وله صحبة عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان» وقد تقدم سياق مسلم بمفرده (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا محمد بن اسماعيل بن سمرة حدثنا محمد بن يعلى السلمي حدثنا عمرو بن صبيح عن عبد الرحمن بن عمرو عن مكحول عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «حرس[1] ليلة وراء عورة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أعظم أجراً من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها، ورباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أفضل عند الله وأعظم أجراً — أراه قال —: من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فإن رده الله تعالى إلى أهله سالما لم يكتب عليه سيئة ألف سنة، وتكتب له الحسنات. ويجري عليه أجر الرباط إلى يوم القيامة» هذا حديث غريب من هذا الوجه. بل منكر. وعمر بن صبيح متهم (حديث آخر) قال ابن ماجه: حدثنا عيسى بن يونس الرملي حدثنا محمد بن شعيب بن شابور عن سعيد بن خالد بن أبي طويل سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «حرس ليلة في سبيل الله خير من صيام رجل وقيامه في أهله ألف سنة. السنة ثلثمائة يوم، اليوم كألف سنة» وهذا حديث غريب أيضا وسعيد بن خالد هذا ضعفه أبو زرعة وغير واحد من الأئمة: وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه: وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به. وقال الحاكم روى عن أنس أحاديث موضوعة

(حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا محمد بن الصباح أنبأنا عبد العزيز بن محمد عن صالح بن محمد بن زائدة عن عمر بن عبد العزيز عن[2] عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحم الله حارس الحرس» فيه انقطاع بين عمر بن عبد العزيز وعقبة بن عامر فإنه لم يدركه والله أعلم (حديث آخر) قال أبو داود: حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية يعني ابن سلام[3] حدثني السلولي أنه حدثه سهل بن الحنظلة أنهم ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين حتى كانت عشية فحضرت الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل فارس فقال: يارسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فاذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشياههم، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله» ثم قال «من يحرسنا الليلة» قال أنس بن أبي مرثد: أنا يارسول الله قال «فاركب» فركب فرساله، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله ﷺ «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا تغز من قبلك الليلة» فلما أصبحنا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصلاه فركع ركعتين فقال «هل أحسستم فارسكم» فقال رجل: يارسول الله ما أحسسناه فثوب بالصلاه فجعل النبي ﷺ وهو يصلي يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته قال «أبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعلنا ننظر في خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء حتى وقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرتني. فلما أصبحنا طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل نزلت الليلة؟» قال: لا إلا مصليا أوقاضي حاجة، فقال له «أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها» ورواه النسائي عن محمد بن يحيي بن محمد بن كثير الحراني عن أبي توبة وهو الربيع بن نافع به (حديث آخر) قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب حدثنا عبد الرحمن بن شريح سمعت محمد بن شمير الرعيني يقول: سمعت أبا عامر البجيني[4]. قال الإمام أحمد: وقال غيره زائدا أبا على الحنفي يقول: سمعت أبا ريحانة يقول كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فأتينا ذات ليلة إلى شرف فبتنا عليه فأصابنا برد شديد حتى رأيت من يحفر في الأرض يدخل فيها ويلقي عليه الحجفة يعني الترس، فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس نادى «من يحرسنا هذه الليلة فأدعو له بدعاء يكون له فيه فضل»؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يارسول الله قال «ادن» فدنا منه، فقال «من أنت؟» فتسمى له الأنصاري ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء فأكثر منه» قال أبو ريحانة: فلما سمعت مادعا به قلت أنا رجل آخر فقال «ادن» فدنوت فقال «من أنت؟» قال: فقلت أبو ريحانة، فدعا بدعاء دون مادعا به للأنصاري ثم قال: «حرمت النار على

(١) في نسخة الأزهر: لرباط يوم في سبيل الله من وراء الخ (٢) وفيها عن عمرو بن عبد الرحمن عن عقبة (٣) وفيها عن زيد بن سلام
(٤) انظر الكلام عنه في الصفحة التالية.

عين دمعت ـ أو بكت ـ من خشية الله ، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله » وروى النسائى منه « حرمت النار » إلى آخره عن عصمة بن الفضل عن زيد بن الحباب به،وعن الحارث بن مسكين عن ابن وهب عن عبدالرحمن ابن شريح به وأتم وقال فى الروايتين عن أبى على البجيبى[1] . (حديث آخر) قال الترمذى حدثنا نصر بن على الجهضمى حدثنا بشر بن عمار وحدثنا شعيب بن زريق أبو شيبة عن عطاء الخراسانى عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله» ثم قال : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق ، قال وفى الباب عن عثمان وأبى ريحانة (قلت) وقد تقدما ولله الحمد والمنة . (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين عن زياد عن سهل ابن معاذ عن أبيه معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال « من حرس من وراء المسلمين متطوعا لا بأجرة سلطان لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول (وإن منكم إلا واردها)» تفرد به أحمد رحمه الله . ﴿ حديث آخر ﴾ روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة . إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله أشعث رأسه ، مغبرة قدماه إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع » فهذا آخر ما تيسر إيراده من الأحاديث المتعلقة بهذا المقام ، ولله الحمد على جزيل الأنعام ،على تعاقب الأعوام والأيام . وقال ابن جرير . حدثنى المثنى حدثنا مطرف بن عبد الله المدينى حدثنا مالك بن زيد بن أسلم قال كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر أما بعد فانه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله له بعدها فرجا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين وإن الله تعالى يقول(يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) وهكذا روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله ابن المبارك من طريق محمد بن إبراهيم بن أبى سكينة قال : أملى على عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وودعته للخروج ، وانشدها معى إلى الفضيل بن عياض فى سنة سبعين ، ومائة وفى رواية سنة سبع وسبعين ومائة

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا * لعلمت أنك فى العبادة تلعب * من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب * أو كان يتعب خيله فى باطل * فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا * رهج السنابك والغبار الأطيب * ولقد أتانا من مقال نبينا
قول صحيح صادق لا يكذب * لا يستوى غبار خيل الله فى * أنف امرىء ودخان نار تلهب
هـذا كتاب الله ينطق بيننا * ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه فى المسجد الحرام ،فلما قرأه ذرفت عيناه وقال صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى ثم قال . أنت ممن يكتب الحديث ؟ قال: قلت نعم قال فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبى عبد الرحمن إلينا وأملى على الفضيل بن عياض . حدثنا منصور بن المعتمر عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رجلا قال يا رسول الله علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله فقال « هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟» فقال يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبى ﷺ « فو الذى نفسى بيده لو طوقت ذلك ما بلغت المجاهدين فى سبيل الله، أو ما علمت أن الفرس المجاهد ليستن فى طوله فيكتب له بذلك الحسنات » وقوله تعالى (واتقوا الله) أى فى جميع أموركم وأحوالكم كما قال النبى ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » (لعلكم تفلحون) أى فى الدنيا والآخرة ـ وقال ابن جرير حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا أبو صخر عن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقول فى قول الله عز وجل (واتقوا الله لعلكم تفلحون) يقول اتقونى فيما بينى وبينكم لعلكم تفلحون غدا إذا لقيتمونى ـ انتهى تفسير سورة آل عمران ، ولله الحمد والمنة ، نسأله الموت على الكتاب والسنة آمين

(١) هذا وما قبله محرف والصواب التجيبى وفى ترجمة محمد بن شمير بالشين المعجمة وبقال المهملة أنه روى عن أبى على التجيبى .

﴿ سورة النساء ﴾

قال العوفى عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وكذا روى ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير وزيد بن ثابت وروى من طريق عبد الله بن لهيعة عن أخيه عيسى عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ « لا حبس » وقال الحاكم فى مستدركه : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أبو البخترى عبدالله بن محمد بن شاكر حدثنا محمد بن بشر العبدى حدثنا مسعر بن كدام عن معن بن عبدالرحمن بن عبد الله بن مسعود قال: إن فى سورة النساء لخمس آيات مايسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) الآية (إن تجتنبوا كبائره ما تنهون عنه) الآية و (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) و (لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك) الآية ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه فقد اختلف فى ذلك. وقال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن رجل عن ابن مسعود قال خمس آيات من النساء لهن أحب إلى من الدنيا جميعا (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقوله (وإن تك حسنة يضاعفها) وقوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقوله (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) رواه ابن جرير . ثم روى من طريق صالح المرى عن قتادة عن ابن عباس قال: ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، أولهن (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب الله عليكم والله عليم حكيم) والثانية (والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) والثالثة (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا) ثم ذكر قول ابن مسعود سواء يعنى فى الخمسة الباقية — وروى الحاكم من طريق أبى نعيم عن سفيان بن عيينة عن عبدالله بن أبى يزيد عن ابن أبى مليكة سمعت ابن عباس يقول سلونى عن سورة النساء فانى قرأت القرآن وأنا صغير . ثم قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه ، وهى عبادته وحده لا شريك له، ومنبها لهم على قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة، وهى آدم عليه السلام (وخلق منها زوجها) وهى حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر[1] من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه وقال ابن أبى حاتم. حدثنا أبى حدثنا محمد بن مقاتل حدثنا وكيع عن أبى هلال عن قتادة عن ابن عباس قال خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها فى الرجل وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته فى الأرض فاحبسوا نساءكم. وفى الحديث الصحيح « إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج » وقوله (وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) أى وذرأ منهما أى من آدم وحواء رجالا كثيرا ونساء ، ونشرهم فى أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر . ثم قال تعالى (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام)أى واتقوا الله بطاعتكم إياه ، قال إبراهيم ومجاهد والحسن (الذى تساءلون به) أى كما يقال أسألك بالله وبالرحم وقال الضحاك واتقوا الله الذى تعاقدون وتعاهدون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن والضحاك والربيع وغير واحد . وقرأ بعضهم (والأرحام) بالخفض على العطف على الضمير فى به أى تساءلون بالله وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره . وقوله (إن الله كان عليكم رقيبا) أى هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال (والله على كل شىء شهيد). وفى الحديث الصحيح « اعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك» وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب. ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ويحنهم على ضعفائهم وقد ثبت فى صحيح مسلم من

(١) فى نسخة الأزهر : الأقصر

حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر — وهم مجتابو النمار أي من عريهم وفقرهم — قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) حتى ختم الآية . ثم قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد) ثم حضهم على الصدقة فقال «تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره» وذكر تمام الحديث ، وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة ، وفيها ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها (يا أيها الناس اتقوا ربكم) الآية

﴿ وَءَاتُوا ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا * وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى اليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب) قال سفيان الثوري عن أبي صالح : لاتعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك ، وقال سعيد بن جبير : لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول : لاتبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام . وقال سعيد بن المسيب والزهري : لا تعط مهزولا وتأخذ سمينا . وقال إبراهيم النخعي والضحاك : لاتعط زيفا وتأخذ جيدا . وقال السدي : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول : شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم . وقوله (ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم) قال مجاهد وسعيد بن جبير وابن سيرين ومقاتل بن حيان والسدي وسفيان بن حسين : أي لاتخلطوها فتأكلوها جميعا . وقوله (إنه كان حوبا كبيراً) قال ابن عباس : أي إثما عظيما . وروى ابن مردويه عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله (حوبا كبيراً) قال «إثما كبيراً» ولكن في إسناده محمد بن يوسف الكندي(١) وهو ضعيف وروى هكذا عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك وأبي مالك وزيد بن أسلم وأبي سنان مثل قول ابن عباس . وفي الحديث المروي في سنن أبي داود «اغفر لنا حوبنا وخطايانا» وروى ابن مردويه باسناده إلى واصل مولى أبي عيينة عن ابن سيرين عن ابن عباس أن أبا أيوب طلق امرأته فقال له النبي ﷺ «يا أبا أيوب إن طلاق أم أيوب كان حوبا» قال ابن سيرين : الحوب الاثم . ثم قال ابن مردويه : حدثنا عبد الباقي حدثنا بشر بن موسى حدثنا هودة بن خليفة حدثنا عوف عن أنس أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب ، فاستأذن النبي ﷺ فقال «إن طلاق أم أيوب لحوب» فأمسكها ، ثم روى ابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث علي بن عاصم عن حميد الطويل سمعت أنس بن مالك أيضا يقول : أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته فقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن طلاق أم سليم لحوب» فكف . والمعنى : إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه . وقوله (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى) أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف أن لايعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ماسواها من النساء ، فانهن كثير ولم يضيق الله عليه . وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج أخبرني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : أن رجلا كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عذق . وكان يمسكها عليه ، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه (وإن خفتم ألا تقسطوا) أحسبه قال : كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله . ثم قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى) قالت يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها ،

(١) في نسخة الأزهر : الكريمي أو الكديمي .

فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل مايعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن . ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ماطاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله (ويستفتونك فى النساء) قالت عائشة : وقول الله فى الآية الأخرى (وترغبون أن تنكحوهن) رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال وقوله (مثنى وثلاث ورباع) أى انكحوا ماشئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء ثلاثا ، وإن شاء أربعا ، كما قال الله تعالى (جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ولا ينفى ما عدا ذلك فى الملائكة لدلالة الدليل عليه ، بخلاف قصر الرجال على أربع ، فمن هذه الآية كما قال ابن عباس وجمهور العلماء ، لأن المقام مقام امتنان وإباحة فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره . قال الشافعى وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وهذا الذى قاله الشافعى مجمع عليه بين العلماء ، إلا ماحكى عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع . وقال بعضهم : بلا حصر . وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ فى جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت فى الصحيح ، وأما إحدى عشرة كما قد جاء فى بعض ألفاظ البخارى . وقد علقه البخارى وقد روينا عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة ، ودخل منهن بثلاث عشرة ، واجتمع عنده إحدى عشرة ، ومات عن تسع . وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر فى أربع ، ولنذكر الأحاديث فى ذلك : قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل ومحمد بن جعفر قالا : حدثنا معمر عن الزهرى ، قال ابن جعفر فى حديثه ، أنبأنا ابن شهاب عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « اخترمنهن أربعا » فلما كان فى عهد عمر طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر فقال : إنى لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه فى نفسك . ولعلك لاتلبث إلا قليلا . وايم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أولأورثهن منك ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبى رغال . وهكذا رواه الشافعى والترمذى وابن ماجه والدارقطنى والبيهقى وغيرهم من طرق عن إسماعيل بن علية وغندر ويزيد بن زريع وسعيد بن أبى عروبة وسفيان الثورى وعيسى بن يونس وعبد الرحمن بن محمد المحاربى والفضل بن موسى وغيرهم من الحفاظ عن معمر باسناده مثله إلى قوله « اختر منهن أربعا » وباقى الحديث فى قصة عمر من افراد أحمد ، وهى زيادة حسنة وهى مضاعفة لما علل به البخارى هذا الحديث فيما حكاه عنه الترمذى حيث قال بعد روايته له سمعت البخارى يقول : هذا الحديث غير محفوظ والصحيح ماروى شعيب وغيره عن الزهرى حدثت عن محمد بن أبى سويد بن الثقفى أن غيلان بن سلمة ــ فذكره . قال البخارى : وإنما حديث الزهرى عن سالم عن أبيه أن رجلا من ثقيف طلق نساءه فقال له عمر . لتراجعن نساءك أو لأرجمن قبرك كما رجم قبر أبى رغال . وهذا التعليل فيه نظر والله أعلم ــ وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى مرسلا وهكذا رواه مالك عن الزهرى مرسلا . وقال أبو زرعة . هو أصح . وقال البيهقى ورواه عقيل عن الزهرى : بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبى سويد عن محمد بن يزيد . وقال أبو حاتم وهذا وهم إنما هو الزهرى عن محمد بن أبى سويد بلغنا أن رسول الله ﷺ ــ فذكره . قال البيهقى : ورواه يونس وابن عيينة عن الزهرى عن محمد ابن أبى سويد . وهذا كما علله البخارى والاسناد الذى قدمناه من مسند الإمام أحمد رجاله ثقات على شرط الشيخين ثم روى من غير طريق معمر بل والزهرى . قال البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو على الحافظ حدثنا أبو عبد الرحمن النسائى ويزيد بن عمر بن يزيد الجرمى أخبرنا يوسف بن عبيد الله حدثنا سرار بن مجشر عن أيوب عن نافع وسالم عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة كان عنده عشر نسوة فأسلم وأسلمن معه فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعا . هكذا أخرجه النسائى فى سننه . قال أبو على بن السكن : تفرد به سرار بن مجشر وهو ثقة . وكذا وثقه ابن معين قال

أبو على . وكذا رواه السميدع بن وهب عن سرار . قال البيهقى : وروينا من حديث قيس بن الحارث أو الحارث بن قيس وعروة بن مسعود الثقفى وصفوان بن أمية يعنى حديث غيلان بن سلمة فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرهن فى بقاء العشرة وقد أسلمن ، فلما أمره بامساك أربع وفراق سائرهن دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال ، فإذا كان هذا فى الدوام ، ففى الاستئناف بطريق الأولى والأحرى ، والله سبحانه أعلم بالصواب (حديث آخر فى ذلك) روى أبوداود وابن ماجه فى سننهما من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن خميصة بن الشمردل وعند ابن ماجه بنت الشمردل ، وحكى أبو داود أن منهم من يقول الشمرذل بالذال المعجمة عن قيس بن الحارث ، وعند أبى داود فى رواية الحارث بن قيس أن عميرة الأسدى قال أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « اختر منهن أربعا » وهذا الإسناد حسن : وهذا الاختلاف لا يضر مثله لما للحديث من الشواهد (حديث آخر فى ذلك) .قال الشافعى فى مسنده أخبرنى من سمع ابن أبى الزناد يقول أخبرنى عبد المجيد عن ابن سهل بن عبد الرحمن عن عوف بن الحارث عن نوفل بن معاوية الديلى قال أسلمت وعندى خمس نسوة فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « اختر أربعا أيتهن شئت وفارق الأخرى » فعمدت إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقر معى منذ ستين سنة فطلقتها . فهذه كلها شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقى . وقوله (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) أى إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن كما قال تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة أو على الجوارى السرارى فانه لا يجب قسم بينهن ، ولكن يستحب فمن فعل فحسن ومن لا فلا حرج ، وقوله (ذلك أدنى ألا تعولوا) قال بعضهم ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعى وهو مأخوذ من قوله تعالى (وإن خفتم عيلة) أى فقرا (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) وقال الشاعر

فما يدرى الفقير متى غناه ... وما يدرى الغنى متى يعيل

وتقول العرب عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر . ولكن فى هذا التفسير ههنا نظر ، فانه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السرارى أيضا والصحيح قول الجمهور (ذلك أدنى ألا تعولوا) أى لا تجوروا يقال عال فى الحكم إذا قسط وظلم وجار ، وقال أبو طالب فى قصيدته المشهورة

بميزان قسط لا يخيس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل

وقال هشيم عن أبى إسحق كتب عثمان بن عفان إلى أهل الكوفة فى شىء عاتبوه فيه : إنى لست بميزان أعول . رواه ابن جرير وقد روى ابن أبى حاتم وابن مردويه وابن حبان فى صحيحه من طريق عبد الرحمن بن أبى إبراهيم وخثيم حدثنا محمد بن شعيب عن عمرو بن محمد بن زيد عن عبد الله بن عمير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم (ذلك أدنى ألا تعولوا) قال « لا تجوروا » قال ابن أبى حاتم قال أبى هذا خطأ والصحيح عن عائشة موقوف ، قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عباس وعائشة ومجاهد وعكرمة والحسن وأبى مالك وابن رزين والنخعى والشعبى والضحاك وعطاء الخراسانى وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان أنهم قالوا لا تميلوا وقد استشهد عكرمة ببيت أبى طالب الذى قدمناه ، ولكن ما أنشده كما هو المروى فى السيرة وقد رواه ابن جرير ثم أنشده جيدا واختار ذلك . وقوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس النحلة : المهر وقال محمد بن إسحق عن الزهرى عن عروة عن عائشة نحلة : فريضة ، وقال مقاتل وقتادة وابن جريج نحلة أى فريضة زاد ابن جريج مسماة وقال ابن زيد النحلة فى كلام العرب الواجب يقول : لا تنكحها إلا بشىء واجب لها ، وليس ينبغى لأحد بعد النبى ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب ، ولا ينبغى أن يكون تسمية الصداق كذبا بغير حق ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتما ، وأن يكون طيب النفس بذلك كما يمنح المنيحة ويعطى النحلة طيباً ، كذلك يجب أن يعطى المرأة صداقها طيبا بذلك فان طابت هى له به بعد تسميته أو عن شىء منه فليأ كله حلالا طيباً ، ولهذا قال (فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن السدى عن يعقوب بن المغيرة بن شعبة عن على قال : إذا اشتكى

أحدكم شيئا فليسأل امرأته ثلاثة دراهم أونحو ذلك فليبتع بها عسلا ثم ليأخذ ماء السماء فيجتمع هنيئاً مريئاً شفاء مباركا. وقال هشيم عن سيار عن أبي صالح كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك ونزل (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الحميدي حدثنا وكيع عن سفيان عن عمير الخثعمي عن عبد الملك بن المغيرة الطائفي عن عبد الرحمن بن مالك السلماني قال: قال رسول الله ﷺ (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) قالوا يا رسول الله فما العلائق بينهم قال «ماتراضى عليه أهلوهم» وقد روى ابن مردويه من طريق حجاج بن أرطاة عن عبد الملك بن المغيرة عن عبد الرحمن بن السلماني عن عمر بن الخطاب قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال «أنكحوا الأيامى ـ ثلاثا ـ» فقام إليه رجل فقال يارسول الله فما العلائق بينهم؟ قال «ماتراضى عليه أهلوهم» ابن السلماني ضعيف ثم فيه انقطاع أيضاً

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياما أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها. ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء وهم أقسام فتارة يكون الحجر للصغر فان الصغير مسلوب العبارة وتارة يكون الحجر للجنون وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أوالدين وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه. وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) قال هم بنوك والنساء وكذا قال ابن مسعود والحكم بن عيينة والحسن والضحاك هم النساء والصبيان وقال سعيد بن جبير هم اليتامى وقال مجاهد وعكرمة وقتادة هم النساء. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «إن النساء سفهاء إلا التي أطاعت قيمها» ورواه ابن مردويه مطولا. وقال ابن أبي حاتم ذكر عن مسلم بن إبراهيم حدثنا حرب بن شريح عن معاوية بن قرة عن أبي هريرة (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) قال هم الخدم وهم شياطين الإنس وقوله (وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: لا تعمد إلى مالك وماخولك الله وجعله لك معيشه فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تنظر إلى مافي أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم. وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن فراس عن الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم، رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل أعطى ماله سفيها وقد قال (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه وقال مجاهد (وقولوا لهم قولا معروفا) يعني في البر والصلة * وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ومن تحت الحجر بالفعل من الانفاق في الكساوي والأرزاق بالكلام الطيب وتحسين الأخلاق. وقوله تعالى (وابتلوا اليتامى) قال ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي ومقاتل أي اختبروهم (حتى إذا بلغوا النكاح) قال مجاهد يعني الحلم. قال الجمهور من العلماء البلوغ في الغلام تارة يكون بالحلم وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد. وفي سنن أبو داود عن علي قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يتم بعد احتلام ولا صمات يوم إلى الليل» وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة عن النبي ﷺ قال «رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم أويستكمل خمس عشرة سنة وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق» وأخذوا

ذلك من الحديث الثابت فى الصحيحين عن ابن عمر قال : عرضت على النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزنى ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى . فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث ان هذا الفرق بين الصغير والكبير واختلفوا فى نبات الشعر الخشن حول الفرج وهى الشعرة هل يدل على بلوغ أم لا ؟ على ثلاثة أقوال يفرق فى الثالث بين صبيان المسلمين فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة ، وبين صبيان أهل الذمة فيكون بلوغا فى حقهم لأنه لا يتعجل بها إلى ضرب الجزية عليه فلا يعالجها والصحيح أنها بلوغ فى الجميع لأن هذا أمر جبلى يستوى فيه الناس واحتمال المعالجة بعيد، ثم قد دلت السنة على ذلك فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عطية القرظى قال عرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة فأمر من ينظر[1] من أنبت فكان من أنبت قتل ومن لم ينبت خلى سبيله فكنت فيمن لم ينبت فخلى سبيلى وقد أخرجه أهل السنن الأربعة بنحوه وقال الترمذى حسن صحيح وإنما كان كذلك لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة وسبى الذرية . وقال أبو عبيد فى الغريب حدثنا ابن علية عن إسماعيل بن أمية عن محمد بن يحيى بن حبان عن عمر أن غلاما ابتهر جارية فى شعره فقال عمر انظروا اليه فلم يوجد أنبت فدرأ عنه الحد قال أبو عبيدة ابتهرها أى قذفها والابتهار أن يقول فعلت بها وهو كاذب . فان كان صادقا فهو الابتيار قال الكميت فى شعره

قبيح بمثلى نعت الفتاة * إما ابتهارا وإما ابتيارا

وقوله عزوجل (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) قال سعيد بن جبير يعنى صلاحا فى دينهم وحفظا لأموالهم وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصرى وغير واحد من الأئمة وهكذا قال الفقهاء إذا بلغ الغلام مصلحا لدينه وماله انفك الحجر عنه فيسلم اليه ماله الذى تحت يد وليه وقوله (ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا) ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية (إسرافا وبداراً) أى مبادرة قبل بلوغهم . ثم قال تعالى (ومن كان غنيا فليستعفف) عنه ولا يأكل منه شيئا . وقال الشعبى : هو عليه كالميتة والدم (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) قال ابن أبى حاتم حدثنا الأشج حدثنا عبد الله بن سليمان حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة (ومن كان غنيا فليستعفف) نزلت فى مال اليتيم : وحدثنا الأشج وهرون بن إسحق قالا : حدثنا عبدة بن سليمان عن هشام عن أبيه عن عائشة (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف نزلت فى والى اليتيم الذى يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجا أن يأكل منه : وحدثنا أبى حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى حدثنا على بن مسهر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : أنزلت هذه الآية فى والى اليتيم (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) بقدر قيامه عليه . ورواه البخارى عن إسحق بن عبد الله بن نمير عن هشام به . قال الفقهاء له أن يأكل من أقل الأمرين أجرة مثله أو قدر حاجته . واختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ على قولين (أحدهما) لا لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيرا ، وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعى ، لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل . قال أحمد حدثنا عبد الوهاب حدثنا حسين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ليس لى مال ولى يتيم ؟ فقال « كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالا ومن غير أن تقى مالك ـ أو قال ـ تفدى مالك بماله » شك حسين . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر حدثنا حسين المكتب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن عندى يتيما عنده مال وليس لى مال[2] آكل من ماله : قال « كل بالمعروف غير مسرف » ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث حسين المعلم وروى ابن حبان فى صحيحه وابن مردويه فى تفسيره من حديث يعلى بن مهدى عن جعفر بن سليمان عن أبى عامر الخزاز عن عمرو بن دينار عن جابر أن رجلا قال : يارسول الله مما[3] أضرب يتيمى : قال مما[4] كنت كنت ضاربا منه ولدك غير واق مالك بماله ولا متأثل منه مالا » وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن يحيى أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد قال : جاء أعرابى إلى ابن عباس فقال ان فى حجرى أيتاما وان لهم إبلا ولى إبل ، وأنا أمنح من إبلى فقراء فما ذا يحل من ألبانها فقال : إن كنت تبغى ضالتها وتهنا جرباها وتلوط حوضها وتسعى عليها فاشرب غير مضر بنسل ، ولا ناهك فى الحلب . ورواه مالك فى موطئه عن يحيى بن سعيد به وبهذا

(١) فى نسخة الأزهر : عبد المجيد بن زهير (٢) وفيها : عندى شىء ما (٣) فيها : فيما (٤) فيها : ما .

القول وهو عدم أداء البدل يقول عطاء بن أبى رباح وعكرمة وإبراهيم النخعى وعطية العوفى والحسن البصرى (والثانى نعم لأن مال اليتيم على الحظر ، وإنما أبيح للحاجة فيرد بدله كأ كل مال الغير للمضطر عند الحاجة . وقد قال ابن أبى الدنيا : حدثنا ابن خيثمة حدثنا وكيع عن سفيان وإسرائيل عن أبى إسحق عن حارثة بن مضرب قال : قال عمر رضى الله عنه انى أنزلت نفسى من هذا المال منزلة والى اليتيم ، ان استغنيت استعففت ، وان احتجت استقرضت ، فإذا أيسرت قضيت. (طريق أخرى) قال سعيد بن منصور : حدثنا أبو الأحوص عن أبى إسحق عن البراء قال : قال لى عمر رضى الله عنه : إنما أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة والى اليتيم ، ان احتجت أخذت منه ، فإذا أيسرت رددته . وإن استغنيت استعففت إسناد صحيح وروى البيهقى عن ابن عباس نحو ذلك وهكذا رواه ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ومن كان فقيراً فليأ كل بالمعروف) يعنى القرض قال وروى عن عبيدة وأبى العالية وأبى وائل وسعيد بن جبير فى إحدى الروايات ومجاهد والضحاك والسدى نحو ذلك وروى من طريق السدى عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (فليأ كل بالمعروف) قال يأ كل بثلاث أصابع ، ثم قال حدثنا أحمد بن سنان حدثنا ابن مهدى عن سفيان عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس (ومن كان فقيراً فليأ كل بالمعروف) قال يأ كل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم قال وروى عن مجاهد وميمون بن مهران فى إحدى الروايات والحاكم نحو ذلك . وقال عامر الشعبى لا يأ كل منه إلا أن يضطر اليه كما يضطر إلى الميتة فإن أ كل منه قضاه . رواه ابن أبى حاتم . وقال ابن وهب حدثنا نافع بن أبى نعيم القارى قال سألت يحيى بن سعيد الأنصارى وربيعة عن قول الله تعالى (ومن كان فقيراً فليأ كل بالمعروف) الآية . فقال ذلك فى اليتيم إن كان فقيرا أنفق عليه بقدر فقره ولم يكن للولى منه شىء ، وهذا بعيد من السياق لأنه قال (ومن كان غنيا فليستعفف) يعنى من الأولياء (ومن كان فقيرا) أى منهم (فليأ كل بالمعروف) أى بالتى هى أحسن كما قال فى الآية الأخرى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) أى لا تقربوه إلا مصلحين له فإن احتجتم اليه أ كلتم منه بالمعروف . وقوله (فإذا دفعتم إليهم أموالهم) يعنى بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فحينئذ سلموا إليهم أموالهم فإذا دفعتم اليهم أموالهم (فأشهدوا عليهم) وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا اليهم أموالهم لئلا يقع من بعضهم جحود وانكار لما قبضه وتسلمه ثم قال (وكفى بالله حسيبا) أى وكفى بالله محاسبا وشاهدا ورقيبا على الأولياء فى حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم هل هى كاملة موفرة أو منقوصة مبخوسة مروج حسابها مدلس أمورها ؟ الله عالم بذلك كله . ولهذا ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال « يا أباذر إنى أراك ضعيفا وانى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم »

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

قال سعيد بن جبير وقتادة كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا فأنزل الله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) الآية أى الجميع فيه سواء فى حكم الله تعالى يستوون فى أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب مافرض الله لكل منهم بما يدلى به إلى الميت من قرابة ، أو زوجية ، أو ولاء . فإنه لحمة كلحمة النسب . وروى ابن مردويه من طريق ابن هراسة عن سفيان الثورى عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال : أتت أم كحة[1] إلى رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله إن لى ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شىء فأنزل الله تعالى

(١) فى النسخة الأميرية : أم احر ، وهو غلط

(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) الآية وسيأتى هذا الحديث عند آيتى الميراث بسياق آخر والله أعلم وقوله (وإذا حضر القسمة) الآية قيل المراد وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث (واليتامى والمساكين) فليرضخ لهم من التركة نصيب وإن ذلك كان واجبا فى ابتداء الاسلام وقيل يستحب واختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين فقال البخارى حدثنا أحمد بن حميد أخبرنا عبد الله الأشجعى عن سفيان عن الشيبانى عن عكرمة عن ابن عباس فى الآية قال هى محكمة وليست بمنسوخة . تابعه سعيد عن ابن عباس . وقال ابن جرير حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين حدثنا عباد بن العوام عن الحجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال هى قائمة يعمل بها وقال الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى هذه الآية . قال هى واجبة على أهل الميراث ماطابت به أنفسهم وهكذا روى عن ابن مسعود وأبى موسى وعبد الرحمن ابن أبى بكر وأبى العالية والشعبى والحسن ، وقال ابن سيرين وسعيد بن جبير ومكحول وإبراهيم النخعى وعطاء بن أبى رباح والزهرى ويحيى بن يعمر إنها واجبة وروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن ابن سيرين قال ولى عبيدة وصية فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية فقال لولا هذه الآية لكان هذا من مالى ، وقال مالك فيما يروى عنه فى التفسير من جزء مجموع عن الزهرى أن عروة أعطى من مال مصعب حين قسم ماله وقال الزهرى هى محكمة . وقال مالك عن عبد الكريم عن مجاهد قال هى حق واجب ماطابت به الأنفس

﴿ ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم ﴾

قال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج أخبرنى ابن أبى مليكة أن أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق والقاسم بن محمد أخبراه أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حية فلم يدع فى الدار مسكينا ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه قالا وتلا (وإذا حضر القسمة أولوا القربى) قال القاسم فذكرت ذلك لابن عباس فقال ما أصاب ليس ذلك له إنما ذلك إلى الوصية وإنما هذه الآية فى الوصية يريد الميت يوصى لهم . رواه ابن أبى حاتم

﴿ ذكر من قال إن هذه الآية منسوخة بالكلية ﴾

قال سفيان الثورى عن محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما (وإذا حضر القسمة) قال منسوخة : قال إسماعيل بن مسلم المكى عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال فى هذه الآية (وإذا حضر القسمة أولو القربى) نسختها الآية التى بعدها (يوصيكم الله فى أولادكم) وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى هذه الآية (وإذا حضر القسمة أولو القربى) كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فأعطى كل ذى حق حقه فجعلت الصدقة فيما سمى المتوفى رواهن ابن مردويه . وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس فى قوله (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين) نسختها آية الميراث فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر وحدثنا أسيد بن عاصم حدثنا سعيد بن عامر عن همام حدثنا قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال إنها منسوخة قبل الفرائض كان ماترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم والفقير والمسكين وذوى القربى إذا حضروا القسمة ثم نسختها المواريث فألحق الله بكل ذى حق حقه وصارت الوصية من ماله يوصى بها لذوى قرابته حيث شاء . وقال مالك عن الزهرى عن سعيد بن المسيب هى منسوخة نسختها المواريث والوصية . وهكذا روى عن عكرمة وأبى الشعثاء والقاسم بن محمد وأبى صالح وأبى مالك وزيد بن أسلم والضحاك وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان وربيعة بن أبى عبد الرحمن أنهم قالوا إنها منسوخة وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم ، وقد اختار ابن جرير ههنا قولا غريبا جداً وحاصله أن معنى الآية عنده (وإذا حضر القسمة) أى وإذا حضر قسمة مال الوصية أولو قرابة الميت (فارزقوهم منه وقولوا) لليتامى والمساكين إذا حضروا (قولا معروفا) هذا معنى ما حاوله بعد طول العبارة والتكرار وفيه نظر والله أعلم . وقال العوفى عن ابن عباس (وإذا حضر القسمة) هى قسمة الميراث وهكذا قال غير واحد والمعنى على هذا لا على ما سلكه ابن جرير رحمه الله بل المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين

لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يائسون لاشيء يعطونه فأمر الله تعالى وهو الرءوف الرحيم أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون براً بهم وصدقة عليهم، وإحسانا اليهم وجبرا لكسرهم. كما قال الله تعالى (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده) وذم الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة كما أخبر به عن أصحاب الجنة (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) أى بليل. وقال (فانطلقوا وهم يتخافتون* أن لايدخلنها اليوم عليكم مسكين) فـ(دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) فمن جحد حق الله عليه عاقبه فى أعز ما يملكه، ولهذا جاء فى الحديث «ماخالطت الصدقة مالا إلا أفسدته» أى منعها يكون سبب محق ذلك المال بالكلية وقوله تعالى (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم) الآية. قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هذا فى الرجل يحضره الموت، فيسمعه رجل يوصى بوصية تضر بورثته فأمر الله تعالى الذى يسمعه أن يتقى الله ويوفقه ويسدده للصواب. فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشى عليهم الضيعة؛ وهكذا قال مجاهد وغير واحد. وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبى وقاص يعوده قال: يارسول الله إنى ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة، أفأتصدق بثلثى مالى، قال «لا» قال: فالشطر قال «لا» قال فالثلث قال «الثلث، والثلث كثير» ثم قال رسول الله ﷺ «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» وفى الصحيح عن ابن عباس قال لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الثلث، والثلث كثير» قال الفقهاء إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفى فى وصيته الثلث وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص الثلث؛ وقيل: المراد بالآية فليتقوا الله فى مباشرة أموال اليتامى (ولا يأكلوها إسرافا وبدارا) حكاه ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد فى أكل أموال اليتامى ظلما أى كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس فى ذراريهم إذا وليتهم ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلما فإنما يأكل فى بطنه ناراً ولهذا قال (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) أى إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج فى بطونهم يوم القيامة — وفى الصحيحين من حديث سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن سالم أبى الغيث عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات — قيل: يارسول الله وماهن؟ قال — الشرك بالله، والسحر؛ وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق؛ وأكل الربا وأكل مال اليتيم؛ والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا عبيدة أخبرنا عبد العزيز بن عبد الصمد العمى حدثنا أبو هرون العبدى[1] عن أبى سعيد الخدرى قال قلنا يارسول الله مارأيت ليلة أسرى بك؟ قال «انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير. رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير؛ وهو موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم، ثم يجاء بصخرة من نار فتقذف فى فى أحدهم حتى يخرج من أسفله ولهم جؤار وصراخ قلت: ياجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيراً» وقال السدى. يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينيه يعرفه كل من رآه بأكل مال اليتيم. وقال ابن مردويه: حدثنا إسحق بن إبراهيم بن زيد حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا يونس بن بكير حدثنا زياد بن المنذر عن نافع بن الحارث عن أبى برزة أن رسول الله ﷺ قال «يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا» قيل يارسول الله من هم؟ قال «ألم تر أن الله قال (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) الآية»، رواه ابن أبى حاتم عن أبى زرعة عن عقبة بن مكرم وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أحمد بن على بن المثنى عن عقبة بن مكرم. قال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا أحمد بن عصام حدثنا أبو عامر العبدى حدثنا عبد الله بن جعفر الزهرى عن عثمان بن محمد عن المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أحرج مال الضعيفين المرأة واليتيم» أى أوصيكم باجتناب مالهما وتقدم فى سورة البقرة من طريق عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) الآية

(١) اسمه عمارة بن جوين بالتصغير تركوه ومنهم من كذبه «تقريب التهذيب»

انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) الآية فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك . ولنذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك . وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة ، والحجاج بين الأئمة ، فموضعه كتب(١) الأحكام والله المستعان . وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك روى أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الافريقي عن عبد الرحمن بن رافع التنوخي عن عبد الله بن عمرو مرفوعا « العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل ، آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة » . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلموا الفرائض وعلموه الناس فانه نصف العلم ، وهو ينسى ؟ وهو أول شيء ينزع من أمتي » رواه ابن ماجه وفي إسناده ضعف . وقد روى من حديث ابن مسعود وأبي سعيد ، وفي كل منهما نظر . قال ابن عيينة : إنما سمى الفرائض نصف العلم لأنه يبتلى به الناس(٢) كلهم وقال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال. أخبرني ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين فوجدني النبي صلى الله عليه وسلم لا أعقل شيئا ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش على فأفقت فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله . فنزلت (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث حجاج ابن محمد الأعور عن ابن جريج به ، ورواه الجماعة كلهم من حديث سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر (حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية) قال أحمد: حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبيدالله هو ابن عمرو الرقي عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيدا ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ، ولا ينكحان إلا ولهما مال قال : فقال « يقضى الله في ذلك » فنزلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال : « أعط ابنتى سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك » وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل به ، قال الترمذي: ولا يعرف إلا من حديثه . والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي، فانه إنما كان له إذ ذاك أخوات ، ولم يكن له بنات ، وإنما كان يورث كلالة ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعا للبخاري فانه ذكره ههنا ، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية والله أعلم

فقوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) أي يأمركم بالعدل فيهم ، فان أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث ، وفاوت بين الصنفين ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى . وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم

(١) في نسخة الأزهر : كتاب الأحكام يعنى كتابه هو . (٢) وفيها : زائدة .

للذكر مثل حظ الأنثيين) أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، حيث أوصى الوالدين بأولادهم ! فعلم أنه أرحم بهم منهم كما جاء فى الحديث الصحيح وقد رأى امرأة من السبى فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت تدور على ولدها ، فلما وجدته من السبى أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك » . قالوا : لا يا رسول الله قال « فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها » وقال البخارى ههنا : حدثنا محمد بن يوسف عن ورقاء عن ابن أبى نجيح عن عطاء عن ابن عباس قال : كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين ؛ فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للابوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع ـ وقال العوفى عن ابن عباس قوله (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وذلك أنه لما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها مافرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ؛ ولا يحوز الغنيمة ؛ اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينساه ؛ أو نقول له فيغير فقالوا : يا رسول الله تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ؛ وليست تركب الفرس ؛ ولا تقاتل القوم ؟ ويعطى الصبى الميراث وليس يغنى شيئا ؛ وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية ؛ لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم ؛ ويعطونه الأكبر فالأكبر . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير أيضا وقوله (فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) قال بعض الناس : قوله فوق زائدة وتقديره فان كن نساء اثنتين كما فى قوله (فاضربوا فوق الأعناق) وهذا غير مسلم لا هنا ولا هناك . فانه ليس فى القرآن شىء زائد لا فائدة فيه . وهذا ممتنع ، ثم قوله (فلهن ثلثا ما ترك) لو كان المراد ماقالوه لقال فلهما ثلثا ماترك : وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين فى الآية الأخيرة ، فانه تعالى حكم فيها للاختين بالثلثين . وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى . وقد تقدم فى حديث جابر أن النبى ﷺ حكم لابنتى سعد بن الربيع بالثلثين فدل الكتاب والسنة على ذلك وأيضا فانه قال (وإن كانت واحدة فلها النصف) فلو كان للبنتين النصف لنص عليه أيضا فلما حكم به للواحدة على انفرادها دل على أن البنتين فى حكم الثلاث والله أعلم وقوله تعالى (ولأبويه لكل واحد منهما السدس) إلى آخره ، الأبوان لهما فى الإرث أحوال (أحدها) أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس فان لم يكن للميت إلا بنت واحدة ، فرض لها النصف ، وللأبوين لكل واحد منها السدس ؛ وأخذ الأب السدس الآخر با لتعصيب فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب (الحال الثانى) أن ينفرد الأبوان بالميراث ، فيفرض للام الثلث والحالة هذه أخذ الأب الباقى بالتعصيب المحض ؛ فيكون قد أخذ ضعفى ما حصل للام وهو الثلثان ، فلو كان معهما زوج أو زوجة ويأخذ الزوج النصف والزوجة الربع . ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد ذلك على ثلاثة أقوال : (أحدها) أنها تأخذ ثلث الباقى فى المسئلتين ؛ لأن الباقى كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما . وقد جعل الله لها نصف ما جعل للاب . فتأخذ ثلث الباقى ويأخذ الأب الباقى ثلثيه ؛ هذا قول عمر وعثمان ؛ وأصح الروايتين عن على ؛ وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء (والثانى) أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله (فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث) فان الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا ؛ وهو قول ابن عباس . وروى عن على ومعاذ بن جبل نحوه . وبه يقول شريح وداود الظاهرى . واختاره أبو الحسين محمد بن عبد الله بن اللبان البصرى فى كتابه الإيجاز فى علم الفرائض وهذا فيه نظر ، بل هو ضعيف ، لأن ظاهر الآية إنما هو إذا استبدا بجميع التركة ، وأما هنا فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض ويبقى الباقى كأنه جميع التركة فتأخذ ثلثه (والقول الثالث) أنها تأخذ ثلث جميع المال فى مسئلة الزوجة خاصة ، فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثنى عشر ، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة ، فيبقى خمسة للاب وأما فى مسئلة الزوج فتأخذ ثلث الباقى لئلا تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال ، فتكون المسئلة من ستة : للزوج النصف ثلاثة للام ثلث الباقى بعد ذلك وهو سهم ، وللاب الباقى بعد ذلك وهو سهمان . ويحكى هذا عن ابن سيرين ، وهو مركب من القولين الأولين ، وهو ضعيف أيضا والصحيح الأول والله أعلم (والحال الثالث من أحوال الأبوين) وهو

اجتماعهما مع الاخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم ، فانهم لايرثون مع الأب شيئا ، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها معوجودهم السدس فان لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقى . وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الاخوة عند الجمهور . وقد روى البيهقى من طريق شعبة مولى ابن عباس عن ابن عباس أنه دخل على عثمان فقال : إن الأخوين لايردان الأم عن الثلث قال الله تعالى (فإن كان له إخوة) فالأخوان ليسا بلسان قومك إخوة ، فقال عثمان : لا أستطيع تغيير ما كان قبلى ، ومضى فى الأمصار وتوارث به الناس . وفى صحة هذا الأثر نظر ، فان شعبة هذا تكلم فيه مالك بن أنس ، ولو كان هذا صحيحاً عن ابن عباس لذهب اليه أصحابه الأخصاء به ، والمنقول عنهم خلافه وقد روى عبد الرحمن بن أبى الزناد عن خارجة بن زيد عن أبيه أنه قال : الاخوان تسمى إخوة ، وقد أفردت لهذه المسألة جزءا على حدة . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا عبد العزيز بن المغيرة حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة نحوه وقوله (فإن كان له إخوة فلأمه السدس) أضروا بالأم ولا يرثون ، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ويحجبها مافوق ذلك ، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلى إنكاحهم ونفقته عليهم دون أمهم ، وهذا كلام حسن . لكن روى عن ابن عباس باسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذى حجبوه عن أمهم يكون لهم . وهذا قول شاذ رواه ابن جرير فى تفسيره فقال : حدثنا الحسن بن يحيى حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : السدس الذى حجبته الاخوة الأم لهم إنما حجبوا أمهم عنه ليكون لهم دون أبيهم ، ثم قال ابن جرير : وهذا قول مخالف لجميع الأمة . وقد حدثنى يونس أخبرنا سفيان أخبرنا عمرو عن الحسن ابن محمد عن ابن عباس أنه قال : الكلالة من لا ولد له ولا والد

وقوله (من بعد وصية يوصى بها أو دين) أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة . وروى أحمد والترمذى وابن ماجه وأصحاب التفاسير من حديث ابن إسحق عن الحارث بن عبدالله الأعور عن على بن أبى طالب قال : إنكم تقرءون (من بعد وصية يوصى بها أو دين) وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وإن أعيان بنى الأم يتوارثون دون بنى العلات ، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه. ثم قال الترمذى : لانعرفه إلا من حديث الحارث(١) وقد تكلم فيه بعض أهل العلم (قلت) لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالحساب فالله أعلم

وقوله (آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً) أى إنما فرضنا للآباء والأبناء وساوينا بين الكل فى أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر فى الجاهلية ، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام من كون المال للولد(٢) وللأبوين الوصية كما تقدم عن ابن عباس ، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم ، لأن الانسان قد يأتيه النفع الدنيوى أو الأخروى أوهما من أبيه مالا يأتيه من ابنه ، وقد يكون بالعكس ، ولذا قال (آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً) أى ان النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر فلهذا فرضنا لهذا وهذا ، وساوينا بين القسمين فى أصل الميراث والله أعلم

وقوله (فريضة من الله) أى هذا الذى ذكرناه من تفصيل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض هو فرض من الله حكم به وقضاه والله عليم حكيم الذى يضع الأشياء فى محالها ويعطى كلا مايستحقه بحسبه ، ولهذا قال (إن الله كان عليما حكيما)

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ

(١) فى نسخة الأزهر : الأعور (٢) وفيها : المال للأبوين وللولد الوصية .

وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ولكم أيها الرجال نصف ماترك أزواجكم إذا متن عن غير ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين . وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية ، وبعده الوصية ثم الميراث ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب . ثم قال (ولهن الربع مما تركتم) إلى آخره وسواء فى الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه وقوله (من بعد وصية) الخ الكلام عليه كما تقدم وقوله تعالى (وإن كان رجل يورث كلالة) الكلالة مشتقة من الإكليل وهو الذى يحيط بالرأس من جوانبه والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه كما روى الشعبى عن أبى بكر الصديق أنه سئل عن الكلالة فقال : أقول فيها برأيى فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد فلما ولى عمر قال : إنى لأستحى أن أخالف أبا بكر فى رأى رآه . كذا رواه ابن جرير وغيره . وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا محمد بن يزيد[1] عن سفيان عن سليمان الأحول عن طاوس قال سمعت ابن عباس يقول : كنت آخر الناس عهداً بعمر فسمعته يقول القول ماقلت وماقلت وماقلت قال : الكلالة من لا ولد له ولا والد . وهكذا قال على وابن مسعود وصح عن غير واحد عن ابن عباس وزيد بن ثابت وبه يقول الشعبى والنخعى والحسن وقتادة وجابر بن زيد والحكم وبه يقول أهل المدينة وأهل الكوفة والبصرة وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم وقد حكى الاجماع عليه غير واحد وورد فيه حديث مرفوع قال أبو الحسين بن اللبان وقد روى عن ابن عباس مايخالف ذلك وهو أنه من لاولد له والصحيح عنه الأول ولعل الراوى ما فهم عنه ما أراد . وقوله تعالى (وله أخ أو أخت) أى من أم كما هو فى قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبى وقاص وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه (فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه أحدها : أنهم يرثون مع من أدلوا به وهى الأم (والثانى) أن ذكورهم وإناثهم فى الميراث سواء (والثالث) لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن (الرابع) أنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس حدثنا ابن وهب أخبرنا يونس عن الزهرى قال : قضى عمر أن ميراث الاخوة من الأم بينهم للذكر مثل حظ الأنثى قال الزهرى ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ وهذه الآية هى التى قال الله تعالى فيها (فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) واختلف العلماء فى المسئلة المشركة وهى زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ، فعلى قول الجمهور للزوج النصف ، وللأم أو الجدة السدس ، ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو اخوة الأم ، وقد وقعت هذه المسئلة فى زمان أمير المؤمنين عمر فأعطى الزوج النصف والأم السدس ، وجعل الثلث لأولاد الأم فقال له أولاد الأبوين : يا أمير المؤمنين هب أن أبانا كان حمارا ألسنا من أم واحدة ؟ فشرك بينهم وصح التشريك عن عثمان وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضى الله عنهم ، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضى ومسروق وطاوس ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعى وعمر بن عبد العزيز والثورى وشريك : وهو مذهب مالك والشافعى وإسحق بن راهويه وكان على بن أبى طالب لا يشرك بينهم ، بل يجعل الثلث لأولاد الأم ، ولاشىء لأولاد الأبوين ، والحالة هذه لأنهم عصبة . وقال وكيع بن الجراح : لم يختلف عنه فى ذلك . وهذا قول أبى بن كعب وأبى موسى الأشعرى . وهو المشهور عن ابن عباس . وهو مذهب الشعبى وابن أبى ليلى وأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد بن الحسن والحسن بن زياد وزفر بن الهزيل والإمام أحمد ويحيى بن آدم ونعيم بن حماد وأبى ثور وداود بن على الظاهرى ، واختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضى رحمه الله فى كتابه الايجاز .

(١) فى النسخة الأزهرية : محمد بن عبد الله بن يزيد .

وقوله (من بعـد وصية يوصى به أو دين غير مضار) أى لتكن وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحيف بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى فى ذلك كان كمن ضاد الله فى حكمه وشرعه . ولهـذا قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو النضر الدمشقى الفراديسى حدثنا عمر بن المغيرة عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الاضرار فى الوصية من الكبائر » وكذا رواه ابن جرير من طريق عمر بن المغيرة هذا وهو أبو حفص بصرى سكن المصيصة ، قال ابن عساكر : ويعرف بمفتى المساكين ، وروى عنه غير واحد من الأئمة ، وقال فيه أبو حاتم الرازى : هو شيخ ، وقال على بن المدينى : هو مجهول لا أعرفه ، لكن رواه النسائى فى سننه عن على بن حجر عن على بن مسهر عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس موقوفا « الإضرار فى الوصية من الكبائر » وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج عن عائذ بن حبيب عن داود بن أبى هند ، ورواه ابن جرير من حديث جماعة من الحفاظ عن داود عن عكرمة عن ابن عباس موقوفا ، وفى بعضها ويقرأ ابن عباس (غير مضار) قال ابن جرير والصحيح الموقوف ، ولهذا اختلف الأئمة فى الاقرار للوارث هل هو صحيح أم لا ؟ على قولين (أحدهما) لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت فى الحـديث الصحيح أن رسـول الله ﷺ قال « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبى حنيفة والقول القديم للشافعى رحمهم الله ، وذهب فى الجديد إلى أنه يصح الاقرار . وهو مذهب طاوس وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز وهو اختيار أبى عبد الله البخارى فى صحيحه ، واحتج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها قال : وقال بعض الناس لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة وقد قال النبى ﷺ « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » وقال الله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فلم يخص وارثا ولا غيره . انتهى ما ذكره . فمتى كان الاقرار صحيحا مطابقا لمـا فى نفس الأمر جرى فيه هـذا الخلاف ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم فهو حرام بالاجماع وبنص هـذه الآية الكريمة (غير مضار وصية من الله ، والله عليم حليم)

ثم قال تعالى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

أى هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه هى حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها . ولهذا قال (ومن يطع الله ورسوله) أى فيها فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته (يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم : ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) أى لكونه غير ما حكم الله به وضاد الله فى حكمه ، وهـذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهـذا يجازيه بالإهانة فى العذاب الأليم المقيم — قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أشعث بن عبدالله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهـل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » قال ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (تلك حدود الله — إلى قوله — عذاب مهين) قال أبو داود فى باب الاضرار فى الوصية من سننه : حدثنا عبيدة بن عبدالله أخبرنا عبدالصمد حدثنا نصر بن على الحرانى [1] حدثنا الأشعث بن عبد الله بن جابر الحدانى حدثنى شهر بن حوشب أن أبا هريرة حدثه أن رسول الله ﷺ قال « إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضران فى الوصية فتجب لهما النار » وقال قرأ على أبو هريرة من ههنا (من بعـد وصية يوصى بها أو دين غير مضار — حتى بلغ — ذلك الفوز العظيم) وهكذا رواه الترمذى وابن

(١) هو الجهضمى لا الحرانى .

ماجه من حديث أشعث[١] وأكمل به ، وقال الترمذي حسن غريب ؛ وسياق الإمام أحمد أتم وأكمل

﴿ وَٱللَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا * وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال (واللاتي يأتين الفاحشة) يعني الزنا (من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ؛ فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك . قال ابن عباس رضي الله عنه : كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم ؛ وكذا روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطاء الخراساني وأبي صالح وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك أنها منسوخة وهو أمر متفق عليه — قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وتغير[٢] وجهه ؛ فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم فلما سرى عنه قال «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا ؛ الثيب بالثيب ؛ والبكر بالبكر ، الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة والبكر جلد مائة ثم نفي سنة » وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عن قتادة عن الحسن عن حطان عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ ولفظه «خذوا عني خذوا عني ؛ قد جعل الله لهن سبيلا ؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ؛ والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن مبارك ابن فضالة عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي عرف ذلك في وجهه ؛ فأنزلت (أو يجعل الله لهن سبيلا) فلما ارتفع الوحي قال رسول الله ﷺ « خذوا خذوا قد جعل الله لهن سبيلا ؛ البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ؛ والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة » . وقد روى الإمام أحمد أيضا هذا الحديث عن وكيع بن الجراح عن الحسن حدثنا الفضل بن دلهم[٣] عن قبيصة بن حرب عن سلمة بن المحبق قال : قال رسول الله ﷺ «خذوا عني خذوا عني ؛ قد جعل الله لهن سبيلا ؛ البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ؛ والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» وكذا رواه أبو داود مطولا من حديث الفضل بن دلهم ثم قال : وليس هو بالحافظ كان قصابا بواسط

(حديث آخر) قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا عباس بن حمدان حدثنا أحمد بن داود حدثنا عمرو بن عبد الغفار حدثنا إسماعيل بن أبي خالد[٤] عن الشعبي عن مسروق عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « البكران يجلدان وينفيان ، والثيبان يجلدان ويرجمان ، والشيخان يرجمان » هذا حديث غريب من هذا الوجه — وروى الطبراني من طريق ابن لهيعة عن أخيه عيسى بن لهيعة عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت سورة النساء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حبس بعد سورة النساء » وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد قالوا لأن النبي صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك فدل على أن الرجم ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم والله أعلم . وقوله تعالى (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) أي واللذان يفعلان الفاحشة فآذوهما ، قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وغيرهما : أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال ، وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم ، وقال عكرمة وعطاء والحسن وعبد الله بن كثير : نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا . وقال السدي : نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجلين إذا فعلا — لا يكني ، وكأنه يريد اللواط والله أعلم : وقد روى أهل السنن من حديث عمرو بن أبي محمد عن عكرمة عن

(١) في نسخة الأزهر : ابن عبد الله بن جابر الحداني . (٢) وفيها : وتربد . (٣) وفيها عن الحسن . (٤) وفيها : خليد .

ابن عباس مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» . وقوله (فإن تابا وأصلحا) أي أقلعا ونزعا عما كانا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت (فأعرضوا عنهما) أي لاتعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك . لأن التائب من الذنب كمن لاذنب له (إن الله كان توابا رحيما) وقد ثبت في الصحيحين « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولايثرب عليها » أي لايعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يقول سبحانه وتعالى إنما يقبل(١) الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوب ولو بعد(٢) معاينة الملك يقبض روحه قبل الغرغرة . قال مجاهد وغير واحد . كل من عصى الله خطأ أو عمدا فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب ، وقال قتادة عن أبي العالية أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة رواه ابن جرير . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمدا كان أو غيره . وقال ابن جريج أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها . قال ابن جريج وقال لي عطاء بن أبي رباح نحوه . وقال أبو صالح عن ابن عباس من جهالته عمل السوء . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : (ثم يتوبون من قريب) قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت وقال الضحاك : ماكان دون الموت فهو قريب وقال قتادة والسدي : مادام في صحته ، وهو مروي عن ابن عباس . وقال الحسن البصري : (ثم يتوبون من قريب) ، مالم يغرغر ، وقال عكرمة : الدنيا كلها قريب (ذكر الأحاديث في ذلك) قال الامام أحمد حدثنا علي بن عياش ، وعصام بن خالد ، قال حدثنا بن ثوبان عن أبيه ، عن مكحول ، عن جبير بن نفير ، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن ثابت ابن ثوبان به ، وقال الترمذي حسن غريب . ووقع في سنن ابن ماجه : عن عبد الله بن عمرو وهو وهم إنما هو عبد الله ابن عمر بن الخطاب (حديث آخر) قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن معمر . حدثنا عبد الله بن الحسن الحراني(٣) حدثنا يحيي ابن عبد الله البابلي ، حدثنا أيوب بن نهيك الحلبي سمعت عطاء بن أبي رباح قال : سمعت عبد الله بن عمر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن عبد مؤمن يتوب قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه أدنى من ذلك ؟ وقبل موته بيوم وساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إليه إلا قبل منه » (حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن إبراهيم بن ميمونة وأخبرني رجل من ملحان يقال له أيوب قال سمعت عبد الله بن عمر يقول : من تاب قبل موته بعام تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه . فقلت له إنما قال الله (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فقال إنما أحدثك ماسمعته من رسول الله ﷺ . وهكذا رواه أبو داود الطيالسي . وأبو عمر الحوضي ، وأبو عامر العقدي عن شعبة (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا محمد بن مطرف ، عن زيد بن أسلم عن عبد الرحمن ابن السلماني قال : اجتمع أربعة من أصحاب النبي ﷺ فقال أحدهم سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم » فقال الآخر أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم ؟ قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم » فقال الثالث أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة » قال الرابع أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . قال : وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) في نسخه الازهر : يتقبل (٢) وفيها : قبل . (٣) وفيها الخراساني .

يقول « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر بنفسه » وقد رواه سعيد بن منصور عن الدراوردى ، عن زيد بن أسلم ، عن عبد الرحمن بن السلمانى فذكر قريبا منه . (حديث آخر) قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا إسحق بن إبراهيم بن زيد ، حدثنا عمران بن عبد الرحيم ، حدثنا عثمان بن الهيثم ، حدثنا عوف عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله يقبل توبة عبده مالم يغرغر »

﴿ أحاديث فى ذلك مرسلة ﴾

قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن قال بلغنى أن رسول الله ﷺ قال « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » هذا مرسل حسن عن الحسن البصرى رحمه الله . وقد قال ابن جرير أيضا رحمه الله : حدثنا ابن بشار . حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنى أبى عن قتادة عن العلاء بن زياد عن أبى أيوب بشير بن كعب أن نبى الله ﷺ قال « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » وحدثنا ابن بشار حدثنا عبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن عبادة ابن الصامت أن رسول الله ﷺ قال فذكر مثله . (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار . حدثنا أبو داود حدثنا عمران عن قتادة قال : كنا عند أنس بن مالك وثم أبو قلابة فقال فحدث أبو قلابة فقال : إن الله تعالى لما لعن إبليس سأله النظرة فقال : وعزتك وجلالك لا أخرج من قلب ابن آدم مادام فيه الروح . فقال الله عز وجل وعزتى لا أمنعه التوبة مادام فيه الروح . وقد ورد هذا فى حديث مرفوع رواه الإمام أحمد فى مسنده من طريق عمرو بن أبى عمرو وأبى الهيثم العتوارى كلاهما عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « قال إبليس يارب وعزتك لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الله عز وجل وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة فان توبته مقبولة ولهذا قال تعالى (فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) وأما متى وقع الاياس من الحياة وعاين الملك وخرجت(١) الروح فى الحلق وضاق بها الصدر وبلغت الحلقوم وغرغرت النفس صاعدة فى الغلاصم فلا توبة مقبولة حينئذ ولات حين مناص ولهذا قال (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن) وهذا كما قال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) الآيتين ، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها فى قوله تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل . أو كسبت فى إيمانها خيراً) الآية : وقوله (ولا الذين يموتون وهم كفار) يعنى أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض . قال ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس (ولا الذين يموتون وهم كفار) قالوا نزلت فى أهل الشرك وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود قال حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان(٢) حدثنى أبى عن مكحول أن عمر بن نعيم حدثه أن أبا ذر حدثهم أن رسول الله ﷺ قال « إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده مالم يقع الحجاب » قيل وما وقوع الحجاب ؟ قال « تخرج النفس وهى مشركة » ولهذا قال الله تعالى (أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما) أى موجعا شديداً مقيما

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا * وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

قال البخارى حدثنا محمد بن مقاتل حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الشيبانى عن عكرمة عن ابن عباس قال الشيبانى وذكره

(١) فى نسخة الأزهر : وحشرجت (٢) وفيها : أن ثابت بن ثوبان قال

أبوالحسن السوائى ولاأظنه ذكره إلا عن ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها) قال كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) هكذا ذكره البخاري وأبوداود والنسائى وابن مردويه وابن أبى حاتم من حديث أبى إسحق الشيبانى واسمه سليمان بن أبى سليمان عن عكرمة وعن أبى الحسن السوائى واسمه عطاء كوفى أعمى كلاهما عن ابن عباس بما تقدم . وقال أبوداود حدثنا محمد بن أحمد بن ثابت المروزى حدثنى على ابن حسين عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس قال (لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد اليه صداقها فأحكم الله تعالى عن ذلك أى نهى عن ذلك تفرد به أبوداود وقد رواه عن غير واحد عن ابن عباس بنحو ذلك وروى وكيع عن سفيان عن على بن نديمة عن مقسم عن ابن عباس كانت المرأة فى الجاهلية إذا توفى عنها زوجها فجاء رجل فألقى عليها ثوبا كان أحق بها فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) وروى على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها) قال كان الرجل إذا مات وترك جارية ألقى عليها حميمه ثوبه فمنعها من الناس فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها : وروى العوفى عنه كان الرجل من أهل المدينة إذا مات حميم أحدهم ألقى ثوبه على امرأته فورث نكاحها ولم ينكحها أحد غيره وحبسها عنده حتى تفتدى منه بفدية . فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) وقال زيد بن أسلم فى الآية كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم فى الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله وكان يعضلها حتى يرثها ، أو يزوجها من أراد ، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها ويشترط عليها أن لاتنكح إلا من أراد حتى تفتدى منه ببعض ما أعطاها فنهى الله المؤمنين عن ذلك رواه ابن أبى حاتم . وقال أبوبكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد ابن إبراهيم ، حدثنا موسى بن إسحق ، حدثنا على بن المنذر ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف عن أبيه قال لما توفى أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته وكان لهم ذلك فى الجاهلية فأنزل الله (لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) ورواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل به ثم روى من طريق ابن جريج قال أخبرنى عطاء أن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل وترك امرأة حبسها أهله على الصبي يكون فيهم فنزلت (لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) الآية . وقال ابن جريج قال مجاهد كان الرجل إذا توفى كان ابنه أحق بامرأته ينكحها إن شاء إذا لم يكن ابنها ، أو ينكحها من شاء أخاه أو ابن أخيه . وقال ابن جريج قال عكرمة نزلت فى كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس توفى عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه فجاءت رسول الله ﷺ ، فقالت يارسول الله : لا أنا ورثت زوجى ولا أنا تركت فأنكح . فأنزل الله هذه الآية . وقال السدى عن أبى مالك : كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبا . فان كان له ابن صغير ، أو أخ حبسها حتى يشب أو تموت فيرثها فان هى انفلتت فأتت أهلها ولم يلق عليها ثوبا نجت فأنزل الله (لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) وقال مجاهد فى الآية : كان الرجل يكون فى حجره اليتيمة هو يلى أمرها فيحبسها رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها أو يزوجها ابنه ، رواه ابن أبى حاتم . ثم قال وروى عن الشعبي وعطاء بن أبى رباح ، وأبى مجلز والضحاك والزهرى وعطاء الخراسانى ، ومقاتل بن حيان نحو ذلك . قلت : فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية وما ذكره مجاهد ، ومن وافقه . وكل ما كان فيه نوع من ذلك والله أعلم وقوله (ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) أى لاتضاروهن فى العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقا من حقوقها عليك ، أو شيئا من ذلك على وجه القهر لها والاضرار . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ولا تعضلوهن) يقول ولاتقهروهن (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) يعنى الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيضرها لتفتدى به ، وكذا قال الضحاك وقتادة وغير واحد . واختاره ابن جرير ، وقال ابن المبارك وعبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرنى سماك بن الفضل عن ابن السلمانى قال : نزلت هاتان الآيتان إحداهما فى أمر الجاهلية ، والأخرى

فى أمر الاسلام . قال عبد الله بن المبارك يعنى قوله (لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها) فى الجاهلية (ولا تعضلوهن) فى الإسلام ، وقوله (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والشعبى ، والحسن البصرى . ومحمد بن سيرين . وسعيد بن جبير ومجاهد . وعكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والضحاك وأبو قلابة، وأبو صالح والسدى وزيد بن أسلم، وسعيد بن أبى هلال ، يعنى بذلك الزنا ، يعنى إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذى أعطيتها وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها كما قال تعالى فى سورة البقرة (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا أن لايقيما حدود الله) الآية : وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان ، واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله الزنا والعصيان ، والنشوز وبذاء اللسان ، وغير ذلك . يعنى أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها . وهذا جيد والله أعلم ، وقد تقدم فيما رواه أبو داود منفردا به من طريق يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال وذلك ان الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى تموت أوترد اليه صداقها فأحكم الله عن ذلك أى نهى عن ذلك . قال عكرمة والحسن البصرى : وهذا يقتضى ان يكون السياق كله كان فى أمر الجاهلية ولكن نهى المسلمون عن فعله فى الاسلام : وقال عبد الرحمن بن زيد كان العضل فى قريش بمكة ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لاتوافقه فيفارقها على أن لاتتزوج إلا بإذنه فيأتى بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد فاذا جاء الخاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها وإلا عضلها . قال فهذا قوله (ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) الآية وقال مجاهد فى قوله (ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) هو كالعضل فى سورة البقرة . وقوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) أى طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله كما قال تعالى (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لأهله ؛ وأنا خيركم لأهلى» وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة دائم البشر ؛ يداعب أهله ؛ ويتلطف بهم ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه حتى انه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها يتودد إليها بذلك قالت سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقنى فقال « هذه بتلك » ويجمع[1] نساءه كل ليلة فى بيت التى يبيت عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهن العشاء فى بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان ينام مع المرأة من نسائه فى شعار واحد يضع عن كتفيه الرداء وينام بالازار ، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام يؤانسهم بذلك صلى الله عليه وسلم . وقد قال الله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) وأحكام عشرة النساء وما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتب[2] الأحكام ولله الحمد

وقوله تعالى (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) أى فعسى أن يكون صبركم فى إمساكهن[3] مع الكراهة فيه خير كثير لكم فى الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس فى هذه الآية هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولدا ويكون فى ذلك الولد خير كثير ، وفى الحديث الصحيح «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقا رضى منها آخر»

وقوله تعالى (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا) أى إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئا ولو كان قنطارا من المال ، وقد قدمنا فى سورة آل عمران الكلام على القنطار بما فيه كفاية عن إعادته ههنا . وفى هذه الآية دلالة على جواز الاصداق بالمال الجزيل وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الاصداق ثم رجع عن ذلك كما قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا سلمة بن علقمة عن محمد بن سيرين قال : نبئت عن أبى العجفاء السلمى قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : ألا لا تغالوا فى صداق النساء ، فانها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبى صلى الله عليه وسلم ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من

(١) فى نسخة الأزهر : ويجتمع . (٢) وفيها : كتاب . (٣) وفيها : إمساككم لهن .

بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية ، وإن كان الرجل ليبتلى بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه وحتى يقول كلفت إليك علق القربة ، ثم رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن محمد بن سيرين عن أبي العجفاء واسمه هرم ابن سيب البصري وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح

(طريق أخرى عن عمر) قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن ابن إسحق حدثني محمد بن عبد الرحمن عن خالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ما إكثاركم في صدق النساء . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم . فما دون ذلك . ولو كان الاكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها . فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم . قال : ثم نزل . فاعترضته امرأة من قريش فقالت : يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم ، قال : نعم فقالت أما سمعت ما أنزل الله في القرآن . قال : وأي ذلك . فقالت : أما سمعت الله يقول (وآتيتم إحداهن قنطاراً) الآية قال : فقال اللهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر . ثم رجع فركب المنبر فقال : أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب . قال أبو يعلى : وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل إسناده جيد قوي

(طريقة أخرى) قال ابن المنذر . حدثنا إسحق بن إبراهيم عن عبد الرزاق عن قيس بن ربيع عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : قال عمر بن الخطاب لا تغالوا في مهور النساء . فقالت امرأة : ليس ذلك لك يا عمر إن الله يقول : وآتيتم إحداهن قنطاراً — من ذهب[1] — قال وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود — فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً فقال عمر : إن امرأة خاصمت عمر فخصمته

(طريق أخرى عن عمر فيها انقطاع) قال الزبير بن بكار : حدثني عمي مصعب بن عبد الله عن جدي قال : قال عمر بن الخطاب : لا تزيدوا في مهور النساء وإن كانت بنت ذي القصة — يعني يزيد بن الحصين الحارثي — فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال . فقالت امرأة من صفة النساء طويلة . في أنفها فطس : ماذاك لك قال : ولم . قالت : إن الله قال (وآتيتم إحداهن قنطاراً) الآية فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ، ولهذا قال منكرا (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) أي وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك قال ابن عباس ومجاهد والسدي وغير واحد: يعني بذلك الجماع — وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما « الله يعلم أن أحدكما كاذب . فهل منكما تائب » قالها ثلاثا فقال الرجل : يا رسول الله مالي — يعني ما أصدقها — قال « لا مال لك . إن كنت صدقت فهو بما استحللت من فرجها . وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها » . وفي سنن أبي داود وغيره عن نضرة بن أبي نضرة أنه تزوج امرأة بكراً في خدرها فإذا هي حامل من الزنا فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له . فقضى لها بالصداق وفرق بينهما وأمر بجلدها وقال « الولد عبد لك . والصداق في مقابلة البضع » ولهذا قال تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض)

وقوله تعالى (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير . أن المراد بذلك العقد . وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن ابن عباس في قوله (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قال إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . قال ابن أبي حاتم : وروي عن عكرمة ومجاهد وأبي العالية والحسن وقتادة ويحيى بن أبي كثير والضحاك والسدي نحو ذلك . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في الآية هو قوله « أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » فان كلمة الله هي التشهد في الخطبة قال : وكان فيما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به قال له « وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي » رواه ابن أبي حاتم وفي صحيح مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها « واستوصوا بالنساء خيرا فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »

(١) هذه القراءة الشاذة : تفسير .

وقوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) الآية ، يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم ، وإعظاما واحتراما أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها ، وهذا أمر مجمع عليه . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا قيس بن الربيع حدثنا أشعث بن سوار عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال لما توفي أبو قيس — يعني ابن الأسلت — وكان من صالحي الأنصار . فخطب ابنه قيس امرأته فقالت : إنما أعدك ولداً وأنت من صالحي قومك . ولكني آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) فقالت : إن أبا قيس توفي فقال : « خيراً » ثم قالت : إن ابنه قيسا خطبني وهو من صالحي قومه . وإنما كنت أعده ولداً فما ترى فقال لها « ارجعي إلى بيتك » قال فنزلت (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) الآية : وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا حسين حدثنا حجاج عن ابن جريج عن عكرمة في قوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) قال : نزلت في أبي قيس بن الأسلت خلف على أم عبيد الله ضمرة ، وكانت تحت الأسلت أبيه وفي الأسود بن خلف ، وكان خلف على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وكانت عند أبيه خلف ، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف . فخلف عليها صفوان بن أمية . وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولا به في الجاهلية ، ولهذا قال (إلا ما قد سلف) كما قال (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) قال وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة تزوج بامرأة أبيه فأولدها ابنه النضر بن كنانة قال : وقد قال ﷺ « ولدت من نكاح لا من سفاح » قال : فدل على أنه كان سائغا لهم ذلك ، فأراد(٢) أنهم كانوا يعدونه نكاحا . فقد قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله المخزومي حدثنا قراد حدثنا ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين فأنزل الله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) (وأن تجمعوا بين الأختين) وهكذا قال عطاء وقتادة ، ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر والله أعلم وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة ، مبشع غاية التبشع ، ولهذا قال تعالى (إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا) وقال (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وقال (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) فزاد ههنا (ومقتا) أي بغضا أي هو أمر كبير في نفسه ، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته ، فان الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله ، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن(٣) زوجات النبي ﷺ وهو كالأب : بل حقه أعظم من حق الآباء بالاجماع ، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه . وقال عطاء بن أبي رباح في قوله (ومقتا) أي يمقت الله عليه (وساء سبيلا) أي وبئس طريقا لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه ، فيقتل ويصير ماله فيئا لبيت المال . كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب عن خاله أبي بردة — وفي رواية ابن عمر — وفي رواية عمه — أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله . وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أشعث عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال . مر بي عمي الحارث بن عمير ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له : أي عم أين بعثك النبي قال : بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه

﴿ مسئلة ﴾ وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو ملك أو شبهة واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع أو نظر إلى مالا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية . فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضا بذلك وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة خديج الحمصي مولى معاوية قال اشترى لمعاوية جارية بيضاء جميلة فأدخلها عليه مجردة وبيده قضيب فجعل يهوي به إلى متاعها ويقول نعم المتاع لو كان له متاع اذهب بها إلى يزيد بن معاوية ثم قال لا : ادع لي ربيعة بن عمرو الحرسي وكان فقيها فلما دخل عليه قال إن هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك وإني أردت أن أبعث بها إلى يزيد فقال لا تفعل يا أمير المؤمنين فانها لا تصلح له ثم قال نعم ما رأيت ثم قال ادع لي عبد الله بن مسعدة الفزاري فدعوته وكان آدم شديد الأدمة . فقال دونك هذه بيض بها ولدك قال وكان عبد الله بن مسعدة هذا وهبه رسول الله ﷺ لابنته فاطمة فربته ثم أعتقته ثم كان بعد ذلك مع معاوية على علي رضي الله عنه

(١) في نسخة الأزهر : وأستأمره فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٢) وفيها وإن أراد . (٣) وفيها : لكنهن .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب ومايتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر كما قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان بن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : حرمت عليكم سبع نسبا وسبع صهرا وقرأ (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم) الآية وحدثنا أبوسعيد بن يحيى بن سعيد حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن ابن عباس قال : يحرم من النسب سبع ومن الصهر سبع ثم قرأ (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت) فهن النسب . وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزانى عليه بعموم قوله تعالى (وبناتكم) فانها بنت فتدخل فى العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل وقد حكى عن الشافعي شيء فى إباحتها لأنها ليست بنتاً شرعية فكما لم تدخل فى قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) فانها لاترث بالاجماع فكذلك لاتدخل فى هذه الآية والله أعلم وقوله تعالى (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) أى كما يحرم عليك أمك التى ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التى أرضعتك ، ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث مالك بن أنس عن عبدالله ابن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال « إن الرضاعة تحرم ماتحرم الولادة » وفى لفظ لمسلم « يحرم من الرضاعة مايحرم من النسب » وقال بعض الفقهاء كل مايحرم من النسب يحرم من الرضاعة إلا أربع صور ، وقال بعضهم : ست صور هى مذكورة فى كتب الفروع والتحقيق أنه لايستثنى شيء من ذلك ، لأنه يوجد مثل بعضها فى النسب ، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر فلا يرد على الحديث شيء أصلا البتة ، ولله الحمد وبه الثقة . ثم اختلف الأئمة فى عدد الرضعات المحرمة ، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية . وهذا قول مالك ، ويروى عن ابن عمر ، واليه ذهب سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والزهرى . وقال آخرون : لا يحرم أقل من ثلاث رضعات لما ثبت فى صحيح مسلم من طريق هاشم بن عروة عن أبيه عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تحرم المصة ولا المصتان » وقال قتادة عن أبى الخليل عن عبدالله بن الحارث عن أم الفضل قالت : قال رسول الله ﷺ « لا تحرم الرضعة والرضعتان ، والمصة والمصتان » وفى لفظ آخر « لاتحرم الإملاجة ولا الاملاجتان » رواه مسلم . وممن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وأبو عبيد وأبو ثور ، وهو مروى عن على وعائشة وأم الفضل وابن الزبير وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير رحمهم الله وقال آخرون : لايحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت فى صحيح مسلم من طريق مالك عن عبدالله بن أبى بكر عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان فيما أنزل من القرآن « عشر رضعات معلومات يحرمن » ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى النبى صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن وروى عبد الرزاق عن

معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة نحوذلك . وفى حديث سهلة بنت سهيل أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالما مولى أبى حذيفة خمس رضعات ، وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات وبهذا قال الشافعى وأصحابه ، ثم ليعلم أنه لابد أن تكون الرضاعة فى سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة فى سورة البقرة عند قوله (يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحل كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم ، أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط ، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف على قولين تحرير هذا كله فى كتاب الأحكام الكبير وقوله (وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلاجناح عليكم) أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها ، سواء دخل بها أولم يدخل بها . وأما الربيبة وهى بنت المرأة فلا تحرم[1] حتى يدخل بأمها فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها ، ولهذا قال (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلاجناح عليكم) فى تزويجهن ، فهذا خاص بالربائب وحدهن ، وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال : لاتحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها لقوله (فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبى عدى وعبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن جلاس بن عمرو عن على رضى الله تعالى عنه فى رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها أيتزوج بأمها قال : هى بمنزلة الربيبة : وحدثنا ابن بشار حدثنا يحيى عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن زيد بن ثابت قال : إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها . وفى رواية عن قتادة عن سعيد عن زيد ابن ثابت أنه كان يقول : إذا ماتت فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها ، فإذا طلقها قبل أن يدخل بها فان شاء فعل . وقال ابن المنذر : حدثنا إسحق عن عبد الرزاق عن ابن جريج قال : أخبرنى أبوبكر بن حفص عن مسلم بن عويمر الأجدع أن بكر بن كنانة أخبره أن أباه أنكحه امرأة بالطائف قال : فلم أجامعها حتى توفى عمى عن أمها ، وأمها ذات مال كثير فقال أبى : هل لك فى أمها ؟ قال : فسألت ابن عباس وأخبرته ؟ فقال : انكح أمها ، قال : وسألت ابن عمر فقال : لا تنكحها . فأخبرت أبى بما قالا ، فكتب إلى معاوية فأخبره بما قالا فكتب معاوية : إنى لا أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله . وأنت وذاك والنساء سواها كثير . فلم ينه ولم يأذن لى فانصرف أبى عن أمها فلم ينكحها . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن سماك بن الفضل عن رجل عن عبدالله بن الزبير قال : الربيبة والأم سواء لابأس بها إذا لم يدخل بالمرأة ، وفى إسناده مبهم . وقال ابن جريج أخبرنى عكرمة بن كليد[2] أن مجاهدا قال (وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم) أراد بهما الدخول جميعاً ، فهذا القول كما ترى مروى عن على وزيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ومجاهد وسعيد بن جبير وابن عباس ، وقد توقف فيه معاوية . وذهب اليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن الصابونى فيما نقله الرافعى عن العبادى . وقد روى عن ابن مسعود مثله ثم رجع عنه قال الطبرانى : حدثنا إسحق بن إبراهيم الدبرى حدثنا عبد الرزاق عن الثورى عن أبى فروة عن أبى عمرو الشيبانى عن ابن مسعود : أن رجلا من بنى كمخ من فزارة تزوج امرأة فرأى أمها فأعجبته . فاستفتى ابن مسعود فأمره أن يفارقها ثم يتزوج أمها فتزوجها وولدت له أولادا ثم أتى ابن مسعود المدينة فسئل عن ذلك فأخبر أنها لاتحل له فلما رجع إلى الكوفة قال للرجل : إنها عليك حرام ففارقها . وجمهور العلماء على أن الربيبة لاتحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد . قال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن محمد حدثنا هرون بن عروة حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس انه كان يقول إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها (وروى) أنه قال : إنها مبهمة فكرهها . ثم قال : وروى عن ابن مسعود وعمران بن حصين ومسروق وطاوس وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وابن سيرين وقتادة والزهرى نحو ذلك . وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة ، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً ولله الحمد والمنة — قال ابن جريج والصواب قول من قال الأم من المبهمات . لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما اشترطه مع أمهات الربائب ؛ مع أن ذلك أيضاً

(١) فى نسخة الأزهر : بمجرد العقد . (٢) وفيها : خليد .

إجماع الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه . وقد روى بذلك أيضا عن النبي ﷺ خبر غريب وفي إسناده نظر ، وهو ماحدثني به ابن المثنى حدثنا حبان بن موسى حدثنا ابن المبارك أخبرنا المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها . دخل بالبنت أولم يدخل فإذا تزوج بالأم فلم يدخل بها ثم طلقها فان شاء تزوج الابنة » ثم قال: وهذا الخبر وإن كان في إسناده مافيه فان في إجماع الحجة على صحة القول به مستغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره. وأما قوله تعالى (وربائبكم اللاتي في حجوركم) فالجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره : قالوا وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلامفهوم له كقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) وفي الصحيحين أن أم حبيبة قالت : يارسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان ، وفي لفظ لمسلم عزة بنت أبي سفيان قال « أو تحبين ذلك» ؟ قالت: نعم لست بك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي قال «فان ذلك لا يحل لي » قالت: فانا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة قال « بنت أم سلمة» قالت نعم قال «إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي ، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة فلا تعرضن على بناتكن ولا أخواتكن » وفي رواية للبخاري «إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي » فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة وحكم بالتحريم بذلك، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف . وقد قيل بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن موسى أنبأنا هشام – يعني ابن يوسف – عن ابن جريج حدثني إبراهيم بن عبيد بن رفاعة أخبرني مالك بن أوس ابن الحدثان قال : كانت عندي امرأة فتوفيت وقد ولدت لي فوجدت عليها فلقيني علي بن أبي طالب فقال: مالك؟ فقلت: توفيت المرأة فقال علي : لها ابنة ؟ قلت : نعم وهي بالطائف قال كانت في حجرك؟ قلت: لا هي بالطائف قال: فانكحها قلت: فأين قول الله (وربائبكم اللاتي في حجوركم)! قال : إنها لم تكن في حجرك إنما ذلك إذا كانت في حجرك، هذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم، وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه. وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك رحمه الله . واختاره ابن حزم ، وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله فاستشكله وتوقف في ذلك والله أعلم . وقال ابن المنذر : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا الأثرم عن أبي عبيدة قوله (اللاتي في حجوركم) قال : في بيوتكم وأما الربيبة في ملك اليمين فقد قال الإمام مالك بن أنس عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب سئل عن المرأة وبنتها من ملك اليمين توطأ إحداهما بعد الأخرى فقال عمر: ما أحب أن أجيزهما جميعا يريد أن أطأهما جميعا بملك يميني ، وهذا منقطع وقال سنيد بن داود في تفسيره: حدثنا أبو الأحوص عن طاوس عن طارق بن عبد الرحمن عن قيس قال : قلت لابن عباس أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له ؟ فقال أحلتها آية وحرمتهما آية ، ولم أكن لأفعله. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله : لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وبنتها من ملك اليمين لأن الله حرم ذلك في النكاح قال (وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم) وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روى عن عمر وابن عباس وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم. وروى هشام عن قتادة : بنت الربيبة وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة، وكذا قال قتادة عن أبي العالية ومعنى قوله (اللاتي دخلتم بهن) أي نكحتموهن، قاله ابن عباس وغير واحد وقال ابن جريج عن عطاء. هو أن تهدى إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجليها قلت : أرأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها . قال : هو سواء، وحسبه قد حرم ذلك عليه ابنتها. وقال ابن جرير : وفي إجماع الجميع على(١) أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها وقبل النظر إلى فرجها بشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع

وقوله تعالى (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية كما قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم)الآية وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله (وحلائل أبنائكم الذين

(١) ليس في الأميرية : لفظ على

من أصلابكم) قال : كنا نحدث والله أعلم أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة فى ذلك فأنزل الله عز وجل (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) ونزلت (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) ونزلت (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبوزرعة حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى حدثنا خالد بن الحارث عن الأشعث عن الحسن بن محمد أن هؤلاء الآيات مبهمات (وحلائل أبنائكم) (وأمهات نسائكم) ثم قال : وروى عن طاوس وإبراهيم والزهرى ومكحول نحو ذلك (قلت) معنى مبهمات أى عامة فى المدخول بها وغير المدخول فتحرم بمجرد العقد عليها وهذا متفق عليه ، فان قيل فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة كما هو قول الجمهور ومن الناس من يحكيه إجماعا وليس من صلبه فالجواب من قوله ﷺ « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وقوله تعالى (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف)الآية . أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين معا فى التزويج وكذا فى ملك اليمين إلا ما كان منكم فى جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه . فدل على أنه لامثنوية فيما يستقبل لأنه استثنى مما سلف كما قال (لا يذوقون فيه الموت إلا الموتة الأولى) فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدا وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين فى النكاح ، ومن أسلم وتحته أختان خير فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة . قال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبى وهب الجيشانى عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال :أسلمت وعندى امرأتان أختان فأمرنى النبى صلى الله عليه وسلم أن أطلق إحداهما . ثم رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث ابن لهيعة وأخرجه أبو داود والترمذى أيضا من حديث يزيد بن أبى حبيب كلاهما عن أبى وهب الجيشانى قال الترمذى واسمه دليم بن الهوشع عن الضحاك بن فيروز الديلمى عن أبيه به وفى لفظ للترمذى . فقال النبى ﷺ « اختر أيتهما شئت » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن وقد رواه ابن ماجه أيضا بإسناد آخر فقال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبد السلام ابن حرب عن إسحق بن عبد الله بن أبى فروة عن أبى وهب الجيشانى عن أبى خراش الرعينى قال قدمت على رسول الله ﷺ وعندى أختان تزوجتهما فى الجاهلية فقال « إذا رجعت فطلق إحداهما » قلت فيحتمل أن أبا خراش هذا هو الضحاك بن فيروز ويحتمل أن يكون غيره فيكون أبو وهب قد رواه عن اثنين عن فيروز الديلمى والله أعلم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن يحيى بن محمد بن يحيى حدثنا أحمد بن يحيى الخولانى حدثنا هيثم بن خارجة حدثنا يحيى بن إسحق عن إسحق بن عبد الله بن أبى فروة عن زر بن حكيم عن كثير بن مرة عن الديلمى قال : قلت يارسول الله إن تحتى أختين قال « طلق أيهما شئت » فالديلمى المذكور أولا هو الضحاك بن فيروز الديلمى رضى الله عنه ، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين ولوا قتل الأسود العنسى المتنبىء لعنه الله ، وأما الجمع بين الأختين فى ملك اليمين فحرام أيضا لعموم الآية . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن عبد الله بن أبى عنبة أو عتبة عن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين فكرهه فقال له يعنى السائل يقول الله تعالى (إلا ما ملكت أيمانكم) فقال له ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : وبعيرك مما ملكت يمينك . وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم ، وإن كان بعض السلف قد توقف فى ذلك . وقال الإمام مالك عن ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن رجلا سأل عثمان بن عفان عن الأختين فى ملك اليمين هل يجمع بينهما فقال عثمان أحلتهما آية وحرمتها آية وما كنت لأمنع ذلك فخرج من عنده فلقى رجلا من أصحاب النبى ﷺ فسأله عن ذلك فقال : لو كان لى من الأمر شىء ثم وجدت أحدا فعل ذلك لجعلته نكالا . وقال مالك قال ابن شهاب أراه على بن أبى طالب قال . وبلغنى عن الزبير بن العوام مثل ذلك قال ابن عبد البر النمرى رحمه الله فى كتاب الاستذكار إنما كنى قبيصة بن ذؤيب عن على بن أبى طالب لصحبته عبد الملك بن مروان وكانوا يستثقلون ذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه ثم قال أبو عمر حدثنى خلف بن أحمد قراءة عليه أن خلف بن مطرف حدثهم حدثنا أيوب بن سليمان وسعيد بن سليمان ومحمد بن عمر بن لبابة قالوا حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى عن موسى بن أيوب الغافقى حدثنى عمى إياس بن عامر قال سألت على بن أبى طالب فقلت إن لى أختين مما ملكت يمينى اتخذت إحداهما سرية فولدت لى أولادا ثم رغبت فى الأخرى فما أصنع . فقال على رضى الله عنه تعتق التى كنت تطأ ثم تطأ الأخرى قلت فإن ناسا يقولون بل

تزوجها ثم تطأ الأخرى ، فقال علي أرأيت إن طلقها زوجها أوماتت عنها أليس ترجع اليك ؟ لأن تعتقها أسلم لك . ثم أخذ على يدى فقال لى : إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك فى كتاب الله عزوجل من الحرائر الا العدد ، أو قال الا الأربع ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك فى كتاب الله من النسب ، ثم قال أبو عمر هذا الحديث[1] رحلة رجل ولم يصب من أقصى المغرب والشرق إلى مكة غيره لما خابت رحلته قلت : وقد روى عن على نحو ما روى عن عثمان . وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن العباس حدثنى محمد بن عبدالله بن المبارك المخرّمى حدثنا عبد الرحمن بن غزوان حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال لى على بن أبى طالب حرمتهما آية وأحلتهما آية — يعنى الأختين قال ابن عباس يحرمن على قرابتى منهن ولا يحرمن قرابة بعضهن من بعض يعنى الإماء ، وكانت الجاهلية يحرمون ما تحرمون الا امرأة الأب والجمع بين الأختين ، فلما جاء الإسلام أنزل الله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) يعنى فى النكاح ، ثم قال أبو عمر وروى الإمام أحمد بن حنبل حدثنا محمد ابن سلمة عن هشام عن ابن سيرين عن ابن مسعود قال : يحرم من الإماء ما يحرم من الحرائر إلا العدد وعن ابن مسعود[2] والشعبى نحو ذلك قال أبو عمر وقد روى مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ولكن اختلف عليهم ، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز ولا العراق ولا ما وراءها من المشرق ولا بالشام والمغرب ؛ إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفى القياس وقد ترك من يعمل ذلك ظاهرا ما اجتمعنا عليه ، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما لا يحل ذلك فى النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم) إلى آخر الآية أن النكاح وملك اليمين فى هؤلاء كلهن سواء ، وكذلك يجب أن يكون نظرا وقياسا الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب . وكذلك هو عند جمهورهم وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها . وقوله تعالى (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) أى وحرم عليكم من الأجنبيات المحصنات وهن المزوجات إلا ما ملكت أيمانكم يعنى إلا ما ملكتموهن بالسبى فانه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن فإن الآية نزلت فى ذلك . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان هو الثورى عن عثمان البتى عن أبى الخليل عن أبى سعيد الخدرى قال : أصبنا سبيا من سبى أوطاس ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج فسألنا النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) فاستحللنا فروجهن وهكذا رواه الترمذى عن أحمد بن منيع عن هشيم ، ورواه النسائى من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج ثلاثتهم عن عثمان البتى ورواه ابن ماجه[3] من حديث أشعث بن سوار عن عثمان البتى ، ورواه مسلم فى صحيحه من حديث شعبة عن قتادة كلاهما عن أبى الخليل صالح بن أبى مريم عن أبى سعيد الخدرى فذكره وهكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أبى الخليل عن أبى سعيد الخدرى به وروى من وجه آخر عن أبى الخليل عن أبى علقمة الهاشمى عن أبى سعيد الخدرى قال الإمام أحمد حدثنا ابن أبى عدى عن سعيد عن قتادة عن أبى الخليل عن أبى علقمة عن أبى سعيد الخدرى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابوا سبياً يوم أوطاوس لهن أزواج من أهل الشرك ، فكان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا وتأثموا من غشيانهن قال : فنزلت هذه الآية فى ذلك (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى من حديث سعيد بن أبى عروبة زاد مسلم وشعبة ورواه الترمذى من حديث همام بن يحيى ثلاثتهم عن قتادة بإسناده نحوه وقال الترمذى هذا حديث حسن ولا أعلم أن أحدا ذكر أبا علقمة فى هذا الحديث إلا ما ذكر همام عن قتادة — كذا قال — وقد تابعه سعيد وشعبة والله أعلم

وقد روى الطبرانى من حديث الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت فى سبايا خيبر وذكر مثل حديث أبى سعيد وقد ذهب جماعة من السلف إلى ان بيع الأمة يكون طلاقا لها من زوجها أخذا بعموم هذه الآية وقال ابن جرير حدثنا ابن مثنى حدثنا محمد ابن جعفر عن شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه سئل عن الأمة تباع ولها زوج ؟ قال كان عبدالله يقول : بيعها طلاقها ويتلو هذه الآية (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) وكذا رواه سفيان عن منصور ومغيرة والأعمش عن إبراهيم

(١) هنا بياض بالأميرية وبعده رحلة، وفى بعض النسخ هذا الحديث رجل الخ فجمعنا بينهما (٢) فى نسخة الأزهر: ابن سيرين (٣) وفيها ابن جرير.

عن ابن مسعود قال بيعها طلاقها وهو منقطع ، ورواه سفيان الثورى عن خليد عن أبى قلابة عن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببضعها . ورواه سعيد عن قتادة قال أبى بن كعب وجابر بن عبد الله وابن عباس قالوا : بيعها طلاقها . وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية عن خليد عن عكرمة عن ابن عباس قال طلاق الأمة ست[1] بيعها طلاقها وعتقها طلاقها ، وهبتها طلاقها ، وبراءتها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها : وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب قوله (والمحصنات من النساء) قال هذه ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك فبيعها طلاقها وقال معمر . وقال الحسن مثل ذلك ، وهكذا رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن فى قوله (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) قال : إذا كان لها زوج فبيعها طلاقها وروى عوف عن الحسن بيع الأمة طلاقها ، وبيعه طلاقها ، فهذا قول هؤلاء من السلف وقد خالفهم الجمهور قديما وحديثاً ، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقا لها لأن المشترى نائب عن البائع ، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوبة عنها واعتمدوا فى ذلك على حديث بريرة المخرج فى الصحيحين وغيرهما فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث ؛ بل خيرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء ، فاختارت الفسخ وقصتها مشهورة فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ما خيرها النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح وأن المراد من الآية المسبيات فقط والله أعلم وقد قيل المراد بقوله (والمحصنات من النساء) يعنى العفائف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهن بنكاح وشهود ومهور وولى واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعا ، حكاه ابن جرير عن أبى العالية وطاوس وغيرهما وقال عمر وعبيدة (والمحصنات من النساء) ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم .

وقوله تعالى (كتاب الله عليكم) أى هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم يعنى الأربع فالزموا كتابه ، ولا تخرجوا عن حدوده ، والزموا شرعه وما فرضه . وقال عبيدة وعطاء والسدى فى قوله (كتاب الله عليكم) يعنى الأربع . وقال إبراهيم (كتاب الله عليكم) يعنى ما حرم عليكم . وقوله تعالى (وأحل لكم ما وراء ذلكم) أى ما عدا من ذكرن من المحارم هن لكم حلال قاله عطاء وغيره ، وقال عبيدة والسدى (وأحل لكم ما وراء ذلكم) ما دون الأربع . وهذا بعيد ، والصحيح قول عطاء كما تقدم . وقال قتادة (وأحل لكم ما وراء ذلكم) يعنى ما ملكت أيمانكم وهذه الآية هى التى احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين ، وقول من قال : أحلتهما آية وحرمتهما آية وقوله تعالى (أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) أى تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السرارى ما شئتم بالطريق الشرعى ، ولهذا قال (محصنين غير مسافحين) وقوله تعالى (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) أى كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن فى مقابلة ذلك ، كما قال تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) وكقوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) وكقوله (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ولاشك أنه كان مشروعا فى ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك وقد ذهب الشافعى وطائفة من العلماء إلى أنه أبيح ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ مرتين . وقال آخرون أكثر من ذلك . وقال آخرون : إنما أبيح مرة ثم نسخ ولم يبح بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة وهو رواية عن الإمام أحمد وكان ابن عباس وأبى بن كعب وسعيد بن جبير والسدى يقرءون (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى[2] فآتوهن أجورهن فريضة) وقال مجاهد . نزلت فى نكاح المتعة ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك . والعمدة ما ثبت فى الصحيحين عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر . ولهذا الحديث ألفاظ مقررة هى فى كتاب الأحكام وفى صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهنى عن أبيه أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة فقال «يا أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » وفى رواية لمسلم فى حجة الوداع وله ألفاظ موضعها كتاب الأحكام وقوله تعالى (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل

(١) قوله ست ، المعدود خمسة فلتحرر الرواية . (٢) هذه القراءة على سبيل التفسير .

مسمى قال : لا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تتراضوا على زيادة به وزيادة للجعل قال السدى : إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى يعنى الأجر الذى أعطاها على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما فقال : أتمتع منك أيضا بكذا وكذا فان زاد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضى المدة ، وهو قوله تعالى (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) قال السدى: إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل ، وهى منه بريئة وعليها أن تستبرىء ما فى رحمها وليس بينهما ميراث فلا يرث واحد منهما صاحبه ومن قال بهذا القول الأول جعل معناه كقوله (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) الآية أى إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها فى ذلك ، وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم الحضرمى أن رجالا كانوا يفرضون المهر ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة فقال ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتم به من بعد الفريضة يعنى إن وضعت لك منه شيئا فهو لك سائغ . واختار هذا القول ابن جرير . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) والتراضى أن يوفيها صداقها ثم يخيرها يعنى فى المقام أو الفراق . وقوله تعالى (إن الله كان عليما حكيما) مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى (ومن لم يجد منكم طولا) أى سعة وقدرة (أن ينكح المحصنات المؤمنات) أى الحرائر العفائف المؤمنات. وقال ابن وهب : أخبرنى عبد الجبار عن ربيعة (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات) قال ربيعة :الطول الهوى يعنى ينكح الأمة إذا كان هواه فيها رواه ابن أبى حاتم وابن جرير، ثم أخذ يشنع على هذا القول ويرده (فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) أى فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتى يملكهن المؤمنون ولهذا قال (من فتياتكم المؤمنات) قال ابن عباس وغيره . فلينكح من إماء المؤمنين وكذا قال السدى ومقاتل بن حيان . ثم اعترض بقوله (والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) أى هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور ثم قال (فانكحوهن بإذن أهلهن) فدل على أن السيد هو ولى أمته لا تزوج إلى بإذنه ، وكذلك هو ولى عبده ليس له أن يتزوج بغير إذنه كما جاء فى الحديث « أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر » أى زان . فان كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة باذنها لما جاء فى الحديث « لا تزوج المرأة المرأة . ولا المرأة نفسها فان الزانية هى التى تزوج نفسها » وقوله تعالى (وآتوهن أجورهن بالمعروف) أى وادفعوا مهورهن بالمعروف أى عن طيب نفس منكم ولا تبخسوا منه شيئا استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات وقوله تعالى (محصنات) أى عفائف عن الزنا لا يتعاطينه ولهذا قال (غير مسافحات) وهن الزوانى اللاتى لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة ـ وقوله تعالى (ولا متخذات أخدان) قال ابن عباس . (المسافحات) هن الزوانى المعلنات يعنى الزوانى اللاتى لا يمنعن أحدا أرادهن بالفاحشة . وقال ابن عباس : ومتخذات أخدان يعنى أخلاء وكذا روى عن أبى هريرة ومجاهد والشعبى والضحاك وعطاء الخراسانى ويحيى بن أبى كثير ومقاتل بن حيان والسدى قالوا أخلاء وقال الحسن البصرى يعنى الصديق . وقال الضحاك أيضا (ولا متخذات أخدان) ذات الخليل الواحد المقرة به نهى الله عن ذلك يعنى تزويجها مادامت كذلك

وقوله تعالى (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) اختلف القراء فى أحصن

فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد مبنى لمالم يسم فاعله . وقرىء بفتح الهمزة والصاد فعل لازم ، ثم قيل : معنى القراءتين واحد ، واختلفوا فيه على قولين (أحدهما) أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام ، وروى ذلك عن عبد الله بن مسعود وابن عمر وأنس والأسود بن يزيد وزز بن حبيش وسعيد بن جبير وعطاء وإبراهيم النخعي والشعبي والسدى وروى نحوه الزهرى عن عمر بن الخطاب وهو منقطع ، وهـذا هو القول الذى نص عليـه الشافعى فى رواية الربيع قال : وإنما قلنا ذلك استدلا لا بالسنة وإجماع أكثر أهل العلم . وقد روى ابن أبي حاتم فى ذلك حديثا مرفوعا قال : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد حدثنا أحمد بن عبدالرحمن بن عبد الله حدثنا أبى عن أبيه عن أبى حمزة عن جابر عن رجل عن أبى عبد الرحمن عن على بن أبى طالب قال : قال رسـول الله ﷺ (فإذا أحصن) قال « إحصانها إسلامها وعفافها » وقال : المراد به ههنا التزويج قال : وقال على اجلدوهن ، ثم قال ابن أبي حاتم : وهو حديث منكر (قلت) وفى إسناده ضعف ، وفيـه من لم يسم ، ومثله لا تقوم به حجة . وقال القاسم وسالم : إحصانها إسـلامها وعفافها . وقيـل المراد به ههنا التزويج ، وهو قول ابن عباس ومجاهـد وعكرمة وطاوس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم . ونقله أبو على الطبرى فى كتابه الايضاح عن الشافعى فيما رواه أبو الحكم بن عبد الحكم عنه . وقد روى ليث بن أبى سليم عن مجاهد أنه قال : إحصان الأمة أن ينكحها الحر ، وإحصان العبد أن ينكح الحرة ، وكذا روى ابن أبى طلحة عن ابن عباس رواهما ابن جرير فى تفسيره . وذكره ابن أبى حاتم عن الشعبي والنخعى . وقيل : معنى القراءتين متباين . فمن قرأ أحصن بضم الهمزة فمراده التزويج ، ومن قرأ بفتحها فمراده الإسـلام . اختاره أبو جعفر بن جرير فى تفسيره وقرره ونصره ؛ والأظهر والله أعلم أن المراد بالإحصان ههنا التزويج ، لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه وتعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) والله أعلم . والآية الكريمة سياقها فى الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله (فإذا أحصن) أى تزوجن كما فسره ابن عباس وغيره ، وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور ، وذلك أنهم يقولون : إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة ، سواء كانت مسلمة أو كافرة ، مزوجة أو بكرا ، مع أن مفهوم الآية يقتضى أنه لاحد على غير المحصنة ممن زنا من الإماء . وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك ، فأما الجمهور فقالوا : لاشك إن المنطوق مقدم على المفهوم . وقد وردت أحاديث عامة فى إقامة الحد على الاماء فقدمناها على مفهوم الآية . فمن ذلك مارواه مسلم فى صحيحه عن على رضى الله عنه أنه خطب فقال . يا أيها الناس أقيموا الحد على إمائكم من أحصن منهن ومن لم يحصن ، فان أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرنى أن أجلدها ، فإذا هى حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : «أحسنت اتركها حتى تماثل » وعند عبد الله بن أحمد عن غير أبيه «فإذا تعافت من نفاسها فاجلدها خمسين » وعن أبى هريرة قال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول : « إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليهـا . ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليهـا ، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر » ولمسلم « إذا زنت ثلاثا فليبعها فى الرابعة » وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار عن عبدالله[1] بن عياش بن أبى ربيعة المخزومى قال : أمرنى عمر بن الخطاب فى فتية من قريش فجلدنا من ولائد الامارة خمسين خمسين من الزنا

(الجواب الثانى) جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها ، وإنمـا تضرب تأديباً وهو المحكى عن ابن عباس رضى الله عنه . وإليه ذهب طاوس وسعيد بن جبير وأبوعبيد القاسم بن سلام وداود بن على الظاهرى فى رواية عنه . وعمدتهم مفهوم الآية . وهو من مفاهيم الشرط . وهو حجة عند أكثرهم فقدم على العموم عندهم وحديث أبى هريرة وزيد بن خالد أن رسـول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ! قال « إن زنت فحدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم بيعوها ولو بضفير[2] . قال ابن شهاب . لا أدرى بعد الثالثة أو الرابعـة . أخرجاه فى الصحيحين . وعند مسلم قال ابن شهاب : الضفير الحبل . قالوا . فلم يؤقت فيه عدد كما أقت فى المحصنة وكما وقت فى

(١) فى نسخة الأزهر : عن عبد الله بن عباس أن أبا رستم المخزومى (٢) وفيها : بظفر .

القرآن بنصف ما على المحصنات ، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك والله أعلم — وأصرح من ذلك مارواه سعيد ابن منصور عن سفيان عن مسعر عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس على أمة حد حتى تحصن — يعنى تزوج — فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات » وقد رواه ابن خزيمة عن عبد الله بن عمران العابدى عن سفيان به مرفوعا ، وقال : رفعه خطأ إنما هو من قول ابن عباس وكذا رواه البيهقى من حديث عبد الله بن عمران وقال مثل ماقاله ابن خزيمة قالوا : وحديث على وعمر قضايا أعيان ، وحديث أبى هريرة عنه أجوبة (أحدها) أن ذلك محمول على الأمة المزوجة جمعا بينه وبين هذا الحديث (الثانى) أن لفظة الحد فى قوله « فليقم عليها الحد » مقحمة من بعض الرواة بدليل الجواب الثالث ، وهو أن هذا من حديث صحابيين وذلك من رواية أبى هريرة فقط ، وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقديم من رواية واحد ، وأيضا فقد رواه النسائى باسناد على شرط مسلم من حديث عباد بن تميم عن عمه ، وكان قد شهد بدراً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا زنت الأمة فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فبيعوها ولو بضفير » (الرابع) أنه لايبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ الحد فى الحديث على الجلد ، لأنه لما كان الجلد اعتقد أنه حد . أو أنه أطلق لفظة الحد على التأديب . كما أطلق الحد على ضرب من زنى من المرضى بعثكال نخل فيه مائة شمراخ . وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيها مائة ، وإنما ذلك تعزير وتأديب عند من يراه كأحمد وغيره من السلف . وإنما الحد الحقيقى هو جلد البكر مائة . ورجم الثيب أو اللائط والله أعلم . وقد روى ابن ماجه وابن جرير فى تفسيره : حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة أنه سمع سعيد بن جبير يقول : لاتضرب الأمة إذا زنت مالم تتزوج ، وهذا إسناد صحيح عنه ، ومذهب غريب إن أراد أنها لاتضرب الأمة أصلا لاحداً ، وكأنه أخذ بمفهوم الآية ولم يبلغه الحديث ، وإن أراد أنها لاتضرب حداً ، ولاينفى ضربها تأديبا ، فهو كقول ابن عباس رضى الله عنه ومن تبعه فى ذلك والله أعلم . (الجواب الثالث) أن الآية دلت على أن الأمة المحصنة تحد نصف حد الحرة ، فأما قبل الإحصان فعمومات الكتاب والسنة شاملة لها فى جلدها مائة كقوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وكحديث عبادة بن الصامت « خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة ورجمها بالحجارة » والحديث فى صحيح مسلم وغير ذلك من الأحاديث . وهذا القول هو المشهور عن داود بن على الظاهرى وهو فى غاية الضعف لأن الله تعالى إذا كان أمر بجلد المحصنة من الإماء بنصف ما على الحرة من العذاب وهو خمسون جلدة فكيف يكون حكمها قبل الاحصان أشد منه بعد الاحصان وقاعدة الشريعة فى ذلك عكس ماقال ، وهذا الشارع عليه السلام سأله أصحابه عن الأمة إذا زنت ولم تحصن فقال اجلدوها ولم يقل مائة ، فلو كان حكمها كما زعم داود لوجب بيان ذلك لهم لأنهم إنما سألوا عن ذلك لعدم بيان حكم جلد المائة بعد الإحصان فى الإماء وإلا فما الفائدة فى قولهم ولم تحصن لعدم الفرق بينهما لو لم تكن الآية نزلت لكن لما علموا أحد الحكمين سألوا عن الآخر فبينه لهم كما فى الصحيحين أنهم لما سألوه عن الصلاة عليه فذكرها لهم ثم قال « والسلام ما قد علمتم » وفى لفظ لما أنزل الله قوله (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) قالوا هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك وذكر الحديث وهكذا هذا السؤال . (الجواب الرابع) عن مفهوم الآية جواب أبى ثور وهو أغرب من قول داود من وجوه وذلك أنه يقول : فإذا أحصن فإن عليهن نصف ما على المحصنات المزوجات الرجم وهو لا يتنصف فيجب أن ترجم الأمة المحصنة إذا زنت ، وأما قبل الاحصان فيجب جلدها خمسين فأخطأ فى فهم الآية وخالف الجمهور فى الحكم ، بل قد قال أبو عبدالله الشافعى رحمه الله ولم يختلف المسلمون فى أن لارجم على مملوك فى الزنا ؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب والألف واللام فى المحصنات للعهد وهن المحصنات المذكورات فى أول الآية (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات) والمراد بهن الحرائر فقط من غير تعرض للتزويج بحرة وقوله (نصف ما على المحصنات من العذاب) يدل على أن المراد من العذاب الذى يمكن تبعيضه وهو الجلد لا الرجم والله

أعلم. وقد روى أحمد حديثاً فى رد مذهب أبى ثور من رواية الحسن بن سعيد عن أبيه أن صفية كانت قد زنت برجل من الحمس فولدت غلاما فادعاه الزانى فاختصما إلى عثمان فرفعهما إلى على بن أبى طالب فقال على أقضى فيهما بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الولد للفراش ، وللعاهر الحجر وجلدهما خمسين خمسين وقيل بل المراد من المفهوم التنبيه بالأعلى على الأدنى أى أن الاماء على النصف من الحرائر فى الحد وإن كن محصنات وليس عليهن رجم أصلا لا قبل النكاح ولا بعده ، وإنما عليهن الجلد فى الحالين بالسنة قال ذلك صاحب الافصاح وذكر هذا عن الشافعى فيما رواه ابن عبد الحكم وقد ذكر البيهقى فى كتاب السنن والآثار عنه وهو بعيد من لفظ الآية لأنا إنما استفدنا تنصيف الحد من الآية لامن سواها فكيف يفهم منها التنصيف فيما عداها وقال بل أريد بأنها فى حال الاحصان لا يقيم الحد عليها إلا الإمام ولا يجوز لسيدها إقامة الحد عليها والحالة هذه وهو قول فى مذهب أحمد رحمه الله ، فأما قبل الاحصان فله ذلك والحد فى كلا الموضعين نصف حد الحرة وهذا أيضاً بعيد لأنه ليس فى الآية ما يدل عليه ، ولولا هذه لم ندر ما حكم الإماء فى التنصيف ولوجب دخولهن فى عموم الآية فى تكميل الحد مائة أو رجمهن كما ثبت فى الدليل عليه ، وقد تقدم عن على أنه قال : أيها الناس أقيموا الحد على أرقائكم من أحصن منهم ومن لم يحصن ، وعموم الأحاديث المتقدمة ليس فيها تفصيل بين المزوجة وغيرها لحديث أبى هريرة الذى احتج به الجمهور إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها . ملخص الآية أنها إذا زنت أقوال. أحدها تجلد خمسين قبل الاحصان وبعده ، وهل تنفى فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنها تنفى عنه . والثانى لا تنفى عنه مطلقاً ، والثالث أنها تنفى نصف سنة وهو نصف نفى الحرة وهذا الخلاف فى مذهب الشافعى ، وأما أبو حنيفة فعنده أن النفى تعزير ليس من تمام الحد ، وإنما هو رأى الإمام إن شاء فعله وإن شاء تركه فى حق الرجال والنساء ، وعند مالك أن النفى إنما هو على الرجال وأما النساء فلا لأن ذلك مضاد لصيانتهن وما ورد شىء من النفى فى الرجال ولا النساء . نعم حديث عبادة وحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفى عام وبإقامة الحد عليه رواه البخارى وذلك مخصوص بالمعنى وهو أن المقصود من النفى الصون وذلك مفقود فى نفى النساء والله أعلم والثانى أن الأمة إذا زنت تجلد خمسين بعد الإحصان وتضرب تأديبا غير محدود بعدد محصور وقد تقدم ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنها لا تضرب قبل الإحصان وإن أراد نفيه فيكون مذهباً بالتأويل وإلا فهو كالقول الثانى . القول الآخر أنها تجلد قبل الاحصان مائة وبعده خمسين كما هو المشهور عن داود وهو أضعف الأقوال أنها تجلد قبل الاحصان خمسين وترجم بعده وهو قول أبى ثور وهو ضعيف أيضاً والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وقوله تعالى (ذلك لمن خشى العنت منكم) أى إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع فى الزنا وشق عليه الصبر عن الجماع وعنت بسبب ذلك كله فله حينئذ أن يتزوج بالأمة وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه فى الكف عن الزنا فهو خير له لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها إلا أن يكون الزوج غريباً فلا تكون أولاده منها أرقاء فى قول قديم للشافعى ولهذا قال (وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم) ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهور العلماء فى جواز نكاح الإماء على أنه لابد من عدم الطول لنكاح الحرائر ومن خوف العنت لما فى نكاحهن من مفسدة رق الأولاد ولما فيهن من الدناءة فى العدول عن الحرائر اليهن وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه فى اشتراط الأمرين فقالوا متى لم يكن الرجل مزوجا بحرة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتابية أيضا سواء كان واجدا لطول حرة أم لا وسواء خاف العنت أم لا وعمدتهم فيما ذهبوا اليه قوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى العفائف وهو يعم الحرائر والإماء وهذه الآية عامة وهذه أيضا ظاهرة فى الدلالة على ما قاله الجمهور والله أعلم

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) يعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها (ويتوب عليكم) أي من الاثم والمحارم (والله عليم حكيم) أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله وقوله (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلا عظيما (يريد الله أن يخفف عنكم) أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الاماء بشروط كما قال مجاهد وغيره (وخلق الإنسان ضعيفا) فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمته وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وكيع عن سفيان عن ابن طاوس عن أبيه (وخلق الإنسان ضعيفا) أي في أمر النساء وقال وكيع يذهب عقله عندهن . وقال موسى الكليم عليه السلام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء حين مر عليه راجعا من عند سدرة المنتهى فقال له ماذا فرض عليكم فقال أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة فقال له ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك فاني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا وإن أمتك أضعف أسماعا وأبصارا وقلوبا فرجع فوضع عشرا . ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك بقيت خمساً الحديث

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا * إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضا بالباطل أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا حتى قال ابن جرير : حدثني ابن المثنى حدثنا عبد الوهاب حدثنا داود عن عكرمة عن ابن عباس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول إن رضيته أخذته وإلا رددت معه درهما قال هو الذي قال الله عز وجل فيه (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن حرب الموصلي حدثنا ابن الفضيل عن داود الأودي عن عامر عن علقمة عن عبد الله في الآية قال إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لما أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قال المسلمون إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل أموالنا ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكيف الناس فأنزل الله بعد ذلك (ليس على الأعمى حرج) الآية وكذا قال قتادة وقوله تعالى (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) قرىء تجارة بالرفع وبالنصب وهو استثناء منقطع كأنه يقول لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال كما قال تعالى (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) وكقوله (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى). ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول لأنه يدل على التراضي نصا بخلاف المعاطاة فانها قد لا تدل على الرضا ولا بد، وخالف الجمهور في ذلك مالك وأبو حنيفة وأحمد فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعا فصححوا بيع المعاطاة مطلقا ومنهم من قال يصح في المحقرات وفيما يعده الناس بيعا وهو احتياط نظر من محققي المذهب والله أعلم وقال مجاهد (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) بيعا أو عطاء يعطيه أحد أحدا ورواه ابن جرير ثم قال وحدثنا وكيع حدثنا أبي عن القاسم عن سليمان الجعفي عن أبيه عن ميمون بن مهران قال: قال رسول الله ﷺ «البيع عن تراض، والخيار بعد الصفقة، ولا يحل لمسلم أن يغش مسلما » هذا حديث مرسل. ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « البيعان بالخيار مالم يتفرقا » وفي لفظ البخاري «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار

مالم يتفرقا » وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي وأصحابها وجمهور السلف والخلف ، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام بحسب ما يتبين فيه مال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها كما هو المشهور عن مالك رحمه الله وصححوا بيع المعاطاة مطلقا وهو قول فى مذهب الشافعى ، ومنهم من قال يصح بيع المعاطاة فى المحقرات فيما يعده الناس بيعا وهو اختيار طائفة من الأصحاب كما هو متفق عليه وقوله (ولا تقتلوا أنفسكم) أى بارتكاب محارم الله وتعاطى معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل (إن الله كان بكم رحيما) أى فيما أمركم به ونهاكم عنه . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبى حبيب عن عمران بن أبى أنس عن عبد الرحمن ابن جبير عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه قال : لما بعثه النبى صلى الله عليه وسلم عام ذات السلاسل قال احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح قال : فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له فقال « ياعمرو صليت بأصحابك وأنت جنب » قال : قلت يا رسول الله إنى احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فذكرت قول الله عز وجل (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فتيممت ثم صليت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا وهكذا رواه أبو داود من حديث يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبى حبيب به ورواه أيضا عن محمد بن أبى سلمة عن ابن وهب عن ابن لهيعة وعمر بن الحارث كلاهما عن يزيد بن أبى حبيب عن عمران بن أبى أنس عن عبد الرحمن بن جبير المصرى عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص عنه فذكر نحوه وهذا والله أعلم أشبه بالصواب . وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد البلخى حدثنا محمد بن صالح بن سهل البلخى حدثنا عبد الله بن عمر القواريرى حدثنا يوسف بن خالد حدثنا زياد ابن سعد عن عكرمة عن ابن عباس أن عمرو بن العاص صلى بالناس وهو جنب فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له فدعاه فسأله عن ذلك فقال يارسول الله خفت أن يقتلنى البرد وقد قال الله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) الآية فسكت عنه رسول الله ﷺ ، ثم أورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة من حديث الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها بطنه يوم القيامة فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بسم فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا[1] » وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين وكذلك رواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه وعن أبى قلابة[1] عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل نفسه بشىء عذب به يوم القيامة » وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم من طريق أبى قلابة . وفى الصحيحين من حديث الحسن عن جندب بن عبد الله البجلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكينا نحر بها يده فمارقأ الدم حتى مات ، قال الله عز وجل عبدى بادرنى بنفسه حرمت عليه الجنة » ولهذا قال تعالى (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما) أى ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتديا فيه ظالما فى تعاطيه أى عالما بتحريمه متجاسرا على انتهاكه (فسوف نصليه نارا) الآية وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد وقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) الآية أى إذا اجتنبتم كبائر الآثام التى نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة ولهذا قال (وندخلكم مدخلا كريما) وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا مؤمل بن هشام حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا خالد بن أيوب عن معاوية بن قرة عن أنس رفعه قال : لم نر مثل الذى بلغنا عن ربنا عز وجل ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال أن تجاوز لنا عما دون الكبائر يقول الله (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) الآية وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر قال الإمام أحمد : حدثنا هشيم عن مغيرة عن أبى معشر عن إبراهيم عن مربع الضبى عن سلمان الفارسى قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم « أتدرى ما يوم الجمعة » قلت هو اليوم الذى جمع الله فيه أباكم قال « لكن أدرى ما يوم الجمعة لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ثم يأتى الجمعة فينصت حتى يقضى الإمام صلاته إلا كانت كفارة له

(١) فى نسخة الأزهر : ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردد فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا .

مابينها وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة» وقد روى البخارى من وجه آخر عن سلمان نحوه وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى المثنى حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثنى خالد عن سعيد بن أبى هلال عن نعيم المجمر أخبرنى صهيب مولى الصوارى أنه سمع أبا هريرة وأبا سعيد يقولان خطبنا رسول الله ﷺ يوما فقال « والذى نفسى بيده » ثلاث مرات ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكى لاندرى ماذا حلف عليه ثم رفع رأسه وفى وجهه البشرى فكان أحب الينا من حمر النعم فقال : «مامن عبد يصلى الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ثم قيل له ادخل بسلام » وهكذا رواه النسائى والحاكم فى مستدركه من حديث الليث بن سعد به ورواه الحاكم أيضا وابن حبان فى صحيحه من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال به ثم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ﴿ تفسير هذه السبع ﴾ وذلك بما ثبت فى الصحيحين من حديث سليمان بن هلال عن ثور بن زيد عن سالم أبى الغيث عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل يارسول الله وماهن ؟ قال «الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (طريق أخرى عنه) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا فهد بن عوف حدثنا أبو عوانة عن عمرو بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الكبائر سبع أولها الإشراك بالله ، ثم قتل النفس بغير حقها وأكل الربا وأكل مال اليتيم إلى أن يكبر والفرار من الزحف ورمى المحصنات والانقلاب إلى الأعراب بعد الهجرة» فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لاينفى ماعداهن إلا عند من يقول بمفهوم اللقب وهو ضعيف عند عدم القرينة ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع فمن ذلك مارواه الحاكم فى مستدركه حيث قال : حدثنا أحمد بن كامل القاضى إملاء حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد حدثنا معاذ بن هانىء حدثنا حرب بن شداد حدثنا يحيى ابن أبى كثير عن عبد الحميد بن سنان عن عبيد بن عمير عن أبيه يعنى عمير بن قتادة رضى الله عنه أنه حدثه وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع « ألا إن أولياء الله المصلون من يقم الصلوات الخمس التى كتب الله عليه، ويصوم رمضان ويحتسب صومه يرى أنه عليه حق ويعطى زكاة ماله يحتسبها ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها » ثم إن رجلا سأله فقال يا رسول الله ما الكبائر ؟ فقال « تسع[1]: الشرك بالله . وقتل نفس مؤمن بغير حق وفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وقذف المحصنة وعقوق الوالدين المسلمين واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا ثم لايموت رجل لايعمل هؤلاء الكبائر . ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فى دار مصانعها من ذهب » هكذا رواه الحاكم مطولا وقد أخرجه أبو داود والنسائى مختصرا من حديث معاذ بن هانىء به وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديثه مبسوطا ثم قال الحاكم رجاله كلهم يحتج بهم فى الصحيحين إلا عبد الحميد بن سنان (قلت) وهو حجازى لايعرف إلا بهذا الحديث وقد ذكره ابن حبان فى كتاب الثقات . وقال البخارى فى حديثه نظر وقد رواه ابن جرير عن سليمان بن ثابت الجحدرى عن سالم بن سلام عن أيوب بن عتبة عن يحيى بن أبى كثير عن عبيد بن عمير عن أبيه فذكره ولم يذكر فى الاسناد عبد الحميد بن سنان والله أعلم (حديث آخر فى معنى ماتقدم) قال ابن مردويه : حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا أحمد بن يونس حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا عبد العزيز عن مسلم بن الوليد عن المطلب عن عبد الله بن حنطب عن ابن عمر قال : صعد النبى صلى الله عليه وسلم المنبر فقال « لا أقسم لا أقسم » ثم نزل فقال : « أبشروا أبشروا من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر السبع نودى من أبواب الجنة ادخل » قال عبد العزيز : لا أعلمه قال إلا « بسلام » وقال المطلب : سمعت من سأل عبد الله بن عمر سمعت رسول الله ﷺ يذكرهن ؟ قال : نعم « عقوق الوالدين ، وإشراك بالله ، وقتل النفس وقذف المحصنات ، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ، وأكل الربا » (حديث آخر فى معناه) قال أبو جعفر بن جرير فى التفسير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا زياد بن مخراق عن طيسلة بن مياس قال : كنت مع النجدات[2] فأصبت ذنوبا لا أراها إلا

(١) قوله: تسع الخ : هكذا فى النسخ وحرر العدد (٢) بياض فى الأميرية، وفى نسخة الأزهر : النجدات، وفى ابن جرير : الحدثان .

من الكبائر فلقيت ابن عمر فقلت له : إنى أصبت ذنوبا لا أراها إلا من الكبائر قال : ماهى ؟ قلت : أصبت كذا وكذا قال : ليس من الكبائر قلت : وأصبت كذا وكذا قال ليس من الكبائر قال أشيء لم يسمه طيسلة ؟ قال هى تسع(١) وسأعدهن عليك « الاشراك بالله ؛ وقتل النفس بغير حقها ، والفرار من الزحف وقذف المحصنة وأكل الربا وأكل مال اليتيم ظلما . وإلحاد فى المسجد الحرام والذى يستسخر ، وبكاء الوالدين من العقوق » قال زياد وقال طيسلة لما رأى ابن عمر فرقى قال : أتخاف النار أن تدخلها ؟ قلت : نعم قال : وتحب أن تدخل الجنة ؟ قلت : نعم قال أحى والداك ؟ قلت : عندى أمى قال فوالله لئن أنت ألنت لها الكلام ، وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبت الموجبات (طريق أخرى) قال ابن جرير : حدثنا سليمان(٢) بن ثابت الجحدرى الواسطى أنا سلمة(٣) بن سلام حدثنا أيوب بن عتبة عن طيسلة بن على النهدى قال : أتيت ابن عمر فى ظل أراك يوم عرفة وهو يصب الماء على رأسه ووجهه قلت : أخبرنى عن الكبائر ؟ قال : هى تسع قلت : ماهى ؟ قال : « الإشراك بالله وقذف المحصنة » قال قلت : مثل قتل النفس(٤) قال نعم ورغما « وقتل النفس المؤمنة والفرار من الزحف ، والسحر وأكل الربا . وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين المسلمين وإلحاد بالبيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا » هكذا رواه من هذين الطريقين موقوفا وقد رواه على ابن الجعد عن أيوب بن عتبة عن طيسلة بن على قال : أتيت ابن عمر عشية عرفة ، وهو تحت ظل أراكة وهو يصب الماء على رأسه فسألته عن الكبائر ! فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « هن سبع » قال قلت : وما هن قال « الإشراك بالله وقذف المحصنات » قال قلت : قبل الدم قال : نعم ورغما « وقتل النفس المؤمنة ، والفرار من الزحف والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين وإلحاد بالبيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا » وهكذا رواه الحسن ابن موسى الأشيب عن أيوب بن عتبة اليمانى وفيه ضعف والله أعلم . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا زكريا ابن عدى حدثنا بقية عن يحيى بن سعيد عن خالد بن معدان أن أبا رهم السمعى حدثهم عن أبى أيوب قال : قال رسول الله ﷺ « من عبد الله لا يشرك به شيئا ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، واجتنب الكبائر فله الجنة – أو دخل الجنة – » فسأله رجل ما الكبائر ؟ فقال « الشرك بالله ، وقتل نفس مسلمة ، والفرار من الزحف » ورواه أحمد أيضاً ، والنسائى من غير وجه عن بقية (حديث آخر) روى ابن مردويه فى تفسيره من طريق سليمان بن داود اليمانى – وهو ضعيف – عن الزهرى عن الحافظ أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده قال : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتابا فيه الفرائض والسنن والديات ، وبعث به مع عمرو بن حزم قال : وكان فى الكتاب « إن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة : إشراك بالله ، وقتل النفس المؤمنة بغير حق ، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف ، وعقوق الوالدين ، ورمى المحصنة ، وتعلم السحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم » . (حديث آخر فيه ذكر شهادة الزور) قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثنى عبد الله(٥) بن أبى بكر قال سمعت أنس بن مالك قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر فقال « الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين » وقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى قال « الإشراك بالله ، وقول الزور – أو شهادة الزور – » أخرجاه من حديث شعبة به . وقد رواه ابن مردويه من طريقين آخرين غريبين عن أنس بنحوه . (حديث آخر) أخرجه الشيخان من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال : قال النبى ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » قلنا بلى يا رسول الله قال « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين – » – وكان متكئا فجلس فقال « ألا وشهادة الزور ، ألا وقول الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . (حديث آخر فيه ذكر قتل الولد) وهو ثابت فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ وفى رواية أكبر ؟ قال « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أى قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت ثم أى قال « أن تزانى حليلة جارك » ثم قرأ (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر – إلى قوله – إلا من تاب) . (حديث آخر فيه ذكر شرب الخمر) قال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب حدثنى ابن(٦) صخر أن رجلا حدثه عن عمارة بن حزم أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص وهو بالحجر بمكة ، وسأله رجل عن الخمر فقال والله إن عظيما عند الله الشيخ مثلى يكذب فى هذا

(١) : تسع إلخ هكذا فى النسخ وحرر العدد . (٢) فى نسخة الأزهر : مسلم ، وفى ابن جرير سالم . (٣) فى ابن جرير : الخراز (٤) وفيه : قبل القتل . (٥) وفيها : محمد . (٦) وفيها أبو .

المقام على رسول الله ﷺ فذهب فسأله ثم رجع فقال : سألته عن الخمر فقال « هى أكبر الكبائر ، وأم الفواحش من شرب الخمر ترك الصلاة . ووقع على أمه وخالته وعمته » غريب من هذا الوجه (طريق أخرى) رواها الحافظ أبو بكر ابن مردويه من حديث عبد العزيز بن محمد الدراوردى عن داود بن صالح عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه وعمر بن الخطاب وأناساً من أصحاب رسول الله ﷺ رضى الله عنهم أجمعين جلسوا بعد وفاة رسول الله ﷺ فذكروا أعظم الكبائر فلم يكن عندهم ما ينتهون إليه فأرسلونى إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أسأله عن ذلك فأخبرنى أن أعظم الكبائر شرب الخمر ، فأتيتهم فأخبرتهم فأنكروا ذلك ،فوثبوا إليه حتى أتوه فى داره فأخبرهم أنهم تحدثوا عند رسول الله ﷺ ان ملكا من بنى إسرائيل أخذ رجلا فخيره بين أن يشرب خمراً ؟ أو يقتل نفسا ، أو يزنى أو يأكل لحم خنزير أو يقتله ، فاختار شرب الخمر . وإنه لما شربها لم يمتنع من شىء أراده منه ، وإن رسول الله ﷺ قال لنا مجيبا « ما من أحد يشرب خمراً إلا لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ، ولا يموت أحد فى مثانته منها شىء إلا حرم الله عليه الجنة ، فان مات فى أربعين ليلة مات ميتة جاهلية » هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً ،وداود بن صالح هذا هو التمار المدنى مولى الأنصار قال الإمام أحمد: لا أرى به بأسا. وذكره ابن حبان فى الثقات ، ولم أر أحداً جرحه .. (حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو فيه ذكر اليمين الغموس. قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن فراس عن الشعبى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أكبر الكبائر الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، أو قتل النفس - شعبة الشاك - واليمين الغموس » ورواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث شعبة ،وزاد البخارى وشيبان كلاهما عن فراس به .(حديث آخر فى اليمين الغموس) قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثنا الليث بن سعد حدثنا هشام بن سعيد عن محمد بن يزيد بن مهاجر بن قنفذ التيمى عن أبى أمامة الأنصارى عن عبد الله بن أنيس الجهنى عن رسول الله ﷺ قال « أكبر الكبائر الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس ، وما حلف حالف بالله يمين صبر فأدخل فيها مثل جناح البعوضة إلا كانت وكتة فى قلبه إلى يوم القيامة » وهكذا رواه أحمد فى مسنده وعبد بن حميد فى تفسيره كلاهما عن يونس بن محمد المؤدب عن الليث بن سعد به ، وأخرجه الترمذى عن عبد بن حميد به وقال : حسن غريب وأبو أمامة الأنصارى هذا هو بن ثعلبة ولا يعرف اسمه. وقد روى عن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أحاديث . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى : وقد رواه عبد الرحمن بن إسحق المدنى عن محمد بن زيد عن عبد الله بن أبى أمامة عن أبيه عن عبد الله بن أنيس فزاد عبد الله بن أبى أمامة (قلت) هكذا وقع فى تفسير ابن مردويه وصحيح ابن حبان من طريق عبد الرحمن بن إسحق كما ذكره شيخنا فسح الله فى أجله (حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو فى التسبب إلى شتم الوالدين . قال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى حدثنا وكيع عن مسعر وسفيان عن سعد بن إبراهيم عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو رفعه سفيان إلى النبى ﷺ ، ووقفه مسعر على عبد الله بن عمرو قال « من الكبائر أن يشتم الرجل والديه » قالوا وكيف يشتم الرجل والديه ؟ قال « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ،ويسب أمه فيسب أمه » أخرجه البخارى عن أحمد بن يونس عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن عمه حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» قالوا وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان وشعبة ويزيد ابن الهاد ثلاثتهم عن سعد بن إبراهيم به مرفوعا بنحوه ، وقال الترمذى صحيح وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر ».(حديث آخر فى ذلك) قال ابن أبى حاتم حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنا دحيم حدثنا عمرو بن أبى سلمة حدثنا زهير بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « من أكبر الكبائر عرض الرجل المسلم ، والسبتان بالسبة » هكذا روى هذا الحديث ، وقد أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب من سننه عن جعفر بن مسافر عن عمرو بن أبى سلمة عن زهير بن محمد عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « من أكبر الكبائر استطالة الرجل فى عرض رجل مسلم بغير حق، ومن الكبائر السبتان بالسبة» وكذا رواه

ابن مردويه من طريق عبد الله بن العلاء بن زيد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكر مثله (حديث آخر في الجمع بين الصلاتين من غير عذر) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « من جمع بين صلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من أبواب الكبائر » وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي عن أبي سلمة يحيى بن خلف عن المعتمر بن سليمان به ، ثم قال حنش هو أبو علي الرحبي ، وهو حسين بن قيس، وهو ضعيف عند أهل الحديث، ضعفه أحمد وغيره. وروى ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد الصباح حدثنا إسماعيل بن علية عن خالد الحذاء عن حميد بن هلال عن أبي قتادة يعني العدوي قال: قرىء علينا كتاب عمر : من الكبائر جمع بين الصلاتين - يعني بغير عذر - والفرار من الزحف، والنهبة، وهذا إسناد صحيح . والغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر ، تقديما أو تأخيراً ، وكذا المغرب والعشاء كالجمع بسبب شرعي فمن تعاطاه بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكبا كبيرة ، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية ، ولهذا روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » وفي السنن مرفوعا عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة من تركها فقد كفر » وقال « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » وقال « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » (حديث آخر) فيه اليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله . قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل حدثنا أبي حدثنا شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان متكئاً فدخل عليه رجل فقال : ما الكبائر فقال « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله عز وجل ، والأمن من مكر الله ، وهذا أكبر الكبائر » وقد رواه البزار عن عبد الله بن إسحق العطار عن أبي عاصم النبيل عن شبيب بن بشر عن عكرمة عن بن عباس أن رجلا قال : يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال « الشرك بالله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله عز وجل » وفي إسناده نظر ، والأشبه أن يكون موقوفا ، فقد روى عن ابن مسعود نحو ذلك. وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم أخبرنا مطرف عن وبرة بن عبد الرحمن عن أبي الطفيل قال: قال ابن مسعود: أكبر الكبائر الاشراك بالله، واليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، وكذا رواه من حديث الأعمش وأبي إسحق عن وبرة عن أبي الطفيل عن عبد الله به، ثم رواه من طرق عدة عن أبي الطفيل عن ابن مسعود، وهو صحيح إليه بلا شك (حديث آخر) فيه سوء الظن بالله قال ابن مردويه حدثنا محمد بن إبراهيم بن بندار حدثنا أبو حاتم بكر بن عبدان حدثنا محمد بن مهاجر حدثنا أبو حذيفة البخاري عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر أنه قال : أكبر الكبائر سوء الظن بالله عز وجل حديث غريب جداً (حديث آخر) فيه التعرب بعد الهجرة قد تقدم من رواية عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا قال ابن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن رشدين حدثنا عمرو بن خالد الحراني حدثنا ابن لهيعة عن زياد بن أبي حبيب عن محمد ابن سهل ابن أبي خيثمة عن أبيه قال : سمعت النبي ﷺ يقول « الكبائر سبع ألا تسألوني عنهن ؟ الاشراك بالله. وقتل النفس والفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنة ، والتعرب بعد الهجرة » ، وفي إسناده نظر ورفعه غلط فاحش والصواب ما رواه ابن جرير حدثنا تميم بن المنتصر حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحق عن محمد بن سهل بن أبي خيثمة عن أبيه قال : إني لفي هذا المسجد مسجد الكوفة وعلي رضي الله عنه يخطب الناس على المنبر يقول يا أيها الناس الكبائر سبع فأصاخ الناس فأعادها ثلاث مرات ثم قال : لم لا تسألوني عنها ؟ قالوا يا أمير المؤمنين ماهي ؟ قال : الاشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف ، والتعرب بعد الهجرة . فقلت لأبي يا أبت التعرب بعد الهجرة كيف لحق ههنا ، قال يا بني وما أعظم من أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهمه في الفيء . ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع أعرابيا كما كان

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم حدثنا أبو معاوية يعني سنان عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة ابن قيس الأشجعي قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع « ألا إنهن أربع لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » قال فما أنا بأشح عليهن من شيء إذ سمعتهن من رسول الله ﷺ

وسلم . ثم رواه أحمد أيضا والنسائى وابن مردويه من حديث منصور بإسناده مثله

(حديث آخر) تقدم من رواية عمر بن المغيرة عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال « الإضرار فى الوصية من الكبائر » والصحيح ما رواه غيره عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال ابن أبى حاتم هو صحيح عن ابن عباس من قوله (حديث آخر فى ذلك) قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عباد بن عباد عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبى أمامة أن أناسا من أصحاب النبى ﷺ ذكروا الكبائر وهو متكئ فقالوا : الشرك بالله ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الزحف وقذف المحصنة ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور . والغلول . والسحر . وأكل الربا . فقال رسول الله ﷺ « فأين تجعلون الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا» إلى آخر الآية ، فى إسناده ضعف وهو حسن

﴿ ذكر أقوال السلف فى ذلك ﴾

قد تقدم ما روى عن عمر وعلى فى ضمن الأحاديث المذكورة، وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية عن ابن عون عن الحسن أن ناسا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها لا يعمل بها فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك فقدم وقدموا معه فلقى عمر رضى الله عنه فقال متى قدمت ؟ فقال : منذ كذا وكذا قال : أبإذن قدمت ؟ قال : فلا أدرى كيف رد عليه . فقال يا أمير المؤمنين إن ناسا لقونى بمصر فقالوا إنا نرى أشياء فى كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها فأحبوا أن يلقوك فى ذلك . قال : فاجمعهم لى قال فجمعتهم له قال ابن عون أظنه قال فى بهو فأخذ أدناهم رجلا فقال أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله قال نعم قال فهل أحصيته فى نفسك ؟ فقال اللهم لا قال ولو قال نعم لخصمه . قال فهل أحصيته فى بصرك ؟ فهل أحصيته فى لفظك ؟ هل أحصيته فى أثرك ؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم فقال ، ثكلت عمر أمه أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات قال وتلا (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) الآية . ثم قال هل علم أهل المدينة . أو قال : هل علم أحد بما قدمتم قالوا لا ، قال لو علموا لوعظت بكم إسناد صحيح ومتن حسن وإن كان من رواية الحسن عن عمر وفيها انقطاع إلا أن مثل هذا اشتهر فتكفى شهرته . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد ابن سنان حدثنا أبو أحمد يعنى الزبيرى حدثنا على بن صالح عن عثمان بن المغيرة عن مالك بن جرير[1] عن على رضى الله عنه قال : الكبائر الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة والفرار من الزحف والتعرب بعد الهجرة والسحر وعقوق الوالدين ، وأكل الربا ، وفراق الجماعة ، ونكث الصفقة . وتقدم عن ابن مسعود أنه قال أكبر الكبائر الإشراك بالله ، واليأس من روح الله ؛ والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله عز وجل وروى ابن جرير من حديث الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق والأعمش عن إبراهيم عن علقمة كلاهما عن ابن مسعود قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ومنه حديث سفيان الثورى وشعبة عن عاصم بن أبى النجود عن زر بن حبيش عن ابن مسعود قال أكبر الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ثم تلا (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية قال ابن أبى حاتم حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا صالح بن حيان عن ابن بريدة عن أبيه قال : أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضول الماء بعد الرى ومنع طروق الفحل إلا بجعل

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ » وفيهما عن النبى ﷺ أنه قال «ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل» وذكر تمام الحديث وفى مسند الإمام أحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا « من منع فضل الماء وفضل الكلا منعه الله فضله يوم القيامة » وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسين بن محمد بن شيبة الواسطى حدثنا أبو أحمد عن سفيان عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عائشة قالت ما أخذ على النساء من الكبائر قال ابن أبى حاتم يعنى قوله تعالى (على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن) الآية وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية

(١) فى نسخة الأزهر : جوين

حدثنا زياد بن مخراق عن معاوية بن قرة قال أتيت أنس بن مالك فكان فيما يحدثنا قال لم أر مثل الذى أتانا عن ربنا ثم لم يخرج له عن كل أهل ومال ثم سكت هنيهة ثم قال(١) والله لما كلفنا من ذلك انه تجاوز لنا عما دون الكبائر وتلا (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) الآية .

﴿ أقوال ابن عباس فى ذلك ﴾

روى ابن جرير من حديث المعتمر بن سليمان عن أبيه عن طاوس قال ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا هى سبع فقال: هى أكثر من سبع وسبع قال فلا أدرى كم قالها من مرة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن ليث عن طاوس قال قلت لابن عباس ما السبع الكبائر قال هى إلى السبعين أقرب منها إلى السبع ورواه ابن جرير عن ابن حميد عن ليث عن طاوس قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال أرأيت الكبائر السبع التى ذكرهن الله ماهن قال هن إلى السبعين أدنى منهن إلى سبع ، وقال عبد الرزاق أنا معمر عن طاوس عن أبيه قال قيل لابن عباس الكبائر سبع ؟ قال هن إلى السبعين أقرب ؛ وكذا قال أبو العالية الرياحى رحمه الله . وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن قيس بن سعد عن سعيد بن جبير أن رجلا قال لابن عباس كم الكبائر سبع ؟ قال هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار ؛ ولا صغيرة مع إصرار ، وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث شبل به وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) قال الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب رواه ابن جرير وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن حرب الموصلى حدثنا ابن فضيل حدثنا شبيب عن عكرمة عن ابن عباس قال الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار كبيرة وكذا قال(٢) سعيد بن جبير والحسن البصرى وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية أخبرنا أيوب عن محمد بن سيرين قال نبئت أن ابن عباس كان يقول كل مانهى الله عنه كبيرة وقد ذكرت الطرفة قال هى النظرة وقال أيضا حدثنا أحمد بن حازم أخبرنا أبو نعيم حدثنا عبدالله بن معدان عن أبى الوليد قال سألت ابن عباس عن الكبائر قال كل شىء عصى الله به فهو كبيرة

﴿ أقوال التابعين ﴾

قال ابن جرير حدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن ابن عون عن محمد قال سألت عبيدة عن الكبائر فقال: الإشراك بالله . وقتل النفس التى حرم الله بغير حقها . والفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا والبهتان . قال ويقولون أعرابية بعد هجرة قال ابن عون فقلت لمحمد فالسحر ؟ قال إن البهتان يجمع شرا كثيرا وقال ابن جرير حدثنى محمد بن عبيد المحاربى حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم عن أبى إسحق عن عبيد بن عمير قال الكبائر سبع ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله الإشراك بالله منهن (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح) الآية (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نارا) الآية (الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) (والذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) والفرار من الزحف (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) الآية والتعرب بعد الهجرة (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى) وقتل المؤمن (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) الآية وكذا رواه ابن أبى حاتم أيضا فى حديث أبى إسحق عن عبيد بن عمير بنحوه وقال ابن جرير : حدثنا المثنى ؛ حدثنا أبو حذيفة ؛ حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن عطاء يعنى ابن أبى رباح قال الكبائر سبع : قتل النفس وأكل مال اليتيم وأكل الربا ورمى المحصنة وشهادة الزور وعقوق الوالدين والفرار من الزحف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن مغيرة قال كان يقال شتم أبى بكر وعمر رضى الله عنهما من الكبائر قلت وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سب الصحابة وهو رواية عن مالك بن أنس رحمه الله وقال محمد بن سيرين ما أظن أحدا يبغض أبا بكر وعمر وهو يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه الترمذى وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا يونس أنا ابن وهب أخبرنى عبدالله بن عياش قال زيد بن أسلم فى قول الله عز وجل (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) من الكبائر : الشرك بالله والكفر بآيات الله ورسله

(١) فى نسخه الازهر : والله ماخلق ربنا أهون من ذلك لقد تجاوز إلخ . (٢) : وفيها : كل ما وعدالله عليه النار كبيرة .

والسحر وقتل الأولاد ، ومن دعى لله ولدا أو صاحبة — ومثل ذلك من الأعمال والقول الذى لا يصلح معه عمل . وأما كل ذنب يصلح معه دين ، ويقبل معه عمل فان الله يغفر السيئات بالحسنات قال ابن جرير حدثنا بشر بن معاذ ، حدثنا يزيد حدثنا سعيد ، عن قتادة (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية إنما وعدالله المغفرة لمن اجتنب الكبائر وذكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا الكبائر ، وسددوا ، وأبشروا » وقد روى ابن مردويه من طرق عن أنس وعن جابر مرفوعا «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» ولكن فى إسناده من جميع طرقه ضعف الإمام رواه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » فانه إسناد صحيح على شرط الشيخين وقد رواه أبو عيسى الترمذى منفردا به من هذا الوجه عن عباس العنبرى عن عبد الرزاق ثم قال هذا حديث حسن صحيح ، وفى الصحيح شاهد لمعناه وهو قوله ﷺ بعد ذكر الشفاعة « أترونها للمؤمنين المتقين ؟ لا ولكنها للخاطئين المتلوثين » وقد اختلف علماء الأصول والفروع فى حد الكبيرة فمن قائل هى ما عليه حد فى الشرع ومنهم من قال هى ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب والسنة وقيل غير ذلك . قال أبو القاسم عبد الكريم ابن محمد الرافعى فى كتابه الشرح الكبير الشهير فى كتاب الشهادات منه ثم اختلف الصحابة رضى الله عنهم فمن بعدهم فى الكبائر وفى الفرق بينها وبين الصغائر ولبعض الأصحاب فى تفسير الكبيرة وجوه أحدها أنها المعصية الموجبة للحد (والثانى) أنها المعصية التى يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنة وهذا أكثر ما يوجد لهم وإلى الأول أميل لكن الثانى أوفق لما ذكروه عند تفسير الكبائر (والثالث) قال إمام الحرمين فى الارشاد وغيره كل جريمة تنبىء بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة فهى مبطلة للعدالة (والرابع) ذكر القاضى أبو سعيد الهروى أن الكبيرة كل فعل نص الكتاب على تحريمه وكل معصية توجب فى جنسها حداً من قتل أو غيره وترك كل فريضة مأمور بها على الفور والكذب فى الشهادة والرواية واليمين هذا ما ذكروه على سبيل الضبط ثم قال وفصل القاضى الرويانى فقال الكبائر سبع : قتل النفس بغير الحق والزنا ، واللواطة ، وشرب الخمر ، والسرقة ، وأخذ المال غصبا ، والقذف وزاد فى الشامل على السبع المذكورة شهادة الزور أضاف إليها صاحب العدة أكل الربا ، والافطار فى رمضان بلا عذر ، واليمين الفاجرة ، وقطع الرحم وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم ، والخيانة فى الكيل والوزن ، وتقديم الصلاة على وقتها ، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر ، وضرب المسلم بلا حق ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمداً ؛ وسب أصحابه ، وكتمان الشهادة بلا عذر ، وأخذ الرشوة ، والقيادة بين الرجال والنساء ، والسعاية عند السلطان ، ومنع الزكاة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع القدرة ، ونسيان القرآن بعد تعلمه ، واحراق الحيوان بالنار ، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب ، واليأس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ويقال الوقيعة فى أهل العلم ، وحملة القرآن ومما يعد من الكبائر — الظهار ، وأكل لحم الخنزير والميتة الاعن ضرورة — ثم قال الرافعى وللتوقف مجال فى بعض هذه الخصال قلت : وقد صنف الناس فى الكبائر مصنفات منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى الذى بلغ نحو من سبعين كبيرة وإذا قيل إن الكبيرة ما توعد عليها الشارع بالنار بخصوصها كما قال ابن عباس وغيره وما يتبع ذلك اجتمع منه شىء كثير وإذا قيل كل مانهى الله عنه فكثير جداً والله أعلم .

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : قالت أم سلمه يارسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث فأنزل الله (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر عن سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن أم سلمة أنها قالت قلت يارسول الله فذكره وقال غريب ورواه بعضهم عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد أن أم سلمة

قالت يا رسول الله فذكره ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث الثوري عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال قالت أم سلمة يا رسول الله: لا نقاتل فنستشهد ولا نقطع الميراث فنزلت الآية ثم أنزل الله (أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) الآية ثم قال ابن أبي حاتم وكذا روى سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح بهذا اللفظ وروى يحيى القطان ووكيع بن الجراح عن الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله وروى عن مقاتل بن حيان وخصيف نحو ذلك وروى ابن جرير من حديث ابن جريج عن عكرمة ومجاهد أنهما قالا أنزلت في أم سلمة وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن شيخ من أهل مكة قال نزلت هذه الآية في قول النساء ليتنا الرجال فنجاهد كما يجاهدون ونغزو في سبيل الله عز وجل وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثني أحمد بن عبد الرحمن حدثني أبي ، حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر يعني ابن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية قال أتت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله للذكر مثل حظ الأنثيين وشهادة امرأتين برجل ونحن في العمل هكذا إن فعلت امرأة حسنة كتب لها نصف حسنة فأنزل الله هذه الآية (ولا تتمنوا) الآية فإنه عدل مني وأنا صنعته وقال السدي في الآية إن رجالا قالوا إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهمان وقالت النساء إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء فإنا لا نستطيع أن نقاتل ولو كتب علينا القتال لقاتلنا فأبى الله ذلك ولكن قال لهم سلوني من فضلي قال ليس بعرض الدنيا وقد روى عن قتادة نحو ذلك . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال ولا يتمنى الرجل فيقول ليت لو أن لي مال فلان وأهله فنهى الله عن ذلك ولكن يسأل الله من فضله. وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا وهو الظاهر من الآية ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق فيقول رجل لو أن لي مثل مال فلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء» فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية وذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا والآية نهت عن تمني عين نعمة هذا يقول (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) أي في الأمور الدنيوية وكذا الدينية لحديث أم سلمة وابن عباس وهكذا قال عطاء بن أبي رباح نزلت في النهي عن تمني مال فلان وفي تمني النساء أن يكن رجالا فيغزون رواه ابن جرير ثم قال (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) أي كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر هذا قول ابن جرير وقيل المراد بذلك في الميراث أي كل يرث بحسبه. رواه الوالبي عن ابن عباس ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال (واسئلوا الله من فضله) لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض فإن هذا أمر محتوم أي أن التمني لا يجدي شيئاً ولكن سلوني من فضلي أعطكم فإني كريم وهاب وقد روى الترمذي وابن مردويه من حديث حماد بن واقد سمعت إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج » ثم قال الترمذي كذا رواه حماد بن واقد وليس بالحافظ ورواه أبو نعيم عن إسرائيل عن حكيم بن جبير عن رجل عن النبي صلى الله عليه وسلم وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح وكذا رواه ابن مردويه من حديث وكيع عن إسرائيل ثم رواه من حديث قيس بن الربيع عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أحب عباد الله إلى الله الذي يحب الفرج » ثم قال (إن الله كان بكل شيء عليما) أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها وبمن يستحق الفقر فيفقره وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه ولهذا قال (إن الله كان بكل شيء عليما)

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو صالح وقتادة وزيد بن أسلم والسدي والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم

فى قوله (ولكل جعلنا موالى) أى ورثة وعن ابن عباس فى رواية أى عصبة قال ابن جرير والعرب تسمى ابن العم مولى كما قال الفضل ابن عباس مهلا بنى عمنا مهلا موالينا * لا يظهرن بيننا ما كان مدفونا

قال ويعنى بقوله مما ترك الوالدن والأقربون من تركة والديه وأقربيه من الميراث فتأويل الكلام ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له وقوله تعالى (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) أى والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة أنتم وهم فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم فى الأيمان المغلظة إن الله شاهد بينكم فى تلك العهود والمعاقدات وقد كان هذا فى ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا من عاقدوا ولا ينسوا بعد نزول هذه الآية معاقدة . قال البخارى حدثنا الصلت بن محمد حدثنا أبو أمامة عن إدريس عن طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولكل جعلنا موالى) قال ورثة (والذين عقدت أيمانكم) كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه للأخوة التى آخى النبى ﷺ بينهم فلما نزلت (ولكل جعلنا موالى) نسخت ثم قال (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له ثم قال البخارى سمع أبو أسامة إدريس وسمع إدريس عن طلحة قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة حدثنا إدريس الأودى أخبرنى طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (والذين عقدت أيمانكم) الآية قال كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه بالأخوة التى آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت (ولكل جعلنا موالى مما ترك الولدان والأقربون) نسخت ثم قال والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قال (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) فكان الرجل قبل الاسلام يعاقد الرجل ويقول وترثنى وأرثك وكان الاحياء يتحالفون فقال رسول الله ﷺ « كل حلف فى الجاهلية أو عقد أدركه الاسلام فلا يزيده الاسلام إلا شدة ولا عقد ولا حلف فى الاسلام » فنسختها هذه الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) ثم قال وروى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والحسن وابن المسيب وأبى صالح وسليمان بن يسار والشعبى وعكرمة والسدى والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا هم الحلفاء وقال الامام أحمد حدثنا عبد الله ابن محمد حدثنا ابن نمير وأبو أسامة عن زكريا عن سعيد بن إبراهيم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف فى الاسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة » وهكذا رواه مسلم ورواه النسائى من حديث إسحق بن يوسف الأزرق عن زكريا عن سعيد بن إبراهيم عن نافع عن جبير بن مطعم عن أبيه به وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن شريك عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثنا أبو كريب حدثنا مصعب بن المقدام عن إسرائيل عن يونس عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لاحلف فى الاسلام وكل حلف كان فى الجاهلية فلم يزده الاسلام إلا شدة وما يسرنى أن لى حمر النعم وأنى نقضت الحلف الذى كان فى دار الندوة » هذا لفظ ابن جرير وقال ابن جرير أيضا حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن عبد الرحمن بن إسحق عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن ابن عوف أن رسول الله ﷺ قال « شهدت حلف المطيبين وأنا غلام مع عمومتى فما أحب أن لى حمر النعم وأنا أنكثه » قال الزهرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يصب الاسلام حلفا إلا زاده شدة » قال « ولاحلف فى الاسلام » وقد ألف النبى صلى الله عليه وسلم بين قريش والأنصار وهكذا رواه الإمام أحمد عن بشر بن المفضل عن عبد الرحمن بن إسحق عن الزهرى بتمامه وحدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم أخبرنى مغيرة عن أبيه عن شعبة بن التوأم عن قيس بن عاصم أنه سأل النبى ﷺ عن الحلف قال فقال « ما كان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا به ولاحلف فى الاسلام » وهكذا رواه أحمد عن هشيم وحدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن داود بن أبى عبد الله عن ابن جدعان حدثه عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاحلف فى الاسلام وما كان من حلف فى الجاهلية لم

يزده الاسلام إلا شدة» وحدثنا كريب حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح قام خطيبا فى الناس فقال «يا أيها الناس ما كان من حلف فى الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة ولا حلف فى الاسلام» ثم رواه من حديث حسين المعلم وعبد الرحمن بن الحارث عن عمرو بن شعيب به وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا ابن نمير وأبو أسامة عن زكريا عن سعد عن إبراهيم عن أبيه عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ «لا حلف فى الاسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة» وهكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد وهو أبو بكر بن أبى شيبة بإسناده مثله ورواه أبو داود عن عثمان عن محمد بن أبى شيبة عن محمد بن بشر وابن نمير وأبى أسامة ثلاثتهم عن زكريا وهو ابن أبى زائدة باسناده مثله ورواه ابن جرير من حديث محمد بن بشر به ورواه النسائى من حديث إسحق بن يوسف الأزرق عن زكريا عن سعد بن إبراهيم عن نافع ابن جبير بن مطعم عن أبيه به وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم قال أخبرنا مغيرة عن أبيه عن شعبة بن التوأم عن قيس ابن عاصم أنه سأل النبى ﷺ عن الحلف فقال «ما كان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا به ولا حلف فى الاسلام» وكذا رواه شعبة عن مغيرة وهو ابن مقسم عن أبيه به وقال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين قال كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع مع ابن ابنها موسى بن سعد وكان يتيما فى حجر أبى بكر فقرأت عليها (والذين عاقدت أيمانكم) فقالت لا ولكن (والذين عقدت أيمانكم) قالت إنما نزلت فى أبى بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى أن يسلم فحلف أبو بكر أن لا يورثه فلما أسلم حين حمل على الاسلام بالسيف أمر الله أن يورثه نصيبه رواه ابن أبى حاتم وهذا قول غريب، والصحيح الأول وأن هذا كان فى ابتداء الاسلام يتوارثون بالحلف ثم نسخ وبقى تأثير الحلف بعد ذلك وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعهود والعقود والحلف الذى كانوا قد تعاقدوه قبل ذلك وتقدم فى حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة لا حلف فى الاسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة وهذا نص فى الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم كما هو مذهب أبى حنيفة وأصحابه ورواية عن أحمد بن حنبل والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه ولهذا قال تعالى (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون) أى ورثة من قراباته من أبويه وأقربيه وهم يرثونه دون سائر الناس كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر» أى اقسموا الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله فى آيتى الفرائض فما بقى بعد ذلك فأعطوه للعصبة وقوله (والذين عقدت أيمانكم) أى قبل نزول هذه الآية فآتوهم نصيبهم أى من الميراث فأيما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له وقد قيل إن هذه الآية نسخت الحلف فى المستقبل وحكم الحلف الماضى أيضا فلا توارث به كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة حدثنا إدريس الأودى أخبرنى طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فآتوهم نصيبهم قال من النصرة والنصيحة والرفادة ويوصى له وقد ذهب الميراث ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن أبى أسامة وكذا روى عن مجاهد وأبى مالك نحو ذلك وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (والذين عاقدت أيمانكم) قال كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر فأنزل الله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) يقول إلا أن توصوا لهم بوصية فهى لهم جائزة من ثلث المال وهذا هو المعروف وهكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) وقال سعيد بن جبير فآتوهم نصيبهم أى من الميراث قال وعاقد أبو بكر مولى فورثه رواه ابن جرير وقال الزهرى عن ابن المسيب نزلت هذه الآية فى الذين كانوا يتبنون رجالا غير أبنائهم يورثونهم فأنزل الله فيهم فجعل لهم نصيبا فى الوصية ورد الميراث إلى الموالى فى ذى الرحم والعصبة وأبى الله أن يكون للمدعين ميراث ممن ادعاهم وتبناهم ولكن جعل لهم نصيبا من الوصية رواه ابن جرير وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله فآتوهم نصيبهم، أى من النصرة والنصيحة والمعونة لا أن المراد فآتوهم نصيبهم من الميراث حتى تكون الآية منسوخة ولا أن ذلك كان حكما

ثم نسخ بل إنما دلت الآية على الوفاء بالحلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط فهى محكمة لا منسوخة وهذا الذى قاله فيه نظر فان من الحلف ما كان على المناصرة والمعاونة ومنه ما كان على الارث كما حكاه غير واحد من السلف وكما قال ابن عباس كان المهاجرى يرث الأنصار دون قراباته وذوى رحمه حتى نسخ ذلك فكيف يقولون إن هذه الآية محكمة غير منسوخة والله أعلم

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى (الرجال قوامون على النساء) أى الرجل قيم على المرأة أى هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت (بما فضل الله بعضهم على بعض) أى لأن الرجال أفضل من النساء والرجل خير من المرأة ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال وكذلك الملك الأعظم لقوله صلى الله عليه وسلم «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» رواه البخارى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه وكذا منصب القضاء وغير ذلك (وبما أنفقوا من أموالهم) أى من المهور والنفقات والكلف التى أوجبها الله عليهم لهن فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فالرجل أفضل من المرأة فى نفسه وله الفضل عليها والافضال فناسب أن يكون قيما عليها كما قال الله تعالى (وللرجال عليهن درجة) الآية وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (الرجال قوامون على النساء) يعنى أمراء عليهن أى تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله ، وكذا قال مقاتل والسدى والضحاك وقال الحسن البصرى جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم تشكو أن زوجها لطمها فقال رسول الله ﷺ « القصاص » فأنزل الله عز وجل (الرجال قوامون على النساء) الآية فرجعت بغير قصاص ورواه ابن جريج وابن أبى حاتم من طرق عنه وكذلك أرسل هذا الخبر قتادة وابن جريج والسدى أورد ذلك كله ابن جرير وقد أسنده ابن مردويه من وجه آخر فقال حدثنا أحمد بن على النسائى ، حدثنا محمد بن هبة الله الهاشمى ، حدثنا محمد بن محمد الأشعث حدثنا موسى بن إسماعيل ابن موسى بن جعفر بن محمد ، قال حدثنا أبى عن جدى ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه عن على قال أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له فقالت يا رسول الله إن زوجها فلان بن فلان الأنصارى وإنه ضربها فأثر فى وجهها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس له ذلك» فأنزل الله تعالى (الرجال قوامون على النساء) أى فى الأدب فقال رسول الله ﷺ « أردت أمراً وأراد الله غيره » وكذلك أرسل هذا الخبر قتادة وابن جريج والسدى أورد ذلك كله ابن جرير وقال الشعبى فى هذه الآية (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) قال الصداق الذى أعطاها ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها ولو قذفته جلدت وقوله تعالى (فالصالحات) أى من النساء (قانتات) قال ابن عباس وغير واحد يعنى المطيعات لأزواجهن (حافظات للغيب) وقال السدى وغيره أى تحفظ زوجها فى غيبته فى نفسها وماله وقوله (بما حفظ الله) أى المحفوظ من حفظه الله قال ابن جرير حدثنى المثنى، حدثنا أبو صالح حدثنا أبو معشر ، حدثنا سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك» قال ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (الرجال قوامون على النساء) إلى آخرها ورواه ابن أبى حاتم عن يونس بن حبيب عن أبى داود الطيالسى عن محمد بن عبد الرحمن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى به مثله سواء وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن أبى جعفر أن ابن قارظ أخبره أن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها قيل لها ادخلى الجنة من أى الأبواب شئت » تفرد به أحمد من طريق عبد الله بن قارظ عن

عبد الرحمن بن عوف وقوله تعالى(واللاتى تخافون نشوزهن) أى والنساء اللاتى تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن والنشوز هو الارتفاع فالمرأة الناشز هى المرتفعة على زوجها التاركة لأمره المعرضة عنه المبغضة له فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله فى عصيانه فان الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والافضال وقد قال رسول الله ﷺ « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح » ورواه مسلم ولفظه « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح » ولهذا قال تعالى (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن) وقوله (واهجروهن فى المضاجع) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس الهجر هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره وكذا قال غير واحد وزاد آخرون منهم السدى والضحاك وعكرمة وابن عباس فى رواية ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها وقال على بن أبى طلحة أيضا عن ابن عباس يعظها فان هى قبلت والا هجرها فى المضجع ولا يكلمها من غير أن يرد نكاحها وذلك عليها شديد وقال مجاهد والشعبى وإبراهيم ومحمد بن كعب ومقسم وقتادة : الهجر هو أن لا يضاجعها وقد قال أبو داود حدثنا موسى ابن إسماعيل حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى مرة الرقاشى عن عمه أن النبى ﷺ قال « فان خفتم نشوزهن فاهجروهن فى المضاجع » قال حماد يعنى النكاح وفى السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال : يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه قال « أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » وقوله واضربوهن أى إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران فلكم أن تضربوهن ضربا غير مبرح كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال فى حجة الوداع « واتقوا الله فى النساء فانهن عندكم عوان ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فان فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وكذا قال ابن عباس وغير واحد ضربا غير مبرح قال الحسن البصرى يعنى غير مؤثر قال الفقهاء هو أن لا يكسر فيها عضوا ولا يؤثر فيها شيئا وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يهجرها فى المضجع فان أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضربا غير مبرح ولا تكسر لها عظما فان أقبلت وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية وقال سفيان بن عيينة عن الزهرى عن عبد الله بن عبد الله بن عمر عن إياس ابن عبد الله بن أبى ذئاب قال : قال النبى ﷺ « لا تضربوا إماء الله » فجاء عمر رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال ذئرت النساء على أزواجهن فرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ليس أولئك بخياركم » رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود يعنى أبا داود الطيالسى حدثنا أبو عوانة عن داود الأودى عن عبد الرحمن السلمى عن الأشعث بن قيس قال ضفت عمر رضى الله عنه فتناول امرأته فضربها فقال يا أشعث احفظ عنى ثلاثا حفظتهن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسأل الرجل فيما ضرب امرأته ، ولا تنم إلا على وتر ونسى الثالثة وكذا رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن مهدى عن أبى عوانة عن داود الأودى به وقوله تعالى(فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى إذا أطاعت المرأة زوجها فى جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك وليس له ضربها ولا هجرانها وقوله(إن الله كان عليا كبيرا) تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب فان الله العلى الكبير وليهن وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

ذكر الحال الأول وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة ثم ذكر الحال الثانى وهو إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وقال الفقهاء إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم

إلى جنب ثقة ينظر فى أمرهما ويمنع الظالم منهما من الظلم فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظرا فى أمرهما ويفعلا مافيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق وتشوف الشارع إلى التوفيق . ولهذا قال تعالى (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس امر الله عزوجل ان يبعثوا رجلا صالحاً من أهل الرجل ورجلا مثله من أهل المرأة فينظران أيهما المسىء فإن كان الرجل هو المسىء حجبوا عنه امرأته وقصروه على النفقة وإن كانت المرأة هى المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز فان رأيا أن يجمعا فرضى أحد الزوجين وكره الآخر ثم مات أحدهما فان الذى رضى يرث الذى لم يرض ولا يرث الكاره الراضى رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن عكرمة بن خالد عن ابن عباس قالت بعثت أنا ومعاوية حكمين ، قال معمر بلغنى أن عثمان بعثهما وقال لهما إن رأيتما ان تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا ، وقال أنبأنا ابن جريج حدثنى ابن أبى مليكة أن عقيل بن أبى طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت : تصير الى وأنفق عليك فكان إذا دخل عليها قالت أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة فقال على يسارك فى النار إذا دخلت فشدت عليها ثيابها فجاءت عثمان فذكرت له ذلك فضحك فأرسل ابن عباس ومعاوية فقال ابن عباس لأفرقن بينهما فقال معاوية ما كنت لأفرق بين شخصين من بنى عبد مناف فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما فرجعا ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال شهدت عليا وجاءته امرأة وزوجها مع كل واحد منهما فئام من الناس فأخرج هؤلاء حكما وهؤلاء حكما فقال على للحكمين أتدريان ماعليكما ؟ إن عليكما ان رأيتما أن تجمعا جمعتما فقالت المرأة رضيت بكتاب الله لى وعلى وقال الزوج أما الفرقة فلا فقال على كذبت والله لاتبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك رواه ابن أبى حاتم ورواه ابن جرير عن يعقوب عن ابن علية عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة عن على مثله ورواه من وجه آخر عن ابن سيرين عن عبيدة عن على به وقد أجمع العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والتفرقة حتى قال إبراهيم النخعى إن شاء الحكمان ان يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا وهو رواية عن مالك . وقال الحكم البصرى الحكمان يحكمان فى الجمع لا فى التفرقة وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود ، ومأخذهم قوله تعالى (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) ولم يذكر التفريق وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فانه ينفذ حكمهما فى الجمع والتفرقة بلا خلاف وقد اختلف الأئمة فى الحكمين هل هما منصوبان من جهة الحاكم فيحكمان وان لم يرض الزوجان أوهما وكيلان من جهة الزوجين على قولين والجمهور على الأول لقوله تعالى (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) فسماهما حكمين ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه وهذا ظاهر الآية والجديد من مذهب الشافعى وهو قول أبى حنيفة وأصحابه الثانى منهما القول على رضى الله عنه للزوج حين قال أما الفرقة قال : كذبت حتى تقر بما أقرت به قالوا فلو كانا حكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج والله أعلم . قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر وأجمعوا على أن قولهما نافذ فى الجمع وإن لم يوكلهما الزوجان واختلفوا هل ينفذ قولهما فى التفرقة ثم حكى عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضا من غير توكيل

﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لاشريك له فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الآنات والحالات فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته كما قال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل « أتدرى ماحق الله على العباد؟» قال الله ورسوله أعلم قال : « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا» ، ثم قال «أتدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟

أن لا يعذبهم » ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين فإن الله سبحانه جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود وكثيرا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين كقوله (أن اشكر لى ولوالديك) وكقوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) ثم عطف على الإحسان إليهما الاحسان إلى القرابات من الرجال والنساء كما جاء فى الحديث « الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة » ثم قال تعالى (واليتامى) وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم فأمر الله بالإحسان اليهم والحنو عليهم ثم قال (والمساكين) وهم المحاويج من ذوى الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم ، وسيأتى الكلام على الفقير والمسكين فى سورة براءة وقوله (والجار ذى القربى والجار الجنب) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس والجار ذى القربى يعنى الذى بينك وبينه قرابة والجار الجنب الذى ليس بينك وبينه قرابة وكذا روى عن عكرمة ومجاهد وميمون بن مهران والضحاك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وقال أبو إسحق عن نوف البكالى فى قوله والجار ذى القربى يعنى الجار المسلم والجار الجنب يعنى اليهودى والنصرانى رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وقال جابر الجعفى عن الشعبى عن على وابن مسعود والجار ذى القربى يعنى المرأة وقال مجاهد أيضا فى قوله والجار الجنب يعنى الرفيق فى السفر وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار فلنذكر منها ما تيسر وبالله المستعان : (الحديث الأول) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمر بن محمد بن زيد أنه سمع محمداً يحدث عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » أخرجاه فى الصحيحين من حديث محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر به .

(الحديث الثانى) قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن داود بن شابور عن مجاهد عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » وروى أبو داود والترمذى نحوه من حديث سفيان بن عيينة عن بشير أبى إسماعيل زاد الترمذى وداود بن شابور كلاهما عن مجاهد به ثم قال الترمذى حسن غريب من هذا الوجه وقد روى عن مجاهد وعائشة وأبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم (الحديث الثالث) قال أحمد أيضا حدثنا عبد الله ابن يزيد أخبرنا حيوة أخبرنا شرحبيل بن شريك أنه سمع أبا عبد الرحمن الجيلى يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ انه قال « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » ورواه الترمذى عن أحمد بن محمد عن عبدالله بن المبارك عن حيوة بن شريح به وقال حسن غريب (الحديث الرابع) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن أبيه عن عباية بن رفاعة عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يشبع الرجل دون جاره » تفرد به أحمد (الحديث الخامس) قال الإمام أحمد حدثنا على بن عبدالله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعد الأنصارى سمعت أبا ظبية الكلاعى سمعت المقداد بن الأسود يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ما تقولون فى الزنا » قالوا حرام حرمه الله ورسوله وهو حرام إلى يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بحليلة جاره » قال « ما تقولون فى السرقة» قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام إلى يوم القيامة قال «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره » تفرد به أحمد وله شاهد فى الصحيحين من حديث ابن مسعود : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت ثم أى ؟ قال «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » . (الحديث السادس) قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا هشام عن حفصة عن أبى العالية عن رجل من الأنصار قال خرجت من أهلى أريد النبى صلى الله عليه وسلم فإذا به قائم ورجل معه مقبل عليه فظننت أن لهما حاجة قال الأنصارى لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعلت أرثى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من طول القيام فلما انصرف قلت يارسول الله لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثى لك من طول القيام قال « وقد رأيته ؟ » قلت نعم قال « أتدرى من هو ؟ » قلت لا قال « ذاك جبريل مازال يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ثم قال «أما إنك لو سلمت عليه لرد عليك السلام » . (الحديث السابع) قال عبد بن حميد فى مسنده حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا أبو بكر يعنى المدنى عن جابر بن عبد الله قال جاء رجل من العوالى ورسول الله

صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام يصليان حيث يصلى على الجنائز فلما انصرف قال الرجل يارسول الله من هذا الرجل الذى رأيت يصلى معك ؟ قال « وقد رأيته ؟ » قال نعم قال « لقد رأيت خيرا كثيرا . هذا جبريل مازال يوصينى بالجار حتى رأيت أنه سيورثه » تفرد به من هذا الوجه وهو شاهد للذى قبله . (الحديث الثامن) قال أبو بكر البزار حدثنا عبيد الله ابن محمد أبو الربيع الحارثى(١) حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبى فديك أخبرنى عبد الرحمن بن الفضل عن عطاء الخراسانى عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « الجيران ثلاثة، جار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقا . وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقا . فأما الجار الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له . له حق الجوار . وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم » قال البزار لا نعلم أحدا روى عن عبد الرحمن بن الفضل إلا ابن أبى فديك . (الحديث التاسع) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى عمران عن طلحة بن عبد الله عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : إن لى جارين فالى أيهما أهدى ؟ قال « إلى أقربهما منك بابا » ورواه البخارى من حديث شعبة به . (الحديث العاشر) روى الطبرانى وأبو نعيم عن عبد الرحمن فزاد قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ فجعل الناس يتمسحون بوضوئه فقال « ما يحملكم على ذلك » قالوا حب الله ورسوله قال « من سره أن يحب الله ورسوله فليصدق الحديث إذا حدث وليؤد الأمانة إذا اتتمن(٢) » (الحديث الحادى عشر) قال أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة قال: قال رسول الله ﷺ « إن أول خصمين يوم القيامة جاران(٣) » وقوله تعالى (والصاحب بالجنب) قال الثورى عن جابر الجعفى عن الشعبى عن على وابن مسعود قالا: هى المرأة وقال ابن أبى حاتم وروى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى وإبراهيم النخعى والحسن وسعيد بن جبير فى إحدى الروايات نحو ذلك وقال ابن عباس وجماعة هو الضعيف وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة هو الرفيق فى السفر وقال سعيد بن جبير هو الرفيق الصالح وقال زيد بن أسلم هو جليسك فى الحضر ورفيقك فى السفر وأما ابن السبيل فعن ابن عباس وجماعة هو الضيف وقال مجاهد وأبو جعفر الباقر والحسن والضحاك ومقاتل هو الذى يمر عليك مجتازا فى السفر وهذا أظهر وإن كان مراد القائل بالضعف المار فى الطريق فهما سواء وسيأتى الكلام على أبناء السبيل فى سورة براءة وبالله الثقة وعليه التكلان . وقوله تعالى (وما ملكت أيمانكم) وصية بالأرقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير فى أيدى الناس فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصى أمته فى مرض الموت يقول « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه وقال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن أبى العباس ، حدثنا بقية ، حدثنا بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام بن معديكرب قال : قال رسول الله ﷺ « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة . وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة : وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة » ورواه النسائى من حديث بقية وإسناده صحيح ولله الحمد

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا قال فانطلق فأعطهم فان رسول الله ﷺ قال « كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوتهم » رواه مسلم ، وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق » رواه مسلم أيضا وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فان لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فانه ولى حره وعلاجه » أخرجاه ولفظه للبخارى ولمسلم « فليقعده معه فليأكل فان كان الطعام مشفوها قليلا فليضع فى يده أكلة أو أكلتين » وعن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم » أخرجاه . وقوله تعالى (إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) أى مختالا فى نفسه ، معجبا متكبرا فخورا على الناس يرى أنه خير منهم فهو فى نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض . قال مجاهد فى قوله (إن الله لا يحب من كان مختالا) يعنى متكبرا (فخورا) يعنى بعد ما أعطى وهو لا يشكر الله تعالى يعنى يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه ، وهو قليل الشكر

(١) فى نسخة الأزهر . الحارثى (٢) هذا الحديث ليس فيه شاهد للسبق ولعله سقط بعد قوله إذا ائتمن وليحسن الجوار (٣) الحديث ناقص كما هو ظاهر .

لله على ذلك وقال ابن جرير حدثني القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عبد الله بن واقد عن أبي رجاء الهروي قال : لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالا فخوراوتلا (وما ملكت أيمانكم) الآية ولاعاقا إلا وجدته جبارا شقيا وتلا (وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا)وروى ابن أبي حاتم عن العوام بن حوشب مثله في المختال الفخور وقال حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم ، عن الأسود بن شيبان حدثنا يزيد بن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته فقلت يا أبا ذر بلغني أنك تزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة قال أجل : فلا أخالك ، أكذب على خليلي ثلاثا ؟ قلت من الثلاثة الذين يبغض الله ؟ قال المختال الفخور أو ليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل ثم قرأ الآية (إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) وحدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ،حدثنا وهيب،عن خالد ، عن أبي تميمة عن رجل من بني الهجيم قال : قلت يارسول الله أوصني قال « إياك وإسبال الازار فإن إسبال الإزار من المخيلة وان الله لا يحب المخيلة »

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾

يقول تعالى ذاما الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم من الأرقاء ولا يدفعون حق الله فيها ويأمرون الناس بالبخل أيضا وقد قال رسول الله ﷺ « وأي داء أدوأ من البخل » وقال « إياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »

وقوله تعالى (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) فالبخيل جحود لنعمة الله ولا تظهر عليه . ولا تبين لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله كما قال تعالى (إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد) أي بحاله وشمائله (وإنه لحب الخير لشديد) وقال ههنا (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) ولهذا توعدهم بقوله (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) والكفر هو الستر والتغطية فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها فهو كافر لنعمة الله عليه . وفي الحديث « إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه » وفي الدعاء النبوي «واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا » وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود باظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ وكتمانهم ذلك ولهذا قال تعالى (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) رواه ابن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وقاله مجاهد وغير واحد ، ولا شك أن الآية محتملة لذلك والظاهر أن السياق في البخل بالمال وإن كان البخل بالعلم داخلا في ذلك بطريق الأولى فان السياق في الانفاق على الأقارب والضعفاء وكذلك الآية التي بعدها وهي قوله (الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس) فانه ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون باعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم ، ولا يريدون بذلك وجه الله وفي حديث « الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار وهم العالم والغازي والمنفق والمراءون بأعمالهم يقول صاحب المال ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك فيقول الله كذبت إنما أردت أن يقال جواد فقد قيل » أي فقد أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعدي بن حاتم « إن أباك أراد أمرا فبلغه » وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه ؟ فقال : «لا إنه لم يقل يوما من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » ولهذا قال تعالى (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر)الآية أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان فانه سول لهم وأملى لهم وقارنهم فحسن

لهم القبائح ولهذا قال تعالى (ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) ولهذا قال الشاعر :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

ثم قال تعالى (وماذا عليهم لوآمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) الآية أى وأى شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله رجاء موعوده فى الدار الآخرة لمن يحسن عمله وأنفقوا مما رزقهم الله فى الوجوه التى يحبها الله ويرضاها ، وقوله (وكان الله بهم عليما) أى وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه رشده ويقيضه لعمل صالح يرضى به عنه وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم الالهى الذى من طرد عن بابه فقد خاب وخسر فى الدنيا والآخرة عياذاً بالله من ذلك

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾

يقول تعالى مخبراً إنه لايظلم أحدا من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة كما قال تعالى (ونضع الموازين القسط) الآية وقال تعالى مخبراً عن لقمان انه قال (يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أوفى السموات أوفى الأرض يأت بالله) الآية وقال تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وفى الصحيحين من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة الطويل وفيه «فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار» — وفى لفظ أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار — «فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد اقرءوا إن شئتم (إن الله لايظلم مثقال ذرة) الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبوسعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس عن هرون بن عنترة عن عبدالله بن السائب عن زاذان قال : قال عبدالله بن مسعود يؤتى بالعبد أوالأمة يوم القيامة فينادى مناد على رءوس الأولين والآخرين هذا فلان بن فلان من كان له حق فليأت إلى حقه فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أوأمها أوأخيها أو زوجها ثم قرأ (فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) فيغفر الله من حقه مايشاء ولايغفر من حقوق الناس شيئا فينصب للناس فيقول ائتوا إلى الناس حقوقهم فيقول يارب فنيت الدنيا من أين أوتيهم حقوقهم فيقول خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذى حق حقه بقدر مظلمته فإن كان ولياً لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا (إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) وإن كان عبداً شقيا قال الملك رب فنيت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ثم صكوا له صكا إلى النار ورواه ابن جرير من وجه آخر عن زاذان به نحوه ولبعض هذا الأثر شاهد فى الحديث الصحيح وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا فضيل يعنى ابن مرزوق عن عطية العوفى ، حدثنى عبد الله بن عمر قال نزلت هذه الآية فى الأعراب (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) قال رجل فما للمهاجرين يا أباعبد الرحمن قال ماهو أفضل من ذلك (إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) وحدثنا أبوزرعة ، حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير ، حدثنى عبدالله بن لهيعة ، حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله (وإن تك حسنة يضاعفها) فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبداً وقد يستدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال يارسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء ؟ قال « نعم هو فى ضحضاح من نار ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » وقد يكون هذا خاصا بأبى طالب من دون الكفار بدليل ما رواه أبوداود الطيالسى فى مسنده حدثنا عمران ، حدثنا قتادة عن أنس أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بها فى الدنيا فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة » وقال أبو هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك فى قوله (ويؤت من لدنه أجراً عظيما) يعنى الجنة نسأل الله رضاه والجنة . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد ، حدثنا سليمان يعنى ابن المغيرة عن على بن زيد عن أبى عثمان قال بلغنى عن أبى هريرة أنه قال بلغنى أن الله تعالى يعطى العبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة قال فقضى أنى انطلقت حاجا أو معتمرا فلقيته فقلت بلغنى عنك حديث أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجزى العبد بالحسنة ألف ألف حسنة » فقلت ويحكم ما أحداً أكثر منى مجالسة لأبى هريرة وما سمعت هذا الحديث منه فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجا فانطلقت إلى الحج فى طلب هذا الحديث فلقيته فقلت يا أبا هريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأثرونه عنك قال ماهو ؟ قلت : زعموا أنك تقول : إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة قال يا أبا عثمان وما تعجب من ذا والله يقول (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) ويقول (وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) والذى نفسى بيده لقد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة » قال وهذا حديث غريب وعلى بن زيد بن جدعان عنده مناكير ورواه أحمد أيضاً فقال حدثنا يزيد ، حدثنا مبارك بن فضالة عن على بن زيد عن أبى عثمان النهدى قال أتيت أبا هريرة فقلت له بلغنى أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة قال وما أعجبك من ذلك فوالله لقد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله ليضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة » ورواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال حدثنا أبو خلاد وسليمان بن خلاد المؤدب ، حدثنا محمد الرفاعى عن زياد بن الجصاص عن أبى عثمان النهدى قال لم يكن أحد أكثر مجالسة منى لأبى هريرة فقدم قبلى حاجا وقدمت بعده فإذا أهل البصره يأثرون عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة » فقلت ويحكم ما كان أحد أكثر مجالسة منى لأبى هريرة وما سمعت منه هذا الحديث فهممت أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجا فانطلقت إلى الحج أن ألقاه فى هذا الحديث — ورواه ابن أبى حاتم من طريق أخرى فقال حدثنا بشر بن مسلم ، حدثنا الربيع بن روح ، حدثنا محمد بن خالد الذهبى عن زياد الجصاص عن أبى عثمان قال قلت يا أبا هريرة سمعت إخوانى بالبصرة يزعمون أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة » فقال أبو هريرة والله بل سمعت نبى الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية (وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) وقوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجىء من كل أمة بشهيد يعنى الأنبياء عليهم السلام كما قال تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء) الآية وقال تعالى (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم) الآية وقال البخارى حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ على » فقلت يا رسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ « قال نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فقال « حسبك الآن » فاذا عيناه تذرفان ورواه هو ومسلم أيضاً من حديث الأعمش به وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود فهو مقطوع به عنه ورواه أحمد من طريق أبى حيان وأبى رزين عنه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا الصلت بن مسعود الجحدرى ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا يونس بن محمد بن فضالة الأنصارى عن أبيه قال وكان أبى ممن صحب النبى صلى الله عليه وسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم أتاهم فى بنى ظفر فجلس على الصخرة التى فى بنى ظفر اليوم ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه فأمر النبى صلى الله عليه وسلم قارئا فقرأ حتى أتى على هذه الآية (فكيف إذا جئنا من أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ضرب لحياه وجنباه فقال يارب هذا شهدت على من أنا بين أظهرهم فكيف بمن لم أره وقال ابن جرير حدثنى محمد بن عبد الله الزهرى ، حدثنا سفيان عن المسعودى

عن جعفر بن عمرو بن حرب عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعود فى هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : «شهيد عليهم مادمت فيهم فإذا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» . وأما ما ذكره أبو عبدالله القرطبي فى التذكرة حيث قال: باب ما جاء فى شهادة النبى ﷺ على أمته قال أنا ابن المبارك أنا رجل من الأنصار عن المنهال بن عمرو أنه سمع سعيد بن المسيب يقول ليس من يوم إلا يعرض فيــه على النبى ﷺ أمته غدوة وعشية فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم يقول الله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فانه أثر وفيه انقطاع فان فيه رجلا مبهما لم يسم وهو من كلام سعيد بن المسيب لم يرفعه وقد قبله القرطبي فقال بعد إيراده قدتقدم أن الأعمال تعرض على الله كل يوم اثنين وخميس وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة قال ولا تعارض فانه يحتمل أن يخص نبينا بما يعرض عليه كل يوم ويوم الجمعة مع الأنبياء عليــه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . وقوله تعـالى (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) أى لوانشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزى والفضيحة والتوبيخ كقوله (يوم ينظر المرء ماقدمت يداه) الآية وقوله (ولا يكتمون الله حديثا) إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئا وقال ابن جرير حدثنا حاكم حدثنا عمرو عن مطرف عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال :جاء رجل إلى ابن عباس فقال له سمعت الله عز وجل يقول يعنى إخباراً عن المشركين يوم القيامه إنهم قالوا (والله ربنا ما كنا مشركين) وقال فى الآية الأخرى (ولا يكتمون الله حديثا) فقال ابن العباس أما قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فانهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا تعالوا فلنجحد فقالوا (والله ربنا ما كنا مشركين) فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم (ولا يكتمون الله حديثا) وقال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن رجل عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف علىّ فى القرآن قال ماهو أشك فى القرآن ؟ قال ليس هو بالشك ولكن اختلاف قال فهات ما أختلف عليك من ذلك ، قال أسمع الله يقول (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وقال (ولا يكتمون الله حديثا) فقد كتموا . فقال ابن عباس أما قوله (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره ولا يغفر شركا جحد المشركون فقالوا (والله ربنا ما كنا مشركين) رجاء أن يغفر لهم فختم الله على أفوههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك (يود الذين كفروا وعصوا الرسـول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) وقال جويبر عن الضحاك إن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال يا ابن عباس قول الله تعـــالى (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسـول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) وقوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فقال له ابن عباس إنى أحسبك قمت من عند أصحابك ، فقلت ألقى على ابن عباس متشابه القرآن فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة فى بقيع واحد فيقول المشركون إن الله لا يقبل من أحد شيئا إلا ممن وحده فيقولون تعالوا نجحد فيسألهم فيقولون (والله ربنا ما كنا مشركين) قال فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم وتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين . فعند ذلك يتمنون لو أن الأرض سويت بهم (ولا يكتمون الله حديثاً) رواه ابن جرير

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة فى حال السكر الذى لا يدرى معه المصلى مايقول وعن قربان محالها التى هى المساجد للجنب إلا أن يكون مجتازا من باب إلى باب من غير مكث ؛ وقد كان هذا قبل تحريم الخمر كما دل عليه الحديث الذى ذكرناه فى سورة البقرة عند قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر) الآية. فان رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال

« اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » فكانوا لا يشربون الخمر فى أوقات الصلوات حتى نزلت (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) إلى قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) فقال عمر : انتهينا انتهينا . وفى رواية إسرائيل عن أبى إسحق عن عمر بن شرحبيل عن عمر بن الخطاب فى قصة تحريم الخمر فذكر الحديث وفيه . فنزلت الآية التى فى النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادى أن لا يقربن الصلاة سكران لفظ أبى داود . وذكر ابن أبى شيبه فى سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا شعبة أخبرنى سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : نزلت فى أربع آيات صنع رجل من الأنصار طعاما فدعا أناسا من المهاجرين وأناسا من الأنصار فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ثم افتخرنا فرفع رجل لحى بعير فغرز بها أنف سعد فكان سعد مغروز الأنف وذلك قبل تحريم الخمر فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) الآية والحديث بطوله عند مسلم من رواية شعبة ورواه أهل السنن إلا ابن ماجه من طرق عن سماك به (سبب آخر) قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكى حدثنا أبو جعفر عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلانا قال فقرأ : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) هكذا رواه ابن أبى حاتم وكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن عبد الرحمن الدشتكى به وقال حسن صحيح وقد رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن عن على أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر فصلى بهم عبد الرحمن فقرأ (قل أيها الكافرون) فخلط فيها فنزلت (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) وهكذا رواه أبو داود والنسائى من حديث الثورى به ، رواه ابن جرير أيضا عن ابن حميد عن جرير عن عطاء عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : كان على فى نفر من أصحاب النبى ﷺ فى بيت عبد الرحمن بن عوف فطعموا فأتاهم بخمر فشربوا منها وذلك قبل أن يحرم الخمر فحضرت الصلاة فقدموا عليا فقرأ بهم (قل يا أيها الكافرون) فلم يقرأها كما ينبغى فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ثم قال حدثنى المثنى ، حدثنا الحجاج بن المنهال ، حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن حبيب وهو أبو عبد الرحمن السلمى أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما وشرابا فدعا نفرا من أصحاب النبى ﷺ فصلى بهم المغرب فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، وأنتم عابدون ما أعبد وأنا عابد ما عبدتم لكم دينكم ولى دين فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية إن رجالا كانوا يأتون وهم سكارى قبل أن يحرم الخمر فقال الله (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) الآية : رواه ابن جرير قال . وكذا قال أبو رزين ومجاهد وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات ثم نسخ بتحريم الخمر وقال الضحاك فى الآية لم يعن بها سكر الخمر وإنما عنى بها سكر النوم رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ثم قال ابن جرير والصواب أن المراد سكر الشراب قال ولم يتوجه النهى إلى السكران الذى لا يفهم الخطاب لأن ذاك فى حكم المجنون وإنما خوطب بالنهى الثمل الذى يفهم التكليف وهذا حاصل ما قاله وقد ذكره غير واحد من الأصوليين وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذى لا يدرى ما يقال له فان الفهم شرط التكليف وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهى عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة فى الخمسة الأوقات من الليل والنهار فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة فى أوقاتها دائما والله أعلم ، وعلى هذا فيكون كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك وقوله (حتى تعلموا ما تقولون) هذا أحسن ما يقال فى حد السكران أنه الذى لا يدرى ما يقول فان المخمور فيه تخليط فى القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبى ، حدثنا أيوب عن أبى قلابة عن أنس قال : قال رسول صلى الله

عليه وسلم « إذا نعس أحدكم وهو يصلى فلينصرف ولينم حتى يعلم مايقول » انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم فرواه هو والنسائى من حديث أيوب به وفى بعض ألفاظ الحديث « فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه » وقوله (ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا) قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عبدالرحمن الدشتكى أخبرنا أبوجعفر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس فى قوله (ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا) قال لاتدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابرى سبيل قال تمر به مراً ولا تجلس ثم قال وروى عن عبد الله بن مسعود وأنس وأبى عبيدة وسعيد بن المسيب والضحاك وعطاء ومجاهد ومسروق وإبراهيم النخعى وزيد بن أسلم وأبى مالك وعمرو بن دينار والحكم بن عتبة وعكرمة والحسن البصرى ويحيى بن سعيد الأنصارى وابن شهاب وقتادة نحو ذلك وقال ابن جرير حدثنا المثنى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنى الليث ، حدثنا يزيد بن أبى حبيب عن قول الله عز وجل (ولا جنبا إلا عابرى سبيل) إن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد فكانت تصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم فيردون الماء ولا يجدون ممراً إلا فى المسجد فأنزل الله (ولا جنبا إلا عابرى سبيل) ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبى حبيب رحمه الله ماثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال « سدوا كل خوخة فى المسجد إلا خوخة أبى بكر » وهذا قاله فى آخر حياته صلى الله عليه وسلم علما منه أن أبا بكر رضى الله عنه سيلى الأمر بعده ويحتاج إلى الدخول فى المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصلح للمسلمين فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه رضى الله عنه ومن روى إلا باب على كما وقع فى بعض السنن فهو خطأ والصواب ماثبت فى الصحيح . ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد ويجوز له المرور وكذا الحائض والنفساء أيضاً فى معناه إلا أن بعضهم قال يحرم مرورهما لاحتمال التلويث ومنهم من قال إن أمنت كل واحدة منهما التلويث فى حال المرور جاز لهما المرور وإلا فلا . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ « ناولينى الخمرة من المسجد » فقلت إنى حائض فقال « إن حيضتك ليست فى يدك » وله عن أبى هريرة مثله وفيه دلالة على جواز مرور الحائض فى المسجد والنفساء فى معناها والله أعلم . وروى أبو داود من حديث أفلت بن خليفة العامرى عن جسرة بنت دجاجة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى لا أحل المسجد لحائض ولا جنب » قال أبو مسلم الخطابى . ضعف هذا الحديث جماعة وقالوا أفلت مجهول لكن رواه ابن ماجه من حديث أبى الخطاب الهجرى عن محدوج الذهلى عن جسرة عن أم سلمة عن النبى ﷺ به قال أبو زرعة الرازى يقول جسرة عن أم سلمة والصحيح جسرة عن عائشة ، فأما ما رواه أبو عيسى الترمذى من حديث سالم بن أبى حفصة عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « يا على لا يحل لأحد يجنب فى هذا المسجد غيرى وغيرك » فإنه حديث ضعيف لا يثبت فان سالما هذا متروك وشيخه عطية ضعيف والله أعلم . (حديث آخر) فى معنى الآية قال ابن أبى حاتم حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا عبد الله بن موسى أخبرنى إسحق بن أبى ليلى عن المنهال عن زر بن حبيش عن على (ولا جنبا إلا عابرى سبيل) قال لايقرب الصلاة إلا أن يكون مسافرا تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيصلى حتى يجد الماء ، ثم رواه من وجه آخر عن المنهال بن عمرو عن زر عن على بن أبى طالب فذكره ، قال وروى عن ابن عباس فى إحدى الروايات وسعيد بن جبير والضحاك نحو ذلك . وقد روى ابن جرير من حديث وكيع عن ابن أبى ليلى عن عباد بن عبدالله أو عن زر بن حبيش عن على فذكره ، ورواه من طريق العوفى وأبى مجلز عن ابن عباس فذكره ، ورواه عن سعيد ابن جبير وعن مجاهد والحسن بن مسلم والحكم بن عتبة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن مثل ذلك ، وروى من طريق ابن جرير عن عبد الله بن كثير قال كنا نسمع أنه فى السفر . ويستشهد لهذا القول بالحديث الذى رواه أحمد وأهل السنن من حديث أبى قلابة عن عمر بن نجدان عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم تجد الماء عشر حجج فإذا وجدت الماء فأمسه بشرتك فإن ذلك خير لك » ثم قال ابن جرير بعد حكايته القولين والأولى قول من قال (ولا جنبا إلا عابرى سبيل) أى إلا مجتازى طريق فيه وذلك أنه قد بين حكم

المسافر إذا عدم الماء وهو جنب فى قوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر) إلى آخره فكان معلوما بذلك أن قوله (ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا) لو كان معنيا به المسافر لم يكن لاعادة ذكره فى قوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر) معنى مفهوم وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك ، فاذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ولا تقربوها أيضا جنبا حتى تغتسلوا إلا عابرى سبيل قال والعابر السبيل المجتاز مرا وقطعا يقال منه عبرت بهذا الطريق فأنا أعبره عبرا وعبورا ومنه يقال عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار هى عبر الأسفار لقوتها على قطع الأسفار وهذا الذى نصره هو قول الجمهور وهو الظاهر من الآية وكأنه تعالى نهى عن تعاطى الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة وهى الجنابة المباعدة للصلاة ولمحلها أيضا والله أعلم . وقوله (حتى تغتسلوا) دليل لما ذهب اليه الأئمة الثلاثة أبو حنيفة ومالك والشافعى أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد حتى يغتسل أو يتيمم إن عدم الماء أو لم يقدر على استعماله بطريقه ، وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث فى المسجد لما روى هو وسعيد بن منصور فى سننه بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك . قال سعيد بن منصور فى سننه حدثنا عبد العزيز بن محمد هو الدراوردى عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال رأيت رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون فى المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة . وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم والله أعلم

وقوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) أما المرض المبيح للتيمم فهو الذى يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء ، ومن العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل حدثنا قيس عن حفص[1] عن مجاهد فى قوله (وإن كنتم مرضى) قال نزلت فى رجل من الأنصار كان مريضا فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ ولم يكن له خادم فيناوله فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فأنزل الله هذه الآية هذا مرسل والسفر معروف ولا فرق فيه بين الطويل والقصير وقوله (أو جاء أحد منكم من الغائط) الغائط هو المكان المطمئن من الأرض كنى بذلك عن التغوط وهو الحدث الأصغر وأما قوله (أو لامستم النساء) فقرىء لمستم ولامستم واختلف المفسرون والأئمة فى معنى ذلك على قولين (أحدهما) أن ذلك كناية عن الجماع لقوله (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع عن سفيان عن أبى إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (أو لمستم النساء) قال : الجماع . وروى عن على وأبى بن كعب ومجاهد وطاوس والحسن وعبيد بن عمير وسعيد بن جبير والشعبى وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال ابن جرير حدثنى حميد بن مسعدة ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير قال ذكروا اللمس فقال ناس من الموالى ليس بالجماع وقال ناس من العرب اللمس الجماع قال فلقيت ابن عباس فقلت له إن ناسا من الموالى والعرب اختلفوا فى اللمس فقالت الموالى ليس بالجماع وقالت العرب : الجماع قال : فمن أى الفريقين كنت ؟ قلت كنت من الموالى ، قال غلب فريق الموالى . إن اللمس والمس والمباشرة : الجماع ولكن الله يكنى ما شاء بما شاء ثم رواه عن ابن بشار عن غندر عن شعبة به نحوه ، ثم رواه من غير وجه عن سعيد بن جبير نحوه ومثله قال حدثنى يعقوب حدثنا هشيم قال أبو بشر أخبرنا سعيد بن جبير عن ابن عباس قال اللمس والمس والمباشرة : الجماع ولكن الله يكنى بما شاء : حدثنا عبد الحميد ابن بيان أنبأنا إسحق الأزرق عن سفيان عن عاصم الأحول عن بكر بن عبد الله عن ابن عباس قال : الملامسة : الجماع ولكن الله كريم يكنى بما يشاء وقد صح من غير وجه عن عبد الله بن عباس أنه قال ذلك ثم رواه ابن جرير عن بعض من حكاه ابن أبى حاتم عنهم ثم قال ابن جرير وقال آخرون عنى الله تعالى بذلك كل من لمس بيد أو بغيرها من أعضاء الانسان وأوجب الوضوء على كل من مس بشىء من جسده شيئا من جسدها مفضيا اليه ثم قال حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان

(١) فى نسخة الأزهر : خصيف .

عن مخارق عن طارق عن عبد الله بن مسعود قال اللمس مادون الجماع وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود مثله وروى من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: القبلة من اللمس وفيها الوضوء. وروى الطبرانى بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال يتوضأ الرجل من المباشرة ومن اللمس بيده ومن القبلة وكان يقول فى هذه الآية (أولا مستم النساء) هو الغمز وقال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى عبد الله بن عمر عن نافع أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة ويرى فيها الوضوء ويقول هى من اللماس . وروى ابن أبى حاتم وابن جرير أيضا من طريق شعبة عن مخارق عن طارق عن عبد الله قال : اللمس مادون الجماع ثم قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر وعبيدة وأبى عثمان النهدى وأبى عبيدة يعنى ابن عبد الله بن مسعود وعامر الشعبى وثابت بن الحجاج وإبراهيم النخعى وزيد بن أسلم نحو ذلك (قلت) وروى مالك عن الزهرى عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أنه كان يقول : قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة فمن قبل امرأته أوجسها بيده فعليه الوضوء وروى الحافظ أبو الحسن الدارقطنى فى سننه عن عمر بن الخطاب نحو ذلك ، ولكن روينا عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلى ولا يتوضأ فالرواية عنه مختلفة فيحمل ما قاله فى الوضوء إن صح عنه على الاستحباب والله أعلم . والقول بوجوب الوضوء من اللمس هو قول الشافعى وأصحابه ومالك والمشهور عن أحمد بن حنبل قال ناصروه قد قرئ فى هذه الآية لامستم ولمستم واللمس يطلق فى الشرع على الجس باليد قال تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم) أى جسوه وقال ﷺ لماعز حين أقر بالزنا يعرّض له بالرجوع عن الاقرار «لعلك قبلت أولمست» وفى الحديث الصحيح « واليد زناها اللمس » وقالت عائشة رضى الله عنها: قلّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا فيقبل ويلمس ومنه ما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة وهو يرجع إلى الجس باليد على كلا التفسيرين قالوا : ويطلق فى اللغة على الجس باليد كما يطلق على الجماع قال الشاعر * ولمست كفى كفه أطلب الغنى *

واستأنسوا أيضا بالحديث الذى رواه أحمد ، حدثنا عبد الله بن مهدى وأبو سعيد قالا حدثنا زائدة عن عبد الملك ابن عمير قال أبو سعيد حدثنا عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن معاذ قال إن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال يا رسول الله ما تقول فى رجل لقى امرأة لا يعرفها وليس يأتى الرجل من امرأته شيئا إلا أتاه منها غير أنه لم يجامعها قال فأنزل الله عز وجل هذه الآية (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) قال فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « توضأ ثم صل » قال معاذ فقلت يا رسول الله أله خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال « بل للمؤمنين عامة» ورواه الترمذى من حديث زائدة به وقال ليس بمتصل ورواه النسائى من حديث شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا قالوا : فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها : وأجيب بأنه منقطع بين ابن أبى ليلى ومعاذ فإنه لم يلقه ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة المكتوبة كما تقدم فى حديث الصديق « مامن عبد يذنب ذنبا فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر الله له» الحديث وهو مذكور فى سورة آل عمران عند قوله (ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) الآية ثم قال ابن جرير وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال عنى الله بقوله (أو لامستم النساء) الجماع دون غيره من معانى اللمس لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ ثم قال حدثنى بذلك إسماعيل بن موسى السدى قال أخبرنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت عن عروة عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ثم يقبل ثم يصلى ولا يتوضأ ثم قال حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن الأعمش عن حبيب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ ، قلت من هى إلا أنت فضحكت وهكذا رواه أبو داود الترمذى وابن ماجه عن جماعة من مشايخهم عن وكيع به ثم قال أبو داود روى عن الثورى أنه قال ما حدثنا حبيب إلا عن عروة المزنى ، وقال يحيى القطان لرجل احك عنى أن هذا الحديث شبه لا شىء وقال الترمذى سمعت البخارى يضعف هذا الحديث وقال حبيب بن أبى ثابت لم يسمع من عروة وقد وقع فى رواية ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة وعلى بن محمد الطنافسى عن وكيع عن الأعمش عن حبيب ابن أبى ثابت عن عروة بن الزبير عن عائشة ، وأبلغ من ذلك ما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث هشام بن عروة عن

أبيه عن عائشة وهذا نص فى كونه عروة بن الزبير ويشهدله قوله من هى إلا أنت فضحكت لـكن روى أبو داود عن إبراهيم بن مخلد حدثنا وكيع حدثناسفيان عن أبى روق الهمدانى الطالقانى عن عبد الرحمن بن مغراء عن الأعمش قال حدثنا أصحاب لنا عن عروة المزنى عن عائشة فذكره والله أعلم . وقال ابن جرير أيضا حدثنا أبو زيد عن عمر بن أنيس عن هشام بن عباد حدثنا مسدد(١) بن على عن ليث عن عطاء عن عائشة وعن أبى روق عن إبراهيم التيمى عن عائشة رضى الله عنها قالت كان النبى ﷺ ينال منى القبلة بعد الوضوء ثم لا يعيد الوضوء وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن أبى روق الهمدانى عن إبراهيم التيمى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قبل ثم صلى ولم يتوضأ رواه أبو داود والنسائى من حديث يحى القطان زاد أبو داود وابن مهدى كلاهما عن سفيان الثورى به. ثم قال أبو داوذ والنسائى لم يسمع إبراهيم التيمى من عائشة ثم قال ابن جرير أيضا حدثنا سعيد بن يحيى الأموى حدثنا أبى حدثنا يزيد عن سنان عن عبد الرحمن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يحدث وضوءا . وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن زينب السهمية عن عائشة عن النبى ﷺ أنه كان يقبل ثم يصلى ولا يتوضأ وقد رواه الإمام أحمد عن محمد بن فضيل عن حجاج ابن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن زينب السهمية عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم به وقوله تعالى (فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) استنبط كثير من الفقهاء من هـذه الآية أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعـد طلب الماء فمتى طلبه فلم يجده جازله حينئذ التيمم وقد ذكروا كيفية الطلب فى كتب الفروع كما هو مقرر فى موضعه كما فى الصحيحين من حديث عمران بن حصين أن رسول الله صـلى الله عليـه وسلم رأى رجلا معتزلا لم يصل مع القوم فقال « يا فلان ما منعك أن تصلى مع القوم ألست برجل مسلم » قال بلى يا رسول الله ولـكن أصابتنى جنابة ولا ماء قال : « عليك بالصعيد فانه يكفيك » ولهذا قال تعالى (فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) فالتيمم فى اللغة هو القصد تقول العرب تيممك الله بحفظه أى قصدك ومنه قول امرىء القيس شعرا

ولمـا رأت أن المنية وردها * وأن الحصى من تحت أقدامها دامى
تيممت العين التى عند ضارج * يفيء عليها الفيء عرمضها طامى

والصعيد قيل هو كل ما صعد على وجه الأرض فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات وهو قول مالك وقيل ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهـذا مذهب أبى حنيفة وقيل هو التراب فقط وهو قول الشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهما واحتجوا بقوله تعالى (فتصبح صعيدا زلقا) أى ترابا أملس طيبا وبما ثبت فى صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائـكة . وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء » وفى لفظ « وجعل ترابها لنا طهورا إذا لم نجد المـاء » قالوا فخصص الطهورية بالتراب فى مقام الامتنان ، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه ، والطيب ههنا قيل الحلال وقيل الذى ليس بنجس كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث أبى قلابة عن عمرو بن بجدان عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصعيد الطيب طهور المسلم إن لم يجد الماء عشر حجج فإذا وجده فليمسه بشرته فإن ذلك خير له » وقال الترمذى حسن صحيح وصححه ابن حبان أيضا ورواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن أبى هريرة وصححه الحافظ أبو الحسن القطان وقال ابن عباس أطيب الصعيد تراب الحرث رواه ابن أبى حاتم ورفعه ابن مردويه فى تفسيره وقوله (فامسحو بوجوهكم وأيديكم) التيمم بدل عن الوضوء فى التطهير به لا أنه بدل منه فى جميع أعضائه ، بل يكفى مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع ولـكن اختلف الأئمة فى كيفية التيمم على أقوال أحدها وهو مذهب الشافعى فى الجديد أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقها على ما يبلغ المنكبين وعلى ما يبلغ المرفقين كما فى آية الوضوء ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الـكفين كما فى آية السرقة (فاقطعوا أيديهما) قالوا وحمل ما أطلق ههنا على ما قيد فى آية الوضوء أولى لجامع الطهورية ،

(١) فى نسخة الأزهر : مندل بن عدى .

وذكر بعضهم مارواه الدارقطني عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « التيمم ضربتان ، ضربة للوجه ، وضربة لليدين إلى المرفقين » ولكن لا يصح لأن في إسناده ضعفا لا يثبت الحديث به ، وروى أبو داود عن ابن عمر في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب بيده على الحائط ومسح بها وجهه ، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ولكن في إسناده محمد بن ثابت العبدي وقد ضعفه بعض الحفاظ ورواه غيره من الثقات فوقفوه على فعل ابن عمر قال البخاري وأبو زرعة وابن عدي هو الصحيح وهو الصواب ، وقال البيهقي رفع هذا الحديث منكر واحتج الشافعي بما رواه عن إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عن عبد الرحمن بن معاوية عن الأعرج عن ابن الصمة أن رسول الله ﷺ تيمم فمسح وجهه وذراعيه . وقال ابن جرير حدثني موسى بن سهل الرملي حدثنا نعيم ابن حماد حدثنا خارجة بن مصعب عن عبد الله بن عطاء عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي جهيم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبول فسلمت عليه فلم يرد علي السلام حتى فرغ ، ثم قام إلى الحائط فضرب بيديه عليه فمسح بهما وجهه ثم ضرب بيديه على الحائط فمسح بهما يديه إلى المرفقين ثم رد علي السلام . والقول الثاني أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين وهو قول الشافعي في القديم . والثالث أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن الحكم عن ذر عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه أن رجلا أتى عمر فقال : إني أجنبت فلم أجد ماء ؟ فقال عمر لا تصل قال عمار أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء فأما أنت فلم تصل ، وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت فلما أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له فقال « إنما كان يكفيك وضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيده الأرض ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه » قال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا قتادة عن عروة عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن عمار أن رسول الله ﷺ قال « في التيمم ضربة للوجه والكفين » . (طريق أخرى) قال أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد عن سليمان الأعمش حدثنا شقيق قال : كنت قاعدا مع عبدالله وأبي موسى فقال أبو يعلى لعبد الله : لو أن رجلا لم يجد الماء لم يصل ؟ فقال عبد الله ألا تذكر ماقال عمار لعمر ألا تذكر إذ بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وإياك في إبل فأصابتني جنابة فتمرغت في التراب فلما رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « إنما كان يكفيك أن تقول هكذا وضرب بكفيه إلى الأرض ثم مسح كفيه جميعا ومسح وجهه مسحة واحدة بضربة واحدة » فقال عبد الله لاجرم ما رأيت عمر قنع بذلك قال: فقال له أبو موسى فكيف بهذه الآية في سوره النساء (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيباً) قال فما درى عبد الله مايقول وقال : لو رخصنا لهم في التيمم لأوشك أحدهم إذا برد الماء على جلده أن يتيمم : وقال في المائدة (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) فقد استدل بذلك الشافعي على أنه لابد في التيمم أن يكون بتراب طاهر له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء كما روى الشافعي بإسناده المتقدم عن ابن الصمة أنه مر بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يبول فسلم عليه فلم يرد عليه حتى قام إلى جدار فحته بعصا كانت معه فضرب بيده عليه فمسح بها وجهه وذراعيه . وقوله (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) أي في الدين الذي شرعه لكم (ولكن يريد ليطهركم) فلهذا أباح التيمم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد والتيمم نعمة عليكم لعلكم تشكرون ولهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ؛ وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل » وفي لفظ « فعنده مسجده وطهوره ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة وكان يبعث النبي إلى قومه وبعثت إلى الناس كافة » وتقدم في حديث حذيفة عند مسلم « فضلنا على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ؛ وجعلت لنا الأرض مسجدا وتربتها طهورا إذا لم نجد الماء » وقال تعالى في هذه الآية الكريمة (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا) أي ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم أن شرع

لكم التيمم وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء توسعة عليكم ورخصة لكم ، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل مايقول ، أو جنابة حتى يغتسل ، أو حدث حتى يتوضأ إلا أن يكون مريضا أوعادما للماء ، فإن الله عز وجل قد أرخص فى التيمم والحالة هذه رحمة بعباده ورأفة بهم ، وتوسعة عليهم ولله الحمد والمنة

﴿ ذكر سبب نزول مشروعية التيمم ﴾ وإنما ذكرنا ذلك ههنا لأن هذه الآية التى فى النساء متقدمة النزول على آية المائدة وبيانه أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر ، والخمر إنما حرم بعد أحد بيسير فى محاصرة النبى صلى الله عليه وسلم لبنى النضير ، وأما المائدة فإنها من آخر مانزل ولا سيما صدرها فناسب أن يذكر السبب هنا وبالله الثقة . قال أحمد حدثنا ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت فبعث رسول الله ﷺ رجالا فى طلبها فوجدوها فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء فصلوها بغير وضوء فشكوا ذلك إلى رسول الله فأنزل الله آية التيمم فقال أسيد بن الحضير لعائشة جزاك الله خيرا فوالله مانزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك وللمسلمين فيه خيرا

(طريق أخرى) قال البخارى حدثنا عبدالله بن يوسف أنبأنا مالك عن عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة قالت خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لى فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبى بكر فقالوا ألا ترى ماصنعت عائشة أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذى قد نام فقال حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت عائشة فعاتبنى أبوبكر وقال ماشاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده فى خاصرتى ولا يمنعنى من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذى فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير ماء حين أصبح فأنزل الله آية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن الحضير ماهى بأول بركتكم يا آل أبى بكر قالت فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته وقد رواه البخارى أيضا عن قتيبة عن إسماعيل ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن مالك

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن صالح قال ابن شهاب حدثنى عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمار بن ياسر أن رسول الله ﷺ عرس بذات الجيش ومعه زوجته عائشة فانقطع عقد لها من جزع ظفار فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك حتى أضاء الفجر وليس مع الناس ماء فأنزل الله على رسوله رخصة التطهير بالصعيد الطيب فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ فضربوا بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم ينفضوا من التراب شيئا فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب ، ومن بطون أيديهم إلى الآباط . وقد روى ابن جرير : حدثنا أبو كريب بإسناده إلى ابن أبى اليقظان قال كنا مع رسول الله ﷺ فهلك عقد لعائشة فأقام رسول الله ﷺ حتى أضاء الفجر فتغيظ أبو بكر على عائشة فنزلت عليه رخصة المسح بالصعيد الطيب فدخل أبوبكر فقال لها : إنك لمباركة نزلت فيك رخصة فضربنا بأيدينا ضربة لوجوهنا ، وضربة لأيدينا إلى المناكب والآباط

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا الليث حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا العباس بن أبى سرية[1] حدثنى الهيثم عن زريق[2] المالكى من بنى مالك بن كعب بن سعد وعاش مائة وسبعة عشر[3] سنة عن أبيه عن الأسلع بن شريك قال كنت أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابتنى جنابة فى ليلة باردة وأراد رسول الله ﷺ الرحلة فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جنب وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض فأمرت رجلا من الأنصار فرحلها ، ثم رضفت أحجارا فأسخنت بها ماء واغتسلت . ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه فقال « يا أسلع مالى أرى رحلتك قد تغيرت » قلت يارسول الله لم أرحلها ، رحلها رجل من الأنصار ، قال « ولم ؟ » قلت إنى أصابتنى جنابة فخشيت القر على نفسى فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجارا فأسخنت بها ماء فاغتسلت به ، فأنزل الله تعالى (لاتقربوا الصلاة وأنتم

(١) فى نسخة الأزهر : سوية . (٢) وفيها ابن رزيق ، وفى نسخة ابن زريق . (٣) هكذا فى النسخ والصواب وسبع عشرة كما لايخفى

سكارى حتى تعلموا ما تقولون) إلى قوله (إن الله كان عفوا غفورا) وقد روى من وجه آخر عنه

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم إلى القيامة ـ أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين فى صفة محمد صلى الله عليه وسلم ليشتروا به ثمنا قليلا من حطام الدنيا (ويريدون أن تضلوا السبيل) أى يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع (والله أعلم بأعدائكم) أى هو أعلم بهم ويحذركم منهم (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً) أى كفى به وليا لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره . ثم قال تعالى (من الذين هادوا) من فى هذا لبيان الجنس كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) وقوله (يحرفون الكلم عن مواضعه) أى يتأولونه على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصدا منهم وافتراء (ويقولون سمعنا) أى سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه هكذا فسره مجاهد وابن زيد وهو المراد وهذا أبلغ فى كفرهم وعنادهم وأنهم يتولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم فى ذلك من الإثم والعقوبة وقولهم (واسمع غير مسمع) أى اسمع ما نقول لا سمعت رواه الضحاك عن ابن عباس وقال مجاهد والحسن : واسمع غير مقبول منك قال ابن جرير والأول أصح وهو كما قال وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله (وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين) أى يوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك بقولهم راعنا وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبى وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين يعنى بسبهم النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال تعالى (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) أى قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه فلا يدخلها من الإيمان شىء نافع لهم وقد تقدم الكلام على قوله تعالى (فقليلا ما يؤمنون) والمقصود أنهم لا يؤمنون إيمانا نافعا

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾

يقول تعالى آمرا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذى فيه تصديق الأخبار التى بأيديهم من البشارات ومتهددا لهم إن لم يفعلوا بقوله (من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) قال بعضهم معناه من قبل أن نطمس وجوها فطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبصارهم من ورائهم ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن نطمس وجوها فلا نبقى لها سمعا ولا بصرا ولا أنفا ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار . وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية وهى (من قبل أن نطمس وجوها) وطمسها أن تعمى (فنردها على أدبارها) يقول نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ونجعل لأحدهم عينين من قفاه ، وكذا قال قتادة وعطية العوفى وهذا أبلغ

فى العقوبة والنكال وهذا مثل ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم وهـذا كما قال بعضهم فى قوله (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من أيديهم سدا) الآية أى هذا مثل سوء ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى قال مجاهد : من قبل أن نطمس وجوها يقول عن صراط الحق فنردها على أدبارها أى فى الضلال قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عباس والحسن نحو هذا قال السدى فنردها على أدبارها فنمنعها عن الحق قال نرجعها كفارا ونردهم قردة قال أبو زيد فردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز . وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية . قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح عن عيسى بن المغيرة قال تذاكرنا عنـد إبراهيم اسلام كعب فقال أسلم كعب زمان عمر أقبل وهو يريد بيت المقدس فمر على المدينة فخرج إليه عمر فقال يا كعب أسلم فقال ألستم تقولون فى كتابكم (مثل الذين حملوا التوراة ـ إلى ـ أسفارا) وأنا قد حملت التوراة قال فتركه عمر ثم خرج حتى انتهى إلى حمص فسمع رجلا من أهلها حزينا وهو يقول (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) الآية قال كعب يا رب أسلمت مخافة أن تصيبه هذه الآية ثم رجع فأتى أهله فى اليمن ثم جاء بهم مسلمين وكذا رواه ابن أبى حاتم بلفظ آخر من وجه آخر فقال : حدثنا أبى حدثنا ابن نفيل حدثنا عمرو بن واقد عن يونس ابن حليس عن أبى ادريس عائذ الله الخولانى قال كان أبو مسلم الجليلى معهم كعب وكان يلومه فى إبطائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبعثه إليه ينظر أهو هو قال كعب فركبت حتى أتيت المدينة فإذا تال يقرأ القرآن يقول (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) فبادرت الماء فاغتسلت وإنى لأمس وجهى مخافة أن أطمس ثم أسلمت وقوله (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) يعنى الذين اعتدوا فى سبتهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردة وخنازير وسيأتى بسط قصتهم فى سورة الأعراف وقوله (وكان أمر الله مفعولا) أى إذا أمر بأمر فانه لا يخالف ولا يمانع . ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به أى لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ويغفر ما دون ذلك أى من الذنوب لمن يشاء أى من عباده وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر (الحديث الأول) قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون حدثنا صدقة بن موسى حدثنا أبو عمران الجونى عن يزيد ابن أبى موسى عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « الدواوين عند الله ثلاثة ، ديوان لا يعبأ الله به شيئا ، وديوان لا يترك الله منه شيئا ، وديوان لا يغفره الله فأما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية وقال (انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله من صوم يوم تركه أو صلاة فان الله لا يغفر ذلك ويتجاوز ان شاء ، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضا القصاص لا محالة » تفرد به أحمد (الحديث الثانى) قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا أحمد بن مالك حدثنا زائدة بن أبى الزناد النمرى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال « الظلم ثلاثة ، فظلم لا يغفره الله وظلم يغفره الله ، وظلم لا يترك الله منه شيئا : فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك وقال (إن الشرك لظلم عظيم) وأما الظلم الذى يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ، وأما الظلم الذى لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين لبعضهم من بعض » (الحديث الثالث) قال الإمام أحمد : حدثنا صفوان ابن عيسى حدثنا ثور بن يزيد عن أبى عون عن أبى إدريس قال سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمنا متعمداً » ورواه النسائى عن محمد بن مثنى عن صفوان بن عيسى به

(الحديث الرابع) قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر حدثنا ابن تميم أن أبا ذر حدثه عن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم قال « إن الله يقول : يا عبدى ما عبدتنى ورجوتنى فانى غافر لك على ما كان منك ، يا عبدى إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لقيتك بقرابها مغفرة » تفرد به أحمد من هذا

الوجه (الحديث الخامس) قال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا حسين بن بريدة أن يحيى بن يعمر حدثه أن أبا الأسود الديلى حدثه أن أبا ذر حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق ، قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق ثلاثا ، ثم قال فى الرابعة على رغم أنف أبى ذر » قال فخرج أبوذر وهو يجر إزاره وهو يقول : وان رغم أنف أبى در ، وكان أبوذر يحدث بهذا بعد ويقول . وان رغم أنف أبى ذر . أخرجاه من حديث حسين به (طريق أخرى) لحديث أبى ذر قال أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبى ذر قال كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة المدينة عشاء ونحن ننظر إلى أحد فقال « يا أباذر » قلت لبيك يارسول الله قال « ما أحب أن لى أحداً ذاك عندى ذهبا أمسى ثالثة وعندى منه دينار إلا دينارا أرصده يعنى لدين الا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا » فحثا عن يمينه وعن يساره وبين يديه قال ثم مشينا فقال « يا أباذر إن الأكثرين هم الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا » فحثا عن يمينه ومن بين يديه وعن يساره ، قال ثم مشينا فقال « يا أبا ذر كما أنت حتى آتيك » قال فانطلق حتى توارى عنى ، قال فسمعت لغطا فقلت لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض له قال فهممت أن أتبعه ، قال فذكرت قوله لاتبرح حتى آتيك فانتظرته حتى جاء فذكرت له الذى سمعت فقال « ذاك جبريل أتانى فقال من مات من أمتك لايشرك بالله شيئا دخل الجنة » قلت وان زنى وان سرق ، قال « وإن زنى وان سرق » أخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش به ، وقد رواه البخارى ومسلم أيضا كلاهما عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن عبد العزيز بن رفيع عن زيد بن وهب عن أبى ذر قال : خرجت ليلة من الليالى فإذا رسول الله ﷺ يمشى وحده ليس معه إنسان قال فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد ، قال فجعلت أمشى فى ظل القمر فالتفت فرآنى فقال « من هذا » فقلت أبوذر جعلنى الله فداك قال « يا أباذر تعال » قال فمشيت معه ساعة فقال « ان المكثرين هم المقلون يوم القيامة الا من أعطاه الله خيرا فجعل يبثه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا » قال فمشيت معه ساعة فقال لى « اجلس ههنا » فأجلسنى فى قاع حوله حجارة فقال لى « اجلس ههنا حتى أرجع اليك » قال فانطلق فى الحرة حتى لا أراه فلبث عنى حتى إذا طال اللبث ثم إنى سمعته وهو مقبل وهو يقول « وإن زنى وإن سرق » قال فلما جاء لم أصبر حتى قلت يانبى الله جعلنى الله فداك من تكلم فى جانب الحرة فإنى سمعت أحدا يرجع اليك قال « ذاك جبريل عرض لى من جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت ياجبريل وإن سرق وإن زنى قال نعم قلت وإن سرق وإن زنى قال نعم قلت وان سرق وان زنى قال نعم وان شرب الخمر » (الحديث السادس) قال عبد بن حميد فى مسنده حدثنا عبد الله بن موسى عن ابن أبى ليلى عن أبى الزبير عن جابر قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ما الموجبتان قال « من مات لايشرك بالله شيئا وجبت له الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا وجبت له النار » تفرد به من هذا الوجه وذكر تمام الحديث (طريق أخرى) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا الحسن بن عمرو بن خلاد الحرانى حدثنا منصور بن إسماعيل القرشى حدثنا موسى بن عبيدة الترمذى أخبرنى عبد الله بن عبيدة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « مامن نفس تموت لا تشرك بالله شيئا إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبها وإن شاء غفر لها (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) » ورواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده من حديث موسى بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيدة عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاتزال المغفرة على العبد مالم يقع الحجاب » قيل يانبى الله وما الحجاب ؟ قال « الإشراك بالله — قال — مامن نفس تلقى الله لاتشرك به شيئا إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى إن شاء أن يعذبها وإن شاء أن يغفر لها » ثم قرأ نبى الله (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) (الحديث السابع) قال الإمام أحمد حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة » تفرد به من هذا الوجه (الحديث الثامن) قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو قبيل عن

عبد الله بن ناشر من بنى سريع قال سمعت أبارهم قاص أهل الشام يقول سمعت أبا أيوب الأنصارى يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم اليهم فقال لهم إن ربكم عز وجل خيرنى بين سبعين ألفا يدخلون الجنة عفوا بغير حساب وبين الخبيئة عنده لأمتى فقال له بعض أصحابه يارسول الله أيخبأ ذلك ربك ؟ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج وهو يكبر فقال «إن ربى زادنى مع كل ألف سبعين ألفا والخبيئة عنده» قال أبورهم يا أبا أيوب وما تظن خبيئة رسول الله ﷺ فأكله الناس بأفواههم فقالوا : وما أنت وخبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو أيوب : دعوا الرجل عنكم أخبركم عن خبيئة رسول الله ﷺ كما أظن ، بل كالمستيقن إن خبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله مصدقا لسانه قلبه دخل الجنة » (الحديث التاسع) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا مؤمل بن الفضل الحرانى حدثنا عيسى بن يونس ح وأخبرنا هاشم ابن القاسم الحرانى فيما كتب إلىّ حدثنا عيسى بن يونس نفسه عن واصل بن السائب الرقاشى عن أبى سورة ابن أخى أبى أيوب الأنصارى عن أبى أيوب قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى ابن أخ لا ينتهى عن الحرام قال « وما دينه » قال يصلى ويوحد الله تعالى قال « استوهب منه دينه ، فإن أبى فابتعه منه » فطلب الرجل ذاك منه فأبى عليه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال « وجدته شحيحا على دينه » قال : فنزلت (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) . (الحديث العاشر) قال الحافظ أبويعلى : حدثنا عمرو بن الضحاك حدثنا أبى حدثنا أبوهمام الهنائى حدثنا ثابت عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ماتركت حاجة ولا ذا حاجة إلا قد أتيت ، قال « أليس تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ثلاث مرات قال نعم ، قال « فإن ذلك يأتى على ذلك كله » . (الحديث الحادى عشر) قال الإمام أحمد : حدثنا أبوعامر حدثنا عكرمة ابن عمار عن ضمضم بن جوش اليمامى قال : قال لى أبوهريرة يايمامى لاتقولن لرجل لايغفر الله لك ، أو لايدخلك الجنة أبدا . فقلت يا أبا هريرة إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب ، قال لاتقلها فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « كان فى بنى إسرائيل رجلان أحدهما مجتهد فى العبادة وكان الآخر مسرفا على نفسه وكانا متآخيين وكان المجتهد لايزال يرى الآخر على الذنب فيقول ياهـذا أقصر ، فيقول خلنى وربى أبعثت علىّ رقيباً إلى أن رآه يوما على ذنب استعظمه فقال له ويحك أقصر قال خلنى وربى أبعثت على رقيباً ، فقال والله لايغفر الله لك أو لايدخلك الجنة أبدا ، قال فبعث الله اليهما ملكا فقبض أرواحهما واجتمعا عنـده فقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتى وقال للآخر أكنت عالما ، أكنت على مافى يدى قادرا اذهبوا به إلى النار قال والذى نفس أبى القاسم بيده إنه لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته » ورواه أبوداود من حديث عكرمة بن عمار حدثنى ضمضم بن جوش به (الحديث الثانى عشر) قال الطبرانى حدثنا أبوالشيخ عن محمد بن الحسن بن عجلان الأصفهانى حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قال الله عز وجل : من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى مالم يشرك بى شيئا » . (الحديث الثالث عشر) قال الحافظ أبوبكر البزار والحافظ أبويعلى حدثنا هدبة هو ابن خالد حدثنا سهل بن أبى حازم عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من وعده الله على عمل ثوابا فهو منجزه له ، ومن توعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار » تفردا به وقال ابن أبى حاتم حدثنا بحر بن نصر الخولانى حدثنا خالد يعنى ابن عبدالرحمن الخراسانى حدثنا الهيثم بن حماد عن سلام بن أبى مطيع عن بكر بن عبـد الله المزنى عن ابن عمر قال كنا أصحاب النبى ﷺ لانشك فى قاتل النفس وآكل مال اليتيم وقاذف المحصنات وشاهد الزور حتى نزلت هذه الآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فأمسك أصحاب النبى ﷺ عن الشهادة ورواه ابن جرير من حديث الهيثم بن حماد به وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا عبد الملك ابن أبى عبدالرحمن المقرى حدثنا عبدالله بن عاصم حدثنا صالح يعنى المرى حدثنا أبو بشر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال كنا لانشك فيمن أوجب الله له النار فى الكتاب حتى نزلت علينا هذه الآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء)

قال فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله عز وجل . وقال البزار حدثنا محمد بن عبد الرحمن حدثنا شيبان ابن أبي شيبة حدثنا حرب بن شريح عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا ﷺ يقرأ (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقال « أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة » وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع أخبرني مخبر عن عبد الله بن عمر أنه قال: لما نزلت (ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله) إلى آخر الآية قام رجل فقال والشرك بالله يانبي الله ؟ فكره ذلك رسول الله ﷺ فقال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) رواه ابن جرير ، وقد رواه ابن مردويه من طرق عن ابن عمر ، وهذه الآية التي في سورة تنزيل مشروطة بالتوبة ، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه ، ولهذا قال (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) أي بشرط التوبة ، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه ولا يصح ذلك لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك وحكم بأنه يغفر ماعداه لمن يشاء ، أي وإن لم يتب صاحبه فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه والله أعلم . وقوله (ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) كقوله (إن الشرك لظلم عظيم) وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » وذكر تمام الحديث : وقال ابن مردويه حدثنا إسحق بن إبراهيم بن زيد حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا معن حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال «أخبركم بأكبر الكبائر الإشراك بالله» ثم قرأ (ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) «وعقوق الوالدين» ثم قرأ (أن اشكرلي ولوالديك إلى المصير)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾

قال الحسن وقتادة نزلت هذه الآية وهي قوله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) في اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه . وفي قولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) ، وقال مجاهد : كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم ، وكذا قال عكرمة وأبو مالك وروى ذلك ابن جرير ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) وذلك أن اليهود قالوا: إن أبناءنا توفوا وهم لنا قربة ويشفعون لنا ويزكوننا فأنزل الله على محمد (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) الآية ورواه ابن جرير ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن مصفى حدثنا ابن حمير عن ابن لهيعة عن بشر بن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لاخطايا لهم ولا ذنوب . وكذبوا قال الله إني لا اطهر ذا ذنب بآخر لاذنب له ، وأنزل الله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) ثم قال وروى عن مجاهد وأبي مالك والسدي وعكرمة والضحاك نحو ذلك ، وقال الضحاك : قالوا ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب فأنزل الله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) فيهم وقيل نزلت في ذم التمادح والتزكية ؛ وفي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب : وفي الصحيحين من طريق خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يثني على رجل فقال «ويحك قطعت

عنق صاحبك» ثم قال « إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ولا يزكى على الله أحدا» وقال الإمام أحمد حدثنا معتمر عن أبيه عن نعيم بن أبى هند قال : قال عمر بن الخطاب : من قال أنا مؤمن فهو كافر ؟ ومن قال هو عالم فهو جاهل ، ومن قال هو فى الجنة فهو فى النار ، ورواه ابن مردويه من طريق موسى بن عبيدة عن طلحة بن عبيد الله ابن كريز عن عمر أنه قال : إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه ، فمن قال إنه مؤمن فهو كافر ، ومن قال هو عالم فهو جاهل ، ومن قال هو فى الجنة فهو فى النار . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة حدثنا حجاج أنبأنا شعبة عن سعد بن إبراهيم عن معبد الجهنى قال : كان معاوية قلما كان يحدث عن النبى ﷺ قال وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبى ﷺ يقول « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإن هذا المال حلو خضر ، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه ، وإياكم والتمادح فانه الذبح » وروى ابن ماجه منه « إياكم والتمادح فانه الذبح » عن أبى بكر بن أبى شيبة عن غندر عن شعبة به ، ومعبد هذا هو ابن عبد الله بن عويم البصرى القدرى ، وقال ابن جرير حدثنا يحى بن إبراهيم المسعودى حدثنى أبى عن أبيه عن جده عن الأعمش عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود : إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شىء يلقى الرجل ليس يملك له ضرا ولا نفعا فيقول له : إنك والله كيت وكيت فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشىء وقد أسخطا الله ، ثم قرأ (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) الآية ، وسيأتى الكلام على ذلك مطولا عند قوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) ولهذا قال تعالى (بل الله يزكى من يشاء) اى المرجع فى ذلك إلى الله عز وجل لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوا مضها ، ثم قال تعالى (ولا يظلمون فتيلا) اى ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وغير واحد من السلف هو ما يكون فى شق النواة . وعن ابن عباس ايضا هو ما فتلت بين أصابعك وكلا القولين متقارب وقوله (انظر كيف يفترون على الله الكذب) اى فى تزكيتهم انفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) وقولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزى عن الأبناء شيئا فى قوله (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) الآية ثم قال (وكفى به إثما مبينا) أى وكفى بصنيعهم هذا كذبا وافتراء ظاهرا وقوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) أما الجبت فقال محمد بن إسحق عن حسان بن قائد عن عمر بن الخطاب أنه قال الجبت السحر ؟ والطاغوت الشيطان وهكذا روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير والشعبى والحسن والضحاك والسدى وعن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيدة بن جبير والشعبى والحسن وعطية: الجبت الشيطان ، وزاد ابن عباس بالحبشية وعن ابن عباس أيضا : الجبت الشرك . وعنه الجبت الأصنام وعن الشعبى الجبت الكاهن ، وعن ابن عباس الجبت حيى بن أخطب . وعن مجاهد الجبت كعب بن الأشرف وقال العلامة أبو نصر بن إسماعيل بن حماد الجوهرى فى كتابه الصحاح : الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك . وفى الحديث « الطيرة والعيافة والطرق من الجبت » قال وليس هذا من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء فى كلمة واحدة من غير حرف ذو لقى ، وهذا الحديث الذى ذكره ، رواه الإمام أحمد فى مسنده فقال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف بن حيان ابن العلاء حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه وهو قبيصة بن مخارق أنه سمع النبى ﷺ قال « إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت » وقال عوف : العيافة زجر الطير والطرق الخط يخط فى الأرض والجبت قال الحسن رنة الشيطان وهكذا رواه أبو داود فى سننه والنسائى وابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث عوف الأعرابى به . وقد تقدم الكلام على الطاغوت فى سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا إسحق بن الضيف حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت فقال : هم كهان تنزل عليهم الشياطين وقال مجاهد: الطاغوت الشيطان فى صورة إنسان يتحاكمون اليه وهو صاحب أمرهم وقال الإمام مالك : هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل

وقوله (ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أى يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذى بأيديهم . وقد روى ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة قال جاء حي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد فقالوا ما أنتم وما محمد فقالوا نحن نصل الأرحام . وننحر الكوماء ، ونسقى الماء على اللبن ، ونفك العانى ، ونسقى الحجيج ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار فنحن خير أم هو ؟ فقالوا أنتم خير وأهدى سبيلا فأنزل الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا) الآية وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة ، وأهل السقاية قال أنتم خير قال فنزلت (إن شانئك هو الأبتر) ونزل (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب — إلى — نصيرا) وقال ابن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة حي بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وأبو رافع والربيع بن أبى الحقيق وأبو عامر ووحوح بن عامر وهودة بن قيس . فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بنى وائل وكان سائرهم من بنى النضير فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا أدينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه فأنزل الله عز وجل (ألم تر إلى الذين أوتوا من الكتاب) إلى قوله عز وجل (وآتيناهم ملكا عظيما) وهذا لعن لهم واخبار بأنهم لا ناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً)

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيماً * فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾

يقول تعالى أم لهم نصيب من الملك وهذا استفهام إنكارى أى ليس لهم نصيب من الملك ثم وصفهم بالبخل فقال فإذا لا يؤتون الناس نقيرا أى لأنهم لو كان لهم نصيب فى الملك والتصرف لما أعطوا أحدا من الناس ولا سيما محمداً صلى الله عليه وسلم شيئا ولا ما يملأ النقير وهو النقطة التى فى النواة فى قول ابن عباس والأكثرين . وهذه الآية كقوله تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق) أى خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاده وإنما هو من بخلكم وشحكم ولهذا قال تعالى (وكان الإنسان قتورا) أى بخيلا ثم قال (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) يعنى بذلك حسدهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بنى إسرائيل . وقال الطبرانى حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا يحيى الحمانى حدثنا قيس بن الربيع عن السدى عن عطاء عن ابن عباس فى قوله (أم يحسدون الناس) الآية قال ابن عباس نحن الناس دون الناس قال الله تعالى (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) أى فقد جعلنا فى أسباط بنى إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسنن وهى الحكمة وجعلنا منهم الملوك ومع هذا فمنهم من آمن به أى بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ومنهم من صد عنه أى كفر به وأعرض عنه وسعى فى صد الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم أى من بنى إسرائيل فقد اختلفوا عليهم فكيف بك

يا محمد ولست من بني إسرائيل ؟ وقال مجاهد : فمنهم من آمن به أي بمحمد ﷺ ومنهم من صد عنه فالكفرة منهم أشد تكذيبا لك ، وأبعد عما جئتهم به من الهدى ، والحق المبين ولهذا قال متوعدا لهم (وكفى بجهنم سعيرا) أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله و رسله

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله ، فقال (إن الذين كفروا بآياتنا) الآية ، أي ندخلهم نارا دخولا يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم . ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) قال الأعمش عن ابن عمر: إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضا أمثال القراطيس رواه ابن أبي حاتم ، وقال يحيى بن يزيد الحضرمي أنه بلغه في الآية : قال يجعل للكافر مائة جلد بين كل جلدين لون من العذاب رواه ابن أبي حاتم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن هشام عن الحسن قوله (كلما نضجت جلودهم) الآية قال : تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة قال حسين وزاد فيه فضيل عن هشام عن الحسن (كلما نضجت جلودهم) قيل لهم : عودوا فعادوا . وقال أيضا ذكر عن هشام بن عمار حدثنا سعيد بن يحيى [يعني السعداني[1]] حدثنا نافع مولى يوسف السلمي البصري عن نافع عن ابن عمر قال : قرأ رجل عند عمر هذه الآية (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) فقال عمر : أعدها علي ، فأعادها ، فقال معاذ بن جبل : عندي تفسيرها تبدل في ساعة مائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رواه ابن مردويه عن محمد بن أحمد بن إبراهيم عن عبدان بن محمد المروزي عن هشام بن عمار به ، ورواه من وجه آخر بلفظ آخر فقال : حدثنا محمد بن إسحق عن عمران حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا نافع أبو هرمز حدثنا نافع عن ابن عمر قال : تلا رجل عند عمر هذه الآية (كلما نضجت جلودهم) الآية قال فقال عمر : أعدها علي وثم كعب فقال يا أمير المؤمنين أنا عندي تفسير هذه الآية قرأتها قبل الإسلام قال فقال : هاتها يا كعب فان جئت بها كما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقناك وإلا لم ننظر إليها ، فقال إني قرأتها قبل الإسلام كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة. فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الربيع بن أنس : مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعا وسنه سبعون ذراعاً وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلودا غيرها. وقد ورد في الحديث ما هو أبلغ من هذا ، قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا أبو يحيى الطويل عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعا ، وان ضرسه مثل أحد » تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وقيل المراد بقوله (كلما نضجت جلودهم) أي سرابيلهم . حكاه ابن جرير وهو ضعيف لأنه خلاف الظاهر . وقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) هذا اخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ، ومحالها وأرجائها حيث شاءوا ، وأين أرادوا وهم خالدون فيها أبدا لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولا وقوله (لهم فيها أزواج مطهرة) أي من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة كما قال ابن عباس : مطهرة من الأقذار والأذى . وكذا قال عطاء والحسن والضحاك والنخعي وأبو صالح وعطية والسدي وقال مجاهد : مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد وقال قتادة : مطهرة من الأذى والمآثم ولا

(١) هو لقب له كما في التقريب .

حيض ولا كلف . وقوله (وندخلهم ظلا ظليلا) أى ظلا عميقا كثيرا غزيرا طيبا أنيقا ، قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن وحدثنا ابن المثنى حدثنا ابن جعفر قالا حدثنا شعبة قال : سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ـ شجرة الخلد »

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها . وفى حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » رواه الإمام أحمد وأهل السنن وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عزوجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك فأمر الله عز وجل بأدائها فمن لم يفعل ذلك فى الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء » وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل فى سبيل الله فيقال أد أمانتك فيقول فأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟ فتمثل له الأمانة فى قعر جهنم فيهوى إليها فيحملها على عاتقه قال فتنزل عن عاتقه فيهوى على أثرها أبد الآبدين . قال زاذان فأتيت البراء فحدثته فقال صدق أخى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقال سفيان الثورى عن ابن أبى ليلى عن رجل عن ابن عباس فى الآية قال : هى مبهمة للبر والفاجر ، وقال محمد بن الحنفية هى عامة[1] للبر والفاجر وقال أبو العالية : الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه. وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا حفص بن غياث عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال : قال أبى بن كعب من الأمانات أن المرأة ائتمنت على فرجها ، وقال الربيع بن أنس هى من الأمانات فيما بينك وبين الناس . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) قال : قال يدخل فيه وعظ السلطان النساء يعنى يوم العيد وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة واسم أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ابن قصى بن كلاب القرشى العبدرى حاجب الكعبة المعظمة وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم ، أسلم عثمان هذا فى الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأما عمه عثمان بن طلحة بن أبى طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أحد وقتل يومئذ كافرا وإنما نبهنا على هذا النسب لأن كثيرا من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا ، وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه : وقال محمد بن إسحق فى غزوة الفتح حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن أبى ثور عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس فى المسجد قال ابن إسحق فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمىّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » وذكر بقية الحديث فى خطبة النبى ﷺ يومئذ إلى أن قال ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك فقال

(١) فى نسخة مسجلة :

رسول الله ﷺ « أين عثمان بن طلحة ؟ » فدعى له فقال له « هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم وفاء وبر » قال ابن جرير حدثنى القاسم حدثنا الحسين عن حجاج عن ابن جريج فى الآية قال نزلت فى عثمان بن طلحة قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل فى البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) الآية فدعا عثمان اليه فدفع اليه المفتاح قال : وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فداه أبى وأمى ماسمعته يتلوها قبل ذلك : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا الزنجى بن خالد عن الزهرى قال دفعه اليه وقال : أعينوه : وروى ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله عزوجل (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) قال لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان ابن طلحة فلما أتاه قال « أرنى المفتاح » فأتاه به ؛ فلما بسط يده اليه قام اليه العباس قال : يارسول الله بأبى أنت وأمى اجمعه لى مع السقاية فكف عثمان يده . فقال رسول الله ﷺ « أرنى المفتاح ياعثمان » فبسط يده يعطيه ، فقال العباس مثل كلمته الأولى فكف عثمان يده . فقال رسول الله ﷺ « ياعثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاته » فقال هاك بأمانة الله قال : فقام رسول الله ﷺ وفتح باب الكعبة فوجد فى الكعبة تمثال إبراهيم عليه الصلاة والسلام معه قداح يستقسم بها ؛ فقال رسول الله ﷺ « ما للمشركين قاتلهم الله ، وما شأن إبراهيم وشأن القداح » ثم دعا بجفنة فيها ماء ، فأخذ ماء فغمسه فيه ، ثم غمس به تلك التماثيل وأخرج مقام ابراهيم وكان فى الكعبة فألزقه فى حائط الكعبة ، ثم قال « يا أيها الناس هذه القبلة » : قال : ثم خرج رسول الله ﷺ فطاف بالبيت شوطا أو شوطين ثم نزل عليه جبريل فيما ذكر لنا برد المفتاح ، ثم قال رسول الله ﷺ (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) حتى فرغ من الآية ، وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت فى ذلك وسواء كانت نزلت فى ذلك أولا فحكمها عام ولهذا قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية هى للبر والفاجر أى هى أمر لكل أحد ، وقوله (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب إن هذه الآية : إنما نزلت فى الأمراء يعنى الحكام بين الناس وفى الحديث « إن الله مع الحاكم مالم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه » وفى الأثر « عدل يوم كعبادة أربعين سنة » وقوله (إن الله نعما يعظكم به) أى يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة ، وقوله تعالى (إن الله كان سميعا بصيرا) أى سميعا لأقوالكم ، بصيرا بأفعالكم كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير حدثنا عبدالله بن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية (سميعا بصيرا) يقول بكل شىء بصير وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا يحيى القزوينى أنبأنا المقرى يعنى أبا عبدالرحمن عبدالله بن يزيد حدثنا حرملة يعنى ابن عمران التجيبى المصرى حدثنى أبو يونس سمعت أباهريرة يقرأ هذه الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) إلى قوله (إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) ويضع إبهامه على أذنه والتى تليها على عينه ويقول هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها ويضع اصبعيه ، وقال أبوزكريا وصفه لنا المقرى ووضع أبوزكريا إبهامه اليمنى على عينه اليمنى والتى تليها على الأذن اليمنى وأرانا فقال هكذا وهكذا . رواه أبوداود وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه وابن مردويه فى تفسيره من حديث أبى عبد الرحمن المقرى بإسناده نحوه . وأبو يونس هذا مولى أبى هريرة واسمه سليم بن جبير

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

قال البخارى حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) قال نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى إذ بعثه رسول الله ﷺ فى سرية وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث حجاج بن محمد الأعور به وقال الترمذى حديث حسن

غريب ولانعرفه إلا من حديث ابن جريج ، وقال الإمام أحمد : حدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي قال : بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال : فقال لهم أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا بلى ، قال فاجمعوا لي حطبا ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال لهم « لو دخلتموها ماخرجتم منها أبداً ، إنما الطاعة في المعروف » أخرجاه الصحيحين من حديث الأعمش به . وقال أبو داود حدثنا مسدد حدثنا يحيي عن عبيد الله حدثنا نافع عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » وأخرجاه من حديث يحيي القطان . وعن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا . وأن لاننازع الأمر أهله قال « إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم فيه من الله برهان » . أخرجاه وفي الحديث الآخر عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اسمعوا وأطيعوا . وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » رواه البخاري وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدوع الأطراف رواه مسلم . وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع يقول « ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا » رواه مسلم وفي لفظ له « عبداً حبشياً مجدوعا » وقال ابن جرير حدثني علي بن مسلم الطوسي حدثنا ابن أبي فديك حدثني عبد الله بن محمد بن عروة عن هشام بن عروة عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « سيليكم ولاة بعدي فيليكم البر ببره والفاجر بفجوره . فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ماوافق الحق ، وصلوا وراءهم فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلكم وعليهم » وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لانبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون » قالوا يارسول الله فما تأمرنا ؟ قال « أوفوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم » أخرجاه وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية » أخرجاه وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لاحجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه مسلم . وروى مسلم أيضا عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس حوله مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست اليه فقال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلا فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشره[1] إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال : إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وان هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء ، وأمور ينكرونها ، وتجيء فتن يرفق بعضها بعضا وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى اليه ، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه ان استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ، قال فدنوت منه فقلت . أنشدك بالله آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال : سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا ان نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، ويقتل بعضا بعضا والله تعالى يقول (يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) قال فسكت

(١) أصل الجشر : الدواب ترعى في مكان وتبيت فيه اهـ .

ساعة ثم قال . أطعه فى طاعة الله ، واعصه فى معصية الله . والأحاديث فى هذا كثيرة . وقال ابن جرير حدثنا محمد ابن الحسين حدثنا أحمد بن الفضل حدثنا أسباط عن السدى فى قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية عليها خالد بن الوليد وفيها عمار بن ياسر فساروا قبل القوم الذين يريدون فلما بلغوا قريبا منهم عرّسوا وأتاهم ذو العيينتين فأخبرهم فأصبحوا وقد هربوا غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم ، ثم أقبل يمشى فى ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد فسأل عن عمار بن ياسر فأتاه فقال : يا أبا اليقظان إنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله وإن قومى لما سمعوا بكم هربوا وإنى بقيت فهل إسلامى نافعى غداً وإلا هربت ؟ قال عمار بل هو ينفعك فأقم فأقام ، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحداً غير الرجل فأخذه وأخذ ماله فبلغ عمارا الخبر فأتى خالدا فقال : خل عن الرجل فإنه قد أسلم وإنه فى أمان منى ، فقال خالد : وفيما أنت تجير ؟ فاستبا وارتفعا إلى النبى ﷺ فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير فاستبا عند رسول الله ﷺ فقال خالد يا رسول الله : أتترك هذا العبد الأجدع يسبنى ، فقال رسول الله ﷺ « يا خالد لا تسب عماراً فإنه من سب عماراً يسبه الله ، ومن يبغض عماراً يبغضه الله ، ومن يلعن عماراً لعنه الله » فغضب عمار فقام فتبعه خالد فأخذ بثوبه فاعتذر اليه فرضى عنه فأنزل الله عز وجل قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وهكذا رواه ابن أبى حاتم من طريق عن السدى مرسلا ، ورواه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن السدى عن أبى صالح عن ابن عباس فذكره بنحوه والله أعلم . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وأولى الأمر منكم) يعنى أهل الفقه والدين ، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصرى وأبو العالية (وأولى الأمر منكم) يعنى العلماء والظاهر والله أعلم أنها عامة فى كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدم وقال تعالى (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) وقال تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وفى الحديث الصحيح المتفق على صحته عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصا الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصا أميرى فقد عصانى » فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ، ولهذا قال تعالى (أطيعوا الله) أى اتبعوا كتابه (وأطيعوا الرسول) أى خذوا بسنته (وأولى الأمر منكم) أى فيما أمروكم به من طاعة الله لا فى معصية الله ، فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الله كما تقدم فى الحديث الصحيح « إنما الطاعة فى المعروف» وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا همام حدثنا قتادة عن ابن حريث عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ قال « لا طاعة فى معصية الله » . وقوله (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) قال مجاهد وغير واحد من السلف أى إلى كتاب الله وسنة رسوله . وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شىء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ولهذا قال تعالى (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر وقوله (ذلك خير) أى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله . والرجوع اليهما فى فصل النزاع خير (وأحسن تأويلا) أى وأحسن عاقبة ومآلا كما قاله السدى وغير واحد . وقال مجاهد : وأحسن جزاء وهو قريب

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾

هذا إنكار من الله عزوجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية أنها فى رجل من من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما،فجعل اليهودى يقول بينى وبينك محمد ، وذاك يقول بينى وبينك كعب بن الأشرف وقيل فى جماعة من المنافقين ممن أظهر الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية . وقيل غير ذلك والآية أعم من ذلك كله فانها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة . وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا ولهذا قال (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) إلى آخرها . وقوله (ويصدون عنك صدودا) أى يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى عن المشركين (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) الآية

ثم قال تعالى فى ذم المنافقين (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) أى فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك فى مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك فى ذلك (ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردن إلا إحسانا وتوفيقا) أى يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق أى المداراة والمصانعة لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة كما أخبرنا تعالى عنهم فى قوله (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى — إلى قوله — فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) وقد قال الطبرانى حدثنا أبو زيد أحمد بن يزيد الحوطى حدثنا أبو اليمان حدثنا صفوان بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان أبو برزة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزل الله عز وجل (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك — إلى قوله — إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا)

ثم قال تعالى (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) هذا الضرب من الناس هم المنافقون والله يعلم ما فى قلوبهم وسيجزيهم على ذلك فانه لا تخفى عليه خافية فاكتف به يا محمد فيهم فانه عالم بظواهرهم وبواطنهم . ولهذا قال له (فأعرض عنهم) أى لا تعنفهم على ما فى قلوبهم (وعظهم) أى وانههم عما فى قلوبهم من النفاق وسرائر الشر (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) أى وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

يقول تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع) أى فرضت طاعته على من أرسله إليهم وقوله (بإذن الله) قال مجاهد أى لا يطيع أحد إلا بإذنى يعنى لا يطيعه إلا من وفقته لذلك كقوله (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) أى عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم ، وقوله (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) الآية ، يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم فانهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ولهذا قال (لوجدوا الله توابا رحيما) وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ[1]

(١) فى نسخة الأزهر : أبو نصر بن الصباغ .

فى كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابى فقال السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول (ولو أنهم إذظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربى . ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه * فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابى فغلبتنى عينى فرأيت النبي ﷺ فى النوم فقال : « ياعتبى الحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له »

وقوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم) يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطنا وظاهرا ولهذا قال (ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) أى إذا حكموك يطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجا مما حكمت به وينقادون له فى الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة كما ورد فى الحديث « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وقال البخارى حدثنا على بن عبد الله حدثنا محمد بن جعفر حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا فى شراج الحرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اسق يا الزبير ثم أرسل الماء إلى جارك » فقال الأنصارى : يا رسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك » فاستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصارى وكان أشار عليهما صلى الله عليه وسلم بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية . هكذا رواه البخارى ههنا أعنى فى كتاب التفسير فى صحيحه من حديث معمر ، وفى كتاب الشرب من حديث ابن جريج ومعمر أيضا ، وفى كتاب الصلح من حديث شعيب بن أبى حمزة ثلاثتهم عن الزهرى عن عروة فذكره وصورته صورة الارسال وهو متصل فى المعنى وقد رواه الإمام أحمد من هذا الوجه فصرح بالارسال فقال حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه كان يخاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى شراج الحرة كانا يسقيان بها كلاهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير « اسق ثم أرسل إلى جارك » فغضب الأنصارى وقال : يا رسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر » فاستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللانصارى فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم ثم قال : قال عروة فقال الزبير والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) هكذا رواه الإمام أحمد وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير فانه لم يسمع منه ، والذى يقطع به أنه سمعه من أخيه عبد الله فان أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم رواه كذلك فى تفسيره فقال حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى الليث ويونس عن ابن شهاب أن عروة بن الزبير حدثه أن عبد الله بن الزبير حدثه عن الزبير بن العوام أنه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج فى الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل فقال الأنصارى : سرح الماء يمر فأبى عليه الزبير فقال رسول الله ﷺ « اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك » فغضب الأنصارى وقال يا رسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر » واستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه السعة له وللأنصارى فلما أحفظ

الأنصارى رسول الله ﷺ استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية إلا فى ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وهكذا رواه النسائى من حديث ابن وهب به ورواه أحمد والجماعة كلهم من حديث الليث به وجعله أصحاب الأطراف فى مسند عبدالله ابن الزبير وكذا ساقه الإمام أحمد فى مسند عبد الله بن الزبير والله أعلم . والعجب كل العجب من الحاكم أبى عبد الله النيسابورى فانه روى هذا الحديث من طريق ابن أخى ابن شهاب عن عمه عن عروة عن عبد الله بن الزبير عن الزبير فذكره ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . فإنى لا أعلم أحدا قام بهذا الإسناد عن الزهرى بذكر عبد الله بن الزبير غير ابن أخيه وهو عنه ضعيف ، وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن على أبو دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا الفضل بن دكين حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن سلمة رجل من آل أبى سلمة قال : خاصم الزبير رجلا إلى النبى ﷺ فقضى للزبير فقال الرجل : إنما قضى له لأنه ابن عمته فنزلت (فلا وربك لا يؤمنون) الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبو حيوة حدثنا سعيد بن عبدالعزيز عن الزهرى عن سعيد بن المسيب فى قوله (فلا وربك لا يؤمنون) قال نزلت فى الزبير بن العوام وحاطب بن أبى بلتعة اختصما فى ماء فقضى النبى صلى الله عليه وسلم أن يسقى الأعلى ثم الأسفل هذا مرسل ولكن فيه فائدة تسمية الأنصارى ﴿ ذكر سبب آخر غريب جداً ﴾ قال ابن أبى حاتم . حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرنى عبد الله بن لهيعة عن أبى الأسود قال : اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ فقضى بينهما، فقال المقضى عليه : ردنا إلى عمر بن الخطاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » انطلقا إليه فلما أتيا إليه فقال الرجل : يا ابن الخطاب قضى لى رسول الله ﷺ على هذا. فقال ردنا إلى عمر بن الخطاب فردنا إليك فقال أكذاك ؟قال نعم فقال عمر . مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضى بينكما. فخرج إليهما مشتملا على سيفه فضرب الذى قال ردنا إلى عمر فقتله وأدبر الآخر فأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله قتل عمر والله صاحبى ولولا أنى أعجزته لقتلنى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما كنت أظن أن يجترىء عمر على قتل مؤمن » فأنزل الله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك) الآية فهدر دم ذلك الرجل وبرىء عمر من قتله فكره الله أن يسن ذلك بعد ، فأنزل (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية ، وكذا رواه ابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن أبى الأسود به وهو أثر غريب مرسل ، وابن لهيعة ضعيف والله أعلم . (طريق أخرى) قال الحافظ أبو إسحق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دحيم فى تفسيره حدثنا شعيب بن شعيب حدثنا أبو المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة حدثنى أبى أن رجلين اختصما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى للمحق على المبطل ، فقال المقضى عليه لا أرضى ، فقال صاحبه فما تريد ؟ قال: أن نذهب إلى أبى بكر الصديق فذهبا إليه ، فقال الذى قضى له : قد اختصمنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى لى فقال أبو بكر : أنتما على ما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى صاحبه أن يرضى ، فقال نأتى عمر بن الخطاب ، فقال المقضى له : قد اختصمنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى لى عليه فأبى أن يرضى ، فسأله عمر بن الخطاب فقال كذلك ، فدخل عمر منزله وخرج والسيف فى يده قد سله فضرب رأس الذى أبى أن يرضى فقتله ، فأنزل الله (فلا وربك لا يؤمنون) الآية

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهى لما فعلوه لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة

الأمر وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية ، قال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنى إسحق حدثنا الأزهر عن إسماعيل عن أبى إسحق السبيعى قال : لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية قال رجل . لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذى عافانا فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال « إن من أمتى لرجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى » ورواه ابن أبى حاتم حدثنا جعفر بن منير حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن بإسناده عن الأعمش قال : لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية . قال أناس من أصحاب النبى ﷺ لو فعل ربنا لفعلنا ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال « للإيمان أثبت فى قلوب أهله من الجبال الرواسى » وقال السدى افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود فقال اليهودى والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا فقال ثابت والله لو كتب علينا (أن اقتلوا أنفسكم) لفعلنا فأنزل الله هذه الآية ورواه ابن أبى حاتم . حدثنا أبى حدثنا محمود بن غيلان حدثنا بشر بن السرى حدثنا مصعب بن ثابت عن عمه عامر بن عبد الله بن الزبير قال لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم » وحدثنا أبى حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن صفوان ابن عمرو عن شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال « لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل » يعنى ابن رواحة ولهذا قال تعالى (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) أى ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه (لكان خيرا لهم) أى من مخالفة الأمر وارتكاب النهى (وأشد تثبيتا) قال السدى . أى وأشد تصديقا (وإذا لآتيناهم من لدنا) أى من عندنا (أجراً عظيما) يعنى الجنة (ولهديناهم صراطا مستقيما) أى فى الدنيا والآخرة ثم قال تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) أى من عمل بما أمره الله به ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله فان الله عز وجل يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقاً للانبياء ثم لمن بعدهم فى الرتبة وهم الصديقون ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ثم أثنى عليهم تعالى فقال (وحسن أولئك رفيقاً) وقال البخارى حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عروة عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن نبى يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة » وكان فى شكواه التى قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعته يقول « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » فعلمت أنه خير وكذا رواه مسلم من حديث شعبة عن سعد بن إبراهيم به وهذا معنى قوله ﷺ فى الحديث الآخر « اللهم الرفيق الأعلى » ثلاثا ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم

﴿ ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة ﴾

قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « يا فلان مالى أراك محزوناً » فقال يانبى الله شىء فكرت فيه فقال ما هو ؟ قال نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك فلم يرد عليه النبى ﷺ شيئا فأتاه جبريل بهذه الآية (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين) الآية فبعث النبى ﷺ فبشره . وقد روى هذا الأثر مرسلا عن مسروق وعن عكرمة وعامر الشعبى وقتادة وعن الربيع بن أنس وهو من أحسنها سندا قال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع قوله (ومن يطع الله والرسول) الآية قال إن أصحاب النبى ﷺ قالوا قد علمنا أن النبى ﷺ له فضل على من آمن به فى درجات الجنة ممن اتبعه وصدقه وكيف لهم إذا اجتمعوا فى الجنة أن يرى بعضهم بعضا . فأنزل الله . فى ذلك يعنى هذه الآية فقال يعنى رسول الله ﷺ « إن الأعلين ينحدرون إلى من هو أسفل منهم فيجتمعون فى رياض فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما

يدعون به فهم فى روضة يحبرون ويتنعمون فيه » وقد روى مرفوعا من وجه آخر فقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم ، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنا عبدالله بن عمران ، حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله : إنك لأحب إلىّ من نفسى ، وأحب إلىّ من أهلى ، وأحب إلىّ من ولدى وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر اليك ، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم حتى نزلت عليه (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) وهكذا رواه الحافظ أبو عبدالله المقدسى فى كتابه فى صفة الجنة من طريق الطبرانى عن أحمد بن عمرو ابن مسلم الخلال عن عبد الله بن عمران العابدى به ثم قال لا أرى بإسناده بأسا والله أعلم . وقال ابن مردويه أيضاً حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا العباس بن الفضل الاسقاطى . حدثنا أبو بكر بن ثابت عن ابن عباس البصرى حدثنا خالد بن عبدالله عن عطاء بن السائب عن عامر الشعبى عن ابن عباس أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال يارسول الله إنى لأحبك حتى إنى لأذكرك فى المنزل فيشق ذلك على وأحب أن أكون معك فى الدرجة فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد عن جرير عن عطاء عن الشعبى مرسلا وثبت فى صحيح مسلم من حديث هقل بن زياد عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبدالرحمن عن ربيعة بن كعب الأسلمى أنه قال : كنت أبيت عند النبى ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لى « سل » فقلت يارسول الله أسألك مرافقتك فى الجنة فقال « أو غير ذلك » قلت : هو ذاك قال « فأعنى على نفسك بكثرة السجود » وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق ، أخبرنا ابن لهيعة عن عبد الله بن أبى جعفر عن عيسى بن طلحة عن عمرو بن مرة الجهنى قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ؟ وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى . وصمت شهر رمضان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا — ونصب اصبعيه — مالم يعق والديه » تفرد به أحمد قال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو سعيد مولى أبى هاشم . حدثنا ابن لهيعة عن زياد بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « من قرأ ألف آية فى سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً إن شاء الله » وروى الترمذى من طريق سفيان الثورى عن أبى حمزة عن الحسن البصرى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصدقين والشهداء » ثم قال هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأبو حمزة اسمه عبد الله بن جابر شيخ بصرى وأعظم من هذا كله بشارة ماثبت فى الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال « المرء مع من أحب » قال أنس فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفى رواية عن أنس أنه قال : إنى لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضى الله عنهما وأرجو أن الله يبعثنى معهم وإن لم أعمل كعملهم قال الإمام مالك بن أنس عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قالوا يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال « بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم ورواه الإمام أحمد ، حدثنا فزارة أخبرنى فليح عن هلال يعنى ابن على عن عطاء عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة كما تراءون — أو ترون — الكوكب الدرى الغابر فى الأفق الطالع فى تفاضل الدرجات » قالوا يارسول الله أولئك النبيون . قال « بلى ؟ والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » قال الحافظ الضياء المقدسى هذا الحديث على شرط البخارى والله أعلم وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير حدثنا على بن عبدالعزيز حدثنا محمد بن عمار الموصلى حدثنا على بن عفيف بن سالم عن أيوب عن عتبة عن عطاء عن ابن عمر قال أتى رجل من الحبشة إلى رسول الله

ﷺ يسأله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « سل واستفهم » فقال يا رسول الله فضلتم علينا بالصور والألوان والنبوة ، ثم قال : أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به إنى لكائن معك فى الجنة ، قال رسول الله ﷺ « نعم والذى نفسى بيده إنه ليضىء بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام » ثم قال رسول الله ﷺ « من قال لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله ، ومن قال سبحان الله وبحمده كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة » فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يتغمده الله برحمته » ونزلت هذه الآيات (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً — إلى قوله — نعيما وملكا كبيراً) فقال الحبشى : وإن عينى لترىان ماترى عيناك فى الجنة ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم » فاستبكى حتى فاضت نفسه ، قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليه فى حفرته بيديه ، فيه غرابة ونكارة وسنده ضعيف ولهذا قال تعالى (ذلك الفضل من الله) أى من عند الله (برحمته) وهو الذى أهلهم لذلك لا بأعمالهم (وكفى بالله عليما) أى هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعاً * وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً * فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم وهذا يستلزم التأهب لهم باعداد الأسلحة والعدد وتكثير العدد بالنفير فى سبيل الله (ثبات) أى جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية والثبات جمع ثبة وقد تجمع الثبة على ثبين ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (فانفروا ثبات) أى عصبا يعنى سرايا متفرقين (أو انفروا جميعا) يعنى كلكم ، وكذا روى عن مجاهد وعكرمة والسدى وقتادة والضحاك وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان وخصيف الجزرى ، وقوله تعالى (وإن منكم لمن ليبطئن) قال مجاهد وغير واحد نزلت فى المنافقين ، وقال مقاتل بن حيان : (ليبطئن) أى ليتخلفن عن الجهاد ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو فى نفسه ويبطىء غيره عن الجهاد كما كان عبدالله بن أبى ابن سلول قبحه الله يفعل يتأخر عن الجهاد ويثبط الناس عن الخروج فيه . وهذا قول ابن جريج وابن جرير ؛ ولهذا قال تعالى إخبارا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد (فإن أصابتكم مصيبة) أى قتل وشهادة وغلب العدو لكم لما لله فى ذلك من الحكمة (قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا) أى إذ لم أحضر معهم وقعة القتال يعد ذلك من نعم الله عليه ، ولم يدر مافاته من الأجر فى الصبر أو الشهادة إن قتل (ولئن أصابكم فضل من الله) أى نصر وظفر وغنيمة (ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) أى كأنه ليس من أهل دينكم (ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) أى بأن يضرب لى بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده . ثم قال تعالى (فليقاتل) أى المؤمن النافر (فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أى يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا وماذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم ، ثم قال تعالى (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أى كل من قاتل فى سبيل الله سواء قتل أو غلب فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل كما ثبت فى الصحيحين وتكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه بمانال من أجر أو غنيمة

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد فى سبيله وعلى السعى فى استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها ، ولهذا قال تعالى (الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية) يعنى مكة كقوله تعالى (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) ثم وصفها بقوله (الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) أى سخر لنا من عندك وليا وناصرا . قال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن عبيد الله قال سمعت ابن عباس قال . كنت أنا وأمى من المستضعفين . حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبى مليكة أن ابن عباس تلا (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) قال كنت أنا وأمى ممن عذر الله عز وجل ثم قال تعالى (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى المؤمنون يقاتلون فى طاعة الله ورضوانه ، والكافرون يقاتلون فى طاعة الشيطان ، ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

كان المؤمنون فى ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النصب وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبا لأسباب كثيرة منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم ، ومنها كونهم كانوا فى بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار ، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفا شديداً (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) أى لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى فإن فيه سفك الدماء ، ويتم الأولاد ، وتأيم النساء ، وهذه الآية كقوله تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) الآيات : قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد ابن عبد العزيز عن أبى زرعة وعلى بن رحمة قالا : حدثنا على بن الحسن عن الحسين بن واقد عن عمرو بن دينار عن عكرمة

عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقالوا يا نبي الله : كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة قال « إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) الآية ورواه النسائي والحاكم وابن مردويه من حديث على بن الحسن ابن شقيق به وقال أسباط عن السدى لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة ، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال فلما فرض عليهم القتال (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) وهو الموت قال الله تعالى (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) وقال مجاهد : إن هذه الآية نزلت في اليهود رواه ابن جرير وقوله (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) أي آخرة المتقي خير من دنياه (ولا تظلمون فتيلا) . أي من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء ، وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا حماد بن زيد عن هشام قال : قرأ الحسن (قل متاع الدنيا قليل) قال : رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه . وقال ابن معين كان أبو مصهر ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له * من الله في دار المقام نصيب

فإن تعجب الدنيا رجالا فإنها * متاع قليل والزوال قريب

وقوله تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجو منه أحد منكم كما قال تعالى (كل من عليها فان) الآية ، وقال تعالى (كل نفس ذائقة الموت) وقال تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) والمقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة ، ولا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد فان له أجلا محتوما ، ومقاما مقسوما كما قال خالد بن الوليد حين جاء الموت على فراشه لقد شهدت كذا وكذا موقفا ، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية وها أنا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء وقوله (ولو كنتم في بروج مشيدة) أي حصينة منيعة عالية رفيعة ، وقيل هي بروج في السماء قاله السدى وهو ضعيف والصحيح أنها المنيعة أي لا يغني حذر وتحصن من الموت كما قال زهير بن أبي سلمى   ومن هاب أسباب المنايا ينلنه * ولو رام أسباب السماء بسلم

ثم قيل المشيدة هي المشيدة كما قال وقصر مشيد ، وقيل بل بينهما فرق وهو أن المشيدة بالتشديد هي المطولة، وبالتخفيف هي المزينة بالشيد وهو الجص . وقد ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم ههنا حكاية مطولة عن مجاهد أنه ذكر أن امرأة فيمن كان قبلنا أخذها الطلق فأمرت أجيرها أن يأتيها بنار فخرج فإذا هو برجل واقف على الباب فقال ما ولدت المرأة فقال جارية فقال أما إنها ستزني بمائة رجل ثم يتزوجها أجيرها ويكون موتها بالعنكبوت . قال فكر راجعا فبعج بطن الجارية بسكين فشقه ثم ذهب هاربا وظن أنها قد ماتت فخاطت أمها بطنها فبرئت وشبت وترعرت ونشأت أحسن امرأة ببلدتها فذهب ذاك الأجير ما ذهب ودخل البحور فاقتنى أموالا جزيلة ثم رجع إلى بلده وأراد التزوج فقال لعجوز أريد أن أتزوج بأحسن امرأة بهذه البلدة فقالت ليس ههنا أحسن من فلانة فقال اخطبيها على فذهبت إليها فأجابت فدخل بها فأعجبته إعجابا شديداً فسألته عن أمره ومن أين مقدمه فأخبرها خبره وما كان من أمره في الجارية فقالت أنا هي وأرته مكان السكين فتحقق ذلك فقال لئن كنت إياها فلقد أخبرني باثنتين لا بد منهما (احداهما) أنك قد زنيت بمائة رجل فقالت لقد كان شيء من ذلك ولكن لا أدري ما عددهم فقال هم مائة (والثاني) أنك تموتين بالعنكبوت فاتخذ لها قصراً منيعا شاهقا ليحرزها من ذلك فبينا هم يوما فإذا بالعنكبوت في السقف فأراها إياها فقالت أهذه التي تحذرها علي والله لا يقتلها إلا أنا فأنزلوها من السقف فعمدت إليها فوطئتها بإبهام رجلها فقتلتها فطار من سمها شيء فوقع بين ظفرها ولحمها واسودت رجلها فكان في ذلك أجلها فماتت ونذكر ههنا قصة صاحب الحضر وهو الساطرون لما احتال عليه سابور حتى حصره فيه وقتل من فيه بعد محاصرة سنتين وقالت العرب في ذلك أشعارا منها :   وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ * لة تجبى إليـه والخابور

شاده مرمرا وجلله كلـ * ـسا فللطير في ذراه وكور * لم تهبه أيدى المنون فباد الـ * ـملك عنه فبابه مهجور

ولما دخل على عثمان جمل يقول : اللهم اجمع أمة محمد ثم تمثل بقول الشاعر :

أرى الموت لايبقى عزيزاً ولم يدع * لعاد ملاذاً فى البلاد ومربعا

يبيت أهل الحصن والحصن مغلق * ويأتى الجبال فى شماريخها معا

قال ابن هشام وكان كسرى سابور ذوالأكتاف قتل الساطرون ملك الحضر وقال ابن هشام إن الذى قتل صاحب الحضر سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بنى ساسان وأذل ملوك الطوائف ورد الملك إلى الأكاسرة فأما سابور ذو الأكتاف فهو من بعد ذلك بزمن طويل والله أعلم. ذكره السهيلى قال ابن هشام فحصره سنتين وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور فى غيبته وهو فى العراق وأشرفت بنت الساطرون وكان اسمها النضيرة فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ فدست اليه أن تتزوجنى إن فتحت لك باب الحصن فقال نعم : فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لايبيت إلا سكران فأخذت مفاتيح باب الحصن من تحت رأسه فبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب ويقال دلتهم على طلسم كان فى الحصن لايفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء فتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء ثم ترسل فإذا وقعت على سور الحصن سقط ذلك ففتح الباب ففعل ذلك فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحصن وخربه وسار بها معه وتزوجها فبينا هى نائمة على فراشها ليلا إذ جعلت تتململ لاتنام فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد فيه ورقة آس فقال لها سابور هذا الذى أسهرك فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت كان يفرش لى الديباج ويلبسنى الحرير، ويطعمنى المخ ويسقينى الخمر قال الطبرى كان يطعمنى المخ والزبد ، وشهد أبكار النحل ، وصفو الخمر وذكر أنه كان يرى مخ ساقها قال فكان جزاء أبيك ماصنعت به ؟ ! أنت إلى بذلك أسرع ثم أمر بها فربطت قرون رأسها بذنب فرس فركض الفرس حتى قتلها وفيه يقول عدى بن زيد العبادى أبياته المشهورة السائرة

أيها الشامت المعير بالدهـ * ـر أأنت المبرأ الموفور

أم لديك العهد الوثيق من الأيـ * ـام بل أنت جاهل مغرور

من رأيت المنون خلد أم من * ذا عليه من أن يضام خفير

أين كسرى كسرى الملوك أنوشر * وان أم أين قبله سابور

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ * ـروم لم يبق منهم مذكور

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ * ـلة تجبى اليـه والخابور

شاده مرمراً وجلله كلـ * ـساً فللطير فى ذراه وكور

لم يهبه ريب المنون فباد الـ * ـملك عنـه فبابه مهجور

وتذكر رب الخورنق إذ شر * رف يوما وللهدى تفكير

سره ماله وكثرة ماء * ملك والبحر معرضاً والسدير

فارعوى قلبه وقال فما غبـ * ـطة حى إلى الممات يصير

ثم أضحوا كأنهم ورق جف * فألوت به الصبا والدبور

ثم بعد الفلاح والملك والأمـ * ـة وارتهم هناك القبور

وقوله (وإن تصبهم حسنة)أى خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك هذا معنى قول ابن عباس وأبى العالية والسدى (يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة) أى قحط وجدب ونقص فى الثمار والزروع أوموت أولاد أونتاج أو غير ذلك كما يقوله أبو العالية والسدى (يقولوا هذه من عندك) أى من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك كما قال تعالى عن قوم فرعون(فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) وكما قال تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الآية وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا فى الإسلام ظاهرا وهم كارهون له فى نفس الأمر ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبى صلى الله عليه وسلم وقال السدى وإن تصبهم حسنة قال والحسنة الخصب تنتج مواشيهم وخيولهم ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان قالوا (هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة) والسيئة الجدب والضرر فى أموالهم تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا (هذه من عندك) يقولون بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء فأنزل الله عز وجل (قل كل من عند الله) فقوله: قل كل من عند الله أى الجميع بقضاء الله وقدره وهو نافذ فى البر والفاجر والمؤمن والكافر قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: قل كل من عند الله أى الحسنة والسيئة وكذا قال الحسن البصرى ثم قال تعالى منكرا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب ، وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم (فما لهؤلاء القوم

لا يكادون يفقهون حديثاً) ذكر حديث غريب يتعلق بقوله تعالى (قل كل من عند الله) قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا السكن بن سعيد حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا إسماعيل بن حماد عن مقاتل بن حيان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر وعمر في قبيلتين من الناس وقد ارتفعت أصواتهما فجلس أبو بكر قريبا من النبي صلى الله عليه وسلم وجلس عمر قريبا من أبي بكر فقال رسول الله ﷺ « لم ارتفعت أصواتكما » فقال رجل يارسول الله قال أبو بكر الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا ، فقال رسول الله ﷺ « فما قلت ياعمر » فقال : قلت الحسنات والسيئات من الله فقال رسول الله ﷺ « إن أول من تكلم فيه جبريل وميكائيل فقال ميكائيل مقالتك يا أبا بكر . وقال جبريل مقالتك ياعمر » فقال « فيختلف أهل السماء وإن يختلف أهل السماء يختلف أهل الأرض فتحا كما إلى إسرافيل فقضى بينهم ان الحسنات والسيئات من الله» . ثم أقبل على أبي بكر وعمر فقال « احفظا قضائي بينكما ، لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق إبليس » قال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية هذا حديث موضوع مختلق باتفاق أهل المعرفة . ثم قال تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ والمراد جنس الانسان ليحصل الجواب (ما أصابك من حسنة فمن الله) أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) أي فمن قبلك ، ومن عملك أنت كما قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) قال السدي والحسن البصري وابن جريج وابن زيد (فمن نفسك) أي بذنبك وقال قتادة في الآية (فمن نفسك) عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك . قال وذكر لنا أن النبي ﷺ قال « لا يصيب رجلا خدش عود ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله أكثر » وهذا الذي أرسله قتادة قد روي متصلا في الصحيح « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ، ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه » وقال أبو صالح (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) أي بذنبك وأنا الذي قدرتها عليك رواه ابن جرير ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عمار حدثنا سهل بن بكار حدثنا الأسود بن شيبان حدثني عقبة بن واصل ابن أخي مطرف عن مطرف بن عبدالله قال : ماتريدون من القدر أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) أي من نفسك والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمروا وإليه يصيرون ؟ وهذا كلام متين قوي في الرد على القدرية والجبرية أيضا . ولبسطه موضع آخر . وقوله تعالى (وأرسلناك للناس رسولا) أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه (وكفى بالله شهيدا) أي على أنه أرسلك وهو شهيد أيضا بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه وبما يردون عليك من الحق كفراً وعناداً

﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا * وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ؛ ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني » وهذا الحديث ثابت في الصحيحين عن الأعمش به . وقوله (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) أي ما عليك منه إن عليك إلا البلاغ فمن اتبعك سعد ونجا وكان لك من الأجر نظير ما حصل له ، ومن تولى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء كما جاء في الحديث « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا

نفسه » وقوله (ويقولون طاعة) يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة (فإذا برزوا من عندك) أى خرجوا وتواروا عنك (بيت طائفة منهم غير الذى تقول) أى استسروا ليلا فيما بينهم بغير ما أظهروه لك فقال تعالى (والله يكتب ما يبيتون) أى يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد ، والمعنى فى هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم وما يتفقون عليه ليلا من مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وعصيانه وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزيهم على ذلك كما قال تعالى (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) الآية ، وقوله (فأعرض عنهم) أى اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ، ولا تكشف أمورهم للناس ، ولا تخف منهم أيضا (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أى كفى به وليا وناصرا ومعينا لمن توكل عليه وأناب إليه

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى آمرا لهم بتدبر القرآن وناهيا لهم عن الاعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ، ومخبرا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولا تعارض لأنه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق ، ولهذا قال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ثم قال (ولو كان من عند غير الله) أى لو كان مفتعلا مختلقا ، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين فى بواطنهم لوجدوا فيه اختلافا ، أى اطضرابا وتضادا كثيرا ، أى وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله كما قال تعالى مخبرا عن الراسخين فى العلم حيث قالوا (آمنا به كل من عند ربنا) أى محكمه ومتشابهه حق ، فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا ، والذين فى قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا ، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين ، قال الإمام أحمد : حدثنا أنس بن عياض حدثنا أبو معاوية حدثنا أبو حازم حدثنا عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لقد جلست أنا وأخى مجلسا ما أحب أن لى به حمر النعم أقبلت أنا وأخى وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حجزة إذ ذكروا آية من القرءان فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضبا حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : « مهلا يا قوم بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، إنما نزل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه » وهكذا رواه أيضا عن أبى معاوية عن داود بن أبى هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر فكأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب فقال لهم « مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض بهذا هلك من كان قبلكم » قال فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أشهده ما غبطت نفسى بذلك المجلس انى لم أشهده ورواه ابن ماجه من حديث داود بن أبى هند به نحوه . وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا حماد بن زيد عن أبى عمران الجونى قال : كتب إلى عبد الله بن رباح يحدث عن عبد الله ابن عمرو قال : هجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان فى آية فارتفعت أصواتهما فقال « إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم فى الكتاب » ورواه مسلم والنسائى من حديث حماد بن زيد به ، وقوله (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة . وقد قال مسلم فى مقدمة صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا على بن حفص حدثنا شعبة عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع » وكذا رواه أبو داود فى كتاب الأدب من سننه عن محمد بن الحسين بن

اشكاب عن على بن حفص عن شعبة مسندا ، ورواه مسلم أيضا من حديث معاذ بن هشام العنبرى وعبد الرحمن بن مهدى وأخرجه أبو داود أيضا من حديث حفص بن عمرو النمرى ثلاثتهم عن شعبة عن حبيب عن حفص بن عاصم به مرسلا وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال أى الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ، ولا تدبر ، ولا تبين وفى سنن أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بئس مطية الرجل زعموا » وفى الصحيح « من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » ولنذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فاستفهمه أطلقت نساءك ؟ فقال « لا » فقلت الله أكبر وذكر الحديث بطوله . وعند مسلم فقلت : أطلقتهن فقال « لا » فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت هذه الآية (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر ومعنى يستنبطونه أى يستخرجونه من معادنه يقال استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعورها وقوله (لا تبعتم الشيطان إلا قليلا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى المؤمنين وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (لا تبعتم الشيطان إلا قليلا) يعنى كلكم واستشهد من نصر هذا القول بقول الطرماح بن حكيم فى مدح يزيد بن المهلب

أشم ندىّ كثير النوادى * قليل المثالب والقادحة

يعنى لا مثالب له ولا قادحة فيه

﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً * مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتاً * وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيباً * ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثاً ﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يباشر القتال بنفسه ومن نكل عنه فلا عليه منه ولهذا قال (لا تكلف إلا نفسك) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن عمرو بن نبيح حدثنا حكام حدثنا الجراح الكندى عن أبى إسحق قال سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل فيكون ممن قال الله فيه (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال : قد قال الله تعالى لنبيه فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين) ورواه الإمام أحمد عن سليمان بن داود عن أبى بكر بن عياش عن أبى إسحق قال: قلت للبراء الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة قال لا إن الله بعث رسوله ﷺ وقال (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) إنما ذلك فى النفقة وكذا رواه ابن مردويه من طريق أبى بكر بن عياش وعلى بن صالح عن أبى إسحق عن البراء به ثم قال ابن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن النضر العسكرى حدثنا مسلم بن عبد الرحمن الحرثى حدثنا محمد بن حمير حدثنا سفيان الثورى عن أبى إسحق عن البراء قال : لما نزلت على النبى ﷺ (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين) الآية قال لأصحابه « قد أمرنى ربى بالقتال فقاتلوا » حديث غريب وقوله (وحرض المؤمنين) أى على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عليه كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوى الصفوف « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » وقد وردت أحاديث كثيرة فى الترغيب فى ذلك ، فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، كان حقا على الله أن يدخله

الجنة هاجر فى سبيل الله أوجلس فى أرضه التى ولد فيها » قالوا يارسول الله أفلا نبشر الناس بذلك ؟ فقال « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ؛ فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ؛ وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » وروى من حديث عبادة ومعاذ وأبى الدرداء نحو ذلك . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال يا أبا سعيد من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ رسولا ونبيا وجبت له الجنة » قال فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها علىّ يارسول الله ففعل ثم قال : رسول الله ﷺ « وأخرى يرفع الله العبد بها مائة درجة فى الجنة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض » قال وماهى يارسول الله ؟ قال « الجهاد فى سبيل الله » رواه مسلم . وقوله (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) أى بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء . ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله . ومقاومتهم ومصابرتهم . وقوله تعالى (والله أشد بأساً وأشد تنكيلا) أى هو قادر عليهم فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) الآية . وقوله (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) أى من يسعى فى أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك (ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) أى يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيته كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « اشفعوا تؤجروا ؛ ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء » وقال مجاهد بن جبر : نزلت هذه الآية فى شفاعات الناس بعضهم لبعض وقال الحسن البصرى قال الله تعالى (من يشفع) ولم يقل من يشفع ، وقوله (وكان الله على كل شىء مقيتا) قال ابن عباس وعطاء وعطية وقتادة ومطر الوراق (مقيتاً) أى حفيظا . وقال مجاهد شهيدا . وفى رواية عنه حسيبا . وقال سعيد بن جبير والسدى وابن زيد قديرا ، وقال عبد الله بن كثير : المقيت المواظب . وقال الضحاك : المقيت الرزاق وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبدالرحيم بن مطرف حدثنا عيسى بن يونس عن إسماعيل عن رجل عن عبد الله بن رواحة وسأله رجل عن قول الله تعالى (وكان الله على كل شىء مقيتا) قال مقيت لكل إنسان بقدر عمله . وقوله (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها) أى إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم ، أو ردوا عليه بمثل ماسلم فالزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة . قال ابن جرير حدثنا موسى بن سهل الرملى حدثنا عبد الله بن السرى الأنطاكى حدثنا هشام بن لاحق عن عاصم الأحول عن أبى عثمان النهدى عن سلمان الفارسى قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليك يارسول الله فقال « وعليك السلام ورحمة الله » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله ؛ فقال له رسول الله ﷺ « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له « وعليك » فقال له الرجل : يانبى الله بأبى أنت وأمى أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على . فقال «إنك لم تدع لنا شيئاً قال الله تعالى(وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فرددناها عليك » وهكذا رواه ابن أبى حاتم معلقا فقال : ذكر عن أحمد بن الحسن والترمذى حدثنا عبدالله بن السرى أبو محمد الأنطاكى قال أبو الحسن وكان رجلا صالحا حدثنا هشام بن لاحق فذكر بإسناده مثله ، ورواه أبو بكر بن مردويه حدثنا عبدالباقى بن قانع حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبى حدثنا هشام بن لاحق أبو عثمان فذكره مثله ولم أره فى المسند والله أعلم . وفى هذا الحديث دلالة على أنه لازيادة فى السلام على هذه الصفة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن كثير أخو سليمان بن كثير حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن أبى رجاء العطاردى عن عمران بن حصين أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليكم يارسول الله فرد عليه ثم جلس فقال « عشر » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله يارسول الله فرد عليه ثم جلس فقال «عشرون» ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه . ثم جلس فقال «ثلاثون» وكذا رواه أبو داود عن محمد بن كثير ، وأخرجه الترمذى والنسائى والبزار من حديثه . ثم قال الترمذى حسن غريب من هذا الوجه . وفى الباب عن أبى سعيد وعلى وسهل بن حنيف . وقال البزار : قد روى هذا عن النبى ﷺ من وجوه هذا أحسنها إسنادا

وقال ابن أبى حاتم حدثنا ابن حرب الموصلى حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرواسى عن الحسن بن صالح عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيا ذلك بأن الله يقول فحيوا بأحسن منها أوردوها وقال قتادة فحيوا بأحسن منها يعنى للمسلمين أوردوها يعنى لأهل الذمة وهذا التنزيل فيه نظر كما تقدم فى الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حياه به فإن بلغ المسلم غاية ما شرع فى السلام رد عليه مثل ما قال فأما أهل الذمة فلا يبدءون بالسلام ولا يزادون بل يرد عليهم بما ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليكم فقل وعليك فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لاتبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتموهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه» وقال سفيان الثورى عن رجل عن الحسن البصرى قال السلام تطوع والرد فريضة وهذا الذى قاله هو قول العلماء قاطبة أن الرد واجب على من سلم عليه فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله فى قوله فحيوا بأحسن منها أو ردوها وقد جاء فى الحديث الذى رواه[1] [أبو داود بسنده إلى أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم »] وقوله الله لا إله إلا هو إخبار بتوحيده وتفرده بالالهية لجميع المخلوقات وتضمن قسما لقوله (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) وهذه اللام موطئة للقسم فقوله الله لا إله إلا هو خبر وقسم انه سيجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيجازى كل عامل بعمله وقوله تعالى (ومن أصدق من الله حديثا) أى لا أحد أصدق منه فى حديثه وخبره ووعده ووعيده فلا إله إلا هو ولارب سواه

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾

يقول تعالى منكرا على المؤمنين فى اختلافهم فى المنافقين على قولين: واختلف فى سبب ذلك فقال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا شعبة قال عدى بن ثابت أخبرنى عبد الله بن يزيد عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا ، هم المؤمنون فأنزل الله (فما لكم فى المنافقين فئتين) فقال رسول الله ﷺ « إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد» أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة وقد ذكر محمد بن إسحق بن يسار فى وقعة أحد أن عبد الله بن أبى ابن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش رجع بثلثمائة وبقى النبى ﷺ فى سبعمائة وقال العوفى عن ابن عباس نزلت فى قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فانهم يظاهرون

(١) هنا بياض بالأصل ، وما بين القوسين ثابت فى بعض النسخ فليراجع لفظ الحديث فى الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى .

عليكم عدوكم وقالت فئة أخرى من المؤمنين سبحان الله أو كما قالوا أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء فنزلت (فما لكم فى المنافقين فئتين) رواه ابن أبى حاتم وقد روى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا وقال زيد بن أسلم عن ابن لسعد بن معاذ أنها نزلت فى تقاول الأوس والخزرج فى شأن عبد الله بن أبى حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر فى قضية الافك وهذا غريب وقيل غير ذلك وقوله تعالى (والله أركسهم بما كسبوا) أى ردهم وأوقعهم فى الخطأ قال ابن عباس (أركسهم) أى أوقعهم وقال قتادة أهلكهم وقال السدى أضلهم وقوله (بما كسبوا) أى بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) أى لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه وقوله (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) أى هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم ولهذا قال (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فان تولوا) أى تركوا الهجرة قاله العوفى عن ابن عباس وقال السدى أظهروا كفرهم (فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) أى لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك ثم استثنى الله من هؤلاء فقال (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم وهذا قول السدى وابن زيد وابن جرير وقد روى ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجى حدثهم قال لما ظهر النبى ﷺ على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم قال سراقة بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى بنى مدلج فأتيته فقلت أنشدك النعمة فقالوا صه فقال النبى ﷺ «دعوه ، ماتريد» قال بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومى وأنا أريد أن توادعهم فان أسلم قومك أسلموا ودخلوا فى الإسلام وإن لم يسلموا لم تخشن قلوب قومك عليهم فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال « اذهب معه فافعل ما يريد» فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فأنزل الله (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء) ورواه ابن مردويه من طريق حماد بن سلمة وقال فأنزل الله (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم وهذا أنسب لسياق الكلام وفى صحيح البخارى فى قصة صلح الحديبية فكان من أحب أن يدخل فى صلح قريش وعهدهم ومن أحب أن يدخل فى صلح محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعهدهم . وقد روى عن ابن عباس أنه قال نسخها قوله (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) الآية وقوله (أوجاءوكم حصرت صدورهم) الآية هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرة صدورهم أى ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم ، ولا يهون عليهم أيضا أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) أى من لطفه بكم أن كفهم عنكم (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم) أى المسالمة (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى فليس لكم أن تقاتلوهم مادامت حالهم كذلك وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بنى هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ولهذا نهى النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره وقوله (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) الآية هؤلاء فى الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك فان هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبى ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ويصانعون الكفار فى الباطن فيعبدون معهم مايعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم فى الباطن مع أولئك كما قال تعالى (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) الآية وقال ههنا (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) أى انهمكوا فيها وقال السدى الفتنة ههنا الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت فى قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ولهذا قال تعالى (فان

لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم) المهادنة والصلح (ويكفوا أيديهم) أى عن القتال (فخذوهم) أسراء (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى أين لقيتموهم (وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبيناً) أى بينا واضحا

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

يقول تعالى ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى والتارك لدينه المفارق للجماعة » ثم إذا وقع شىء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله وإنما ذلك إلى الإمام أونائبه وقوله (إلا خطأ) قالوا هو استثناء منقطع كقول الشاعر :

من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ * على الأرض إلا ريط بردمرحل

ولهذا شواهد كثير واختلف فى سبب نزول هذه فقال مجاهد وغير واحد نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه وهى أسماء بنت مخرمة وذلك أنه قتل رجلا يعذبه مع أخيه على الإسلام وهو الحارث بن يزيد الغامدى فأضمر له عياش السوء فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله فأنزل الله هذه الآية قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى أبى الدرداء لأنه قتل رجلا وقد قال كلمة الإيمان حين رفع عليه السيف فأهوى به إليه فقال كلمته فلما ذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم قال إنما قالها متعوذا فقال له هل شققت عن قلبه وهذه القصة فى الصحيح لغير أبى الدرداء وقوله (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله) هذان واجبان فى قتل الخطأ أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأ ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزىء الكافرة ، وحكى ابن جرير عن ابن عباس والشعبى وإبراهيم النخعى والحسن البصرى أنهم قالوا لا يجزىء الصغير حتى يكون قاصداً للايمان وروى من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال فى مصحف أبى فتحرير رقبة مؤمنة لا يجزىء فيها صبى واختار ابن جرير أنه إن كان مولودا بين أبوين مسلمين أجزأ وإلا فلا والذى عليه الجمهور أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة سواء كان صغيراً أو كبيراً قال الإمام أحمد أنبأنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبد الله بن عبد الله عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء فقال يارسول الله إن على عتق رقبة مؤمنة فان كنت ترى هذه مؤمنة أعتقها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتشهدين أن لا إله إلا الله» قالت نعم . قال: «أتشهدين أنى رسول الله» ؟ قالت نعم قال «أتؤمنين بالبعث بعد الموت» قالت نعم قال «أعتقها» وهذا إسناد صحيح وجهالة الصحابى لا تضره . وفى موطأ مالك ومسند الشافعى وأحمد وصحيح مسلم وسنن أبى داود والنسائى من طريق هلال بن أبى ميمونة عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « أين الله» قالت فى السماء قال «من أنا» قالت رسول الله ﷺ قال «أعتقها فانها مؤمنة » وقوله (ودية مسلمة إلى أهله) هو الواجب الثانى فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضا لهم عما فاتهم من قتيلهم وهذه الدية إنما تجب أخماسا كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث الحجاج بن أرطاة عن زيد بن جبير عن خشف

ابن مالك عن ابن مسعود قال قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكورا وعشرين بنت لبون وعشرين جذعة وعشرين حقة . لفظ النسائي قال الترمذي لانعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه وقد روي عن عبد الله موقوفا كما روي عن علي وطائفة وقيل تجب أرباعا وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله قال الشافعي رحمه الله لم أعلم مخالفا أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة وهو أكثر من حديث الخاصة . وهذا الذي أشار اليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال اقتتلت امرأتان من هذيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو أمة وقضى بدية المرأة على عاقلتها وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثا لشبهة العمد وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع يديه وقال « اللهم إني أبرأ اليك مما صنع خالد » وبعث عليا فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال وقوله (إلا أن يصدقوا) أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب وقوله (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أي إذا كان القتيل مؤمنا ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير وقوله (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) الآية أي فان كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم فإن كان مؤمنا فدية كاملة وكذا إن كان كافرا أيضا عند طائفة من العلماء وقيل يجب في الكافر نصف دية المسلم وقيل ثلثها كما هو مفصل في كتاب الأحكام . ويجب أيضا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين وقوله (توبة من الله وكان الله عليما حكيما) أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام هل يجب عليه إطعام ستين مسكينا كما في كفارة الظهار على قولين أحدهما نعم كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار وإنما لم يذكر ههنا لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير فلا يناسب أن يذكر فيه الاطعام لما فيه من التسهيل والترخيص . والقول الثاني لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجبا لما أخر بيانه عن وقت الحاجة (وكان الله عليما حكيما) قد تقدم تفسيره غير مرة . ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) الآية وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) الآية وقال تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا) الآية ، والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدا فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود من رواية عمرو بن الوليد ابن عبدة المصري عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « لا يزال المؤمن معنقا صالحا مالم يصب دما حراما فإذا أصاب دما حراما بلح[1] » وفي حديث آخر « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » وفي الحديث الآخر « لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله في النار » وفي الحديث الآخر « من أعان على قتل المسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله » وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا . وقال البخاري حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا المغيرة بن النعمان قال سمعت ابن جبير قال اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) هي آخر ما نزل وما نسخها شيء وكذا رواه هو أيضا ومسلم والنسائي من طرق عن شعبة به ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن ابن مهدي عن سفيان الثوري عن مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه

(١) معنقا : أي مسرعا في سيره ، و « بلح » بالتخفيف والتشديد أي انقطع من الاعياء والوهن

جهنم) فقال مانسخها شيء . وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا ابن عون حدثنا شعبة عن سعيد بن جبير قال : قال عبد الرحمن بن أبزى سئل ابن عباس عن قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) الآية قال لم ينسخها شيء وقال في هذه الآية (والذين لايدعون مع الله إلها آخر) إلى آخرها قال نزلت في أهل الشرك . وقال ابن جرير أيضا حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن منصور حدثني سعيد بن جبير أوحدثني الحكم عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) قال : إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام ثم قتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ولا توبة له فذكرت ذلك لمجاهد فقال إلا من ندم . حدثنا ابن حميد وابن وكيع قالا حدثنا جرير عن يحيي الجابري عن سالم ابن أبي الجعد قال كنا عند ابن عباس بعدما كف بصره فأتاه رجل فناداه ياعبدالله بن عباس ماترى في رجل قتل مؤمنا متعمدا؟ فقال جزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذابا عظيما . قال أفرأيت إن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى ؟ قال ابن عباس : ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى ؟ والذى نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول « ثكلته أمه قاتل مؤمن متعمدا جاء يوم القيامة أخذه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه من قبل عرش الرحمن يلزم قاتله بشماله وبيده الأخرى رأسه يقول يارب سل هذا فيم قتلني » وايم الذى نفس عبد الله بيده لقد أنزلت هذه الآية فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت يحيي بن المجبر يحدث عن سالم ابن أبي الجعد عن ابن عباس أن رجلا أتى اليه فقال أرأيت رجلا قتل رجلا عمدا ؟ فقال جزاؤه جهنم خالدا فيها الآية قال لقد نزلت من آخر مانزل مانسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى قال وأنى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ثكلته أمه رجل قتل رجلا متعمدا يجيء يوم القيامة آخذا قاتله بيمينه أو بيساره أو آخذا رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دما من قبل العرش يقول يارب سل عبدك فيم قتلني » وقد رواه النسائي عن قتيبة وابن ماجه عن محمد بن الصباح عن سفيان بن عيينة عن عمار الذهبي ويحيي الجابري وثابت الثمالي عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس فذكره وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة وممن ذهب إلى أنه لاتوبة له من السلف زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبدالله بن عمر وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم وفي الباب أحاديث كثيرة فمن ذلك مارواه أبو بكر بن مردويه الحافظ في تفسيره حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي (ح) وحدثنا عبدالله بن جعفر وحدثنا إبراهيم بن فهد قالا حدثنا عبيد بن عبيدة حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه عن الأعمش عن أبي عمرو بن شرحبيل بإسناده عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال « يجيء المقتول متعلقا بقاتله يوم القيامة آخذا رأسه بيده الأخرى فيقول يارب سل هذا فيم قتلني ؟ قال فيقول قتلته لتكون العزة لك فيقول فإنها لي قال ويجيء آخر متعلقا بقاتله فيقول رب سل هذا فيم قتلني ؟ قال فيقول قتلته لتكون العزة لفلان قال فانها ليست له بؤ بإثمه قال فيهوى في النار سبعين خريفاً » وقد رواه النسائي عن إبراهيم بن المستمر العوفي عن عمرو بن عاصم عن معتمر بن سليمان به

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ثور بن يزيد عن أبي عون عن أبي إدريس قال سمعت معاوية رضي الله عنه يقول : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا » وكذا رواه النسائي عن محمد بن المثنى عن صفوان بن عيسى به وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا سمويه حدثنا عبد الأعلى بن مسهر حدثنا صدقة بن خالد حدثنا خالد بن دهقان حدثنا ابن زكريا قال : سمعت أم الدرداء تقول سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركا ، أو من قتل مؤمنا متعمدا » وهذا غريب جدا من هذا الوجه . والمحفوظ حديث معاوية المتقدم فالله أعلم . ثم روى ابن مردويه من طريق بقية بن الوليد عن نافع بن يزيد حدثني ابن جبير الأنصاري عن داود بن الحصين عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من قتل مؤمنا متعمدا فقد كفر بالله عز وجل » وهذا حديث منكر أيضا فاسناده تكلم فيه جدا : قال الامام أحمد حدثنا النضر حدثنا سليمان بن المغيرة حدثنا حميد

قال : أتانى أبو العالية أنا وصاحب لى فقال لنا : هلما فأنتما أشب سنامنى ، وأوعى للحديث منى فانطلق بنا إلى بشر ابن عاصم فقال له أبو العالية حدث هؤلاء حديثك فقال : حدثنا عقبة بن مالك الليثى قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فأغارت على قوم فشد مع القوم رجل فاتبعه رجل من السرية شاهرا سيفه . فقال الشاد من القوم إنى مسلم فلم ينظر فيما قال، قال : فضربه فقتله فنمى الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فيه قولا شديداً ، فبلغ القاتل ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إذ قال القاتل . والله ما قال الذى قال إلا تعوذا من القتل ، قال فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وعمن قبله من الناس وأخذ فى خطبته ، ثم قال أيضا يا رسول الله ما قال الذى قال إلا تعوذا من القتل فأعرض عنه وعمن قبله من الناس وأخذ فى خطبته ثم لم يصبر حتى قال الثالثة والله يارسول الله ما قال الذى قال إلا تعوذا من القتل ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرف المساءة فى وجهه فقال « إن الله أبى على من قتل مؤمنا ثلاثا ورواه النسائى من حديث سليمان بن المغيرة والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل ، فان تاب وأناب ، وخشع وخضع وعمل عملا صالحا بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته قال الله تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر – إلى قوله إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) الآية وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر ، ويحتاج حمله إلى دليل والله أعلم . وقال تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية وهذا عام فى جميع الذنوب من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك كل من تاب أى من أى ذلك تاب الله عليه ، قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فهذه الآية عامة فى جميع الذنوب ماعدا الشرك وهى مذكورة فى هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء والله أعلم . وثبت فى الصحيحين خبر الإسرائيلى الذى قتل مائة نفس ، ثم سأل عالما هل لى من توبة فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه فهاجر إليه فمات فى الطريق فقبضته ملائكة الرحمة كما ذكرناه غير مرة ، وإذا كان هذا فى بنى إسرائيل فلأن يكون فى هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التى كانت عليهم ، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة . فأما الآية الكريمة وهى قوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمداً) الآية . فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف هذا جزاؤه إن جازاه ، وقد رواه ابن مردويه بإسناده مرفوعا من طريق محمد بن جامع العطار عن العلاء بن ميمون العنبرى عن حجاج الأسود عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة مرفوعا ولكن لا يصح ، ومعنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزى عليه، وكذا كل وعيد على ذنب لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قولى أصحاب الموازنة والاحباط وهذا أحسن ما يسلك فى باب الوعيد والله أعلم بالصواب وبتقدير دخول القاتل فى النار ،أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحا ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً ، بل الخلود هو المكث الطويل وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان » وأما حديث معاوية « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا » فعسى للترجى فإذا انتفى الترجى فى هاتين الصورتين لا تنفى وقوع ذلك فى أحدهما وهو القتل لما ذكرنا من الأدلة وأما من مات كافرا فالنص أن الله لا يغفر له البتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فانه حق من حقوق الآدميين وهى لا تسقط بالتوبة ، ولكن لا بد من ردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه ، والمغصوب منه والمقذوف وسائر حقوق الآدميين ، فان الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة ، ولكنه لا بد من ردها إليهم فى صحة التوبة فان تعذر ذلك فلابد من المطالبة يوم القيامة ، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة ، إذقد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم ، ثم لقاتل العمد أحكام فى الدنيا وأحكام فى الآخرة فأما فى

الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه ، قال الله تعالى (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) الآية ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا ، أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثا ـ ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة كما هو مقرر في كتاب الأحكام واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام على أحد القولين كما تقدم في كفارة الخطأ على قولين فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون نعم يجب عليه لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلأن تجب عليه في العمد أولى فطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس واعتذروا بقضاء الصلاة المتروكة عمداً كما أجمعوا على ذلك في الخطأ . وقال أصحابه الإمام أحمد وآخرون :قتل العمد أعظم من أن يكفر فلا كفارة فيه وكذا اليمين الغموس ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هاتين الصورتين وبين الصلاة المتروكة عمداً فانهم يقولون بوجوب قضائها إذا تركت عمداً وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا عامر بن الفضل حدثنا عبد الله بن المبارك عن إبراهيم بن أبي عبلة عن الغريف بن عياش عن واثلة بن الأسقع قال أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا إن صاحبا لنا قد أوجب قال « فليعتق رقبة يفدي الله بكل عضو منها عضوا منه من النار » وقال أحمد حدثنا إبراهيم بن إسحق حدثنا ضمرة بن ربيعة عن إبراهيم بن أبي عبلة عن الغريف الديلمي قال : أتينا واثلة بن الأسقع الليثي فقلنا حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا قد أوجب فقال « أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار » وكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث إبراهيم بن أبي عبلة به ولفظ أبي داود عن الغريف الديلمي قال أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له حدثنا حديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان فغضب فقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص ، قلنا إنما أردنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ، قال أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب يعني النار بالقتال فقال « أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار »

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن أبي بكير وخلف بن الوليد وحسين بن محمد قالوا حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنما له فسلم عليهم فقالوا لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا) إلى آخرها . ورواه الترمذي في التفسير عن عبد بن حميد عن عبد العزيز بن أبي رزمة عن إسرائيل به ثم قال هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن أسامة بن زيد ورواه الحاكم من طريق عبيدالله بن موسى عن إسرائيل به ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ورواه ابن جرير من حديث عبيد الله بن موسى وعبد الرحيم بن سليمان كلاهما عن إسرائيل به. وقال في بعض كتبه غير التفسير وقد رواه من طريق عبد الرحمن فقط وهذا خبر عندنا صحيح سنده وقد يجب أن يكون على مذهب الآخرين سقيما لعلل منها أنه لا يعرف له مخرج عن سماك إلا من هذا الوجه ، ومنها أن عكرمة في روايته عندهم نظر ، ومنها أن الذي نزلت فيه هذه الآية عندهم مختلف فيه فقال بعضهم نزلت في محلم ابن جثامة وقال بعضهم أسامة بن زيد وقيل : غير ذلك قلت وهذا كلام غريب وهو مردود من وجوه أحدها أنه ثابت عن سماك حدث به عنه غير واحد من الأئمة الكبار الثاني أن عكرمة محتج به في الصحيح الثالث أنه مروي من غير هذا الوجه عن ابن عباس كما قال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) قال : قال ابن عباس كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال السلام

عليكم فقتلوه وأخـــذوا غنيمته فأنزل الله في ذلك (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) قال ابن عباس عرض الدنيا تلك الغنيمة وقرأ ابن عباس (السلام) وقال سعيد بن منصور حدثنا منصور عن عمرو بن دينار عن عطاء بن يسار عن ابن عباس قال لحق المسلمون رجلا في غنيمة له فقال السـلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السـلام لست مؤمنا) وقد رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم من طريق سفيان ابن عيينة به وقد (١) في ترجمة : أن أخاه فزارا هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن أمر أبيه بإسلامهم وإسلام قومهم فلقيته سرية لرسول الله ﷺ في عماية الليل وكان قـد قال لهم إنه مسـلم فلم يقبلوا منـه فقتلوه فقال أبوه فقدمت على رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فأعطاني ألف دينار ودية أخرى وسـيرني فنزل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله) الآية : وأما قصة محلم بن جثامة فقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يعقوب حدثني أبي عن محمد بن إسحق حـدثنا يزيد بن عبدالله بن قسيط عن القعقاع بن عبـد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم إلى إضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له معه متيع له ووطب من لبن فلما مر بنا سـلم علينا فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومتيعه ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر نزل فينا (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله - إلى قوله تعالى - خبيرا) تفرد به أحمد . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا جرير عن أبي إسحق عن نافع عن ابن عمر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محلم بن جثامة مبعثا فلقيهم عامر بن الأضبط فحياهم بتحية الإسـلام وكانت بينهم إحنة في الجاهلية فرماه محلم بسهم فقتله فجاء الخبر إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فتكلم فيه عيينة والأقرع فقال الأقرع يارسول الله سر اليوم وغر غداً فقال عيينة لا والله حتى تذوق نساؤه من الثكل ماذاق نسائي فجاء محلم في بردين فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاغفر الله لك » فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه فما مضت له سابعة حتى مات ودفنوه فلفظته الأرض فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال « إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ولـكن الله أراد أن يعظـكم » ثم طرحوه بين صـدفي جبل وألقوا عليـه الحجارة فنزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) الآية . وقال البخاري قال حبيب بن أبي عمرة عن سعيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ للمقداد « إذا كان رجـل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته فـكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل » هكذا ذكره البخاري معلقا مختصرا وقـد روى مطولا موصولا . فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا حماد بن علي البغدادي حدثنا جعفر بن سلمة حدثنا أبو بكر بن علي بن مقدم حدثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأهوى اليه المقـداد فقتله فقال له رجل من أصحابه أقتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا يارسول الله إن رجلا شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال « ادعوا لي المقداد . يامقداد أقتلت رجلا يقول لا إله إلا الله فـكيف لك بلا إله إلا الله غدا » قال فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا) فقال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم للمقداد « كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل » . وقوله (فعند الله مغانم كثيرة) أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملـكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لـكم الإيمان فتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا فما عند الله من الرزق الحلال خير لـكم من مال هـذا وقوله (كذلك كنتم من قبل فمن

(١) بياض في الأصل ، ومن هنا إلى قوله : « وأما قصة محلم » إلخ ساقط من نسخة الأزهر .

الله عليكم) أى قدكنتم من قبل هــذه الحال كهذا الذى يسر إيمانه ويخفيه من قومه كما تقــدم فى الحديث المرفوع آنفا وكما قال تعالى (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) الآية وهذا مذهب سعيد بن جبير لما رواه الثورى عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير فى قوله (كذلك كنتم من قبــل) تخفون إيمانكم فى المشركين ورواه عبدالرزاق عن ابن جريج أخبرنى عبد الله بن كثير عن سعيد بن جبير فى قوله (كذلك كنتم من قبل) تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعى بإيمانه. وهذا اختيار ابن جرير وقال ابن أبى حاتم وذكر عن قيس عن سالم عن سعيد بن جبير قوله (كذلك كنتم من قبل) لم تكونوا مؤمنين (فمن الله عليكم) أى تاب عليكم فحلف أسامة لايقتل رجلا يقول لا إله إلا الله بعد ذلك الرجل وما لقى من رسول الله ﷺ فيه ، وقوله (فتبينوا) تأكيد لما تقدم وقوله (إن الله كان بما تعملون خبيرا) قال سعيد بن جبير هذا تهديد ووعيد

﴿ لَا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

قال البخارى حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن أبى إسحق عن البراء قال لما نزلت (لايستوى القاعدون من المؤمنين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً فكتبها فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته فأنزل الله (غير أولى الضرر) حدثنا محمد بن يوسف عن إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء قال لما نزلت (لايستوى القاعدون من المؤمنين) قال النبى ﷺ ادع فلانا فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) وخلف النبى ﷺ ابن أم مكتوم فقال يارسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله) قال البخارى أيضا حــدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثنى إبراهيم بن سـعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب حدثنى سهل بن سعد الساعدى أنه رأى مروان بن الحكم فى المسجد قال فأقبلت حتى جلست إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أملى على (لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها على قال يارسول الله والله لوأستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله على رسوله ﷺ وكان فخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذى ثم سرى عنه فأنزل الله (غير أولى الضرر) تفرد به البخارى دون مسلم وقد روى من وجه آخر عند الإمام أحمد عن زيد فقال حدثنا سليمان بن داود أنبأنا عبد الرحمن عن أبى الزناد عن خارجة بن زيد قال : قال زيد بن ثابت إنى قاعد إلى جنب النبى ﷺ إذ أوحى إليه وغشيته السكينة قال فرفع فخذه على فخذى حين غشيته السكينة قال زيد فلا والله ماوجدت شيئا قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سرى عنه فقال اكتب يازيد فأخذت كتفا فقال اكتب (لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) إلى قوله (أجراً عظيما) فكتبت ذلك فى كتف فقام حين سمعها ابن أم مكتوم وكان رجلا أعمى فقام حين سمع فضيلة المجاهدين وقال يارسول الله وكيف بمن لايستطيع الجهاد ومن هو أعمى وأشباه ذلك قال زيد فوالله ماقضى كلامه أو ماهو إلا أن قضى كلامه ـ غشيت النبى ﷺ السكينة فوقعت فخذه على فخذى فوجدت من ثقلها كما وجدت فى المرة الأولى ثم سرى عنه فقال اقرأ فقرأت عليه (لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) فقال النبى ﷺ (غير أولى الضرر) قال زيد فألحقتها فوالله كأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع كان فى الكتف. ورواه أبو داود عن سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه به نحوه . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر أنبأنا الزهرى عن قبيصة بن ذؤيب عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب لرسول الله ﷺ فقال « اكتب (لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) » فجاء عبدالله ابن أم مكتوم فقال يارسول الله إنى أحب الجهاد فى سبيل الله ولكن بى

من الزمانة ماقد ترى،قدذهب بصرى قال زيد فثقلت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى حتى خشيت أن ترضها ثم سرى عنه ثم قال «اكتب (لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله)» رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج أخبرنى عبدالكريم هو ابن مالك الجريرى أن مقسما مولى عبدالله بن الحارث أخبره أن ابن عباس أخبره (لا يستوى القاعدون من المؤمنين) عن بدر والخارجون إلى بدر انفرد به البخارى دون مسلم وقد رواه الترمذى من طريق حجاج عن ابن جريج عن عبدالكريم عن مقسم عن ابن عباس قال (لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) عن بدر والخارجون إلى بدر . ولما نزلت غزوة بدر قال عبدالله بن جحش وابن أم مكتوم إنا أعميان يا رسول الله فهل لنا رخصة؟ فنزلت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة فهؤلاء القاعدون غير أولى الضرر (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما درجات منه) على القاعدين من المؤمنين غير أولى الضرر . هذا لفظ الترمذى ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . فقوله (لايستوى القاعدون من المؤمنين) كان مطلقا فلما نزل بوحى سريع (غير أولى الضرر) صار ذلك مخرجا لذوى الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرض عن مساواتهم للمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين قال ابن عباس : غير أولى الضرر وكذا ينبغى أن يكون كما ثبت فى صحيح البخارى من طريق زهير بن معاوية عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن بالمدينة أقواما ماسرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه قالوا وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ نعم حبسهم العذر» وهكذا رواه أحمد عن محمد بن عدى عن حميد عن أنس به وعلقه البخارى مجزوما ورواه أبو داود عن حماد بن سلمة عن حميد عن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه عن النبى ﷺ قال «لقد تركتم بالمدينة أقواما ماسرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا وكيف يكونون معنا فيه يارسول الله ؟ قال «نعم حبسهم العذر» لفظ أبى داود وفى هذا المعنى قال الشاعر

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد * سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وعن قدر * ومن أقام على عذر فقد راحا

وقوله (وكلا وعد الله الحسنى) أى الجنة والجزاء الجزيل . وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين بل هو فرض على الكفاية . قال تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما) ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات ، فى غرف الجنان العاليات ، ومغفرة الذنوب والزلات ، وأحوال الرحمة والبركات ، إحسانا منه وتكريما ولهذا قال (درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما)

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «من رمى بسهم فله أجره درجة» فقال رجل يا رسول الله وما الدرجة ؟ فقال «أما إنها ليست بعتبة أمك . ما بين الدرجتين مائة عام»

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

قال البخاري : حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا حيوة وغيره قالا : حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال : قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشد النهي قال : أخبرني ابن عباس أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله صلى الله وسلم يأتي السهم يرمى به فيصب أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل ، فأنزل الله (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) رواه الليث عن أبي الأسود . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا أبو أحمد يعني الزبيري حدثنا محمد بن شريك المكي حدثنا عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام . فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم قال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) الآية قال فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم[1] قال فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم التقية فنزلت هذه الآية (ومن الناس من يقول آمنا بالله) الآية. قال عكرمة : نزلت هذه الآية في شباب من قريش كانوا تكلموا بالإسلام بمكة منهم على بن أمية بن خلف وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو منصور بن الحجاج والحارث بن زمعة ، قال الضحاك نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب ، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع ، وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) أي بترك الهجرة (قالوا فيم كنتم) أي لم مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة (قالوا كنا مستضعفين في الأرض) أي لا نقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض (قالوا ألم تكن أرض الله واسعة) الآية : وقال أبو داود حدثنا محمد بن داود ابن سفيان حدثني يحيى بن حسان أخبرنا سليمان بن موسى أبو داود حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن يزيد حدثني حبيب بن سليمان عن أبيه سليمان بن سمرة عن سمرة بن جندب ، أما بعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » وقال السدي : لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس « افد نفسك وابن أخيك » فقال يا رسول الله ألم نصل إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك ، قال « يا عباس إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا عليه هذه الآية (ألم تكن أرض الله واسعة) الآية رواه ابن أبي حاتم ، وقوله (إلا المستضعفين) إلى آخر الآية ، هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال (لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) قال مجاهد وعكرمة والسدي يعني طريقا ، وقوله تعالى (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) أي يتجاوز من الله عنهم بترك الهجرة وعسى من الله موجبة (وكان الله غفورا رحيما) قال البخاري : حدثنا أبو نعيم حدثنا شيبان عن يحيى عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال سمع الله لمن حمده ؛ ثم قال قبل أن يسجد « اللهم أنج عياش ابن أبي ربيعة ، اللهم أنج سلمة بن هشام ، اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو معمر المقرى حدثني عبد الوارث حدثنا على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريره أن رسول الله ﷺ رفع يده بعد ما سلم وهو مستقبل القبلة فقال « اللهم خلص الوليد بن الوليد ، وعياش بن أبي ربيعة ، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا من أيدي الكفار » وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا حجاج حدثنا حماد عن على بن زيد عن عبد الله أو إبراهيم بن عبد الله القرشي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يدعو في دبر صلاة الظهر « اللهم خلص الوليد وسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبي ربيعة ، وضعفة المسلمين من أيدي المشركين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » ولهذا الحديث شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه كما تقدم وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة عن عبيد الله بن أبي يزيد قال سمعت ابن عباس يقول كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان ، وقال البخاري : أنبأنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن أيوب بن أبي مليكة عن ابن عباس (إلا المستضعفين) قال كنت أنا وأمي ممن عذر الله عز وجل ، وقوله (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة وهذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن حيثما ذهب وجد

---

(١) قوله : فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم الخ كذا في النسخ وحرر .

عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه ، والمراغم مصدر تقول العرب راغم فلان قومه مراغما ومراغمة ، قال النابغة ابن جعدة :

كطود يلاذ بأركانه * عزيز المراغم والمهرب

وقال ابن عباس : المراغم التحول من أرض إلى أرض . وكذا روى عن الضحاك والربيع بن أنس والثورى ، وقال مجاهد : مراغما كثيرا يعنى متزحزحا عما يكره ، وقال سفيان بن عيينة مراغما كثيرا يعنى بروجا والظاهر والله أعلم أنه المنع الذى يتخلص به ويراغم به الأعداء ، قوله (وسعة) يعنى الرزق قاله غير واحد منهم قتادة حيث قال فى قوله (يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة) أى من الضلالة إلى الهدى ، ومن القلة إلى الغنى ، وقوله (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) أى ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات فى أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى عن محمد بن إبراهيم التيمى عن علقمة بن أبى وقاص الليثى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وهذا عام فى الهجرة وفى جميع الأعمال . ومنه الحديث الثابت فى الصحيحين فى الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسا . ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالما هل له من توبة . فقال له ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه . فلما ارتحل من بلده مهاجرا إلى البلد الأخرى أدركه الموت فى أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقال هؤلاء إنه جاء تائبا ، وقال هؤلاء إنه لم يصل بعد ، فأمروا أن يقيسوا مابين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه . وهذه أن تبعد فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة ، وفى رواية أنه لما جاءه الموت ناء بصدره إلى الأرض التى هاجر إليها . قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن إسحق عن محمد بن إبراهيم عن محمد بن عبد الله ابن عتيك عن أبيه عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من خرج من بيته مجاهدا فى سبيل الله ، ثم قال وأين المجاهدون فى سبيل الله فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله ، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله ، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله » يعنى بحتف أنفه على فراشه ، والله إنها لكلمة ماسمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ ومن قتل قعصا فقد استوجب الجنة : وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة الحزامى حدثنى عبد الرحمن بن المغيرة الحزامى عن المنذر بن عبد الله عن هشام ابن عروة عن أبيه أن الزبير بن العوام قال : هاجر خالد بن حزام إلى أرض الحبشة فنهشته حية فى الطريق فمات فنزلت فيه (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما) قال الزبير فكنت أتوقعه وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة فما أحزننى شىء حزن وفاته حين بلغتنى لأنه قل أحد ممن هاجر من قريش إلا ومعه بعض أهله ، أو ذوى رحمه . ولم يكن معى أحد من بنى أسد بن عبد العزى ولا أرجو غيره وهذا الأثر غريب جدا ، فإن هذه القصة مكية ونزول هذه الآية مدنى ، فلعله أراد أنها تعم حكمه مع غيره وان لم يكن ذلك سبب النزول والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا سليمان بن داود مولى عبد الله بن جعفر حدثنا سهل بن عثمان حدثنا عبد الرحمن بن سليمان حدثنا أشعث هو ابن سوار عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله) الآية : وحدثنا أبى حدثنا عبد الله ابن رجاء أنبأنا إسرائيل عن سالم عن سعيد بن جبير عن ضمرة بن العيص الزرقى الذى كان مصاب البصر وكان بمكة فلما نزلت (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة) فقلت إنى لغنى ، وإنى لذو حيلة فتجهز يريد النبى ﷺ فأدركه الموت بالتنعيم فنزلت هذه الآية (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه

الموت) الآية . وقال الطبرانى حدثنا الحسن بن عروبة البصرى حدثنا حيوة بن شريح الحمصى حدثنا بقية بن الوليد حدثنا ابن ثوبان عن أبيه حدثنا مكحول عن عبد الرحمن بن غنم الأشعرى أنبأنا أبو مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله قال من انتدب خارجا فى سبيلى ، غازيا ابتغاء وجهى ، وتصديق وعدى ، وإيمانا برسلى فهو فى ضمان على الله ، إما أن يتوفاه بالجيش فيدخله الجنة ، وإما أن يرجع فى ضمان الله ، وان طالب عبدا فنغصه حتى يرده إلى أهله مع مانال من أجر ، أو غنيمة . ونال من فضل الله فمات ، أو قتل ، أو رفصته فرسه ، أو بعيره أو لدغته هامة أو مات على فراشه بأى حتف شاء الله فهو شهيد » وروى أبوداود من حديث بقية من فضل الله إلى آخره ، وزاد بعد قوله فهو شهيد وإن له الجنة ، وقال الحافظ أبويعلى حدثنا إبراهيم بن زياد حدثنا أبومعاوية حدثنا محمد بن إسحق عن حميد بن أبى حميد عن عطاء بن يزيد الليثى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من خرج حاجا فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمرا فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازيا فى سبيل الله فمات كتب له أجر الغازى إلى يوم القيامة » وهذا حديث غريب من هذا الوجه

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾

يقول تعالى (وإذا ضربتم فى الأرض) أى سافرتم فى البلاد كما قال تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله) الآية . وقوله (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) أى تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية ، واستدلوا بها على قصر الصلاة فى السفر على اختلافهم فى ذلك فمن قائل لابد أن يكون سفر طاعة من جهاد ، أوحج ، أوعمرة ، أوطلب علم ، أوزيارة ، أوغير ذلك كما هو مروى عن ابن عمر وعطاء ويحي عن مالك فى رواية عنه نحوه لظاهر قوله (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ومن قائل لا يشترط سفر القربة . بل لابد أن يكون مباحا لقوله (فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم) الآية ، كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصيا بسفره وهذا قول الشافعى وأحمد وغيرهما من الأئمة ، وقد قال أبوبكر بن أبى شيبة حدثنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم قال : جاء رجل فقال يارسول الله إنى رجل تاجر أختلف إلى البحرين فأمره أن يصلى ركعتين فهذا مرسل . ومن قائل يكفى مطلق السفر سواء كان مباحا أو محظورا حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل ترخص لوجود مطلق السفر وهذا قول أبى حنيفة والثورى وداود لعموم الآية وخالفهم الجمهور ، وأما قوله تعالى (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ، فان فى مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام ، أو فى سرية خاصة . وسائر الأحيان حرب للاسلام وأهله ، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له كقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) وكقوله تعالى (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا ابن إدريس حدثنا ابن جريج عن أبى عمار عن عبدالله بن رابية عن يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له قوله (ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) وقد أمن الناس ، فقال لى عمر رضى الله عنه : عجبت مما عجبت منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث ابن جريج عن عبدالرحمن بن عبدالله بن أبى عمار به . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح : وقال على بن المدينى هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر ولا يحفظ إلا من هذا الوجه ورجاله معروفون : وقال أبوبكر بن أبى شيبة حدثنا أبو نعيم حدثنا مالك بن مغول عن أبى حنظلة الحذاء قال سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان . فقلت أين قوله (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ونحن آمنون ،

فقال : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن محمد بن عيسى حدثنا على بن محمد بن سعيد حدثنا منجاب حدثنا شريك عن قيس بن وهب عن أبى الوداك قال : سألت ابن عمر عن ركعتين فى السفر فقال : هى رخصة نزلت من السماء فان شئتم فردوها . وقال أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا يزيد بن هرون حدثنا ابن عون عن ابن سيرين عن ابن عباس قال : صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين . وهكذا رواه النسائى عن محمد بن عبد الأعلى عن خالد الحذاء عن عبد الله بن عون به . قال أبو عمر بن عبد البر وهكذا رواه أيوب وهشام ويزيد بن إبراهيم التسترى عن محمد بن سيرين عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ مثله قلت وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا عن قتيبة عن هشيم عن منصور عن زاذان عن محمد بن سيرين عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا رب العالمين فصلى ركعتين ثم قال الترمذى صحيح ؛ وقال البخارى حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا يحيى بن أبى إسحق قال سمعت أنسا يقول خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة ، قلت : أقمتم بمكة شيئا قال : أقمنا بها عشرا . وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن يحيى بن أبى إسحق الحضرمى به وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن أبى إسحق عن حارثة بن وهب الخزاعى قال : صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس وآمنه ركعتين . ورواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن ابن أبى إسحق السبيعى عنه به ، ولفظ البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أنبأنا أبو إسحق سمعت حارثة بن وهب قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن ما كان بمنى ركعتين . وقال البخارى حدثنا مسدد حدثنا يحيى حدثنا عبيد الله أخبرنى نافع عن عبد الله بن عمر قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين وأبى بكر وعمر وعثمان صدرا من إمارته ثم أتمها وكذا رواه مسلم من حديث يحيى بن سعيد القطان به وقال البخارى حدثنا قتيبة حدثنا عبد الواحد عن الأعمش حدثنا إبراهيم سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول : صلى بنا عثمان بن عفان رضى الله عنه بمنى أربع ركعات فقيل فى ذلك لعبد الله ابن مسعود رضى الله عنه فاسترجع ، ثم قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ركعتين وصليت مع أبى بكر بمنى ركعتين وصليت مع عمر بن الخطاب بمنى ركعتين ، فليت حظى من أربع ركعات ركعتان متقبلتان ورواه البخارى أيضا من حديث الثورى عن الأعمش به وأخرجه مسلم من طرق عنه منها عن قتيبة كما تقدم . فهذه الأحاديث دالة صريحا على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف ولهذا قال من قال من العلماء إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية وهو قول مجاهد والضحاك والسدى كما سيأتى بيانه واعتضدوا أيضا بما رواه الإمام مالك عن صالح بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فى السفر والحضر فأقرت صلاة السفر ؛ وزيد فى صلاة الحضر وقد روى هذا الحديث البخارى عن عبد الله بن يوسف التنيسى ومسلم عن يحيى بن يحيى وأبو داود عن القعنبى والنسائى عن قتيبة أربعتهم عن مالك به قالوا فإذا كان أصل الصلاة فى السفر هى اثنتين فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية لأن ما هو الأصل لا يقال فيه (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) وأصرح من ذلك دلالة على هذا ما رواه الإمام أحمد : حدثنا وكيع وسفيان وعبد الرحمن عن زبيد اليامى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عمر رضى الله عنه قال : صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وهكذا رواه النسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من طرق عن زبيد اليامى به وهذا إسناد على شرط مسلم . وقد حكم مسلم فى مقدمة كتابه بسماع ابن أبى ليلى عن عمر ، وقد جاء مصرحا به فى هذا الحديث وفى غيره وهو الصواب إن شاء الله وإن كان يحيى بن معين وأبو حاتم والنسائى قد قالوا إنه لم يسمع منه وعلى هذا أيضا فقال فقد وقع فى بعض طرق أبى يعلى الموصلى من طريق الثورى عن زبيد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن الثقة عن عمر فذكره ، وعند ابن ماجه من طريق يزيد بن أبى زياد بن أبى الجعد عن زبيد عن عبد الرحمن عن كعب بن عجرة عن عمر فالله أعلم . وقد روى مسلم فى صحيحه وأبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث أبى عوانة الوضاح ابن عبد الله اليشكرى

زاد مسلم والنسائى وأيوب بن عائذ كلاهما عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم فى الحضر أربعا وفى السفر ركعتين ، وفى الخوف ركعة ، فكما يصلى فى الحضر قبلها وبعدها فكذلك يصلى فى السفر . ورواه ابن ماجه من حديث أسامة بن زيد عن طاوس نفسه فهذا ثابت عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ولا ينافى ما تقدم عن عائشة رضى الله عنها لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان ولكن زيد فى صلاة الحضر ، فلما استقر ذلك صح أن يقال إن فرض صلاة الحضر أربع كما قاله ابن عباس والله أعلم لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان وأنها تامة غير مقصورة كما هو مصرح به فى حديث عمر رضى الله عنه ، وإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) قصر الكيفية كما فى صلاة الخوف ، ولهذا قال (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) الآية ، ولهذا قال بعدها (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) الآية ، فبين المقصود من القصر ههنا وذكر صفته وكيفيته ولهذا لما عقد البخارى كتاب صلاة الخوف صدره بقوله تعالى (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) إلى قوله (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا) وهكذا قال جويبر عن الضحاك فى قوله (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) قال : ذاك عند القتال يصلى الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه ، وقال أسباط عن السدى فى قوله (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم) الآية ، ان الصلاة إذا صليت ركعتين فى السفر فهى تمام التقصير لا يحل إلا أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة فالتقصير ركعة ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) يوم كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا فصلى النبى صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم ، وسجودهم ، وقيامهم معا جميعا ، فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم . روى ذلك ابن أبى حاتم ورواه ابن جرير عن مجاهد والسدى وعن جابر وابن عمر واختار ذلك أيضا فانه قال بعد ما حكاه من الأقوال فى ذلك وهو الصواب . وقال ابن جرير حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا بن أبى فديك حدثنا ابن أبى ذئب عن ابن شهاب عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر : إنا نجد فى كتاب الله قصر صلاة الخوف ولا نجد قصر صلاة المسافر ، فقال عبد الله : إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملا عملنا به فقد سمى صلاة الخوف مقصورة وحمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر ، وأقره ابن عمر على ذلك واحتج على قصر الصلاة فى السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن ، وأصرح من هذا ما رواه ابن جرير أيضا . حدثنا أحمد بن الوليد القرشى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك الحنفى قال سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان تمام غير قصر إنما القصر فى صلاة المخافة فقلت وما صلاة المخافة ؟ فقال يصلى الإمام بطائفة ركعة ثم يجىء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ويجىء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلى بهم ركعة فيكون للامام ركعتان ولكل طائفة ركعة ركعة .

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

صلاة الخوف أنواع كثيرة فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة وتارة يكون فى غير صوبها ، والصلاة تارة تكون رباعية وتارة تكون ثلاثية كالمغرب ، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر ، ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة ، بل يصلون فرادى مستقبلى القبلة وغير مستقبليها ورجالا وركبانا : ولهم أن يمشوا والحالة هذه

ويضربوا الضرب المتتابع فى متن الصلاة . ومن العلماء من قال : يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم وبه قال أحمد بن حنبل ، قال المنذرى فى الحواشى ، وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحكم وقتادة وحماد واليه ذهب طاوس والضحاك ، وقد حكى أبو عاصم العبادى عن محمد بن نصر المروزى أنه يرى رد الصبح إلى ركعة فى الخوف واليه ذهب ابن حزم أيضاً ، وقال إسحق بن راهويه : أما عند المسايفة فيجزيك ركعة واحدة تومئ بها إيماء . فان لم تقدر فسجدة واحدة لأنها ذكر الله ، وقال آخرون يكفى تكبيرة واحدة . فلعله أراد ركعة واحدة كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه ، وبه قال جابر بن عبد الله وعبدالله بن عمر وكعب وغير واحد من الصحابة والسدى ورواه ابن جرير ولكن الذين حكوه إنما حكوه على ظاهره فى الاجتزاء بتكبيرة واحدة كما هو مذهب إسحق بن راهويه واليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت المكى حتى قال : فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها فى نفسه يعنى بالنية . رواه سعيد بن منصور فى سننه عن إسماعيل بن عياش عن شعيب بن دينار عنه فالله أعلم . ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة كما أخر النبى ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر فصلاهما بعد الغروب ، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء ، وكما قال بعدها يوم بنى قريظة حين جهز اليهم الجيش لايصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة فأدركتهم الصلاة فى أثناء الطريق ، فقال منهم قائلون . لم يرد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تعجيل المسير ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها فى الطريق ، وأخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها فى بنى قريظة بعد الغروب ولم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا من الفريقين ، وقد تكلمنا على هذا فى كتاب السيرة وبينا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق فى نفس الأمر وإن كان الآخرون معذورين أيضاً ، والحجة ههنا فى عذرهم فى تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة اليهود . وأما الجمهور فقالوا هذا كله منسوخ بصلاة الخوف فانها لم تكن نزلت بعد ، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك ، وهذا أبين فى حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه الشافعى رحمه الله وأهل السنن ، ولكن يشكل عليه ماحكاه البخارى فى صحيحه حيث قال ﴿ باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو ﴾ قال الأوزاعى إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء كل امرئ لنفسه ، فان لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين ، فان لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين ، فان لم يقدروا فلا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا ، وبه قال مكحول وقال أنس بن مالك : حضرت عند مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبى موسى ففتح لنا ، قال أنس : وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا ومافيها انتهى ماذكره ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب ، ثم بحديث أمره إياهم أن لايصلوا العصر إلا فى بنى قريظة وكأنه كالمختار لذلك والله أعلم . ولمن جنح إلى ذلك أن يحتج بصنيع أبى موسى وأصحابه يوم فتح تستر فانه يشتهر غالبا ؟ ولكن كان ذلك فى إمارة عمر بن الخطاب ولم ينقل أنه أنكر عليهم ولا أحد من الصحابة والله أعلم ، قال هؤلاء وقد كانت صلاة الخوف مشروعة فى الخندق لأن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق فى قول جمهور علماء السير والمغازى ، وممن نص على ذلك محمد بن إسحق وموسى بن عقبة والواقدى ومحمد بن سعد كاتبه وخليفة بن الخياط وغيرهم . وقال البخارى وغيره كانت ذات الرقاع بعد الخندق لحديث أبى موسى وما قدم إلا فى خيبر والله أعلم . والعجب كل العجب أن المزنى وأبا يوسف القاضى وإبراهيم بن إسماعيل بن علية ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيره عليه الصلاة والسلام الصلاة يوم الخندق وهذا غريب جداً ، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف ، وحمل تأخير الصلاة يومئذ على ماقاله مكحول والأوزاعى أقوى وأقرب والله أعلم . فقوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) أى إذا صليت بهم إماما فى صلاة الخوف وهذه حالة غير الأولى ، فان تلك قصرها إلى ركعة كما دل عليه الحديث — فرادى ورجالا وركبانا مستقبلى القبلة وغير مستقبليها ، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة فلولا أنها واجبة ماساغ ذلك وأما

من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله (وإذا كنت فيهم) فبعده تفوت هذه الصفة فانه استدلال ضعيف ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) قالوا فنحن لا ندفع زكاتنا بعده ﷺ إلى أحد ، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه ، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته أي دعاؤه سكن لنا ، ومع هذا رد عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال وأجبروهم على أداء الزكاة وقاتلوا من منعها منهم ؛ ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولا قبل ذكر صفتها . قال ابن جرير حدثني ابن المثنى حدثني إسحق حدثنا عبدالله بن هاشم أنبأنا سيف عن أبي روق عن أبي أيوب عن علي رضي الله عنه قال : سأل قوم من بني النجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي ؟ فأنزل الله عز وجل (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ثم انقطع الوحي ، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر ، فقال المشركون لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم . فقال قائل منهم إن لهم أخرى مثلها في أثرها قال فأنزل الله عز وجل بين الصلاتين (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) الآيتين فنزلت صلاة الخوف وهذا سياق غريب جدا ، ولكن لبعضه شاهد من رواية أبي عياش الزرقي واسمه زيد بن الصامت رضي الله عنه عند الإمام أحمد وأهل السنن فقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا الثوري عن منصور عن مجاهد عن أبي عياش الزرقي قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) قال فحضرت فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا السلاح قال : فصفنا خلفه صفين قال : ثم ركع فركعنا جميعا ، ثم رفع فرفعنا جميعا ، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعا ثم رفع فرفعوا جميعا ، ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا . ثم سلم عليهم . ثم انصرف قال : فصلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين مرة بعسفان . ومرة بأرض بني سليم . ثم رواه أحمد عن غندر عن شعبة عن منصور به نحوه ، وهكذا رواه أبوداود عن سعيد بن منصور عن جرير بن عبد الحميد والنسائي من حديث شعبة وعبد العزيز بن عبد الصمد كلهم عن منصور به ؛ وهذا إسناد صحيح وله شواهد كثيرة ، فمن ذلك ما رواه البخاري حيث قال : حدثنا حيوة بن شريح حدثنا محمد بن حرب عن الزبيدي عن الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قام النبي ﷺ وقام الناس معه ، فكبر وكبروا معه ، وركع وركع ناس منهم . ثم سجد وسجدوا معه ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه والناس كلهم في الصلاة ، ولكن يحرس بعضهم بعضاً . وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة عن سليمان بن قيس اليشكري أنه سأل جابر بن عبدالله عن اقصار الصلاة أي يوم أنزل أو أي يوم هو ، فقال جابر : انطلقنا نتلقى عيرا لقريش آتية من الشام حتى إذا كنا بنخلة جاء رجل من القوم إلى رسول الله ﷺ فقال : يامحمد هل تخافني ، قال « لا » قال فمن يمنعك مني ، قال « الله يمنعني منك » قال : فسل السيف ثم تهدده وأوعده ، ثم نادى بالترحل وأخذ السلاح ثم نودي بالصلاة فصلى رسول الله ﷺ بطائفة من القوم وطائفة أخرى تحرسهم : فصلى بالذين يلونه ركعتين ، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم فقاموا في مصاف أصحابهم ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين ، والآخرون يحرسونهم ثم سلم فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين ، فيومئذ أنزل الله في اقصار الصلاة وأمر المؤمنين بأخذ السلاح . ورواه الإمام أحمد فقال : حدثنا شريح حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سليمان بن قيس اليشكري عن جابر بن عبدالله قال قاتل رسول الله ﷺ محارب حفصة فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ قال « الله » فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ومن يمنعك مني » قال : كن خير آخذ قال « أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » ؟ قال لا ، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله ، فقال جئتكم من عند خير الناس ، فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فكان الناس طائفتين ، طائفة بازاء العدو ، وطائفة صلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بازاء العدو ثم انصرف الذين كانوا بازاء العدو فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين تفرد به من هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم حدثنا المسعودي عن يزيد الفقير قال سألت جابر بن عبد الله عن الركعتين في السفر أقصرهما فقال : الركعتان في السفر تمام إنما القصر واحدة عند القتال بينما نحن مع رسول الله ﷺ في قتال إذ أقيمت الصلاة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصف بطائفة وطائفة وجهها قبل العدو فصلى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين ، ثم الذين خلفوا انطلقوا إلى أولئك فقاموا مقامهم ومكانهم نحو ذا وجاء أولئك فقاموا خلف رسول الله ﷺ فصلى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس وسلم ، وسلم الذين خلفه ، وسلم أولئك فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ، وللقوم ركعة ركعة ، ثم قرأ (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) الآية وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الحكم عن يزيد الفقير عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم صلاة الخوف فقام صف بين يديه وصف خلفه فصلى بالذين خلفه ركعة وسجدتين ، ثم تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم ، وجاء أولئك حتى قاموا في مقام هؤلاء فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة وسجدتين ثم سلم ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم ركعتين ولهم ركعة . ورواه النسائي من حديث شعبة ولهذا الحديث طرق عن جابر وهو في صحيح مسلم من وجه آخر بلفظ آخر ، وقد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح والسنن والمسانيد وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الله بن المبارك أنبأنا معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه قال (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) قال هي صلاة الخوف . صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم باحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مقبلة على العدو ، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى ثم سلم بهم ، ثم قامت كل طائفة منهم فصلت ركعة ركعة . وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم من طريق معمر به ، ولهذا الحديث طرق كثيرة عن الجماعة من الصحابة ، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مردويه في سرد طرقه وألفاظه ، وكذا ابن جرير ولنحرره في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله وبه الثقة ، وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قول الله تعالى (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم) أي بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا)

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا * وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف وإن كان مشروعا مرغبا فيه أيضا بعد غيرها ولكن هاهنا آكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والاياب وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها كما قال تعالى في الأشهر الحرم (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) وإن كان هذا منهيا عنه في غيرها ، ولكن فيها آكد لشدة حرمتها

وعظمها ، ولهذا قال تعالى (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى فى سائر أحوالكم ، ثم قال تعالى (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة) أى فإذا أمنتم وذهب الخوف ، وحصلت الطمأنينة (فأقيموا الصلاة) أى فأتموها وأقيموها كما أمرتم بحدودها ، وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها ، وجميع شئونها ، وقوله تعالى (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) قال ابن عباس أى مفروضا ، وقال أيضا إن للصلاة وقتا كوقت الحج ، وكذا روى عن مجاهد وسالم بن عبد الله وعلى بن الحسين ومحمد بن على ، والحسن ومقاتل والسدى وعطية العوفى ، قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) قال ابن مسعود : إن للصلاة وقتا كوقت الحج ، وقال زيد بن أسلم (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) قال منجما كلما مضى نجم جاء نجم ، يعنى كلما مضى وقت جاء وقت وقوله تعالى (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم)أى لا تضعفوا فى طلب عدوكم ، بل جدوا فيهم ، وقاتلوهم ، واقعدوا لهم كل مرصد (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) أى كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم كما قال تعالى (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) ثم قال تعالى (وترجون من الله مالا يرجون) أى أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم ، وإياهم والجراح والآلام ، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وهو وعد حق ، وخبر صدق ، وهم لا يرجون شيئا من ذلك فأنتم أولى بالجهاد منهم وأشد رغبة فيه ، وفى إقامة كلمة الله وإعلائها (وكان الله عليما حكيما) أى هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية وهو المحمود على كل حال

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

يقول تعالى مخاطبا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق)أى هو حق من الله وهو يتضمن الحق فى خبره وطلبه ، وقوله (لتحكم بن الناس بما أراك الله) احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان صلى الله عليه وسلم له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية وبما ثبت فى الصحيحين عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال « ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو مما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو ليذرها » وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بينة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم تختصمون إلىّ وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها انتظاما فى عنقه يوم القيامة » فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقى لأخى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ، ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما ، ثم ليحلل كل منكما صاحبه » وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد به وزاد « إنى إنما أقضى بينكما برأى فيما لم ينزل على فيه » وقد روى ابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته

فسرقت درع لأحدهم فأظن بها رجل من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال : إن طعمة ابن أبيرق سرق درعى ، فلما رأى السارق ذلك عمد اليها فألقاها فى بيت رجل برىء وقال لنفر من عشيرته إنى غيبت الدرع وألقيتها فى بيت فلان وستوجد عنده ، فانطلقوا إلى نبى الله ﷺ ليلا فقالوا : يانبى الله إن صاحبنا برىء وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علما فاعذر صاحبنا على رءوس الناس وجادل عنه ، فانه إن لم يعصمه الله بك يهلك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرأه وعذره على رءوس الناس فأنزل الله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ، واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) الآية ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين بالكذب (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) الآيتين . يعنى الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين يجادلون عن الخائنين ثم قال عز وجل (ومن يعمل سوءاً أويظلم نفسه) الآية يعنى الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ، ثم قال (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثما مبيناً) يعنى السارق والذين جادلوا عن السارق وهذا سياق غريب وقد ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن زيد وغيرهم فى هذه الآية أنها نزلت فى سارق بنى أبيرق على اختلاف سياقاتهم وهى متقاربة ، وقد روى هذه القصة محمد بن إسحق مطولة فقال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية من جامعه وابن جرير فى تفسيره حدثنا الحسن بن أحمد بن أبى شعيب أبو مسلم الحرانى حدثنا محمد بن سلمة الحرانى حدثنا محمد بن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة بن النعمان رضى الله عنه قال : كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر ، وكان بشير رجلا منافقا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ينحله لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا وكذا ، وقال فلان كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا : والله مايقول هذا الشعر إلا هذا الرجل الخبيث أو كما قال الرجل ، وقالوا ابن الأبيرق قالها ، قالوا وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة فى الجاهلية والإسلام وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملا من الدرمك فجعله فى مشربة له ، وفى المشربة سلاح ودرع وسيف فعدى عليه من تحت البيت فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال : يا ابن أخى انه قد عدى علينا فى ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا ، قال فتحسسنا فى الدار وسألنا فقيل لنا قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا فى هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم قال : وكان بنو أبيرق قالوا — ونحن نسأل فى الدار — والله مانرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلا منا له صلاح وإسلام فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال : أنا أسرق والله ليخالطنكم هذا السيف ، أو لتبينن هذه السرقة ، قالوا : إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها فسألنا فى الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها ، فقال لى عمى يا ابن أخى لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمى رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه . فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه ، فقال النبى ﷺ « سآمر فى ذلك » فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له أسيد بن عروة فكلموه فى ذلك ، فاجتمع فى ذلك أناس من أهل الدار فقالوا يارسول الله : إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ، قال قتادة : فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فكلمته فقال « عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة » قال فرجعت ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فأتانى عمى رفاعة فقال : يا ابن أخى ماصنعت . فأخبرته بما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : الله المستعان ، فلم نلبث أن نزل القرآن (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين

خصيما) يعنى بنى أبيرق (واستغفر الله) أى مما قلت لقتادة (إن الله كان غفورا رحيما ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم — إلى قوله — (رحيما) أى لو استغفروا الله لغفر لهم (ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه — إلى قوله — إثما مبينا » قوله للبيد (ولولا فضل الله عليك ورحمته — إلى قوله — فسوف نؤتيه أجرا عظيما) فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة ، فقال قتادة لما أتيت عمى بالسلاح وكان شيخا قد عمى أو عشى الشك من أبى عيسى فى الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولا فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخى هى فى سبيل الله فعرفت أن إسلامه كان صحيحا ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية ، فأنزل الله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها حسان بن ثابت بأبيات من شعر فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت به فرمته فى الأبطح ، ثم قالت : أهديت لى شعر حسان ما كنت تأتينى بخير : لفظ الترمذى هذا حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحرانى ، ورواه يونس بن بكير وغير واحد عن محمد بن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلا لم يذكروا فيه عن أبيه عن جده ، ورواه ابن أبى حاتم عن هاشم بن القاسم الحرانى عن محمد بن سلمة به ببعضه ورواه ابن المنذر فى تفسيره ، حدثنا محمد بن إسماعيل يعنى الصائغ حدثنا أحمد بن أبى شعيب الحرانى حدثنا محمد بن سلمة فذكره بطوله ورواه أبو الشيخ الأصبهانى فى تفسيره عن محمد بن عياش بن أيوب والحسن بن يعقوب كلاهما عن الحسن ابن أحمد بن أبى شعيب الحرانى عن محمد بن سلمة به ، ثم قال فى آخره : قال محمد بن سلمة سمع منى هذا الحديث يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وإسحق بن إسرائيل وقد روى هذا الحديث الحاكم أبو عبد الله النيسابورى فى كتابه المستدرك عن ابن عباس الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردى عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحق بمعناه أتم منه وفيه الشعر ثم قال : وهذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقوله تعالى (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) الآية ، هذا إنكار على المنافقين فى كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم ويجاهرون الله بها لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما فى ضمائرهم ولهذا قال (وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا) تهديد لهم ووعيد، ثم قال تعالى (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا) الآية . أى هب أن هؤلاء انتصروا فى الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدى الله تعالى الذى يعلم السر وأخفى ، ومن ذا الذى يتوكل لهم يومئذ يوم القيامة فى ترويج دعواهم ؟ أى لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلا ، ولهذا قال (أم من يكون عليهم وكيلا)

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيٓئًا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب اليه تاب عليه من أى ذنب كان . فقال تعالى (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه ، وسعة رحمته ، ومغفرته ، فمن أذنب ذنبا صغيرا كان أو كبيرا (ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . رواه ابن جرير وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد بن مثنى حدثنا محمد بن أبى

عدى حدثنا شعبة عن عاصم عن أبى وائل قال : قال عبدالله : كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه ، وإذا أصاب البول منه شيئا قرضه بالمقراض ، فقال رجل : لقد آتى الله بنى إسرائيل خيرا، فقال عبد الله رضى الله عنه ما آتاكم الله خير مما آتاهم جعل الماء لكم طهورا ، وقال تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) وقال (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) وقال أيضا حدثنى يعقوب حدثنا هشيم عن ابن عون عن حبيب بن أبى ثابت قال : جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فجرت فحبلت ، فلما ولدت قتلت ولدها ، قال عبد الله بن مغفل : لها النار فانصرفت وهى تبكى فدعاها ثم قال ما أرى أمرك إلا أحد أمرين (من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) قال فمسحت عينها ثم مضت وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا شعبة عن عثمان بن المغيرة قال: سمعت على بن ربيعة من بنى أسد يحدث عن أسماء أو ابن أسماء من بنى فزارة قال : قال على رضى الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئا نفعنى الله فيه بما شاء أن ينفعنى منه . وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم يذنب ذنبا ثم يتوضأ ثم يصلى ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له» وقرأ هاتين الآيتين (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) الآية . وقد تكلمنا على هذا الحديث وعزيناه إلى من رواه من أصحاب السنن ، وذكرنا ما فى سنده من مقال فى مسند أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وقد تقدم بعض ذلك فى سورة آل عمران أيضا وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره من وجه آخر عن على فقال حدثنا أحمد بن محمد بن زياد حدثنا إبراهيم بن إسحق الحرانى حدثنا داود بن مهران الدباغ حدثنا عمر بن يزيد عن عبد خير عن على قال سمعت أبا بكر هو الصديق يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من عبد أذنب فقام فتوضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام فصلى واستغفر من ذنبه إلا كان حقا على الله أن يغفر له » لأن الله يقول (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية ، ثم رواه من طريق أبان بن أبى عياش عن أبى إسحق السبيعى عن الحارث عن على عن الصديق بنحوه وهذا إسناد لا يصح، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا موسى بن مروان الرقى حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبى عن تمام بن نجيح حدثنى كعب بن ذهل الأزدى قال سمعت أبا الدرداء يحدث قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلسنا حوله وكانت له حاجة فقام إليها وأراد الرجوع ترك نعليه فى مجلسه أو بعض ما عليه وإنه قام فترك نعليه قال أبو الدرداء فأخذ ركوة من ماء فاتبعته فمضى ساعة ثم رجع ولم يقض حاجته فقال « انه أتانى آت من ربى فقال : انه (من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) فأردت أن أبشر أصحابى » قال أبو الدرداء وكانت قد شقت على الناس الآية التى قبلها (من يعمل سوءا يجز به) فقلت يا رسول الله ، وان زنى وان سرق ثم استغفر ربه غفر له ؟ قال« نعم » ثم قلت الثانية قال « نعم » قلت الثالثة قال « نعم وان زنى وان سرق ثم استغفر الله غفر الله له على رغم أنف أبى الدرداء » قال فرأيت أبا الدرداء يضرب أنف نفسه بأصبعه . هذا حديث غريب جدا من هذا الوجه بهذا السياق وفى إسناده ضعف . وقوله (ومن يكسب إثما فانه يكسبه على نفسه) الآية كقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الآية ، يعنى أنه لا يغنى أحد عن أحد وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها ، ولهذا قال تعالى (وكان الله عليما حكيما) أى من علمه وحكمته ، وعدله ورحمته كان ذلك ، ثم قال (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا) الآية يعنى كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو لبيد بن سهل كما تقدم فى الحديث ، أو زيد بن السمين اليهودى على ما قاله الآخرون وقد كان بريئا وهم الظلمة الخونة كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ ؛ ثم هذا التقريع وهذا التوبيخ عام فيهم وفى غيرهم ممن اتصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم فعليه مثل عقوبتهم ، وقوله (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء) وقال الإمام ابن أبى حاتم أنبأنا هاشم ابن القاسم الحرانى فيما كتب إلى حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن أبيه عن جده قتادة بن النعمان وذكر قصة بنى أبيرق فأنزل الله (لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم

وما يضرونك من شيء) يعني أسيد بن عروة وأصحابه يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ؛ وعصمته له ؛ وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة ؛ وهي السنة (وعلمك مالم تكن تعلم) أي قبل نزول ذلك عليك كقوله (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب) إلى آخر السورة ؛ وقال تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ولهذا قال (وكان فضل الله عليك عظيما)

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

يقول تعالى (لا خير في كثير من نجواهم) يعني كلام الناس (إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) أي إلا نجوى من قال ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مردويه حدثنا محمد بن عبدالله بن إبراهيم حدثنا محمد بن سليمان بن الحارث حدثنا محمد بن يزيد بن حنيش قال : دخلنا على سفيان الثوري نعوده فدخل علينا سعيد بن حسان فقال له الثوري الحديث الذي كنت حدثتنيه عن أم صالح ردده علي فقال : حدثتني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا ذكر الله عز وجل ؛ أو أمر بمعروف ؛ أو نهي عن منكر » فقال سفيان أو ما سمعت الله في كتابه يقول (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) فهو هذا بعينه ؛ أو ما سمعت الله يقول (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) فهو هذا بعينه ؛ أو ما سمعت الله يقول في كتابه (والعصر إن الإنسان لفي خسر) الخ فهو هذا بعينه ؛ وقد روى هذا الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن حنيش عن سعيد بن حسان به ؛ ولم يذكر أقوال الثوري إلى آخرها ؛ ثم قال الترمذي حديث غريب لا يعرف إلا من حديث ابن حنيش . قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي حدثنا صالح ابن كيسان حدثنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً ؛ أو يقول خيراً » وقالت لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : في الحرب والإصلاح بين الناس ؛ وحديث الرجل امرأته ؛ وحديث المرأة زوجها قال : وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ وقد رواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن الزهري به نحوه قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم أفضل من درجة الصيام ؛ والصلاة ؛ والصدقة » قالوا بلى يارسول الله قال « إصلاح ذات البين » قال : « وفساد ذات البين هي الحالقة » ورواه أبو داود والترمذي من حديث أبي معاوية وقال الترمذي حسن صحيح وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا شريح بن يونس حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر حدثنا أبي عن حميد عن أنس أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب « ألا أدلك على تجارة » قال بلى يارسول الله قال « تسعى في إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا » ثم قال البزار وعبد الرحمن بن عبد الله العمري لين وقد حدث بأحاديث لم يتابع عليها ولهذا قال (ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله) أي مخلصا في ذلك محتسبا ثواب ذلك عند الله عز وجل (فسوف نؤتيه أجراً عظيما) أي ثوابا جزيلا كثير واسعا وقوله (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى) أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي

جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار فى شق والشرع فى شق وذلك عن عمد منه بعد ماظهر له الحق وتبين له واتضح له وقوله (ويتبع غير سبيل المؤمنين) هذا ملازم للصفة الأولى ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً فانه قد ضمنت لهم العصمة فى اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيما لنبيهم وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة فى ذلك قد ذكرنا منها طرفا صالحا فى كتاب أحاديث الأصول ومن العلماء من ادعى تواتر معناها والذى عول عليه الشافعى رحمه الله فى الاحتجاج على كون الاجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروى والفكر الطويل وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله (نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) أى إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها فى صدره ونزينها له استدراجاً له كما قال تعالى (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقوله (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وجعل النار مصيره فى الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة كما قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) الآية وقال تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا * إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة وهى قوله (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك) الآية وذكرنا مايتعلق بها من الأحاديث فى صدر هذه السورة وقد روى الترمذى حدثنا ثوير بن أبى فاختة سعيد بن علاقة عن أبيه عن على رضى الله عنه أنه قال مافى القرآن آية أحب إلىّ من هذه الآية (إن الله لايغفر أن يشرك به) الآية ثم قال هذا حسن غريب وقوله (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) أى فقد سلك غير الطريق الحق وضل عن الهدى وبعد عن الصواب وأهلك نفسه وخسرها فى الدنيا والآخرة وفاتته سعادة الدنيا والآخرة وقوله (إن يدعون من دونه إلا إناثا) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمود بن غيلان أنبأنا الفضل بن موسى أخبرنا الحسن بن واقد عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب (إن يدعون من دونه إلا إناثا) قال مع كل صنم جنية وحدثنا أبى حدثنا محمد ابن سلمة الباهلى عن عبد العزيز بن محمد عن هشام يعنى ابن عروة عن أبيه عن عائشة (إن يدعون من دونه إلا إناثا) قالت أوثانا وروى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير ومجاهد وأبى مالك والسدى ومقاتل نحو ذلك وقال ابن جرير عن الضحاك فى الآية قال المشركون للملائكة بنات الله وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى قال فاتخذوهن أربابا وصوروهن جوارى فحكموا وقلدوا وقالوا هؤلاء يشبهن بنات الله الذى نعبده يعنون الملائكة وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى) الآيات وقال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) الآية وقال (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) الآيتين وقال على بن أبى طلحة والضحاك عن ابن عباس (إن يدعون من دونه

إلا إناثا) قال يعنى موتى وقال مبارك يعنى ابن فضالة عن الحسن إن يدعون من دونه إلا إناثا قال الحسن الإناث كل شىء ميت ليس فيه روح إما خشبة يابسة وإما حجر يابس ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير وهو غريب وقوله (وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً) أى هو الذى أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم وهم إنما يعبدون إبليس فى نفس الأمر كما قال تعالى (ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) الآية . وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم فى الدنيا (بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) وقوله (لعنه الله) أى طرده وأبعده من رحمته ، وأخرجه من جواره وقال (لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً) أى معيناً مقدراً معلوما قال قتادة من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار ، وواحد الى الجنة (ولأضلنهم) أى عن الحق (ولأمنينهم) أى أزين لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأمانى ، وآمرهم بالتسويف والتأخير ، وأغرهم من أنفسهم قوله (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) قال قتادة والسدى وغيرهما يعنى تشقيقها وجعلها سمة ، وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) قال ابن عباس يعنى بذلك خصى الدواب : وكذا روى عن ابن عمر وأنس وسعيد بن المسيب وعكرمة وأبى عياض وقتادة وأبى صالح والثورى ، وقد ورد فى حديث النهى عن ذلك ، وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى يعنى بذلك الوشم وفى صحيح مسلم النهى عن الوشم فى الوجه ، وفى لفظ ، لعن الله من فعل ذلك ، وفى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل ، ثم قال : ألا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله عزوجل يعنى قوله (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال ابن عباس فى رواية عنه ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعى والحسن وقتادة والحكم والسدى والضحاك وعطاء الخراسانى فى قوله (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) يعنى دين الله عزوجل وهذا كقوله (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) على قول من جعل ذلك أمرا أى لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء » وفى صحيح مسلم عن عياض ابن حماد قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله عزوجل : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » ثم قال تعالى (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) أى فقد خسر الدنيا والآخرة وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفائتها . وقوله تعالى (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) وهذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون فى الدنيا والآخرة وقد كذب وافترى فى ذلك ، ولهذا قال الله تعالى (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان – الى قوله – وإن الظالمين لهم عذاب أليم) وقوله (أولئك) أى المستحسنون له فيما وعدهم ومناهم (مأواهم جهنم) أى مصيرهم ومآلهم يوم القيامة (ولا يجدون عنها محيصاً) أى ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ، ولا خلاص ، ولا مناص ، ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات ، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات (سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا (خالدين فيها أبداً) أى بلا زوال ولا انتقال (وعد الله حقا) أى هذا وعد من الله ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر وهو قوله حقا ، ثم قال تعالى (ومن أصدق من الله قيلا) أى لا أحد أصدق منه قولا أى خبراً لا إله إلا هو ولا رب سواه وكان رسول الله ﷺ يقول فى خطبته « إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار »

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا

نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً * وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً * وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطاً ﴾

قال قتادة ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب التى كانت قبله فأنزل الله (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به)(ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) الآية . ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناواهم من أهل الأديان . وكذا روى عن السدى ومسروق والضحاك وأبى صالح وغيرهم وكذا روى العوفى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى هذه الآية تخاصم أهل الأديان ، فقال أهل التوراة : كتابنا خير الكتب ، ونبينا خير الأنبياء ، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك ، وقال أهل الإسلام : لادين إلا الإسلام ، وكتابنا نسخ كل كتاب ؛ ونبينا خاتم النبيين ، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا فقضى الله بينهم وقال (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزبه) الآية ؛ وخير بين الأديان فقال (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) إلى قوله (واتخذ الله إبراهيم خليلا) وقال مجاهد : قالت العرب لن نبعث ولن نعذب ؛ وقالت اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) وقالوا (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) والمعنى فى هذه الآية أن الدين ليس بالتحلى ولا بالتمنى ؛ ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال وليس كل من ادعى شيئا حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان ؛ ولهذا قال تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزبه) أى ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمنى ؛ بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام ؛ ولهذا قال بعده (من يعمل سوءا يجزبه) كقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ؛ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وقد روى أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا إسماعيل عن أبى بكر بن أبى زهير قال: أخبرت أن أبا بكر رضى الله عنه قال: يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزبه) فكل سوء عملناه جزينا به ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست تنصب ؛ ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء » قال بلى قال « فهو مما تجزون به » ورواه سعيد بن منصور عن خلف بن خليفة عن إسماعيل بن أبى خالد به[1] ورواه الحاكم من طريق سفيان الثورى عن إسماعيل به وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن زياد الجصاص عن على بن زيد عن مجاهد عن ابن عمر قال سمعت أبا بكر يقول : قال رسول الله ﷺ « من يعمل سوءا يجزبه فى الدنيا » وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد[2] بن هشام بن جهيمة حدثنا يحي بن أبى طالب ؛ حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا زياد الجصاص عن على بن زيد عن مجاهد قال : قال عبد الله بن عمر انظروا المكان الذى فيه عبد الله بن الزبير مصلوبا فلاتمرن عليه قال فسها الغلام فإذا عبد الله بن عمر ينظر إلى ابن الزبير فقال يغفر الله لك ثلاثا أما والله ما علمتك إلا صوّاما قواما وصالا للرحم أما والله إنى لأرجو مع مساوى ما أصبت أن لايعذبك الله بعدها قال ثم التفت إلى فقال سمعت أبا بكر الصديق يقول : قال رسول الله ﷺ « من يعمل سوء فى الدنيا يجزبه » ورواه أبو بكر البزار فى مسنده عن الفضل بن سهل عن عبد الوهاب بن عطاء به مختصرا وقال فى مسند ابن الزبير حدثنا إبراهيم بن المستمر العروقى حدثنا عبد الرحمن بن سليم بن حيان حدثنى أبى عن جدى حيان بن بسطام قال بسطام قال كنت مع ابن عمر فمر بعبد الله بن الزبير وهو مصلوب فقال رحمة الله عليك أبا خبيب سمعت أباك يعنى الزبير يقول: قال رسول الله ﷺ

(١) فى نسخة الأزهر زيادة : ورواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى عن أبى خيثمة عن يحي بن سعيد عن إسماعيل بن أبى خالد به .
(٢) وفيها : أحمد بن هشيم .

« من يعمل سوءا يجزبه فى الدنيا والآخرة » ثم قال لا نعلمه يروى عن الزبير إلا من هـذا الوجه ؛ وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا محمد بن سعد العوفى ؛ حدثنا روح بن عبادة ؛ حدثناموسى بن عبيدة؛ حدثنى مولى بن السباع قال سمعت ابن عمر يحـدث عن أبى بكر الصديق قال كنت عنـد النبى ﷺ فنزلت هـذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه ولا يجد له من دون الله ولياً نصيراً) فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت على » قلت : بلى يا رسول الله قال فأقرأنيها فلا أعلم أنى قد وجدت انفصاما فى ظهرى حتى تمطيت لها فقال رسول الله ﷺ « مالك يا أبا بكر » قلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله وأينا لم يعمل السوء وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه فقال رسـول الله ﷺ « أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فانكم تجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة » وكذا رواه الترمذى عن يحيى بن موسى وعبدبن حميد عن روح بن عبادة به ثم قال وموسى بن عبيدة يضعف ومولى ابن سباع مجهول وقال ابن جرير حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج قال أخبرنى عطاء بن أبى رباح قال لما نزلت هـذه الآية قال أبو بكر جاءت قاصمة الظهر فقال رسول الله ﷺ « إنما هى المصيبات فى الدنيا » . (طريق أخرى عن الصديق) قال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إسحق العسكرى ، حدثنا محمد بن عامر السعدى ، حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا فضيل ابن عياض عن سليمان بن مهران عن مسلم بن صبيح عن مسروق قال: قال أبو بكر الصديق يارسول الله ما أشد هذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه) فقال رسول الله ﷺ « المصائب والأمراض والأحزان فى الدنيا جزاء » . (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثنى عبد الله بن أبى زياد وأحمد بن منصور قالا أنبأنا زيد بن الحباب ، حدثنا عبد الملك بن الحسن الحارثى ، حدثنا محمد بن زيد بن منقذ عن عائشـة عن أبى بكر قال لما نزلت (من يعمل سوءاً يجز به) قال أبو بكر يا رسول الله كل ما نعمل نؤاخذ به ؟ فقال « يا أبا بكر أليس يصيبك كذا وكذا فهو كفارة » (حديث آخر) قال سعيد بن منصور أنبأنا عبد الله بن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه أن يزيد بن أبى يزيد حدثه عن عبيد بن عمير عن عائشة أن رجلا تلا هذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه) فقال إنا لنجزى بكل ما عملناه هلكنا إذا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « نعم يجزى به المؤمن فى الدنيا فى نفسه فى جسده فيما يؤذيه » (طريق أخرى) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سامة ابن بشير ، حدثنا هشيم عن أبى عامر عن ابن أبى مليـكة عن عائشة قالت قلت يارسول الله إنى لأعلم أشد آية فى القرآن فقال « ما هى ياعائشة » قلت من يعمل سوءاً يجزبه فقال « هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النـكبة ينكبها » ورواه ابن جرير من حديث هشيم به ورواه أبو داود من حديث أبى عامر صالح بن رستم الخراز به. (طريق أخرى) قال أبو داود الطيالسى حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن ابنته أنها سألت عائشة عن هذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه به) فقالت ما سألنى أحد عن هذه الآية منذ سألت عنها رسول الله ﷺ سألت رسول الله ﷺ فقال « ياعائشة هذه مبايعة الله للعبد مما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة حتى البضاعة فيضعها فى كمه فيفزع لها فيجدها فى جيبه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما أن الذهب يخرج من الـكير » (طريق أخرى) قال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو القاسم حدثنا شريح بن يونس ؛ حدثنا أبو معاوية عن محمـد بن إسماعيل عن محمد بن يزيد ابن المهاجر عن عائشه قالت سئل رسـول الله ﷺ عن هـذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه) قال « إن المؤمن يؤجر فى كل شىء حتى فى القبض عند الموت » وقال الإمام أحمد حدثنا حسين عن زائدة عن ليث عن مجاهد عن عائشة قالت قلت يا رسول الله إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه . (حديث آخر) قال سعيد بن منصور عن سفيان بن عيينة عن عمر بن عبد الرحمن بن محيصن سمع محمـد بن قيس بن مخرمة يخبر أن أبا هريرة رضى الله عنه قال لما نزلت (من يعمل سوءاً يجزبه) شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسـول الله ﷺ « سددوا وقاربوا فان فى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنـكبة ينكبها » وهكذا رواه أحمد عن سفيان بن عيينة ومسلم والترمذى والنسائى من حديث سفيان بن عيينة به ورواه ابن جرير(١) من حديث روح ومعمر كلاهما عن إبراهيم بن يزيد عن عبد الله بن إبراهيم سمعت أبا هريرة يقول : لما نزلت

(١) فى نسخة الأزهر . ابن مردويه .

هذه الآية (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به) بكينا وحزنا وقلنا يارسول الله ما أبقت هذه الآية من شيء قال « أما والذى نفسى بيده إنها لكما أنزلت ولكن أبشروا وقاربوا وسددوا فانه لايصيب أحدا منكم مصيبة فى الدنيا الا كفر الله بها من خطيئته حتى الشوكة يشاكها أحدكم فى قدمه » وقال عطاء بن يسار عن أبى سعيد وأبى هريرة أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه الا كفر الله من سيئاته » أخرجاه . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد بن إسحق حدثتنى زينب بنت كعب بن عجرة عن أبى سعيد الخدرى قال جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال أرأيت هذه الأمراض التى تصيبنا مالنا بها قال كفارات قال أبى وان قلت قال حتى الشوكة فما فوقها قالت فدعا أبى على نفسه أنه لايفارقه الوعك حتى يموت فى أن لايشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد فى سبيل الله ولا صلاة مكتوبة فى جماعة فما مسه إنسان حتى وجد حره حتى مات رضى الله عنه تفرد به أحمد

(حديث آخر) روى ابن مردويه من طريق حسين بن واقد عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال قيل يارسول الله (من يعمل سوءاً يجز به) قال « نعم ومن يعمل حسنة يجز بها عشرا » فهلك من غلب واحدته عشراته وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا يزيد بن هرون حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن (من يعمل سوءاً يجز به) قال الكافر ثم قرأ (وهل نجازى إلا الكفور) وهكذا روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما فسرا السوء ههنا بالشرك أيضا وقوله (ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس إلا أن يتوب فيتوب الله عليه رواه ابن أبى حاتم والصحيح أن ذلك عام فى جميع الأعمال لما تقدم من الأحاديث وهذا اختيار ابن جرير والله أعلم وقوله (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لابد أن يأخذ مستحقها من العبد إما فى الدنيا وهو الأجود له ، وإما فى الآخرة والعياذ بالله من ذلك ؛ ونسأله العافية فى الدنيا والآخرة . والصفح والعفو والمسامحة شرع فى بيان إحسانه وكرمه ورحمته فى قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان ، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير وهو النقرة التى فى ظهر نواة التمرة . وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط الذى فى شق النواة . وهذا النقير وهما فى نواة التمرة والقطمير وهو اللفافة التى على نواة التمرة ، والثلاثة فى القرآن . ثم قال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) أى أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً (وهو محسن) أى اتبع فى عمله ماشرعه الله له وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان الشرطان لايصح عمل عامل بدونهما أى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله . والصواب أن يكون متابعا للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة ، وباطنه بالاخلاص فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد فمتى فقد الاخلاص كان منافقا وهم الذين يراءون الناس ومن فقد المتابعة كان ضالا جاهلا ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ماعملوا ويتجاوز عن سيئاتهم الآية . ولهذا قال تعالى (واتبع ملة إبراهيم حنيفاً) وهم محمد وأتباعه الى يوم القيامة . كما قال تعالى (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى) الآية وقال تعالى (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) والحنيف هو المائل عن الشرك قصدا أى تاركا له عن بصيرة ومقبل على الحق بكليته لايصده عنه صاد ولا يرده عنه راد وقوله (واتخذ الله إبراهيم خليلا) وهذا من باب الترغيب فى اتباعه ، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل الى غاية مايتقرب به العباد له فانه انتهى الى درجة الخلة التى هى أرفع مقامات المحبة . وماذاك الا لكثرة طاعته لربه كما وصفه به فى قوله (وإبراهيم الذى وفى) قال كثير من علماء السلف أى قام بجميع ما أمر به وفى كل مقام من مقامات العبادة فكان لايشغله أمر جليل عن حقير ولا كبير عن صغير وقال تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) الآية وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين) الآية والآية بعدها وقال البخارى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال ان معاذا لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ (واتخذ الله إبراهيم خليلا) فقال رجل من القوم لقد قرت عين أم ابراهيم وقد ذكر ابن جرير فى تفسيره عن بعضهم أنه إنما سماه الله خليلا من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جدب فارتحل الى خليل له من

أهل الموصل وقال بعضهم من أهل مصر ليمتار طعاما لأهله من قبله فلم يصب عنده حاجته فلما قرب من أهله بمفازة ذات رمل فقال لو ملأت غرائرى من هذا الرمل لئلا يغتم أهلى برجوعى اليهم بغير ميرة وليظنوا أنى أتيتهم بما يحبون ففعل ذلك فتحول ما فى الغرائر من الرمل دقيقا فلما صار الى منزله نام وقام أهله ففتحوا الغرائر فوجدوا دقيقا فعجنوا منه وخبزوا فاستيقظ فسألهم عن الدقيق الذى منه خبزوا فقالوا من الدقيق الذى جئت به من عند خليلك فقال نعم هو من عند خليلى الله فسماه الله بذلك خليلا وفى صحة هذا ووقوعه نظر وغايته أن يكون خبرا إسرائيليا لا يصدق ولا يكذب وإنما سمى خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التى يحبها ويرضاها ولهذا ثبت فى الصحيحين من رواية أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ لما خطبهم فى آخر خطبة خطبها قال « أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر بن أبى قحافة خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » وجاء من طريق جندب بن عبد الله البجلى وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن مسعود عن النبى ﷺ قال « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبدالرحيم بن محمد بن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنا ابراهيم بن يعقوب الجوزجانى بمكة حدثنا عبدالله الحنفى حدثنا زمعة أبو صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذ ادنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم واذا بعضهم يقول عجب إن الله اتخذ من خلقه خليلا فإبراهيم خليله وقال آخر ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما وقال آخر فعيسى روح الله وكلمته وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم فسلم وقال : « قد سمعت كلامكم وتعجبكم إن ابراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى كليمه وعيسى روحه وكلمته وآدم اصطفاه الله وهو كذلك وكذلك محمد ﷺ قال ألا وإنى حبيب الله ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح الله ويدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شواهد فى الصحاح وغيرها وقال قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال أتعجبون من أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين رواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه وكذا روى عن أنس بن مالك وغير واحد من الصحابة والتابعين والأئمة من السلف والخلف وقال ابن أبى حاتم حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى حدثنا محمد يعنى ابن سعيد بن سابق حدثنا عمرو يعنى ابن أبى قيس عن عاصم عن أبى راشد عن عبيد بن عمير قال كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس فخرج يوما يلتمس أحدا يضيفه فلم يجد أحدا يضيفه فرجع الى داره فوجد فيها رجلا قائما فقال يا عبدالله ما أدخلك دارى بغير اذنى قال دخلتها باذن ربها ، قال ومن أنت قال أنا ملك الموت أرسلنى ربى إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذه خليلا قال من هو فوالله إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه ثم لا أبرح له جارا حتى يفرق بيننا الموت قال ذلك العبد أنت قال أنا قال نعم قال فبم اتخذنى ربى خليلا قال انك تعطى الناس ولا تسألهم وحدثنا أبى حدثنا محمود بن خالد السلمى حدثنا الوليد عن إسحق بن يسار قال لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى فى قلبه الوجل حتى ان خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير فى الهواء وهكذا جاء فى صفة رسول الله ﷺ أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل إذا اشتد غليانها من البكاء وقوله (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) أى الجميع ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف فى جميع ذلك لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته وقوله (وكان الله بكل شىء محيطاً) أى علمه نافذ فى جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ

مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴾

قال البخارى حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها (ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن — إلى قوله — وترغبون أن تنكحوهن) قالت عائشة هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فأشركته فى ماله حتى فى العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فنزلت هذه الآية ، وكذلك رواه مسلم عن أبى كريب وعن أبى بكر بن أبى شيبة كلاهما عن أبى أسامة وقال ابن أبى حاتم قرأت على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أخبرنا ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب أخبرنى عروة بن الزبير قالت عائشة : ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله (ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم وما يتلى عليكم فى الكتاب) الآية ، قالت : والذى ذكر الله أنه يتلى عليه فى الكتاب . الآية الأولى التى قال الله (وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وبهذا الإسناد عن عائشة قالت : وقول الله عز وجل (وترغبون أن تنكحوهن) رغبة أحدكم عن يتيمته التى تكون فى حجره حتى تكون قليلة المال والجمال فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن وأصله ثابت فى الصحيحين من طريق يونس بن يزيد الأيلى به ، والمقصود أن الرجل إذا كان فى حجره يتيمة يحل له تزويجها فتارة يرغب فى أن يتزوجها فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء ، فان لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء فقد وسع الله عز وجل ، وهذا المعنى فى الآية الأولى التى فى أول السورة ، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده أو فى نفس الأمر فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه فى ماله الذى بينه وبينها كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية وهى قوله (فى يتامى النساء) الآية . كان الرجل فى الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً ، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه . وقال فى قوله (والمستضعفين من الولدان) كانوا فى الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات وذلك قوله (لا تؤتوهن ما كتب لهن) فنهى الله عن ذلك وبين لكل ذى سهم سهمه فقال (للذكر مثل حظ الأنثيين) صغيرا أو كبيرا ، وكذا قال سعيد بن جبير وغيره قال سعيد بن جبير فى قوله (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فأنكحها واستأثر بها وقوله (وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما) تهييجا على فعل الخيرات وامتثالا للأوامر وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه .

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾

يقول تعالى مخبرا ومشرعا من حال الزوجين تارة فى حال نفور الرجل عن المرأة وتارة فى حال اتفاقه معها ، وتارة فى حال فراقه لها فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها فى بذلها ذلك له ولا

عليه في قبوله منها ولهذا قال تعالى (فلاجناح عليهما أن يصلحا بينهم صلحا) ثم قال (والصلح خير) أي من الفراق وقوله (وأحضرت الأنفس الشح) أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك ﴿ذكر الرواية بذلك﴾ قال أبو داود الطيالسي حدثنا سليمان بن معاذ عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما) الآية. قال ابن عباس فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز ورواه الترمذي عن محمد بن المثنى عن أبي داود الطيالسي به وقال حسن غريب، قال الشافعي أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ توفي عن تسع نسوة وكان يقسم لثمان. وفي الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة. وفي صحيح البخاري من حديث الزهري عن عروة عن عائشة نحوه، وقال سعيد بن منصور أنبأنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام عن أبيه عروة قال أنزل الله في سودة وأشباهها (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) وذلك أن سودة كانت امرأة قد أسنت ففرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ وضنت بمكانها منه وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلها منه، فوهبت يومها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة فقبل ذلك رسول الله ﷺ قال البيهقي وقد رواه أحمد بن يونس عن الحسن بن أبي الزناد موصولا وهذه الطريقة رواها الحاكم في مستدركه فقال حدثنا أبو بكر بن إسحق الفقيه أخبرنا الحسن بن علي بن زياد حدثنا أحمد بن يونس حدثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت له يا ابن أختي: كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ يا رسول الله يومي هذا لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ قالت عائشة، ففي ذلك أنزل الله (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) وكذلك رواه أبو داود عن أحمد بن يونس به، والحاكم في مستدركه، ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد رواه ابن مردويه من طريق أبي بلال الأشعري عن عبد الرحمن بن أبي الزناد به نحوه ومن رواية عبد العزيز عن محمد الدراوردي عن هشام بن عروة بنحوه مختصرا والله أعلم: وقال أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الدعولي في أول معجمه حدثنا محمد بن يحيى حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائي حدثنا القاسم بن أبي برة قال بعث النبي ﷺ إلى سودة بنت زمعة بطلاقها، فلما أن أتاها جلست له على طريق عائشة فلما رأته قالت له: أنشدك بالذي أنزل عليك كلامه واصطفاك على خلقه لما راجعتني فإني قد كبرت ولا حاجة لي في الرجال لكن أريد أن أبعث مع نسائك يوم القيامة فراجعها فقالت فإني جعلت يومي وليلتي لحبة رسول الله ﷺ وهذا غريب مرسل. وقال البخاري حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا عبد الله أنبأنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) قال الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل فنزلت هذه الآية. وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا أبي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير) قالت هذا في المرأة تكون عند الرجل فلعله لا يكون بمستكثر منها ولا يكون لها ولد ويكون لها صحبة فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني. حدثني المثنى حدثنا حجاج ابن منهال حدثنا حماد بن سلمة عن هشام عن عروة عن عائشة في قوله (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) قالت هو الرجل يكون له المرأتان إحداهما قد كبرت والأخرى دميمة وهو لا يستكثر منها فتقول. لا تطلقني وأنت في حل من شأني وهذا الحديث ثابت في الصحيحين من غير وجه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ما تقدم ولله الحمد والمنة قال ابن جرير حدثنا ابن حميد وابن وكيع قالا حدثنا جرير عن أشعث عن ابن سيرين قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب

فسأله عن آية فكرهه فضربه بالدرة ، فسأله آخر عن هذه الآية (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً) ثم قال مثل هذا فاسألوا ، ثم قال : هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنها فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز . وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين المسنجاني حدثنا مسدد حدثنا أبو الأحوص عن سماك ابن حرب عن خالد بن عرعرة قال : جاء رجل الى على بن أبي طالب فسأله عن قول الله عزوجل (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلاجناح عليهما) قال على : يكون الرجل عنده المرأة فتنبوعيناه عنها من دمامتها ، أو كبرها ، أو سوء خلقها ، أو قذذها فتكره فراقه ، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له ، وان جعلت له من أيامها فلا حرج . وكذا رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة عن حماد بن سلمة وأبي الأحوص ، ورواه ابن جرير من طريق إسرائيل أربعتهم عن سماك به . وكذا فسرها ابن عباس وعبيدة السلمانى ومجاهد بن جبير والشعبى وسعيد بن جبير وعطاء وعطية العوفى ومكحول والحسن والحكم بن عتبة وقتادة وغير واحد من السلف والأئمة ولا أعلم فى ذلك خلافا أن المراد بهذه الآية هذا والله أعلم وقال الشافعى أنبأنا ابن عيينة عن الزهرى عن ابن المسيب أن بنت محمد بن مسلم كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمرا إما كبرا أو غيره فأراد طلاقها فقالت لا تطلقنى واقسم لى مابدالك فأنزل الله عزوجل (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضاً) الآية وقد رواه الحاكم فى مستدركه من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار بأطول من هذا السياق وقال الحافظ أبو بكر البيهقى حدثنا سعيد بن أبي عمرو حدثنا أبو محمد أحمد بن عبد الله المزنى أنبأنا على بن محمد بن عيسى أنبأنا أبو اليمان أخبرنى شعيب بن أبي حمزة عن الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار أن السنة فى هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز الرجل وإعراضه عن امرأته فى قوله (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً) الى تمام الآيتين أن المرء إذا نشز عن امرأته وآثر عليها فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثرة فى القسم من ماله ونفسه صلح له ذلك وكان صلحها عليه كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصلح الذى قال الله عزوجل (فلاجناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير) وقد ذكر لى أن رافع بن خديج الأنصارى وكان من أصحاب النبى ﷺ كانت عنده امرأة حتى اذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة وآثر عليها الشابة فناشدته الطلاق فطلقها تطليقة ثم أمهلها حتى اذا كادت تحل راجعها ثم عاد فآثر عليها الشابة فناشدته الطلاق فقال لها ماشئت إنما بقيت لك تطليقة واحدة فإن شئت استقررت على ماترين من الاثرة وان شئت فارقتك فقالت لا بل أستقر على الاثرة فأمسكها على ذلك فكان ذلك صلحهما ولم ير رافع عليه إثما حين رضيت أن تستقر عنده على الاثرة فيما آثر به عليها وهكذا رواه بتمامه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي اليمان عن شعيب عن الزهرى عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار فذكره بطوله والله أعلم وقوله (والصلح خير) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس يعنى التخيير أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفراق خير من تمادى الزوج على أثرة غيرها عليها والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية كما أمسك النبى ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة رضى الله عنها ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه وفعله ذلك لتتأسى به أمته فى مشروعية ذلك وجوازه فهو أفضل فى حقه عليه الصلاة والسلام ولما كان الوفاق أحب الى الله من الفراق قال (والصلح خير) بل الطلاق بغيض اليه سبحانه وتعالى ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وابن ماجه جميعاً عن كثير بن عبيد عن محمد بن خالد عن معروف بن واصل عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبغض الحلال الى الله الطلاق » ثم رواه أبو داود عن أحمد بن يونس عن معروف عن محارب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر معناه مرسلا وقوله (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) وان تتجشموا مشقة الصبر على ماتكرهون منهن وتقسموا لهن أسوة أمثالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء ، وقوله تعالى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) أى لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه فإنه وان وقع القسم الصورى ليلة وليلة فلابد من التفاوت

فى المحبة والشهوة والجماع كما قاله ابن عباس وعبيدة السلمانى ومجاهد والحسن البصرى والضحاك بن مزاحم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا ابن أبى شيبة حدثنا حسين الجعفى عن زائدة عن عبد العزيز بن رفيع عن ابن أبى مليكة قال نزلت هذه الآية (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) فى عائشة ، يعنى أن النبى ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أبى قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب هذا لفظ أبى داود وهذا إسناد صحيح لكن قال الترمذى رواه حماد بن زيد وغير واحد عن أيوب عن أبى قلابة مرسلا قال وهذا أصح وقوله (فلا تميلوا كل الميل) أى فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا فى الميل بالكلية (فتذروها كالمعلقة) أى فتبقى هذه الأخرى معلقة قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والضحاك والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان معناه لاذات زوج ولا مطلقة وقال أبو داود الطيالسى أنبأنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث همام بن يحيى عن قتادة به وقال الترمذى إنما أسنده همام ورواه هشام الدستوائى عن قتادة قال كان يقال ولا يعرف هذا الحديث مرفوعا إلا من حديث همام وقوله (وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما) أى وإن أصلحتم فى أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله فى جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض ثم قال تعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيما) وهذه هى الحالة الثالثة وهى حالة الفراق وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنها عنه بأن يعوضه الله من هو خير له منها ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه (وكان الله واسعاً حكيما) أى واسع الفضل عظيم المن حكيما فى جميع أفعاله وأقداره وشرعه

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا * مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الحاكم فيهما ولهذا قال (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم) أى وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لاشريك له ثم قال (وإن تكفروا فإن لله مافى السموات وما فى الأرض) الآية كما قال تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لقومه (إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) وقال (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد) أى غنى عن عباده (حميد) أى محمود فى جميع مايقدره ويشرعه وقوله (ولله مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا) أى هو القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب الشهيد على كل شىء وقوله (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً) أى هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه كما قال (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) قال بعض السلف ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره وقال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز) أى وما هو عليه بممتنع وقوله (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) أى يامن ليس له همة إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة واذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك كما قال تعالى (فمن الناس من يقول

ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا) الآية وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) الآية وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد — إلى قوله — انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) الآية وقد زعم ابن جرير أن المعنى فى هذه الآية (من كان يريد ثواب الدنيا) أى من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك (فعند الله ثواب الدنيا) وهو ما حصل لهم من المغانم وغيرها مع المسلمين وقوله (والآخرة) أى وعند الله ثواب الآخرة وهو ما ادخره لهم من العقوبة فى نار جهنم جعلها كقوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها — إلى قوله — وباطل ما كانوا يعملون) ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر وأما تفسيره الآية الأولى بهذا ففيه نظر فان قوله (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) ظاهر فى حصول الخير فى الدنيا والآخرة أى بيده هذا وهذا فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية فى الدنيا والآخرة فان مرجع ذلك كله إلى الذى بيده الضر والنفع وهو الله الذى لا إله إلا هو الذى قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس فى الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا . ولهذا قال (وكان الله سميعا بصيرا)

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أى بالعدل فلا يعدلوا عنه يمينا ولا شمالا ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه وقوله (شهداء لله) كما قال (وأقيموا الشهادة لله) أى أدوها ابتغاء وجه الله فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقا خالية من التحريف والتبديل والكتمان ولهذا قال (ولو على أنفسكم) أى اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك فان الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجا من كل أمر يضيق عليه وقوله (أو الوالدين والأقربين) أى وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم فان الحق حاكم على كل أحد وقوله (إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما) أى لا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره الله يتولاهما بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما وقوله (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أى فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل فى أموركم وشئونكم بل الزموا العدل على أى حال كان كما قال تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملنى حبى إياه ، وبغضى لكم على أن لا أعدل فيكم فقالوا بهذا قامت السموات والأرض وسيأتى الحديث مسندا فى سورة المائدة إن شاء الله تعالى وقوله (وإن تلووا أو تعرضوا) قال مجاهد وغير واحد من السلف تلووا أى تحرفوا الشهادة وتغيروها واللى هو التحريف وتعمد الكذب قال تعالى (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب) الآية والاعراض هو كتمان الشهادة وتركها قال تعالى (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « خير الشهداء الذى يأتى بالشهادة قبل أن يسئلها » ولهذا توعدهم الله بقوله (فان الله كان بما تعملون خبيراً) أى وسيجازيكم بذلك

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ

مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه كما يقول المؤمن فى كل صلاة (اهدنا الصراط المستقيم) أى بصرنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه فأمرهم بالإيمان به وبرسوله كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله) وقوله (والكتاب الذى نزل على رسوله) يعنى القرآن (والكتاب الذى أنزل من قبل) وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة وقال فى القرآن نزل لأنه نزل مفرقا منجما على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد فى معاشهم ومعادهم وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة لهذا قال تعالى (والكتاب الذى أنزل من قبل) ثم قال تعالى (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) أى فقد خرج عن طريق الهدى وبعد عن القصد كل البعد

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا * بَشِّرِ الْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾

يخبر تعالى عمن دخل فى الإيمان ثم رجع عنه ثم عاد فيه ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فانه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا مخرجا ولا طريقا إلى الهدى ولهذا قال (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حفص بن جميع عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى (ثم ازدادوا كفراً) قال تمادوا على كفرهم حتى ماتوا وكذا قال مجاهد وروى ابن أبى حاتم من طريق جابر المعلى عن عامر الشعبى عن على رضى الله عنه أنه قال : يستتاب المرتد ثلاثا ثم تلا هذه الآية (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) ثم قال (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما) يعنى أن المنافقين من هذه الصفة فانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين بمعنى أنهم معهم فى الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ويقولون لهم إذا خلوا بهم إنما نحن معكم إنما نحن مستهزءون أى بالمؤمنين فى اظهارنا لهم الموافقة قال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين (أيبتغون عندهم العزة) ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ولمن جعلها له كما قال تعالى فى الآية الأخرى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) وقال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والاقبال على عبوديته والانتظام فى جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا أبو بكر بن عياش عن حميد الكندى عن عبادة بن نسى عن أبى ريحانة أن النبى ﷺ قال « من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزا وفخرا فهو عاشرهم فى النار » تفرد به أحمد وأبو ريحانة هذا هو أزدى ويقال أنصارى واسمه شمعون بالمعجمة فيما قاله البخارى وقال غيره بالمهملة والله أعلم وقوله (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم) أى إنكم إذا ارتكبتم النهى بعد وصوله إليكم ورضيتم

بالجلوس معهم فى المكان الذى يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم فى الذى هم فيه فلهذا قال تعالى (إنكم إذا مثلهم) فى المأثم كما جاء فى الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » والذى أحيل عليه فى هذه الآية من النهى فى ذلك هو قوله تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم) الآية قال مقاتل بن حيان نسخت هذه الآية التى فى سورة الأنعام يعنى نسخ قوله (إنكم إذاً مثلهم ـ لقوله ـ وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون) وقوله (إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً) أى كما أشركوهم فى الكفر كذلك يشارك الله بينهم فى الخلود فى نار جهنم أبدا ويجمع بينهم فى دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزلال

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء بمعنى ينتظرون زوال دولتهم وظهور الكفرة عليهم وذهاب ملتهم (فإن كان لكم فتح من الله) أى نصر وتأييد وظفر وغنيمة (قالوا ألم نكن معكم) أى يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة (وإن كان للكافرين نصيب) أى إدالة على المؤمنين فى بعض الأحيان كما وقع يوم أحد فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة (قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) أى ساعدناكم فى الباطن وما ألوناهم خبالا وتخذيلا حتى انتصرتم عليهم وقال السدى نستحوذ عليكم نغلب عليكم كقوله (استحوذ عليهم الشيطان) وهذا أيضا تودد منهم إليهم فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم قال تعالى (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) أى بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً فى الحياة الدنيا لما له فى ذلك من الحكمة فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما فى الصدور وقوله (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) قال عبد الرزاق أنبأنا الثورى عن الأعمش عن ذر عن سبيع الكندى قال جاء رجل الى على بن أبى طالب فقال كيف هذه الآية (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) فقال على رضى الله عنه ادنه ادنه فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وكذا روى ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا قال ذاك يوم القيامة وكذا روى السدى عن أبى مالك الأشجعى يعنى يوم القيامة وقال السدى سبيلا أى حجة ويحتمل أن يكون المعنى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا أى فى الدنيا بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس فان العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) الآية وعلى هذا يكون ردا على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفا على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال تعالى (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ـ إلى قوله ـ نادمين) وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولى العلماء وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافرين لما فى صحة ابتياعه من التسليط له عليه والاذلال ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه فى الحال لقوله تعالى (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا)

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

قدتقدم فى أول سورة البقرة قوله تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا) وقال ههنا (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ولا شك أن الله لا يخادع فإنه العالم بالسرائر والضمائر ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة وأن أمرهم يروج عنده كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده كما قال تعالى (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) الآية وقوله (وهو خادعهم) أى هو الذى يستدرجهم فى طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول اليه فى الدنيا وكذلك يوم القيامة كما قال تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم - إلى قوله - وبئس المصير) وقد ورد فى الحديث « من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به » وفى الحديث الآخر « إن الله يأمر بالعبد إلى الجنة فيما يبدو للناس ويعدل به إلى النار » عياذاً بالله من ذلك وقوله (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) الآية هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها وهى الصلاة إذا قاموا اليها قاموا وهم كسالى عنها لأنهم لا نية لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا خشية ولا يعقلون معناها كما روى ابن مردويه من طريق عبيد الله بن زحر عن خالد بن أبى عمران عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ولكن يقوم اليها طلق الوجه ، عظيم الرغبة شديد الفرح ، فإنه يناجى الله وان الله تجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه ثم يتلو هذه الآية ، (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وروى من غير هذا الوجه عن ابن عباس نحوه فقوله تعالى (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) هذه صفة ظواهرهم كما قال (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال (يراءون الناس) أى لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة . ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التى لا يرون فيها غالبا كصلاة العشاء فى وقت العتمة وصلاة الصبح فى وقت الغلس كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون مافيهما لأتوهما ولو حبواً ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلى بالناس ثم أنطلق معى برجال ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » وفى رواية « والذى نفسى بيده لو علم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد الصلاة ولولا مافى البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار » وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد بن إبراهيم بن أبى بكر المقدمى ، حدثنا محمد بن دينار عن إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل » وقوله (ولا يذكرون الله إلا قليلا) أى فى صلاتهم لا يخشون ولا يدرون مايقولون بل هم فى صلاتهم ساهون لاهون وعما يراد بهم من الخير معرضون وقد روى الإمام مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق : يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا » وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث إسماعيل بن جعفر المدنى عن العلاء ابن عبد الرحمن به وقال الترمذى حسن صحيح وقوله (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) يعنى المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر فلاهم مع المؤمنين ظاهرا وباطنا ولا مع الكافرين ظاهرا وباطنا بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) الآية : وقال مجاهد (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء) يعنى أصحاب محمد ﷺ (ولا إلى هؤلاء) يعنى اليهود وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة[1] بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ولا تدرى أيهما

(١) العائرة بالهمزة من عارت الشاة بين الفحلين إذا ترددت بينهما لاتدرى أيهما ينزو عليها .

تتبع » تفرد به مسلم وقد رواه عن محمد بن المثنى مرة أخرى عن عبد الوهاب فوقف به على ابن عمر ولم يرفعه قال حدثنا به عبد الوهاب مرتين كذلك قلت وقد رواه الإمام أحمد عن إسحق بن يوسف بن عبيد الله به مرفوعا وكذا رواه إسماعيل بن عياش وعلى بن عاصم عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر مرفوعا وكذا رواه عثمان بن محمد بن أبى شيبة عن عبدة عن عبد الله به مرفوعا ورواه حماد بن سلمة عن عبيد الله أو عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر مرفوعا . ورواه أيضا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله وقال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا الهذيل بن بلال عن ابن أبى عبيد أنه جلس ذات يوم بمكة وعبد الله بن عمر معه فقال ابن أبى عبيد قال أبى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الربضين من الغنم إن أتت هؤلاء نطحتها وإن أتت هؤلاء نطحتها » فقال له ابن عمر كذبت فأثنى القوم على أبى خيراً أو معروفا فقال ابن عمر ما أظن صاحبكم إلا كما تقولون ولكنى شاهدى الله إذ قال كالشاة بين الغنمين ، فقال هو سواء فقال هكذا سمعته . قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا المسعودى عن ابن جعفر محمد بن على قال بينا عبيد بن عمير يقص وعنده عبد الله بن عمر فقال عبيد ابن عمير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل المنافق كالشاة بين ربضين إذا أتت هؤلاء نطحتها وإذا أتت هؤلاء نطحتها » فقال ابن عمر ليس كذلك إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كشاة بين غنمين » قال فاحتفظ الشيخ وغضب فلما رأى ذلك ابن عمر قال أما إنى لو لم أسمعه لم أردد ذلك عليك . (طريقة أخرى عن ابن عمر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عثمان بن مادويه عن يعفر بن زودى قال: سمعت عبيد بن عمير وهو يقص يقول قال رسول الله ﷺ « مثل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين » فقال ابن عمر : ويلكم لا تكذبوا على رسول الله ﷺ ، إنما قال رسول الله ﷺ « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين » ورواه أحمد أيضا من طرق عن عبيد بن عمير عن ابن عمر ، ورواه ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله هو ابن مسعود قال : مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد فوقع أحدهم فعبر ، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادى ناداه الذى على شفير الوادى ويلك أين تذهب إلى الهلكة ارجع عودك على بدئك ، وناداه الذى عبر هلم إلى النجاة ، فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة ، قال فجاءه سيل فأغرقه ، فالذى عبر هو المؤمن ، والذى غرق المنافق (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) والذى مكث الكافر وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا شعبة عن قتادة (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) يقول ليسوا بمؤمنين مخلصين ، ولا مشركين مصرحين بالشرك ، قال وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يضرب مثلا للمؤمن وللمنافق وللكافر كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر فوقع المؤمن فقطع ، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر أن هلم إلى فإنى أخشى عليك ، وناداه المؤمن أن هلم إلى فان عندى وعندى يحظى[1] له ما عنده ، فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى أذى[2] فغرقه وإن المنافق لم يزل فى شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك قال وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول « مثل المنافق كمثل ثاغية بين غنمين رأت غنما على نشز فأتتها وشامتها فلم تعرف ، ثم رأت غنما على نشز فأتتها فشامتها فلم تعرف » ولهذا قال تعالى (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) أى ومن صرفه عن طريق الهدى (فلن تجد له وليا مرشدا) فانه (من يضلل الله فلا هادى له) والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادى لهم ، ولا منقذ لهم مما هم فيه ، فانه تعالى لا معقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا * إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟

(١) فى نسخة ابن جرير : ويحصى بالصاد (٢) وفيه أتى عليه الماء .

وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً * مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعنى مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم ، كما قال تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه) أى يحذركم عقوبته فى ارتكابكم نهيه ، ولهذا قال ههنا (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) أى حجة عليكم فى عقوبته إياكم . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قوله (سلطانا مبينا قال كل سلطان فى القرآن حجة وهذا إسناد صحيح ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظى والضحاك والسدى والنضر بن عربى ، ثم أخبر تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) أى يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ . قال الوالبى عن ابن عباس (فى الدرك الأسفل من النار) أى فى أسفل النار ، وقال غيره النار دركات كما أن الجنة درجات ، وقال سفيان الثورى عن عاصم عن ذكوان أبى صالح عن أبى هريرة (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال فى توابيت ترتج عليهم . كذا رواه ابن جرير عن ابن وكيع عن يحيى بن يمان عن سفيان الثورى به ، ورواه ابن أبى حاتم عن المنذر بن شاذان عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن عاصم عن أبى صالح عن أبى هريرة (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم ، قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن خيثمة عن عبد الله يعنى ابن مسعود (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال فى توابيت من نار تطبق عليهم أى مغلقة مقفلة ، ورواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج عن وكيع عن سفيان عن سلمة عن خيثمة عن ابن مسعود (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال فى توابيت من حديد مبهمة عليهم ، ومعنى قوله مبهمة أى مغلقة مقفلة لا يهتدى لمكان فتحها ، وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو أسامة حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا على بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود سئل عن المنافقين فقال : يجعلون فى توابيت من نار تطبق عليهم فى أسفل درك من النار (ولن تجد لهم نصيراً) أى ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب ، ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم فى الدنيا تاب عليه وقبل ندمه إذا أخلص فى توبته وأصلح عمله ، واعتصم بربه فى جميع أمره فقال تعالى (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) أى بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قل ، قال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أنبأنا ابن وهب أخبرنى يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن خالد بن أبى عمران عن عمران عن عمرو بن مرة عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال « أخلص دينك يكفك القليل من العمل » (فأولئك مع المؤمنين) أى فى زمرتهم يوم القيامة (وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما) ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عما سواه وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم فقال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) أى أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله (وكان الله شاكراً عليما) أى من شكر شكر له . ومن آمن قلبه به علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء

﴿ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً * إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية يقول لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوما فانه قد أرخص له يدعو على من ظلمه وذلك قوله (إلا من ظلم) وإن صبر فهو خير له وقال أبو داود حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبى حدثنا

سفيان عن حبيب عن عطاء عن عائشة قال سرق لها شيء فجعلت تدعو عليه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تسبخى عنه » وقال الحسن البصرى لا يدع عليه وليقل اللهم أعنى عليه واستخرج حقى منه وفى رواية عنه قال قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه وقال عبد الكريم بن مالك الجزرى فى هذه الآية هو الرجل يشتمك فتشتمه ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه لقوله (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل) وقال أبو داود حدثنا القعنبى حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما مالم يعتد المظلوم » وقال عبد الرزاق أنبأنا المثنى بن الصباح عن مجاهد فى قوله (لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) قال ضاف رجل رجلا فلم يؤد اليه حق ضيافته فلما خرج أخبر الناس فقال ضفت فلانا فلم يؤد إلىّ حق ضيافتى قال فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم حتى يؤدى الآخر اليه حق ضيافته وقال ابن إسحق عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) قال : قال هو الرجل ينزل بالرجل فلايحسن ضيافته فيخرج فيقول أساء ضيافتى ولم يحسن وفى رواية هو الضيف المحول رحله فانه يجهر لصاحبه بالسوء من القول وكذا روى عن غير واحد عن مجاهد نحو هذا وقد روى الجماعة سوى النسائى والترمذى من طريق الليث بن سعد والترمذى من حديث ابن لهيعة كلاهما عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير مرثد بن عبد الله عن عقبة بن عامر قال: قلنا يارسول الله إنك تبعثنا فننزل بقوم فلايقرونا فما ترى فى ذلك ؟ «فقال إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا منهم وان لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم » وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت أبا الجودى يحدث عن سعيد بن المهاجر عن المقدام بن أبى كريمة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيما مسلم ضاف قوما فأصبح الضيف محروما فإن حقا على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال أحمد أيضا حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة عن منصور عن الشعبى عن المقدام بن أبى كريمة سمع رسول الله ﷺ يقول « ليلة الضيف واجبة على كل مسلم فإن أصبح بفنائه محروما كان دينا عليه فان شاء اقتضاه وإن شاء تركه » ثم رواه أيضا عن غندر عن شعبة . وعن زياد بن عبد الله البكائى عن وكيع وأبى نعيم عن سفيان الثورى ثلاثتهم عن منصور به ، وكذا رواه أبو داود من حديث أبى عوانة عن منصور به. ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمد وغيره الى وجوب الضيافة ومن هذا القبيل الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا محمد بن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : إن لى جارا يؤذينى فقال له : « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق فكل من مر به قال : مالك ؟ قال جارى يؤذينى فيقول اللهم العنه اللهم أخزه قال : فقال الرجل ارجع إلى منزلك والله لا أوذيك أبدا ، وقد رواه أبو داود فى كتاب الأدب عن أبى توبة الربيع عن نافع عن سليمان ابن حيان أبى خالد الأحمر عن محمد بن عجلان به ثم قال البزار : لانعلمه يروى عن أبى هريرة إلا بهذا الإسناد ورواه أبو جحيفة وهب بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم ويوسف بن عبد الله بن سلام عن النبى صلى الله عليه وسلم وقوله (إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) أى إن تظهروا أيها الناس خيرا أو أخفيتموه أو عفوتم عمن أساء إليكم فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه فان من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ولهذا قال : (فإن الله كان عفوا قديرا) ولهذا ورد فى الأثر أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم سبحانك على حلمك بعد علمك ويقول بعضهم سبحانك على عفوك بعد قدرتك ، وفى الحديث الصحيح «مانقص مال من صدقة ولازاد الله عبدا بعفو إلا عزا ومن تواضع لله رفعه »

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا

مُّهِيناً * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم لاعن دليل قادهم إلى ذلك فإنه لاسبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصبية فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ والسامرة لايؤمنون بنبيّ بعد يوشع خليفة موسى بن عمران ، والمجوس يقال إنهم كانوا يؤمنون بنبيّ لهم يقال له زرادشت ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم ، والمقصود أن من كفر بنبيّ من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء فان الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله الى أهل الأرض فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً إنما هو عن غرض وهوى وعصبية ولهذا قال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله) فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله) أي في الإيمان (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) أي طريقا ومسلكا ثم أخبر تعالى عنهم فقال (أولئك هم الكافرون حقا) أي كفرهم محقق لامحالة بمن ادعوا الإيمان به لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلا وأقوى برهانا منه أو نظروا حق النظر في نبوته وقوله (وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً) أي كما استهانوا بمن كفروا به إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لاضرورة بهم اليه وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه فسلط الله عليهم الذل الدنيوى الموصول بالذل الأخروى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) في الدنيا والآخرة وقوله (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) يعني بذلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم فانهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبيّ بعثه الله كما قال تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله) الآية ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل فقال (أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) على ما آمنوا بالله ورسله (وكان الله غفورا رحيما) أي لذنوبهم أي إن كان لبعضهم ذنوب

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُّبِيناً * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾

وقال محمد بن كعب القرظى والسدى وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة قال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك كما هو مذكور في سورة سبحان (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) الآيات ولهذا قال تعالى (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) أي بطغيانهم وبغيهم . وعتوهم وعنادهم وهذا مفسر في سورة البقرة حيث يقول تعالى (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) وقوله تعالى (ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات) أي من بعد مارأوا من الآيات

الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام فى بلاد مصر وما كان من إهلاك عدوهم فرعون وجميع جنوده فى اليم فما جاوزوه إلا يسيرا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) الآيتين ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة فى سورة الأعراف وفى سورة طه بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل ثم لما رجع وكان ما كان جعل الله توبتهم من الذى صنعوه وابتدعوه أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده فجعل يقتل بعضهم بعضا ، ثم أحياهم الله عز وجل وقال الله تعالى (فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا) ثم قال (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام رفع الله على رءوسهم جبلا ، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا وجعلوا ينظرون إلى فوق رءوسهم خشية أن يسقط عليهم كما قال تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة) الآية (وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا) أى فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل فانهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجدا وهم يقولون حطة . أى اللهم حط عنا ذنوبنا فى تركنا الجهاد ونكولنا عنه حتى تهنا فى التيه أربعين سنة فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة فى شعرة (وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت) أى وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم مادام مشروعا لهم (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) أى شديدا فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل ، كما هو مبسوط فى سورة الأعراف عند قوله . (واسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) الآيات وسيأتى حديث صفوان بن عسال فى سورة سبحان عند قوله . (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وفيه : وعليكم خاصة يهود أن لا تعدوا فى السبت .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

وهذا من الذنوب التى ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى وهو نقضهم المواثيق والعهود التى أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات الله ، أى حججه وبراهينه ، والمعجزات التى شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام ، قوله : (وقتلهم الأنبياء بغير حق) وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله فانهم قتلوا جما غفيرا من الأنبياء عليهم السلام وقولهم (قلوبنا غلف) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى وقتادة وغير واحد أى فى غطاء وهذا كقول المشركين (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) الآية وقيل معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم أى أوعية للعلم قد حوته وحصلته ، رواه الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس وقد تقدم نظيره فى سورة البقرة قال الله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعى ما يقول لأنها فى غلف وفى أكنة قال الله بل هى مطبوع عليها بكفرهم وعلى القول الثانى عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه وقد تقدم الكلام على مثل هذا فى سورة البقرة (فلا يؤمنون إلا قليلا) أى تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان . وقلة الإيمان (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أنهم رموها بالزنا وكذلك قال السدى وجويبر ومحمد بن إسحق وغير واحد وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك زاد بعضهم وهى حائض فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وقولهم (إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) أى هذا الذى يدعى لنفسه هذا المنصب

قتلناه وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء كقول المشركين (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه أنه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التى كان يبرىء بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين طائرا ثم ينفخ فيه فيكون طائرا يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل إلى غير ذلك من المعجزات التى أكرمه الله بها وأجراها على يديه ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا فى أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم فى بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان وكان رجلا مشركا من عبدة الكواكب وكان يقال لأهل ملته اليونان وأنهوا إليه أن فى بيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس فلما وصل الكتاب امتثل والى بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام وهو فى جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نفرا وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت فحصروه هنالك . فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم قال لأصحابه أيكم يلقى عليه شبهى وهو رفيقى فى الجنة فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب فقال : أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو وفتحت روزنة من سقف البيت وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك كما قال الله تعالى (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) الآية فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه فى الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه وأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه وتبجحوا بذلك وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ماعدا من كان فى البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه . وأما الباقون فانهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح بن مريم حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ويقال إنه خاطبها والله أعلم ، وهذا كله من امتحان الله عباده لما له فى ذلك من الحكمة البالغة . وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره فى القرآن العظيم الذى أنزله على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات فقال تعالى وهو أصدق القائلين ورب العالمين المطلع على السرائر والضمائر الذى يعلم السر فى السموات والأرض العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أى رأوا شبهه فظنوه إياه ولهذا قال (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) يعنى بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ولهذا قال : (وما قتلوه يقينا) أى وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين (بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا) أى منيع الجناب لا يرام جنابه ولا يضام من لاذ ببابه (حكيما) أى فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التى يخلقها وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى قال : ثم قال أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له : اجلس ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال : اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا فقال : هو أنت ذاك فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء قال وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق فقالت فرقة كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية وقالت فرقة كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان

على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه وكذا ذكره غير واحد من السلف أنه قال لهم أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني وهو رفيقي في الجنة

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمي عن هرون بن عنترة عن وهب بن منبه قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليه صورهم الله عز وجل كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم سحرتمونا ليبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعا فقال عيسى لأصحابه من يشرى نفسه منكم اليوم بالجنة فقال رجل منهم أنا فخرج اليهم وقال أنا عيسى وقد صوره الله على صورة عيسى فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم فظنوا أنهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك وهذا سياق غريب جداً

قال ابن جرير : وقد روى عن وهب نحو هذا القول وهو ما حدثني المثنى حدثنا اسحاق حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاما فقال احضروني الليلة فإن لي اليكم حاجة فلما اجتمعوا اليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال ألا من رد على الليلة شيئاً مما أصنع فليس مني ولا أنا منه فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ماصنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة فانكم ترون أني خيركم فلا يتعاظم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم نفسه لبعض كما بذلت نفسي لكم وأما حاجتي الليلة التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء فجعل يوقظهم ويقول سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها فقالوا والله ماندري مالنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمرا وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال يذهب الراعي وتفرق الغنم ، وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعى به نفسه . ثم قال الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأ كلن ثمني . فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه وأخذوا شمعون أحد الحواريين وقالوا : هذا من أصحابه فجحد وقال ما أنا بصاحبه فتركوه . ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ماتجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه فاستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون له أنت كنت تحيي الموتى وتنهر الشيطان وتبرئ المجنون أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعاً ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى عليه السلام فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث المصلوب فجاءهما عيسى فقال : ماتبكيان ؟ فقالتا عليك فقال إني قد رفعني الله اليه ولم يصبني إلا خير وان هذا شبه لهم فأمرى الحواريين يلقوني إلى مكان كذا وكذا فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقدوا الذي كان باعه ودل عليه اليهود فسأل عنه أصحابه فقال : إنه ندم على ماصنع فاختنق وقتل نفسه فقال : لو تاب لتاب الله عليه . ثم سألهم عن غلام تبعهم يقال له يحيى فقال هو معكم فانطلقوا فانه سيصبح كل إنسان يحدث بلغة قومه فلينذرهم وليدعهم ، سياق غريب جداً

ثم قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن ابن إسحق قال : كان اسم ملك بني إسرائيل الذي بعث إلى عيسى ليقتله رجلا منهم يقال له داود فلما أجمعوا لذلك منه لم يفظع عبد من عباد الله بالموت فيما ذكر لي فظعه ولم يجزع منه جزعه ولم يدع الله في صرفه عنه دعاءه حتى إنه ليقول فيما يزعمون اللهم إن كنت صارفا هذه الكأس عن أحد من خلقك فاصرفها عني وحتى إن جلده من كرب ذلك ليتفصد دما فدخل المدخل الذي أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه وهم ثلاثة عشر بعيسى عليه السلام فلما أيقن أنهم داخلون عليه قال لأصحابه من الحواريين وكانوا اثنى عشر

رجلا[١] فرطوس، ويعقوبس، ويلاونحس أخو يعقوب، وأندرايس، وفيلبس، وابن يلما، ومنتا، وطوماس، ويعقوب بن حلقايا، ونداوسيس، وقتابيا، وليودس ركريا يوطا : قال ابن حميد قال سلمة قال ابن إسحق وكان فيهما ذكر لى رجل اسمه سرجس ، وكانوا ثلاثة عشر رجلا سوى عيسى عليه السلام جحدته النصارى وذلك أنه هو الذى شبه لليهود مكان عيسى قال فلا أدرى هو من هؤلاء الاثنى عشر أو كان ثالث عشر فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر عنه فإن كانوا ثلاثة عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر وإن كانوا اثنى عشر فإنهم دخلوا المدخل وهم ثلاثة عشر

قال ابن إسحق وحدثنى رجل كان نصرانيا فأسلم أن عيسى حين جاءه من الله إنى رافعك إلى ، قال يامعشر الحواريين أيكم يحب أن يكون رفيقى فى الجنة حتى يشبه القوم فى صورتى فيقتلوه فى مكانى فقال : سرجس أنا ياروح الله قال : فاجلس فى مجلسى فجلس فيه ، ورفع عيسى عليه السلام فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه فكان هو الذى صلبوه وشبه لهم به وكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة قد رأوهم فأحصوا عدتهم فلما دخلوا عليهم ليأخذوه وجدوا عيسى وأصحابه فيما يرون وفقدوا رجلا من العدة فهو الذى اختلفوا فيه وكانوا لا يعرفون عيسى حتى جعلوا ليودس ركريا يوطا ثلاثين درهما على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه فقال لهم إذا دخلتم عليه فانى سأقبله وهو الذى أقبل فخذوه فلما دخلوا وقد رفع عيسى ورأى سرجس فى صورة عيسى فلم يشك أنه هو فأكب عليه فقبله فأخذوه فصلبوه . ثم أن ليودس ركريا يوطا ندم على ماصنع فاختنق بحبل حتى قتل نفسه وهو ملعون فى النصارى وقد كان أحد المعدودين من أصحابه وبعض النصارى يزعم أنه ليودس ركريا يوطا وهو الذى شبه لهم فصلبوه وهو يقول إنى لست بصاحبكم أنا الذى دللتكم عليه والله أعلم أى ذلك كان . وقال ابن جرير عن مجاهد صلبوا رجلا شبه بعيسى ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حياً واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقى على جميع أصحابه

وقوله تعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) قال ابن جرير اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك فقال بعضهم معنى ذلك (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يعنى قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال فتصير الملل كلها واحدة ، وهى ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . ﴿ذكر من قال ذلك﴾ : حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن أبى حصين عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال قبل موت عيسى بن مريم عليه السلام وقال العوفى عن ابن عباس مثل ذلك وقال أبو مالك فى قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : ذلك عند نزول عيسى وقبل موت عيسى بن مريم عليه السلام لايبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به وقال الضحاك عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يعنى اليهود خاصة وقال الحسن البصرى يعنى النجاشى وأصحابه رواهما ابن أبى حاتم وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا أبو رجاء عن الحسن (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال قبل موت عيسى والله إنه لحى الآن عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن عثمان اللاحقى حدثنا جويرية بن بشير قال سمعت رجلا قال للحسن يا أباسعيد قول الله عز وجل (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال قبل موت عيسى إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاما يؤمن به البر والفاجر . وكذا قال قتادة وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغير واحد وهذا القول هو الحق كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان قال ابن جرير وقال آخرون يعنى بذلك (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به) بعيسى قبل موت الكتاب ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل فى دينه قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قال لايموت يهودى حتى يؤمن بعيسى حدثنى المثنى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته قبل موت صاحب الكتاب . وقال ابن عباس لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى حدثنا ابن حميد حدثنا أبو تميلة يحي

(١) المنقول عن الكتب اليونانية المعول عليها نصه هكذا : سمعان الملقب بطرس ، وأندراوس ، ويعقوب بن زبدى ، ويوحنا ، وفيلبس ، وبرثولماوس ، وتوما ، ومتى العشار ، ويعقوب بن حلفى ، ولباوس الملقب تداوس ، وسمعان القانوى ، ويهوذا الاسخريوطى ، اهـ

ابن واضح حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس قال : لايموت اليهودى حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله ولو عجل عليه بالسلاح حدثنى إسحق بن إبراهيم وحبيب بن الشهيد حدثنا عتاب بن بشير عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال هى فى قراءة أبى قبل موتهم ليس يهودى يموت أبدا حتى يؤمن بعيسى قيل لابن عباس أرأيت إن خر من فوق بيت قال : يتكلم به فى الهوى قيل أرأيت إن ضربت عنق أحدهم قال : يلجلج بها لسانه وكذا روى سفيان الثورى عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال لايموت يهودى حتى يؤمن بعيسى عليه السلام وإن ضرب بالسيف تكلم به قال وإن هوى تكلم به وهو يهوى وكذا روى أبو داود الطيالسى عن شعبة عن أبى هرون الغنوى عن عكرمة عن ابن عباس فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس وكذا صح عن مجاهد وعكرمة ومحمد بن سيرين وبه يقول الضحاك وجويبر وقال السدى وحكاه عن ابن عباس ونقل قراءة أبى بن كعب قبل موتهم وقال عبد الرزاق عن إسرائيل عن فرات القزاز عن الحسن فى قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) قال لايموت أحدهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ماتقدم عنه ويحتمل أن يكون مراده ما أراده هؤلاء قال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابى ﴿ ذكر من قال ذلك ﴾ حدثنى ابن المثنى حدثنا الحجاج بن المنهال حدثنا حماد عن حميد قال : قال عكرمة لايموت النصرانى ولا اليهودى حتى يؤمن بمحمد ﷺ قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) ثم قال ابن جرير وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول وهو أنه لايبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير هو الصحيح لأنه المقصود من سياق الآى فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لايتبينون ذلك ثم إنه رفعه إليه وإنه باق حى وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التى سنوردها إن شاء الله قريباً فيقتل مسيح الضلالة ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية يعنى لايقبلها من أحد من أهل الأديان بل لايقبل إلا الاسلام أو السيف فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ولهذا قال . (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى قبل موت عيسى عليه السلام الذى زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) أى بأعمالهم التى شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض . فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابى لايموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلى له ما كان جاهلا به فيؤمن به ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعا له إذا كان قد شاهد الملك كما قال تعالى فى أول هذه السورة (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن) الآية وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) الآيتين وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير فى رد هذا القول حيث قال : ولو كان المراد بهذه الآية هذا لكان كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالمسيح ممن كفر بهما يكون على دينهما وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته فهذا ليس بجيد إذ لايلزم من إيمانه فى حالة لاينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلما ألا ترى قول ابن عباس : ولو تردى من شاهق أو ضرب بالسيف أو افترسه سبع فانه لابد أن يؤمن بعيسى فالإيمان به فى هذه الحال ليس بنافع ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه والله أعلم ومن تأمل هذا جيدا وأمعن النظر اتضح له أنه هو الواقع لكن لايلزم منه ان يكون المراد بهذه الآية هذا بل المراد بها الذى ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته فى السماء وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتصادمت وتعاكست وتناقضت وخلت عن الحق ففرط هؤلاء اليهود وأفرط هؤلاء النصارى تنقصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه ماليس فيه فرفعوه فى مقابلة أولئك عن مقام

النبوة إلى مقام الربوبية تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علوا كبيرا وتنزه وتقدس لا إله إلا هو

﴿ ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴾

قال البخاري رحمه الله في كتاب ذكر الأنبياء من صحيحه المتلقى بالقبول: نزول عيسى بن مريم عليه السلام، حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا يعقوب بن إبراهيم عن أبي صالح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) وكذا رواه مسلم عن الحسن الحلواني وعبد بن حميد كلاهما عن يعقوب به وأخرجه البخاري ومسلم أيضاً من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري به وأخرجاه من طريق الليث عن الزهري به ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن أبي حفصة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يقتل الدجال ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويفيض المال وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين» قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) موت عيسى بن مريم ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات (طريق أخرى) عن أبي هريرة قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا محمد بن أبي حفصة عن الزهري عن حنظلة بن علي الأسلمي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ليهلن عيسى بن مريم بفج الروحاء بالحج أو العمرة أو ليثنينهما جميعاً» وكذا رواه مسلم منفردا به من حديث سفيان بن عيينة والليث بن سعد ويونس بن يزيد ثلاثتهم عن الزهري به وقال أحمد حدثنا يزيد حدثنا سفيان هو ابن حسين عن الزهري عن حنظلة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ينزل عيسى بن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما» قال وتلا أبو هريرة (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) الآية فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال يؤمن به قبل موت عيسى فلا أدري هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي موسى محمد بن المثنى عن يزيد بن هرون عن سفيان بن حسين عن الزهري به (طريق أخرى) قال البخاري حدثنا أبو بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وإمامكم منكم» تابعه عقيل والأوزاعي وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن عثمان بن عمر عن ابن أبي ذئب كلاهما عن الزهري به وأخرجه مسلم من رواية يونس والأوزاعي وابن أبي ذئب به. (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا قتادة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وإني أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل: فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الاسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون» وكذا رواه أبو داود عن هدبة بن خالد عن همام بن يحيى ورواه ابن جرير ولم يورد عند هذه الآية سواه عن بشر بن معاذ عن يزيد بن هرون عن سعيد بن أبي عروبة كلاهما عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم وهو مولى أم برثن صاحب السقاية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكر نحوه وقال يقاتل الناس على الإسلام وقد روى البخاري عن أبي اليمان عن شعيب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم والأنبياء أولاد علات ليس

بنى وبينه نبى » ثم رواه محمد بن سنان عن فليح بن سليمان عن هلال بن على عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى عمرة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد » وقال إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن صفوان بن سليم عن عطاء بن بشار عن أبى هريرة قال قال : رسول الله ﷺ . (حديث آخر) قال مسلم فى صحيحه حدثنى زهير بن حرب حدثنا يعلى بن منصور حدثنا سليمان بن بلال حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون لا والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا . فيقاتلونهم فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله ويفتح الثلث لا يفتنون أبدا فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح قد خلفكم فى أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى بن مريم فيؤمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح فى الماء فلو تركه لذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه فى حربته » . (حديث آخر) قال أحمد حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب عن جبلة بن سحيم عن مؤثر بن غفارة عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال « لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال لا علم لى بها فردوا أمرهم إلى موسى فقال لا علم لى بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله وفيما عهد إلى ربى عز وجل أن الدجال خارج ومعى قضيبان فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله إذا رآنى حتى إن الحجر والشجر يقول يا مسلم إن تحتى كافرا فتعال فاقتله قال فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطئون بلادهم فلا يأتون على شىء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال ثم يرجع الناس يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر ففيما عهد إلى ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفاجئهم بولادها ليلا أو نهاراً » رواه ابن ماجه عن محمد بن بشار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب بنحوه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى نضرة قال أتينا عثمان بن أبى العاص فى يوم جمعة لنعرض عليه مصحفا لنا على مصحفه فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا ثم أتينا بطيب فتطيبنا ثم جئنا المسجد فجلسنا إلى رجل فحدثنا عن الدجال ثم جاء عثمان بن أبى العاص فقمنا إليه فجلسنا فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يكون للمسلمين ثلاثة أمصار مصر بملتقى البحرين ومصر بالحيرة ومصر بالشام ففزع الناس ثلاث فزعات فيخرج الدجال فى أعراض الناس فيهزم من قبل المشرق فأول مصر يرده المصر الذى بملتقى البحرين فيصير أهلها ثلاث فرق فرقة تقول نقيم نشامه ننظر ماهو وفرقة تلحق بالأعراب وفرقة تلحق بالمصر الذى يليهم ومع الدجال سبعون ألفاً عليهم التيجان وأكثر من معه اليهود والنساء وينحاز المسلمون إلى عقبة أفيق فيبعثون سرحا لهم فيصاب سرحهم فيشتد ذلك عليهم ويصيبهم مجاعة شديدة وجهد شديد حتى ان أحدهم ليحرق وتر قوسه فيأكله فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من الشجر يا أيها الناس أتاكم الغوث « ثلاثا » فيقول بعضهم لبعض إن هذا الصوت رجل شبعان وينزل عيسى بن مريم عليه السلام عند صلاة الفجر فيقول له أميرهم يا روح الله تقدم صل فيقول هذه الأمة أمراء بعضهم على بعض فيتقدم أميرهم فيصلى حتى إذا قضى صلاته أخذ عيسى حربته فيذهب نحو الدجال فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الرصاص فيضع حربته بين ثندوته فيقتله ويهزم أصحابه فليس يومئذ شىء يوارى منهم أحداً حتى إن الشجرة تقول يامؤمن هذا كافر ويقول الحجر يامؤمن هذا كافر» تفرد به أحمد من هذا الوجه . (حديث آخر) قال أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه فى سننه حدثنا على بن محمد حدثنا عبد الرحمن المحاربى عن إسماعيل بن رافع أبى رافع عن أبى زرعة الشيبانى يحيى ابن أبى عمرو عن أبى أمامة الباهلى قال خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثا حدثناه عن الدجال

وحذرناه فكان من قوله أن قال « لم تكن فتنة فى الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام أعظم من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة فان يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيج كل مسلم وإن يخرج من بعدى فكل حجيج نفسه وإن الله خليفتى على كل مسلم وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق فيعيث يمينا ويعيث شمالا ، ألا يا عباد الله : أيها الناس فاثبتوا وإنى سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبى قبلى : إنه يبدأ فيقول أنا نبى فلا نبى بعدى ، ثم يثنى فيقول أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا ، وإنه أعور وإن ربكم عز وجل ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، وإن من فتنته أن معه جنة ونارا فناره جنة وجنته نار فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردا وسلاما كما كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم ، وإن من فتنته أن يقول الأعرابى أرأيت إن بعثت لك أمك وأباك أتشهد أنى ربك ؟ فيقول نعم ، فيتمثل له شيطان فى صورة أبيه وأمه فيقولان يا بنى اتبعه فانه ربك ، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فينشرها بالمنشار حتى تلقى شقتين ثم يقول انظر إلى عبدى هذا فانى أبعثه الآن ثم يزعم أن له ربا غيرى ، فيبعثه الله فيقول له الخبيث من ربك فيقول ربى الله ، وأنت عدو الله الدجال ، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك منى اليوم »

قال أبو حسن الطنافسى حدثنا المحاربى حدثنا عبيد الله بن الوليد الرصافى عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « ذلك الرجل أرفع أمتى درجة فى الجنة » قال : قال أبو سعيد والله ما كنا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله

ثم قال المحاربى: رجعنا إلى حديث أبى رافع قال وإن من فتنته : أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت وإن من فتنته أن يمر بالحى فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت ، وإن من فتنته أن يمر بالحى فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمده خواصر وأدره ضروعا وأنه لا يبقى شىء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة فانه لا يأتيهما من نقب من نقابها إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة حتى ينزل عند الظريب الأحمر عند منقطع السبخة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه فينفى الخبث منها كما ينفى الكير خبث الحديد ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص . فقالت أم شريك بنت أبى العكر يا رسول الله فأين العرب يومئذ ؟ قال « هم قليل وجلهم يومئذ ببيت المقدس وإمامهم رجل صالح فبينما إمامهم قد تقدم يصلى بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم عليه السلام فرجع ذلك الإمام يمشى القهقرى ليتقدم عيسى عليه السلام فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول : تقدم فصل فانها لك أقيمت فيصلى بهم امامهم فإذا انصرف قال عيسى افتحوا الباب فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلى وتاج فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح فى الماء وينطلق هاربا فيقول عيسى إن لى فيك ضربة لن تسبقنى بها فيدركه عند باب لد الشرقى فيقتله ويهزم الله اليهود فلا يبقى شىء مما خلق الله تعالى يتوارى به يهودى إلا أنطق الله ذلك الشىء لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا الغرقدة فانها من شجرهم لا تنطق إلا قال يا عبد الله المسلم : هذا يهودى فتعال اقتله . قال رسول الله ﷺ « وإن أيامه أربعون سنة ، السنة كنصف السنة والسنة كالشهر والشهر كالجمعة وآخر أيامه كالشررة يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسى » فقيل له كيف نصلى يا نبى الله فى تلك الأيام القصار ؟ قال « تقدرون الصلاة كما تقدرون فى هذه الأيام الطوال ثم صلوا » قال رسول الله ﷺ « فيكون عيسى بن مريم فى أمتى حكما عدلا وإماما مقسطا يدق الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة فلا يسعى على شاة ولا بعير وترتفع الشحناء والتباغض وتنزع حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده فى الحية فلا تضره وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها ، ويكون الذئب فى الغنم كأنه كلبها وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الأناء من الماء وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله وتضع الحرب أوزاها وتسلب قريش ملكها وتكون الأرض لها نور الفضة وتنبت نباتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ، ويكون

الثور بكذا وكذا من المال ويكون الفرس بالدريهمات » قيل يارسول الله وما يرخص الفرس ؟ قال : « لاتركب لحرب أبداً » قيل له فما يغلى الثور ؟ قال يحرث الأرض كلها وان قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد ويأمر الله السماء فى السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها ، ثم يأمر الله السماء فى السنة الثانية فتحبس ثلثى مطرها ويأمر الأرض فتحبس ثلثى نباتها ثم يأمر الله عز وجل السماء فى السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلاتقطر قطرة ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء فلا تبقى ذات ظلف الاهلكت إلا ماشاء الله » قيل فمايعيش الناس فى ذلك الزمان قال « التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد ويجرى ذلك عليهم مجرى الطعام » . قال ابن ماجه سمعت أبا الحسن الطنافسى يقول سمعت عبدالرحمن المحاربى يقول ينبغى أن يدفع هذا الحديث إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان فى الكتاب هذا حديث غريب جدا من هذا الوجه ولبعضه شواهد من أحاديث أخر من ذلك ما رواه مسلم وحديث نافع وسالم عن عبد الله بن عمر وقال : قال رسول الله ﷺ « لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر يامسلم هذا يهودى فتعال فاقتله » وله من طريق سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يامسلم ياعبدالله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله ـ الا الغرقد فانه من شجر اليهود » ولنذكر حديث النواس بن سمعان ههنا لشبهه بهذا الحديث .قال مسلم فى صحيحه حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب حدثنا الوليد بن مسلم حدثنى عبدالرحمن بن يزيد بن جابر حدثنى جابر بن يحيى الطائى قاضى حمص حدثنى عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جبير بن نفير الحضرمى أنه سمع النواس بن سمعان الكلابى (ح) وحدثنا محمد بن مهران الرازى حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن جابر الطائى عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جبير بن نفير عن النواس ابن سمعان قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فى طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فى وجوهنا فقال « ماشأنكم » قلنا يارسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل قال «غير الدجال أخوفنى عليكم ان يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم . انه شاب قطط عينه طافية كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج من خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا ياعباد الله فاثبتوا » قلنا : يارسول الله فما لبثه فى الأرض ؟ قال « أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم » قلنا يارسول الله وذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال « لا . اقدروا له قدره » قلنا يارسول الله وما اسراعه فى الأرض ؟ قال « كالغيث استدبرته الريح فيأتى على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعا وأمده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليهم قوله فينصرف عنهم فيصبحون محلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه كجمان اللؤلؤ ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلامات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتى عيسى عليه السلام قوما قدعصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل الى عيسى انى قد أخرجت عبادا لى لايدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحصر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى (1) كموت نفس واحدة . ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه الى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأ زهمهم ونتنهم

(1) فرسى كهلكى وزناومعنى ومنه الافتراس وهو جمع فريس كقتلى جمع قتيل

فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة (١) ثم يقال للأرض أخرجى ثمرك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويبارك الله فى الرسل حتى ان اللقحة من الإبل لتكفى الفئام (٢) من فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » ورواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عبدالرحمن بن يزيد بن جابر به وسنذكره أيضاً من طريق أحمد عند قوله تعالى فى سورة الأنبياء (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) الآية (حديث آخر) قال مسلم فى صحيحه أيضا حدثنا عبدالله بن معاذ العنبرى حدثنا أبى حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم قال سمعت يعقوب بن عاصم ابن عروة بن مسعود الثقفى يقول سمعت عبد الله بن عمرو وجاءه رجل فقال ماهذا الحديث الذى تحدث به تقول ان الساعة تقوم الى كذا وكذا فقال سبحان الله أو لا إله الا الله أو كلمة نحوهما لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئا أبدا إنما قلت انكم سترون بعد قليل أمراً عظيما : يحرق البيت ويكون ويكون ثم قال : قال رسول الله ﷺ « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهراً أو أربعين عاما فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم كانه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير — أو إيمان — الا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه » قال سمعتها من رسول الله ﷺ « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون فيقولون فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم فى ذلك دارر زقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد الا أصغى ليتا ورفع ليتا ، قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله — أو قال — ينزل الله مطرا كأنه الطل — أو قال الظل نعمان الشاك — فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى إذا هم قيام ينظرون . ثم يقال أيها الناس هلموا الى ربكم (وقفوهم إنهم مسئولون) ثم يقال أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوما يجعل الولدان شيباً وذلك يوم يكشف عن ساق » ثم رواه مسلم والنسائى فى تفسيره جميعاً عن محمد بن بشار عن غندر عن شعبة عن نعمان بن سالم به (حديث آخر) قال الإمام أحمد أخبرنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة الأنصارى عن عبدالله بن زيد الأنصارى عن مجمع بن جارية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لد — أو الى جانب لد — » ورواه أحمد أيضا عن سفيان ابن عيينة من حديث الليث والأوزاعى ثلاثتهم عن الزهرى عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة عن عبدالرحمن بن يزيد عن عمه مجمع بن جارية عن رسول الله ﷺ قال « يقتل ابن مريم الدجال بباب لد » وكذا رواه الترمذى عن قتيبة عن الليث به وقال هذا حديث صحيح قال وفى الباب عن عمران بن حصين ونافع بن عيينة وأبى برزة وحذيفة بن أسيد وأبى هريرة وكيسان وعثمان بن أبى العاص وجابر وأبى أمامة وابن مسعود وعبدالله بن عمرو وسمرة بن جندب والنواس بن سمعان وعمرو ابن عوف وحذيفة بن اليمان رضى الله عنهم . ومراده برواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال وقتل عيسى بن مريم عليه السلام له فأما أحاديث ذكر الدجال فقط فكثيرة جدا وهى أكثر من أن تحصى لانتشارها وكثرة روايتها فى الصحاح والحسان والمسانيد وغير ذلك (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن فرات عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى بن مريم والدجال ، وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق — أو تحشر — الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث فرات القزاز به ورواه مسلم أيضا من رواية عبدالعزيز بن رفيع عن أبى الطفيل عن أبى شريحة عن حذيفة بن أسيد الغفارى موقوفا والله أعلم فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبى هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبى العاص وأبى أمامة والنواس بن سمعان وعبد الله

(١) الزلفة بالتحريك المرآة (٢) الرسل بالتحريك القطيع الجمع أرسال واللقحة بالكسر وبالفتح لغة وهى ذات اللبن والفئام الجماعة .

ابن عمرو بن العاص ومجمع بن جارية وأبي شريحة وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح وقد بنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأموي بيضاء من حجارة منحوتة عوضا عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وكان أكثر عمارتها من أموالهم وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين وهـذا إخبار من النبي ﷺ بذلك وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان حيث تنزاح عللهم وترتفع شبههم من أنفسهم ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعين لعيسى عليه السلام وعلى يديه ولهـذا قال تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) الآية وهذه الآية كقوله (وإنه لعلم للساعة) وقرئ (لعلم) بالتحريك أي أمارة ودليل على اقتراب الساعة وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه كما ثبت في الصحيح أن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء ويبعث الله في أيامه يأجوج ومأجوج فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه وقد قال تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق) الآية

﴿ صفة عيسى عليه السلام ﴾

قد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة « فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل » وفي حديث النواس بن سمعان « فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان اللؤلؤ ، ولا يحل لكافر أن يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث انتهى طرفه » وروى البخاري ومسلم من طريق الزهري عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ليلة أسري بي لقيت موسى » قال فنعته فإذا رجل أحسبه قال مضطرب رجـل الرأس كأنه من رجال شنوءة » قال « ولقيت عيسى » فنعته النبي ﷺ فقال « ربعة أحمر كأنه خرج من ديماس » يعني الحمام « ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث وروى البخاري من حديث مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت موسى وعيسى وإبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط » وله ولمسلم من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر ذكر النبي ﷺ يوما بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال « إن الله ليس بأعور ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية ولمسلم عنه مرفوعا ، « وأراني الله عند الكعبة في المنام وإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من أدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعا يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا ؟ قالوا هو المسيح ابن مريم ثم رأيت وراءه ، رجلا جعدا قططا أعور العين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن واضعا يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا قالوا المسيح الدجال » تابعه عبيد الله عن نافع ثم رواه البخاري عن أحمد بن محمد المكي عن إبراهيم بن سعد عن الزهري عن سالم عن أبيه قال لا والله ما قال النبي ﷺ لعيسى أحمر ولكن قال « بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر يتهادى بين رجلين ينطف رأسه ماء — أو يهراق رأسه ماء — فقلت من هذا ؟ فقالوا ابن مريم فذهبت ألتفت فإذا رجل أحمر جسيم جعد الرأس أعور عينه اليمنى كأن عينه عنبة طافية قلت من هذا ؟ قالوا الدجال وأقرب الناس به شبها ابن قطن » قال الزهري رجل من خزاعة هلك في الجاهلية ، هذه كلها ألفاظ البخاري رحمه الله وقد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة أن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون وفي حديث عبد الله بن عمر عند مسلم أنه يمكث سبع سنين فيحتمل والله أعلم أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله فانه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح وقد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة أنهم على صورة آدم وميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة وأما ما حكاه ابن عساكر عن بعضهم أنه رفع وله مائة وخمسون

سنة فشاذ غريب بعيد وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى ترجمة عيسى بن مريم من تاريخه عن بعض السلف أنه يدفن مع النبى ﷺ فى حجرته فالله أعلم وقوله تعالى (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) قال قتادة يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بعبودية الله عزوجل وهذا كقوله تعالى فى آخر سورة المائدة (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس — إلى قوله — العزيز الحكيم)

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ﴾

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم كما قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو قال قرأ ابن عباس : طيبات كانت أحلت لهم، وهذا التحريم قد يكون قدرياً بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا فى كتابهم وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالا لهم فحرموها على أنفسهم تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقا وتنطعا ، ويحتمل أن يكون شرعيا بمعنى أنه تعالى حرم عليهم فى التوراة أشياء كانت حلالا لهم قبل ذلك كما قال تعالى (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) وقد قدمنا الكلام على هذه الآية وأن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالا لهم من قبل أن تنزل التوراة ماعدا ماكان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الابل وألبانها ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة فى التوراة كما قال فى سورة الأنعام (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) أى إنما حرمنا عليهم ذلك لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه ولهذا قال (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) أى صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه ولهذا كانوا أعداء الرسل وقتلوا خلقا من الأنبياء وكذبوا عيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهما وقوله (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) أى أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه وأكلوا أموال الناس بالباطل قال تعالى (وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما) ثم قال تعالى (لكن الراسخون فى العلم منهم) أى الثابتون فى الدين لهم قدم راسخة فى العلم النافع. وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة آل عمران (والمؤمنون) عطف على الراسخين وخبره (يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) قال ابن عباس أنزلت فى عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعيه[1] وأسد بن سعيه وأسد بن عبيد الذين دخلوا فى الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ وقوله (والمقيمين الصلاة) هكذا هو فى جميع مصاحف الأئمة وكذا هو فى مصحف أبى بن كعب وذكر ابن جرير أنها فى مصحف ابن مسعود . والمقيمون الصلاة ، قال والصحيح قراءة الجميع رد على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم هو منصوب على المدح كما جاء فى قوله (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) قال وهذا سائغ فى كلام العرب كما قال الشاعر :

لا يبعدن قومى الذين همو * أسد العداة وآفة الجزر * النازلين بكل معترك * والطيبون معاقد الأزر

وقال آخرون هو مخفوض عطفا على قوله (بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) يعنى وبالمقيمين الصلاة وكأنه يقول وبإقامة الصلاة أى يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم أو أن المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة وهذا اختيار ابن جرير يعنى

(١) فى نسخة الأميرية: تحريف فى هذه الأسماء واعتمد فى تصحيحها على مافى الاصابة وغيرها، وسعيه بفتح السين المهملة وسكون الياء التحتانية.

يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالملائكة وفى هذا نظر والله أعلم . وقوله (والمؤتون الزكاة) يحتمل أن يكون المرادزكاة الأموال ويحتمل زكاةالنفوس ويحتمل الأمرين والله أعلم (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) أى يصدقون بأنه لاإله إلا الله ويؤمنون بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها . وقوله (أولئك) هوالخبر عماتقدم (سنؤتيهم أجراً عظيما) يعنى الجنة

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا * رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

قال محمدبن إسحق عن محمدبن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال سكن وعدى بن زيد يامحمد مانعلم أن الله أنزل على بشر من شىء بعدموسى فأنزل الله فى ذلك من قولهما (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الى آخر الآيات وقال ابن جرير حدثنا الحارث حدثنا عبدالعزيز حدثنا أبومعشر عن محمد بن كعب القرظى قال أنزل الله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء) إلى قوله (وقولهم على مريم بهتاناً عظيما) قال فلما تلاها عليهم يعنى على اليهود وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة جحدوا كل ما أنزل الله وقالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء ، ولا موسى ولاعيسى ولا على نبى من شىء قال فحل حبوته وقال ولاعلى أحد فأنزل الله عزوجل (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) وفى هذا الذى قاله محمد بن كعب القرظى نظر فان هذه الآية التى فى سورة الأنعام مكية وهذه الآية التى فى سورة النساء مدنية وهى رد عليهم لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء قال الله تعالى (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) ثم ذكر فضائحهم ومعايبهم وما كانوا عليه وماهم عليه الآن من الكذب والافتراء ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الى قوله (وآتينا داود زبوراً) والزبور اسم الكتاب الذى أوحاه الله الى داود عليه السلام وسنذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام عند قصصهم من سورة الأنبياء إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان وقوله (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) أى من قبل هذه الآية يعنى فى السور المكية وغيرها وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم فى القرآن وهم آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهرون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى وكذا ذوالكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم وقوله (ورسلا لم نقصصهم عليك) أى خلقا آخرين لم يذكروا فى القرآن وقد اختلف فى عدة الأنبياء والمرسلين والمشهور فى ذلك حديث أبى ذر الطويل وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله فى تفسيره حيث قال حدثنا ابراهيم بن محمد حدثنا جعفر بن محمد بن الحسن والحسين بن عبد الله بن يزيد قالا حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى حدثنى أبى عن جدى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر قال قلت يارسول الله كم الأنبياء ؟ قال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » قلت يارسول الله كم الرسل منهم قال « ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير » قلت يارسول الله من كان أولهم قال « آدم » قلت يارسول الله نبى مرسل قال « نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا » ثم قال « يا أباذر أربعة سريانيون آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أباذر ، وأول نبى من بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى ،

وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك » وقد روى هـذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستى فى كتابه الأنواع والتقاسيم وقد وسمه بالصحة وخالفه أبوالفرج بن الجوزى فذكر هـذا الحديث فى كتابه الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام هـذا ولا شك أنه قد تـكلم فيه غـير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هـذا الحديث والله أعلم وقد روى هذا الحديث من وجه آخر عن صحابى آخر فقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا أبوالمغيرة حدثنا معان بن رفاعة عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة قال قلت يانبى الله كم الأنبياء ؟ قال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جما غفيرا » معان بن رفاعة السلامى ضعيف وعلى بن يزيد ضعيف والقاسم أبوعبد الرحمن ضعيف أيضا وقال الحافظ أبويعلى الموصلى حدثنا أحمد بن إسحق أبو عبدالله الجوهرى البصرى حدثنا على بن إبراهيم حدثنا موسى بن عبيدة الربذى عن يزيد الرقاشى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بعث الله ثمانية آلاف نبى أربعة آلاف إلى بنى إسرائيل وأربعة آلاف إلى سائر الناس » وهذا أيضا إسناد ضعيف فيه الربذى ضعيف وشيخه الرقاشى أضعف منه والله أعلم . وقال أبو يعلى حدثنا أبو الربيع حدثنا محمد بن ثابت العبدى حدثنا معبد بن خالد الأنصارى عن يزيد الرقاشى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان فيمن خلا من إخوانى من الأنبياء ثمانية آلاف نبى ثم كان عيسى بن مريم ثم كنت أنا » وقد رويناه عن أنس من وجـه آخر فأخبرنا الحافظ أبوعبدالله الذهبى أخبرنا أبوالفضل بن عساكر أنبأنا الإمام أبوبكر بن القاسم بن أبى سعيد الصفار أخبرتنا عمة أبى عائشة بنت أحمد بن منصور بن الصفار أخبرنا الشريف أبوالسنانك هبةالله بن أبى الصهباء محمد بن حيدر القرشى حدثنا الإمام الأستاذ أبوإسحق الأسفراينى قال أخبرنا الإمام أبوبكر أحمد بن إبراهيم الاسماعيلى حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسلم بن خالد حدثنا زياد بن سعد عن محمد بن المنـكدر عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت على أثر ثمـانية آلاف نبى منهم أربعة آلاف نبى من بنى إسرائيل » وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده لا بأس به رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق هذا فانى لا أعرفه بعدالة ولا جرح والله أعلم . وحديث أبى ذر الغفارى الطويل فى عدد الأنبياء عليهم السلام قال محمد بن الحسين الآجرى حدثنا أبوبكر جعفر بن محمد بن الغريانى إملاء فى شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى حدثنا أبى عن جـده عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر قال دخلت المسجد فاذا رسول الله ﷺ جالس وحده فجلست اليه فقلت يارسول الله إنك أمرتنى بالصلاة قال « الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل » قال قلت يارسول الله فأى الأعمال أفضل ؟ قال « إيمان بالله وجهاد فى سبيله » قلت يارسول الله فأى المؤمنين أفضل ؟ قال « أحسنهم خلقا » قلت يارسول الله فأى المسلمين أسلم ؟ قال « من سلم الناس من لسانه ويده » قلت يارسول الله فأى الهجرة أفضـل ؟ قال « من هجر السيئات » قلت يارسول الله أى الصلاة أفضل ؟ قال « طول القنوت » فقلت يارسول الله فأى الصيام أفضل قال: « فرض مجزئ وعند الله أضعاف كثيرة » قلت يارسول الله فأى الجهاد أفضل قال « من عقر جواده وأهريق دمه » قلت يارسول الله فأى الرقاب أفضل ؟ قال « أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها » قلت يارسول الله فأى الصدقة أفضل ؟ قال « جهد من مقل وسر إلى فقير » قلت يارسول الله فأى آية ما أنزل عليك أعظم ؟ قال « آية الـكرسى » ثم قال يا أباذر « وما السموات السبع مع الـكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الـكرسى كفضل الفلاة على الحلقة » قال : قلت يارسول الله كم الأنبياء ؟ قال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » قال قلت يارسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال « ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب » قلت فمن كان أولهم ؟ قال « آدم » قلت أنبى مرسل : قال « نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبيلا » ثم قال « يا أباذر أربعة سريانيون آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بقلم ونوح وأربعة من العرب هود وشعيب وصالح ونبيك يا أباذر ، وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأول الرسل آدم وآخرهم محمد » قال قلت يارسول الله كم كتاب أنزله الله : قال « مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » قال قلت يارسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال « كانت كلها ياأيها الملك المسلط المبتلى المغرور

إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر وكان فيها أمثال وعلى العاقل أن يكون له ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر في صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل أن لا يكون ضاعنا إلا لثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » قال قلت يا رسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال « كانت عبرا كلها ، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل » قال قلت يا رسول الله فهل في أيدينا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى وما أنزل الله عليك ؟ قال « نعم اقرأ يا أبا ذر (قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى)» قال: قلت يا رسول الله فأوصني قال «أوصيك بتقوى الله فإنه رأس أمرك» ، قال : قلت يا رسول الله زدني قال « عليك بتلاوة القرآن وذكر الله فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض» قال : قلت يا رسول الله زدني قال « إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه » قلت يا رسول الله زدني قال « عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي» قلت زدني قال « عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك » قلت زدني قال «انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك فإنه أجدر لك أن لا تزدري نعمة الله عليك » قلت زدني قال « أحبب المساكين وجالسهم فإنه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عليك » قلت زدني قال « صل قرابتك وإن قطعوك ، قلت زدني قال « قل الحق وإن كان مرا » قلت زدني قال « لا تخف في الله لومة لائم» قلت زدني قال « يردك عن الناس ما تعرف من نفسك ولا تجد عليهم فيما تحب وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك أو تجد عليهم فيما تحب » ثم ضرب بيده صدري فقال «يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق » وروى الإمام أحمد عن أبي المغيرة عن معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم فذكر أمر الصلاة والصيام والصدقة وفضل آية الكرسي ولا حول ولا قوة إلا بالله وأفضل الشهداء وأفضل الرقاب ونبوة آدم وأنه مكلم وعدد الأنبياء والمرسلين كنحو ما تقدم . وقال عبدالله بن الإمام أحمد وجدت في كتاب أبي بخطه حدثني عبد المتعالي بن عبد الوهاب حدثنا يحيى بن سعيد الأموي حدثنا مجالد عن أبي الوداك قال : قال أبو سعيد هل تقول الخوارج بالدجال قال : قلت لا ، فقال : قال رسول الله ﷺ « إني خاتم ألف نبي أو أكثر وما بعث نبي يتبع إلا وقد حذر أمته منه وإني قد بين لي فيه ما لم يبين وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص وعينه اليسرى كأنها كوكب دري ، معه من كل لسان ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن » وقد رويناه في الجزء الذي فيه رواية أبي يعلى الموصلي عن يحيى بن معين حدثنا مروان بن معاوية حدثنا مجالد عن أبي الوداك عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ « إني أختم ألف ألف نبي أو أكثر ما بعث الله من نبي إلى قومه إلا حذرهم الدجال » وذكر تمام الحديث هذا لفظه بزيادة ألف وقد تكون مقحمة والله أعلم . وسياق رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة ورجال إسناد هذا الحديث لا بأس بهم وقد روى هذا الحديث من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن علي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « إني لخاتم ألف نبي أو أكثر وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال وإني قد بين لي ما لم يبين لأحد منهم وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور قوله (وكلم الله موسى تكليما) وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ولهذا يقال له الكليم وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي حدثنا مسيح بن حاتم حدثنا عبد الجبار ابن عبد الله قال جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال سمعت رجلا يقرأ (وكلم الله موسى[1] تكليما) فقال أبو بكر ما قرأ هذا إلا كافر قرأت على الأعمش وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ

(١) قرأ هذا الرجل لفظ الجلالة بالنصب وموسى بالرفع .

أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب وقرأ على بن أبي طالب على رسول الله ﷺ (وكلم الله موسى تكليما) وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ (وكلم الله موسى تكليما) فقال له يا ابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) يعنى أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا أحمد بن الحسين بن بهرام حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا هانىء بن يحيى عن الحسن بن أبي جعفر عن قتادة عن يحيى ابن وثاب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما كلم الله موسى كان يبصر دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء » وهذا حديث غريب وإسناده لا يصح وإذا صح موقوفا كان جيداً وقد روى الحاكم في مستدركه وابن مردويه من حديث حميد بن قيس الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « كان على موسى يوم كلمه ربه جبة صوف وكساء صوف وسراويل صوف ونعلان من جلد حمار غير ذكي » وقال ابن مردويه بإسناده عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن الله ناجى موسى بمائة ألف كلمة وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام وصايا كلها فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم مما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل ، وهذا أيضاً إسناد ضعيف فان جويبر أضعف والضحاك لم يدرك ابن عباس رضى الله عنهما . فأما الأثر الذى رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما من طريق الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أنه قال : لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذى كلمه يوم ناداه فقال له موسى يارب هذا كلامك الذى كلمتنى به قال: لا ياموسى إنما كلمتك بقوة عشر آلاف لسان ولى قوة الألسنة كلها وأنا أقوى من ذلك ، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا ياموسى صف لنا كلام الرحمن قال لا أستطيعه قالوا فشبه لنا قال ألم تسمعوا إلى صوت الصواعق فانه قريب منه وليس به وهذا إسناد ضعيف فان الفضل الرقاشي هذا ضعيف بمرة . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن جزء بن جابر الخثعمي عن كعب قال إن الله لما كلم موسى كلمه بالألسنة كلها سوى[1] كلامه فقال له موسى يارب هذا كلامك قال لا ولو كلمتك بكلامى لم تستقم له قال يارب فهل من خلقك شيء يشبه كلامك قال لا وأشد خلق شبها بكلامى أشد ما تسمعون من الصواعق فهذا موقوف على كعب الأحبار وهو يحكى عن الكتب المتقدمة المشتملة على أخبار بني إسرائيل وفيها الغث والسمين وقوله (رسلا مبشرين ومنذرين) أى يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب وقوله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما) أى أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى (ولولا أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) وكذا قوله (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) الآية . وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين » وفي لفظ آخر « من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه »

﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ

(١) في رواية ابن جرير : بالألسنة كلها قبل كلامه يعني كلام موسى .

بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَئَامِنُوا خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

لما تضمن قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) الى آخر السياق إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب قال الله تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك) أى وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك فالله يشهد لك بأنك رسوله الذى أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ولهذا قال (أنزله بعلمه) أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لا يعلمها نبى مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به، كما قال تعالى (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) وقال (ولا يحيطون به علما) وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا الحسن ابن سهيل الجعفرى وعبدالله بن المبارك قالا حدثنا عمران بن عيينة حدثنا عطاء بن السائب قال أقرأنى أبو عبد الرحمن السلمى القرآن وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال قد أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل ثم يقرأ قوله (أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً) قوله (والملائكة يشهدون) أى بصدق ماجاءك وأوحى اليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى بذلك (وكفى بالله شهيدا) قال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم «إنى لأعلم والله إنكم لتعلمون أنى رسول الله» فقالوا ما نعلم ذلك. فأنزل الله عز وجل (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه) الآية

وقوله (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) أى كفروا فى أنفسهم فلم يتبعوا الحق وسعوا فى صد الناس عن اتباعه والاقتداء به قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه وبعدوا منه بعدا عظيما شاسعا ثم أخبر تعالى عن حكمه فى الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه بأنه لا يغفرلهم (ولا يهديهم طريقا) أى سبيلا الى الخير (إلا طريق جهنم) وهذا استثناء منقطع (خالدين فيها أبدا) الآية ثم قال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم) أى قد جاءكم محمد صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافى من الله عز وجل فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرا لكم ثم قال (وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض) أى فهو غنى عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم كما قال تعالى (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) وقال ههنا (وكان الله عليما) أى بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه (حكيما) أى فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره

﴿ يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَئَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَٰنَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والاطراء وهذا كثير فى النصارى فانهم تجاوزوا الحد فى عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا فى أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ماقالوه سواء كان حقاً أو باطلا، أو ضلالا أو رشادا، أو صحيحاً أو كذبا، ولهذا قال الله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) الآية. وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم قال زعم الزهرى عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن عمر أن

رسول الله ﷺ قال « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ثم رواه هو وعلى بن المدينى عن سفيان بن عيينة عن الزهرى كذلك ، ولفظه « إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وقال على بن المدينى هذا حديث صحيح مسند ، وهكذا رواه البخارى عن الحميدى عن سفيان بن عيينة عن الزهرى به ولفظه « فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك أن رجلا قال يا محمد ياسيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله ﷺ « أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » تفرد به من هذا الوجه . وقوله تعالى (ولا تقولوا على الله إلا الحق) أى لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدا تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا وتنزه وتقدس وتوحد فى سؤدده وكبريائه وعظمته فلا إله إلا هو ولا رب سواه ولهذا قال (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) أى إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه ، قال له كن فكان ، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم أى خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل ، فكان عيسى بإذنه عز وجل ، وكانت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشىء عن الكلمة التى قال له بها كن فكان ، والروح التى أرسل بها جبريل . قال الله تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل : وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) وقال تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال تعالى (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) وقال تعالى (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها) إلى آخر السورة ، وقال تعالى إخبارا عن المسيح (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) الآية وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) هو كقوله (كن فيكون) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطى قال سمعت شاذ بن يحيى يقول فى قول الله (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) قال ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير فى قوله (ألقاها إلى مريم) أى أعلمها بها كما زعمه فى قوله (إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه) أى يعلمك بكلمة منه ويجعل ذلك كقوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) بل الصحيح أنها الكلمة التى جاء بها جبريل الى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام . وقال البخارى : حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد حدثنا الأوزاعى حدثنى عمير بن هانىء حدثنا جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » وقال الوليد فحدثنى عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير بن هانىء عن جنادة زاد « من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » وكذا رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن ابن جابر به ، ومن وجه آخر عن الأوزاعى به فقوله فى الآية والحديث « وروح منه » كقوله (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) أى من خلقه ومن عنده وليست من للتبعيض كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة بل هى لابتداء الغاية كما فى الآيه الأخرى ، وقد قال مجاهد فى قوله (وروح منه) أى ورسول منه وقال غيره ومحبة منه ، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة وأضيفت الروح الى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت الى الله فى قوله (هذه ناقة الله) وفى قوله (وطهر بيتى للطائفين) وكما روى فى الحديث الصحيح « فأدخل على ربى فى داره » أضافها اليه إضافة تشريف وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد وقوله (فآمنوا بالله ورسوله) أى فصدقوا بأن الله واحد أحد لا ولد له ولا صاحبة ، واعلموا وتيقنوا بأن عيسىَ عبد الله ورسوله ولهذا قال تعالى (ولا تقولوا ثلاثة) أى لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين ، تعالى الله عن

ذلك علوا كبيرا وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد) وكما قال في آخر السورة المذكورة (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني)الآية وقال في أولها (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) الآية والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد بل أقوالهم وضلالهم منتشر فمنهم من يعتقده إلها ، ومنهم من يعتقده شريكا ومنهم من يعتقده ولدا وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مؤتلفة . ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولا . ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك[1] الأسكندرية في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة وأنهم اختلفوا عليه اختلافا لا ينضبط ولا ينحصر فكانوا أزيد من ألفين أسقفا[2] فكانوا أحزابا كثيرة كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة ومائة على مقالة وسبعون على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص . فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفر وقد توافقوا على مقالة فأخذها الملك ونصرها وأيدها وكان فيلسوفا داهية ومحق ما عداها من الأقوال وانتظم دست أولئك الثلثمائة والثمانية عشر وبنيت لهم الكنائس ووضعوا لهم كتبا وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكانية . ثم إنهم اجتمعوا مجمعا ثانيا فحدث فيهم اليعقوبية ثم مجمعا ثالثا فحدث فيهم النسطورية وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا أوما اتحدا أو امتزجا أو حل فيه على ثلاث مقالات وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى ونحن نكفر الثلاثة ولهذا قال تعالى (انتهوا خيرا لكم) أي يكن خيرا لكم (إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد) أي تعالى وتقدس عن ذلك علوا كبيرا (له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) أي الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه وهو وكيل على كل شيء فكيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال في الآية الأخرى (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد) الآية وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا — إلى قوله — فردا)

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قوله (لن يستنكف) لن يستكبر . وقال قتادة : لن يحتشم (المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون) وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال (ولا الملائكة المقربون) وليس له في ذلك دلالة لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح لأن الاستنكاف هو الامتناع والملائكة أقدر على ذلك من المسيح فلهذا قال (ولا الملائكة المقربون) ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل . وقيل إنما ذكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه كما قال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون) الآيات ولهذا قال (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف . ولهذا قال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه ، وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن إسماعيل

(١) كذا في النسختين المكية والأزهرية ، وفي الأميرية : نزيل الاسكندرية . وهي تحريف (٢) كذا في جميع النسخ .

ابن عبد الله الكندى عن الأعمش عن سفيان عن عبد الله مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ (فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) أجورهم قال «أدخلهم الجنة» (ويزيدهم من فضله) قال« الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف فى دنياهم » وهذا إسناد لا يثبت. وإذا روى عن ابن مسعود موقوفا فهو جيد (وأما الذين استنكفوا واستكبروا) أى امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك (فيعذبهم عذابا إليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) كقوله (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين)أى صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

يقول تعالى مخاطبا جميع الناس ومخبرا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبه ولهذا قال(وأنزلنا إليكم نورا مبينا) أى ضياء واضحا على الحق ، قال ابن جريج وغيره وهو القرآن (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به) أى جمعوا بين مقامى العبادة والتوكل على الله فى جميع أمورهم وقال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن . رواه ابن جرير (فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل) أى يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ورفعا فى درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم (ويهديهم إليه صراطا مستقيما) أى طريقا واضحا قصدا قواما لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمنين فى الدنيا والآخرة فهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة فى جميع الاعتقادات والعمليات ، وفى الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى روضات الجنات . وفى حديث الحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « القرآن صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين » وقد تقدم الحديث بتمامه فى أول التفسير ولله الحمد المنة .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

قال البخارى : حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن أبى إسحق قال : سمعت البراء قال آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية نزلت يستفتونك

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابر بن عبد الله قال دخل علىّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل قال فتوضأ ثم صب على أو قال صبوا عليه فعقلت فقلت إنه لا يرثنى إلا كلالة فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة ، ورواه الجماعة من طريق سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر به وفى بعض الألفاظ فنزلت آية الميراث (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) الآية . وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان وقال أبو الزبير قال يعنى جابرا نزلت فىّ (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) وكأن معنى الكلام والله أعلم يستفتونك عن الكلالة (قل الله يفتيكم) فيها فدل المذكور على المتروك . وقد تقدم الكلام على الكلالة واشتقاقها وأنها مأخوذة من الإكليل الذى يحيط بالرأس من جوانبه ولهذا فسرها أكثر العلماء . بمن يموت وليس له ولد ولا والد[1] ومن الناس من يقول الكلالة من لا ولد له كما دلت عليه هذه الآية (إن امرؤ هلك ليس له ولد) وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد

(١) كذا فى النسخة المكية المقابلة على نسخة المؤلف وفى الأميرية ونسخة الأزهر ولا ولد ولد وهى غلط قطعا .

إلينا فيهن عهدا ننتهى إليه ـ الجد والكلالة وباب من أبواب الربا[1] . وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة قال : قال عمر بن الخطاب ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن باصبعه في صدرى وقال « يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء » هكذا رواه مختصرا وأخرجه مسلم مطولا أكثر من هذا . (طريق أخرى) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا مالك يعنى ابن مغول يقول سمعت الفضل بن عمرو عن إبراهيم عن عمر قال سألت رسول الله ﷺ عن الكلالة فقال « يكفيك آية الصيف » فقال لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلى من أن يكون لى حمر النعم وهذا إسناد جيد إلا أن فيه انقطاعا بين إبراهيم وبين عمر فانه لم يدركه . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا أبو بكر عن أبي إسحق عن البراء بن عازب قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الكلالة فقال « يكفيك آية الصيف » وهذا إسناد جيد رواه أبو داود والترمذى من حديث أبي بكر بن عياش به ، وكأن المراد بآية الصيف أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم، ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها فإن فيها كفاية نسى أن يسأل النبي ﷺ عن معناها ولهذا قال فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلى من أن يكون لى حمر النعم . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا جرير حدثنا الشيباني عن عمرو بن مرة عن سعيد بن المسيب قال سأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ عن الكلالة فقال « أليس قد بين الله ذلك » فنزلت (يستفتونك) الآية قال قتادة وذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والاخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الاخوة والأخوات من الأب والأم ، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرت الرحم من العصبة رواه ابن جرير ﴿ ذكر الكلام على معناها ﴾

وبالله المستعان وعليه التكلان . قوله تعالى (إن امرؤ هلك) أى مات قال الله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله عزوجل كما قال (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذوالجلال والإكرام) وقوله (ليس له ولد) تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد بل يكفى في وجود الكلالة انتفاء الولد وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه ولكن الذى يرجع اليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه الذى لا ولد له ولا والد ، ويدل على ذلك قوله (وله أخت فلها نصف ماترك) ولو كان معها أب لم ترث شيئا لأنه يحجبها بالاجماع فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية . وقال الإمام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا أبو بكر بن عبدالله عن مكحول وعطية وحمزة وراشد عن زيد بن ثابت أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم فأعطى الزوج النصف والأخت النصف ، فكلم في ذلك فقال حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك . تفرد به أحمد من هذا الوجه وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتا وأختا إنه لاشيء للأخت لقوله (إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك) قال فإذا ترك بنتا فقد ترك ولدا فلا شيء للأخت ، وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسئلة للبنت النصف بالفرض وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية وهذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه البخارى من طريق سليمان عن إبراهيم عن الأسود قال قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت ثم قال سليمان قضى فينا ولم يذكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي صحيح البخارى أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال سئل أبو موسى الأشعرى عن ابنة وابنة ابن وأخت فقال للابنة النصف وللأخت النصف وأت ابن مسعود فسيتابعنى ، فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد

(١) يعنى مانزل آخر سورة البقرة من آيات الربا وقد نزلت بعد آية آل عمران (ولا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) فهل الربا فيهما واحد على القاعدة أم هو في الأخيرة أعم ؟ استشكل عمر رضى الله عنه والجمهور على الثانى واستشكاله في إرث الجد والكلالة أشهر وأظهر .

ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ النصف للبنت ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت ، فأتينا أباموسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال لاتسألوني مادام هذا الحبر فيكم . وقوله (وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة وليس لها ولد أي ولا والد لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً فان فرض أن معه من له فرض صرف اليه فرضه كزوج أو أخ من أم وصرف الباقي إلى الأخ لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر » وقوله (فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) أي فان كان لمن يموت كلالة أختان فرض لهما الثلثان وكذا مازاد على الأختين في حكمهما ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك) وقوله (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) هذا حكم العصبات من البنين وبني البنين والاخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطى الذكر مثل حظ الأنثيين وقوله (يبين الله لكم) أي يفرض لكم فرائضه ، ويحد لكم حدوده ، ويوضح لكم شرائعه وقوله (أن تضلوا) أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان (والله بكل شيء عليم) أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها ومافيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى . وقد قال أبو جعفر بن جرير حدثني يعقوب حدثني ابن علية أنبأنا ابن عون عن محمد بن سيرين قال كانوا في مسير ورأس راحلة حذيفة عند ردف راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأس راحلة عمر عند ردف راحلة حذيفة قال ونزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) فلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة فلقاها حذيفة عمر فلما كان بعد ذلك سأل عمر عنها حذيفة فقال : والله انك لأحمق ان كنت ظننت أنه لقانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيتكها كما لقانيها رسول الله ﷺ والله لأزيدك عليها شيئاً أبدا . قال فكان عمر يقول اللهم ان كنت بينتها له فانها لم تبين لي . كذا رواه ابن جرير ورواه أيضاً عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين كذلك بنحوه وهو منقطع بين ابن سيرين وحذيفة وقد قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده حدثنا يوسف بن حماد المعني ومحمد بن مرزوق قالا حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى حدثنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة عن أبيه قال نزلت آية الكلالة على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسير له فوقف النبي صلى الله عليه وسلم وإذا هو بحذيفة واذا رأس ناقة حذيفة عند ردف راحلة النبي ﷺ فلقاها إياه فنظر حذيفة فاذا عمر رضي الله عنه فلقاها إياه فلما كان في خلافة عمر نظر عمر في الكلالة فدعا حذيفة فسأله عنها فقال حذيفة لقد لقانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيتكها كما لقاني رسول الله صلى الله عليه وسلم والله اني لصادق ووالله لا أزيدك على ذلك شيئاً أبدا . ثم قال البزار وهذا الحديث لانعلم أحدا رواه إلا حذيفة ولا نعلم له طريقاً عن حذيفة إلا هذا الطريق . ولا رواه عن هشام إلا عبد الأعلى وكذا رواه ابن مردويه من حديث عبد الأعلى . وقال عثمان ابن أبي شيبة حدثنا جرير عن الشيباني عن عمرو بن مرة عن سعيد بن المسيب أن عمر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تورث الكلالة ؟ قال فأنزل الله (يستفتونك) الآية قال فكأن عمر لم يفهم فقال لحفصة إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس فسليه عنها فرأت منه طيب نفس فسألته عنها فقال « أبوك ذكر لك هذا ما أرى أباك يعلمها » قال فكان عمر يقول ما أراني أعلمها . وقد قال رسول الله ﷺ ما قال . رواه ابن مردويه ثم رواه من طريق ابن عيينة وعن عمر بن طاوس أن عمر أمر حفصة أن تسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكلالة فأملاها عليها في كتف فقال « من أمرك بهذا أعمر ؟ ما أراه يقيمها وماتكفيه آية الصيف » وآية الصيف التي في النساء (وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة) فلما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت الآية التي هي خاتمة النساء فألقى عمر الكتف كذا قال في هذا الحديث وهو مرسل . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثام عن الأعمش عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال أخذ عمر كتفا وجمع أصحاب رسول الله ﷺ ثم قال لأقضين في الكلالة قضاء تحدث به النساء في خدورهن فخرجت حينئذ حية من البيت فتفرقوا فقال لو أراد الله عز وجل أن يتم هذا الأمر لأتمه . وهذا إسناد صحيح الحاكم وقال

أبو عبد الله النيسابورى حدثنا على بن محمد بن عقبة الشيبانى بالكوفة حدثنا الهيثم بن خالد حدثنا أبو نعيم حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار سمعت محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة يحدث عن عمر بن الخطاب قال لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحب إلىّ من حمر النعم : من الخليفة بعده ؟ وعن قوم قالوا نقر بالزكاة فى أموالنا ولا نؤديها إليك أيحل قتالهم ؟ وعن الكلالة. ثم قال صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ثم روى هذا الإسناد عن سفيان بن عيينة عن عمر بن مرة عن عمر قال : ثلاث لأن يكون النبى ﷺ بينهن لنا أحب إلى من الدنيا وما فيها الخلافة والكلالة والربا ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وبهذا الإسناد إلى سفيان بن عيينة قال سمعت سليمان الأحول يحدث عن طاوس قال سمعت ابن عباس قال كنت آخر الناس عهدا بعمر فسمعته يقول القول ماقلت ، قلت وماقلت ؟ قال قلت الكلالة من لا ولد له . ثم قال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . وهكذا رواه ابن مردويه من طريق زمعة بن صالح عن عمرو بن دينار وسليمان الأحول عن طاوس عن ابن عباس قال كنت آخر الناس عهدا بعمر بن الخطاب قال اختلفت أنا وأبو بكر فى الكلالة والقول ما قلت، قال وذكر أن عمر شرك بين الاخوة للأم والأب وبين الاخوة للأم فى الثلث إذا اجتمعوا وخالفه أبو بكر رضى الله عنهما. وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا محمد بن حميد العمرى عن معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب أن عمر كتب فى الجد والكلالة كتابا فمكث يستخير الله يقول اللهم إن علمت فيه خيرا فأمضه حتى إذا طعن دعا بكتاب فمحى ولم يدر أحد ما كتب فيه فقال إنى كنت كتبت كتابا فى الجد والكلالة وكنت أستخير الله فيه فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه . قال ابن جرير وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال إنى لأستحى أن أخالف فيه أبا بكر وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول هو ماعدا الولد والوالد . وهذا الذى قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة فى قديم الزمان وحديثه وهو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وقول علماء الأمصار قاطبة وهو الذى يدل عليه القرءان كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه فى قوله (يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم) والله أعلم

تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى : وأوله

سورة المائدة